ول وايريل ديورانت

قصة الحضارة

أوروبا الوثنية

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

أوروبا الوسطى

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد التاسع

(٣٧)

تونس

DAR AL JIL - EDITEUR DISTRIBUTEUR
بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

فهـــرس

الكتاب الثالث من المجلد التاسع

الفصل الثاني عشر

ألمــانية باخ

١٧١٥ ـ ٥٦

صفحة

الفصل الثالث عشر

فردريك الأكبر وماريا تريزا

الفصل الرابع عشر

سويسره وفولتير ١٧١٥ - ٥٨

الكتاب الرابع

تقدم العلم ١٧٥١ - ٧٩

الفصل الخامس عشر

الأدباء

الفصل السادس عشر

التنقدم العلمى ١٧١٥ - ٨٩

صفحة

صفحة

الفصل السابع عشر

الطب ١٧١٥ ـ ٨٩

الكتاب الثالث

أوربا الوسطى

١٧١٣ – ٥٦

الفصل الثانى عشر

ألمــانية باخ

١٧١٥ – ٥٦

---

١ – المشهد الألمانى

لم يكن منتظراً من فولتير وهو يخترق ألمانيا أن يستطيع ترويض ذهنه الباريسى الهوائى على تقدير ما للألمان من أجسام وملامح وآداب وحديث، وعلى تذوق الأدب والموسيقى والفنون القوطية. وأغلب الظن أنه لم يكن قد سمع قط بيوهان سبستيان باخ، الذى مات فى ١٨ يوليو ١٧٥٠، بعد وصول فولتير إلى برلين بثمانية عشر يوما. ولعله لم يكن قد رأى تلك العبارة التى وصف بها هيوم ألمانيا فى ١٧٤٨، وهى أنها « بلد بديع، زاخر بقوم أمناء مجدين، ولو قيضت له الوحدة لكان أعظم قوة .... فى الأرض » (1).

وكان من حسن طالع فرنسا وانجلترا أن هذا الشعب القوى النشيط، البالغ عدده آنذاك زهاء عشرين مليونا من الأنفس، كان لا يزال منقسماً إلى نيف وثلاثمائة دويلة مستقلة من الناحية العملية، لكل منها أميرها المتمتع بالسيادة، وبلاطها، وسياستها، وجيشها، وعملتها، ومذهبها الدينى، وزيها الخاص، وكلها فى مختلف مراحل التطور الاقتصادى والثقافى، لا تجمعها غير رابطة اللغة، والموسيقى، والفن. وثلاث وستون من إماراتها – بما فيها كولونيا، وهلدسهايم، ومينز، وترير، وشبيير، وفورتسبورج – يحكمها رؤساء أساقفة أو أساقفة، أو رؤساء ديورة. وكانت إحدى وخمسون مدينة – أهمها هامبورج، وبريمن،

ومجدبورج ، وأوجربورج ، وفورمبورج ، وأولم ، وفرانكفورت — على المين — مدنا « حرة » ، بمعنى أنها ، كالأمراء ، تخضع لرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة خضوعاً طليقا من القيود الثقيلة .

وكان أكثر الأراضي الألمانية ، باستثناء سكسونيا وبافاريا ، يزرعه الأقنان أو رقيق الأرض المرتبطون بها ، ويخضع لكل الفروض الإقطاعية القديمة تقريبا . وكان هناك ٤٫٥٠٠ قن من بين ٨٫٠٠٠ فلاح فى أسقفية هلدسهايم حتى عام ١٧٥٠ (٢) وكانت الفوارق الطبقية حادة ، ولكن طول العهد بها ثبتها تثبيتا جعل طبقة العامه تتقبلها فى غير تذمر شديد ، وقد خفف منها بقاء أطول واحترام أعظم لالتزامات السادة الإقطاعيين بحماية الفلاح فى الكوارث . ورعايته فى المرض والشيخوخة ، والعناية بالأرامل واليتامى ، وحفظ النظام والسلام (٣) ، واشتهر الإقطاعيون « اليونكر » فى بروسيا بادارتهم أملاكهم بكفاية ، وبتطبيقهم السريع الطرائق الزراعية المحسنة .

وأخذت الصناعة والتجارة تنتعشان بعد أن أنفقت ألمانيا سبعة وستين عاما فى الأفاقة من حرب الثلاثين سنة . وكانت سوق ليبزج أحفل أسواق أوربا بروادها ، ففاقت سوق فرانكفووت حتى فى بيع الكتب . وبلغت فرانكفورت وهمبورج فى هذا القرن فى نشاطهما التجارى شأواً لم تبلغه سوى باريس ، ومرسايا . ولندن ، وجنوه ، والبندقية . والآستانة . ولم يستعمل أمراء التجارة الهمبورجيون ثراءهم فى الترف والمظاهر فحسب بل فى الرعاية المتحمسة للأوبرا ، والشعر والدراما ، ففى همبورج حقق هاندل انتصاراته الأولى ، ووجد كلوبستوك المأوى . وكتب لسنج مقالاته عن المسرح الهمبورجى . وكانت المدن الألمانية كشأنها اليوم ، خير المدن إدارة فى أوربا (٤) .

وبينما أفلح الملك فى فرنسا وانجلترا فى إخضاع النبلاء للحكومة المركزية ، نرى أن الناخبين أو الأمراء ، أو الأدواق ، أو الكونتات ، أو الأساقفة ، أو رؤساء الديورة والذين حكموا الدويلات الألمانية ،

سلبوا الإمبراطور كل سلطان حقيقي على أملاكهم ، وأتو بصغار النبلاء أتباعا في بلاط الأمير . وكانت هذه البلاطات (Residenzen) ، فضلا عن المدن الحرة ، مراكز للحياة الثقافية كما كانت مراكز للحياة السياسية في ألمانيا . وانجذبت إليها ثروات ملاك الأراضي ، وأنفقت على القصور الضخمة ومظاهر البذخ والثياب الفاخرة التي كانت في كثير الأحايين نصف الرجل ومعظم سلطانه . وهكذا نجد إيبرهارت لودفج ، دوق فورتمبرج ، يكل إلى ى . ف . نتي ودوناتو فريتسوني أن يشيدا له (١٧٠٤ — ٣٣) في لودفجزبورج (قرب شتوتجارت) قصرا بديلا بلغ في فخامة تصميمه وزخرفته ، وفي كثرة ما حوى من أثاث أنيق وتحف فنية بديعة ، مبلغاً لا بد قد كلف رعاياه الكثير من المال والعرق . وفي ١٧٥١ ألحق بالقلعة الكبرى (Schloss) في هيدلبرج ، التي بدء بناؤها في القرن الثالث عشر ، راقود في كهف الخمور (وهو وعاء ضخم للتخمير) يتسع لتخمير ٤٩،٠٠٠ جالون من الجعة في المرة . وفي مانهايم انفق الدوق شارل تيودور خلال حكمه الطويل ناخبا للبالاتين (١٧٣٣ — ٩٩) ، ٣٥ مليون فلورين على المؤسسات الفنية والعلمية ، والمتاحف ، والمكتبات ، وعلى إعانة المعماريين ، والمثالين ، والمصورين والممثلين والموسيقيين . ولم تكن هانوفر بالبلد الفسيح ولا الفخم ، ولكن كان يحوي داراً متألقة للأوبرا اجتذبت إليها هاندل . وكانت ألمانيا مجنونة بالموسيقى جنون إيطاليا الأم ذاتها .

كذلك كان لميونخ دار كبرى للأوبرا مولتها ضريبة فرضت على لعب الورق . غير أن أدواق بافاريا الناخبين أشهروا عاصمتهم بشيء آخر أيضاً هو العمارة . وكان مكسمليان إيمانويل قد لجأ إلى باريس وفرساي حين اجتاح النمساويون دوقيته في حرب الوراثة الإسبانية ، فلما عاد إلى ميونخ (١٧١٤) جلب معه ولعا بالفن وطراز الركوك . وصحبه معماري فرنسي شاب يدعى فرنسوا دكوفلييه ، شيد للناخب التالي ، شارل البرت في حديقة نمفنبورج ، آية من آيات الروكوك الألماني ، هي قصر صغير يسمى اماليينبورج (١٧٣٤ — ٣٩) ، ظاهره بسيط ، وباطنه يعج

بالزخرف : فيه قاعة مرايا (شبيجلزال) ، مقببة تبهر الأنظار ، ذات زخارف من الجص بأشغال شعرية وعربية الطراز ، وحجرة صفراء (جلبس تسيمر) تحير زخارفها الجصية المذهبة العين التي تحاول تتبع تصميمها المعقد . وبهذا الطراز الطاغي نفسه بدأ يوزف افنر ، وأتم كوفلييه ، الحجرات الإمبراطورية في قصر الدوق بميونخ . وكان كوفلييه قد غادر فرنسا في العشرين من عمره قبل أن يتعلم الخضوع الكامل للذوق الفرنسي . ومن ثم عكف الفنانون الألمان ، دون أن يلقوا منه معارضة ، على تطوير الزخارف الجصية بتحرر الهواة وحماستهم ، فحققوا الكمال في الجزئيات مع الإسراف في الكليات . وقد تحطمت الحجرات الإمبراطورية في الحرب العالمية الثانية .

ولم يكن فردريك أوغسطس الأول « القوى » ، ناخب سكسونيا (حكم ١٦٩٤ — ١٧٣٣) ليرضى بان يبزه أى دوق ميونخى . ومع أنه انتقل إلى وارسو (١٦٩٧) ملكا على بولنده باسم أوغسطس الثانى ، فقد وجد الوقت ليفرض على السكسونيين من الضرائب ما يكفى لجعل درسدن « فلورنسة نهر الألب » . فتقدمت بذلك جميع المدن الألمانية في الانفاق على الفن ، كتبت الليدى مارى مونتاجيو في ١٧١٦ تقول : « إن المدينة أكثر ما رأيت من مدن في ألمانيا نظافة وأناقة ، وأكثر بيوتها حديثة البناء وقصر الناخب آية في الجمال » (٦) . وجمع أوغسطس الصور في نهم كنهمه في جمع الخليلات ، أما ابنه الناخب فردريك أوغسطس الثانى (حكم ١٧٣٣ — ٦٣) فقد أغدق المال على الخيل والصور ، و « جلب الفنون إلى ألمانيا » (٧) كما قال ونكلمان . وفي ١٧٤٣ أوفد أوغسطس الأصغر هذا لجاروتى إلى إيطاليا حاملا الدوقاتيات لشراء الصور ، ولم يلبث الناخب أن دفع ١٠٠,٠٠٠ سيكوين (٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لمجموعة الدوق فرانتشسكو الثالث أمير مودينا ، وفي ١٧٥٤ اشترى لوحة رفائيل « سستينى مادونا » (عذراء كنيسة السستين) بعشرين ألف دوقاتية ، وهو ثمن لم يسبق له نظير . وهكذا تكونت قاعة صور درسدن العظمى .

وقامت في درسدن دار جميلة للأوبرا في ١٧١٨ ، ولا بد أن فرقتها

كانت متفوقة ، لأن هاندل أغار عليها ليزود منها مشروعاته الانجليزية الجريئة فى ١٧١٩ ، وكان أوركستراها بقيادة يوهان هاسّى من خيرة الأوركسترات فى أوربا [٨] . وفى درسدن ولد الخزف الميسينى — ولكن يجب أن تنفرد لهذا قصة مستقلة . وأما فى عمارة العاصمة السكسونية فإن ألمع الأسماء كان متاوس دانيل بوبلمان ، الذى شاد لأوغسطس القوى فى ١٧١١ — ٢٢ قصر تسفنجر الشهير مركزاً لمهرجانات البلاط . وهو مجمع باروكى رائع من أعمدة وعقود ونوافذ جميلة ذات عمد وشرفات وقبة تتوج هذا كله . وقد دمرت القنابل القصر فى ١٩٤٥ ، ولكن البوابة الفخمة أعيد بناؤها وفق التصميم الأصلى . ولهذا الناخب الذى لا يتعب ولا يكل أقام المعمارى الرومانى جيتانو كيافيرى بطراز الباروك كنيسة البلاط (١٧٣٨ — ٥١) ، وهذه أيضاً دمرت إلى حد كبير ثم رممت بنجاح . إن التاريخ سباق بين الفن والحرب ، والفن يلعب فى هذا السباق دور سيفوس (ملك كورنثة الذى قضى عليه بان يدحرج حجرا ثقيلا صاعداً الجبل ، فلا يلبث الحجر أن يتدحرج إلى أسفل) .

٢ — الحياة الألمانية

كانت ألمانيا الآن تتصدر أوروبا فى ميدان التعليم الأولى . ففى ١٧١٧ جعل فردريك وليم الأول ملك بروسيا التعليم الابتدائى إلزاميا فى مملكته ، وأسس فى العشرين سنة التالية ١٧٠٠ مدرسة لتعليم الصغار وتلقينهم ما يريد . وكان يقوم بالتدريس عادة فى هذه المدارس مدرسون علمانيون وأخذ دور الدين فى التعليم يتضاءل . وتركز الاهتمام على تعويد التلاميذ الطاعة والاجتهاد ، وكان الجلد عقابا لا غنى عنه . وقد حسب معلم أنه خلال إحدى وخمسين سنة مارس فيها التعليم جلد تلاميذه ١٢٤,٠٠٠ جلدة بالسوط ، وصفعهم بيده ١٣٦,٧١٥ صفعة ، وضربهم بالعصا ٩١١,٥٢٧ ضربة ، ولكمهم على آذانهم ١,١١٥,٨٠٠ لكمة . وفى ١٧٤٧ أسس يوليوس هيكر ، القسيس البروتستنتى فى برلين أول « مدرسة واقعية Realschule » ، وقد سميت كذلك لأنها أضافت الرياضيات والدراسات

الصناعية إلى اللاتينية والألمانية والفرنسية ، وسرعان ما أنشأت معظم المدن الألمانية معاهد على غرارها .

أما فى الجامعات فإن دراسة اليونانية ارتفعت إلى مكان مرموق جديد فارست بذلك الأسس لتفوق ألمانيا اللاحق فى الدرسات اليونانية وقامت جامعات إضافية فى جوتنجن (١٧٣٧) وإرلانجن (١٧٤٣) . وإذا كان ناخب هانوفر (الذى أصبح ملكا على انجلترة) يمول جامعة جوتنجن ، فإنها حذت حذو جامعة هاللى فى إطلاق يد الأساتذة فى التعليم ، والتوسع فى تدريس العلوم الطبيعية والدراسات الاجتماعية ، والقانون . وخلع الطلاب الآن الرداء الجامعى ، وارتدوا العباءة ، وتقلدوا السيف والمهماز ، والتحموا فى المبارزات ، وتلقوا الدروس من سيدات المدينة الأكثر تحللا . وكانت الألمانية لغة التعليم إلا فى الفلسفة واللاهوت .

على أن الألمانية كانت قد انحدرت سمعتها الآن،لأن الطبقة الأرستقراطية أخذت تستعمل الفرنسيه . كتب فولتير من برلين (٢٤ نوفمبر ١٧٥٠) يقول « أننى أجد نفسى هنا فى فرنسا ، فما من انسان يتكلم غير الفرنسية . أما الألمانية فللجند والخيل . ولا يحتاج إليها المرء إلا على الطرق »(٩) . وقدم المسرح الألمانى الهزليات بالألمانية ، والمآسى بالفرنسية — وكانت عادة تختار من ذخيرة المآسى الفرنسية . وكانت ألمانيا آنئذ أقل الدول الأوروبية نزعة قومية ، لأنها لم تكن بعد دولة .

وعانى الأدب الألمانى من هذا الافتقار إلى الوعى القومى . وكان أكثر مؤلفى العصر الألمان أثرا ، وهو يوهان كرستوف جوتشيد ، الذى جمع من حوله لفيفا من الأدباء أحال ليبزج إلى « باريس صغرى » ، يستعمل الألمانية فى كتاباته ، ولكنه استورد مبادئه من بوالو ، وندد بالفن الباروكى لأنه ضرب من الفوضى البراقة ، ودعا إلى الرجوع للقواعد الكلاسيكية فى الكتابة والفن كما مارسها الفرنسيون على عهد لويس الرابع عشر . وهاجم ناقدان سويسريان — هما بودمير وبريتنجر— إعجاب

جوتشيد بالنظام والقواعد ، وأحسا أن الشعر يستمد قوته من قوى الوجدان والعاطفة الأعمق من العقل ، وحتى فى راسين يتفجر عالم من الانفعال والعنف خلال الشكل الكلاسيكى . وأكد بودمير أن « أفضل الكتابات ليس ثمرة القواعد ... فالقواعد تشتق من الكتابات » (١٠) .

أما كرستيان جيللبرت ، الذى فاق جميع الكتاب الألمان شعبية ، فقد وافق بودمير ، وبويتنجر ، وبسكال ، على أن الوجدان هو لب الفكر وروح الشعر . وكان جديرا بلسم المسيحى (كرسيتان) إذ بلغ من احترام الناس له لنقاء حياته ورقة سلوكه أن الملوك والأمراء كانوا يختلفون إلى محاضراته فى الفلسفة والاخلاق بجامعة ليبزج ، وأن النساء كن يأتين ليلثمن يديه . وكان رجلا ذا عاطفة لا يخجل من الجهر بها ، ناح على القتلى فى معركة روسباخ بدلا من أن يحتفل بانتصار فردريك فيها ، ومع ذلك فإن فردريك ، أعظم رجل واقعى فى ذلك العصر ، وصفه بأنه « أكثر العلماء الألمان معقولية » (١١) . على أن فردريك آثر عليه فى أغلب الظن إيفالد كرستيان فون كلايست ، الشاعر الشاب الفحل الذى بذل حياته لأجله فى معركة كونرسدورف (١٧٥٩) وكان رأى الملك فى الأدب الألمانى قاسيا ولكنه مشوب بالأمل : « ليس لدينا كتاب مجيدون على الاطلاق ، ولعلهم يظهرون حين أكون سائرا فى فراديس النعيم . . . ستسخر منى لاهتمامى بتوصيل بعض المفاهيم عن الذوق وبعض « الملح » الكلاسيكى لأمة لم تعرف إلى الآن شيئا غير الطعام والشراب والقتال (١٢) وكان كانط ، وكلوبشتوك ، وفيلاند ، ولسنج ، وهردر ، وشيلر ، وجيته — كان هؤلاء جميعا قد ولدوا فى هذه الأثناء .

وثمة ألمانى من أهل ذلك العهد كسب تعاطف فردريك الفعال وهو كرستيان فون فولف ، وكان ابن دباغ ارتقى إلى منصب الاستاذية فى جامعة هاللى . وقد اتخذ المعرفة كلها موضوعا لتخصصه ، فحاول أن يصنفها على أساس فلسفة ليبنتس . ومع أن مدام دشاتليه وصفته بأنه « ثرثار كبير » ، فإنه التزم بأن يسترشد بالعقل ، وبطريقته المتعثرة بدأ التنوير

الألمــانى (Aufklarung) وحطم السوابق بتدريس العلــوم والفلسفة بالألمانية . ومجرد إيراد قائمة بكتبه السبعة والستين كفيل بأن يعطل مسيرنا . وقد بدأ برسالة من أربعة مجلدات عن « جميع العلوم الرياضية » (١٧١٠)، ثم ترجم هذه المجدات إلى اللاتينية (١٧١٣) وأضاف إليها قاموسا رياضيا (١٧١٦) ييسر الانتقال إلى الألمانية . وواصل التأليف بسبعة كتب (١٧١٢—٢٥) فى المنطق ، والميتافزيقا ، والاخلاق ، والسياسة ، والفزياء ، والغائية ، والأحياء ، وكل عنوان منها تتصدره فى جرأة هاتان الكلمتان « أفكار معقولة » وكأنه يرفع راية العقل فوق صارية . وإذ كان يهفو إلى جمهور قراء أوربى ، فإنه غطى هذه المنطقة كلها بثمانى رسائل لاتينيه ، كان أكثرها تأثيرا « علم النفس التجريبى » (١٧٣٢) ، و «علم النفس العقلانى» (١٧٣٤) و « اللاهوت الطبيعى » (١٧٣٦) . وبعد أن خرج حيا من كل هذه المــآزق ارتاد فلسفة القانون (١٧٤٠ — ٤٩) ، ولكىّ يتوج هذا الصرح كتب ترجمة لحياته .

وسير أسلوبه المدرسى المنتظم يجعــل من الصعب قراءته فى عصرنا المحموم . ولكنه كان بين الحين والحين يلمس مناطق حية . من ذلك أنه رفض ما ذهب إليه لوك من اشتقاق المعرفة كلها من الإحساس ، وكانت نظرياته معبراً بين ليبنتس وكانط لأنه أصر على الدور النشيط الذى يؤديه العقل فى تكوين الأفكار . فالجسم والعقل ، والحركة والفكرة ، عمليتان متوازيتان ، لا تؤثر إحداهما فى الأخرى . والعالم الخارجى يعمل آلياً ، وهو يبدى دلائل كثيرة على الخطة ذات القصد ، ولكن ليس فيه معجزات وحتى عمليات العقل خاضعة لحتمية العلة والمعلول . أما الأخلاق فينبغى أن تلتمس ناموساً خلقياً مستقلا عن العقيدة الدينية ، وعليها ألا تعتمد على الله لتخويف البشر حتى يلتزموا الفضيلة . وأما وظيفة الدولة فليست السيطرة على الفرد بل توسيع الفرص لنموه[١٣]. وهو يطرى الأخلاق عند كونفوشيوس بوجه خاص ، لأنها لم تقم الفضيلة على الوحى فوق الطبيعى بل على العقل البشرى[١٤] . « إن قدامى أباطرة الصين وملوكها كانوا قوما ذوى ميل فلسفى وبفضل عنايتهم أصبح نظام حكومتهم خير النظم جميعا »[١٥] .

وذهب كثير من الألمان إلى أن فلسفة فولف مهرطقة إلى حد خطر ، رغم اعترافاته الجادة بالعقيدة المسيحية . وأنذر أعضاء فى هيئة التدريس فردريك وليام الأول بأنه لو قبلت حتمية فولف فلن يكون فى الإمكان عقاب أى جنـــدى هارب ، وسينهار صرح الدولة كله (١٦) . فأمر الملك المرتاع الفيلسوف بأن يغادر بروسيا خلال ثمان وأربعين ساعة وإلا « كان عقابه الموت الفورى » فهرب إلى مجدبورج وجامعتها ، حيث رحب به الطلاب رسولا وشهيداً للعقل . وقد نشر أكثر من مائتى كتاب أو كتيب خلال ستة عشر عاما (١٧٢١ — ٣٧) تهاجمه أو تدافع عنه . وكان من أول أعمال فردريك الأكبر الرسمية عقب اعتلائه العرش (١٧٤٠) إنه وجه دعوة حارة للفيلسوف المنفى يطلب إليه الرجوع إلى بروسيا وهاللى . وجاء فولف . وفى ١٧٤٣ عين مديراً للجامعة . وإزداد اتباعه للابن التقليدى مع الزمن ، ومات (١٧٥٤) فى كل ورع المسيحى السنى .

ولقد كان تأثيره أعظم كثيراً مما قد نحكم به من شهرته الضعيفة فى العصر الحاضر ، وجعلته فرنسا عضو شرف فى أكاديمية علومها ، وعينته أكاديمية سانت بطرســبورج الإمبراطورية أستاذاً فخريا بها ، وترجم الانجليز والإيطاليون مؤلفاته فى مثابرة ، وفرض ملك نابلى النسق الفولفى فى جامعاته . واطلق عليه الجبل الأصغر من الألمان لقب الحكيم ، وشعر بأنه علم ألمانيا أن تفكر . واضمحلت طرائق التعليم المدرسية القـــديمة ، وزادت الحرية الأكاديمية . ونقل مارتن كنوتسن الفلسفة الفولفية إلى جامعة كونجزبرج ، حيث كان يدرس ايمانويل كانط .

وضعف تأثير الدين فى الحياة الألمانية بسبب تطور العلم والفلسفة ، ونتائج البحث فى الكتاب المقدس التى أزالت الأوهام ، فضـــلا عن قوى العلمنة الشديدة . وانتشرت بين الطبقات العليا الأفكار الربوبية التى وصلت من انجلترة بفضل الترجمات واتصال انجلترة بهانوفر ، ولكن أثر هـذه الأفكار كان تافها إذا قيس بنتيجة إخضاع الكنيسة ـ الكاثوليكية والبروتستنية على السواء ـ للدولة . لقد قوت حركة الإصلاح البروتستنتى العقيدة الدينية حينا ، ثم جاءت حرب الثلاثين فأضرت بهذه العقيدة ، والآن كان خضوع

الاكليروس للأمراء الحاكمين سببا فى زوال هالة التقى والورع التى خلعت القدسية من قبل على سلطانهم . وأصبحت التعيينات فى الوظائف الكنسية يمليها الأمير أو السيد الإقطاعى المحلى . أما النبلاء فتظاهروا بالدين ، كما فعل نظراؤهم فى انجلترة ، باعتباره مسألة منفعة سياسية وعرف اجتماعى. وفقد الاكليروس اللوثرى والكلفنى مقامهما ، واستردت الكاثوليكية سلطانها فى بطء . فى هذه الفترة انتقلت ولايات شكسونيا ، وفورتمبرج ، وهسى ، وكلها بروتستنتية ، إلى حكام كاثوليك ، واضطر فردريك اللاأدرى إلى استرضاء سيليزيا الكاثوليكية .

ولم تزك غير حركة دينية واحدة فى المناطق البروتستنتية وهى حركة الإخوان المتحدين ، أو الإخوان المورافيين. ففى عام ١٧٢٢ هاجر نفر من أعضائها الذين اضطهدوا فى مورافيا إلى سكسونيا ، ووجدوا الملجأ فى ضيعة الكونت نيكلاوس لودفج فون تستسندورف . وقد رأى هذا الكونت الشاب، الذى كان هو نفسه ابن العمادلفيليب ياكوب سبينر فى هؤلاءاللاجئين فرصة لإحياء روح المذهب التقوى . فبنى لهم على أرضه قرية هرنهوت (أى جبل الرب) ، وأنفق ثروته كلها تقريبا على طبع الأسفار المقدسة وكتب تعليم العقيدة المسيحية ، وكتب التراتيل وغيرها من المؤلفات لينتفعوا بها . وقد أعانت رحلاته فى أمريكا (١٧٤١ — ٤٢) وانجلترة (١٧٥٠) وغيرهما على إنشاء مستعمرات لهؤلاء الإخوان فى كل قارة ، والواقع أن الإخوان المورافيين هم الذين بدأوا نشاط البعوث الحديث فى الكنائس البروتستنتية (١٧) فقد جلب بيتر بولر تأثيرا قويا للإخوان فى الحركةالمثودية حين ألتقى بجون وسلى فى ١٧٣٥ . وفى أمريكا استقر بهم المقام قرب بيت لحم فى بنسلفانيا ، وفى سليم بكارولينا الشمالية . واحتفظوا بإيمانهم ونظامهم سليمين لم تكد تمسهما رياح العقيدة وأزياء اللباس ، وربما كان الثمن شيئاً من قسوة الروح فى علاقاتهم العائلية ، ولكن لا مناص للشاك من أن يحترم قوة إيمانهم وإخلاصه ، وانسجامه الغريب مع حياتهم الخلقية .

وكانت أخلاق العصر بصفة عامة أسلم وأصح فى ألمانيا منها فى فرنسا،

إلا حيث سرت بدعة محاكاة فرنسا من اللغة إلى الفسق . ففى الطبقات الوسطى خضعت الحياة العائلية لضبط أشرف على التعصّب والغلو ، فقد درج الآباء على أن يسوطوا بناتهم ، وزوجاتهم أحيانا (١٨) ، وفرض فردريك وليم الأول على بلاط برلين نظاما تسوده الرهبة ، ولكن ابنته وصفت البلاط السكسونى فى درسدن بأنه بلغ فى زناه مبلغ بلاط لويس الخامس عشر . ويؤكد لنا مصدر غير وثيق أنه كان لأوغسطس القوى ٣٥٤ طفلا « طبيعيا » (أى غير شرعى) نسى بعضهم أبوتهم المشتركة فى فراش سفاح المحارم . بل قيل إن أوغسطس نفسه اتخذ له خليلة من ابنته غير الشرعية الكونتيسة أوركتسيلسكا (١٩) ، التى علمت فردريك الأكبر فيما بعد فنون الغرام . وقد أصدرت كلية الحقوق بجامعة هاللى فى بواكير القرن الثامن عشر إعلانا دافعت فيه عن التسرى بين الملوك والأمراء (٢٠) .

وكانت آداب السلوك صارمة ، ولكنها لم تدع لنفسها ما تميزت به الآداب الفرنسية من رشاقة الحركة أو سحر الحديث . وأدفأ النبلاء أنفسهم بالحلل والألقاب بعد أن انتزعت منهم السلطة السياسية . كتب اللورد تشسترفيلد فى ١٧٤٨ يقول : « أعلم أن الكثير من الخطابات رد دون أن يفتح لأنه أغفل كتابة لقب من بين عشرين فى عنوانه » (٢١) . وكان حكم أولفر جولدسمث قاسياً قسوة المتعصب لوطنه إذ قال : « فلنوف الألمان حقهم ، إنهم وإن كانوا أغبياء فليس هناك أمة حية تتكلف رزانة محمودة أكثر منهم ، أو تفوقهم فى فهم آداب الغباء » (٢٢) وقد وافقه فردريك الأكبر (٢٣) وظل الأكل وسيلة محببة لإنفاق اليوم . واقتبس الأثاث طرز النقش والتطعيم المزدهرة آنئذ فى فرنسا ، ولكن لم يكن فى فرنسا ولا فى انجلترة شىء يدانى فى بهجته مواقد الطهو الملونة بألون تشرح الصدر ، والتى أثارت حسد الليدى مارى مونتاجيو (٢٤) . وكانت الحدائق الألمانية مطلية ، ولكن البيوت الألمانية ، بما حوت من واجهات نصفها من الخشب ، ونوافذ ذات أعمدة ، وأفاريز واقية ، خلعت على المدن الألمانية فتنة مشرقة تنم على حسٍ جمالى مرهف وإن لم يكن قد تشكل .

والواقع أن الذى أرسى الاستعمال الحديث للفظ Aesthetic (جمالى) فى كتابه بهذا العنوان (١٧٥٠) ، وأذاع نظرية فى الجمال والفن بوصفها قسما من أقسام الفلسفة ومشكلة من مشاكلها ، كان ألمانيا يدعى ألكسندر باومجارتن .

٣ — الفن الألمانى

كانت صناعة الخزف هنا فناً كبيراً ، لأن الألمان علموا أوروبا فى هذه الفترة كيف تصنع الصينى ، فلقد استأجر أوغسطس القوى يوهان فريدرش بوتجر لتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، وأخفق بوتجر ، ولكنه انشأ بمساعدة صديق قديم لسبينوزا يدعى فلترفون تشيرنهاوس مصنعاً للقاشانى فى درسدن ، وأجرى تجارب وفقت آخر الأمر فى إنتاج أول خزف صينى أوروبى صلب العجينة . وفى ١٧١٠ نقل هذه الصناعة إلى مايسين ، على أربعة عشر ميلا من درسدن ، وهناك واصل تحسين طرائقه وصقل منتجاته حتى وفاته (١٧١٩) . وكان خزف مايسين يرسم بألوان غنية على أرضية بيضاء برسوم رقيقة للزهر والطير ومشاهد الحياة اليومية والمناظر الطبيعية ومناظر البحر واللقطات الغربية من الثياب والحياة الشرقيتين . وزاد يوهان يواكيم كيندلر العملية تحسيناً ، فأضيف النحت فى الصينى إلى الرسم تحت السطح المصقول؛ وخلدت التماثيل الصغيرة الغريبة أشخاص الفولكلور والكوميديا الألمانيين ، ودلت روائع خصبة الخيال مثل رائعة « خدمة البجع » لكيندلر وايبرلاين على أن فى استطاعة الفن أن ينافس ما حوته خزائن النساء المنوعة بهاء ونعومة . وسرعان ما راحت كل مجتمعات أوروبا الارستقراطية ، حتى فى فرنسا ، تزين حجراتها بتماثيل من صينى مايسين فيها تهكم مضحك . واحتفظت المدينة بتفوقها فى الفن إلى سنة ١٧٥٨ ، حين اجتاحها الجيش البروسى فى حرب السنوات السبع .

ومن أوجزبورج ، ونورنبرج ، وبايرويت ، وغيرها من المراكز ، سكب الخزافون الألمان فى البيوت الألمانية فيضاً باروكياً من المنتجات

الحرارية ، من أبدع القاشانى والصينى إلى الأباريق البهيجة ى جعلت حتى فن شرب الجعة تجربة جمالية . وتزعمت ألمانيا أوروبا طوال أكثر القرن الثامن عشر فى صناعة الزجاج لا الصينى فحسب (٢٥) . كذلك لم يبز صناع الأشغال الحديدية الألمان أحد فى هذا العصر ، ففى أوجزبورج وإيبراخ ، وغيرهما صنعوا بوابات من الحديد المشغول تنافس تلك التى كان يقيمها جان لامور فى نانسى . أما الصاغة الألمان فلم يفقهم غير أبرع زملائهم فى باريس . وحفر الحفارون الألمان (كنوبلزدورف ، وجلومى ، وروجنداس ، وريدنجر ، وجيورج كيليان ، وجيورج شمت) أو نقشوا بالحرق رسوماً بديعة فى الأطباق النحاسية (٢٦) .

أما المصورون الألمان فى هذه الفترة فلم يظفروا بالشهرة الدولية التى ما زال يجزى بها فاتو ، وبوشيه ، ولاتور ، وشاردان . وإنه لمن ضيق أفقنا الفكرى — ذلك الضيق الذى لا مهرب منه — جهل غير الألمان بصور مصورين ألمان مثل كوزماس آزام ، وبلتازار دينر ، ويوهان فيدلر ، ويوهان تيلى ، ويوهان تسزنيس ، وجيورج دماريه ، فحسبنا أن نتلو أسماءهم على الأقل ونحن أكثر إحاطة بمصور فرنسى استوطن ألمانيا يدعى انطوان بين ، وقد أصبح مصور البلاط لفردريك وليم الأول ثم لفردريك الأكبر . وتصور رائعته فردريك وهو بعد غلام برىء فى الثالثة ومعه أخته فلهلمينى ذات الستة أعوام (٢٧) ، ولو أن هذه اللوحة رسمت فى باريس لسمعت بها الدنيا كلها .

واكتسبت أسرة صيتاً زائعاً فى ثلاثة ميادين — التصوير والنحت والعمارة . فقد رسم كوزماس دميان آزام ، فى كنيسة القديس إميرام بريجنزبورج ، صعود القديس بندكت إلى الفردوس ، وأعانه على ذلك بمنصة إطلاق . واشترك كوزماس مع أخيه إيجد فى رسم داخل كنيسة القديس نيبوموك بميونخ — عمارة يغشاها النحت بأكثر ضروب الباروك إسرافاً . وحفر إيجد بالجص « صعود مريم » لكنيسة دير فى رور بمافاريا . وبدت اليد الإيطالية الرقيقة فى نافورة نبتون الرائعة التى أقامها لورنتسو

ما تيللي فى درسدن ، وكانت النافورة من المعالم الشهيرة فى بهاء العاصمة السكسونية . أما بلتازار برموزر فقد أفسد تمثاله « تمجيد الأمير أوجين[٢٨] » بخليط مهوش من التماثيل الرمزية ، وقد زين بمثل هـذا الإسراف جناح قصر تسفنجر بدرسدن ، ولكنه حقق درجة من الجلال والقوة تكاد تقربه من ميكلانجلو فى تمثال « الرسل » المتجمعين حول منبر كنيسة البلاط بدرسدن ، وتمثاله « القديس أمبروز » المصنوع من خشب الزيزفون فى تلك الكنيسة يستشرف قمة النحت الأوربى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وقد تصـور جيورج ايبنيست الجمال الألمانى الممشوق فى تمثاله البديع « باخوس واريادنى » الذى نحته لبستان سانسوسى . وحفلت البساتين والحدائق الألمانية بالمنحوتات ، وقدر خبير فى الباروك أن « فى ألمانيا من تماثيل الحدائق الجيدة نسبة تفوق كل ما فى سائر أوروبا من تماثيل مجتمعة[٢٩] » .

على أن المعمار هو الميدان الذى لفت فيه الفنانون الألمان أنظار الفنانين الأوربيين فى هذا العصر . فقد ترك يوهان بلتازار نويمان بصمته على أكثر من عشرة مبان . وكانت رائعته قصر أمير فورتسـبورج الأسقف ، وقد تعاون آخرون معـه فى التصميم والتنفيذ (١٧١٩ — ٤٤) ، ولـكن يده كانت اليد الهادية . وقد تحطمت فى الحرب العالمية الثانية القاعة الفينيتسية وقاعة المرايا ، المتألقتان بزخارفها ، ولـكن بقيت أربع قاعات لتشهد ببهاء الداخل ، أما بيت السلم الفخم الذى اشتهر فى دنيا الفن كلها بصور سقفه الجصية التى رسمها تيبولو ؛ فـكان واحد من عدة مبان شبيهة به أعانت على دفع نويمان إلى مكان مرموق بين معماريى زمانه . وبيت السلم الذى بناه للقصر الأسقفى فى بروشزال يختلف عن هذا كل الاختلاف ، ولـكنه يكاد يعـدله روعة — وهو ضحية أخرى من ضحايا الانتحار القومى . وربما فاق كليهما جمالا بيت السـلم المزدوج الذى بناه لأوجستوسبورج فى برول بقرب كولونيا . وكان بناء بيوت السلم غرامه ، فأغـدق من فنه على بيت آخر فى دير بمدينة ايبراخ . ثم قطع مصاعده ومهابطه ببناء « كنيسة للحج » فيرتسينهايليجن على المين ، وزين بالباروك المزخرف كنيسة

القديس بولس فى ترير وكنيسة كرويتسبيرج قرب بون ، وأضاف إلى كتدرائية فورتسبورج مصـلى بلغ ظاهره أكمل ما يمكن أن يبلغه طراز الباروك .

وتخصصت العمارة الكنسية الآن فى بناء الديورة الضخمة . فقام إنريكو تسوكاللى فى ١٧١٨ بترميم « كلوستر أتال » ، وهو دير بندكتى بناه الإمبراطور لويس البافارى عام ١٣٣٠ فى واد جميـل على مقربة من أوبرامبرجا وحدد بناؤه إنريكوتسوكاللى ،وتوجه بقبة رشيقة . وقد دمرت النار كنيسة الدير فى ١٧٤٤ ، فأعاد بناءها يوزف شموتسر فى ١٧٥٢ ، وقد حلى داخلها تحلية دقيقة بطراز الروكوك المذهب الأبيض ، بصور جصية بريشة يوهان تسايلر ومارتن كنوللر ، وأضيفت مذابح جانبية فاخرة فى ١٧٥٧ ، وأرغن اشتهر بغطائه الجميل . وأروع هذه الآثار التقوية هى الكلوستركرشى ، أو كنيسة الدير البندكتى ، الغنية غنى لا يصدق ، والواقعة فى اوتوبورين جنوب شرقى ميمنجن . هنا نظم يوهان ميكائيل فيشر المجموعة ، وقام يوهان كريستيان بالنقوش المذهبة ، وصنع مارتن هورمان مقاعد المرتلين — وهى مفخرة الحفر الألمانى فى الخشب فى القرن . وقد عكف فيشر على هـذا العمل فى فترات متقطعة من ١٧٣٧ ، حتى وفاته فى ١٧٦٦ .

وكرهت الطبقات الحاكمة — كما كره الرهبان — أن تنتظر جنة بعـد القبر . فشيدت بعض القاعات الفخمة للمدن ، مثل قاعتى لونبورج وبامبرج ولكن أعظم جهود العمارة العلمانية خصص للقلاع والقصور . فكان فى كل كارلزروهى قصر الحاكم بادن دورلاخ ، هو قلعة فريدة فى بابها ، بنيت على شكل مروحة - تتشعب أضـلاعها من حديقة لها شكل مقبض متجهة إلى شوارع المدينة . وقد دمر هذا القصر كما دمر كثير مما احتوته المدينة فى الحرب العالمية الثانية . وحاقت هذه المأساة أيضاً بقصر برلين العظيم الذى شيده أندرياز شلوتر وخلفاؤه (١٦٩٩ — ١٧٢٠) ، وثمة ضحية أخرى هى قصر مونبيجو ، القريب من برابة شباندآو ببرلين . أما قلعة برول التى صممت لرئيس أساقفة كولونيا فقد دمر بعضها . وأما قلعة

بروشزال فقد دمرت برمتها . وفى ميونخ بنى يوزف افنر قصر بريزنج وفى ترير بنى يوهان زايتس لرئيس الأساقفة الحاكم « قصر الناخب » — وهو نموذج للجمال الوديع . وأما الأسقف ناخب مينز ، فقــد بنى له مكسمليان فون فيلش ويوهان دينتسينهوفر بقرب بومرزفيلدن قلعة كبرى ثانية ، تدعى قلعة فيسنشتين ، أقام فيها يوهان لوكاس فون هيلدبرانت بيت سلم مزدوجاً يستطيـع كبار القوم أن يصعدوا ويهبطوا عليه دون أن يصدم بعضهم بعضاً .

وتوج فردريك الأكبر المعمار الألمانى العلمانى فى القرن الثامن عشر بتكليفه جيورج فون كنوبلزدورف وآخرين بأن يبنوا فى بوستدام (خارج برلين بستة عشر ميلا) ، وفق تصميم صنعه الملك نفسه ، ثلاثة قصور كانت فى مجموعها ضرباً لفرساى : قصر الدولة « شتاتشلوس » ، (١٧٤٥—٥١) ، والقصر الجديد «نويئس» (١٧٥٥) ، ومنتجع فردريك الصيفى ، الذى سماه شلوس « قلعة سانسوسى » . فكان طريق مشجر من درج هين ، يبدأ من نهر هافل ، يفضى بعد خمس مراحل تخترق بستاناً مدرجاً إلى هذه « القلعة الخلية البال » التى اتخذت نوافذها ذات الأعمـدة وقبتها الوسطى بعض وحيها من قصر تسفنجر بدرسدن . واحتوى جناح من أجنحتها على قاعة للفنون ، وتحت القبة دائرة من الأعمــدة الكورنثية الجميــلة ، مكتبة زينت بزخارف ملولبة روكوكية ، وتألقت بالكتب التى احتوتها خزانات زجاجية ، وأتاحت للملك ملاذاً من السياسة والقواد الحربيين.وفى سانسوسى على الأخص كان فولتير يلتقى بقرينه فى الملك الفيلسوف الذى استطاع أن يحكم دولة ، ويتحدى الكنيسة ، ويصمم بناء ، ويرسم لوحة شخصية ، وينظم شعرا لا بأس به ، ويكتب تاريخا ممتازا ، وينتصر فى حرب على نصف أوربا ، ويلحن موسيقى ،ويقود أوركسترا ،ويعزف على الفلوت .

٤ — الموسيقى الألمانية

احتلت الموسيقى الألمانية مكان الصدارة من مولد هاندل وباخ فى ١٦٨٥ حتى موت برامز فى ١٨٩٧ . ففى أى وقت من هذه السنين التى بلغت ٢١٢

كان أعظم الملحنين الأحياء ألمانياً، باستثناء تأليف الأوبرا [٣٠]. وقد بلغ شكلان موسيقيان ، هما الأوراتوريو والفوجه ، غاية تطورهما فى إنتاج الألمان فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد يضيف البعض أن القداس الكاثوليكى الرومانى تلقى تعبيره النهائى على يد بروتستنتى ألمانى . لقد انتهى عصر القصور ، وبدأ عصر الموسيقى .

كانت الموسيقى جزءا من الدين ، كما كان الدين جزءا كبيرا جدا من الموسيقى فى كل بيت ألمانى . فما من أسرة ، اللهم إلا فى أفقر الطبقات ، إلا استطاعت أن تترنم بالترانيم المشتركة ، وما من فرد إلا استطاع أن يعزف على آلة أو أكثر . ورتلت مئات من جماعات الهواة المسماة Liebhaber الكنتاتات التى يعتبرها المرتلون المحترفون اليوم عسيرة إلى حد مثبط [٣١] . وظفرت كتيبات الموسيقى بشعبية كشعبية الكتاب المقدس . ودرست الموسيقى مع القراءة والكتابة فى المدارس العامة . وكان النقد الموسيقى أرقى من نظيرة فى أى بلد باستثناء إيطاليا ، وكان أعظم نقاد الموسيقى فى ذلك القرن ألمانيا .

وأغلب الظن أن يوهان ماتيزون كان أشهر من أى موسيقى ألمانى بين الموسيقيين الألمان وأقلهم ظفرا بحبهم . فقد حجب غروره جلائل أعماله . عرف اللغات الأدبية القديمة والحديثة ، وألف فى القانون والسياسة ، وأجاد العزف على الأرغن والبيان القيثارى إجادة أتاحت له أن يرفض أكثر من عشر دعوات إلى شغل وظائف مرموقة ، وكان راقصا رشيقا ، ورجل دينا عريض الثقافة ، وكان مثاقفا خبيرا كاد يقتل هاندل فى مبارزة معه . وغنى بنجاح فى أوبرا همبورج ، وألف الأوبرات ، والكانتاتات ، وتراتيل أسبوع الآلام : والموشحات الدينية ، والسوناتات والسويتات . وطور شكل الكانتاتا قبل باخ . وظل تسع سنين قائد فرقة المرتلين للدوق هولستين ، فلما أصيب بالصمم قنع بأن يؤلف . وأصدر ثمانية وثمانين كتابا ، ثمانية منها فى الموسيقى ، وأضاف إليها رسالة عن التبغ . وأنشأ وأشرف على صحيفة « النقد الموسيقى » (١٧٢٢ — ٢٥) ، وهى أقدم ما عرفنا من نقاش نقدى

للمؤلفات الموسيقية القديمة والجديدة ، وصنف قاموس تراجم للموسيقيين المعاصرين ، ومات فى الثالثة والثمانين (١٧٦٤) ، بعد أن حفز عالم الموسيقى حفزا قويا .

أما الآلات الموسيقية فكانت فى تطور وتغير دائمين ، ولكن الأرغن ظل سيدهامن غير منازع . وكان له عادة ثلاث لوحات مفاتيح أو أربع ، مضافا إليها دواسة لجوابين ونصف ، وضوابط مختلفة تستطيع محاكاة أى آلة أخرى تقريبا . ولم تصنع إلى الآن أراغن أبدع من تلك التى صنعها اندرياس زلبرمان الاستراسبورجى ، وجوتفريد زلبرمان الفرايبرجى ولكن الآلات الوترية كانت تزداد رواجا فاستعملت « موترة المفاتيح » clarichord (أى المفتاح والوتر) لوحة مفاتيح لتشغيل روافع مزودة بمماسات صغيرة من النحاس لتضرب الأوتار . وكان عمر هذه الآلة ثلاثة قرون وربما أكثر أما البيـــان القيثارى harpischord (الذى سمـــاه الفرنسيون clavecin والايطاليون clavi أو gravicembalo) فـــكانت أوتاره ينقرها لسان من ريشة أو جلد ملصق بروافع تحركها (عادة) لوحة مفاتيح مزدوجة ، بمساعدة دواستين وثلاثة ضوابط أو أربعة . وكان لفظ clavier يستعمل للدلالة على أى آلة موسيقية لوحة مفاتيح — الموترة ، أو البيان القيثارى ، أو البيان — وعلى لوحات مفاتيح الأرغن . وكان البيان القيثارى فى أساسه قيثارا تنقر فيه الأصابع الأوتار بواسطة مفاتيح ، الريشة وروافع ، وكانت تنبعث منه أصوات لها سحر رقيق ، ولكن لما كانت الريشةوريش ترتد بمجرد ضربها الوتر ، فإن هذه الآلة لم يتح لها أن تطيل نغمة أو تنوع حدتها . ولكى تعزف درجتين من درجات الصوت كان لا بد لها من اللجوء إلى لوحة مفاتيح مزدوجة — العليا لـ « بيانو » (خافتة) والسفلى لـ « فورتى » (عالية) وقد انبعث « البيانو فورت » من الجهود التى بذلت للتغلب على هذه العيوب .

وفى عام ١٧٠٩ أو قبله صنع بارتولوميو كريستوفورى فى فلورنسه أربعة « بيانات قيثارية بالخافت والعالى » . وفيها حلت محل الريشة مطرقة جلدية صغيرة كان فى الأمكان إطالة اتصالها بالوتر بمواصلة خفض المفتاح ،

فى حين أمكن التحكم فى علو النغمة بالقوة التى يضرب بها الأصبع المفتاح . وفى عام ١٧١١ وصف سكيبيوتى دى ما فيى الآلة الجديدة فى مجلته « جورنالى دبى ليتراتى ديتاليا »، وفى ١٧٢٥ ظهر هذا المقال بدرسدن فى ترجمة ألمانية، وفى ١٧٢٦ صنع جوتفريد زلبرمان ، بوحى من الترجمة [٣٢] ، بيانين على هدى من مبادىء كريستوفورى . وحوالى ١٧٣٣ عرض نموذجا محسنا على يوهان سبستيان باخ ، الذى صرح بأنه شديد الضعف فى القدرة الصوتية العليا ، وأنه يتطلب لمسا شديدا . وسلم زلبرمان بهذه العيوب واجتهد فى تلافيها . وبلغ من توفيقه فى هذا أن فردريك الأكبر اشترى خمسة عشر بيانا منها . وعزف باخ على أحدها حين زار فردريك فى ١٧٤٧ ، فأعجبه، ولكنه رأى أنه قد بلغ من الشيخوخة حدا لا يسمح له باستعمال الآلة الجديدة، وظل فى السنوات الثلاث الباقية فى عمره يؤثر الأرغن والبيان القيثارى .

أما الأوركسترا فكان يستخدم أساسا فى خدمة الأوبرا أو الكورس ، وقل أن وضعت الموسيقى له وحده ، ألا أن تكون مقدمات . وكانت الأوبوا والباصون أكثر عددا منها فى أوركسترا هذه الأيام ، وطغت آلات النفخ على الآلات الوترية . أما الحفلات الموسيقية العامة فكانت إلى ذلك العهد نادرة فى ألمانيا ، وكادت الموسيقى تنحصر برمتها فى الكنيسة ، والأوبرا ، والبيت ، والشوارع . وأحييت حفلات لموسيقى الحجرة فى ليبزج من ١٧٤٣ فى بيوت أغنياء التجار ، ثم قبل بها جماعات أكبر فأكبر من المستمعين ، وزيد العازفون إلى ستة عشر ، وفى ١٤٧٦ أعلن دليل صادر فى ليبزج أنه « فى أيام الخميس تحيا حفلة موسيقية بأشراف شركة التجار التقية ، وأشخاص آخرين ، من الساعة الخامسة إلى الثامنة فى نزل البجعات الثلاث وأضاف الإعلان أن هذه الحفلات يرتادها أفراد المجتمع العصرى وتلقى الإعجاب والاهتمام الشديد[٣٣] . ومن هذة الجماعة الموسيقية Collegium Musieum تطور فى ١٧٨١ الكونشرتو الكبير فى قاعة تجار الأجواخ . Gewandhaus بليبزج —وهو أقدم سلسلةموجودةمن الكونشرتو .

ولم تخص الآلات وحدها إلا بأقل القليل من المؤلفات الموسيقية ، ولكن بعض هذه المؤلفات شارك بنصيب فى تطوير السمفونية . وفى مانهايم قامت

مدرسة من الملحنين والعازفين — كثير منهم من النمسا أو إيطاليا أو بوهيميا — بدور قيادى فى هذا التطوير . فهناك جمع شارل تيودور أمير بالاتين الناخب (حكم ١٧٣٣ — ٩٩) ، وراعى الفنون جميعا ، أوكسترا اشتهر عموما بأنه خير الأوركسترات قاطبة فى أوربا . وقد لحن يوهان شتاميتز ، عازف الكمان الماهر ، لهذا الأوركسترا سيمفونيات بالمعنى الصحيح ، أى مؤلفات أوركسترالية مقسمة إلى ثلاث حركات أو أكثر ، كانت أولاها على الأقل تنهج نهج السوناتا — أعنى عرض مواضيع متقابلة ، والتوسع فيها دون قيود ، ثم تلخيصها . وجريا على طريقة الملحنين النابوليين ، اتخذ الشكل الجديد عادة تعاقب هذه الحركات : السريع ، فالبطئ ، فالسريع (الألليجرو ، والأندانتى ، والألليجرو) ، وأضاف أحيانا من الرقص « منيوتا » . وهكذا انتقل عصر الموسيقى البوليفونية (أى المتعددة الأصوات) ، المبنية على فكرة رئيسية واحدة ، والبالغة قمتها فى ى . س. باخ ، إلى عصر الموسيقى السيموفونية — عصر هايدن ، وموتسارت ، وبيتهوفن .

وظل الصوت البشرى أعظم الآلات الموسيقية سحراً . فلحن كارل فليب إيمانويل باخ ، وكارل هاينريش جراون وغيرهما قصائد الغرام المشبوب التى نظمها يوهان كرستيان جونثر ، ووجد يوهان إرنست باخ الفيمارى الوحى للعديد من الأغانى الألمانية (الليدر) ، الجميلة فى شعر كرستيان جللبرت . وازدهرت الأوبرا فى ألمانيا الآن ، ولكن غلب عليها الطابع الإيطالى ، إذا استوردت ألحانها ومغنيها من إيطاليا . وكان لكل بلاط كبير قاعة أوبراه ، التى لا تفتح عادة إلا للصفوة . أما همبورج التى هيمن عليها تجارها فكانت استثناء القاعدة ؛ فقدمت الأوبرا الألمانية ، وأباحت حضور حفلاتها للجمهور الذى يدفع ، وجندت مغنياتها من السوق . وفى همبورج تربع راينهارت كايزر على عرش مسرح جينزيماركت (سوق الأوز) أربعين عاماً . وخلال حكمه هذا لحن ١١٦ أوبرا ، معظمها إيطالى نصاً وأسلوباً ، ولكن بعضها ألمانى . ذلك أن كتاب ماتيزون « الموسيقى الوطنى » ، المنشور فى ١٧٢٨ أشهر صيحة الحرب على الغزاة

الإيطاليين : « أخرجوا أيها البرابرة ! [Fuori barbari] ليمنع من الاشتغال بالأوبرا الأجانب الذين يحاصروننا من الشرق إلى الغرب ، وليردوا ثانية إلى ألهم المتوحشة ليطهروا أنفسهم فى نيران إتنا ! (٣٤) ، ولكن سحر الأصوات والألحان الإيطالية لم يكن سبيل إلى مقاومة . وحتى فى همبورج خنق الولع بالأوبرات النابوليه المؤلفات الوطنية . فاستسلم كايزر وشد رحاله إلى كوبنهاجن . وأغلق مسرح همبورج أبوابه فى ١٧٣٩ بعد حياة امتدت ستين عاما ، ولما أعيد افتتاحه فى ١٧٤١ خصص صراحة للأوبرا الإيطالية . وحين أعاد فردريك الأوبرا إلى برلين (١٧٤٢) ، اختار ملحنين ألمانا ومغنين إيطاليين . وقال فى دهشة « مغن ألمانى ! أنى لأوثر أن أسمع حصانى يصهل (٣٥) .

وأنجبت ألمانيا فى هذا العصر مؤلفاً واحداً للأوبرا من الطراز الأول هو يوهان أدولف هاسى ، ولكنه هو أيضاً خطب ود إيطاليا . فقد درس فيها عشر سنوات على أليساندرو سكارلاتى ونيكولو بوربورا ، وتزوج المغنية الإيطالية فاوستينا بوردونى (١٧٣٠) ، ولحن الموسيقى لنصوص إيطالية وضعها أبوستولوزينو وميتاستاسيو . وغيرهما . واستقبلت أوبراته الأولى فى نابلى والبندقية استقبالا بلغ من حماسته أن إيطاليا لقبته « il caro Sassone » أى السكسونى المحبوب . فلما عاد إلى ألمانيا دافع بغيرة عن الأوبرا الإيطالية ، ووافقه معظم الألمان ، وكرموه أكثر من هاندل الغائب ، وأكثر كثيراً من باخ المجهول . وشبهه بيرنى ، هو وجلوك ، برفائيل وميكلانجلو الموسيقى فى البلاد الألمانية (٣٦) . ولم يبلغ أحد حتى الإيطاليون ، ما بلغته أوبراته المائة من غنى فى الابتكار اللحنى أو الدرامى . وفى ١٧٣١ تلقى هو وزوجته ، أعظم مغنيات الأوبرا فى ذلك العصر ، دعوة إلى درسدن من أوغسطس القوى . وأسرت فاوستينا العاصمة بصوتها وسحرها هاسى بألحانه . وفى ١٧٦٠ ، فقد أكثر ممتلكاته ، ومن بينها مخطوطاته المجموعة ، نتيجة قصف فردريك الأكبر لدرسدن بالقنابل . وكفت المدينة المدمرة عن عرض أوبراته ، فرحل هاسى وزوجته إلى فيينا حيث راح وهو فى الرابعة والسبعين ينافس جلوك . وفى ١٧٧١ ، فى زواج

الارشيدوق فرديناند بميلان ، تقاسم البرنامج الموسيقى مع الصبى موتسارت البالغ الرابعة عشرة من عمره . ويروى أنه قال « إن هـذا الصبى سوف يحجبنا كلنا(٣٧) ! .وعقب ذلك ذهب هو وفاوستينا لينفقا ما بقى لهما من عمر فى البندقية . وهناك مات كلاهما عام ١٧٨٣ ، هو فى الرابعة والثمانين ، وهى فى التسعين . وقد فاق تآلف حياتهما اتساق أغانيهما .

وبينما كانت الموسيقى الإيطالية تنتصر فى دور الأوبرا الألمانية ، ازدهرت الموسيقى الكنسية رغم سخرية فردريك منها لأنها « عتيقة » ، و « منحطة » (٣٨) وسنرى الموسيقى الكاثوليكية تزكو فى فيينا ، وفى الشمال ألهمت الحماسة البروتستنتية الباقية على قيـد الحياة فيضاً من الكنتاتات ، والكورالات ، وترانيم أسبوع الآلام ، وكأن مائة ملحن كانوا يمهدون لباخ الطريق ويعدون له الأشكال والصيغ الموسيقية . وغلبت موسيقى الأرغن ، ولكن الكثير من الأوركسترات الكنسية كان يحوى الكمان والفيولنتشيللو . ولم يقتصر ظهور تأثير الأوبرا على التوسع فى الأوركسترات وفرق الترتيل الكنسية ،بل كذلك فى الطابع الدرامى المتزايد للألحان الكنسية.

أما أشهر مؤلفى الموسيقى الدينية فى ألمانية باخ فكان جيورج فليب تيليمان الذى ولد قبل باخ بأربع سنوات (١٦٨١) ومات بعده بسبعة عشر عاماً (١٧٦٧) . وقد عده ماتيزون أعظم معاصريه الألمان قاطبة فى التأليف الموسيقى ، ولعل باخ كان يوافق على هذا الرأى باستثناء واحد لأنه نسخ كأنتاتات كاملة ألفها منافسه . وكان تيليمان طفلا عبقرياً ، تعلم اللاتينية واليونانية والكمان والفلوت فى طفولته ، وحين بلغ الحادية عشرة بدأ يلحن ، وفى الثانية عشرة ألف أوبرا مثلت على المسرح وقام هو بالغناء فى أحد أدوارها . كذلك لحن كنتاتا وهو الثانية عشرة ، وقادها وهو واقف فوق مقعد ليستطيع العازفون رؤيته .

ثم شب تيوتونيا قوياً بشوشاً يتدفق مرحاً وألحاناً . وفى ١٧٠١ بينما كان يمر بهالى التقى بهاندل الذى كان فى السادسة عشرة من عمره فأحبه من أول نظرة . ومضى إلى ليبزج ليـدرس القانون ، ولكنه ارتد إلى

الموسيقى رأصبح عازف أرغن الكنسية الجديدة (١٧٠٤) . وبعد عام قبل وظيفة الكنيسة فى زوراو ، ثم مضى إلى أيزيتاخ ، حيث ألتقى بباخ ، وفى ١٧١٤ قام بدور العدّاب لكارل فليب إيمانويل ، ابن يوهان سبستيان . وفى ١٧١١ قام ماتت زوجته الشابة وأخذت معها قلبه كما قال ، ولكنه تزوج ثانية بعد ثلاث سنين . وفى ١٧٢١ مضى إلى همبورج ، حيث كان عازفاً فى ست كنائس ، وأشرف على تعليم الموسيقى فى الجمنازيوم ، واضطلع بشئون أوبرا همبورج ، وحرر مجلة للموسيقى ، ونظم سلسلة من الحفلات الموسيقية العامة استمرت إلى يومنا هذا . وقد حالف الحظ تيليمان فى كل شىء ، إلا فى إيثار زوجته للضباط السويديين بحبها .

وكانت قدرته على الإنتاج تضارع أى رجل فى ذلك العصر ، عصر عمالقة الموسيقى . فقد لحن لجميع الآحاد والأعياد فى تسعة وثلاثين عاماً ألواناً من الموسيقى الدينية — تراتيل لأسبوع الآلام ، وكنتاتات ، واوراتوريات ، وأناشيد ، وموتيتات ، وأضاف إلى ذلك كله الأوبرات والأوبرات الفكاهية ، والكونشرتات ، والثلاثيات ، والسرينادات ، وقال هاندل إن فى استطاعة تيليمان أن يلحن موتيتا ذا ثمانية أقسام بالسرعة التى يكتب بها المرء خطاباً [٣٩] . وقد أخذ أساوبه عن فرنسا ، كما أخذ هاسى أسلوبه عن إيطاليا ، ولكنه أضاف إليه حيويته الخاصة . وفى ١٧٦٥ ، حين كان فى الرابعة والثمانين ، ألف كنتاتا تسمى « إينو » عدها رومان رولان معادلة لنظائرها من تأليف هاندل ، وجلوك ، وبيتهوفن . ولكن تيليمان كان ضحية خصوبته . فقد لحن بأسرع مما يمكنه من الإتقان ، ولم يكن له صبر على تنقيح الثمرات الناقصة لعبقريته أو شجاعة على تحطيمها . وقد اتهمه ناقد بـ «الإسراف الذى لا يصدق»[٤٠] واليوم يكاد يكون نسياً منسياً ولكنه بين الحين والحين يجيئنا روحاً متحررة من الجسد فى الهواء ، فنجد كل ألحانه المنبعثة من مراقدها رائعة الجمال [٤١] .

ولم ينفرد فردريك بتفضيله كارل هاينريش جراون على تيليمان وباخ . وقد ذاع صيت كارل أول ما ذاع بفضل صوته السوبرانو ، فلما قصر هذا الصوت تحول صاحبه إلى التلحين ، فألف فى الخامسة عشرة كنتاتا

كبيرة لأسبوع الآلام (١٧١٦) رتلت فى كرويتسشولى بدرسدن . وبعد أن مضى فترة يعمل عازفاً للكنيسة فى برنزويك استخدمه فردريك (١٧٣٥) ليشرف على الموسيقى فى راينزبرج . وظل يخدم البلاط البروسى طوال الأعوام الأربعة عشرة الباقية من عمره ، لأن موسيقاه ، حتى الدينية منها ، كانت تبهج الملك الشاك . وظفر لحن الآلام المسمى « موت يسوع » ، الذى رتل أولا فى كتدرائية برلين سنة ١٧٥٥ ، بشهرة فى ألمانيا لم تضارعها غير شهرة « المسيا » فى انجلترا وايرلندة ، وظل يعاد سنوياً فى أسبوع الآلام حتى يومنا هــذا . وشاركت ألمانيا البروتستنتية كلها فردريك فى الحزن على موت جراون قبل أوانه .

وخلال ذلك كان خمسون « باخاً » قد ألقوا البذرة وأعدوا المسرح لظهور أشهر وريث لهم . وقد رسم يوهان سبستيان باخ بنفســه شجرة أسرته فى كتابه « أصل أسرة باخ الموسيقية » الذى وصل إلى المطبعة فى ١٩١٧ ، وقد أفرد الناقد الموسيقى المدقق « شبيتا » ١٨٠ صفحة لرسم ذلك النهر الأورفى . وانتشر فى مدن ثورينجيا أفراد من آل باخ يمكن رد نسبهم إلى عام ١٥٠٩ . وكان أقدم موسيقى من الأسرة بدأ به يوهان سبستيان قائمته هو جد جده المدعو فايت باخ (توفى ١٦١٩) . ومنه انحدرت أربع بطون من الباخيين الذين برز العديد منهم فى الموسيقى ، وقد بلغوا من الكثرة مبلغاً جعلهم يؤلفون ضرباً من النقابة المهنية التى ألفت أن تجتمع دورياً لتبادل الرأى . وتلقى أحدهم ، وهو يوهان أمبروزيوس باخ عن أبيه فن عزف الكمان الذى ورثه لأبنائه . وفى ١٦٧١ . قد تزوج اليزابيث خاف ابن عمه موسيقياً للبلاط فى أيزيناخ . وكان فى ١٦٦٨ ، قد تزوج اليزابيث لاميرهيرت ، ابنة تاجر فراء أصبح عضــوا فى مجلس المدينة . فأنجب منها بنتين وستة أبناء . وارتقى أكبر الأبناء ، وهو يوهان كريستوف باخ ، إلى وظيفة عازف الأرغن فى أوردورف . والتحق ابن آخر ؛ هو يوهان ياكوب باخ ، بالجيش السويدى عازفاً للأوبرا . وكان أصغر الأبناء هو يوهان سبستيان باخ .

٥ — يوهان سبستيان باخ : ١٦٨٥ - ١٧٥٠

ا — مراحـــل حياته

ولد في ٢١ مارس ١٦٨٥ بأيزيناخ في دوقية ساكسيفايمار : وفى « الكوتهاوس » المشرف على ميدان لوثر كان المصلح الدينى العظيم قد عاش صباه ، وعلى تل مشرف على المدينة قامت فارتبورج ، القلعة التى اختبأ فيها لوثر من شارل الخامس (١٥٢١) وترجم العهد الجديد ، إن أعمال باخ أشبه بالإصلاح البروتستنتى ملحناً .

ماتت أمه وهو فى التاسعة ، ومات أبوه بعد ثمانية أشهر ، وضم يوهان سبستيان وشقيقه يوهان باكوب إلى أسرة أخيهما يوهان كريستوف . وفى « الجمنازيوم » بأيزيناخ تلقى سبستيان الكثير من تعاليم المسيحية وبعض اللاتينية ، وفى « الليسيه » بمدينة أوردروف القريبة درس اللاتينية ، واليونانية ، والتاريخ ، والموسيقى . وكان متقدماً فى فرقته ، فرقى بسرعة وكان أبوه قد علمه الكمان ، وعلمه أخوه كريستوفر البيان القيثارى . وعكف بشغف على هذه الدراسات الموسيقية ، وكأن الموسيقى تجرى فى عروقه . ونسخ عدداً كبيراً من المؤلفات الموسيقية التى لم تكن ميسرة له بانتظام نسخاً كاملا . وهكذا بدأ الأذى الذى لحق ببصره فيما يظن البعض .

فلما ناهز سبستيان الخامسة عشرة انطلق ليكسب قوته تخفيفاً عن أسرة يوهان كريستوف المتزايدة . فوجد وظيفة مغن سوبرانو فى مدرسة دير القديس ميخائيل بلونيبرج ، فلما تغـــير صوته احتفظت به المدرسة عازفاً للكمان فى الأوركسترا . ومن لونيبرج زارهمبورج ، التى تبعد عنها ثمانية وعشرين ميلا ، ربما للذهاب إلى الأوبرا ، ولكن بالتأكيد للاستماع إلى عزف يوهان ادم راينكن ، عازف أرغن كنسية القديسة كاترين البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً . ولم تجتذبه الأوبرا ، ولكن فن الأرغن استهوى روحه القوية النشيطة ، ففن تلك الآلة الشامخة استشعر تحدياً

لكل طاقته ومهارته . فما وافت سنة ١٧٠٣ حتى كان قد بلغ من البراعة فى العزف عليها مبلغاً حمل الكنيسة الجديدة بآرنشستات (القريبة من أرفورت) على استخدامه ليعزف ثلاث مرات كل أسبوع على الأرغن الكبير الذى ركب فى الكنيسة مؤخراً ، والذى ظل مستعملا حتى ١٨٦٣ . أما وقد أطلقت يده فى استعمال هذه الآلة لدراساته ، فإنه بدأ الآن تلحين أول أعماله الهامة .

وقد أبقاه الطموح دائم التحفز للنهوض بفنه . ونمى إليه أن أشهر عازف على الأرغن فى ألمانيا ، ديترش بوكستهودى ، سيعزف فى مدينة لوبيك على بعد خمسين ميلا منه ، سلسلة من الألحان فيما بين عيد القديس مارتن وعيد الميلاد فى كنيسة مريم . فطلب إلى مجلس كنيسته أجازة شهر ، فمنح الأجازة ، وأناب ابن عمه يوهان ارنست فى أداء عمله وصرف راتبه ثم انطلق راجلا إلى لوبيك (أكتوبر ١٧٠٥) . وقد رأينا هاندل وماتيزون يقومان بمثل رحلة الحج هذه . ولم يغر باخ بزواج ابنه بوكستهودى لقاء وراثة وظيفة ، إنما كان يريد أن يدرس أسلوب الأستاذ فى العزف على الأرغن . ولا بد أن هذا أو شيئاً غيره قد استهواه ، لأنه لم يعد إلى أرنشتات حتى منتصف فبراير . وفى ٢١ فبراير ١٧٠٦ وبخه مجلس الكنيسة على مده إجازته ، وعلى ادخال « تنويعات غريبة » فى استهلالات ترانيمه الجماعية . وفى ١١ نوفمبر أنذر لتقصيره فى تدريب فرقة الترتيل تدريباً كافياً ، ولسماحه سراً « لعذراء غريبة بالترتيل فى الكنيسة » . (ولم يكن يسمح للنساء بعد بالترتيل فى الكنيسة) . أما الفتاة الغريبة فكانت ماريا بربارة باخ ، ابنة عمه . وقدم من الاعتذارات ما استطاع تقديمه ، ولكنه استقال فى يونيو ١٧٠٧ ، وقبل وظيفة عازف الأرغن لكنيسة القديس بلازيوس بمولهاوزن . وتقرر أن يكون راتبه السنوى خمسة وثمانين جولدينا ، وثلاثة عشر بوشلا من القمح ، وكردين من الخشب ، وست حزم من الحطب ، وثلاثة أرطال من السمك — وهو راتب يعد حسناً جداً بالنسبة للزمان والمكان[٤٢] وفى ١٧ أكتوبر تزوج ماريا بربارة .

ولكن تبين له أن مولهاوزن متعبة كأرنشتات . ذلك أن جزءاً من المدينة

كان قد احترق ، ولم يكن أهلها المرهقون فى حال يتقبلون معها هـذه التنويعات الغريبة ، وكان شعب الكنيسة ممزقاً بين اللوتريين السنيين المولعين بالترتيل ، والتقويين الذين يعتقدون أن الموسيقى أقرب الأشياء إلى الكفر . وكانت فرقة المرتلين تشكو الفوضى ، وباخ يستطيع إحالة الفوضى نظاماً فى الأنغام لا فى الرجال . فلما تلقى دعـوة ليصبح عازف أرغن ومديراً للاوركسترا فى بلاط فلهلم إرنست دوق ساكسيفيمار ، توسل إلى رؤسائه أن يخلوا سبيله (٤٣) . وفى يونيو ١٧٠٨ انتقل إلى وظيفته الجديدة .

وكان يتلقى راتباً طيباً فى فيمار — ١٥٦ جولدينا فى العام ، رفعت إلى ٢٢٥ فى ١٧١٣ ، واستطاع الآن أن يطعم الأفراخ التى كانت ماريا بربارة تفقسها . ولم يقنع بحاله تماماً ، لأنه كان خاضـعاً لرئيس المرتلين فى الكنيسة يوهان دريزى ، ولكنه أفاد من صداقة يوهان جوتفريد فالتر ، عازف الأرغن فى كنيسة المدينة ، ومؤلف أول قاموس موسيقى ألمانى (١٧٣٢) ، وملحن كورالات لا تقل جودة عن كورالات باخ . وربما اضطلع بدراسة الموسيقى الفرنسية والإيطالية باهتمام الآن بفضـل فالتر المثقف . وقد أحب فريسكوبالدى وكوريللى ، ولكنه افتتن جـداً بكونشرتات الكمان التى وضعها فيفالدى ، ونقل تسعة منها لآلات أخرى . وكان أحياناً يدخل شذرات مما نقل فى ألحانه . ونستطيع أن نحس أثر فيفالدى فى كونشرتات براندنبورج ولكنا نحس فيها أيضاً روحاً أعمق وفناً أغنى .

أما أهم واجباته فى فيمار فعزف الأرغن فى كنيسة القلعة (شلوسكيرشى) . هناك كان فى متناوله أرغن صغير ولكنه مجهز تجهيزاً كاملا . وألف لهذه الآلة الـكثير من أعظم قطعه الأرغنية : الباساكاليا والفوجه فى مقام C الصغير ، وأفضل التوكاتات ، ومعظم الاستهلالات والفوجات الـكبيرة ، وكتاب الأرغن الصـغير (أورجلبوخلاين) . وكانت شهرته إلى الآن عازف أرغن لا ملحناً . وقد تعجب المشاهدون ، ومنهم ما تزون الناقد ، لخفة حركته فى استعمال المفاتيح ، والدواسات ، والضوابط ، وصرح أحدهم بأن قدمى باخ «تطيران على لوحة الدواسة كأنما كان لها جناحان» (٤٤)

ودعي ليعزف في هالي ، وكاسل ، وغيرهما من المدن . وفي كاسل (١٧١٤) أعجب به ملك السويد القادم فردريك الأول إعجاباً حمله على أن يخلع من اصبعه خاتماً ماسياً ويعطيه لباخ . وفي ١٧١٧ ، التقى باخ في درسدن بجان لوى مارشان الذى ذاع صيته في الأرض عازف أرغن للويس الخامس عشر . واقترح بعضهم مباراة بين العازفين ، واتفقا على اللقاء في بيت الكونت فون فلمنج ، وكان على كل منهما أن يعزف بمجرد النظر أى لحن أرغنى يوضع أمامه . وحضر باخ في الساعة المحددة ، ولكن مارشان رحل عن درسدن قبله لأسباب مجهولة الآن ، فأتاح لباخ نصراً غيابياً لم يشرح صدره .

على أن القوم تخطوه في الترقية ، رغم اجتهاده وشهرته المتزايدة ، حين مات رئيس عازفي فيمار ، وأعطيت الوظيفة لابن الميت . وكان باخ في حالة استعداد نفسي لتجربة بلاط جديد . وعرض عليه ليوبولد أمير أنهالتكوتن وظيفة رئيس عازفيه . ولكن دوق ساكسيفيمار الجديد ، فلهلم أوجسطس ، رفض أن يخلى سبيل عازف أرغنه . وألح باخ عليه ، فسجنه (٦ أبريل ١٧١٧) ، وثابر باخ على اصراره ، فأطلقه الدوق (٢ ديسمبر) ، وهرول باخ بأسرته إلى كوتن . ولما كان الأمير ليوبولد كلفنيا لا يوافق على موسيقى الكنيسة ، فقد كانت وظيفة باخ أن يدير أوركسترا البلاط ، الذى كان الأمير نفسه يعزف فيه الفيولا دا جامبا (فيولا الساق) . وعليه ففي هذه الفترة (١٧١٧ — ٢٣) ألف باخ الكثير من موسيقى الحجرة ، بما فيها السويتات الانجليزية والفرنسية . وفي ١٧٢١ أرسل إلى كرستيان لودفج حاكم براندنبورج الكونشرتات التي تحمل ذلك الاسم .

تلك كانت في أكثرها سنوات سعيدة ، لأن الأمير ليوبولد أحبه ، واصطحبه في رحلات شتى ، وأظهر في فخر موهبة باخ ، وظل صديقا له يوم فرق التاريخ بين طريقيهما . ولكن حدث في يوليو ١٧٢٠ أن ماتت ماريا بربارة بعد أن ولدت لباخ سبعة أطفال ظل أربعة منهم على قيد الحياة . وبكاها سبعة عشر شهراً ، ثم اتخذ له زوجة ثانية تسمى أنا مجدلينا فولكن ، ابنة نافخ بوق في أوركستراه . وكان الآن في السادسة والثلاثين ، وهي

لا تتجاوز العشرين ، ومع ذلك قامت خير قيام بما ناطها به من واجب — وهو أن تكون أماً وفية لأطفاله . أضف إلى ذلك أنها كانت تعرف الموسيقى ، فساعدته فى تلحينه ، ونسخت مخطوطاته ، وغنت له بصوت وصفه بأنه « سوبرانو شديد الصفاء » (٤٥) . وقد أنجبت له ثلاثة عشر طفلا ، مات سبعة منهم قبل أن يبلغوا الخامسة . لقد نزلت بتلك الأسرة العجيبة فواجع كثيرة . وقد أزعجت باخ مشكلة تعليم أطفاله بازدياد عددهم . وكان لوثريا متحمساً ، كره الكلفنية الكئيبة التى سيطرت على كوتن . فأبى أن يرسل أطفاله إلى المدرسة المحلية التى تعلم العقيدة الكلفنية . ثم إن أميره المحبوب تزوج (١٧٢١) أميرة شابه قللت مطالبها من ليوبولد من اهتمامه بالموسيقى . ومرة أخرى رأى باخ أن قد آن أوان التغيير . لقد كان روحاً قلقة ، ولكن القلق صنعه . ولو أنه ظل فى كوتن لما سمعنا به قط .

وحدث فى يونيو ١٧٢٢ أن مات يوهان كوناو ، بعد أن شغل عشرين عاماً وظيفة قائد فرقة الترتيل فى مدرسة توماس بليبزج . وكانت مدرسة خاصة ذات سبعة صفوف وثمانية مدرسين تهتم بتدريس اللاتينية والموسيقى واللاهوت اللوثرى . وكان على الطلاب والخريجين ، بإشراف قائد فرقة الترتيل ، أن يقدموا الموسيقى للكنائس المدنية . وكان القائد خاضعاً لمدير المدرسة والمجلس البلدى الذى يدفع الرواتب .

وطلب المجلس إلى تيلمان أن يشغل الوظيفة الشاغرة ، لأنه حبذ الأسلوب الإيطالى الذى اتسمت به ألحان تيلمان ، ولكنه رفض . فعرضها على كريستوفر جراوبنر قائد فرقة المرتلين فى دارمشتات . ولكن رئيس جراوبنر أبى أن يحله من عقده . وفى ٧ فبراير تقدم باخ للمجلس طالباً الوظيفة . وارتضى شتى الاختبارات التى أجريت عليه للتأكد من كفايته . ولم يشك أحد فى مهارته عازفاً للأرغن . ولكن بعض أعضاء المجلس رأوا أن أسلوب ألحانه يتسم بروح محافظة شديدة (٤٦) . وكان اقتراح أحدهم هو « بما أن خيرة الموسيقيين لم يتاحوا لنا ، فلا مفر من أن نستخدم رجلا متوسط الكفاية (٤٧) » . واستخدم باخ (٢٢ أبريل ١٧٢٣) بشرط أن يقوم بتدريس اللاتينية فضلا عن الموسيقى

وأن يحيا حياة التواضع والهدوء ، وأن يوقع بقبوله العقيدة اللوثرية ، وأن يبدى للمجلس «كل الاحترام والطاعة الواجبين» وألا يغادر المدينة قط بغير إذن من العمدة . وفى ٣٠ مايو أسكن هو وأسرته فى جناح المدرسة السكنى ، وبدأ واجباته الرسمية . وظل يشغل هذه الوظيفة الثقيلة الأعباء حتى مماته .

وأخذ منذ الآن يلحن معظم مؤلفاته الموسيقية ، فيما عدا القداس بمقام «ب» الصغير ، لاستخدامها فى كنيستى ليبزج الرئيسيتين — كنيسة القديس توماس وكنيسة القديس نيقولا . وكانت خدمات الكنيسة يوم الأحد تبدأ فى السابعة صباحاً بمقدمة على الأرغن ، ثم يرتل القسيس الصلاة الافتتاحية ، وترتل فرقة المرتلين كيريا (مطلع صلاة كيرياليسون — أى يا رب ارحمنا) ، ويرتل القسيس والفرقة — وأحياناً المصلون — ترتيلة « جلوريا » (أى المجد لله فى الأعالى) بالألمانية ، ثم يرتل المصلون ترتيله . ويرتل القسيس الإنجيل وقانون الايمان ، ويعزف عازف الأرغن مقدمة ، وترتل الفرقة كنتاتا ، والمصلون ترتيلة « نؤمن كلنا بإله واحد » ، ويلى ذلك عظة للقسيس تمتد ساعة ، يعقبها الصلاة ثم البركة . وبعد ذلك يأتى تناول القربان المقدس ، ثم ترنيمة أخرى . وتنهى هذه الخدمة فى الساعة العاشرة شتاء والحادية عشرة صيفاً . وفى الحادية عشرة يتناول الطلاب والمدرسون الغداء فى المدرسة . وفى الواحدة والربع بعد الظهر تعود الفرقة إلى الكنيسة لصلاة المساء ، ومزيد من الصلوات ، والترانيم ، والعظة ، وتسبحة « تعظم نفسى الرب **Magnificat** » فى صيغتها الألمانية . وفى الجمعة الكبيرة ترتل الفرقة لحن آلام المسيح . ولكى يؤدى باخ الموسيقى لهذه الخدمات كلها درب فرقتين ، كل منهما من نحو اثنى عشر عضواً ، وأوركسترا يعزف على نحو ثمانى عشرة آلة . وكان المغنون المنفردون جزءاً من الفرقة ، يرتلون معها قبل ألحانهم ومقاطعهم الملحونة وبعدها .

ولقاء هذه الخدمات المعقدة التى أداها باخ فى ليبزج كان يتقاضى راتباً بلغ فى المتوسط سبعمائة طالر فى السنة ، يدخل فيه نصيبه من مصروفات التلاميذ المدرسية ، وأتعابه نظير تقديم الموسيقى فى الأفراح والمآتم .

وكانت سنة ١٧٢٩ ، التي جاءت بـ « لحن آلام المسيح كما رواها القديس متى » ، في حساب باخ سنة سيئة ، لأن الجو اعتدل جداً حتى عز الموتى (٤٨) . وكان بين الحين والحين يكسب بعض المال الإضافي من قيادة الحفلات الموسيقية العامة للجماعة الموسيقية . وحاول أن يزيد من دخله بالمطالبة بالاشراف على الموسيقى في كنيسة القديس بولس الملحقة بجامعة ليبزج . وعارضه بعض منافسيه عليها ، فظل سنتين في خلاف مع السلطات الجامعية وانتهى إلى حل وسط غير مرض لكل الأطراف المعنية .

ثم خاض معركة طويلة أخرى مع المجلس البلدي الذي يختار الطلبة لمدرسة توماس ، ذلك أن أعضاء المجلس نزعوا إلى أن يرسلوا له طلاباً اختيروا بفضل نفوذ سياسي لا لكفاية موسيقية فيهم . فلم يستطيع باخ أن يصنع من هؤلاء الوافدين الجدد مرتلين لا للسوبرانو ولا للجهير ، وفي ٢٣ أغسطس ١٧٣٠ أودع المجلس احتجاجاً رسمياً ، وكان رد المجلس أن رماه بأنه معلم غير كفء وضابط للنظام ضعيف ، وبأنه كان يفقد أعصابه وهو يوبخ التلاميذ ، وبأن الفوضى تستشري في فرق الترتيل وفي المدرسة . (٤٩) وكتب باخ إلى صديق بلوينبرج يطلب إليه أن يساعده في العثور على وظيفة أخرى . فلما لم يفتح في وجهه باب التمس (٢٧ يوليو ١٧٣٣) من أوغسطس الثالث ، ملك بولنده الجديد ، أن يعطيه في بلاطه منصباً ولقباً يحميانه مما يلقاه من « إهانات لا يستحقها » وأبطأ أوغسطس في الاستجابة ثلاث سنوات ، وأخيراً (١٩ نوفمبر ١٨٣٦) خلع على باخ لقب « ملحن البلاط الملكي » . وكان المدير الجديد لمدرسة توماس خلال ذلك ينازع باخ حقه في تعيين عرفاء الفرقة وتأديبهم وجلدهم . وطال النزاع شهوراً ، وطرد باخ مرتين العريف الذي عينه إرنستي من منصة الأرغن ، وأخيراً ثبت الملك سلطة باخ .

لم تكن حياته قائداً للمرتلين في ليبزج إذن بالحياة السعيدة . فلقد سكب روحه وطاقته في ألحانه وفي أدائها ، فلم يبق بعد ذلك شيء كثير لممارسة التربية أو الدبلوماسية . وقد وجد بعض العزاء في صيته الذائع ملحناً وعازف أرغن . وقبل الدعوات للعزف في فيمار ، وكاسل ، وناومبورج ، ودرسدن ، ونقد أجراً على هذه الحفلات العارضة وعلى اختباره للأراغن . وفي ١٧٤٠

عين ابنه كارل فليب امانويل صناجاً فى أوركسترا كنيسة فردريك الأكبر . وفى ١٧٤١ زار باخ برلين ، وفى ١٧٤٧ دعاه فردريك لحضور وتجربة البيانات التى اشتراها مؤخراً من جوتفريد زلبرمان . وأدهشت الملك ارتجالات « باخ العجوز » . وتحداه أن يرتجل فوجة فى ستة أقسام . فأبهجته استجابة باخ . ولما عاد باخ إلى ليبزج لحن ثلاثية للفلوت ، والكمان ، والبيان القيثارى ، وأرسلها هى وقطعاً أخرى « هدية موسيقية » للملك عازف الفلوت . بوصفه « ملكاً هو محط الإعجاب فى الموسيقى كما فى جميع فنون الحرب والسلام الأخرى » (٥٠) . وفيما خلا هذه الفواصل المثيرة ، كرس باخ نفسه بإخلاص مضن لواجباته قائداً للمرتلين ، ولحبه لزوجته وأبنائه ، وللتعبير عن فنه وروحه فى أعماله .

٢ — مؤلفاته الموسيقية

(أ) — الآلية :

كيف نعتذر لاجترائنا على هذا العرض لضخامة إنتاج باخ وتنوعه دون أن تتوافر لنا كفاية المحترفين للقيام بهذه المهمة ؟ ليس فى وسعنا أن نفعل شيئاً هنا ، اللهم إلا أن نقدم للقراء قائمة تجملها المحبة لباخ .

فلنبدأ إذن بمؤلفاته للأرغن . فالأرغن ظل غرامه المقيم . لم يضارعه فيه أحد غير هاندل الذى فقد وراء البحار . كان باخ يحب أحياناً أن يفك كل ضوابطه لمجرد اختبار رئاته وجس قوته . وكان يلهو به لهوه بآلة دانت لسيطرته تماماً ، وخضعت لكل شطحاته . ولكنه فى استبداده هذا وضع حداً لأهواء العازفين بتحديده الأوتار التى يجب استعمالها بعلامات الجهير (الباص) المدونة ، وذلك بأرقام فى أسفلها . وهذا هو الجهير « المرقم » أو الكامل الذى يعين السلسلة المتصلة التى ينبغى أن يصاحب بها الأرغن أو البيان القيثارى الآلات الأخرى أو الصوت .

وخلال مقام باخ فى فيمار أعد لابنه الأكبر ولغيره من الطلاب « كتيباً للأرغن » من خمسة وأربعين استهلالا كوراليا ، وأهداه إلى « الإله العلى وحده

تمجيداً له ، وإلى جارى لكى يعلم به نفسه » .وكانت وظيفة الاستهلال الكورالى أن يكون مقدمة بالآلات لترنيمة جماعية ، ليرسم موضوعها ويحدد طابعها . ورتبت هذه الاستهلالات لتؤلف متتاليات ملائمة لعيد الميلاد ، ولأسبوع الآلام ، وعيد القيامة ، وظلت وقائع السنة الكنيسية هذه إلى النهاية الشغل الشاغل لموسيقى باخ الأرغنية والصوتية . وهنا منذ البداية ، فى كورال « Alle Menschen mussen sterben » (كل البشر مصيرهم الموت) ، تلتقى بموضوع من موضوعات باخ التى يعود إليها المرة بعد المرة ، ويخفف منه على الدوام عزمه على مواجهة الموت بالإيمان بقيامة المسيح بشيراً بقيامتنا . وسنسمع هذه النغمة ذاتها بعد سنوات فى الكورال الحزين « Komm, susser tod » (تعال أيها الموت الحلو) . ويرافق هذه التقوى الغامرة فى هذه الاستهلالات ، وفى ألحان باخ الآلية بوجه عام ، مرح صحى ، فتراه يطفر أحياناً فوق المفاتيح فى فرحة تنويعات تذكرنا بشكاوى مجلس كنيسة أرنشتات منه .

وبلغت جملة ما خلفه باخ من المقدمات الكورالية ١٤٣ ، يعدها دارسو الموسيقى أول أعماله عليه وأكملها من الناحية التقنية . فهى قصائده الغنائية كما أن القداسات وألحان الآلام ملاحمه . وقد طوف بسلم الأشكال الموسيقية كلها ، ولم يسقط منه غير الأوبرا لأنها غريبة على وظيفته ومزاجه ، ومفهومه عن الموسيقى قرباناً لله قبل كل شىء . ولكى يفسح لفنه مجالا أرحب أضاف فوجة للمقدمة ، فجعل فكرة الجهير تتابع نفس الفكرة الرئيسية فى الندى ، أو العكس ، فى لعبة متشابكة أبهجت نفسه الولوعة بالطباق الموسيقى . فترى لحن المقدمة والفوجة بمقام E الصغير يبدأ ببساطة مغرية ، ثم يحلق فى أجواء معقدة من الغنى والقوة تكاد تلقى الرعب فى أذن السامع . أما لحن المقدمة والفوجة بمقام D الصغير فهو باخ على أروعه بناءاً ، وصنعة فنية ، وتطويراً للفكرة الرئيسة ، وخصوبة تصورية ، وقوة عارمة . وربما كان أروع من هذا إلباسا كاليا والفوجه بمقام C الصغير . وقد أطلق الأسبان اسم Pasacalle على اللحن الذى يعزفه موسيقى « عابر بالطريق » ؛ وأصبح فى إيطاليا لوناً من الرقص ، أما فى باخ فهو فيض جليل من النغم ، يجمع بين البساطة والتأمل والعمق .

وألف باخ للأرغن أو موترة المفاتيح اثنتى عشرة توكاتات tocattas أى قطعاً تستطيع أن تمرن « لمس » العازف . وكانت تحتوى عادة على ضربات سريعة على لوحة المفاتيح ونغمات عالية جريئة ، وأخرى خافتة رقيقة ، وفوجه من النغمات يدوس بعضها أعقاب بعض فى دعابة وعبث . وقد ظفرت التوكاتا والفوجه فى مقام D الصغير ، فى هذه المجموعة ، بأكبر عدد من المستمعين ،وبعض ، الفضل فى هذا راجع لألحان أوركسترالية مكيفة كانت أنسب من الأرغن للأذن العصرية غير الكنسية . ومن بين التوكاتات السبع الموضوعة لموترة المفاتيح أو البيان القيثارى ، يتبدى باخ هنا أيضاً فى التوكاتا بمقام C الصغير وقد ملك ناحية صنعته فى ثقة كاملة — فهى فرحة من مزج الألحان تعقبها حركة بطيئة كلها عذوبة صافية مهيبة .

وليس من السهل علينا نحن الذين حرمنا الأنامل الماهرة والآذان المرهفة أن نقدر اللذة التى استشعرها باخ ومنحها سامعيه فى مؤلفاته التى وضعها لموترة المفاتيح — التى كانت بالنسبة له تعنى البيان القيثارى عادة . فعلينا أولا أن نفهم مبادىء البناء التى اتبعها فى تطوير بضع نغمات فكرة رئيسية إلى بناء مفصل معقد ولكنه منظم — أشبه بقطعة فنية من الطراز العربى فى سجادة فارسية أو محراب جامع ، تسرح بعيداً عن قاعدتها وكأنها تحررت من كل القيود ، ولكنها تفعل ذلك دائماً فى منطق يضيف الإشباع العقلى إلى لذة الشكل الحسية . ثم علينا أن نستعير سحر يدى باخ . لأنه ابتكر فى العزف فناً يتطلب الاستخدام الكامل لأصابع اليدين كلها (بما فيها الإبهام) ، فى حين قل أن تطلب من سبقوه أكثر من الأصابع الثلاث الوسطى فى مؤلفاتهم لموترة المفاتيح . ولقد أحدث ثورة حتى فى وضع اليد . فقد نحا العازفون قبله إلى الاحتفاظ بيدهم مبسوطة أثناء ضربهم المفاتيح . ولكن باخ علم تلاميذه أن يحنوا اليد حتى تضرب جميع الأنامل المفاتيح فى نفس المستوى . وبغير هذه الطريقة كان يستحيل ظهور عازف مثل ليست .

وأخيراً ، حين اقتبس باخ نظاماً اقترحه أندرياس فركمايستر فى ١٦٩١ ، طالب بضبط الأوتار فى الآلات ضبطاً متوسطاً متكافئاً ، بحيث يقسم

« الجواب » إلى اثنى عشر نصف نغمة متساوية تماماً ، فلا يحدث أى تنافر عند الانتقال من مقام إلى مقام . وكان فى حالات كثيرة يصر على أن يضبط بنفسه البيان القيثارى الذى سيعزف عليه (٥١) . لذلك وضع كتابه « البيان القيثارى الصحيح الضبط » (الجزء الأول ، ١٧٢٢ والجزء الثانى ، ١٧٤٤) : ثمان وأربعون مقدمة وفوجة — اثنتان لكل مقام كبير وصغير — « لاستعمال وتمرين شباب الموسيقين الراغبين فى التعليم ، ولمن حذقوا هذه الدراسة أيضاً على سبيل التسلية » كما نص عليه العنوان الأصلى للكتاب . والقطع ذات أهمية كبرى للموسيقيين ، ولكن الكثير منها أيضاً يستطيع أن يبتعث فينا فرحة باخ أو شعوره المتأمل ، وهكذا نرى جونو يقتبس المقدمة بمقام C الكبير ، فى شكل محور ، لتكون لحناً مصاحباً على آلة منفردة (أوبلجاتو) لحنه « السلام يا مريم » . وقد وجدت بعض النفوس العميقة ، مثل ألبرت شفايتسر ، فى هذه المقامات والفوجات « عالمأمن السلام » وسط ضجيج الصراع البشرى (٥٢) .

ثم أصدر باخ ، الذى لم يكن لخصوبته نهاية ، فى ١٧٣١ الجزء الأول من كتابه « كلافيروبونج » (أى تمرينات على موترة المفاتيح) وقد وصفه بهذه العبارة « تمرينات من مقدمات ، وموسيقى للرقصات الألمانية (المائد) والكورانت ، والسراباند ، والجيج ، والمنويت ، وغيرها من اللطائف ، مؤلفة على سبيل الترويح الذهنى عن محبى الفن » . (٥٣) وأضاف إلى هذين الجزئين أجزاء ثلاثة فى سنوات لاحقة . حتى أصبح الكتاب فى النهاية متضمناً لأشهر مؤلفاته : « مبتكرات » و « بارتيتات » ، وسنفونية ، و « ألحان جولدبرج المحورة » و « الكونشرتو الإيطالى » ، وبعض المقدمات الكورالية الجديدة للأرغن . وذكر المخطوط أنه يقدم « المبتكرات مرشداً أميناً يهدى محبى الموترة إلى طريق واضح .. لا لاكتساب الأفكار الجيدة (المبتكرات) فحسب ، بل لوضعها بأنفسهم .... ولاكتساب أسلوب غنائى فى العزف ، و . . . ميل قوى إلى التلحين » (٥٤) . وبهذه الأمثلة كان فى استطاعة الطالب أن يرى كيف يمكن تطوير الفكرة الرئيسية ، متى وجدت ، بالمزج بين الألحان عادة ، تطويراً منطقياً لتبلغ خاتمة موحدة . وقد لعب

باخ بفكراته كأنه حاو مرح ، فهو يقذف بها فى الهواء ، ويقلبها بطناً لظهر ، ويقلبها رأساً على عقب ، ثم يقيمها على قدميها سالمة من غير سوء . إن الأنغام « والتيمات » لم تكن طعامه وشرابه والهواء الذى يتنفسه فحسب ، بل كانت إلى ذلك تسليته وراحته .

وكانت البارتيتات تسليات شبيهة بما ذكرنا . وقد أطلق الإيطاليون لفظ « بارتيتا Partita على اللحن الراقص ذى الأقسام المختلفة . فالبارتيتات بمقام D الصغير و B الكبير اتخذت خمسة أشكال راقصة : « الألماند » أو الرقصة الألمانية ، و الكورانت الفرنسية ، والسراباند ، والمنويت ، والجيج . ويظهر هنا تأثير العازفين الإيطاليين ، الذى شمل حتى مصالبة اليدين ، التى كانت حيلة محببة لدومنيكو سكارلاتى وهذه القطع تبدو لنا اليوم تافهة القيمة ، ولكن يجب أن نتذكر أنها لم تؤلف للبيانو فورت الجبار ، بل لموترة المفاتيح الهشة ، وفى وسعها — إذا لم نشتط فيما نطلبه منها — أن تمنحنا بهجة فريدة فى بابها .

وأعسر من هذه هضماً « ألحان جولدبرج المنوعة » . ويوهان تيوفيلوس جولدبرج هذا كان عازف موترة مفاتيح للكونت هرمان كايزرلنج ، السفير الروسى لدى بلاط درسدن . فلما زار الكونت ليبزج اصطحب معه جولدبرج ليهدىء أعصابه بالموسيقى التماساً للنوم . وفى هذه المناسبات تعرف جولدبرج إلى باخ وهو مشوق إلى تعلم طريقته الفنية فى العزف على لوحة المفاتيح ؛ وأعرب كايزرلنج عن رغبته فى أن يؤلف باخ قطعاً للموترة من نوع « يدخل عليه شيئاً من البهجة فى لياليه المؤرقة » (٥٥) . وتفضل باخ بتأليف « لحن ذى ثلاثين تنويعاً » أثبت أنه علاج شاف للأرق . وكافأه كايزرلنج بقدح ذهبى يحوى مائة جنيه من الذهب . ولعله هو الذى حصل لباخ على تعيينه ملحناً لبلاط الملك — الناخب السكسونى .

على أن فن باخ لا قلبه هو الذى كان فى هذه التنويعات . فتراه يهدى الموترة بشعور ولذة أعظم ، سبعة توكاتات ، وسوناتات كثيرة ، و « فنتازيا وفوجه ملونة » بمقام D الصغير ، و « كنشرتو إيطالية » حاول فيها بحيوية وروح مذهلتين ، أن ينقل إلى لوحة المفاتيح تأثيرات الأوركسترا الصغير .

وثمة شكل موسيقى وجد سبيله إلى جميع مؤلفاته الأوركسترالية تقريباً — وهو الفوجه . وقد وفدت كمعظم الأشكال الموسيقية من إيطاليا ، ولاحقها الألمان فى مطاردة مشبوبة طغت على موسيقاهم حتى مجيء هايدن . وأجرى عليها باخ تجاربه فى « فن الفوجة » ، فأخذ فكرة واحدة وبنى منها أربع عشرة فوجة وأربعة اتباعات فى متاهة فن مزج الألحان تبين كل ضرب من التقنية الفوجية . وقد خلف المخطوطة ناقصة عند موته ، فنشرها ابنه كارل فليب إيمانويل (١٧٥٢) ولم يبع منها غير ثلاثين نسخة . ولا عجب فعصر البوليفونى (تعدد النغمات) ، والفوجة كان فى طريقه إلى الزوال بزوال أعظم أساتذته ، وأخذ فن مزج الألحان يخلى السبيل للهارمونى .

ولم يكن ولوعاً بالكمان ولعه بالأرغن وموترة المفاتيح . لقد بدأ حياته عازف كمان وكان أحياناً يعزف على الفيولا فى المجموعات الموسيقية التى يقودها فى نفس الوقت ، ولكن بما أن أحداً من معاصريه أو أبنائه لم يذكر شيئاً عن عزفه على الكمان ، فلنا أن نفترض أنه لم يكن يتجلى فى تلك الآلة . على أنه لا بد كان قديراً فى العزف عليها ، لأنه ألف للكمان والفيولا موسيقى غاية فى الصعوبة ، يغلب على الظن أنه كان على استعداد لعزفها بنفسه . وتعرف دنيا الموسيقى الغربية كلها « الشاسون » التى اختتم بها بارتيتا بمقام D الصغير الكمان المفرد ، فهى آية فى الأسلوب الفنى ألف كل عازف كمان أن يهفو إليها هدفاً أعظم له . وقد يرى فيها بعضنا استعراضاً كريهاً من الحواية والشعوذة — أشبه بحصان يعذب قطه على مراحل عديدة . أما عند باخ فقد كانت محاولة جريئة ليحقق على الكمان عمق الأرغن وقوته البوليفونيين . فلما نقل بوزونى اللحن إلى البيانو ، أصبحت البوليفونية أكثر طبيعية ، وكانت النتيجة باهرة . (وعلينا ألا نتعالى على هذه المنقولات وإلا وجب أن ندين باخ ذاته) .

فإذا وصلنا إلى مؤلفات باخ التى أعدها لأوركستراه الرقيق ، وجدت فيها حتى الأذن غير المحترفة الكثير مما يشبه القصائد التى تتغنى للفرح والبهجة . ولابد أن الهدية الموسيقية التى أهداها لفردريك الأكبر قد أبهجته بألحانها المتألقة وهزته بأنغامها المتألقة نصف الشرقية . وقد كتب باخ بالإضافة

إلى البارتيتات أو المتتابعات فى « تمرينات الموترة » خمس عشرة متتابعة لرقصات . وسميت ستة منها بالمتتابعات الإنجليزية لأسباب نجهلها الآن ، وستة بالمتتابعات الفرنسية ، وهذه التسمية أوضح لأنها نسجت على منوال النماذج الفرنسية واستعملت ألفاظاً فرنسية بما فيها كلمة Suite (أى المتتابعة) ذاتها . وفى بعضها تطغى مهارة الصنعة ، فتسمع حتى الآلات الوترية تبعث أنغاماً يغلب عليها النفخ . ومع ذلك فإن أبسط الناس يستطيع أن يحس ذلك الجمال المهيب الذى يفيض به لحنه الشهير « أريوزو » أو « لحن لوتر المقام G » الذى يؤلف الحركة الثانية للمتابعة رقم ٣ . وقد نسيت هذه المؤلفات أو كادت بعد موت باخ ، حتى عزف مندلسون أجزاء منها لجيته فى ١٨٣٠ ، وأقنع أوركسترا قاعة تجار الأجواخ بليبزج ببعثها سنة ١٨٣٨ .

واقتبس باخ شكل الكونشرتو كما مارسه فيفالدى . واستخدمه فى شتى أنواع التشكيلات الآلية . والحركة البطيئة بطئاً مهيباً ، عند موسيقى واسع المزاج معتدل البطء ، تجعل كنشرتو الكمان بمقام D الصغير مبهجاً جداً ، كذلك فإن الحركة البطيئة فى كنشرتو الكمان رقم ٢ بمقام E هى التى تؤثر فينا بعمقها الحزين ورقتها المتأملة . وربما كان أعذب هذه القطع الموسيقية هو الكونشرتو بمقام D الصغير لكمانين ، والنشيط vivace منهما تصوير خالص دون لون ، كأنه شجرة دردار شتوية ، ولكن الأريث Largo لقطعة أثيرية من الجمال الصافى — الجمال المعتمد على ذاته ، دون « برنامج » أو أى شائبة فكرية تشوبه .

والكونشرتات براندنبورج تاريخها الخاص : ففى ٢٣ مارس ١٧٢١ بعث بها باخ إلى أمير ، نسيه الناس إلا فى هذا الأمر ، مشفوعة بهذه الرسالة بالفرنسية ، التى صاغها كاتبها بأسلوب عصره . قال :

إلى صاحب السمو الملكى الأمير كرستيان لودفج ، حاكم براندنبورج :
مولاى :

بما أننى تشرفت بالعزف أمام سموكم الملكى قبل عامين ، ولاحظت أنكم استشعرتم شيئاً من السرور بالموهبة المتواضعة التى حبتنى بها السماء فى الموسيقى ، وحين انصرفتم سموكم الملكى شرفتمونى بأمر لى بأن أبعث إليكم ببعض قطع

من تأليفى ، فإنى الآن عملا بأوامركم الكريمة أبيح لنفسى أن أقدم لسموكم الملكى احتر ماتى المقرونة بالتوضع الشديد ، مع الكونشرتات المرافقة ... متوسلا إليكم فى تواضع ألا تحكموا على نقصها بدقة ذلك الذوق الموسيقى المرهف الرقيق الذى يعرف الجميع أنكم تملكونه ، بل أن تتبينوا فى كرم ولطف ذلك الاحترام العميق والطاعة الشديدة المتواضعة اللذين قصدت بهذه القطع أن تشهد عليهما . وفيما عدا ذلك يا مولاى ، فإننى بكل تواضع أطلب إلى سموكم الملكى أن تجودوا بمواصلة أفضالكم على ، وبأن تثقوا بأنه ما من شىء أتوق إليه كرغبتى فى استخدامى فى شئون أجدر بكم وبخدمتكم ، لأننى يا مولاى ، بغيرة لا تعدلها غيرة ، خادمكم المتواضع جداً

جان سبستيان باخ (٥٦) .

ولا علم لنا هل شكر الحاكم لباخ هديته أو أثابه عليها ، ولعله فعل ، لأنه كان شغوفاً بالموسيقى ، يحتفظ بأوركسترا ممتاز . وعند موته (١٧٣٤) أدرجت الكونشرتات الستة ، بخط باخ الشديد العناية والتأنق ضمن ١٢٧ كونشرتو فى قائمة جرد وجدها شبيتا فى المحفوظات الملكية ببرلين . وفى هذه القائمة قدرت قيمة كل من هذه الكونشرتات بأربعة جروشينات (١ر٦٠ دولار) .

وتتبع كونشرتات براندبنورج شكل الكونشرتو الكبير الإيطالى — ألحان فى عدة حركات ، تعزف على مجموعة صغيرة من آلات غالية (الكونشرتينو) يصاحبها أوركسترا وترى (الريبينو أو التونى) . وقد استعمل هاندل والايطاليون كمانين وفيولونتشيللو للكونشرتينو ، أما باخ فقد نوع هذا بجرأته المعهودة ، وقدم كماناً ، وأوبوا ، وبوقاً ، وفلوتا آلات مقصدرة فى الكونشرتو الثانى ، وكماناً وفلوتين فى الكونشرتوا الرابع ، وموترة مفاتيح ، وكماناً ، وفلوتا فى الخامس ، وطور البنيان إلى تفاعل معقد بين الكونشرتينو والريبينو فى حوار حى — من الانفصال والتعارض ، والتداخل ، والاتحاد — لا يفهم فنه ومنطقه ويستمتع بهما غير الراسخين فى الموسيقى . أما من عداهم فقد يجدون بعض الفقرات مكررة تكراراً مملا ، نذكرهم بأوركسترا ريفى يقيس الوقت لرقصة ، ولكن حتى نحن نستطيع أن نحس بسحر

الحوار ورقته ، وأن نجد فى الحركات البطيئة سلاماً مهدئاً أنسب للقلوب المسنة والأرجل المتلكئة مما نجده فى دوامة الحركات العجلاء ، ومع ذلك فإن الكونشرتو الثانى يستهل بأعجل (الليجرو) خلاب . والرابع يضفى عليه البهجة فاوت لعوب ، أما الخامس فهو باخ فى أوجه .

(ب) الصوتية :

لم يستطيع باخ وهو يلحن للصوت أن يلقى جانباً كل ما طوره من حيل وخفة يد على لوحة المفاتيح ، ولا الجهود الجبارة المعذبة التى طالب بها أوركستراه ، فقد كتب للأصوات كأنها آلات لا يكاد يكون لحذقها ومداها حدود ، وكان ضنيناً فى الاستجابة لرغبة المرتل أو المغنى فى أن يتنفس . ونهج نهج عصره فى تمديد المقطع الواحد ليشمل ستة أنغام («كيريى — يلى — ى — ى — ى — ى — ييسون ») ، ومثل هذا الاستكثار من الأنغام لم يعد أسلوب العصر ، ولكن بفضل مؤلفاته للصوت حقق باخ شهرته الراهنة بوصفه أعظم ملحن فى التاريخ .

وقد حباه إيمانه الوطيد بالعقيدة اللوثرية إلهاماً حاراً يعدل أى إلهام وجده باليسترينا فى القداس الكاثوليكى . فكتب نحو أربع وعشرين ترنيمة وست موتيتات وفى الاستماع إلى إحدى هذه الست Singet dem Herrn (رنموا للرب) « شعر موتسارت أول ما شعر بعمق باخ . وكتب لجماهير المصلين ولكورسه كورالات قوية كانت كفيلة بأن تبهج قلب لوثر الشبيه بقلبه : « عند أنهار بابل » و « حين تشتد بنا الحاجة » ، و « تجملى أيتها النفس المباركة » وقد أثر هذا الكورال الأخير فى مندلسون تأثيراً عميقاً حتى قال لشومان « لو أن الحياة سلبتنى الرجاء والإيمان لردهما إلىّ هذا الكورال وحده »(٥٧) .

ولحن باخ لأعياد الميلاد ، والقيامة ، والصعود ، أوراتوريات — كانت تراتيل ضخمة للكوارس ، أو المرتلين المنفردين ، أو الأرغن ، أو الأوركسترا . وقد رتل أوراتوريو Weinachts Oratorium الميلاد ، كما يسمى الأورتوريو الأول ، فى كنيسة توماس فى ستة أقسام على ستة أيام بين عيد الميلاد وعيد

الظهور (الغطاس) ١٧٣٤ — ٤٥ . وأخذ من أعماله المبكرة نحو سبعة عشر لحناً أو كورساً ، مستعملا حقه الكامل فيما يملك ، ونسج منها قصة عن ميلاد المسيح استغرقت ساعتين . وكاد بعض ألحانه هذه التى سطا عليها لا ينسجم مع النص الجديد ، ولكن كان فى استطاعة السامع أن يغفر الكثير من الأخطاء فى لحن يقدم ، فى مطلعه تقريباً ، الكورس الذى يبدأ بهذه الكلمات «كيف ألقاك اللقاء الجدير بك ؟ » .

كانت الأوراتوريات فى صميمها تجميعات لكنتاتات . وكانت الكنتاتا ذاتها كورالا تتخلله الألحان . ولما كانت الخدمة اللوثرية كثيراً ما تطلب الكنتاتات ، فقد ألف باخ ثلاثمائة منها ، بقى منها إلى اليوم نحو مائتين . وقدحدت صلتها الوثيقة بالطقوس اللوثرية من عدد المستمعين لها فى زماننا هذا ، ولكن كثيراً من الألحان التى تضمنتها فيه جمال يسمو على أى لاهوت . وفى ڤيمار ، فى سنته السادسة والعشرين (١٧١١) كتب باخ أول كنتاتاته الرائعة « Actus tragieus التى تبكى مأساة الموت ولكنها تفرح برجاء القيامة . وفى ١٧١٤ — ١٧ خلد تقسيمات السنة الكنسية بطائفة من أروع كنتاتاته : فللأحد الأول من الآحاد الأربعة السابقة للميلاد Advent كتب « تعال الآن ، يا مخلص الوثنيين » . ولعيد القيامة ١٧١٥ كتب « السموات تضحك ، والأرض تبتهج » التى استعمل فيها ثلاثة أبواق ، ونقارية ، وثلاث أبوات وكمانين ، وفيولنتشيللوين ، وباصونا ، وسلسلة أنغام على لوحة المفاتيح لتعين الكورس ، وتحمل جمهور المصلين ، على أن يهتزوا طرباً بانتصار المسيح ؛ وكتب للأحد الرابع من الآحاد السابقة للميلاد فى ١٧١٥ ، « القلب والفم والعقل والحياة » مع الكورال الجذل المألوف » و «أويلجاتو » الأوبوا ، « يسوع ، يابهجة أشواق الإنسان » . وكتب للأحد السادس عشر بعد عيد الثالوث الأقدس ١٧١٥ ، « تعالى يا ساعة الموت الحلوة » . وفى ليبزج لحن تسبحة أخرى لقيامة المسيح « رقد المسيح فى سجن الموت المظلم » . وفى الذكرى المئوية الثانية لـ « إعلان العقيدة الأجزبورجى » لحن ترنيمة لوثر التى مطلعها « إلهنا حصن حصين » فى صورة كنتاتا تعد

الترنيمة فى قوتها ، ولكن ربما كانت أعنف من أن تكون تعبيراً مناسباً عن الإيمان .

وكان فى باخ إحساس صحى بمباهج الدنيا رغم تدينه وصلته الوثيقة بالتقوى بحكم واجباته ، وكان فى وسعه أن يضحك ، كما يبكى ، من كل قلبه . وتسللت عناصر علمانية إلى مؤلفاته الدينية ، وقد اكتشفت بعض أنغام من أوبرات عصره فى القداس بمقام B الصغير (٥٨) . ولم يتردد فى أن يغدق موارد فنه على كنتاتات علمانية خالصة ، بقى منها الآن إحدى وعشرون . فألف « كنتاتا الصيد » و « كنتاتا القهوة » و « وكنتاتا الزفاف » وسبع كنتاتات لاحتفالات مدينة . وفى ١٧٢٥ كتب كنتاتا كاملة بمناسبة عيد ميلاد أوجست موللر الأستاذ بجامعة ليبزج « أيولوس المغتبط » احتفالا بتحرير الرياح ، ربما بمجاز خبيث . وفى ١٧٤٢ خلع موسيقاه على « كنتاتا الفلاحين الساخرة سخرية كاريكاتورية صريحة ، بما فيها عن رقص القرويين الصاخب وشربهم وغزلهم . وبعد عام ١٧٤٠ لم تعد الموسيقى الكنسية الغالية فى ليبزج ، وقدمت الحفلات الموسيقية العامة بازدياد ألحاناً علمانية ..

وقبل أن تدخل الموسيقى الدينية عصر اضمحلالها حلق بها باخ فى أجواء لم تبلغها من قبل فى البلاد البروتستنتية . وكان من مخلفات القداس الكاثوليكى فى الخدمة الكنسية اللوثرية ترتيل تسبحة « تعظم نفسى الرب » فى عيد زيارة العذراء (٢ يوليو) . وكان هذا إحياء لزيارة مريم لابنة خالتها أليصابات ، حين فاهت العذراء كما ورد فى إنجيل البشير لوقا (الاصحاح الأول ٤٦ — ٥٥) بترنيمة شكرها التى لا شبيه لها : Magnificat anima meadominam « تعظم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلصى لأنه نظر إلى اتضاع أمته ؛ فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبنى . » ولحن باخ هذه السطور وما يليها مرتين ، ولعله لحنها فى صورتها الحالية لخدمة الميلاد بليبزج عام ١٧٢٣ . هنا يسمو الدين ، والشعر ، والموسيقى كلها إلى نفس الذروة فى وحدة رائعة .

وبعد ست سنوات بلغ تلك الذرى غير مرة فى « ألحان أسبوع الآلام

كما ورد فى إنجيل متى » . ولقد كان تلحين قصة آلام المسيح وموته القرون الطوال جزءاً من الطقس الكاثوليكى . واقتبس كثير من الملحنين البروتستنت صيغة الكنتاتا لهذا الغرض ، واستخدم إثنان منهم قبل باخ إنجيل القديس متى نصاً لها (٥٩) . وكتب باخ على الأقل ثلاثة من ألحان الآلام ، متبعاً فيها على التوالى روايات يوحنا (١٧٢٣) ، ومتى (١٧٢٩) ، ومرقص (١٧٣١) . ولم يتخلف من اللحن الثالث غير قطع متناثرة . ولحن الآلام على رواية يوحنا يشوبه تعاقب غير منطقى للمناظر وخلط بين الأحداث ، ونزوع تيوتونى إلى الخطب الراعدة ، ولكن الأجزاء الأخيرة منه تخف إلى رقة ورهافه فى الشعور ، وعمق حزين فى التأمل ، بلغ غاية ما تبلغه الموسيقى تأثيراً فى النفس..ولحن Es ist vollbracht (قد أكمل) ترجمة عميقة لأخطر حدث فى قصة المسيح ، وما من امتحان للملحن أو المصور أعسر من هذا .

وفى عصر يوم الجمعة الكبيرة ، ١٥ أبريل ١٧٢٩ ، فى كنيسة توماس بليبزج ، أخرج باخ أعظم ألحانه قاطبة . وقد أتيح له فى هذا اللحن « لحن الآلام على رواية متى » ، نص ألمانى جيد ، بنى على رواية متى الكاملة نسبياً ، ورتبة أديب محلى يدعى كرستيان فردريك هنريكى ، الملقب « بيكاندر » . ويبدو أن باخ نفسه كتب النص لعدة كوارس وقد ظنها البعض قطعاً لا مبرر له لقصة الإنجيل ، ولكنها كالكورس فى المسرحية اليونانية تثرى الدراما بالتعقيب والشرح ، وإيقاعاتها الحزينة تعبر عن عواطفنا وتطهرها — وهما وظيفتان للفن الأسمى . وإذا كان الكثير جداً من موسيقى باخ إعلاناً للبراعة أو القوة ، فإن لحن الآلام على رواية متى كله تقريباً هو صوت الأسى ، أو العرفان ، أو المحبة — فى قرار الكورال المتكرر ، الحزين ، الرقيق ، وفى رفاهة الألحان ، وفى أنغام الفلوت الملازمة ترنم كأنها آتية من عالم آخر ، وفى الضبط الوقور للأدوار المصاحبة التى تلتف حول الكلمات ووسط الأحداث كأنها زخارف مذهبة مفضضة فى كتاب قداس من العصر الوسيط . هنا يفتح لنا باخ أعماقاً من الوجدان والمغزى لا تنكشف فى مكان آخر إلا فى الرواية الأصلية ذاتها ، فهذه المأساة ما زالته

بالنسبة لنا نحن أبناء الحضارة الغربية أشد المآسى تأثيراً فى نفوسنا ، لأنها لا تقتصر على تمثيل صلب شخص مثالى نبيل بأيدى إخوتنا من بنى البشر ، بل تجاوز هذا إلى الرمز لصلبه يومياً فى العالم المسيحى ، ولذلك الموت البطىء ، فى كثير منا ، موت الايمان الذى أحبه هذا الشخص إلهاً له .

وكاد باخ أن يوفق فى أن يبلغ مرة أخرى ، فى القداس بمقام B الصغير ، ذرى الانفعال والصنعة التى بلغها فى لحن الآلام المذكور . ولكنه لم يستطيع أن يشعر بالانسجام الكامل مع مغامرته الجديدة كما شعر فى لحنه ذاك . فلقد كان انجيل الآلام أساس العقيدة البروتستنتية ومرتكزها ؛ وكان باخ مستغرقاً فى تلك القصيدة استغراقاً لا سبيل إلى رده عنه . على أن القداس على أى حال كان تطويراً كاثوليكياً ، وقانون الايمان ذاته يعبر عن التزام لا شك فيه بـ « كنيسة واحدة مقدسة ، جامعة (كاثوليكية) catholicam ، رسولية » . ومع أن الشعائر اللوثرية احتفظت بالكثير من القداس الكاثوليكى ، فإن هذا الكثير كان أثراً قاقاً تخاص فعلا من لحن « يا حمل الله Agnus Dei » قبل باخ . وكان القداس فى عصر باخ وفى الكنائس أيامه يغير قطعة قطعة بالكنتاتات ، وبقاياه اللاتينية تقصى شيئاً فشيئاً عن الطقوس . وقد رتلت ألحان الآلام لباخ بالألمانية ، وكان قد دس أربع ترانيم ألمانية بين الأبيات اللاتينية بلحنه « تعظم نفسى الرب » . ولكن القداس كان لاتينياً خالصاً تحكم التقاليد بحيث كانت أى إقحامات ألمانية فيه تغامر بأن يؤخذ عليها عيب التنافر . وكان قد غامر بهذا التحدى بكتابته أربعة قداسات جزئية بمثل هذه الملاحق الألمانية ، ولم تكن النتيجة مرضية . فدرس بعناية تلك القداسات الكاثوليكية التى لحنها بالسترينا وغيره من الايطاليين . وأوحت علاقته ببلاط درسدن أنه قد يسر الملك — الناخب الكاثوليكى إذا لحن قداساً كاثوليكياً . وحين بعث لأوغسطس الثالث (١٧٣٣) ملتمساً بطالب وظيفة ولقب فى البلاط أرفق معه لحنى « كيرياليسون » و « الحمد لله Gloria » أصبحا فيما بعد جزئين من القداس بمقام B الصغير . ويلوح أن الملك لم يهتم بهما . وأداهما باخ فى كنائس ليبزج ، فاستقبلا استقبالا طيباً ؛ وواصل هو هذا العمل (١٧٣٣ — ٣٨) فأضاف إليهما أجزاء أخرى ، قانون الايمان Credo ،

ولحن « قدوس قدوس قدوس Sanetus » ولحن « أوصنا Osanna ، ولحن « مبارك الرب Benedictus » ولحن «يا حمل الله » ولحن « هبنا سلاماً» Dona nobis pacem . فلما اكتمل هذا كله أصبح قداساً في صورته الكاثوليكية . ولعل باخ قد راوده الأمل في أن يأمر أوغسطس الثالث بترتيله في بولنده ، ولكن القدر لم يحقق أمنيته ، لأنه لم يترتل قط في كنيسة كاثوليكية . وقد قدمه باخ قطعة قطعة في مناسبات شتى ، في كنيسة توماس أو كنيسة نيقولا بليبزج .

والآن ، هل نسوق التحفظات المترددة التي تخالط إعجابنا بهذا القداس الضخم بمقام B الصغير ؟ أن قوة باخ تطغى مراراً على ذلك التواضع الذى ينبغي أن يشرب به خطاب موجه إليه تعالى ، وقد يبدو أحياناً أنه لابد قد ظن أن الله أصم أذنيه ، لأنه قد أمسك طويلا عن الكلام في لغات كثيرة . فلحن « كيرياليسون » يجر ضخامته الراعدة المختلطة جراً طويلا مملا حتى انصرح نحن أيضاً في النهاية « إليسون — أى ارحمنا ! » أما لحن « المجد لله » فهو في أكثره متقن من حيث مصاحباته الأوركسترا ، وهو ينتقل إلى لحن جميل ، لحن « الجالس عن يمين الآب » ، ولكنه يبيت أجش خشنا بصوت الأبواق في لحن « لأنك وحدك قدوس » ثم يتناول لحن « مع روحك القدوس » برعد من المقاطع الموسيقية لابد جعل الروح القدس يرتعد مخافة أن يقتحم هذ التيوتونى الجبار أبواب السماء عنوة . ومن عجب أن قانون الإيمان — بتفاصيله ودقائقه العقائدية التي أحدثت الانقسام في العالم المسيحى ، والتي لا تلائم بطبيعتها الموسيقى — ينتج أسمى لحظات القداس بمقام B الصغير ، إلا وهما لحن « وتجسد » ولحن « الصلب » ، حيث يظفر باخ ثانية بذلك الجلال الهادىء الذى بلغه في لحن الآلام على رواية متى . ثم يأتى لحن « وقام من بين الأموات » فيطلق كل الأنغام الصارخة ، التي نفد صبرها ، أنغام الأبواق والطبول ، لتصيح وترعد تهليلا بانتصار المسيح على الموت . ويهدئنا لحن « مبارك الرب » بغمه الصدح (التينور) الرقيق وكمانه المنفرد السماوى . والمصاحبة الأوركسترالية للحن « يا حمل الله » جميلة

فى عمق ، ولكن لحن « هبنا سلاما » دليل على القوة لا على هبة السلام . تلك ردود فعل صريحة ليس لها كبير قيمة . ولن يتذوق القداس بمقام B الصغير تذوقاً كاملا غير أولئك الذين توافر لهم شىء آخر فضلا عن التربية المسيحية التى لم تفقد نغماتها التوافقية العاطفية ، وهو القدرة الفنية على أن يميزوا ويستمتعوا بما فى اللحن من بناء ، ونغميات ، وصنعة ، وبما استعمله الملحن فيه من موارد منوعة ، وبما فى تأليفه الأوركسترالى من تعقيد ، وبتكييف الأفكار الرئيسية فى الموسيقى وفى أفكار النص .

وقد انتقد بعض الموسيقيين المحترفين باخ أثناء حياته . ففى ١٧٣٧ نشر يوهان أدولف شايبى (الذى أصبح فيما بعد قائد الأوركسترا لملك الدنمرك) خطاباً غفلا من من التوقيع امتدح فيه باخ عازفاً على الأرغن ، وأشار إلى أن « هذا الرجل العظيم يكون محط إعجاب الأمم كلها لو كان أسلس من هذا ، ولو لم تكن ألحانه مفتعلة لما فيها من ضجيج واختلاط ، ولو لم يحجب جمالها الاسراف فى الصنعة (٦٠) . وبعد عام جدد شايبى هجومه فقال « إن ألحان باخ الكنسية تزداد افتعالا وبطئاً ، وهى تقصر عن ألحان تلمان وجراون فى الامتلاء بالاقتناع المؤثر أو التأمل الفكرى (٦١) . وكان شايبى قد حاول الحصول على منصب عازف الأرغن فى ليبزج وعلق باخ على عزفه الذى أداه على سبيل الاختبار تعليقاً فى غير مصلحته ، وهجاه فى إحدى كنتاتاته ؛ ولعل نقد شايبى لم يخل من غل . ولكن شبيتا ، أشد المعجبين بباخ حماسة ، ينبئنا أن الكثيرين من معاصرى شايبى شاطروه آراءه (٦٢) . وربما كان بعض نقاده يمثلون انتقاض الجيل الجديد فى ألمانيا على الموسيقى الطباقية التى بلغت عند باخ من التفوق ما لم يترك بعده مجالا لشىء غير التقليد ، وقد شهد القرن العشرون انتقاضاً كهذا على السمفونية .

ولعل شايبى كان مؤثراً هاندل على باخ ، ولكن هاندل كان قد خسرته ألمانيا وكسبته انجلتره ، فشق على ألمانيا بالطبع أن تقارن بينه وبين باخ . فإذا عقدت هذه المقارنة كان هدفها دائماً تفضيل هاندل (٦٣) . وقد أعرب بيتهوفن عن الرأى الألمانى حين قال ، « إن هاندل أعظمنا جميعاً » (٦٤) .

ولكن هذا كان قبل أن يبعث باخ تماماً من زوايا النسيان . ومن أسف أن هذين العملاقين — وهما أعظم مفاخر الموسيقى وألمانيا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر — لم يلتقيا قط ، ولو قد فعلا لأثر الواحد منهما فى صاحبه تأثيراً طيباً . وقد انطلق كلا الرجلين من الأرغن ، واعترف الناس لهما بأنهما أعظم عازفيه فى زمانهما ، ثم واصل باخ إيثاره تلك الآلة بحبه ، فى حين جعل هاندل الصدارة للصوت ، وهو الذى راح يتنقل بين مغنيات الأوبرا وخصيان المغنين ، وزاوج هاندل بين الميلوديا الإيطالية والطباق الموسيقى الألمانى ، وفتح طريقاً إلى المستقبل ، أما باخ فكان التمام والكمال للماضى البوليفونى ، الفوجى ، الطباقى . وأحس الناس ، حتى أبناؤه ، أنه لم يبق من سبيل للتحرك على ذلك الخط .

ومع ذلك كان فى تلك الموسيقى القديمة شيء صحى ، سيستعيده فى تشوف وحنين رجال مثل مندلسون ؛ ذلك أنها كانت لا تزال مشربة بالإيمان الراسخ ، الذى لم تزعزعه بعد تلك الشكوك التى ستنفذ إلى صميم العقيدة المعزية . ولقد كانت صوت حضارة مكتملة التشكل ، بوصفها الملاك والذروة لفن ولتقليد موروث . ولقد عكست التنميق الزخرفى للباروك ، ولأرستقراطية لم يعد يتصدى لها الآن متصد . ولم تكن ألمانيا قد ولجت بعد عصر تنويرها « الأوفكليرنج » ، ولا سمعت صياح أى من ديوك الثورة . فليسنج ما زال صغيراً ، وكل ألمانى تقريباً يؤمن بالعقيدة النيقوية قضية لا نقاش فيها ، ولم يشذ بتفضيل فولتير غير الأمير فردريك البروسى . وعما قليل سيتزعزع صرح المعتقدات والطرائق الموروثة الفخم زعزعة تكاد تهدمه هدماً من جراء دعوات العقول المبتدعة ، وستطوى صفحات ذلك السلام المنظم القديم ، وذلك الاستقرار الطبقى ، وذلك الإيمان العجيب الذى لا يساوره شك ولا تساؤل — كل هذا الذى كتب موسيقى باخ ، وستتغير كل الأشياء ، حتى الموسيقى ، باستثناء الإنسان دائماً .

٣ — ختـــام :

لقد أتاحت له عزلته وترويضه فى ليبزج أن يرث الماضى دون غضاضة أو تمرد . وكان إيمانه الدينى ، بعد موسيقاه راحته وملاذه . كان يقتنى

فى مكتبته ثلاثة وثمانين مجلداً فى اللاهوت ، أو التفسير ، أو الوعظ والإرشاد . وقد أضاف إلى عقيدته اللوثرية ، المستقيمة ، الرجولية ، مسحة من الغيبية ، ربما أخذها عن الحركة التقوية فى زمانه — مع أنه عارض التقوية لعدائها لأى موسيقى كنسية غير التراتيل . وكان أكثر موسيقاه ضرباً من العبادة . وقد ألف أن يبدأ التلحين بصلاة يقول فيها « أعنى يا يسوع » وكان يستهل كل مؤلفاته تقريباً ويختمها بإهدائها لجلال الله ومجده . وعرف الموسيقى بأنها « تناغم لطيف لمجد الله وبهجة الروح المباحة » (٦٥) .

وفى الصور التى خلفها لنا فى أخريات عمره نرى فيه الرجل الألمانى النموذجى ، عريض المنكبين ، بديناً ، ممتلىء الوجه أحمره ، عظيم الأنف ، له إلى ذلك كله حاجبان مقوسان أضفيا عليه نظرة متسلطة يشوبها بعض الغيظ والتحدى . وكان طبعه حاداً وقد حارب ببأس شديد دفاعاً عن منصبه وآرائه ، أما فيما عدا ذلك فقد كان أشبه بدب دمث لطيف يستطيع أن يطأطىء وقاره مازحاً إذا توقفت المعارضة . ولم يشارك بنصيب فى حياة ليبزج الاجتماعية ، ولكنه لم يكن ضنيناً باستضافة الأصدقاء ، ومن بينهم منافسون كثيرون من أمثال هاسى وجراون . وكان متعلقاً بأسرته . يستغرقه عمله وبيته . وقد درب جميع أطفاله العشرة الأحياء على الموسيقى . وزودهم بالآلات ، واحتوى بيته خمس موترات مفاتيح ، وعوداً ، وفيولا للساق ، وعدة كمانات ، وفيولات ، وفيولنتشيلات . كتب إلى صديق فى تاريخ مبكر (١٧٣٠) يقول « أستطيع الآن أن أحيى حفلة موسيقية ، صوتية وآلية ، من أفراد أسرتى » (٦٧) . وقد يتاح لنا فى موضع لاحق أن نرى كيف واصل أبناؤه فنه وفاقوه شهرة .

ثم وهن بصره فى أخريات عمره . وفى ١٧٤٩ ارتضى أن تجرى له جراحة على يد نفس الطبيب الذى عالج هاندل بنجاح فى الظاهر ، ولكن الجراحة أخفقت هذه المرة وتركته مكفوف البصر تماماً . وعاش بعدها فى حجرة معتمة لأن النور الذى لم يستطع رؤيته كان يؤذى عينيه . على أنه واصل التلحين رغم بلواه ، شأنه فى ذلك شأن بيتهوفن الأصم ، وراح الآن

يملى صهيراً له الافتتاحية الكورالية « حين تشتد بنا الحاجة » . وكان قد أعد نفسه للموت منذ أمد بعيد ، ووطن نفسه على تقبله ، إذا حان حينه ، عطية من الآلهة ؛ ومن ثم ألف لحنه المؤثر « تعال أيها الموت الحلو » .

تعال أيها الموت الرحيم ، أيها الراحة المباركة ،
تعال لأن حياتى مقفرة ،
وقد تعبت من الدنيا .
تعال لأننى فى انتظارك ،
تعال سريعاً وهدىء روحى ،
وأسبل عينى فى رفق ؛
تعال ، أيها الراحة المباركة [٦٨] .

وفى ١٨ يوليو ١٧٥٠ بدا أن بصره قد رد إليه بصورة معجزة ، وتجمعت أسرته من حوله فى فرح وابتهاج ولكن فجأة ، فى ٢٨ يوليو ، قضت عليه إصابة بالفالج و « رقد إلى الرب هادئاً مباركاً » [٦٩] كما تقول لغة ذلك العهد المفعمة بالرجاء .

وكاد يصبح نسياً منسياً بعد موته . وبعض هذا النسيان مرجعة انزواء باخ فى ليبزج ، وبعضه عسر ألحانه الصوتية ، وبعضه اضمحلال الميل إلى الموسيقى الدينية والأشكال الطباقية . وحاول يوهان هيللر ، الذى شغل فى ١٧٨٩ وظيفة باخ قائداً لفرقة المرتلين فى مدرسة توماس ، أن « يبث فى التلاميذ استهجان فجاجات باخ » [٧٠] . وكان اسم باخ فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر يعنى كارل فليب إيمانويل ، الذى كان يأسف على طابع موسيقى أبيه العتيق [٧١] . وما حلت سنة ١٨٠٠ حتى بدا أن كل ذكر ليوهان سبستيان باخ قد طوى .

ولم يذكر عمله غير أبنائه . وقد وصفه إثنان منهما ليوهان نيكولاوس فوركل ، مدير الموسيقى بجامعة جوتنجن . ودرس فوركل العديد من ألحانه فتحمس له ، ونشر فى ١٨٠٢ ترجمة لحياته فى تسع وثمانين صفحة صرح فيها بأن :

« الأعمال التي خلفها لنا يوهان سبستيان باخ هي تراث قومي لا يقوم بثمن ولا يملكه أي شعب آخر ... وتخليد ذكرى هذا الرجل العظيم ليس واجب الفن وحده بل واجب الأمة ... فهذا الرجل ، الذي هو أعظم من عاش ولعله أعظم من سيعيش من شعراء الموسيقى ومنظريها ، كان ألمانياً ... فته به فخراً يا وطني » (٧٢) .

وفتح هذا النداء المستنفر للوطنية قبر باخ . فاشترى كارل تسلتر ، مدير أكاديمية الغناء ببرلين ، مخطوطة لحن الآلام . واستطاع فيلكس مندلسون ، تلميذ تسلتر ، أن يقنعه بأن يسمح له بأن يقود في الأكاديمية أول أداء لهذا اللحن يؤدى في مكان غير الكنيسة (١١ مارس ١٨٢٩) . ولاحظ صديق لمندلسون أن لحن الآلام هذا قد بعث إلى النور بعد تقديمه أول مرة بمائة عام تقريباً ، وأن يهودياً في الحادية والعشرين من عمره هو صاحب الفضل في بعثه من مرقده . (٧٣) وأدى جميع المشاركين في اللحن أدوارهم دون أن يتقاضوا أجراً . وزاد مندلسون على هذا الاحياء بتضمين معزوفاته ألحاناً أخرى لباخ . وفي ١٨٣٠ نزل فترة ضيفاً على جوته ، فشغله جوته بطلبه عزف ألحان باخ .

ووافق هذا الإحياء ظهور الحركة الرومانسية ، وتجديد الإيمان الديني بعد حروب نابليون ، وزال سلطان الواقعية ؛ فقد ارتبطت بالثورة (الفرنسية) المحرمة ، وبـ « ابن الثورة » ، ذلك الرجل الرهيب الذي طالما أذل ألمانيا في ساحات القتال . وكانت ألمانيا الآن ظافرة . فشارك حتى هيجل في الإشادة بباخ بطلا للأمة . وفي ١٨٣٧ دعا روبرت شومان إلى نشر أعمال باخ نشراً كاملا ، وفي ١٨٥٠ تألفت « جماعة باخ » . وجمعت مخطوطات باخ من كل مصدر ، وفي ١٨٥١ صدر أول مجلد . وفي ١٩٠٠ صدر المجلد السادس والأربعون والأخير . وقال برامز أن أعظم حدثين في التاريخ الألماني وقعا في عهده هما تأسيس الامبراطورية الألمانية ، ونشر ألحان باخ الكاملة (٧٤) . وهذه الألحان تؤدى اليوم أكثر من ألحان أي ملحن آخر ، ويتقبل العالم الغربي كله تقدير باخ بأنه « أعظم شاعر موسيقى عاش إلى اليوم » .

الفصل الثالث عشر
فردريك الأكبر وماريا تريزا

١ — استهلال امبراطورى : ١٧١١ — ٤٠

يبدو أن فولتير كان أول من لقب فردريك بـ « الأكبر » منذ عام ١٧٤٢ [١] Frédéric Le Grand وكانت العبارة جزءاً من ميثاق بالاعجاب المتبادل دام عشر سنين بعد ذلك التاريخ . ولكن إذا جاز للتاريخ أن ينحو نحو الشاعر هويتمان فى التهليل للمهزومين بنفخ الأبواق ، حق له أيضاً أن يلقب ماريا تريزا بالكبرى ، لأنها كانت واحدة من عدة ملكات فقن فى العصور الحديثة معظم الملوك وأزرين بهم .

ولنبدأ حديثنا عنها من خلال خلفيتها . فقبل أن تولد بست سنوات ارتقى أبوها الهابسبورجى (١٧١١) عرش « الأمبراطورية الرومانية المقدسة » وتسمى شارل السادس . وكان رأى فولتير فى هذه الدولة أنها لا تملك واحدة من هذه الصفات الثلاث ، ولكنها كانت لا تزال امبراطورية ، تكسوها مهابه تسعة قرون . وضمت هذه الدولة التى حكمت من فينا حكماً واهناً النمسا ، والمجر ، وبوهيميا (تشكسلوفاكيا) واستيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، والتيرول ؛ وفى ١٧١٥ بسطت سلطانها على الأراضى المنخفضة الإسبانية السابقة ، التى نعرفها الآن باسم بلجيكا ، ولم تكن الدويلات الألمانية فيها خاضعة للامبراطور إلا بالاسم ، أما المدن الحرة الألمانية فقد اعترفت بسلطته فى شئونها الخارجية ، وكانت بوهيميا الآن فى اضمحلال ، فقد أشاع فيها الفوضى التعصب الدينى واستغلها الملاك الغائبون عن أرضها وأكثرهم يتكلمون لغة أجنبية ، أما المجر فكانت قد عانت من كونها أهم منطقة للصراع بين المسيحيين والعثمانيين ، عبرها أكثر من عشرة جيوش واستهلكوها ؛ وتقلص عدد سكانها ، واستشرت الفوضى فى حكومتها . ورفضت طبقة

من النبلاء كبيرة العدد حربية النزعة . لم تعد مجرية الجنس إلا فى قسم منها ، أن تدفع الضرائب الامبراطورية ، وكرهت الحكم النمسوى . ولم يكن يملك أرضاً فى المجرسوى النبلاء والكنيسة ، فقسماها ضياعاً شاسعة يفلحها الأقنان ، وجنيا منها الدخول التى بنيا بها كبار الأديار والقلاع والقصور ، ورعيا الموسيقى والفن . وكان بعض النبلاء يمتلك خمسين ألف فدان للواحد ، وكانت أسرة استرهازى تملك سبعة ملايين فدان (٢) .

أما النمسا نفسها ، أكبر المستفيدين فى الامبراطورية ، فكانت تنعم بالرخاء . فبينما لم يزد سكان المجر على مليونين ، بلغ سكان النمسا زهاء ٦,١٠٠,٠٠٠ فى ١٧٥٤ زادوا إلى ٨,٥٠٠,٠٠٠ فى ١٨٠٠ . وفيها هى أيضاً كانت الأرض ملكاً للنبلاء أو الاكليروس يفلحها الأقنان ؛ وقد عمرت القنية فى النمسا حتى ١٨٤٨ . وكان شأن الضياع فيها شأنها فى انجلترة يحتفظ بها ملاكها كاملة بحق البكورة ، الذى يقضى بأن تورث الأرض كلها للابن البكر ، أما الأبناء الأصغر منه فيعوضون بوظائف فى الجيش ، أو الكنيسة ، أو الإدارة ؛ وهكذا بلغت حاشية الامبراطور شارل السادس أربعين ألفاً ، ولم يكن فى النمسا طبقة وسطى غنية تتحدى سلطان الارستقراطية الطاغى أو تخفف من دمها الأزرق . وكانت الزيجات مسألة بروتوكول . وأبيحت الخليلات والعشاق بقانون غير مكتوب ، على ألا يجاوز هذا نطاق الطبقة . وقد كتبت اللادى مارى مونتاجيو من فيينا فى ١٧١٦ ، ربما بما يعهد فى الرحالة من مبالغات ، فقالت :

« من العادات الراسخة أن يكون لكل سيدة نبيلة زوجان ، أحدهما حامل الإسم والآخر القائم بالواجبات ، وهذه الارتباطات معروفة جداً حتى أن القوم يعدونها إهانة صريحة تشجب علناً أن تدعو امرأة من علية القوم إلى الغداء دون أن تدعو فى الوقت ذاته تابعيها هذين ... العشيق والزوج اللذين تجلس هى بينهما رسمياً فى وقار شديد ... والمرأة تتطلع إلى عشيق حالما تتزوج باعتباره جزءاً من حاشيتها (٣) . .

وكانت الطبقة الارستقراطية ، فى جميع أرجاء هذه الدولة التى كانت تتحول

الآن إلى امبراطورية نمساوية — مجرية تعمل ويدها فى يد الكنيسة :
ولعل النبلاء تقبلوا اللاهوت الكاثوليكى فى شىء من التحفظ والارتياب ،
وكان العديد منهم ماسونا (٤) . ولكنهم سخوا شاكرين على دين أعان بمثل
هذه السماحة أقفانهم وبناتهم المجردات من المهور على الرضى بنصيبهم فى هذه
الدنيا تعللا بالآخرة . وكان تنوع العقائد كفيلا بتشويش هذه العملية لو أبيح
لأنه مفض إلى الجدل والشك ، أما التسامح الدينى فهو ولا ريب من خطل
السياسة . وقد جعل فيرميان رئيس أساقفة سالزبورج الحياة فى رئاسة أسقفيته
عسيرة على البروتستنت عسراً حمل ثلاثين ألفاً منهم على الهجرة ، فنزح
معظمهم إلى بروسيا (١٧٢٢ — ٢٣) (٥) حيث شدوا من أزر عدو النمسا
الصاعد . كذلك أسهمت هجرات أو حركات طرد مماثلة من بوهيميا فى
الاضمحلال الاقتصادى لتلك الدويلة التى كانت يوما ما تعتز باستقلالها ،
وعملت على تقدم ألمانيا البروتستنتية .

وشارك الأغنياء والفقراء فى تمويل عمارة العصر الكنسية . ففى براغ
أكمل كيليان اجناز دينتسنهوفر أعظم المعمارين التشيكيين ، فى عمارة ضخمة
فخمة ، كنيسة القديس نيقولا التى بدأها كريستوف دينتسنهوفر . وترك
يوهان برنارد فيشر فون إرلاخ ، أعظم المعماريين النمسويين ، بصمته على
سالزبورج ، وبراغ ، وروما ، وشيد هو وابنه يوزف إمانويل رائعة
من الباروك فى كنيسة القديس شارل بفينا . وأبرزت الأديار الفخمة مجد الله
ورفاهيات العزوبة . فكان هناك مثلا الدير البندكتى فى ملك على الدانوب
حيث نشر ياكوب برانتاوير ومساعدوه (٦) مجمعاً يشتمل على مبان ،
وأبراج ، وقبة ، وفى داخله القصور الفخمة والأعمدة الرائعة ، والزخرفة
الفاخرة . وهناك دير القساوسة الأوغسطينيين القديم فى دورنشتين الذى أعاد
بناءه (٧) بالباروكه الأنيق يوزف مونجناشت ؛ ويلاحظ أن أهم مفاخره
— البوابة الرئيسية والبرج الغربى — من إنتاج متياس شتايندل ، وهو مثال
اتجه إلى العمارة وهو فى الثامنة والسبعين . وهناك كنيسة الدير البندكتى ومكتبته
فى آلتنبورج (وبانيهما هو مونجناشت أيضاً) (٨) وهما مشهورتان
بالزخارف المترفة . وهناك دير الرهبان البندكتين فى تسفيتل ،

وهو من آثار القرن الثانى عشر ، وقد أقام فيه مونجناشت وشتايندل واجهة جديدة وبرجاً ومكتبة. [٩] أما الخورس الرائع فكان من صنع مايستر يوهان فى ١٣٤٣ — ٤٨ ؛ هنا أظهر الطراز القوطى القديم تفوقه على الباروك الجديد. ثم هناك دير شتامز فى التيرول الذى أعاد بناءه [١٠] جيورج جومب ، والذى تميزه المصبعات الحديدية والزخارف الجصية فى بيت سلم « الأحبار » ؛ وهنا كان يدفن أمراء الهابسبورج . وهناك كنيسة الدير فى هوتسوجنبورج ، وهى الرائعة التى أبدعها فرانتس بن يوزف مونجناشت ، فى حياته القصيرة (١٧٢٤ — ٤٨) . وهناك كنيسة الدير فى فيللبرنج ، التى قيل فيها أنها « أبدع بناء بطراز الروكوك فى النمسا » . [١١] ونلاحظ فى مرورنا هنا الأراغن الرائعة فى هذه الكنائس كالتى فى هرتسوجنبورج وفيللبرنج ، والمكتبات الجملية ؛ ومن نماذجها مكتبة الدير البندكتى فى آدمونت ، المحتوية على ٩٤,٠٠٠ مجلد ، ١,١٠٠ مخطوطة فى هيكل من الزخرف الباروكى. لقد كان رهبان النمسا فى قمة مجدهم فى عصر الإيمان المتداعى الذى نحن بصدده .

وقد جارهم النبلاء بنفس الخطو . فنى النمسا والمجر ، كما فى ألمانيا ، كان كل أمير يتوق إلى ضريب لفرساى ؛ ومع أنه عجز عن منافسة ذلك البهاء المفرط فإنه جمع من الأسلاب ما أتاح له بناء « قصر » palais (كما كان يسميه) يعكس كل جانب ومظهر فيه سمو مكانته . فشاد أوجين أمير سافوى قصراً صيفياً على مستويين فى ضيعته خارج فيينا « بلفدير واطىء » (وهو الآن متحف الباروك) و « بلفدير عال » وضع تصميمهما الجميل يوهان لوكاس فون هلدبرانت . وصمم يوهان برنارد فيشر فون إرلاخ قصر الأمير الشتوى (وتشغله الآن وزارة المالية) كذلك وضع تصميمات لقصر شونبرون وحدائقه لينافس بهما فرساى ، ولكن البناء الفعلى الذى بدأ فى ١٦٩٦ أغفل هذه التصميمات أو خفف منها أثناء تنفيذه . وصمم فيشر فون إرلاخ وابنه يوزف إيمانويل المكتبة الامبراطورية — وهى المكتبة القومية الآن — التى يرى إخصائى فى فن الباروك أن بها أبدع بناء داخلى لأى مكتبة فى العالم . [١٢] وفى ١٧٢٦ فتح شارل السادس هذا الكنز للجمهور وفى ١٧٣٧

اشترى لها مجموعة المخطوطات والكتب الهائلة التى كان يمتلكها أوجين أمير سافوى . لقد كانت فيينا ، إلى حد كبير ، أجمل مدينة فى دولة الجرمان .

وقد حمل أكثر العمارة النمسوية بالنحت . ونذكر هنا بجهل خجول تمثال « المسيح المصلوب » الخشبي الذى صنعه أندرية تاماش فى دير شتامز ، وتمثال الامبراطور فرانسيس الأول الرخامى الذى نحته بلقازار مول والمعروض فى متحف الباروك بفيينا ؛ وفى وسعنا أن نستشعر على البعد تفانى يوزف شتامل فى فنه ، إذ أنفق معظم حياته فى تجميل دير آدمونت بالتماثيل . ولكن كيف يغتفر لناكل هذا الإبطاء فى التنويه بجيورج رفائيل دونير مثالا لا يفوقه بين مثالى العصر غير برنينى ؟ فقد ولد فى اسلنجن بمنخفضات النمسا (١٦٩٣) وتلقى فنه على يد جوفانى جوليانى ؛ وبفضل هذه الوصاية الإيطالية اكتسب الميل الكلاسيكى الذى أتاح له تنقية ما فى الباروك النمسوى من إسراف . على أن تمثاله الرخامى « تمجيد شارل السادس » (١٣) مازال يعانى من غرابة الباروك وشططه — ففيه يرى الامبراطور وقد رفعه إلى السماء ملاك له ساقان جميلتان وثديان متألقان ؛ ومع ذلك فنحن شاكرون للفن أن أعاد للصاروفيم (الملاك) شيئاً ملموساً — وهو الذى خالته الفلسفة مجرداً من الجسد . ومن آيات دونير الجديرة بعصر النهضة تمثاله « القديس مارتن والشحاذ » فى كتدرائية برسبورج (براتيسلافا) ، ولمنحوتته الرخامية البارزة « هاجر فى البرية » (١٤) جمال كلاسيكى ناعم . وقد بلغ أوجه فى التماثيل التى صبها من الرصاص لنافورتين كبيرتين فى فيينا : نافورة « العناية الإلهية » فى السوق الجديدة ، التى تمثل أنهار النمسا ، ونافورة أندروميدا التى تنافس نافورة روما . وقبل أن يموت فى ١٧٤١ بعام بالضبط صب لكتدرائية جورك مجموعة تمثل بكاء مريم على جسد المسيح ؛ وهى مجموعة كانت خليقة بأن تشيع البهجة فى صدر رفائيل لأن دونير اتخذ اسمه .

ولم ينتج المصورون ولا الشعراء فى هذا العصر فى النمسا أو ممتلكاتها أى آثار تثير اهتمام العالم الخارجى ، وربما يستثنى من هذه القاعدة الصور الجصية التى صورها دانيل جران داخل قبة المكتبة الكبرى فى فيينا . أما فى الموسيقى فقد كانت فيينا المركز المعترف به للعالم الغربى . وكان شارل

السادس يعشق الموسيقى عشقاً لا يعلو عليه سوى حبه لبناته وعرشه . وقد لحن هو نفسه أوبرا ، وصاحب فارينيللى عازفاً على البيان القيثارى ، وقاد البروفات . وجلب لفيينا خيرة المغنين ، والعازفين ، والممثلين ، ورسامى المناظر المسرحية ، دون أن يعبأ بالتكاليف . وفى إحدى المناسبات أنفق — فيما قدرت الليدى مارى — ثلاثين ألف جنيه ليخرج أوبرا واحدة (١٥) . وبلغ عدد المرتلين والعازفين فى فرقة كنيسته ١٣٥ . وأصبحت الموسيقى « إمبراطورية » ، أو على الأقل أرستقراطية . وفى بعض الأوبرات كان جميع المشاركين — سواء العازفين المفردين ، أو الكورس ، أو الباليه ، أو الأوركسترا — أفراداً من الطبقة الارستقراطية . وفى إحدى هذه الحفلات كانت تقوم بالغناء فى الدور الرئيسى الأرشيدوقة ماريا تريزا (١٦) .

وقبل أعظم كتاب نصوص الأوبرا فى ذلك العهد الدعوة إلى فيينا فأقبل أبوستولو زينو من البندقية فى ١٧١٨ ، وعمل شاعراً لبلاط شارل السادس ، وفى ١٧٣٠ اعتزل فى لطف مخلياً مكانه لبيترو ترا باسى ، النابولى الذى كان قد تسمى من جديد ، « ميتاستاسيو » . وفى السنوات العشر التالية كتب ميتاستاسيو — بالإيطالية دائماً — مسرحيات شعرية بلغ من قدرتها على إثارة العواطف أن كبار ملحنى أوروبا الغربية أسعدهم أن يلحنوها . ولم يضارعه أحد فى تكييف الشعر وفق مطالب الأوبرا — أى فى ملاءمة موضوع نصه ، وحركته ، ومشاعره ، لمقتضيات المغنين المنفردين ، والثنائيين ، والمقاطع الملحونة ، والكوارس ، والباليهات ، والمناظر المسرحية ؛ ولكنه فرض لقاء ذلك على الملحنين التوافق الإيقاعى بين موسيقاهم ومسرحيته . وعظم نجاحه حتى خشى فولتير أن تطرد الأوبرا الدراما من المسرح ، وقال « إن هذا الوحش الجميل يخنق مليومين (ربة التراجيديا) » (١٧) .

وتربع شارل السادس على عرش كل هذه الموسيقى ، والفن ، والبلاط المتعدد اللغات ، والإمبراطورية ، بيد مبسوطة ، وقلب رحيم ، وحزن رجل الحرب . ذلك أن قواده لم يستطيعوا أن يتبعوا عصا قيادته ، وحين طالبهم بأغانى الفرح لم يعطوه غير المآسى . لقد جرت ريح الحرب مع النمسا رخاء ما دام أوجين أمير سافوى محتفظاً بقوة ذهنه وسلطانه ، وهو الذى

شارك ملبره صد جيوش لويس الرابع عشر ؛ فانتزعت بلغراد من العثمانيين ، وسردانيا من سافوى ، وميلان ونابلى والأراضى المنخفضة الإسبانية من أسبانيا . ورقى أوجين لا قائداً عاماً لجميع الجيوش النمساوية فحسب ، بل وزيراً أول ومديراً للدبلوماسية . والواقع أنه بسط سلطانه على كل شيء إلا الأوبرا ، ولكنه — وقد أذعن للناموس الذى يبلى أجساد البشر — أصاب الوهن عقله لا جسمه فحسب . وفى حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ — ٣٥) انزلقت النمسا إلى صراع مع فرنسا ، واسبانيا ، وسافوى (التى كانت تعرف آنئذ بمملكة سردانيا الصغيرة) وخسرت اللورين ، ونابلى ، وصقلية (١٧٣٥ — ٣٨) ، وأسفر تحالفها مع روسيا عن حرب أخرى مع تركيا ؛ وضاعت منها البوسنه ، والصرب ، والأفلاق ، وعادت بلغراد تركية من جديد (١٧٣٩) . ولم يؤت الامبراطور من المواهب ما يعوض به المواهب التى افتقدها معاونوه . وإليك رأى فردريك الأكبر فيه :

« أخذ شارل السادس من الطبيعة الصفات التى تصنع المواطن الصالح ، ولكنه لم يأخذ صفة من تلك التى تصنع الرجل العظيم . كان سمحاً دون تمييز ، له روح محدودة دون بصيرة ثاقبة ؛ وكان قادراً على الانكباب على العمل ، ولكن دون عبقرية ، يجهد نفسه دون أن ينجز الكثير ، ويجيد معرفة القانون الألمانى ، وعدة لغات ، وقد نبغ فى اللاتينية على الأخص . وكان أباً صالحاً وزوجاً صالحاً ، ولكن شابه ما شاب جميع أمراء البيت المالك النمسوى من تعصب وميل للخرافة » (١٨) .

وكان عزاؤه وفخره فى كبرى بناته ماريا تريزا ، التى وطد العزم على توريثها عرشه : ولكن أباه ليوبولد الأول كان قد أبرم (١٧٠٣) « ميثاقاً متبادلا للوراثة » تقرر فيه أن يحكم الوراثة مبدأ حق الابن البكر ؛ فإذا لم يوجد وريث ذكر انتقل التاج إلى بنات ابنه جوزف (المولود فى ١٦٧٨) ثم إلى بنات ابنه شارل (المولود فى ١٦٨٥) . وترك موت جوزف الأول فى ١٧١١ دون وريث ذكر (ولكن بابنتين على قيد الحياة) التاج لشارل . وفى ١٧١٣ بمقتضى « أمر عال » أصدره شارل لمجلسه الخاص ، أعلن مشيئته بأن ينتقل عرشه وأملاكه الشخصية بعد وفاته إلى أكبر أبنائه الحى ،

فإذا لم يكن هناك ابن على قيد الحياة فإلى كبرى بناته . وقد ولد ابنه الوحيد ومات عام ١٧٢٦ . وبعد أن انتظر شارل عبثاً إنجاب آخر ، ناشد الدول الأوربية أن تتفادى نشوب حرب وراثة بقبولها وضمانها الجماعى لنظام الوراثة الذى وضعه . وفى الأعوام الثمانية التالية قبلت أمره العالى أسبانيا ، وروسيا ، وبروسيا ، وانجلتره ، وهولنده ، والدنمرك ، واسكندناوه ، وفرنسا .

ولكن مصاعب نشبت فصنعت كثيراً من التاريخ . ذلك أن سكسونيا وبافاريا كان على عرشيهما أميران متزوجان من ابنتى جوزف أخى شارل ، فطالبا الآن بوراثة عرش الامبراطورية عملا بميثاق ليوبولد الأول ، أما فردريك وليم الأول ملك بروسيا فوافق على أساس تأييد شارل له فى مطالبته بجزء من دوقيتى يولش وبيرج ويبدو أن شارل وافق على هذا الشرط ولكن سرعان ما بذل لمنافسى فردريك وليم وعوداً عكس هذا الوعد . وعليه انضم ملك بروسيا إلى أعداء الامبراطور (١٩) .

وفى ١٧٣٦ تزوجت ماريا تريزا من فرانسس ستيفن ، دوق اللورين ، وغراندوق توسكانيا فيما بعد (١٧٣٧) ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها . وفى ٢٠ أكتوبر ١٧٤٠ مات شارل السادس ، مختتماً بموته فرع الذكور فى بيت هابسبورج . واعتلت ماريا تريزا العرش بوصفها أرشيدوقة النمسا وملكة بوهيميا والمجر . وأصبح زوجها شريكاً لها فى الحكم ، وإذ لم يبد كبير اكتراث بشئون الدولة أو كفاءة تذكر للقيام عليها فقد وقع عبء الحكم كله على عاتق الملكة الشابة . وكانت فى عام ١٧٤٠ تملك كل مفاتن الأنوثة والملك ؛ قسمات بديعة ، وعيون زرق متألقة ، وشعر أشقر غزير ، ورقة فى السلوك ، وخفة فى الحركة ، ومتعة العافية ، وحيوية الشباب (٢٠) . وكان ذكاؤها وخلقها يفوقان هذه المفاتن كلها قصراً عن التصدى للمشكلات التى أحدقت بها من كل جانب . وكانت الآن حاملا فى شهرها الرابع بالطفل الذى سوف يخلفها باسم جوزف الثانى « المستبد المستنير » . ونازعها حقها فى العرش كل من شارل ألبرت ناخب بافاريا ، وفردريك أوغسطس الثانى ناخب سكسونيا ، وناصر حزب قوى فى فيينا القضية البافارية ، ولم يكن هناك تأكيد بأن المجر ستعترف بها ملكة عليها ، ولم تتوج بهذا الوصف حتى ٢٤

يونيو ١٧٤١ . أما خزانة الامبراطورية فخاوية إلا من ١٠٠,٠٠٠ فلورين ، زعمت الامبراطورة أرملة شارل السادس أنها ملك لها . وكان الجيش مختل النظام ، وقواده تعوزهم الكفاية . وكان مجلس الدولة مؤلفاً من أعضاء مسنين فقدوا القدرة على التنظيم أو القيادة . وانتشرت الشائعات بأن العثمانيين سيزحفون مرة أخرى على فيينا بعد قليل . [21] وطالب فليب الخامس ملك أسبانيا بالمجر ويوهيميا ، وملك سردينا بلمبارديا ثمناً لاعترافهما بها [22] .
أما فردريك الثانى الذى أصبح ملكاً على بروسيا قبل تولى ماريا تريز العرش بخمسة شهور فقط ، فقد بعث إليها يعرض الاعتراف بها والدفاع عنها ودعم انتخاب زوجها امبراطوراً ، شريطة أن تنزل له عن الشطر الأكبر من سيليزيا ، فرفضت العرض ، ذاكرة ما كان أبوها يرجوه من بقاء المملكة سليمة لا تجزأ ولا يمسها سوء . وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٤٠ غزا فردريك سيليزيا ، ووجدت المملكة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً نفسها تخوض حرباً مع أقوى دولة فى ألمانيا ، ومع الرجل الذى قدر له أن يكون أعظم قائد فى عصره .

٢ — استهلال بروسى : ١٧١٣ — ٤٠

(أ) فردريك وليم الأول :

كانت أسرة هوهنتسلرن قد نجحت فى رفع إمارة برندنبورج الناخبة إلى مملكة بروسيا فى ١٧٠١ ، وأصبح أميرها الناخب ملكاً باسم فردريك الأول . وقد أوصى بأن يرث ملكه بعد موته ابنه فردريك وليم الأول (حكم ١٧١٣ — ٤٠) . وكان الملك الجديد ، عن طريق زوجته صوفيا دوروتيا ، صهراً لجورج الأول الذى ارتقى عرش انجلتره فى ١٧١٤ . وكانت أملاك بروسيا تشمل بروسيا الشرقية ، وبومرانيا السفلى ، وإقليم الحدود المسمى برندنبورج (والمحيط ببرلين) وإقليم كليفز فى غربى ألمانيا ، وكونتية مارك ، ومدينة رافنزبيرج فى وستفاليا : وكلها أخلاط مفككة من البلاد تمتد امتداداً متقطعاً من الفستولا إلى الألب ، ولا تربط بينها غير قوات الملك . وبلغ سكان « بروسيا » هذه فى ١٧٤٠ نحو ٣,٣٠٠,٠٠٠ زادوا إلى ٥,٨٠٠,٠٠٠ فى نهاية القرن ، أما بنيانها الاجتماعى فكان إقطاعياً

فى أساسه : فلاحون يدفعون الضرائب والفروض الإقطاعية ، وطبقة وسطى ضعيفة ، وطبقة نبلاء تطالب بإعفائها من الضرائب ثمناً لتزويد الملك بالعون الحربى . وكانت رغبة فردريك وليم الأول فى التحرر من الاعتماد على هؤلاء النبلاء بعض ما دعاه إلى تنظيم جيش دائم سيقرر التاريخ السياسى لأوربا الوسطى طوال نصف قرن .

كان فردريك وليم حاكماً شاذاً شذوذ ابنه الأشهر منه ، الذى يرجع معظم الفضل فى انتصاراته لجيش أبيه . ولم يوهب الوالد ولا الولد شخصية جذابة ساحرة ، ولم يسترضى أحدهما العالم بجمال طلعته أو لطف ابتسامته ، بل واجهه كلاهما بسحنة آمرة صارمة تسوس الجيوش : كان الأب قصيراً بديناً . له وجه متورد تحت قبعة مثلثة ، وعينان تنفذان إلى صميم كل زيف وصوت يعلن عن إرادة صاحبه . وفكان على استعداد لطحن كل مقاومة . وإذ كان ذا شهية طيبة دون أن يكون ذواق للطعام ، فقد طرد طاهيه الفرنسى ، وأكل طعام الفلاحين ، وكان يستهلك الكثير فى وقت قصير دون احتفال يذكر لأنه كان فى شغل عن هذا بعمله . ورأى نفسه سيد الدولة وخادمها ، فعكف على تصريف شئون الحكم فى أمانة وسخط . لأنه وجد فيها الكثير المعوج المنحرف . فأقسم أن يقومه بالقوة . واختصر إلى النصف عدد كبار الموظفين المغرورين الذين عطلت سلطاتهم المتضاربة عمل الحكومة ، وباع ما ورثه من مجوهرات ، وخيول ، وأثاث فاخر . واختزل مظاهر بيت الملك إلى بساطة بيت المواطن من أهل المدن ، وجمع الضرائب أينما أمكن تنميتها ، وخلف لفردريك الثانى خزانة مملوءة إلى حد مغر .

وأراد من كل إنسان أن يكد ويكدح مثله ، فأمر موظفى البلديات بأن يراقبوا أخلاق السكان . ويبشروا بالجد والاقتصاد ، وأن يؤدبوا المتشردين بالأشغال الشاقة وبسط إشراف الدولة على التجارة والصناعة ، ولكنهما وجدتا التشجيع فى تحسن حال القنوات والطرق . وفى ١٧٢٢ أصدر الملك اليقظ أمراً يقرر التعليم الإلزامى ففرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة ، فما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كانت بروسيا تتصدر أوربا كلها فى التعليمين الابتدائى والثانوى [٢٣] . وألقيت البذرة لعصر كانط وجيته .

وحين تبين فردريك وليم أن الأتقياء من الناس يعملون بأثبت مما يعمل الشكاك ، أيد الحركة التقوية . وتسامح مع الكاثوليك على مضض وأخبر الكلفنيين بأن يكفوا عن التبشير بكآبة مذهبهم الجبرى ، وأمر اللوثرين بأن يستعملوا الألمانية بدل اللاتينية فى طقوسهم ، وأن يقلعوا عن ارتداء المدرعات « والبطرشيلات » وعن رفع القربان أمام المصلين ، باعتبار هذه كلها من مخلفات البابوية . ولما أكره رئيس أساقفة سالزبورج خمسة عشر ألف بروتستنتى على الهجرة . رحب بهم فردريك وليم وأقرضهم المال رحلتهم التى قطعوا فيها خمسمائة ميل ، وأجر لهم الأراضى (ولم تكن من خيرة أرضه) إلى أن تؤتى أرضهم غلاتها . واستقدم خمسة عشر ألف مهاجر آخرين من سويسرة والدويلات الألمانية . وهكذا ردت بروسيا إلى الحياة الاقتصادية بعد أن دمرتها حرب الثلاثين .

كانت الرغبة العارمة التى دفعت الملك إلى هذا النشاط هى تأمين الأمة فى عالم لا يكف عن الحرب . فحين تقلد فردريك وليم السلطة كانت الحرب الشمالية الكبرى ما تزال مستقرة ، تشتبك فيها السويد ، وروسيا وبولنده ، والدنمرك ، وسكسونيا ، وبعد قليل انجلتره ، وكانت العبرة الواضحة من هذه الحرب أنه لا غنى عن جيش قوى للسلم ، وسط عالم يسوده السطو المؤثم . وكان ملك بروسيا تواقاً إلى الحصول على ستتن ثغرا لتجارة برلين ، فاشتراها بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ طالر من الدول التى انتزعها من شارل الثانى عشر . ولكن شارل رفض عقب عودته من تركيا أن يعترف بهذا البيع لبضاعة مسروقة ، فعرض فردريك وليم أن يردها للسويد نظير الـ ٤٠٠,٠٠٠ طالر التى دفعها . ولم يكن شارل يملك المال ، ولكنه أصر على استرداد ستتن ، فأعانت بروسيا الحرب عليه (١٧١٥) وانضمت إلى أعوانه فى حصار شترالزوند . وفر شارل إلى السويد ونصف العالم ضده ، وأدركه الموت هناك . وعاد فردريك وليم إلى برلين وستتن فى جيبه ، وبريق الانتصار فى عينيه .

بعد هذا أصبح الجيش شغله الإدارى الشاغل . ولم يكن بالرجل العسكرى النزعة تماماً ، ولا كان مقاتلا قط ، ولم يخض حرباً بعد ذلك بتاتاً ، ولكنه

عقد العزم على ألا يخوض أحد حرباً ضده وهو فى مأمن . فلقد كان هذا الرجل الذى بنى أشهر جيش فى ذلك القرن « من أعظم الملوك حباً للسلام » (٢٤) وهو القائل أن مبدئى ألا أؤذى أحداً ، على ألا أسمح بأن يستهين بى أحد » (٢٥) ومن ثم راح يجمع الجند ، ويطلب أطول من يجد منهم قامة فى ولع شديد ؛ وكان يكفى للظفر بمودته أن يرسل له إنسان رجلا طوله ستة أقدام على الأقل وكان الملك يسخو فى دفع ثمنهم ويبتهج قلبه لقوامهم الفارع . ولم يكن أكثر جنوناً بالجيوش من زملائه الملوك ، إلا فيما يتصل بطول الجندى . فقد كان لفرنسا مثلا فى ١٧١٣ من الجند النظاميين ١٦٠,٠٠٠ ، ولروسيا ١٣٠,٠٠٠ ، وللنمسا ٩٠,٠٠٠ (٢٦) . ولكى يرفع فردريك وليم عدة جيشه إلى ٨٠,٠٠٠ فى بلد لا يزيد سكانه على ثلاثة ملايين ، جند الجند من الخارج وفرض التجنيد الإجبارى فى أرض الوطن . وقاوم الفلاحون وسكان المدن الإكراه على الخدمة العسكرية ، فكانوا يؤخذون بالحيلة أو القوة ؛ وحدث مرة أن اقتحم ضابط من فرق التجنيد كنيسة وساق أطول الرجال وأقواهم رغم توسلاتهم . (٢٧) (ولنذكر أننا نحن أيضاً نفرض التجنيد الإجبارى) وكان الرجال إذا انخرطوا فى سلك الجندية يجدون الرعاية الطيبة ، ولكنهم أخضعوا لنظام قاس وتدريب شاق ؛ وكان الجلد هو العقاب حتى لصغار الذنوب .

وطبق التجنيد الإجبارى على النبلاء أيضاً ، ففرض على كل نبيل سليم البدن أن يخدم فى الجيش ضابطاً ما دام يطيق الخدمة العسكرية . وكان هؤلاء الضباط يدربون تدريباً خاصاً ، ويخصهم الملك بالتكريم. فأصبحوا طبقة حاكمة يحتقرون التجار ، والمعلمين ، ورجال الدين ، والطبقات الوسطى عامة ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى طبقات دينا مستضعفة ، وكثيراً ما كانوا يعاملونهم بوقاحة وتفاخر ، أو بوحشية وضراوة . ولكنهم دربوا المشاة والمدفعية والفرسان فى تشكيلات دقيقة وحركات طيبة لم يعرفها قط أى جيش حديث آخر فى أغلب الظن . وشارك الملك ذاته فى هذه المناورات العسكرية ، وأشرف على تدريب جنوده فى تدقيق وحب ؛ فلما ولى فردريك الثانى العرش

وجد تحت إمرته قوة من الرجال مهيأة للخدع الحربية والغنائم ، متجاهلة فى لحظة كل دروس السلام التى تعلمها الأمير من الفلسفة .

(ب) فرتز الصغير :

كان « جاويش تدريب الأمة البروسية العظيم » (كما وصف كارليل فردريك وليم الأول) [٢٨] ، أباً لعشرة أطفال أكبرهم فلهلمينا . والمذكرات التى خلفتها عند وفاتها (١٧٥٨) هى أكثر مصادرنا مباشرة ووثوقاً عن تاريخ أخيها الباكر . وربما أسهبت بتركيز انتقائى فى ذكر قسوة مربيتها ، وأنانية أمها الجافية . ووحشية أبيها ، وأوامره الاستبدادية فى أمر زواجها ، ومعاملاته الصارمة للفتى فرتز الذى أحبته مفخرة وعزاء لحياتها [٢٩] . قالت « لم يوجد حب نظير حبنا الواحد للآخر لقد أحببت أخى حباً جماً وحاولت على الدوام أن أدخل السرور على قلبه » [٣٠] .

وكان فردريك ، المولود فى ٢٤ يناير ١٧١٢ ، يصغرها بثلاثة أعوام . ولم يرضى عنه أبوه ولا أمه . فقد جهدا ليصنعا منه قائداً وملكاً ، أما هو فأبدى كل إمارة على أنه سيصبح شاعراً وموسيقياً . وبين أيدينا التعليمات التى أعطاها فردريك وليم لمعلمى ولده . قال :

« اغرسوا فى ولدى ما يجب من محبة الله وخشيته باعتبارهما الأساس والركن الركين لخيرنا الزمنى والأبدى . فلا تذكروا على مسمعه أبداً أى أديان زائفة أو مذاهب إلحادية . أو أريوسية . أو سوسينية ، أو ما شاكل ذلك من أسماء لهذه السموم التى تستطيع إفساد العقل الحدث بسهولة كبيرة (وقد أصبح فردريك كل هؤلاء) . ومن ناحية أخرى يجب أن يعلم ما يجب من استنكار للبابوية وبصر بما تفتقر إليه من أساس وما فيها من سخف ...

وليتعلم الأمير الفرنسية والألمانية .... دون اللاتينية ... وعلموه الحساب ، والرياضة ، والمدفعية ، والاقتصاد ، بتعمق ... والتاريخ على الأخص ... وكلما شب زيدوه علماً بالتحصينات ، وتشكيل المعسكر ، وغير ذلك من علوم الحرب ، ولكى يدرب الأمير منذ صباه على أن يعمل ضابطاً وقائداً . . . اغرسوا فى ولدى الحب الصادق لمهنة الجندى ، وأقنعوه

بأنه لما كان السيف هو الشيء الوحيد الذى يكسب الأمير الشهرة والشرف ، فإنه سيكون مخلوقاً محتقراً من جميع الناس إذا لم يحبه ويلتمس فيه فخره الوحيد »(٣١) .

ولو أفسح للأب فى أجله بما يكفى لتاه فخراً بولده جندياً وقائداً ، ولكن كل شيء بدا وكأنه يسير فى طريق خطأ خلال سنوات التلمذة تلك . فقد كان الغلام ذكياً ، ولكنه لم يهتم قط بالهجاء . احتقر اللغة الألمانية وأحب لغة فرنسا وأدبها وموسيقاها وفنها ، وأحب أن ينظم الشعر الفرنسى ، وواصل هوايته تلك إلى آخر عمره . وكان الملك الشيخ يستشيط غيظاً إذا رأى ولده وبيده كتب فرنسية ، ويزداد غضبه حين يجده يعزف على الفلوت . وجاء يوهان كوانتش ، عازف الفلوت فى بلاط سكسونيا ، إلى برلين ليعلم الصبى خفية بناء على طلب أمه . وكان كوانتش إذا سمع الملك يدنو يختبىء فى خزانة ، ويقلب فردريك روبه الفرنسى إلى سترة حربية ، ولكن الأب كان يثور لمرأى الكتب الفرنسية ملقاة هنا وهناك ، فأمر الخدم أن يرسلوها إلى بائع كتب ، فبيعها خير من حرقها . ولكن الخدم لم يفعلوا هذا ولا ذاك ، بل خبأوا الكتب ، وبعد قليل أعادوها للأمير .

وبذل الشيخ قصارى جهده الذى اختلطت فيه محبة الأب بغضبه ليجعل الصبى مقاتلا . فاصطحبه فى رحلات صيده ، وخشنه بحياة الخلاء ، وعوده الخطر والركوب الوعر ، وألزمه العيش على الطعام الزهيد ، والنوم القليل ، ووكل إليه أمور فوج فى جيشه ، وعلمه أن يدرب جنده ، وأن يرقى بطارية مدفعية ، وأن يطلق المدافع . وتعلم فردريك هذا كله . وأبدى قدراً كافياً من الشجاعة ، ولكن الأب تبين بغضب متزايد أن الفتى ، الذى بلغ الآن السادسة عشرة راح يكون صداقة حميمة مريبة مع ضابطين شابين هما الكبتن فون كاتى والملازم كايت . وكان كاتى واسع الاطلاع كثير الرحلات ، ورغم ما تركه الجدرى على وجهه من ندوب ، فإن « تهذيب عقله وسلوكه » كما قالت فلهلمينا جعله » رفيقاً لطيفاً جداً ... وكان يفخر بأنه حر الفكر . وتأثير كاتى هو الذى دمر كل إيمان دينى فى صدر أخى »(٣٢) .

ولم يستطع فردريك وليم أن يستجيب لهذه التطورات المنحرفة فى ابنه

البكر إلا بالغضب والعنف . وكان ديدنه استعمال العصا مع خدمه ، فهدد باستعمالها لتأديب ولده . وكانت فلهلمينا خلال ذلك تقاوم خططه لتزويجها لحليف سياسي قوى ؛ وبدا أن الولد والبنت أرسلهما القدر ليخيبا كل آماله .

« لقد بلغت ثورة أبى على أخى وعلى مبلغاً جعله يقصينا عن حضرته فيما عدا ساعات الطعام . وحدث ذات مرة أن الملك قذف رأس أخى بطبقه ، وكان يمكن أن يصيبه لولا أنه حاد عنه ، وفى مرة أخرى قذف الطبق على وقد نجوت منه أنا أيضاً لحسن حظى ، ثم انهال على بوابل من السب والشتم ... وإذ مررت أنا وأخى على مقربة منه لنبرح الحجرة دفع نحونا عكازه ليضربنا . ولم يكن يرى أخى قط دون أن يهدده بعصاه . وكثيراً ما قال لى فرتز إنه قد يحتمل كل معاملة سيئة إلا أن يضرب ، فإذا بلغ الأمر حد الضرب فإنه سيهرب (٣٣) .

وفى وسعنا أن نفهم بعض أسباب الغضب الذى استشعره الملك المسن . ذلك أنه كان قد تطلع إلى ترك ملكه هذا الذى أعاد تنظيمه لولد يواصل رعايته للجيش ، ويقتصد فى النفقات ، ويبنى الصناعات ، ويصرف شئون الدولة بأمانة واجتهاد ، ولم يكن ممكناً أن نتوقع منه التنبؤ بأن ابنه هذا سيفعل هذا كله وأكثر منه . فهو لم يجد فى « فريدرش » غير فتى وقح مخنث ، يجعد شعره كالفرنسيين بدلا من أن يقصه كالجنود البروسيين (٣٤) ، ويمقت الجنود والصيد ، ويهزأ بالدين ، وينظم الشعر الفرنسى ، ويعزف على الفلوت . فأى مستقبل يمكن أن يكون لبروسيا إذا حكمها هذا الفتى الضعيف ؟ وحتى التماساته للعفو بين الحين والحين يمكن أن يفسرها أبوه بأنها جبن منه . وذات مرة قال الملك لمن حوله بعد أن لكم أذنى ولده إنه لو لقى مثل هذه المعاملة من أبيه لضرب نفسه بالرصاص ؛ ولكن فريدرش لا يملك الإحساس بالشرف وإنه على استعداد لاحتمال أى شىء (٣٥) .

وحاول الملك — إذا صدقنا الخبر الذى أنهاه فردريك إلى فلهلمينا — أن يقتله فى بوتسدام فى ربيع ١٧٣٠ . قال :

أرسل فى طلبى ذات صباح . فما إن دخلت الحجرة حتى أمسك بناصيتى وطرحنى أرضاً . وبعد أن ضربنى بقبضته جرنى إلى النافذة وربط حبل

الستارة حول عنقى — وأتيح لى لحسن الحظ وقت للنهوض والإمساك بيديه ، ولكنه جذب الحبل بكل قوته حول عنقى فشعرت بأننى أختنق وصحت مستغيثاً . وجرى تابع ليسعفنى ، واضطر إلى استعمال القوة لينقذنى (٣٦) .

وأسر فريدرش — الذى بلغ الثامنة عشرة — إلى فلهلمينا أنه ينوى الهروب إلى انجلتره مع كاتى وكايت . فتوسلت إليه ألا يفعل ، ولكنه أصر . وكتمت سره فى خوف ، ولكن الملك الذى أحاط ولده بالجواسيس علم بأمر المؤامرة ، وقبض على ابنه وابنته ، وعلى كاتى وكايت (أغسطس ١٧٣٠) . وأطلق سراح فلهليمنا بعد حين وفر كايت إلى انجلتره ، ولكن فريدرش وكاتى حوكما أمام مجلس عسكرى وحكم عليهما بالإعدام (٣٠ أكتوبر) . وأعدم كاتى فى فناء قلعة كوسترين (وهى الآن كوسترزين فى بولنده) وأكره فريدرش بأمر أبيه على أن يشهد منظر الإعدام من نوافذ زنزانته (٦ نوفمبر) . وفكر الملك فى قطع رأس ولده ، وفى جعل من يليه من أبنائه ولياً للعهد ، ولكنه خشى الأصداء الدولية لهذه الفعلة ، فراض نفسه على الإبقاء على حياة فريدرش .

ومن نوفمبر ١٧٣٠ إلى فبراير ١٧٣٢ ظل الأمير يلزم كوسترن . فى سجن محكم أول الأمر ، ثم فى حدود المدينة لا يبرحها ، تحت رقابة مشددة طوال الوقت ، ولكن « برلين كلها أرسلت إليه المؤونة لا بل أفخر الطعام والشراب » (٣٧) . فى رواية فلهليمينا . وفى ١٥ أغسطس ١٧٣١ . بعد عام من الفراق ، جاء الملك ليرى ابنه ، وقرعه ما شاء له التقريع . وقال له إن مؤامرة الهروب لو نجحت « لألقيت إلى الأبد فى مكان لا ترى فيه الشمس أو القمر ثانية . (٣٨) وجثا فريدرش على ركبتيه والتمس الصفح من أبيه ، وانهار الشيخ ، وبكى ، وعانقه ، وقبل فريدرش قدمى أبيه . (٣٩) فأطلق سراحه ، وبعث به فى جولة بالأقاليم البروسية ليدرس اقتصادها وإدارتها . لقد غيرت سنوات صراعه مع أبيه تلك من خلقه وقسته .

أما فلهلمينا التى أبهجها أن تترك سقف أبويها فقد قبلت يد هنرى ولى عهد بايرويت . وبعد أن تزوجا فى برلين (٣٠ نوفمبر ١٧٣١) ذهبت إلى الجنوب لتصبح (١٧٣٤) أميرة بايرويت ، ولتجعل بلاطها يزخر بالثقافة .

وفى فترة سلطانها هناك تحول المسكن الأميرى ، وهو قلعة إيرمبتاج ، إلى قصر ريفى (شاتو) من أجمل القصور الريفية فى ألمانيا .

وكان على فريدرش هو أيضاً أن يتزوج ، رضى أم كره . وقد ساءه هذا الإلزام ، وهدد قائلا « لو أصر الملك على هذا فسأتزوج طاعة له ، ثم أدفع بزوجتى إلى ركن من الأركان وأحيا كما أشتهى . » (٤٠) وعليه فقد قاد إلى مذبح الكنيسة (١٢ يونيو سنة ١٧٣٣) إليزابث كرستينا « أميرة برنزويك — بيفرن الجليلة » وكان يومها فى الحادية والعشرين وهى فى الثامنة عشرة ، « جميلة جداً » كما قالت أم فردريش لفلهلمينا ولكنها « بليدة كحزمة من القش — ولست أدرى كيف ينسجم أخوك مع هذه الإوزة » . (٤١) ومع أن فردريك تعلم فى سنوات لاحقة أن يقدرها تقديراً كبيراً ، إلا أنه فى هذه الفترة تركها أكثر الوقت وحيدة تلتمس لنفسها السلوى . وذهبا ليسكنا فى راينزبرج ، على أميال شمال برلين . هناك بنى الزوج الأعزب لنفسه حصناً يلوذ به ، وأجرى التجارب فى الفيزياء والكيمياء ، وجمع العلماء ، والأدباء ، والموسيقين ، من حوله ، وتبادل الرسائل مع فولف ، وفونتنيل ، وموبيرتيوى ، وفولتير .

(ج) الأمير والفيلسوف : (١٧٣٦ — ٤٠)

ورسائله مع فولتير من أعظم وثائق ذلك العهد كشفاً وإنارة : فهى تعبير أدبى رائع لشخصيتين بارزتين يتضاءل فيه فن أكبرهما سناً أمام واقعية الفتى المتفتح . كان فولتير الآن فى عامه الثانى والأربعين ، وفردريك فى الرابعة والعشرين . وكان فولتير زعيم الأدباء الفرنسيين غير منازع ، ولكن كاد يدير رأسه أن يتسلم من ولى عهد سيرتى العرش بعد حين الخطاب التالى الذى كتبه من برلين فى أغسطس ١٧٣٦ وأرسله مع رسول خاص إلى الشاعر فى سيريه :

سيـــدى :

مع أنه لم يتح لى سرور التعرف إليك شخصياً فإن ذلك لايقلل من معرفتى بك من خلال آثارك . فهى كنوز عقلية إذا جاز القول ، وهى تكشف

للقارىء عن مواطن للجمال عند كل قراءة جديدة لها ... ولو بعث الخلاف حول فضائل المحدثين والقدامى من جديد ، لدان عظماء المحدثين لك ، ولك وحدك ، بالفضل فى رجحان كفتهم ... فلم يحدث قط أن نظم شاعر مسائل الميتافيزيقا فى إيقاع منغم ، وقد حفظ لك أنت شرف السبق فى هذا المضمار . »

وواضح أن فردريك لم يكن قد قرأ لوكرتيوس بعد ، ربما لضآلة إلمامه باللاتينية ، ولكنه قرأ فولف ، وأرسل إلى فولتير :

« صورة من اتهام ودفاع السيد فولف ، أشهر فلاسفة زماننا ، الذى يتهم اتهاماً قاسياً بالمروق عن الدين والإلحاد لأنه حمل النور إلى أحلك أركان الميتافيزيقا .... وقد طلبت ترجمة لكتاب فولف « رسالة عن الله . والنفس ، والعالم .... وسأوافيك بها » .

هذا وإن ما تقدمه من عطف ومعونة لجميع من يكرسون أنفسهم للآداب والعلوم يجعلنى آمل أن تسلكنى فيمن تراهم جديرين بإرشاداتك .... »

والظاهر أن فردريك كان قد سمع بعض ما شاع عن قصيدة فولتير « لابوسيل » : (عذراء اللورين) .

سيدى ؛ لست أشتهى شيئاً اشتهائى لاقتناء جميع كتاباتك .... وإذا كان بين مخطوطاتك ما تود ستره عن أعين الجماهير فإنى أتعهد بالاحتفاظ به سراً مكتوماً ...

إن الطبيعة إذا شاءت كونت نفساً عظيمة ذات قدرات تدفع الآداب والعلوم قدماً ، وواجب الأمراء أن يكافئوا الجهد النبيل الذى يبذله صاحب هذه النفس وليت « المجد » يستخدمنى لأكلل نجاحك .....

وإذا أبى حظى أن يسعدنى بالقدرة على الاستيلاء عليك . فعسانى على الأقل أرى يوماً ما ذلك الرجل الذى طالما أعجبت به من بعيد . وأؤكد لك ، بلسانى . أننى مع كل التقدير والاعتبار الواجبين للذين يكرسون جهودهم للجماهير مهتدين فى ذلك بمشعل الحق — يا سيدى صديقك المخلص ،

فريدريك ولى عهد بروسيا

وفى وسعنا أن نتصور شعور الاغتباط الذى قرأ به فولتير هذا الخطاب ،

وهو الذى لم يكبر قط على الغرور ، فراح يرشف رحيقه أمام المركيزة الغيور . وبادر بعد تسلمه بالرد عليه فى ٢٦ أغسطس ١٧٣٦ :

مولاى :

لابد أن يكون إنساناً مجرداً من كل عاطفة ذلك الذى لا يتأثر تأثراً بالغاً بالخطاب الذى شنّم سموكم الملكى تشريفى به . فحبّى لذاتى تزهو به زهواً شديداً ، ولكن محبّتى للبشر ، التى غذوتها دائماً فى قلبى ، والتى أجرؤ على القول بأنها أساس خلقى ، منحتنى سروراً أعظم نقاء وصفاء — لأننى أرى أن فى الدنيا الآن أميراً يفكر كإنسان ، أميراً فيلسوفاً ، سوف يسعد الناس .

واسمح لى بأن أقول أنه ليس على وجه الأرض إنسان لا يدين لك بالشكر على العناية التى تبذلها لكى تهذب بالفلسفة السليمة نفساً ولدت لتأمر وتنهى . إذ لم يوجد بين الملوك صالح إلا أولئك الذين بدأوا بمحاولة تعليم أنفسهم ، وبتبين خيار الناس من أشرارهم ، وبحب ما هو حق ، وبمقت الاضطهاد والخرافة . وإن أميراً يثابر على هذه الأفكار قد يعيد العصر الذهبى إلى بلده ! ترى لم لا يسعى إلى هذا المجد إلا قلة قليلة من الأمراء ؟ .... لأنهم يفكرون فى ملكهم أكثر مما يفكرون فى النوع الإنسانى . أما حالك فنقيض هذا بالضبط ؛ (وما لم يغير ضجيج العمل ولؤم البشر يوماً مامن هذا الخلق الإلهى) (*) فإن شعبك سيعبدك ، والعالم كله سيحبك ، والفلاسفة الجديرين بهذا الاسم سيؤمون دولتك ، والمفكرين سيتزاحمون حول عرشك .... لقد تركت الملكة كرستينا الشهيرة ملكها طلباً للآداب والفنون ، فاملك إذن يا مولاى ، وستقبل الآداب والفنون ساعيه إليك ...

ولست أجد من الشكر لسموكم المعانى ما يكفى على إهدائى ذلك الكتيب عن السيد فولف . وإننى أحترم الأفكار الميتافيزيقية ، فهى أشعة من نور تتخلل الليل الدامس . وفى رأيى أننا يجب ألا ننتظر من الميتافيزيقيا أكثر من هذا . ولا يبدو أن من المحتمل الكشف إطلاقاً عن الأصول الأولى للأشياء . فالفيران التى فرض عليها البقاء فى ثقوب صغيرة من بناء هائل لا تدرى هل

(*) العبارة المحصورة بين القوسين مضافة .

البناء خالد أم غير خالد ، أو من بناه ، أو لم بناه . وما أشبهنا بهذه الفيران ، والبناء الإلهى الذى بنى الكون لم ينبىء أحداً منا قط بسره المكنون فيما أعلم ..

سأصدع بأمرك وأبعث إليك بتلك الكتابات التى لم تنشر . وستكون أنت يا مولاى جمهور قرائى ، وسيكون نقدك مكافأتى ، فهذا ثمن لا يقدر على دفعه من الملوك والأمراء إلا الأقلون . وأنا واثق من كتمانك سرها ... وإنى فى الحق أراها سعادة غالية أن آتى لأقدم احترامى لسموكم الملكى ... لولا أن الصداقة التى تبقينى فى هذه الخلوة لا تسمح لى بمغادرتها ، ولاشك أنكم توافقون جوليان ، ذلك الرجل العظيم المفترى عليه كثيراً ، على قوله « ينبغى أن يفضل الأصدقاء دائماً على الملوك . »

وثق يا مولاى أنه أياً كان ركن الأرض الذى سأختتم فيه حياتى ، فإن تمنياتى ستكون دائماً لك — أى لسعادة شعب بأكمله . وسيعد قلبى نفسه واحداً من رعاياك ، وسيكون مجدك دائماً عزيزاً على . وسأتمنى أن تكون دائماً كما أنت ، وأن يكون الملوك الآخرون مثلك — وإنى مع عميق الاحترام خادم سموكم الملكى المتواضع جداً .

فولتير (٤٣)

واتصلت الرسائل بين أعظم ملوك زمانه وأعظم أدبائه طوال اثنين وأربعين عاماً ، مع انقطاعات أليمة تخللتها . وتكاد كل كلمة فى هذه الرسائل تجزى قراءتها ، لأنه لا يتاح لنا كثيراً امتياز الاستماع إلى رجلين كهذين يتحدثان هذا الحديث الحميم المدروس . ونحن نصد أنفسنا بصعوبة عن إغراء نقل ما فى هذه الرسائل من الأحكام المنيرة ، ومن آيات الذكاء ؛ ولكن بعض فقراتها تعيننا على تصور هذين العملاقين المتنافسين ، رب السيف ورب القلم . (*)

(*) الاشارات التالية للترجمة الانجليزية للرسائل التى قام بها رتشرد أولدنجتن بعنوان : The Letters of Voltaire and Frederick The Great (New York 1927) رسائل فولتير وفردريك الأكبر (نيويورك ؛ ١٩٢٧) والتى نزكيها بقوة .

فهما بادىء ذى بدء يتفقان فى إعجاب الواحد منهما بصاحبه . ففردريك يعرب عن دهشته لأن فرنسا لم تتبين « الكنز المخبوء فى قلبها » ، ولأنها تترك فولتير « يعيش وحيداً فى صحارى شامبين ... ومنذ الآن ستصبح سيريه (معبدى) دلفى ، ورسائلك وحي المقدس . » [٤٤] « اترك وطنك الجاحد ، وتعال إلى بلد يعبدك فيه أهله » . [٤٥] ويرد فولتير باقات الزهر بأجمل منها ، فيقول « إنك تفكر كتراجان ، وتكتب كبلينى ، وتستعمل الفرنسية كأحسن كتابنا . . . ستكون برلين بفضل رعايتك أثينة ألمانيا ، بل ربما أوربا » [٤٦] . وهما متفقان على الربوبية ، يؤكدان الإيمان بالله ويعترفان بأنهما لا يعرفان عنه تعالى شيئاً قط وهما يمقتان رجال الدين الذين يقيمون سلطانهم على ما يزعمون من قرب من الله [٤٧] . ولكن فردريك مادى صريح (« الشىء المؤكد هو أننى ، مادة ، وأننى أفكر » [٤٨] وجبرى خالص ؛ أما فولتير فليس مستعداً بعد للتخلى عن فكرة حرية الإرادة . [٤٩] وينصح فردريك « بالصمت العميق إذاء القصص الخرافية المسيحية ، التى قدسها قدمها وغرارة الناس السخفاء والتافهين » [٥٠] ولا يترك فولتير فرصة يلقن فيها تلميذه الأمير حب الإنسانية وكراهية الخرافة ، والتعصب ، والحرب أما فردريك فلا يأخذ الإنسانية مأخذ الجد الشديد : « إن الطبيعة تنجب بطبيعتها اللصوص ، والحساد ، والمزورين ، والقتلة ؛ فهم يغطون وجه البسيطة ، ولولا القوانين التى تقمع الرذيلة لاستسلم كل فرد لغرائزه الفطرية ولما فكر إلا فى نفسه » [٥١] .... والبشر بطبيعتهم ميالون إلى الشر ، وهم ليسوا أخياراً إلا بقدر ما تهذب التربية والتجربة من عنفهم وطيشهم [٥٢] .

وقد تميزت السنوات الأخيرة فى تلمذة فردريك بحدثين . فنى ١٧٣٨ انضم إلى جماعة الماسون . [٥٣] وفى ١٧٣٩ ، وهو فى نشوة من تأثير فولتير فيما يبدو ، ألف كتيباً سماه « الرد على كتاب الأمير لمكيافللى » حاسب فيه الفيلسوف الإيطالى حساباً عسيراً على ما بدا فى كتابه من تبرير لأى ذريعة يراها الحاكم ضرورية لصيانة دولته أو دعمها . وقال الأمير الجديد ، لا ، فالمبدأ الحق الوحيد للحكم هو ولاء الملك وعدله وشرفه . وقد أعرب الفيلسوف الأمير عن احتقاره للملوك الذين يؤثرون « مجد الفاتحين المهلك على المجد

الذى يكسب بالعطف والرحمة . » ، وتساءل ما الذى يغرى إنساناً بأن يطلب عظمته الشخصية بإشقاء غيره من الناس وتدميرهم . » (٥٤) ومضى فردريك يقول :

إن مكيافللى لم يفهم طبيعة الملك الحقة ... فهو ليس السيد المطلق المتصرف فيمن يدينون لحكمه ، إنما هو أول خدامهم ، وينبغى أن يكون الأداة لرفاهيتهم كما أنهم الأداة لمجده . (٥٥)

ثم أطرى فردريك الدستور الإنجليزى مقتدياً بفولتير على الأرجح :

يبدو لى أننا لو شئنا الإشادة بشكل من أشكال الحكم على أنه القدوة لجيلنا لكان هو الحكم الإنجليزى . فالبرلمان هناك هو القاضى الأعلى للشعب والملك على السواء ، وللملك كامل القدرة على فعل الخير ، ولا قدرة على فعل الشر (٥٦) .

ولسنا نجد فى هذه الآراء أى علامة من علامات عدم الإخلاص ، فهى تتكرر المرة بعد المرة فى رسائل فردريك التى تنتمى لهذه الفترة . وقد بعث بمخطوطة كتابه إلى فولتير (يناير سنة ١٧٤٠) ، الذى طلب الإذن له بأن ينشرها . ووافق المؤلف الفخور على استحياء ، وكتب فولتير مقدمة للكتاب ، وأخذ المخطوطة إلى لاهاى ، وأشرف على طبعها ، وصحح تجاربها . وفى أواخر سبتمبر طلع الكتاب على الناس فجأة غفلا من اسم المؤلف بعنوان « المعارض لمكيافللى » . وسرعان ما كشف سر مؤلفه ، وشارك القراء فولتير فى الترحيب بمقدم ملك — فيلسوف .

أما فردريك وليم الأول فقد ظل إلى النهاية تقريباً على ما كان عليه طويلا ، كأنه سنديانة كثيرة العقد ، يوبخ ، ويندد ، ويشرع القانون بطريقته العجيبة . ولم يسالم العالم على مضض إلا حين أنبأه واعظ البلاط بدنو أجله ، وبأنه يجب أن يغفر لأعدائه إن أراد أن يغفر الله له . وأرسل فى لحظاته الأخيرة فى طلب فردريك ، وعانقه وبكى ، فلعل هذا الفتى العنيد ، رغم هذا كله ، أن يحوى بين جنبيه مقومات ملك ؟ وسأل القواد المحيطين بسريره « ألست محظوظاً لأن لى ولداً أستخلفه » ؟ (٥٧) ولعل

الابن فهم الآن أكثر من ذى قبل إحساس أبيه الشيخ بأن الملك يجب أن يكون له بعض الحديد فى دمه .

وفى ٣١ مايو ١٧٤٠ أسلم فردريك وليم الأول روحه وعرشه وقد أبلاه النضال ولما يجاوز الحادية والخمسين ، وآل الملك لمعارض مكيافللى .

٣ — مكيافللى الجديد

كان فردريك الثانى فى الثامنة عشرة من عمره حين ولى العرش . وكان لا يزال — كما رسمه أنطوان بين قبل ذلك بعام — الموسيقى والفليسوف رغم دروعه البراقة : قسمات حلوة رقيقة ، وعينان واسعتان تختلط فيهما الزرقة بالشهبة ، وجبين عال ؛ « له أسلوب فى السلوك طبيعى جذاب ، وصوت خافت سار . » [٥٨] على حد قول السفير الفرنسى . وكان إلى ذلك الحق تلميذ فولتير . وقد كتب له بعد ستة أيام من تقلده الحكم :

لقد تبدل حظى ، وشهدت اللحظات الأخيرة لملك ، ومعاناته ، وموته . لم يكن بى حاجة وأنا أرتقى العرش إلى ذلك الدرس لكى أشمئز من خيلاء العظمة البشرية .... وأرجو ألا ترى فى إلا مواطناً غيوراً ، وفيلسوفاً تغلب عليه نزعة الشك ، وصديقاً صدوقاً . وإنى أستحلفك بالله أن تكتب لى كتابتك لإنسان عادى ، وأن تحتقر مثلى الألقاب والأسماء وكل مظاهر الزهو والغرور [٥٩] .

وعاد يكتب إلى فولتير بعد ثلاثة أسابيع :

« إن ضخامة العمل الذى ألقاه القدر على عاتقى لا يكاد يترك وقتاً لحزنى الحقيقى . وإننى أشعر أننى بعد فقدى أبى مدين بجملتى لبلدى . وبهذا الهدف أعمل بكل طاقتى لاتخاذ أسرع التدابير وأصلحها للخير العام » . [٦٠]

وقد صدق . ففى غداة توليه العرش ، حين حكم من برد الربيع بأن المحصول سيكون متأخراً وهزيلا ، أمر بأن تفتح مخازن الغلال العامة ، وأن يباع القمح للفقراء بأسعار معقولة . وفى اليوم الثالث ألغى فى جميع أرجاء بروسيا اللجوء إلى التعذيب فى محاكمة المجرمين — قبل أن يصدر باكاريا

رسالته الخطرة بأربعة وعشرين عاماً ، وينبغى أن نضيف أن التعذيب فى المحاكمات وإن أجازه القانون إلا أنه من الناحية العملية تقادم فى عهد فردريك وليم الأول ، وأن فردريك انتكس لحظة إلى استعماله فى حالة واحدة عام ١٧٥٢ . [٦١] وفى ١٧٥٧ وكل إلى صموئيل فون كوكييى ، كبير القضاة البروسيين ، أن يشرف على إصلاح القانون البروسى اصلاحاً شاملا .

وظهر تأثير الفلسفة فى أعمال أخرى قام بها فى هذا الشهر الأول . ففى ٢٢ يونيو أصدر فردريك أمراً بسيطاً جاء فيه « يجب التسامح مع جميع الأديان ، وعلى الحكومة أن تتحقق من أن أحداً منها لا يجور على غيره ، لأن على كل إنسان فى هذا الوطن أن يصل إلى السماء بطريقته الخاصة » . [٦٢] ولم يصدر أمراً رسمياً عن حرية المطبوعات ، ولكنه أباحها عملياً ، فقال لوزرائه « إن الطباعة حرة » واحتمل فى صمت ملؤه الاحتقار مئات الانتقادات العنيفة التى نشرت ضده [٦٣] . ومرة رأى هجوماً ساخراً معلقاً فى أحد الشوارع ، فأمر بأن ينقل إلى مكان يسهل قراءته فيه . وقال « لقد انتهيت أنا وشعبى إلى اتفاق يرضينا جميعاً : يقولون ما يشتهون ، وأفعل ما أشتهى » . [٦٤] ولكن هذه الحرية لم تكن كاملة قط ؛ فكلما ارتقى فردريك الأكبر فى مدارج العظمة حظر النقد العلنى لتدابيره الحربية أومراسيمه الضرائبية . وظل ملكاً مطلق السلطة وإن حاول أن يجعل تدابيره متسقة مع القوانين .

ولم يبذل أى محاولة لتغيير هيكل المجتمع أو الحكومة البروسيين . فظلت المجالس والهيئات الإدارية كما كانت ، إلا أن فردريك شدد الرقابة عليها وشارك بهمة أكبر فى أعمالها ؛ وقد أصبح عضواً فى جهازه البيروقراطى. قال السفير الفرنسى « إنه يبدأ حكمه بطريقة مرضية جداً : فحيثما تلفت وجدت آثار بره برعيته وعطفه عليها » . [٦٥] ولكن هذا لم يمتد إلى التخفف من وطأة القنية ؛ فظل الفلاح البروسى أسوأ حالا من الفرنسى ، واحتفظ النبلاء بامتيازاتهم .

وتضافر تأثير فولتير مع تقليد ليبنتس فى إحياء أكاديمية برلين للعلوم إحياء قوياً . فبعد أن أسسها فردريك الأول (١٧٠١) أهملها فردريك وليم الأول . أما فردريك الثانى فقد جعلها الآن أبرز الأكاديميات فى أوربا . وقد سلف القول بأنه رد فولف من منفاه . وأراد فولف أن يرأس الأكاديمية ولكنه كان طاعناً فى السن ، ضعيف الساقين ، فيه شيء من الخضوع للعقائد التقليدية . أما فردريك فأراد رئيساً لها من أصحاب « العقول القوية » (أحرار الفكر) ، رجلا مواكباً لآخر تطورات العلم ، لا يعوقه معوق من اللاهوت . وعملا باقتراح من فولتير (أسف عليه فيما بعد) دعا (يونيو ١٧٤٠) بيير لوى مورو دموبير توى ، الذى كان الآن فى منتصف عمره ، عائداً لتوه من بعثة شهيرة إلى لايلاند لقياس درجة من درجات العرض . وحضر موبيرتوى وأغدق عليه فردريك العون والتأييد ، فبنى مختبراً عظيما وأجرى تجارب أحياناً فى حضرة الملك والحاشية . وقد ذهب جولدسمث ، الذى لابد قد خبر جمعية لندن الملكية ، إلى أن أكاديمية علوم برلين « تفوق أى أكاديمية غيرها فى الوجود » (٦٦) .

وأبهج هذا كله فولتير . فلما أتيحت لفردريك فرصة زيارة كليفز دعا الفيلسوف للقائه . وكان فولتير يومها فى بروكسل ، فانتزع نفسه من مركيزته الفكدة ، وسافر ١٥٠ ميلا إلى « شلوس مويلاند » . هناك رأى أفلاطون الجديد ديونيسيوسه أول مرة ، وأنفق ثلاثة أيام (١١ — ١٤ سبتمبر ١٧٤٠) فى نشوة غامرة لم يفسدها غير وجود ألجاروتى دموبيرتوى . وفى خطاب للسيدة سيدفيل كتبه فى ١٨ أكتوبر أبدى رأيه فى فردريك فقال :

فى ذلك المكان رأيت رجلا من ألطف الرجال فى الدنيا ، هو زينة المجتمع ، ولو لم يكن ملكاً لسعى إليه الناس فى كل بلد ، فيلسوف مبرأ من التزمت ، كله حلاوة ، وكياسة ، وسلوك كريم ؛ ينسى أنه ملك حين يلتى أصدقاءه . لقد احتجت إلى جهد من ذاكرتى لأتذكر أن الجالس عند أسفل سريرى ملك له جيش عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل . (٦٧)

ولم يكن فردريك أقل اغتباطاً . فقد كتب إلى مساعده جوردان فى ٢٤ سبتمبر يقول :

رأيت فولتير الذى كنت تواقاً إلى معرفته ، ولكنى رأيته وحمى الربع تهدنى ، وعقلى وجسدى متوتر الأعصاب ... إن له فصاحة شيشرون ، ولطف بيلنى ، وحكمة أجريبا ، فهو باختصار يجمع خير ما يجنى من الفضائل والمواهب من ثلاثة من أعظم القدماء . وعقله لاينى عن التفكير ، وكل قطرة مداد هى رحيق ذكاء يقطر من قلمه ... إن لاشاتليه محظوظة بعيشه معها ، فإن فى وسع إنسان لم يؤت من المواهب غير ذاكرة قوية أن يؤلف كتاباً رائعاً من الأقوال الحكيمة التى ينثرها كيفما اتفق . » (٦٨)

فلما رجع فردريك إلى برلين لاحظ أن لديه جيشاً عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وفى ٢٠ أكتوبر مات شارل السادس وارتقت عرش إمبراطورية النمسا والمجر شابة لها جيش من الدرجة الثانية . فى ذلك اليوم ذاته أرسل فردريك إلى فولتير خطاباً نذيراً بالشر ، جاء فيه « أن موت الامبراطور يغير كل أفكارى السلمية ، وأظن أن الأمور ستنحو فى شهر يونيو نحو المدافع والبارود ، والجنود والخنادق ، بدلا من الممثلات والمراقص والمسارح ؛ بحيث أرانى مضطراً إلى إلغاء الاتفاق الذى كنا على وشك إبرامه . (٦٩)

وأحس فولتير فى قلبه وجعاً . أترى تلميذه هذا تاجر حرب كأى ملك آخر ؟ وانتهز دعوة فردريك إياه لزيارته فى برلين فقرر أن يرى ما هو مستطيع صنعه فى سبيل السلام وقد يستطيع فى الوقت ذاته أن يصلح ما فسد بينه وبين فرساى لأن الكردينال فلورى ، الذى ظل قابضاً على دفة الحكم فى فرنسا كان هو أيضاً ينشد السلام . وعليه ففى ٢ نوفمبر كتب إلى الكردينال يعرض خدماته عميلا سرياً لفرنسا ، فى محاولة لرد فردريك إلى حظيرة الفلسفة . وقبل فلورى العرض ، ولكنه وبخ الدبلوماسى الجديد برفق على حملاته العنيفة على الدين « لقد كنت حدثاً ، وربما طالت حداثتك بعض الشىء » . (٧٠) وفى خطاب آخر بنفس التاريخ (١٤ نوفمبر) كتب الكردينال اللطيف ينبىء بتسلمه كتاب « المعارض لمكيافيلى من مدام دشاتليه وأطراه وهو يحدس بحكمة هوية مؤلفه :

أياً كان مؤلف هذا الكتاب ، فهو جدير بأن يكون أميراً إن لم يكنه . والقليل الذى قرأته منه يفيض حكمة ومعقولية وفيه تعبير عن مبادىء جديرة

بالإعجاب الشديد ، مما يؤهل مؤلفه لقيادة غيره من الناس ، شريطة أن يؤتى من الشجاعة ما يجعله يطبق مبادئه . فإذا كان قد ولد أميراً فقد دخل فى ميثاق جليل جداً مع الشعب ؛ وما كان الامبراطور أنطونينوس مكتسباً المجد الخالد الذى يحتفظ به جيلا بعد جيل لو لم يدعم بعدالة حكمه تلك الفضيلة السامية التى بسطها لجميع الملوك فى مثل هذه الدروس المنيرة ... وسوف أتأثر تأثراً لاحد له إذا استطاع صاحب الجلالة البروسى أن يجد فى مسلكى بعض التطابق مع مبادئه ، ولكنى أؤكد لك على الأقل أننى أعتبر مخططه مخططاً لأكمل وأمجد حكومة .(٧١)

وبعد أن رتب فولتير أداء فردريك لجميع نفقات رحلته عبر ألمانيا لأول مرة ، وأنفق زهاء أسبوعين مع الملك فى راينزبرج وبوتسدام وبرلين (٢٠ نوفمبر إلى ٢ ديسمبر) وارتكب خطأ بإطلاعه فردريك على خطاب الكردينال عن كتابه « المعارض لمكيافللى » وتبين فردريك فوراً أن فولتير يلعب دور الدبلوماسى ، ففسر مديح فلورى الجميل على أنه دعوة للتعاون مع فرنسا ، وضايقه أن يرى نفسه معوقاً بمقال كتبه فى الفلسفة . وتبادل الشعر والأجوبة البارعة مع فولتير ، ورفه عنه بعزفه على الفلوت ، وصرفه دون شىء محدد أكثر من شكره على الكينين الذى لطف به الشاعر برداء الملك . وفى ٢٨ نوفمبر كتب فردريك إلى جوردان وهو يعنى فولتير دون أن يذكر اسمه صراحة » . إن صاحبك البخيل سيعب ما شاء ليروى ظمأه الذى لا يطفأ للغنى ، فسيقبض ثلاثة آلاف طالر ، وهو ثمن غال يدفع لمهرج ؛ فما من مهرج بلاط نقد مثل هذا الأجر من قبل » .(٧٢) ويبدو أن هذا المبلغ شمل نفقات رحلة فولتير — التى تطوع فردريك على الأرجح بدفعها — وتكاليف نشر كتابه « المعارض لمكيافللى » التى كان فولتير قد قدمها من جيبه الخاص . وهكذا إذا دخل المال من الباب خرج الحب من الشباك ، كما يقولون ، إن فردريك لم يستطب دفع نفقات عميل فرنسى ولا تكاليف كتاب كان يسره أن يرشو العالم ليناه .

وغلب تأثير فردريك وليم الآن تعاليم الفيلسوف . وكلما حلت فرص

السلطة وتبعات الحكم محل موسيقى صباه وشعره وهو بعد أمير ، ازداد فردريك برودا وقسوة ، لا بل إن المعاملة السيئة التى كان أبوه يصبها عليه أغلظت جلده ومزاجه . وكان فى كل يوم يرى أولئك العمالقة الـ ١٠٠,٠٠٠ الذين خلفهم له أبوه ، وفى كل يوم كان عليه أن يطعمهم . فأى معنى لتركهم يصدأون ويبلون فى السلم ؟ أما من ظلم يستطيع هؤلاء العمالقة رفعه ؛ أجل ، هناك سيليزيا ، التى تفصلها بوهيميا عن النمسا ، والأقرب إلى برلين منها إلى فيينا ؛ وكان نهر الأودر العظيم يجرى هابطاً من بروسيا إلى برزلا وعاصمة سيليزيا التى لا تبعد عن برلين غير ١٨٣ ميلا إلى الجنوب الشرقى . فماذا يفعل النمساويون هناك ؟ إن لبيت براندنبورج مطالب فى سليزيا — فى الإمارات السابقة — وهى بيجرندورف ، وراتيبور ، وأوبيلن ، وليجنتس ، وبريج ، وفولاو ؛ هذه كلها أخذتها النمسا أو تم التنازل لها عنها بمقتضى ترتيبات لم تكن قط مرضية لبروسيا . إذن فالآن ، والوراثة النمساوية محل نزاع ، وماريا تريزا صغيرة ضعيفة ، وعلى العرش الروسى قيصر طفل هو إيفان السادس — الآن هو الوقت الملائم للإلحاح على تلك المطالب القديمة ، ولتصحيح تلك الأخطاء القديمة — ولإعطاء بروسيا وحدة وأساساً جغرافياً أعظم من ذى قبل .

وفى أول نوفمبر قال فردريك لبوديفيلز أحد مستشاريه : « حل لى هذه المسألة : إذا أتيحت لإنسان ميزة فهل ينتفع بها أو لا ينتفع ؟ إننى مستعد بجيشى وبكل شىء آخر . فإذا لم أستعمله الآن كنت أملك فى يدى أداة عديمة الجدوى رغم قوتها . وإذا استعملت جيشى قيل إننى أوتيت مهارة استغلال التفوق المتاح لى على جارتى . » ورأى بوديفيلز أن هذا العمل سيعتبر عملا غير أخلاقى . فرد فردريك : ومتى كانت الفضيلة معوقاً للملوك ؟ (٧٣) وهل فى وسعه أن يمارس الوصايا العشر فى عرين الذئاب ذاك الذى يسمى الدول العظمى ؟ ولكن ألم يتعهد فردريك وليم بتأييد « الأمر العالى » الذى ضمن لماريا تريزا تلك الممتلكات التى خلفها لها أبوها ؟ إن هذا التعهد على أية حال كان مشروطاً بتأييد الامبراطور لمطالب بروسيا فى يوليش وبيرج ، وهذا التأييد لم يأت ، بل على العكس بذل لمنافسى بروسيا . فالآن يمكن الثأر لهذه الإهانة المؤلمة .

وعليه فنى ديسمبر أرسل فردريك مبعوثاً إلى ماريا تريزا يعرض عليها حمايته إذا أقرت مطالبه فى شطر من سيليزيا . وإذ توقع رفضها لهذا الغرض ، فإنه أمر شطراً من جيشه يبلغ ثلاثين ألف مقاتل بالزحف . فعبر الحدود إلى سيليزيا فى ٢٣ ديسمبر قبل وصول مبعوث فردريك إلى فيينا بيومين . وهكذا بدأت الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ — ٤٢) ، وهى أولى مراحل حرب الوراثة النمساوية .

٤ — حرب الوراثة النمساوية ؛ : ١٧٤٠ — ٤٨

لن نتتبع فردريك فى كل تحركاته العسكرية ، لأن هذا الكتاب تاريخ للحضارة . ولكن يهمنا طبيعة الإنسان وسياسة الدول كما تكشف عنهما أقوال فردريك وأفعاله ، والسياسات المتقلبة للدول . ولعل حقائق سياسة القوة لم تقر فى أى حرب مدونة بأوضح مما تعرت فى هذه الحرب .

اخترق الجيش البروسى سيليزيا دون أن يلقى مقاومة تذكر . فأما النصف البروتستنتى من السكان ، وهم الذين عانوا بعض الاضطهاد فى ظل الحكم النمساوى ، فقد رحبوا بفردريك محرراً لهم ؛ [٧٤] وأما الكاثوليك فقد تعهد لهم — وأوفى بعهده — بكامل الحرية فى ممارسة دينهم . وفى ٣ يناير ١٧٤١ استولى على برزلاو فى هدوء . وهو يؤكد لنا أنه « لم ينهب بيت ، ولم يهن مواطن ، وقد أشرق النظام البروسى بكل بهائه » ؛ [٧٥] وكان هذا أرق وأرفق استيلاء على مدينة . وأمرت ماريا تريزا المرشال نايبيرج بأن يجمع جيشاً فى مورافيا ويعبر به إلى سيليزيا ؛ وفى ١٠ أبريل اشتبك هذا الجيش بقوة فردريك السيليزية الرئيسية فى مولفتش ، على عشرين ميلا جنوبى برزلاو . وكانت عدة جيش نايبيرج ٨,٦٠٠ فارس ، و ١١,٤٠٠ راجل ، و ١٨ مدفعاً ، وعدة فردريك ٤,٠٠٠ فارس و ١٦,٠٠٠ راجل ، وستين مدفعاً ، وقد قررت هذه الفروق مراحل المعركة ونتائجها . فغلب الفرسان النمساويون الفرسان البروسيين الذين لاذوا بالفرار . وأقنع المرشال شفرين فردريك بأن يفر مع الفارين مخافة أن يؤسر ولا يفرج عنه إلا بفدية مدمرة . ولكن بعد أن ذهب الملك وفرسانه ، صمد المشاة البروسيون لجميع الهجمات

سواء من الفرسان أو المشاة ، أما المدفعية البروسية فقد أعادت تعبئة مدافعها بمدكات حديدية وألحقت من الأذى البالغ بالنمساوين ما حمل نايبيرج على إصدار أمره بالتقهقر . فلما استدعى فردريك ثانية إلى ساحة القتال أبهجه وأخجله أن يجد أن جيشه كسب المعركة . وأحس أنه أذنب لا بالجبن فحسب بل بالاستراتيجية الناقصة ؛ فلقد بعثر رجاله الثلاثين ألفاً فى سيليزيا قبل أن يدعم غزوه ، ولم ينقذ الموقف غير شجاعة مشاته وحسن تدريبهم . وجاء فى مذكراته أنه « فكر كثيراً فى الأخطاء التى ارتكبها ، وحاول إصلاحها فيما تلا ذلك . » (٧٦) ولم يكن فى بسالته قصور مرة أخرى بعد هذا ، وندر أن أخطأ فى التكتيك أو الاستراتيجية .

ونمى نبأ هزيمة الجيش النمساوى إلى ماريا تريزا وهى تستجم عقب ولادة طفلها . وبدا أن أملها الوحيد — فى حالة الضعف الذى أصاب قواتها وماليتها — معقود على معونة من الخارج . فلجأت إلى الدول الكثيرة التى تعهدت من قبل بتأييدها للأمر العالى الخاص بحكمها . واستجابت انجلتره فى حذر ؛ فهى فى حاجة إلى نمسا قوية تثبت لفرنسا ، ولكن جورج الثانى خاف على إمارته الهانوفرية إن خاض الحرب ضد جارته بروسيا . وأقر البرلمان البريطانى إعانة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لماريا تريزا ، ولكن المبعوثين البريطانيين حثوها على أن تتنزل عن سيليزيا السفلى (الشمالية) لفردريك ثمناً للسلام . وكان فردريك راضياً بهذا الحل ، ولكن الملكة رفضته . أما بولنده ، وسافوى ، والجمهورية الهولندية ، فقد وعدت كلها بالمعونة ، ولكنها أبطأت فى إرسالها إبطاء أفقدها أثرها فى النتيجة .

وكل ائتلاف يلد نقيضاً له . فما إن رأت فرنسا ذلك التقارب بين عدويها القديمين انجلتره والنمسا حتى بادرت بالتحالف مع بافاريا ، وبروسيا ، وأسبانيا البوربونية . وقد رأينا أن فرنسا كان لديها مكيافللها ، وهو بيل — إيل ، الذى اقترح هذه الآية من آيات اللصوصية السياسية . فعلى فرنسا التى تعهدت بتأييد الأمر العالى أن تسرع بالإفادة من مصيبة ماريا تريزا ، وذلك بتأييد شارل ألبرت البافارى فى مطالبته بالعرش الإمبراطورى عن طريق زوجته . وعلى فرنسا أن تقدم له المال والجند للمشاركة فى الهجوم على النمسا ،

فإذا أفلحت الخطة قصر حكم ماريا تريزا على المجر ، والنمسا السفلى ، والأراضى المنخفضة النمساوية ، وأصبح شارل إمبراطوراً يحكم بافاريا ، والنمسا العليا ، والتيرول ، وبوهيميا ، وجزءاً من سوابيا ؛ أما الابن الثانى لملك اسبانيا فيأخذ ميلان ، وعارض فلورى الخطة ، وتغلب بيل — ايل ، وأرسل ليظفر بتأييد فردريك للمؤامرة . ووقعت فرنسا وبافاريا على تحالفهما فى نمفنبورج فى ١٨ مايو ١٧٤١ . وأحجم فردريك عن الانضمام فلم يكن فى وسعه أن يسمح لفرنسا بأن تقوى شوكتها إلى هذا الحد ، ولم يفقد الأمل فى الوصول إلى تفاهم مع ماريا تريزا ، ولكن لما لم تعرض عليه سوى تنازلات تافهة ، فقد وقع ببرزلاو فى ٥ يونيو حلفاً مع فرنسا ، وبافاريا ، وأسبانيا ؛ وأراد أن يشارك فى الغنيمة بنصيب إن قسمت المملكات النمساوية . وتعهد كل طرف من الأطراف الموقعة على الحلف بألا تعقد حكومته صلحاً منفرداً سرياً . وضمنت فرنسا استلاء فردريك على برزلاو وسيليزيا السفلى ، ووعدت بأن تحث السويد على تعليق روسيا فى حرب تشغلها ، ووافقت على إرسال جيش فرنسى لمنع قوات انجلتره الهانوفرية من المشاركة فى اللعبة .

أما وقد تركت ماريا تريزا بغير حليف تقريباً ، فإنها صممت على الاستنجاد بنبلاء المجر العسكريين . وكان هؤلاء النبلاء ، أو أسلافهم ، قد عانوا الأمرين من حكم النمسا ؛ فقد حرمهم ليوبولد الأول دستورهم القديم وحقوقهم الموروثة ، فلم يكن لديهم إذن كبير مبرر لإغاثة حفيدته . ولكن حين ظهرت أمامهم فى مجلسهم النيابى (الديت) فى برسبورج (١١ سبتمبر ١٧٤١) أثر فيهم جمالها ودموعها . وخطبت فيهم باللاتينية ، واعترفت بأن حلفاءها تخلوا عنها ، وأعلنت أن شرفها وعرشها يعتمدان الآن على بسالة وشهامة الفرسان المجريين والأسلحة المجرية وما يروى من أن النبلاء هتفوا باللاتينية « لنمت فداء مليكتنا » (فهكذا سموا الملكة) إنما هو قصة جميلة هبطت الآن إلى مرتبة الأسطورة . [٧٨] فقد ساوموا كثيراً ، واستلوا منها العديد من التنازلات السياسية ؛ ولكن حين جاءهم زوجها فرانسيس ستيفن فى ٢١ سبتمبر ومعه مرضع ترفع لهم بين يديها الطفل جوزف ذا الشهور الستة ، استجابوا للنداء بشهامة ، وهتف كثيرون منهم

بأن حياتهم ودماءهم فداء للملكة (٧٦) وأقر المجلس التجنيد العفوى العام . ودعوة جميع الرجال للسلاح ، وبعد تعطيل طويل ركبت قوة مجرية صوب الغرب للدفاع عن الملكة .

ولو أن شارل ألبرت واصل زحفه على فيينا لكان الوقت قد فات لتخليص هذه العاصمة . ولكن الذى حدث أثناء ذلك (١٩ سبتمبر) أن سكسونيا انضمت إلى الحلف المعادى للنمسا ؛ فخشى شارل البرت أن يستولى أوغسطس الثالث على بوهيميا ، ونصح فلورى الأمير البافارى بأن يستولى على بوهيميا قبل أن يستطيع السكوسونى الوصول إليها . وحث فردريك شارل على مواصلة الزحف على فيينا . أما شارل الذى كانت فرنسا تموله فقد أطاع فرنسا . وخشى فردريك أن تصبح فرنسا بعد غلبة نفوذها فى بافاريا وبوهيميا قوة خطرة على أمن بروسيا ، فوقع هدنة سرية مع النمسا (٩ أكتوبر ١٧٤١) وزلت له ماريا تريزا مؤقتاً عن سيليزيا السفلى لحرصها على إنقاذ بوهيميا .

وأحدقت ثلاثة جيوش الآن ببراغ : أحدها بقيادة شارل ألبرت ، والثانى جيش فرنسى بقيادة بيل — ايل . ثم عشرون ألف سكسونى . وسقطت العاصمة البوهيمية ذات الحامية الضعيفة بعد الهجمة الأولى (٢٥ نوفمبر) ولكن النصر كان كارثة على شارل . ذلك أنه وقد استغرقته الحملة على بوهيميا ترك إمارته البافارية دون أن يدعمها بأسباب دفاع تذكر ، ولم يدر بخلده قط أن تستطيع ماريا تريزا الهجوم عليها وهى مهددة بأخطار من هذه الجوانب الكثيرة . ولكن الملكة أبدت من مرونة الحركة وسهولة التكيف ما أوقع الفزع فى قلوب أعدائها . فقد استدعت عشرة آلاف جندى نمساوى من إيطاليا ، وأخذت الفرق المجرية تصل إلى فيينا . فأمرت على هذين الجيشين الكونت لودفج فون كيفنهولر . الذى تعلم فنون الحرب على يد أوجين أمير سافوى . أما وقد توفرت للجيشين القيادة القادرة ، فقد فتحا بافاريا واجتاحاها دون مقاومة تذكر ؛ وفى ١٢ فبراير ١٧٤٢ استوليا على مونيخ عاصمتها . وفى هذا اليوم نفسه فى فرانكفورت — أم — مين ،

توج شارل ألبرت امبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم شارل السابع .

أما فردريك ، الذى كان يتحول مع كل ريح من رياح القوة ، فقد دخل الحرب من جديد خلال ذلك . لقد جعل الهدنة مشروطة بكتمان أمرها ، ولكن ماريا تريزا كشفت أمرها لفرنسا ، ووصلت إلى آذان فردريك هذه الهمسات الدبلوماسية ، فبادر بالانضمام إلى حلفائه من جديد (ديسمبر ١٧٤١) . واتفق معهم على خطة يقود بمقتضاها جيشاً يخترق مورافيا إلى النمسا السفلى ، وهناك تلتقى به القوات السكسونية والفرنسية البافارية ، ويزحف الجميع معاً إلى فيينا . ولكنه كان يقود الآن عملياته وسط سكان معادين له عداء نشيطاً ، وكان الفرنسان المحربون يغيرون على خطوط مواصلاته مع سيليزيا . فارتد ثانية ودخل بوهيميا . هناك ، على مقربة من شوتوسنز ، هجم على مؤخرته جيش نمساوى بقيادة الأمير اللوريني شارل الكسندر (١٧ مايو ١٧٤٢) . وكان هذا الأمير ، زوج أخت ماريا تريزا ، شاباً فى الثلاثين وواحداً من ألمع وأشجع أمراء أسرته ، ولكنه لم يكن قريعاً لفردريك فى تكتيكات المعركة . وكان لكل منهما جيش عدته نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل . وعادت طلائع فردريك إلى ساحة القتال فى الوقت المناسب تماماً ، فوجه قوتها الكاملة ضد جناح مكشوف للنمساويين ، فتراجعوا فى تقهقر منتظم . ولحقت بالجيش خسائر فادحة ، ولكن النتيجة أقنعت ماريا تريزا بأنه ليس فى استطاعتها أن تقاتل كل أعدائها فى وقت واحد . فقبلت نصيحة المبعوثين الإنجليز الذين أشاروا عليها بإبرام صلح واضح محدد مع فردريك ، وفى هذه المرة ، وبمقتضى معاهدة برلين (٢٨ يوليو ١٧٤٢) نزلت له عن سليزيا كلها تقريباً . وهكذا وضعت الحرب السيليزية الأولى أوزارها .

أما الجيشان النمساويان اللذان يقودهما كيفنهولر والأمير شارل الكسندر فقد زحفا الآن داخل بوهيميا . وواجهت الحامية الفرنسية فى براغ التطويق والتجويع . ورغبة فى تحاشى « قياس الخلف » هذا لأحلام بيل - إيل ، أمرت فرنسا المرشال مايبوا بأن يقود إلى بوهيميا ذلك الجيش الذى كان يشاغل

قوات جورج الثانى فى هانوفر . وإذ تحررت انجلتره على هذا النحو ، فإنها دخلت الحرب بنشاط ، وأقرضت ماريا تريزا ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأرسلت ستة عشر ألف جندى إلى فلاندر النمساوية ؛ ودفعت الأقاليم المتحدة ٨٤٠,٠٠٠ فلورين مساهمة منها فى نفقات الحرب . وأحالت الملكة المال جيوشاً . وسد أحد هذه الجيوش طريق مايبوا فى زحفه على بوهيميا . وتجمعت القوات النمساوية ، التى ازداد عددها ، غير مرة حول براغ . وفر بيل — إيل ومعظم جنوده إلى بجير بعد أن كلفهم هذا ثمناً عالياً . وأقبلت ماريا تريزا من فيينا إلى براغ ، وهناك توجت أخيراً (١٢ مايو ١٧٤٣) ملكة على بوهيميا .

وبدت الآن منتصرة فى كل مكان . وفى شهر مايو هذا وافقت الأقاليم المتحدة على أن تعينها بعشرين ألف مقاتل . وبعد شهر هزم حلفاؤها الإنجليز أعداءها الفرنسيين فى ديتنجن . وكان لسيطرة البحرية الإنجليزية على البحر المتوسط أثر فى دعم قضيتها فى إيطاليا . فنى ١٣ سبتمبر انضم ملك سردانيا شارل إيمانويل الأول إلى حلف من النمسا وانجلتره . ونال شريحة من لمباردية من النمسا وتعهداً من انجلتره بأن تدفع له ٢٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام نظير ٤٥,٠٠٠ جندى ؛ وهكذا اشترى الجند بالجملة ، والملوك بالتجزئة . وداعبت الآن ماريا تريزا الأحلام . لا باسترداد سيليزيا فحسب . بل بضم بافاريا ، والإلزاس ، واللورين . إلى امبراطوريتها . إذ كانت عنيدة وقت الانتصار بقدر ما كانت باسلة وقت الشدة .

أما فردريك فقد داعب السلام برهة . ففتح دار أوبرا جديدة فى برلين ، وقرض الشعر ، وعبثت أنامله بالفلوت . وجدد دعوتاه لفولتير . ورد فولتير بأنه ما زال وفياً لاميلى . ولكن حدث عند هذا المنعطف أن الوزارة الفرنسية — التى راعها أن تجد فرنسا فى حرب مع انجلتره . والنمسا ، والجمهورية الهولندية ، وسافوى — سردانية — تذكرت أن عبقرية فردريك وعمالقته سيكون عوناً مرحباً به ؛ وأن انتهاكاته لمعاهداته التى أبرمها مع فرنسا يمكن اغتفارها إذا انتهك معاهدته مع النمسا ؛ وأنه قد يمكن إقناعه بأن يرى فى سطوة النمسا المنبعثة من جديد خطراً يتهدد سلطانه على سيليزيا

بل على بروسيا . فمن يستطيع أن يوضح له هذا على أحسن وجه ؟ لم لا يجرب فولتير ، الذى بيده الآن دعوة من فردريك ، والذى يتوق دائماً لأن يلعب دوراً فى السياسة ؟

وهكذا عاد فولتير داعية السلام يخترق ألمانيا فى مركبة يثب داخلها ويتأرجح ، وأنفق هناك ستة أسابيع (من ٣٠ أغسطس إلى ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) وهو يحاول إقناع فردريك بخوض الحرب . ولم يستطع الملك أن يلتزم بوعد ، فصرف الفيلسوف خاوى الوفاض إلا من التحيات . ولكن تقدم حملات عام ١٧٤٤ أدخل فى قلبه الخوف على سلامته وعلى دوام مكاسبه . ففى ١٥ أغسطس بدأ الحرب السيليزية الثانية .

وأراد أن يفتح بوهيميا . ولما كانت سكسونيا تقع بين برلين وبراغ ، فقد سير جنوده مخترقاً درسدن ، فأسخط بذلك أوغسطس الثالث الغائب عن وطنه . وما وافى الثانى من سبتمبر حتى كان رجاله الثمانون ألفاً يدقون أبواب براغ . وفى ١٦ سبتمبر استسلمت الحامية النمساوية . وبعد أن ترك فردريك خمسة آلاف جندى لاحتلال العاصمة البوهيمية ، زحف جنوباً وهدد فيينا من جديد . وردت ماريا تريزا بتحدى هذا الخطر ، فركبت على عجل إلى برسبورج وطلبت من الديت المجرى تجريدة أخرى من الجند ، فجمع لها ٤٤,٠٠٠ ، وبعد قليل زادهم ٣٠,٠٠٠ آخرين . وأمرت الأمير شارل بالكف عن مهاجمة الألزاس وقيادة الجيش النمساوى الرئيسى شرقاً لاعتراض زحف البروسيين . وتوقع فردريك أن الفرنسيين سيطاردون النمساويين ، ولكنهم لم يفعلوا . فحاول أن يكره شارل على القتال ، غير أن الأمير تجنبه . ولكنه دعم جهود المغيرين لقطع خطوط اتصال البروسيين بسيليزيا وبرلين . وأعاد التاريخ نفسه ، فقد وجد فردريك جيشه معزولا وسط سكان من الكاثوليك المتحمسين لمذهبهم المعادين له عداء فيه دهاء وبراعة . وكانت الجنود المجرية فى طريقها للانضمام إلى الأمير شارل . ونمى إلى فردريك أن سكسونيا دخلت الحرب صراحة فى صف النمسا . وخاف فرديك أن يعزل عن عاصمته وعن مصادر تموينه ، وأمر الحامية البروسية بالتخلى عن براغ ، وفى ١٣ ديسمبر قفل راجعاً إلى برلين ، دون زهوه الماضى ، بعد أن تعلم أن الخادع قد يخدع .

وجرى تيار الحرب أشد ما يكون معاكسة له . فنى ٨ يناير ١٧٤٥ وقعت انجلتره ، والأقاليم المتحدة ، وبولنده — سكسونيا ، فى وارسو ميثاقاً مع النمسا وعد جميع موقعيه بأن يرد لكل منهم كل ما كان يملكه فى ١٧٣٩ — ومعنى هذا أن تعاد سيليزيا لمريا تريزا . ووعد أوغسطس الثالث بأن يقدم ٣٠,٠٠٠ مقاتل نظير ١٥٠,٠٠٠ جنيه من انجلتره وهولندة ، بواقع خمسة جنيهات لكل نفس . وفى ٢٠ يناير مات شارل السابع بعد أن تقلد عرش الامبراطورية برهة قصيرة جداً ، وكان يبلغ الثامنة والأربعين ، وقد أعرب حين حضره المنية عن أسفه لما ألحقه بوطنه من خراب من جراء تطلعه لعرشى الامبراطورية وبوهيميا ، وطلب إلى ولده مكسمليان جوزف أن يقلع عن هذه الدعاوى ويسالم البيت المالك النمساوى ، وامتثل الناخب الجديد للنصيحة رغم اعتراضات فرنسا ؛ ففى ٢٢ ابريل تخلى عن كل دعاوى فى عرش الامبراطورية ، ووافق على تأييد الدوق فرنسس ستيفن فى مطالبته بالتاج الامبراطورى . وسحبت الجنود النمساوية من بافاريا .

وفكرت الملكة الآن لا فى استرداد سيليزيا فحسب ، بل فى تقطيع أوصال بروسيا ضماناً لها من أطماع فردريك [٨٠] . وقد أقلقها مؤقتاً انتصار الفرنسيين على حلفائها الإنجليز فى فونتنوا (١١ مايو ١٧٤٥) ، ولكنها فى ذلك الشهر أرسلت جيشها الرئيسى إلى سيليزيا وأصدرت إليه الأمر بالدخول فى المعركة . والتقى النمساويون الذين عززتهم فرقة سكسونية بفردريك فى هوهنفريدبيرج (٤ يونيو ١٧٤٥) . هنا أنقذته براعته التكتيكية ، فقد نشر خيالته ليستولوا على تل استطاعت مدفعيته أن تقصف منه مشاة العدو . وبعد ساعة من التقتيل انسحب النمساويون والسكسون تاركين وراءهم أربعة آلاف قتيل وسبعة آلاف أسير وكانت تلك المعركة الفاصلة فى الحروب السيليزية .

وعادت انجلتره تطوع دبلوماسيتها لمقضيات السلام . فقد أكرهتها غزوة ١٧٤٥ الاستيوارتية على سحب خيرة جندها من فلاندر ، واستولى المرشال دساكس على المدينة تلو المدينة لفرنسا ؛ وحتى على القاعدة الإنجليزية الكبرى فى أوستند ؛ وخشى جورج الثانى أن يصل الفرنسيون

المنتصرون إلى إمارته المحبوبة هانوفر . أما البرلمان البريطانى الذى خلع ولبول لحبه السلام فقد مل الآن حرباً كلفت الملايين من الدنانير الغالية ، فضلا عن آلاف الرجال الذين يمكن تعويضهم ، وناشد المبعوثون الإنجليز ماريا تريزا أن تصل إلى تفاهم مع فردريك تمكيناً للقوات النمساوية والإنجليزية من التركيز على فرنسا التى نفخ فيها العافية قائد كادت انتصاراته تعدل غرامياته . ولكن الملكة أبت ، فهددتها انجلترہ بسحب كل معونة وإنهاء كل دعم مالى ، ولكنها أصرت على الرفض . فدعت انجلترہ فردريك إلى مؤتمر فى هانوفر ، وهناك وقعت مع ممثليه صلحاً منفرداً (٢٦ أغسطس ١٧٤٥) ، وقبلت انجلترہ بمقتضى هذا الصلح شروط معاهدة برلين ، التى أكدت ملكية بروسيا لسيليزيا ، ووافق فردريك على تأييد انتخاب الدوق فرانسس ستيفن امبراطوراً . وفى ٤ أكتوبر ، فى فرانكفورت ، توج فرانسس إمبراطور ، وأصبحت ماريا تريزا إمبراطورة .

وأمرت قوادها بأن يواصلوا الحرب . فقاتلوا البروسيين فى زور بيوهيميا (٣٠ سبتمبر) وفى هينيرزدورف (٢٤ نوفمبر) ، وهزم النمساويون مرتين رغم تفوقهم العددى . وتقدم خلال ذلك جيش بروسى يقوده ليوبولد أمير أنهالت — دساو فى سكسونيا ، وعند كيسلدورف (١٥ ديسمبر) سحق القوات التى تحمى درسدن . ودخل فردريك درسدن قادماً إليها بعد النصر ، دون مقاومة وفى شهامة وسماحة ؛ فحظر أعمال النهب والسلب ، وطمأن أبناء أوغسطس الثالث الذين فروا إلى براغ . وعرض الإنسحاب من سكسونيا إذا انضم الملك الناخب إلى انجلترہ فى الاعتراف بتملك فردريك لسيليزيا وكف عن مساعداته لماريا تريزا ، ووافق أوغسطس . ووجدت ماريا تريزا نفسها وحيدة بعد أن تخلت عنها انجلترہ وسكسونيا ، فأبرمت معاهدة درسدن (٢٥ ديسمبر ١٧٤٥) التى نزلت فيها عن سيليزيا ومقاطعة جلاتز لبروسيا . وهكذا وضعت الحرب السيليزية الثانية أوزارها .

وفقدت حرب الوارثة النمساوية الآن معناها ، ولكنها استمرت ؛ فحاربت فرنسا النمسا وانجلترہ على السلطة فى فلاندر ؛ وحاربت فرنسا

وأسبانيا والنمسا وسردينا على السلطة فى إيطاليا . وكان لانتصارات النمساويين فى إيطاليا ما يقابلها من انتصارات للفرنسيين فى الأراضى المنخفضة . وأخيراً أكره الإعياء المالى ، لا أى نفور من المذابح ، المتخاصمين على الصلح . وانتهت حرب الوراثة النمساوية بنهاية مؤسفة بمقتضى معاهدة إكس‌لاشابل ، بعد مفاوضات طالت من إبريل إلى نوفمبر ١٧٤٨ ، وثبت بها استيلاء فردريك على سيليزيا ، وكان هذا الكسب القيم الوحيد الذى استطاعت أى دولة من الدول الظفر به لقاء ثمانية أعوام من التنافس فى التدمير . فردت فرنسا الأراضى المنخفضة الجنوبية إلى النمسا رغم انتصارات ساكس ؛ واعترفت بالأسرة الهانوفرية المالكة فى انجلتره ، ووافقت على طرد المطالب الشاب بالعرش من الأراضى الفرنسية .

واستراحت الدول ثمانية أعوام حتى يستطيع مخاض النساء أن يعوض النقص فى الجيوش لجولة جديدة فى لعبة الملوك .

٥ — فردريك فى أرض الوطن : ١٧٤٥ — ٥٠ :

قفل الملك الظافر الذى أدركه التعب إلى برلين (٢٨ ديسمبر ١٧٤٥) وأقسم أن « سيكون منذ اليوم سلام إلى آخر حياتى ! » (٨١) ونددت به كل أوربا خارج بروسيا (وندد به بعض الناس داخلها) لصاً غادراً ، وأعجبت به لصاً ناجحاً . واستنكر فولتير مذابحه ولقبه « الأكبر » (٨٢) (أو العظيم) . وكان فردريك قد رد فى ١٧٤١ على احتجاجات الشاعر فقال :

تسألنى كم من الزمن اتفق زملائى على أن يدمروا العالم فيه . وجوابى أنه ليس لى أدنى علم به . ولكن القتال أصبح فاشية هذا العصر . وفى ظنى أن أمده سيطول . وقد أرسل لى الأبيه دسان — بيير ، الذى يخصنى بشرف مكاتبتى ، كتاباً جميلا فى طريقة رد السلام إلى ربوع أوربا والحفاظ عليه إلى الأبد ..

وكل ما ينقص الخطة لكى تنجح هو موافقة أوربا وبضعة توافه مماثلة.(٨٣)

وقد قدم لأوربا دفاعه فى كتابه الذى نشر بعد موته باسم « تاريخ

جيلى » ، واعتنق فيه مبدأ مكيافللى الذى غلب فيه مصلحة الدولة على مبادىء فضيلة الفرد .

ربما رأت الأجيال القادمة بدهشة فى هذه المذكرات روايات عن معاهدات أبرمت ثم نقضت . ومع أن لهذه التصرفات سوابق كثيرة ، فإنها ما كانت تشفع للمؤلف لو لم يكن لديه مبررات أفضل يعتذر بها عن سلوكه . إن مصلحة الدولة يجب أن تقوم قانوناً للملوك . ويجوز نقض المحالفات لأى من هذه الأسباب :

١ — حين لا يوفى حليف ما بتعهداته ؛ ٢ — حين يبيت حليف خداعك ، وحين لا يكون أمامك سبيل إلا أن تسبقه إلى خداعه ؛ ٣ — حين تفرض عليك قوة قاهرة تضطرك إلى نقض اتفاقاتك . ٤ — حين تعوزك الوسائل لمواصلة الحرب .... ويبدو لى واضحاً جلياً أن الفرد الذى لا يتولى منصباً عاماً يجب عليه أن يوفى بوعده بكل أمانة ... فإذا خدع استطاع أن يطلب حماية القوانين له .. ولكن إلى أى محكمة يلجأ الملك إذا انتهك ملك آخر المواثيق التى بذلها له ؟ إن كلمة فرد ما تنطوى على كارثة لرجل واحد فقط ، ولكن كلمة ملك قد تجر كارثة شاملة على أمم برمتها . وهذا كله يمكن اختزاله إلى سؤال واحد هو : هل من الخير أن يهلك الشعب أم أن يخرق الملك معاهدة ؟؟ وأى أبله متردد فى الجواب القاطع عن هذا السؤال ؟ (٨٤)

وقد وافق فردريك اللاهوت المسيحى على أن الإنسان بطبيعته شرير . فلما أعرب مفتش تعليم يدعى زولتسر عن الرأى بأن « ميل البشر الفطرى يتجه إلى الخير أكثر من الشر » رد الملك عليه قائلا « أواه ياعزيزى زولتسر ، إنك لا تعرف هذا النوع الإنسانى اللعين . » (٨٥) . ولم يقتصر فردريك على مجرد تقبل تحليل لاروشفوكو طبيعة البشر على أنها أنانية خالصة ، بل آمن بأن الإنسان لن يقر بأى قيد على الجرى وراء مصلحته إن لم يكبحه الخوف من الشرطة فما دامت الدولة هى الفرد مضروباً فى أعداد كثيرة ، وليس هناك شرطة دولية يردعها عن أنانيتها الجماعية . فلا سبيل إذن إلى كبح جماحها إلا أن تخاف سطوة غيرها من الدول . ومن ثم كان أول واجبات « خادم الدولة الأول » (كما سمى فردريك نفسه) أن ينظم قوة الأمة على الدفاع ،

وهى تتضمن السبق بالهجوم — أى أن تفعل بالآخرين ما يبيتون أن يفعلوه بك . وهكذا كان الجيش فى رأى فردريك . كما كان فى رأى أبيه ، أساس الدولة . لقد أرسى دعائم اقتصاد تشرف عليه الحكومة وتخططه بعناية ، ورعى الصناعة والتجارة ، وبعث عملاءه إلى جميع أرجاء أوربا ليجلبوا مهرة الصناع ، والمخترعين ، والصناعات ، ولكنه أحس أن هذا كله لا غناء فيه آخر الأمر إن لم يصنع من جنوده أفضل جيوش أوربا تدريباً . وأضبطها نظاماً ، وأجدرها بالثقة والاطمئنان .

أما وقد ملك هذا الجيش ، ومعه بوليس حسن التنظيم ، فإنه لم ير به حاجة إلى الدين معواناً على النظام الاجتماعى . فلما سأله وليم برنزويك ألا يرى أن الدين دعامة من أفضل دعائم سلطة الحاكم ، أجاب « إننى أجد الكفاية فى النظام والقوانين .... لقد كانت الدول تحكم حكماً جديراً بالإعجاب حين لم يكن لدينك وجود » (٨٦) ولكنه قبل أى عون استطاع الدين بذله فى غرس المشاعر الفاضلة التى تعين على « النظام » . وحمى جميع الأديان فى مملكته ، ولكنه أصر على تعيين الأساقفة الكاثوليك لا سيما فى سيليزيا . (كذلك أصر الملوك الكاثوليك على تعيين الأساقفة الكاثوليك . وعين الملوك الإنجليز الأساقفة الانجليكان .) وقرر أن يكون لكل إنسان الحرية فى أن يعبد كما يشاء ، أو لا يعبد على الإطلاق . وشمل هذا الروم الكاثوليك ، والمسلمين ، والتوحيدين ، والملحدين . على أنه كان هناك قيد واحد على هذه الحرية ، فحين كان الجدل الدينى ينقلب إلى السب أو العنف الشديدين ، كان فردريك يخمده كما يخمد أى خطر يهدد السلام الداخلى . وفى سنواته الأخيرة كان أقل تسامحاً مع الهجمات على حكومته منه على الهجمات على الله .

فأى رجل كان ، مرهب أوربا هذا ومعبود الفلاسفة ؟ لم يزد طوله على خمسة أقدام وست بوصات . وليست هذه بالقامة الشامخة . وقد غلبت عليه السمنة فى شبابه ، ولكنه غدا الآن بعد عشر سنين من الحكم والحرب نحيلا ، عصبياً ، مشدوداً ، وكأنه سلك من الحساسية والنشاط الكهربيين . له عينان حادتان فيهما ذكاء نفاذ متشكك . وله قدرة على الفكاهة ، ونكته الذكية لا تقل حدة عن نكت فولتير . كان فى وسعه ، كإنسان لا يعارضه

أحد ، أن يكون غاية فى اللطف ، ولكنه كملكاً كان صارماً ، وندر أن خفف العدل بالرحمة ، فكان يستطيع أن يناقش الفلسفة مع مساعديه وهو يرقب فى هدوء جنوده وهم يعانون الجلد وكان لكلبيه لسان لاذع يجرح أصدقاءه أحياناً . وهو شديد الشح عادة ، كريم بين الحين والحين . وإذ ألف أن يطاع ، فقد أصبح مستبد الطبع ، لا يكاد يطيق اعتراضاً ، وندر أن يلتمس النصيحة ، ولا يعمل بها إطلاقاً . فيه وفاء لأخصائه ، ولكنه يحتقر النوع الإنسانى . نادر الحديث مع زوجته ، يضيق عليها فى النفقة ، ومزق فى وجهها الكشف الذى دونت فيه احتياجاتها فى مسكنة . (٨٧) وكان عادة لطيفاً ودوداً لشقيقته فلهلمينا ، ولكنها هى أيضاً وجدته أحياناً متحفظاً فاتر العاطفة . (٨٨) . أما غيرها من النساء ، باستثناء الأميرات من زواره ، فقد باعد ما بينهن وبينه ؛ ولم يكن به ميل للطائف الأنثى ومفاتنها ، سواء الجسدية أو الخلقية ، وقد أبغض ثرثرة الصالونات . وآثر الفلاسفة والشبان ملاح الوجوه ، وكثيراً ما صحب أحد هؤلاء إلا مسكنه بعد العشاء . (٨٩) وربما كان حبه للكلاب أكثر حتى من حبه لهؤلاء . وكان أحب رفاقه إليه فى أخريات عمره كلابه السلوقية التى كانت تنام فى فراشه ؛ وقد أمر بإقامة أنصاب على قبورها ، وبأن يدفن بجوارها .(٩٠) لقد وجد أن من العسير عليه أن يكون قائداً ناجحاً وإنساناً محبوباً فى وقت واحد .

وفى ١٧٤٧ أصيب بنوبة فالج وظل فاقد الوعى نصف ساعة . (٩١) بعد هذا قاوم ضعف صحته بالعادات الثابتة والحمية : ينام على حشية رقيقة فوق سرير بسيط قابل للطى ، ويستجلب النوم بالقراءة . وكان يقنع فى منتصف عمره هذا بالنوم خمس ساعات أو ستاً فى اليوم ، فيستيقظ فى الثالثة ، أو الرابعة ، أو الخامسة صيفاً ، وبعد ذلك شتاء . لا يقوم على خدمته غير خادم واحد — أهم واجباته أن يوقد له ناره ويحلق له لحيته ، وكان يحتقر الملوك الذين لا يستغنون عن مساعدين يلبسونهم ملابسهم . ولم يعرف عنه نظافة الشخص أو أناقة الملبس ، فكان ينفق نصف يومه وهو فى روبه ، ونصفه فى سترة الحارس . يبدأ فطوره بعدة أكواب من الماء ، ثم عدة أقداح من القهوة ، ثم يتناول بعض الكعك ، ثم كثيراً من الفاكهة . وبعد الفطور يعزف على الفلوت ، متأملا شئون السياسة والفلسفة وهو ينفخ آليته .

وفى نحو الحادية عشرة من كل صباح يحضر تدريب جنده وعرضهم . وكانت وجبة الظهيرة الرئيسية تختلط عادة بالمداولات . ثم ينقلب بعد الظهر مؤلفاً ، فينفق ساعة أو ساعتين فى كتابة الشعر أو التاريخ ؛ وسنجده مؤرخاً ممتازاً لأسرته وجيله . فإذا فرغ ساعات للإدارة روح عن نفسه بالحديث مع العلماء ، والفنانين ، والشعراء ، والموسيقيين . وفى السابعة مساء قد يشارك فى حفلة موسيقية عازفاً على الفلوت . وفى الثامنة والنصف يحل موعد حفلات عشائه المشهورة فى سانسوسى عادة (بعد مايو ١٧٤٧) ، يدعو إليها أخص أخصائه ، وكبار زواره ، وأقطاب أكاديمية برلين . وكان يطلب إليهم أن يكونوا على سجيتهم ، وينسوا أنه ملك ، ويتحدثوا دون خوف ، وهو ما فعلوه فى كل موضوع إلا السياسة . وكان فردريك نفسه يتكلم فى إسهاب ، وعلم ، وذكاء . يقول أمير لين «كان حديثه موسوعياً ، فالفنون الجميلة ، والحرب ، والطب ، والأدب ، والدين ، والفلسفة ، والأخلاق ، والتاريخ والتشريع ، تعرض على بساط البحث كل فى دوره» . (٩٢) ولم ينقص الحفل غير مفخرة واحد حتى يصبح مأدبة للفكر . وقد أقبل فى ١٠ يوليو ١٧٥٠ .

٦ — فولتير فى ألمانيا : ١٧٥٠ — ٥٤

لقد رضى حتى هو عن استقباله . فقد اصطنع فردريك العادات الغالية فى الترحيب به . كتب فولتير لريشليو يقول « تناول يدى ليقبلها ، وقبلت أنا يده ، وقلت إننى عبده . » (٩٣) وأفرد له مسكن أنيق فى قصر سانسوسى ، فوق الجناح الملكى مباشرة . ووضعت خيول الملك ومركباته ، وحوذيوه ، ومطبخه ، تحت تصرفه . وأحاط به أكثر من عشرة خدم يغالون فى العناية به ، وخطب وده عشرات الأمراء ، والأميرات ، والنبلاء ، والملكة ذاتها . وقد عينه الملك كبيراً لأمنائه براتب قدره عشرون ألف فرنك فى السنة ، ولكن أهم واجباته كان تصحيح الفرنسية فى شعر فردريك وكلامه . ولم يتقدمه فى حفلات العشاء غير الملك . وذهب زائر ألمانى إلى أن مطارحاتها أطرف ألف مرة من أى كتاب » . (٩٤)

وقد قال فولتير بعد ذلك مستحضراً هذه الأحاديث « لم يحظ مكان آخر فى الدنيا بحرية أكبر فى الحديث عن خرافات الإنسان . » (٩٥)

وقد انتشى طرباً بهذا كله . فكتب إلى دارجنتال (سبتمبر ١٧٥٠) يقـول :

إننى أجد مرفأ ألجأ إليه بعد ثلاثين عاماً من العواصف . أجد حماية ملك ، وحديث فيلسوف ، وخلالا لطيفة لإنسان محبوب ، كلها مجتمعة فى رجل ظل ستة عشر عاماً يتوق إلى تعزيتى عن عثرات حظى وتأمينى من أعدائى ... هنا أطمئن إلى مصير هادىء إلى النهاية . وإذا جاز للإنسان أن يطمئن إلى أى شىء ، فهو خلق ملك بروسيا . (٩٦)

وكتب إلى مدام دنيس يطلب إليها أن تحضر وتعيش معه فى فردوسه . على أنها بحكمة آثرت باريس والعشاق الأصغر ، فحذرته من إطالة المكث فى برلين . وقالت فى خطابها إن صحبة السلطان لا يؤمن جانبها ، فهو يغير رأيه ويبدل محاسيبه ، وعلى المرء أن يكون على حذر دائماً من أن يعارض مزاجه أو إرادته . وسيجد فولتير نفسه إن عاجلا أو آجلا خادماً وسجيناً أكثر منه صديقاً . (٩٧)

وأرسل الفيلسوف الأحمق الخطاب إلى فردريك فكتب له هذا الرد (٢٣ أغسطس) وهو كاره أن يفقد الغنيمة التى تريد الظفر بها :

قرأت الخطاب الذى كتبه ابن أختك من باريس . وإنى لأقدر لها الود الذى تكنه لك . ولو كنت مكان مدام دنيس لفكرت كما تفكر ، أما وأنا ما أنا ، فإنى أفكر بطريقة أخرى . وإنه ليحزننى أن أكون سبباً فى تعاسة عدو ، فكيف إذن أبغى بلية رجل أقدره ، وأحبه ، يضحى من أجلى ببلده وكل ما هو عزيز على الإنسانية ، لا يا عزيزى فولتير ، لو أننى تبينت أن إنتقالك إلى هنا سيلحق بك أقل أذى لكنت أول من يثنيك عنه . وإنى لأوثر سعادتك على سرورى المفرط بتملكك . ولكنك فيلسوف . وكذلك أنا ، فأى شىء إذن أكثر طبيعية ، وبساطة ، وتمشياً مع نظام الأشياء ، من أن يمنح فلاسفة خلقوا ليعيشوا معاً ، تربطهم دراسات واحدة ، وميول واحدة ،

وطريقة تفكير مشابهة ، يمنح بعضهم بعضاً هذا الإشباع لرغباتهم ؟ ... إننى موقن بأنك ستكون سعيداً جداً هنا ، وأنك ستعد أباً للأدب ولأصحاب الذوق ، وأنك واجد فى كل التعزيات التى يمكن أن يتوقعها رجل له كفايتك من رجل يقدره . مساء الخير . (٩٨)

ولم يقتضى تدمير هذا الفردوس من أكبر الفيلسوفين سناً أكثر من أربعة أشهر . لقد كان فولتير مليونيرا ، ولكنه ، لم يطق أن يفوت عليه فرصة قد تضخم ثروته . ذلك أن بنك سكسونيا كان قد أصدر أوراقاً سميت « شهادات إيراد » ، هبطت إلى نصف قيمتها الأصلية . وقد اشترط فردريك فى معاهدة درسدن دفع ثمن الأوراق التى اشتراها البروسيون ، عند استحقاقها بقيمتها الإسمية ذهباً ، واشترى بعض البروسيين الخبثاء بعض هذه الأوراق بثمن بخس فى هولنده ثم صرفوا ثمنها كاملا فى بروسيا . وفى مايو ١٧٤٨ حظر فردريك هذا الاستيراد إنصافاً لسكسونيا . وفى ٢٣ نوفمبر ١٧٤٨ استدعى فولتير فى بوتسدام مصرفياً يهودياً يدعى أبراهام هيرش . وفى رواية هيرش أن فولتير طلب إليه أن يذهب إلى درسدن ويبتاع له بمبلغ ١٨,٤٣٠ أيكوسا أوراقاً بسعر خمسة وثلاثين فى المائة من قيمتها الإسمية . وزعم هيرش أنه نبه فولتير إلى أن هذه الأوراق المالية لا يمكن جلبها قانوناً إلى بروسيا ، وأن فولتير وعده بأن يحميه ، وأعطاه خطابات تحويل على باريس وليبزج . وضماناً لهذه المبالغ أودع هيرش لدى فولتير ماسات قدرت من قبل بمبلغ ١٨,٤٣٠ أيكوسا . ولكن فولتير ندم على هذه الاتفاقات بعد رحيل عميله ، وقرر هيرش بعد وصوله إلى درسدن ألا يمضى فى تنفيذ العملية ، وأوقف فولتير الدفع على خطابات التحويل ، وعاد المصرفى إلى برلين . ويقول هيرش إن فولتير حاول أن يرشوه ليسكت ، بشراء ماسات قيمتها ثلاثة آلاف ايكوس . وتنازعا على تقدير القيمة وأمسك فولتير برقبة هيرش وصرعه ؛ (٩٩) فلما لم يتلق ترضية أكثر من هذا جعل السلطات تقبض عليه ، وعرض النزاع على المحكمة علناً (٣٠ ديسمبر) . وفضح هيرش خطة فولتير لشراء الأوراق السكسونية ، فأنكرها فولتير زاعماً أنه أرسل هيرش إلى درسدن لشراء فراء ، ولكن أحداً لم يصدقه .

فلما سمع فردريك بهذه الورطة بعث برسالة غاضبة من بوتسدام إلى فولتير فى برلين (٢٤ فبراير ١٧٥١) :

لقد سرنى أن أستقبلك فى بيتى ؛ وقدرت عبقريتك ، ومواهبك ، وعلمك . وكان لى ما يبرر اعتقادى بأن رجلا فى مثل سنك أعياه النضال مع الكتاب والتعرض للعاطفة يجىء إلى هذا المكان ليحتمى به احتماءه بمرفأ آمن .

ولكنك حين وصلت انتزعت منى بصورة غريبة بعض الشىء أمراً بألا أكلف فريرون بكتابة الأنباء من باريس ، وكان فى من الضعف ... ما جعلنى أمنحك سؤلك ، مع أنه ليس من حقك أن تقرر أى الأشخاص يجب أن أستخدم . وقد شعرت بأن باكولار دارنو (شاعر فرنسى فى بلاط فردريك) أساء إليك ، والرجل الكريم السمح كان يعفو عنه ، أما المنتقم فيطادر أولئك الذين يطيب له أن يبغضهم ... ومع أن دارنو لم يسىء إلى بشىء ، فإنى طردته بسببك ... ثم كانت لك مع يهودى خصومة هى أقذر الخصومات فى الدنيا ، وقد أثارت فضيحة رهيبة فى طول المدينة وعرضها . ومسألة شهادات الإيراد تلك معروفة جيدا فى سكسونيا حتى لقد شكوا لى منها شكاوى مرة .

وإننى من جهتى كنت محافظاً على الهدوء والسلام فى بيتى حتى وصلت ؛ وإنى أنذرك بأنك إن كنت مولعاً بالدس والتآمر فقد أخطأت اختيار من يعينك عليه . فإنى أحب الناس المسالمين الهادئين الذين لا يشيعون فى سلوكهم انفعالات الدراما المأساوية . فإن اعتزمت العيش عيشة الفلاسفة ، فسيسرنى أن ألقاك ، أما إن أسلمت نفسك لكل سورات غضبك وانفعالك ودخلت فى مشاجرات مع كل الناس ، فإنك لن تحسن إلى بمجيئك هنا ، وخير لك أن تبقى فى برلين .

وحكمت المحكمة لصالح فولتير . وأرسل إلى الملك اعتذارات ذليلة وعفا عنه فردريك . ولكنه نصحه بأن « يكف عن الشجار ، سواء مع العهد القديم أو الجديد . » (١٠٠) وبعدها أنزل فولتير بيتاً ريفياً لطيفاً

يسمى « بيت المركيز » ويقع قرب سانسوسى . وأرسل له الملك تأكيدات باحترامه المجدد ، ولكن حماقة فولتير لم تذهب به إلى حد الثقة بها . وبعث له الملك الشاعر قصائد يطلب إليه تهذيب فرنسيتها ، وأضنى فولتير نفسه فيها كثيراً وأغضب كاتبها بإدخال تغيرات حادة عليها .

ونظم فولتير الآن قصيدته المسماة « فى القانون الطبيعى » ، وقد حاولت أن تجد الله فى الطبيعة ، مقتدية فى ذلك بطريقة الكسندر بوب على الأخص . وأهم من هذه القصيدة مضموناً قصيدة « عصر لويس الرابع عشر » التى أكملها وصقلها خلال تلك الأشهر المقلقة ثم نشرها فى برلين (١٧٥١) . وكان حريصاً على الفراغ من طبعها قبل أن يضطر لسبب ما إلى الرحيل عن ألمانيا لأنها لن تكون بمأمن من الرقابة على المطبوعات إلا فى رعاية فردريك . كتب إلى ريشليو فى ٣١ أغسطس « تعلم جيداً أنه ليس هناك (فى باريس) رقيب صغير واحد للكتب لايعتبر تشويه عملى أومصادرته حسنة أوواجباً».[١٠١] وحظر بيع الكتاب فى فرنسا ، وأصدر تجار الكتب فى هولنده وانجلتره طبعات مسروقة لم ينقدوا فولتير عليها شيئاً ؛ فإذا عرفنا هذافهمنا حبه للمال فهماً أفضل . لقدكان عليه أن يحارب « تجار الكتب الأوغاد » [١٠٢] لا رجال الدين والحكومات فحسب .

و « عصر لويس الرابع عشر » أكثر أعمال كفولتير دقة وأمانة فى الإعداد فقد خطط له فى ١٧٣٢ ، وبدأه فى ١٧٣٤ ، ونحاه جانباً فى ١٧٣٨ ، ثم عاد إليه فى ١٧٥٠ . وقد قرأ له مائتى مجلد ، وتلالا من المذكرات غير المنشورة ، واستشار عشرات الناس ممن بقوا على قيد الحياة بعد العصر العظيم ، ودروس الأوراق الأصلية التى كتبها أبطال العصر أمثال لوفوا وكولبير . وحصل من الدوق دنواى على المخطوطات التى خلفها لويس الرابع عشر ، ووجد وثائق هامة لم تستخدم إلى ذلك الحين فى دار محفوظات اللوفر . [١٠٣] ووازن بين الأدلة المتضاربة بحكمة وعناية ، وحقق مرتبة عالية من الدقة . لقد حاول مع مدام دشاتليه أن يكون عالماً ففشل ، والآن اتجه إلى كتابة التاريخ ، وكان نجاحه فى ذلك ثورة .

وقد أعرب قبل ذلك بزمن طويل عن هدفه فى خطاب تاريخه ١٨ يناير ١٧٣٩ : « أن هدفى الأهم ليس التاريخ السياسى والحربى ، بل تاريخ الآداب والفنون ، تاريخ التجارة ، تاريخ الحضارة – وبعبارة موجزة ، تاريخ العقل الإنسانى . » وأعرب عنه إعراباً أفضل حتى من هذا فى خطاب كتبه لتيبريو فى ١٧٣٦ . يقول :

حين طلبت حكايات ونوادر عن عصر لويس الرابع عشر لم أكن أقصد الملك ذاته بقدر ما أقصد الآداب والفنون التى ازدهرت فى عهده . وإنى لأوثر تفاصيل عن راسين وبوالو ، وكينو ولولى ، وموليير ، ولوبرون ، وبوسويه ، وبوسان ، وديكارت ، وغيرهم ، لا عن معركة ستنكركى . لم يبق من أولئك الذين قادوا الجيوش والأساطيل إلا اسمهم ، ولا ثمر يجنيه النوع الإنسانى من مائة معركة كسبت ، أما الرجال العظماء الذين ذكرتهم فقد جهزوا مباهج صافية باقية لأجيال لم تولد . فقناة تربط بين بحرين ، أو لوحة بريشة بوسان ، أو مأساة رائعة ، أو حقيقة يماط عنها اللثام ، هذه كلها أشياء أثمن ألف مرة من جميع حوليات البلاط ، وكل قصص الحرب . وأنت تعلم أن العظماء من الرجال هم الأوائل فى نظرى ، أما «الأبطال» فهم الأواخر . والعظماء عندى هم كل الذين بزوا غيرهم فى النافع المبهج . أما الذين يخربون الأقطار فليسوا أكثر من أبطال . (١٠٤) .

وربما رفع فولتير الأبطال العسكريين من مكانهم فى المؤخرة إذا أنقذت انتصاراتهم الحضارة من الهمجية ؛ ولكن كان من الطبيعى أن يجد الفيلسوف الذى لم يعرف سلاحاً غير الألفاظ متعة فى رفع أضرابه إلى مكان مرموق ، واسمه خير بيان لنظريته لأنه لم يزل بعد قرنين من الزمان أبرز الأسماء فى ذكرنا لعصره . وكانت نيته فى الأصل أن يخصص الكتاب برمته للتاريخ الثقافى . ثم أشارت عليه مدام دشاتليه بكتابة « تاريخ عام » للأمم ؛ وعليه فقد ألف فصولا فى السياسة ، والحرب ، والبلاط ، ليجعل المجلد تتمة متجانسة لكتاب أكبر عنوانه « مقال فى التاريخ العام » كان يتخلف تحت قلمه . ولعل هذا هو السبب فى أن التاريخ الثقافى غير مندمج فى بقية المجلد ، فالنصف الأول من الكتاب مخصص للتاريخ السياسى والحربى ، ثم تأتى أقسام

عن العادات « خصائص ونوادر » ، والحكومة ، والتجارة ، والعلوم ، والأدب ، والفن ، والدين .

وتطلع الكاتب المطارد خلفه فى إعجاب إلى عهد كان الملك فيه يكرم الشعراء (إذا لم يحيدوا عن الجادة) ؛ وربما كان تشديده على دعم لويس الرابع عشر للآداب والفنون هجوماً جانبياً على عدم اكتراث لويس الخامس عشر بمثل هذه الرعاية . أما وقد برزت الآن عظمة العصر الماضى فى هذه الذكرى المموهة « وأغفل ذكر استبداده وغارات خياليه على البيوت ، فإن فولتير راح يضفى شيئاً من الكمال على الملك الشمس ويطرب لانتصارات القواد الفرنسيين — وإن وسم بالعار تدمير البلاتينات . ولكن النقد يخفى رأسه أمام هذه المحاولة الحديثة الأولى لكتابه التاريخ المتكامل . وقد أدرك المعاصرون الفطنون أن هذه بداية جديدة — فهى التاريخ يترجم للحضارة ، التاريخ الذى حوله الفن والنظرة الصحيحة أدباً وفلسفة . فما انقضى عام على نشره حتى كتب إيرل تشسترفيلد لولده يقول :

لقد أرسل إلى فولتير من برلين كتابه « تاريخ عصر لويس الرابع عشر » وقد جاءنى فى أوانه ، ذلك أن اللورد بولتبروك علمنى مؤخراً كيف ينبغى أن يقرأ التاريخ . وها هو ذا فولتير يرينى كيف ينبغى أن يكتب ... إنه تاريخ الفهم الإنسانى ، بقلم عبقرى لينتفع به الأذكياء من الناس .... وقد تحرر مؤلفه من الأهواء الدينية والفلسفية والسياسية والقومية أكثر من أى مؤرخ صادفته إطلاقاً . ومن ثم فهو يروى هذه الأمور كلها بصدق ونزاهة على قدر ما تسمح له بعض الاعتبارات التى لا مفر دائماً من مراعاتها . (١٠٥)

وكان فولتير خلال جهوده الأدبية برما بوضعه القلق فى بلاط فردريك : ذلك أن لامترى . الرجل المادى النزعة المرح الطبع الذى كان كثيراً ما يقرأ للملك ، نقل فى أغسطس ١٧٥١ إلى فولتير ملاحظة أبداها مضيفهما : « سأحتاج إليه (أى فولتير) سنة أخرى على الأكثر (مهذباً لفرنسية الملك) ؛ إن الناس يعتصرون البرتقالة ثم يلقون قشرتها » . (١٠٦) ويتشكك البعض فى صحة نسبة هذه الملاحظة إلى فردريك ، إذ لم يكن فى طبعه أن يفضى بسره لأحد على هذا النحو . ولم يكن مستحيلا على لامترى أن يتمنى إقصاء فولتير

عن حظوته . كتب فولتير إلى مدام دنيس فى ٢ سبتمبر يقول « بذلت قصارى جهدى لكيلا أصدق لامترى ، ولكنى ما زلت حائراً . » ثم كتب إليها فى ٢٩ أكتوبر يقول « ما زلت أحلم بقشرة البرتقالة تلك ... وما أشبهنى بذلك الرجل الذى كان يسقط من برج فلما وجد نفسه مرتاحاً فى الهواء قال لا بأس بهذا الوضع لو دام . » (١٠٧) .

وكان فى ألمانيا رجل فرنسى آخر شارك فى المهزلة . وقال فردريك إنه لابد من زوال واحد من رجلين فرنسيين فى بلاط واحد (١٠٨) ذلك أن موبرتوى عميد أكاديمية برلين ، كان لا يتقدم عليه مقاماً بين ضيوف الملك فى سانسوسى غير فولتير ؛ وكان كلا الرجلين ضيفاً بهذا الجوار ؛ ولعل فولتير لم ينس أن مدام دشاتليه كانت يوماً ما مغرمة بموبرتوى . وفى أبريل ١٧٥١ أقام فولتير وليمة دعا إليها موبرتوى فلبى الدعوة . وقال له فولتير إن كتابك « عن السعادة » أمتعنى كثيراً ، بإستثناء بضعة غوامض سنناقشها معاً ذات مساء . » وعبس موبرتوى وقال « غوامض » ؟ قد يكون هناك غوامض بالنسبة لك يا سيدى . » ووضع فولتير يده على كتف العالم وقال « سيدى العميد ، إننى أقدرك ، فأنت رجل شجاع ، تريد الحرب . فلتخوضها إذن ، ولكن دعنا الآن نأكل شواء الملك . » (١٠٩) وكتب إلى دارجنتال (٤ مايو) يقول « لم يؤت موبرتوى من أداب السلوك ما يفتن كثيراً . إنه يقيس أبعادى بربعيته فى خشونة ؛ ويقولون أن معلوماته يخالطها الحسد ... إنه رجل فيه بعض الفظاظة ، وليس اجتماعياً جداً . » ثم كتب إلى ابنة أخته دنيس فى ٢٤ يوليو يقول « لقد أشاع موبرتوى بدهاء أننى وجدت « أعمال » الملك رديئة جداً ، وأننى قلت لبعضهم وأنا أتسلم بعض أشعار الملك (ألايتعب من إرسال غسيله القذر إلى لأغسله » ؟ (١١٠) وليس من المؤكد أن موبرتوى حمل هذه الشائعة إلى فردريك ، ولكن فولتير ظنه مؤكداً ، فعقد النية على الحرب .

وكان من إسهامات موبرتوى فى العلم « مبدأ الحركة الدنيا » — أى أن كل النتائج فى عالم الحركة تنجز بأقل قوة تكفى لأحداث النتيجة . وقد تعثر صموئيل كوينيج ، الذى دان لموبرتوى بعضويته فى أكاديمية برلين ، على

وثيقة قيل إنها نسخة من خطاب غير منشور كتبه ليبنتز ، وسبق فيه إلى وضع هذا المبدأ : وكتب كوينيج مقالا عن هذا الكشف ، ولكنه عرضه على موبرتوى قبل أن ينشره ، وأبدى استعداده للعدول عن النشر إذا اعترض عليه العميد . غير أن موبرتوى وافق على نشره ، ربما بعد أن اطلع عليه على عجل . وطبع مقال كوينيج فى عدد مارس ١٧٥١ من مجلة « أكتا إيروديتورم » التى تصدر فى ليبزج ، فأثار نشره ضجة . وطلب موبرتوى إلى كوينيج أن يقدم خطاب ليبنتز إلى الأكاديمية ، ورد كوينيج بأنه لم ير غير نسخة منه بين أوراق صديقه هنتسى الذى شنق فى ١٧٤٩ ، وأنه نقل نسخة عن هذه النسخة ، وهو مرسلها الآن إلى موبوتوى ، ولكن هذا عاد فطالب بالأصل . واعترف كوينيج بأن الأصل لا يمكن العثور عليه الآن لأن أوراق هنتسى تبددت بعد موته . وعرض موبرتوى الأمر على الأكاديمية (٧ أكتوبر ١٧٥١) ، فأرسل سكرتيرها إلى كوينيج أمراً نهائياً بإبراز أصل الخطاب ، فلم يستطع . وعليه فى ١٣ أبريل ١٧٥٢ حكمت الأكاديمية بأن خطاب ليبنتز المزعوم مزيف . ولم يحضر موبرتوى هذه الجلسة لأنه شكا نزفاً سببته إصابة بالسل . (١١١) وأرسل كوينيج استقالته من الأكاديمية ، وأصدر « نداء إلى الشعب » (سبتمبر ١٧٥٢) .

وكان كوينيج قد أنفق مرة عامين فى سيريه ضيفاً على فولتير ومدام دشاتليه . وقرر فولتير أن يضرب ضربة دفاعاً عن صديقه القديم ضد عدوه الحالى . فنى عدد ١٨ سبتمبر من مجلة « المكتبة العقلانية » ظهر مقال بعنوان « رد عضو فى أكاديمية برلين على عضو فى أكاديمية باريس » دافع من جديد عن كوينيج وخلص إلى أن :

« السيد موبرتوى مذنب أمام الدوائر العلمية الأوربية لا بالانتحال والخطأ فحسب ، بل باستغلال منصبه لمصادرة النقاش الحر ، واضطهاد رجل شريف .. وقد احتج عدة أعضاء من أكاديميتنا على هذا الإجراء الفاضح ، ولولا خشيتهم من إغضاب الملك لتركوا الأكاديمية . » (١١٢)

وكان المقال غفلا من الإمضاء ، ولكن فردريك عرف لمسة فولتير

الغادرة . وبدلا من أن يقذفه بصاعقة ملكية ، كتب رداً وصف فيه الرد المذكور بأنه « خبيث ، جبان ، دنىء » ووسم فيه كاتبه بأنه « دجال لايستحى » ، « ولص قبيح » و « ملفق للطعون الغبية » . [١١٣] وكان هذا الرد أيضاً غفلا من التوقيع ، ولكن صفحة الغلاف كانت تحمل الأسلحة البروسية ومعها النسر ، والصولجان ، والتاج . وأحس فولتير أن كبرياءه قد جرحت ، ولم يكن فى طاقته قط أن يترك لعدو الكلمة الأخيرة ، ولعله وطن النفس على أن يختصم الملك . وكتب لمدام دينس (١٨ أكتوبر ١٧٥٢) يقول « لست أملك صولجاناً ، ولكنى أملك قلماً . » ثم استغل غاية الاستغلال نشرموبرتوى مؤخراً (درسدن ، ١٧٥٢) لسلسلة من « الرسائل » اقترح فيها حفر ثقب فى الكرة الأرضية ، إلى مركزها إن أمكن ، لدراسة تركيبها ، ونسف هرم من أهرام مصر للكشف عن أسرار هدفها وتصميمها ، وبناء مدينة لا يتكلم الناس فيها غير اللاتينية حتى يقضى الطلاب فيها عاماً أو عامين ويتعلموا تلك اللغة كما تعلموا لغتهم القومية ، وألا ينقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض ، وأن جرعة كافية من الأفيون قد تمكن متعاطيها من التنبؤ بالمستقبل ، وأن العناية الصحيحة بالجسم قد تتيح لنا إطالة العمر إلى مالا نهاية . [١١٤] وانقض فولتير على هذه الرسائل انقضاضة على فريسة سهلة ، مغفلا بعناية أى فقرة فيها إدراك سليم أو أى لمحات من الفكاهة ثم قذف بالباقى فى مرح على قرون دعابته الذكية . وهكذا كتب فى نوفمبر ١٧٥٢ « خطاب الدكتور أكاكيا ، طبيب البابا المقيم . » وكلمة Diatribe (ومعناها الآن هجاء) كانت تعنى يومها خطاباً ، أما akakia فكلمة يونانية معناها « غرارة أو غفلة » . وقد بدأ الطبيب المزعوم فى براءة ظاهرة بتشككه فى أن يكون رجل عظيم كعميد أكاديمية برلين مؤلفاً لكتاب بهذا السخف . وعلى أى حال « ليس فى عصرنا هذا ما هو أشيع وأعم من أن يزيف مؤلفون صغار جهل على العالم ، تحت أسماء مشهورة ، كتباً غير جديرة بالمؤلفين المزعومين . فلابد أن هذه الرسائل هى من هذا الضرب من التزييف ، لأنه محال أن يكون العميد العلامة قد

كتب هذا الهراء . وخص الدكتور أكاكيا بالاحتجاج على ذلك الاقتراح بعدم نقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض — وهو اقتراح ربما كان يمس وتراً متعاطفاً فى صدر فولتير الموجع ، ولكن « أينكر الموكل على محاميه أتعابه التى يستحقها لأنه خسر قضيته ؟ إن الطبيب يعد مريضه بأن يعينه لا بأن يشفيه . وهو يبذل ما فى وسعه وينقد أجره على هذا الأساس » ، وكيف يكون شعور عضو الأكاديمية إذا اقتطع قدر معين من الدوقاتيات من راتبه السنوى نظير كل غلطة ارتكبها ، أو كل قول سخيف فاه به ، خلال العام ؟ وراح الطبيب يفصل ما اعتبره فولتير أغلاطاً أو سخافات فى أعمال موبرتوى . (١١٥)

ولم يكن هجاؤه هذا بالبراعة التى يخالها الناس عموماً ، فكثير منه معاد وبعض ما فيه من نبش عن الأخطاء تافه غير كريم ؛ ونحن نخفى حقدنا فى أيامنا هذه بأدب أكثر . ولكن فولتير سر بتمثيليته هذه سروراً لم يستطع معه أن يقاوم بهجة رؤيتها مطبوعة . فأرسل مخطوطة منها إلى ناشر فى لاهاى ، وأرى الملك فى الوقت نفسه مخطوطة أخرى . واستمتع فردريك بقراءة الهجاء (أو هكذا قيل) وكان بينه و بين نفسه يوافق على أن موبرتوى فيه أحياناً غرور لا يطاق ، ولكنه نهى فولتير عن نشره ، وواضح أنه وجد فى النشر مساساً بكرامة أكاديمية برلين وسمعتها . وسمح له فولتير بأن يحتفظ بالمخطوطة ، ولكن الهجاء نشر رغم ذلك فى هولندة . وسرعان ما أ انبثت ثلاثون ألف نسخة منه فى أرجاء باريس ، وبروكسل ، ولاهاى ، وبرلين . ووصلت نسخة منها ليد فردريك ، فأعرب عن غضبه بعبارات جعلت فولتير يفر إلى مسكن خاص فى العاصمة . وفى ٢٤ ديسمبر ١٧٥٢ رأى من نافذته جلاد الدولة الرسمى يحرق كتابه على الملأ . وفى أول يناير ١٧٥٣ رد لفردريك مفتاحه الذهبى بوصفه أميناً للقصر ، وصليب الاستحقاق الذى خلعه عليه .

وكان الآن مريضاً حقاً ، تلهب الحمرة جبينه ، وترهق الدوسنتاريا أمعاءه ، وتبرى الحمى جسده . فلزم فراشه فى ٢ فبراير ولم يبرحه طوال

أسبوعين ، وبدا عليه كما قال زائر عاده فى مرضه « كل مظهر الهيكل العظمى . » (١١٦) ورق له قلب فردريك ، فأوفد طبيبه الخاص ليرعى الشاعر . فلما تحسنت صحته كتب إلى الملك يستأذنه فى زيارة بلومبيير ، فلعل مياهها تشفى حمرته . وأمر فردريك سكرتيره بأن يرد عليه (١٦ مايو) « بأن فى استطاعته أن يترك هذه الخدمة حين يشاء ، وأنه لا حاجه به للاعتذار بمياه بلومبيير ، ولكن عليه أن يتكرم قبل رحيله بأن يرد إلى ... مجلد القصائد الذى عهدت به إليه . » (١١٧) وفى الثامن عشر من الشهر دعا الملك فولتير للعودة إلى مسكنه القديم فى سانسوسى . وأتى فولتير ، ومكث ثمانية أيام ، وبدا أنه أصلح ما بينه وبين الملك – ولكنه احتفظ بقصائد الملك . وفى ٢٦ مارس ودع فردريك ، وتظاهر كلاهما بأن الفراق إلى حين . وقال الملك « اعتن بصحتك قبل كل شىء ، ولا تنس أننى أنتظر عودتك بعد استشفائك بالمياه ... رحلة طيبة ! » (١١٨) ولم يلتقيا بعدها قط .

وهكذا انتهت هذه الصداقة التاريخية ، ولكن العداوات السخيفة استمرت . فقد انطلق فولتير مع سكرتيره ومتاعه يتأرجح فى مركبته إلى الأمان فى ليبزج السكسونية . هناك تلكأ ثلاثة أسابيع بحجة ضعف صحته ، وأضاف مزيداً إلى « الخطاب » . وفى ٦ أبريل تلقى رسالة من موبرتوى يقول فيها :

تقول الجرائد إنك تخلفت فى ليبزج لمرضك ، ولكن معلوماتى الخاصة تؤكد لى أنك لا تمكث هناك إلا لطبع مزيد من القذف فى .. إننى لم أسىء إليك قط ، وما كتبت ضدك ولا قلت شيئاً قط . لقد كنت على الدوام أراه أمراً لا يليق بى أن أرد على السفاهات التى رحت تذيعها عنى ... ولكن إذا صح أن فى نيتك العودة إلى مهاجمتى فى مسائل شخصية ، ... فإننى أنذرك بأن فى من العافية ما يمكننى من العثور عليك أنى كنت ، وصب جام غضبى وانتقامى عليك . (١١٩)

ورغم ذلك طبع فولتير « الخطاب » المنقح ، وطبع معه رسالة موبوتوى . وأصبح الكتيب ، الذى تضخم الآن حتى بلغ خمسين صفحة ، حديث القصور والبلاطات فى ألمانيا وفرنسا . وكتبت فلهلمينا من بايرويت إلى فردريك

(٢٤ ابريل ١٧٥٣) تعترف بأنها لم تملك نفسها من الضحك على الخطاب . أما موبرتوى فلم ينفذ تهديده ، كذلك لم يمت غيظاً وكمداً كما ظن البعض ؛ فلقد عمر ست سنوات بعد الدكتور أكاكيا ، ومات بالسل فى بازل عام ١٧٥٩ .

وفى ١٩ أبريل رحل فولتير إلى جوتا ، ونزل فندقاً عاماً بها ، ولكن سرعان ماأقنعه دوق ودوقة ساكس — جوتا بالنزول ضيفاً عليهما فى قصرهما ؛ ولما كان بلاطهما الصغير يهتم بالثقافة ، فقد جمعت الدوقة الأعيان والأدباء ، وقرأ لهم فولتير شيئاً من أعماله ، حتى من قصيدة « لا بوسيل المرحة » . ثم مضى إلى فرنكفورت — أم على — مين ، وهناك أدركته إلهة الانتقام .

ذلك أن فردريك حين تبين أن فولتير يواصل الحرب التى شنها على موبرتوى ، خامرته الظنون فى أن الشاعر المستهتر قد يذيع على الناس القصائد التى كتبها الملك ، والتى لم تزل نسخة منها — طبعت سراً — فى حوزة فولتير وهى قصائد فى بعضها خروج عن اللياقة ، وبعضها يتهكم بالمسيحية ، وبعضها يتحدث عن الأحياء من الملوك حديثاً فيه من الدعاية أكثر مما فيه من الاحترام ، فمن شأنها أن تنفر منه قوى نافعة . وعليه فقد أرسل إلى فربتاج ، المقيم البروسى فى فرانكفورت ، يأمره بحبس فولتير حتى يسلم « ذلك الهيكل العظمى ، الشيطانى » قصائد الملك وشتى الأوسمة التى خلعها عليه إبان « شهر العسل » . وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، ولكنها تعتمد على رضى فردريك اعتماداً لم تجرؤ معه على التدخل فى هذه الأوامر ؛ أضف إلى ذلك أن فولتير كان من الناحية الرسمية لا يزال فى خدمة ملك بروسيا وفى أجازة ممنوحة منه . ومن ثم قصد فربتاج فى أول يونيو فندق الأسد الذهبى الذى وصل إليه فولتير البارحة ، وطلب إليه فى أدب أن يسلمه الأوسمة والقصائد . وسمح فولتير للمقيم بأن يفتش متاعه ويأخذ الأوسمة الملكية ، أما قصائد الملك فقال إنها على الأرجح فى صندوق أرسله إلى همبورج . وأمر فربتاج بوضعه تحت الحراسة حتى يعاد الصندوق من همبورج . وفى ٩ يونيو تعزى الفيلسوف المغيظ بوصول مدام دنيس ،

التى أعانته على التنفيس عن غيظه . وقد راعها هزاله «كنت على يقين من أن هذا الرجل (فردريك) قاتلك ! » وفى ١٨ يونيو وصل الصندوق ، وعثر فيه على المجلد المحتوى على القصائد ، وسلم للمقيم ، ولكن فى اليوم ذاته وصل توجيه جديد من بوتسدام يأمر فربتاج بالاحتفاظ « بالوضع الراهن » لحين وصول أوامر أخرى . فحاول فولتير الهروب بعد أن عيل صبره ، وفى ٢٠ يونيو ترك حقائبه مع ابنة أخته وفر هو وسكرتيره خلسة من فرانكفورت .

ولكن فربتاج لحق بهما قبل أن يجتازا الحدود الأدارية للمدينة ، وعاد بهما إليها وأودعهما سجينين فى فندق العنزة ، لأن « صاحب فندق الأسد أبى أن يستبقى فولتير أطول مما بقى عنده بسبب شحه الذى لا يصدق » (١٢٠) (فى رواية فربتاج) . واستولى آسرو فولتير على نقوده كلها ، وعلى ساعته ، وبعض جواهره التى يتحلى بها ، وصندوق نشوقه — الذى رد إليه سريعاً بناء على توسله لأنه قال إنه لا غنى لحياته عنه . وفى ٢١ يونيو وصل خطاب من فردريك يأمر بالافراج عن فولتير ، ولكن فربتاج رأى أن الأمانة فى أداء الواجب تقتضيه أن ينبىء الملك بمحاولة فولتير الهروب ، فهل يطلق سراحه رغم ذلك ؟ وفى ٥ يوليو وافق فردريك على الإفراج عنه ، وأطلق سراحه بعد اعتقاله خمسة وثلاثين يوماً . وفى ٧ يوليو غادر فرانكفورت إلى مينز ، وعادت مدام دنيس إلى باريس ، بأمل الحصول على إذن لفولتير بدخول فرنسا .

وكان نبأ اعتقاله قد ذاع ، فاحتفل به القوم وأشادوا به حيثما ذهب ، لأن فردريك لم يحبه أحد غير أخته فلهلمينا ، أما فولتير فهو رغم شيطنته كلها كان أعظم الأحياء من الشعراء ، والمسرحيين ، والمؤرخين . وبعد أن قضى ثلاثة أسابيع فى مينز رحل فى بطانة كبطانات الأمراء إلى مانهايم وستراسبورج (١٥ أغسطس إلى ٢ أكتوبر) حيث أمتع روحه بفكرة وجوده على أرض فرنسية . ثم مضى إلى كولمار (٢ أكتوبر) حيث زارته فلهمينا فى طريقها إلى مونبليه وطيبت خاطره « بالأنعامات » واسترد من عافيته ما أوحى إليه ببعض رسائل ظريفة لمدام دنيس التى كانت تشكو ورماً فى :لا لديها :

بالله يا طفلتى العزيزة ما الذى تريد ساقاك وساقاى أن تقول ؟ لو أنها كانت معاً لما شكت مرضاً ... إن فخذيك لم يخلقا للألم . فهذان الفخذان اللذان سيقبلان بعد قليل يلقيان الآن معاملة مخزية . (١٢١)

وكتب فى لهجة أكثر تواضعاً إلى مدام بومبادور يتوسل بنفوذها على لويس الخامس عشر ليسمح له بالعودة إلى باريس . ولكن ناشراً لصاً فى لاهاى كان قد نشر طبعة مشوهة سماها « موجز التاريخ العام » اختصر منها كتاب « مقال التاريخ العام » أو « مقال فى العزف » الذى لم يتمه فولتير ، وقد احتوى نقداً جارحاً للمسيحية . وبيع الموجز بسرعة فى باريس ، وقال لويس الخامس عشر لبومبادور « لست أريد أن يأتى فولتير إلى باريس »(١٢٢) وطالب اليسوعيون فى كولمار بطرده من تلك المدينة ، فحاول أن يسترضى أعداءه الكنسيين بتناوله القربان فى عيد القيامة . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا العمل أن انضم أصدقاؤه لليسوعيين فى رميه بالنفاق . وكان تعقيب مونتسكيو « انظروا إلى فولتير الذى لا يعرف أين يضع رأسه » ثم أضاف « أن النفس الصالحة أغلى ثمناً من النفس الجميلة . » (١٢٣)

وفكر الفيلسوف المشرد ، بعد أن سدت فى وجهه المسالك ، فى الرحيل عن أوربا والإقامة فى فيلادلفيا . وكان معجباً بروح بن وجهود فرانكلن الذى وحد مؤخراً بين البرق والكهرباء « لولا أن البحر يسبب لى دواراً لا يطاق لقضيت بقية عمرى بين كويكرزى بنسلفانيا . » (١٢٤) وفى ٨ يونيو ١٧٥٤ غادر كولمار ووجد ملجأ فى دير سنون البندكتى باللورين . هناك علم أن دوم أوجستن كالميه رئيس للدير ، وأن بمكتبة الدير اثنا عشر ألف مجلد ؛ ووجد فولتير السلام وسط الرهبان ثلاثة أسابيع . وفى ٢ يوليو رحل إلى بلومبير ، وشرب من مياهها فى خاتمة المطاف . ولحقت به مدام دنيس هناك ، وظلت منذ ذلك الحين سيدة (Mistrest خليلة) بيته على الأقل . واستأنف تجواله ، وعاد إلى كولمار ، ولم يجد فيها راحته ، فانطلق إلى ديجون ومكث فيها ليلة ، ثم إلى ليون التى أقام فيها شهراً (١١ نوفمبر إلى ١٠ ديسمبر). ونزل أسبوعاً ضيفاً على صديقه ومدينه القديم الدوق ريشليو ، ثم انتقل إلى فندق الباليه رويال ، ربما خوفاً من أن يؤذى سمعته . وذهب إلى أكاديمية

ليون وتلقى كل ماخلعته عليهمن تكريم . وأخرجت بعض تمثيلياته على المسرح المحلى ، ورفع تصفيق الاستحسان معنويته . وفكر فى الإقامة فى ليون ، ولكن رئيس الأساقفة تنسان اعترض، فرحل فولتير عنها . وأيقن أنه قد يقبض عليه فى أية لحظة لو مكث فى فرنسا .

وعليه ففى ختام عام ١٧٥٤ ، أو مطلع عام ١٧٥٥ ، عبر جبال الجورا وألقى عصا التسيار فى سويسرة .

* * *

الفصل الرابع عشر

سويسرة وفولتير ١٧١٥ — ٥٨

١ — فيللا المباهج (ليدليس) :

على طريق لبون ، خارج أبواب جنيف مباشرة ولكن فى حدودها الإدارية ، وجد فولتير فى خاتمة المطاف مكاناً يستطيع أن يرقد فيه آمناً مطمئناً ، هو فيللا فسيحة تسمى سان — جان ، ذات حدائق مدرجة تهبط إلى نهر الرون . ولما كانت قوانين الجمهورية تحرم بيع الأرض إلا للبروتستنت السويسريين ، فقد قدم ٨٧,٠٠٠ فرنك لشراء الملك (فبراير ١٧٥٥) بواسطة وكالة لابا دجرانكور وجان روبير ترونشان[*]. وبكل حماسة أهل المدن اشترى دجاجات وبقرة ، وزرع حديقة خضر ، وغرس الأشجار. لقد أنفق من عمره ستين عاماً حتى تعلم أننا « يجب أن نزرع حديقتنا » . وخطر له أن فى وسعه الآن أن ينسى فردريك ، ولويس الخامس عشر ، وبرلمان باريس ، والأساقفة ، واليسوعيين ، ولم يبق إلا مغصه ونوبات صداعه . وبلغ ابتهاجه ببيته الجديد مبلغاً جعله يسميه « ليدليس » أى المباهج وكتب إلى تيريو يقول : « إن لى من السعادة ما يخجلنى » . [1] ولما كانت استثماراته الذكية تأتيه بدخل مترف ، فإنه أشبع رغبته فى العيش المترف . فاحتفظ بستة جياد وأربع مركبات ، وسائق ، وجوذى يمتطى أحد جياد العربة ، وتابعين ، وخادم خاص ، وطاه فرنسى ، وسكرتير ، ونسناس — كان يحب أن يقارن بينه وبين الإنسان . وتربعت على عرش هذه المؤسسة مدام دنيس ، التى وصفتها مدام دينيه حين زارت البيت فى ١٧٥٧ بهذه العبارات :

(*) كان هناك أفراد كثيرون باسم ترونشان ، أهمهم : (١) جان روبير ، المصرفى والمدير العام لجنيف ، (٢) باكوب ، عضو المجلس ، (٣) فرنسوا ، المؤلف والمصور (٤) تيودور ، الطبيب . و « ترونشان » هنا يقصد به تيودور ، مالم ينص على غير هذا .

ما زال البيت موجودا (١٩٦٥) ، وقد نقصت مساحته كثيرا ، ولكن مدينة جنيف تحتفظ به معهدا ومتحفا لفولتير .

« امرأة قصيرة سمينة ، مدورة كالكرة ، تناهز الخمسين ، ... قبيحة ، طيبة ، كذابة دون قصد ودون خبث ، ليس فيها ذكاء ومع ذلك تبدو وكأن لها نصيباً منه ... تكتب الشعر وتناقش فى منطق وفى غير منطق ... دون كثير ادعاء أو غرور ، وأهم من ذلك كله دون أن تسىء إلى أحد .. تعبد خالها ، بوصفه خالا وبوصفه إنساناً ، وفولتير يحبها ، ويضحك عليها ، ويعبدها . إن هذا البيت ، باختصار ، مأوى يجمع بين النقائض ، ومشهد يمتع المتفرجين[٢] .

ووصف زائر آخر هو الشاعر الصاعد مارمونتيل ، المالك الجديد فقال « كان فى فراشه حين وصلنا . فمد ذراعيه وعانقنى وبكى فرحاً ... ثم قال « هأنت تجدنى مشرفاً على الموت . فتعال وردنى إلى الحياة . أو تلق آخر أنفاسى » ... وبعد لحظة قال « سأنهض وأتناول الغداء معك . »[٣] .

وكان فى فيللا المباهج هذه عيب واحد — وهو برودتها فى الشتاء ، وفولتير يحتاج إلى الحرارة لشدة هزاله . وعليه فقد وجد قرب لوزان خلوة صغيرة تدعى مونريون يقيها موقعها من ريح الشمال . فاشتراها ، وأنفق فيها بعض شهور الشتاء خلال ١٧٥٥ — ٥٧ . وفى لوزان ذاتها اشترى (يونيو ١٧٥٧) على نهر جران شين « بيتاً لو كان فى إيطاليا لسمى قصراً » له خمس عشرة نافذة تطل على البحيرة . » هناك ودون أى معارضة من رجال الدين أخرج تمثيليات أكثرها من تأليفه . وكتب يقول « إن الهدوء شىء جميل . ولكن الملل ينتمى إلى نفس الأسرة . ولكى أرد عنى هذا القريب القبيح أقمت مسرحاً » .[٤] .

وهكذا ، فى غدوة ورواحه ، بين جنيف ولوزان عرف سويسرة .

٢ — المقاطعات السويسرية (الكانتونات) :

فى ١٧٤٢ تساءل صموئيل جونسن « بأى سياسة عجيبة ، أو بأى توافق سعيد بين المصالح ، أمكن تجنب الفتن العنيفة فى دولة تتألف من شتى

---

(١) هو الآن (١٩٦٥) متحف للفن ، يضم مخلفات صغيرة لفولتير .

المجتمعات ومختلف الأديان ، رغم أن فى أهلها من الولع بالحرب ما يجعل من تقرير تجريد جيش ومن حشده شيئاً واحداً ؟ (٥) .

هذا المركب الغريب من ثلاثة شعوب ، وأربع لغات ، ومذهبين ، ظل فى سلام مع العالم الخارجى منذ ١٥١٥ . فبمقتضى ضرب من الميثاق المبرم بين اللصوص أمسكت الدول عن مهاجمته ، ولقد كان مطمعاً غاية فى الصغر (بلغ ٢٢٧ ميلا فى أقصى طوله ، و ١٣٧ فى أقصى عرضه) فقيراً جداً فى موارده الطبيعية ، شديد الوعورة فى أرضه ، اتصف أهله بشجاعة تثبط همة المعتدى . واستمر السويسريون ينجبون خيرة الجنود فى أوربا ، ولكن الاحتفاظ بهم كان غالى الكلفة ، لذلك كانوا يؤجرون لشتى الحكومات بسعر معلوم للجندى . وفى ١٧٤٨ كان هناك ستون ألفاً من هؤلاء الجنود « الجوالين » فى خدمة الدول الأجنبية . وقد أصبحوا فى بعضها جزءاً دائماً من المؤسسة العسكرية ؛ وكانوا أحب الحرس للبابوات والملوك الفرنسيين وأحوزهم لثقتهم ؛ والعالم كله يعرف كيف قضى الحرس السويسرى لآخر رجل منهم دفاعاً عن لويس السادس عشر فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ .

وفى ١٧١٥ كانت ثلاث عشرة مقاطعة تؤلف الاتحاد السويسرى : أبنتسيل ، وبازل ، وجلاروز ، وشافهاوزن ، وزيورخ — وكانت فى أغلبها ألمانية وبروتستنتية ؛ ثم لوسرن ، وشفيتس ، وزولوتورن ، وأونترفالدن ، وأورى ، وبتسوج — وكلها ألمانية وكاثوليكية ، ثم برن ، وكانت ألمانية وفرنسية ، بروتستنتيةوكاثوليكية ؛ ثم فريبورج ، وكانت فرنسية وكاثوليكيو. وفى ١٨٠٣ ضم الاتحاد إليه مقاطعات أراجاو ، وسانت جالين ، وتورجاو (ألمانية وبروتستنتية) ، وتيتشينو (إيطالية وكاثوليكية) ، وڤو (فرنسية وبروتستنتية) . وفى ١٨١٥ أضيفت ثلاث مقاطعات جديدة هى جنيف (فرنسية وبروتستنتية تنقلب الآن كاثوليكية بسرعة) ، وڤاليه (فرنسية ، وألمانية ، وكاثوليكية) والإقليم المعروف للفرنسيين باسم جريزون وللألمان باسم جراوبوندن تغلب عليه البروتستنتية ، ويتكلم الألمانية أو الرومانش ، وهى لاتينية أثرية .

وكانت سويسرة جمهورية النظام ، ولكنها لم تكن ديمقراطية بمعناها المعروف ، ففى كل مقاطعة تنتخب أقلية من السكان الذكور البالغين ، الذين ينتمون عادة للأسر العريقة ، مجلساً كبيراً أو « مجلساً عاماً » يتألف من نحو مائتى عضو ، ومجلساً صغيراً يتألف من أربعة وعشرين إلى أربعة وستين عضواً . وكان المجلس الصغير يعين مجلساً خاصاً أصغر منه وعمدة وهو أكبر موظفى المقاطعة . ولم يكن هناك فصل للسلطات ، فالمجلس الصغير هو أيضاً المحكمة العليا . وقصرت المقاطعات الريفية (وهى أورى ، وشفيتس ، وأونتفالدن ، وجلاروز ، وتسوج وأبنتسيل) حق الانتخاب على الأسر الوطنية ، أما غيرها من المقيمين بها ، مهما طال مقامهم ، فيحكمون بوصفهم طبقة تابعة . (٦) ومثل هذه الأولجركيات كانت شائعة فى سويسرة . فلوسرن مثلا قصرت صلاحية التعيين فى الوظائف الحكومية على تسع وعشرين أسرة ، ولم تسمح لأسرة جديدة بدخول هذه الدائرة إلا إذا انقرضت إحدى الأسر القديمة . (٧) وفى برن كانت ٢٤٣ أسرة صالحة للتعيين فى الوظائف ، ولكن نحو ثمان وستين منها فقط هى التى تقلدت المناصب بصفة دائمة . وفى ١٧٨٩ لاحظ المؤرخ الروسى نيكولاى كارامزين أن مواطنى زيورخ « يفخرون بلقبهم فخر ملك بتاجه » لأن « أحداً من الأجانب لم يحصل على حق المواطنة منذ نيف و ١٥٠ سنة . » (٨) (وعلينا أن نذكر أنفسنا بأن كل الديمقراطيات تقريباً أو الأولجركيات ، لأن الأقليات يمكن تنظيمها للحركة والسلطة ، أما الأغلبيات فلا) .

وكان فى حكومة المقاطعة نزوع إلى النظام الأبوى الذى يتطلب الطاعة لأولى الأمر . مثال ذلك أن المجالس فى زيورخ أصدرت القوانين المنظمة للأكل ، والشرب ، والتدخين . وقيادة العربات ، وحفلات الزفاف ، واللباس ، والتزين ، وقص الشعر ، وأجور العمل ، ونوعية المنتجات ، وأسعار الضروريات ، وكانت هذه الأوامر من مخلفات القوانين البيئية أو النقابية القديمة ، والواقع أن « معلمى » النقابات الحرفية الاثنى عشرة فى زيورخ كانوا يكتسبون عضوية المجلس الصغير تلقائياً ، بمعنى أن هذه المقاطعة كانت إلى حد كبير دولة نقابية . وقد كتب جوته فى أخريات القرن

أن شواطىء بحيرة زيورخ تعطى « فكرة جذابة مثالية عن أروع وأسمى حضارة » . [(٩)]

أما « مدينة وجمهورية » برن فكانت أكبر وأقوى المقاطعات . فهى تضم ثلث سويسرة ، وتتمتع بأغنى اقتصاد ، وحكومتها محط الإعجاب عموماً لما تتميز به من تدبير وكفاية ؛ وقد شبهها مونتسكيو بروما فى أزهى عصور الجمهورية . أما وليم كوكس ، وهو قسيس بريطانى ومؤرخ عالم ، فقد وصف المدينة كما رآها فى ١٦ سبتمبر ١٧٧٩ بهذه العبارات :

حين دخلت برن أدهشنى ما تميزت به من نظافة وجمال . شوارعها الرئيسية عريضة طويلة ، ليست مستقيمة ، بل منعطفة انعطافاً هينا ، وتكاد بيوتها تكون متماثلة ، وهى مبنية بحجر تغلب عليه الشهبة ومن تحتها البواكى . ويجرى وسط الشوارع نهير نشيط ، ماؤه شديد الصفاء ، فى مجرى صخرى ، وهناك نافورات عديدة تضفى على المدينة جمالا يعدل نفعها لأهلها . ويكاد نهر آر يحيط بالمدينة ، إذ يلتف مجراه فوق قاع صخرى أوطا كثيراً من مستوى الشوارع .. والريف المجاور غنى بالزرع ، فيه تنويع لطيف من تلال ومروج وغابات ومياه .. وترسم على الأفق البعيد سلسلة شديدة الانحدار من جبال الألب الوعرة المكللة بالثلوج . [(١٠)] » .

أما الخطأ الفادح الذى ارتكبه نبلاء برن فى معاملتهم لمقاطعة فو . فهذا الفردوس الأرضى كان يمتد بحذاء الضفة السويسرية لبحيرة جنيف من أرباض مدينة جنيف حتى لوزان (العاصمة) ويصل شمالا إلى بحيرة نيوشاتل . على هذه الضفاف الجميلة والتلال الزاخرة بالكروم استمتع فولتير وجيبون بحياة غاية فى التحضر ، وشب روسو وتعذب ، واختار بيت جولى الفاضل (فى كلارنس ، قرب فيفى) . وقد خضع الإقليم لسيادة برن فى ١٥٣٦ ، ففقد مواطنوه حقهم فى تقلد المناصب الحكومية ، واشتد تبرمهم بالحكم البعيد عنهم ، وتكررت ثوراتهم دون جدوى .

وكانت المقاطعات شديدة الحرص على استقلالها الذاتى . كل منها تعتبر نفسها دولة ذات سيادة ، لها الحرية فى خوض الحرب أو إبرام الصلح

أو الدخول فى أحلاف أجنبية ، مثال ذلك أن المقاطعات الكاثوليكية ارتبطت بفرنسا طوال حكم لويس الخامس عشر . ورغبة فى التخفيف من الصراع بين المقاطعات كانت كل منها ترسل مندوبين عنها إلى مجلس سويسرى (ديت) ينعقد فى زيورخ . ولكن هذا المجلس الاتحادى (الكونجرس) كانت سلطاته محدودة جداً ، فهو لا يستطيع فرض قراراته على أى مقاطعة ترفضها . ويجب أن توافق جميع المقاطعات على هذه القرارات لكى تكون قانونية . وكانت حرية التجارة مقبولة من حيث المبدأ ، ولكن حروب المكوس بين المقاطعات انتهكت هذا المبدأ . ولم تكن هناك عملة مشتركة ، ولا إدارة مشتركة للطرق التى تربط المقاطعات .

على أن الحياة الاقتصادية زكت رغم العوائق الطبيعية والحواجز التشريعية. وكان رق الأرض قد زال فى بضع مناطق على الحدود الألمانية أو النمساوية ، فملك الفلاحون كلهم تقريباً الأرض التى يزرعونها . وكان الفلاحون فقراء فى « مقاطعات الغابات » (وهى أورى ، وشفايتس ، وأونترفالدن ، ولوسرن) وذلك لظروف جغرافية ؛ أما حول زيورخ فازدهرت أحوالهم ، وفى برن جمع العديد من الفلاحين ثروات بالفلاحة التى اتسمت بالعناية والمثابرة . وقد اضطر كثير من السويسريين إلى الجمع بين الزراعة والصناعة لطول الشتاء وصعوبة النقل ؛ فالأسرة التى تغزل القطن أو تصنع الساعات تزرع الحدائق أو تغرس الكروم . واشتهرت فريبورج بجبنها الجروبير (جرافيرا) ، وزيورخ بدنتلتها ، وسانت جالين بقطنها ، وجنيف بالساعات ، ونيوشاتل بالدنتيللا ، وسويسرة كلها بالأنبذة . وكانت المالية السويسرية حتى فى ذلك الحين مثار حسد أوربا ، والتجار السويسريون نشيطين فى كل بلد . وأثرت بازل من الاتجار مع فرنسا وألمانيا ، وزيورخ من الاتجار مع ألمانيا والنمسا . ونافست بازل وجنيف ولوزان ، أمستردام ولاهاى مراكز للنشر . وبعد أن أشاد هاللر وروسو بجمال البحيرات السويسرية المتألق وجلال الألب السويسرية المهيب ، أمدت السياحة الاقتصاد الاتحادى بدعم متزايد .

أما مستوى الأخلاق فلعله كان فى سويسرة أرقى منه فى أى بلد آخر باستثناء اسكندناوة ، حيث أنتجت الظروف المماثلة نتائج مماثلة . فكانت أسرة الفلاح مثالا للجد ، والعفة ، والوحدة ، والتدبير . وكان فى المدن بعض الفساد فى السياسة وبيع المناصب ، ولكن حتى فى هذه الأماكن أعانت الخشونة التى ولدها المناخ القاسى ، والإقليم الجبلى ، والآداب البروتستنتية ، على الاستقرار الخلقى . وكان اللباس محتشما سواء عند الأغنياء أو الفقراء . وظلت قوانين الإنفاق صارمة مرعية الجانب فى سويسرة (١١) .

أما الدين فكان نصف الحكم ونصف الصراع . فالحضور إلى الكنيسة إجبارى ، والمدن من الصغر بحيث يستحيل على الخوارج المتمردين أن يجدوا ملاذاً لهم فى زحمة الجماهير . ويوم الأحد يوم تعبد لاهوادة فيه ، ويروى إن الحانات فى زيورخ كانت تهتز بالمزامير ترتل فيها فى يوم الرب (١٢) . ولكن المذهبين المتنافسين — الكلفنى والكاثوليكى — ضربا أسوأ أمثلة السلوك ، لأنهما أطلقا العنان للحقد والكراهية وقيدا العقل بالأغلال . وحظرت بعض المقاطعات الكاثوليكية كل عبارة إلا الكاثوليكية . وبعض المقاطعات البروتستنتية كل عبادة إلا البروستنتية . (١٣) وحرم القانون الخروج على الكنيسة الرسمية وتأليف مذاهب مستقلة . وفى لوسرن عذب ياكوب شمدلن فى ١٧٤٧ ثم شنق لمحاولته تنظيم حركة « تقوية » مستقلة عن الكنيسة . وكان حلف يمين الالتزام بالكلفنية شرطاً لشغل المناصب السياسية أو الكنسية أو التعليمية فى المقاطعات البروتستنتية . (١٤) وفرضت الكنيسة والدولة رقابة شديدة على المطبوعات . وفى مقاطعات الغابات تضافر فقر الفلاحين ، والعواصف ، وانزلاقات الأرض ، وانهيارات الثلوج ، وآفات الزرع ، والفيضانات ، والرهبة من الجبال المحيطة بالسكان — كلها اجتمعت لتولد فيهم خوفاً خرافياً من الأرواح الشريرة الساكنة فى القمم المحلقة والرياح المدومة . ولكى يقهر الفلاحون المكروبون أعداءهم الخارقين للطبيعة كانوا يتوسلون إلى قساوستهم أن يخرجوا الأرواح النجسة ويمنحوا قطعانهم البركة فى مراسم دينية . وقد انتهى حرق المتهمين بالسحر فى جنيف عام ١٦٥٢ .

وفى برن عام ١٦٨٠ ، وفى زيورخ عام ١٧٠١ ، وفى المقاطعات الكاثوليكية عام ١٧٥٢ ، ولكن امرأة فى جلاروز قطع رأسها عام ١٧٨٢ وكانت تهمتها أنها سحرت طفلا . (١٥)

وانبثق النور وسط هذه الظلمة بفضل المدارس الحكومية والمكتبات العامة . وكانت جامعة بازل تعانى اضمحلالا من جراء التعصب الدينى ، فلم تكد تقدر منجزات يوهان وياكوب ودانيل برنوللى ، وأكرهت ليونارد أويلر على الهروب إلى قاعات أكثر سماحة لضيوفها . ولكن سويسرة رغم هذا أنجبت الأدباء والشعراء والعلماء فى تناسب كامل مع عدد سكانها ؛ وقد ذكرنا من قبل العالمين الزيورخيين يوهان ياكوب بودمر ويوهان ياكوب برايتنجر ، وقد كان لهما أثر دائم على الأدب الألمانى لأنهما عارضا إعجاب جوتشيد المفرط ببوالو والأشكال الكلاسيكية ؛ ودافعا عن حقوق الوجدان ، والعناصر الغيبية ، بل اللامعقولة ، فى الأدب والحياة ؛ وأشادا بالشعر الإنجليزى وفضلاه على الفرنسى ، وقدما شيكسبير وملتن لقراء الألمانية ، وبعثا الأغانى القديمة (١٧٥١) وشعراء العصر الوسيط الغنائيين الألمان minnesingers وانتقل مذهبهم إلى ليسنج ، وكلوبشتوك ، وشيلر ، والشاب جوته ، وفتح الطريق للحركة الرومانسية فى ألمانيا ولإحياء الاهتمام بالعصور الوسطى . وسار على هذا الدرب شاعر زيورخى يدعى سالومون جسنر ، وأصدر قصائد « رعوية » (١٧٥٦) فيها من فتنة الريف ما جعل أوروبا بأسرها تترجمها ، وشعراء مثل فيلاند وجوته يحجون إلى بيته .

وأنبه سويسرى القرن الثامن عشر ذكراً بعد جان جاك روسو هو البريشت فون هاللر البرنى ، أعظم الشعراء والعلماء فى بلده وعصره . درس فى برن ، وتوبنجن ، وليدن ، ولندن ، وباريس ، وبازل ، القانون والطب والفسيولجيا والنبات والرياضة . فلما عاد إلى برن اكتشف جبال الألب . وأحس بجمالها وجلال خطوطها ، فتدفق شعراً . وأصدر وهو بعد فى الحادية والعشرين (١٧٢٩) مجلداً من الشعر الغنائى سماه « الألب » ذهب كوكس المتحمس له إلى أنه شامخ خالد كالجبال التى يتغنى بها . (١٦) وكان الكتاب

سبقاً لروسو فى كل شىء تقريباً . دعا العالم للاعجاب بجبال الألب لما فيها من علو شاهق ملهم وشهادة بعظمة الله ؛ وأزرى بالمدن لأنها أوكار للترف والكفر تقضى إلى انحلال الجسم والخلق . وأشاد بالفلاحين وأهل الجبال لصلابة عودهم ومتانة أيمانهم واعتدال عاداتهم . وأهاب بالرجال والنساء والأطفال أن يتركوا المدن ويخرجوا ليعيشوا فى الخلاء عيشة أبسط وأعقل وأصح .

ولكن علم هاللر هو الذى أذاع شهرته فى أوربا . فنى ١٧٣٦ عرض علية جورج الثانى أستاذية النبات والطب والجراحة فى جامعة جوتنجن . وهناك ظل يدرس سبعة عشر عاماً ، بكفاية حملت أكسفورد وهاللى على دعوته ، وأراده فردريك الأكبر أن يخلف موبرتوى عميداً لأكاديمية برلين ، وحاولت كاترين الثانية إغراءه بالذهاب إلى سانت بطرسبورج وأرادت جوتنجن أن تعينه عميداً لها . ولكنه بدلا من هذا كله قفل إلى برن واشتغل طبيباً ، واقتصادياً ، ورئيساً لمقاطعته ، وعكف فى مثابرة وجد على رائعة من روائع القرن العلمية هو كتابه « الأصول الفسيولوجية لجسم الإنسان » الذى سنلتقى به ثانية فى مكان لاحق .

وظل طوال هذه السنين . وطوال اشتغاله بهذه العلوم ، محتفظاً بنقاء صادق فى عقيدته الدينية ونزاهة صارمة فى أخلاقه . فلما قدم فولتير ليعيش فى سويسره خيل لهاللر أن الشيطان رفع رايته فوق جنيف ولوزان . وقد زار كازانوفا كلا من هاللر وفولتير فى ١٧٦٠ ، وكان ينافس هاللر فى تذوقه للجمال . فلنستمتع مرة أخرى برواية كازانوفا لمغامرته المزدوجة :

كان هاللر رجلا كبير الجسم والعقل ، طوله ستة أقدام ، عريضاً فى أبعاده — فهو عملاق فى الجسم والعقل . وقد هش للقائى كثيراً ، وفتح لى عقله ، وأجاب عن كل أسئلتى فى دقة وتواضع ... فلما أخبرته أننى أتطلع إلى لقاء المسيو فولتير . قال إننى محق تماماً فى تطلعى هذا ، وأضاف دون مرارة « أن المسيو فولتير رجل يستحق أن يعرفه المرء ، رغم أن كثيراً من الناس وجدوه أعظم عن بعد ، وهذا يناقض قوانين الفيزياء . »

وبعد بضعة أيام زار كازانوفا فولتير فى فيلته المباهج » : قلت له : مسيو فولتير . هذا اليوم مفخرة حياتى الكبرى . لقد كنت تلميذك طوال عشرين عاماً . وإن قلبى ليطرب لرؤية معلمى .

وسألنى من أين جئت .

قلت « من روش . إننى لم أرد أن أبرح سويسرة دون أن أرى هاللر .. ولقد احتفظت بلك كأنك النقل أختم به طعامى . »

« هل سررت من هاللر ؟ » .

« لقد أنفقت معه ثلاثة من أسعد أيام حياتى . »

« إنى أهنئك »

« يسرنى أنك تنصفه . ويؤسفنى أنه لا ينصفك إنصافك إياه » . »

« أها ! ربما كان كلانا مخطئاً . » (١٧)

وفى ١٧٧٥ . نشر هاللر آخر كتبه وكأنه يذيع على العالم كلمته الأخيرة ، واسم الكتاب « رسائل تتناول عدة محاولات أخيرة للفكر الحر .. ضد الوحى» ، وهو محاولة جادة لمعارضة كتاب فولتير « أسئلة فى الموسوعة . » وكتب رسالة مؤثرة للزنديق الرهيب . دعاه (وهو فى الحادية والثمانين) إلى أن يستعيد « تلك السكينة التى تهرب حين تدنو العبقرية » . ولكنها تقبل على الإيمان الواثق ؛ « عندها سيكون أشهر رجل فى أوربا أسعدهم كذلك » . (١٨) على أن هاللر نفسه لم يظفر بهذه السكينة قط . فقد كان برما فى المرض لفرط إحساسه بالألم « كان فى سنواته الأخيرة يدمن تعاطى الأفيون الذى لم يكن له من أثر إلا زيادة ضجره الفطرى لأنه لم يكن سوى ملطف وقتى لألمه » . (١٩) وكان يعانى من خوف الجحيم . ويلوم نفسه على فرط ما بذل « لنباتاتى وغيرها من الحماقات . » (٢٠) وقد أدرك السكينة فى ١٢ ديسمبر ١٧٧٧ .

٣ – جنيف :

لم تكن جنيف فى هذا القرن مقاطعة داخلة فى الاتحاد ، بل جمهورية قائمة بذاتها – المدينة وما وراء البحيرة – تتكلم الفرنسية وتدين بالمذهب

الكلفنى . وقد وصفها دالامبير فى مقاله عنها فى « الموسوعة » وصف معجب بها كما رآها فى ١٧٥٦ :

من العجيب أن مدينة لا يزيد سكانها على ٢٤,٠٠٠ نسمة وتشمل رقعتها أقل من ثلاثين قرية ، قد حافظت على استقلالها ، وهى من أكثر المجتمعات ازدهاراً فى أوربا . وهى فى غناها بحريتها وتجارتها ترى كل ما حولها يشتعل دون أن يمسها من ذلك أذى . فالأزمات التى تضطرب بها أوربا ليست بالنسبة لها غير مشهد تتفرج عليه دون أن تشارك فيه . وهى مع ارتباطها بفرنسا برباط الحرية والتجارة ، وبانجلتره برباط التجارة والمذهب الدينى ، تبدى رأيها بإنصاف فى الحروب التى تخوضها هاتان الأمتان الواحدة ضد الأخرى ، ولكنها أحكم من أن تنحاز لأحداهما . وهى تصدر حكمها على جميع ملوك أوربا دون تملق ، أو إساءة ، أو خشية . (٢١)

وكانت هجرة الهيجونوت من فرنسا نعمة على جنيف ، لأنهم جلبوا إليها مدخراتهم ومهاراتهم ، وجعلوا المدينة عاصمة صناعة الساعات فى العالم بأسره . وقد قدرت مدام دبينيه عدد المشتغلين بتجارة المجوهرات بستة آلاف . (٢٢) فأصبح جاك نكير وزيراً للمالية لويس السادس عشر ، وألبير جالاتان وزيراً لخزانة الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد الرئيس جفرسن .

وكان الحكم فى جنيف امتيازاً طبقياً شأنه فى كل المقاطعات . فلا يقبل فى الوظائف العامة غير السكان الذكور الذين ولدوا فى جنيف لآباء وأجداد مواطنين . وتلى طبقة الأشراف هذه طبقة البورجوازية من أرباب الصناعات ، والتجار ، وأصحاب الحوانيت ومعلمى الحرف . وأعضاء المهن . وكان الأشراف والبورجوازيون ، الذين قل أن جاوز عددهم ألفاً وخمسمائة ، (٢٣) يجتمعون كل سنة فى كتدرائية القديس بطرس لينتخبوا « مجلساً كبيراً » من مائتى عضو « ومجلساً صغيراً » من خمسة وعشرين عضواً . ويختار المجلسان أربعة مأمورين ، كل منهم لعام واحد ، رؤساء تنفيذيين للدولة . وهناك طبقة ثالثة مجردة من حق الانتخاب . هم « المستوطنون » المنحدرون من آباء أجانب ، وطبقة رابعة هم « الأهالى » المولودون فى جنيف لجنيفيين

غير وطنيين . هؤلاء « الأهالى » الذين ألفوا ثلاثة أرباع السكان لم يكن لهم من الحقوق المدنية غير دفع الضرائب ، فهم لا يستطيعون الاشتغال بالأعمال التجارية أو المهن ولا بوظائف الجيش أو برآسة حرفة فى نقابة . ولقد دار التاريخ السياسى لهذه الجمهورية حول صراع البورجوازيين للحصول على حق شغل وظائف الدولة ، وصراع الطبقتين الدينيتين للحصول على حق التصويت . وفى ١٧٣٧ امتشق مواطنو المدينة الحسام ليقاتلوا طبقة الأشراف ، وأكرهوها على قبول دستور جديد يقضى لجميع الناخبين بالحق فى أن ينتخبوا أعضاء فى المجلس الكبير . ولهذا المجلس حق إصدار القرارات النهائية فى مسائل الحرب والسلم ، والأحلاف والضرائب ، وإن كان التشريع لا يقدم إلا من المجلس الصغير ، أما « الأهالى » فقد سمح لهم بالاشتغال ببعض المهن مع بقائهم محرومين من التصويت . وظلت الحكومة أو ليجاركية ، ولكنها كانت تدار بكفاية ، ومحصنة نسبياً ضد الفساد .

وكان يلى طبقة الأشراف فى النفوذ مجمع القساوسة الكلفينيين . فقد نظم هذا المجمع شئون التعليم ، والأخلاق ، والزواج ، ولم يسمح بأى تدخل فى سلطته من السلطة العلمانية . ولم يكن هنا أساقفة ولا رهبان . وقد أشاد الفيلسوف دالامبير بفضائل الاكليروس الجنيفى ووصف المدينة بأنها أشبه بجزيرة من الأدب والعفة ، رآها النقيض للفوضى الخلقية التى فشت بين فرنسيى الطبقة العليا . أما مدام دبينيه فبعد أن مارست العديد من العلاقات الغرامية ، امتدحت « العادات الصارمة ... لشعب حر ، هو عدو للترف . (٢٤)

ولكن رجال الدين زعموا أن شباب جنيف يفسد فى الكباريهات ، وأن الصلوات العائلية تتقلص ، وأن الناس يثرثرون فى الكنيسة ، وأن بعض المصلين المتواجدين فى المؤخرة يأخذون أنفاساً من «بيباتهم» ليستعينوا بها على ابتلاع العظة . (٢٥) وشكا الوعاظ من عجزهم عن توقيع العقوبات إلا الروحى منها ، ومن إغفال تحذيراتهم وإنذاراتهم إغفالا متزايداً .

وقد أبهج فولتير أن يجد العديد من رجال الدين الجنيفيين متقدمين نوعاً ما فى لاهوتهم . فقد أتوا ليستمتعوا بضيافته فى فيللا المباهج ، واعترفوا له سراً

بأنهم لا يحتفظون من عقيدة كلفن القائمة إلا بالقليل . وقد أشار أحدهم ، وهو جاك فرن ، فى كتابه « التعليم المسيحى » (١٧٥٤) بأن يبنى الدين على العقل حين يخاطب الكبار ، أما « عامة الناس ... فمن المفيد أن تشرح لهم هذه الحقائق ببعض الطرق الشعبية ببراهين تصلح ... لإحداث أثر أكبر فى عقول الجماهير . » (٢٦) وكتب فولتير إلى سيدفيل (١٢ ابريل ١٧٥٦) يقول : « لم تعد جنيف هى جنيف كلفن — بل على العكس ، فهى بلد يحفل بالفلاسفة . و « المسيحية المعقولة » التى نادى منها لوك هى دين كل القساوسة تقريباً ، وعبادة كائن أعلى عبادة مقترنة بنسق أخلاقى ، هى دين كل القضاة تقريباً .(٢٧) وأضاف فولتير إلى تنديده بدور كلفن فى إعدام سرفيتوس العبارة الآتية : فى « مقال عن الأعراف » (١٧٥٦) .

« يبدو أن ترضية تقدم اليوم لرماد سرفيتوس . فإن رعاة الكنائس البروتستنتية المثقفين . قد اعتنقوا آراءه (التوحيدية) . » (٢٨) .

أما دالامبير ، فبعد أن زار جنيف وبيت فولتير (١٧٥٦) ، وبعد أن تحدث إلى بعض القساوسة ، وتبادل الرأى مع فولتير ، كتب للمجلد السابع (١٧٥٧) من الموسوعة مقالا عن جنيف أثنى فيه على تحرر إكليروسها فقال :

« إن العددين منهم لا يؤمنون بلاهوت المسيح الذى كان زعيمهم كلفن شديد الغيرة فى الدفاع عنه والذى أمر بسببه بحرق سرفيتوس .. وجهنم التى هى أحد أركان إيماننا لم تعد كذلك عند الكثيرين من قساوسة جنيف . فهم يقولون أن من الإهانة لله أن نتصور أن هذا الكائن الذى يفيض طيبة وعدلا فى طاقته أن يعاقب أخطاءنا بألوان من العذاب الأبدى ... وهم يعتقدون أن هناك عقوبات فى حياة أخرى . ولكنها مؤقتة . فالمظهر الذى كان من أهم أسباب انفصال البروتستنت عن كنيسة روما . هو اليوم العقاب الوحيد الذى يسلم به كثير منهم للخاطىء بعد موته . وهذه لمسة جديدة تضاف إلى تاريخ تناقضات البشر .

والخلاصة أن الكثير من رعاة جنيف لا يدينون بغير السوسنيانية الخالصة ، ويرفضون كل ما يسمى أسراراً . ويتصورون أن أول مبدأ للدين الحق هو

ألا يطلب إلى الناس الإيمان بشيء يناقض العقل ... وهكذا نرى من الناحية العملية أن الدين اختزل إلى عبادة إله واحد ، على الأقل بين جميع الذين لا ينتمون إلى طبقات العوام . » (٢٩) .

فلما قرأ رجال الدين الجنيفيون هذا المقال انزعجوا كلهم — المحافظون منهم لوجود أمثال هؤلاء المهرطقين على المنابر الكلفنية ، والمتحررون لفضح هرطقاتهم الخاصة على هذا النحو . وقامت لجنة بفحص الرعاة المشبوهين فأنكروا بشدة مزاعم دالامبير ، وأصدرت اللجنة تأكيداً رسمياً جديداً للسنية الكلفنية . (٣٠)

على أن كلفن نفسه كان من بواعث هذه الاستنارة الشائنة التي أطراها دالامبير ، لأن الأكاديمية التي أسسها أصبحت الآن من أروع المؤسسات التعليمية في أوربا . لقد علمت طلابها المذهب الكلفني ، ولكنها لم تغل في تعليمه ، وزودتهم بدراسات ممتازة في الأدب الكلاسيكي ، وأعدت معلمين أكفاء لمدارس جنيف — وتحملت الدولة جميع النفقات . وأعارت مكتبة تضم ٢٥,٠٠٠ مجلد الكتب للجماهير . وقد وجد دالامبير « الشعب أفضل تعليما منه في أي بلد آخر . » (٣١)

وأدهش كوكس أن يسمع تجاراً يناقشون الأدب والسياسة بذكاء . وفي هذا القرن أسهمت جنيف في العلوم بمنجزات شارل بونيه في الفسيولوجيا وعلم النفس ، ومنجزات أوراس دسوسير في الأرصاد الجوية والجيولجيا . أما في الفن فقد أعطت العالم فنانها جان إتين ليوتار ، بكل ما في كلمة العطاء من معنى . ذهب إلى روما بعد أن درس في جنيف وباريس ، فصور هناك البابا كلمنت الثاني عشر وكرادلة كثيرين . ثم إلى الآستانة حيث عاش وعمل خمس سنوات . ثم إلى فيينا ، وباريس ، وانجلتره . وهولنده ، حيث كسب قوته من صنع اللوحات الشخصية . والصور بالباستل ، وبالمينا ، وبالمحفورات والصور على الزجاج . وقد رسم صورة أمينة غاية الأمانة لنفسه في شيخوخته (٣٢) ظهر فيها أقرب من فولتير إلى القردة العليا .

أما فى ميدان الأدب فلم توفق جنيف توفيقاً يذكر . ذلك أن الرقابة اليقظة على المطبوعات خنقت الطموح والأصالة الأدبيين . فحظرت الدراما باعتبارها مباءة للفضائح . وحين أخرج فولتير مسرحيته « زائير » أول مرة فى ١٧٥٥ فى قاعة الاستقبال بفيلا دليس ، تذمر رجال الدين ، ولكنهم تسامحوا فى الجريمة باعتبارها عيباً خاصاً فى ضيف كبير . ولكن حين نظم فولتير فرقة من الممثلين من شباب جنيف ، وعرض سلسلة من التمثيليات ، طالب المجمع الكنسى (٣١ يوليو ١٧٥٢) المجلس الكبير بتطبيق مراسيم ١٧٣٢ و ١٧٣٩ التى تحظر كل عروض للمسرحيات عامة كانت أو خاصة ، وأمر الرعاة بمنع رعاياهم من « تمثيل أدوار فى المآسى ببيت السيد دفولتير . » وأعلن فولتير توبته ، ولكنه أخرج المسرحيات فى بيته الشتوى بلوزان . ولعله هو الذى أوعز لدالامبير بأن يضمن المقال المذكور الذى كتبه عن جنيف نداء لرفع هذا الحظر :

ليس السبب استهجان جنيف للمسرحيات فى ذاتها ، بل لأنها (كما يقولون) تخشى الميل إلى التبرج . والانحلال ، والأباحية التى تنشرها الفرق المسرحية بين الشباب ، ومع ذلك ، أليس فى الإمكان علاج هذه المساوىء بقوانين صارمة مرعية التنفيذ ؟ ... إن الأدب فى هذه الحالة سينهض دون أن يزيد الرذيلة وستجمع جنيف بين حكمة إسبرطة وثقافة أثينا .

ولم يستجب المجمع الكنسى لهذا النداء ، ولكن جان جاك روسو رد عليه (كما سنرى) فى خطابه المشهور « خطاب إلى مسيو دالامبير عن المسرحيات » (١٧٥٨) . وبعد أن اشترى فولتير إقطاعة فيرنيه تخطى الحظر ببناء مسرح فى شاتلين ، على أرض فرنسية ولكن بجوار حدود جنيف . هناك أخرج التمثيليات ، واستقدم لحفلة الافتتاح أكبر ممثلى باريس ، هنرى لوى لوكان . وحظر رعاة جنيف حضور التمثليات ، ولكن الحفلات وجدت إقبالا شديداً من الجماهير حتى أن قاع المسرح كان يغص بالنظارة قبل بدء البرنامج بساعات فى هذه المناسبات ، حين يكون مقرراً أن يظهر لوكان على المسرح . وكسب المقاتل العجوز آخر الأمر معركته ، ففى ١٧٦٦ أنهى المجلس الكبير حظر جنيف للتمثيليات .

٤ - التاريخ الجديد :

وصف شاهد عيان حضر أداء لوكان دوره فى مسرحية فولتير « سميراميس » ظهور المؤلف فى المسرح فقال :

كان فولتير نفسه جزءاً لا يستهان به فى العرض ، وهو جالس فى صدر بنوار أول ، فى مواجهة جميع النظارة ، يصفق كمن به مس ، مبدياً استحسانه تارة بعصاه وتارة بعبارات الإعجاب « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! آه ، رباه ، ماكان أروع تمثيل هذا الجزء ! » ... وبلغ من عجزه عن السيطرة على حماسته أنه ما إن ترك لوكان خشبة المسرح ... حتى جرى خلفه ... ولا يمكن تصور مفارقة أدعى للضحك من هذه ، فقد أشبه فولتير واحداً من شيوخ الكوميديا - بجواربه المطوية على ركبتيه ، والزى الذى يرتديه - زى « أيام زمان الحلوة » وهو لا يتماسك فوق ساقيه المرتعشتين إلا بالتوكؤ على عصاه ، وكل أمارات الشيخوخة مرتسمة على محياه ، فحذاه غائران متغضنان ، وأنفه مستطيل ، وعيناه أوشكتا أن ينطفىء بريقهما » (٣٣) .

وبين المسرحيات والسياسة ، والزوار ، وفلاحة حديقته ، وجد متسعاً من الوقت ليكمل فى فيللته « دليس » عملين كبيرين وينشرهما . وقد ساءت سمعة الأول لما قيل عن خروجه عن اللياقة ، أما الثانى فقد فتح عهداً جديداً فى كتابة التاريخ .

كان يحتفظ بقصيدته « لابوسيل » منذ ١٧٣٠ باعتباها ترفيهاً أدبياً . ويبدو أنه لم يكن فى نيته أن ينشرها ، لأنها لم تكتف بالتهكم بعذراء أورليان (جان دارك) البطلة ، بل هاجمت عقيدة الكنيسة الكاثوليكية ، وجرائمها ، وشعائرها ، وأخبارها . وأضاف الأصدقاء والأعداء إلى مخطوطاتها المتداولة بينهم نتفاً فيها من البذاءة والمرح ماكان حتى فولتير ليكتبه . والآن ، فى ١٧٥٥ ، بعد أن وجد الهدوء والسلام فى جنيف ، ظهرت فى بازل طبعة مسروقة من القصيدة . فحرمها البابا ، وأحرقها برلمان باريس ، وصادرتها شرطة جنيف ، وزج بناشر باريسى فى سفينة الأسرى والعبيد لأنه أعاد إصدارها فى ١٧٥٧ . وقد أنكر فولتير أنه كاتبها ، وأرسل إلى ريشليو ، ومدام بومبادور ، وبعض موظفى الحكومة ، نسخاً من نص مهذب نسبياً ، وفى ١٧٦٢ نشر هذا النص ،

فلم يناكده أحد بسببه . وحاول أن يكفر عن اساءته لجان دارك بتصويرها صورة أكثر انصافاً وجداً فى كتابه « مقال عن الاعراف » (٣٤) .

وقد قصد بهذا المقال أن يكون رائعته الكبرى ، وكان أيضاً — بمعنى من المعانى — أثراً يخلد العشيقة التى استعاد ذكراها . ذلك أنه تقبل الاحتقار الذى صبته مدام دشاتليه على من عرفت من مؤرخين محدثين على أنه تحد له : قالت « ماذا يهمنى ، أنا المرأة الفرنسية التى تسكن ضيعتها هذه أن أعرف أن اجل خلف هاكون على عرش السويد ، وأن عثمان كان ابن أرطغرل ؟ إننى قرأت بلذة تاريخ اليونان والرومان ، ولقد قدموا لى صوراً رائعة اجتذبتنى ، ولكنى لم أستطع إلى الآن أن أكمل قراءة أى تاريخ مطول لأممنا الحديثة . ولا أكاد أرى فى هذه التواريخ شيئاً غير الخلط والتشويش : فهى حشد من الأحداث الصغيرة التى لا ترابط بينها ولا تسلسل ، وألف معركة لم تحسم شيئاً . . لقد زهدت فى دراسة تغرق العقل دون أن تنيره . (٣٥)

ووافقها فولتير على هذا الرأى ، ولكنه كان يعرف أن هذا ليس إلا التاريخ « كما يكتب » . ولقد أسف على مسخ الأهواء الحاضرة للماضى ، فى هذا المعنى « ليس التاريخ إلا مجموعة حيل ندخلها على الموتى (*) (٣٦) ومع ذلك فإن إغفال التاريخ معناه أن تكرر إلى مالا نهاية أخطاءه ، ومذابحه ، وجرائمه . وهنالك ثلاثة مسالك تفضى إلى هذا المنظور الفسيح السمح الذى يسمى الفلسفة : أولها دراسة البشر فى الحياة عن طريق التجربة ، والثانى دراسة الأشياء فى المكان عن طريق العلم ، والثالث دراسة الأحداث فى الزمان عن طريق التاريخ . وحاول فولتير أن يسلك المسلك الثانى بدراسة نيوتن ؛ ثم اتجه الآن إلى الثالث . ومنذ عام ١٧٣٨ وضع هذا المبدأ الجديد « يجب أن يكتب المرء التاريخ مفلسفاً » . (٣٨) وعليه فقد عرض على المركيزة ما يلى :

لو أنك تخيرت من بين هذا القدر الوافر من المادة الغفل التى لم تتشكل ، ما تبنين به صرحاً لاستعمالك الخاص ، ولو أنك رغم اسقاطك كل تفاصيل الحروب ... وكل المفاوضات التافهة التى لم تكن سوى ألوان من الخبث

(*) الظاهر أن فنيلون ، لا فولتير ، هو القائل أن « التاريخ ليس الا خرافة متفقا عليها » . (٣٧) ولكن الاتفاق ليس واضحا .

واللؤم لاغناء فيها ... ولو أنك رغم احتفاظك بتلك التفاصيل التى تصور العادات ، استطعت أن تؤلنى من تلك الفوضى صورة عامة واضحة المعالم ؛ ولو أنك اكتشفت فى الأحداث « تاريخ العقل البشرى » أفتعتقدين عندها أنك ضعيت وقتك هباء ؟ » [٣٩] .

وظل عاكفاً على مشروعه هذا على مراحل متقطعة مدى عشرين عاماً يقرأ بنهم ، ويسجل المراجع ، ويجمع الملاحظات ، حتى إذا جاء عام ١٧٣٩ ، وضع لمدام دشاتليه « مجملا للتاريخ العام » ؛ وفى ١٧٤٥ — ٤٦ طبعت أجزاء منه فى صحيفة « لامركير دفرانس » . وفى ١٧٥٠ أصدر « تاريخ الحروب الصليبية » ؛ وفى ١٧٥٣ ، فى لاهاى ، ظهر « المجمل » فى مجلدين ، وفى ١٧٥٤ فى ثلاثة ، وأخيراً نشر النص الكامل بجنيف فى ١٧٥٦ فى سبعة مجلدات بعنوان « مقال فى التاريخ العام » ، وكان يشمل « عصر لويس الرابع عشر » وبعض فصول تمهيدية عن الحضارات الشرقية . وفى ١٧٦٢ أضاف « خلاصة لعصر لويس الرابع عشر » وثبتت طبعة ١٧٦٩ العنوان النهائى للكتاب كالآتى : « مقال فى أعراف الأمم وروحها منذ شرلمان حتى أيامنا هذه » وكلمة الأعراف moeurs لم تكن تعنى العادات والأخلاق فحسب ، بل التقاليد والأفكار والمعتقدات والقوانين . ولم يغط فولتير دائماً كل هذه المواضيع ، ولا دون تاريخ الثقافة ، أو العلم ، أو الفلسفة ، أو الفن ؛ ولكن كتابه كان فى مجموعه تناولا جزئياً لتاريخ الحضارة من أقدم العصور حتى زمانه . والأجزاء التى عالجت تاريخ المشرق مقدمات موجزة ، أما القصة الأكمل فتبدأ بشرلمان ، حيث توقف كتاب بوسويه « حديث فى التاريخ العالمى » (١٦٧٩) . كتب فولتير يقول « أريد أن أعرف ما هى الخطوات التى انتقل بها البشر من الهمجية إلى المدنية » — وهو يعنى الانتقال من العصور الوسطى إلى الأزمنة الحديثة » . [٤٠]

وقد أثنى على بوسويه لمحاولته كتابة « تاريخ عالمى » . ولكنه اعترض على تصور هذا التاريخ تاريخاً لليهود والمسحيين ، ولليونان والرومان

فى علاقتهم بالمسيحية على الأخص . وهاجم إهمال الأسقف بوسويه للصين والهند ، وفكرته عن العرب ،أنهم مجرد زنادقة همج . وأقر بالجهد الفلسفى الذى بذله سلفه فى البحث عن موضوع موحد أو عملية رابطة فى التاريخ ، ولكنه لم يستطيع موافقته على أن التاريخ يمكن تفسيره تدبيراً تسيره العناية الإلهية ، أو برؤية يد الله فى كل حدث كبير . فلقد رأى التاريخ — بدلا من هذا — المسيرة البطيئة المترددة التى خطا بها الإنسان ، بفضل الأسباب الطبيعية والجهد البشرى ، من الجهل إلى المعرفة ، ومن المعجزات إلى العلم ، ومن الخرافة إلى العقل . ولم يستطيع رؤية أى خطة إلهية فى دوامة الأحداث . وقد جعل من الدين المنظم شخصية « الشرير » فى قصته ، ربما انتقاضاً على بوسويه لأنه بدا له على العموم حليفاً للظلامية ، ميالا إلى الطغيان ، مثيراً للحرب . وهكذا دفع فولتير حرصه على استنكار التعصب والاضطهاد إلى الغلو فى تحميل قصته من جانب ، غلو بوسويه فى تحميلها من الجانب الآخر .

وفى منظوره العالمى الجديد الذى أتاحه له تقدم الجغرافيا بفضل تقارير الرواد ، والمبعوثين الدينيين ، والتجار ، والرحالة ، اتخذت أوربا مكاناً أكثر تواضعاً فى لوحة التاريخ الواسعة . فقد أعجب فولتير بتلك « المجموعة من المشاهدات الفلكية التى تجمعت خلال ألف وتسعمائة سنة متعاقبة فى بابل ، والتى نقلها الاسكندر إلى اليونان »[٤١] وخلص إلى أنه لابد أن دجلة والفرات قد غنيا بحضارة عريضة راقية ؛ لا تظفر عادة بأكثر من جملة أو جملتين فى تواريخ كتاريخ بروسويه . ونأثر أكثر بعراقة الحضارة فى الصين وانتشارها وتفوقها ؛ وذهب إلى أن هذا « يرفع الصينيين فوق كل أمم الأرض » . ومع ذلك فإن هذه الأمة وأمة الهند ، أقدم الدول الحية ... اللتين اخترعتا كل الآداب والفنون تقريباً قبل أن نعرف واحداً منها ، كان نصيبها الإغفال حتى يومنا هذا فى تواريخنا التى نزعم أنها عالمية . »[٤٢] وقد طاب لهذا المقاتل عدو المسيحية أن يجد ويقدم للقراء الكثير من الحضارات العظيمة التى سبقت المسيحية بزمن طويل ، والتى لم يكن لها أى علم بالكتاب المقدس ، ومع ذلك أنجبت الفنانين ، والشعراء ، والحكماء ، والقديسين ،

قبل مولد المسيح بأجيال كثيرة . وقد أبهج عدو السامية المرابى ، الحانق ، أن يختزل كثيراً ذلك الدور الذى قامت به يهوذا فى التاريخ .

على أنه بذل بعض الجهود لينصف المسيحيين . فليس كل البابوات فى صفحاته أشراراً ، ولا كل الرهبان طفيليين . ولم يضن على رجل كالبابا اسكندر الثالث بكلمة طيبة ، فقد « ألغى العبودية الإقطاعية .... ورد حقوق الشعب ، وعاقب لؤم الرءوس المتوجة » . (٤٣) وأعجب بالشجاعة الهائلة « التى اتصف بها بوليوس الثانى ، وعظمـــة آرائه » (٤٤) وتعاطف مع جهود البابوية لإقامة سلطة أخلاقية تكبح حروب الدول ومظالم الملوك . واعترف بأن أساقفة الكنيسة ، بعد سقوط الدول الرومانية الغربية ، كانوا أكفأ الحكام فى ذلك العصر الذى كان يضم أوصاله بعدما أصابها من تفكك. ثم :

« فى تلك العصور الهمجية ، والناس غاية فى البؤس ، كان من التعزيات الكبرى أن يجد المرء فى الديورة ملاذاً آمناً من الظلم والطغيان . (٤٥) .... ولا نكران فى أن الدير كان يضم فضائل عظمى ، فلم يكد يوجد دير لم يحو أفراداً جديرين بالاعجاب يشرفون الطبيعة البشرية . وقد طاب للكثيرين جداً من الكتاب أن ينبشوا عن المفاسد والرذائل التى لوثت أحياناً بيوت التقوى والصلاح هذه » . (٤٦)

ولكن فولتير ، الذى تورط مع الموسوعيين المتحفزين للمعركة فى حرب مع الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، أكد بوجه عام على أخطاء المسيحية فى التاريخ ، وهون من اضطهاد روما للمسيحيين ، وسبق جيبون إلى اعتبار هذا الاضطهاد أقل تكراراً وفتكاً من اضطهاد الكنيسة للمهرطقين . ثم سبق جيبون أيضاً إلى القول بأن الدين الجديد أضعف الدولة الرومانية . وذهب إلى أن القساوسة اغتصبوا السلطان ببث التعاليم السخيفة بين الجهال والسذج ، وباستعمال قوة الطقوس المنومة لإماتة العقل وتقوية هذه الأوهام . ورمى البابوات بأنهم بسطوا نفوذهم وجمعوا الثروات باستعمال وثائق مثل « هبة قسطنطين » التى يسلم الناس عموماً الآن بأنها زائفة وصرح بأن محكمة التفتيش الاسبانية ، ومذبحة الأليجنس المهرطقين ، هما أحط ما وعى التاريخ من أحداث .

وبدت له العصور الوسطى فى العالم المسيحى فاصلا مقفراً بين جوليان ورابليه، ولكنه كان من أول من اعترفوا بدين الفكر الأوربى لعلم العرب وطبهم وفلسفتهم . وأشاد بلويس التاسع مثلا أعلى للملك المسيحى ، ولكنه لم ير نبلا فى شرلمان ، ولا فهماً فى الفلسفة المدرسية (الكلامية) ، ولا عظمة فى الكتدرائيات القوطية التى أنكرها لأنها « خليط غريب من الجلافة والتخريم»

ولم يكن متوقعاً من روحه المطاردة أن تقدر دور العقيدة والكهانة المسيحيتين فى تشكيل الخلق والفضائل وحفظ النظام والسلام فى المجتمعات ، وتشجيع كل الآداب والفنون تقريباً ، وإلهام الموسيقى الرائعة ، وتجميل حياة الفقراء بالمراسم والأعياد والتراتيل والأمل . ولا عجب ، فلقد كان إنساناً يخوض حرباً ، ولا يستطيع إنسان أن يقاتل ما لم يتعلم الكراهية . والغالب وحده هو الذى يستطيع تقدير عدوه حق قدره ؛

أكان مصيباً فى وقائعه ؟ عموماً ، ولكنه ارتكب أخطاء بالطبع ؛ وقد نشر الأبيه نونوت مجلدين بعنوان « أغلاط فولتير » ، وأضاف بعضاً من أغلاطه هو . (٤٧) ولكن روبرتسن ، وهو مؤرخ كبير ، أعجب بدقة فولتير عموماً فى مثل هذا الميدان الشاسع . (٤٨) ولما كان فولتير يغطى هذه المواضع الكثيرة فى هذه الأقطار الكثيرة خلال قرون كثيرة ، فهو لم يدع أنه تقيد بالوثائق الأصلية أو المصادر المعاصرة ، ولكنه استعمل مراجعه الثانوية بتمييز ووزن حكيم للشواهد . ورسم لنفسه قاعدة هى التشكك فى أى شهادة تناقض « الحس المشترك » أو الخبرة العامة للنوع الإنسانى . ولا ريب فى أنه كان معترفاً فى أيامنا هذه بأن غرائب عصر ما قد تقبل فى العصر الذى يليه على أنها أمور عادية ، ولكنه وضع هذا المبدأ الهادى ، وهو « أن عدم التصديق هو الأساس لكل أنواع المعرفة » . (٤٩) وهكذا سبق بارتولد نيبور فى رفضه الفصول الأولى لليڤى لأنها من قبيل الأساطير ، وسخر من قصة رومولوس ، وريموس ، والذئبة التى كانت لهما الأم الرءوم ، وسخف مزاعم ليڤى ، واتهم تاسيتوس بالمبالغات الانتقامية فى وصفه لرذائل طبباريوس ، وكلوديوس ، ونيرون ، وكاليجولا ؛ وارتاب فى هيرودوت وسوتنيوس لأنهما مروجان للشائعات والأقاويل ، وذهب إلى أن فى بلوتارخ من الولع بالنوادر مالا يجعله موضع الثقة الكاملة ، ولكنه قبل تيوسيديدس ، وزينوفون ،

ويوليبيوس ، مؤرخين جديرين بالثقة . وتشكك فى الأخبار التى كتبها الرهبان ، ولكنه أثنى على دوكانج ونللمون « المدقق » ومابيون « العميق » ورفض أن يواصل التقليد القديم ، تقليد الخطب الخيالية ، أو التقليد الحديث ، تقليد « اللوحات » التاريخية . وأنزل مكان الفرد فى المجرى العام للأفكار والأحداث ، وكان الأبطال الوحيدون الذين عبدهم هم أبطال العقل .

وقد ألمع فولتير فى « المقال » وفى غيره إلى فلسفته فى التاريخ دون أن يصوغها . وكتب « فلسفة للتاريخ » وقدم بها لطبعة من « المقال » فى ١٧٦٥ . وكان ينفر من « مذاهب » الفكر ، ومن كل المحاولات لاختزال الكون فى صيغة أو قانون ، ويعرف أن الحقائق أقسمت أن تكون خصماً أبدياً للتعميمات . ولعله أحس أن أى فلسفة للتاريخ ينبغى أن تلى سرد الأحداث وتنبع منه ، لا أن تسبقه وتقرره . على أن استنتاجات عريضة انبعثت من روايته للتاريخ : فالحضارة سبقت « آدم » و « الخليقة » بآلاف السنين ؛ والطبيعة البشرية فى جوهرها واحد فى كل زمان ومكان ، ولكن شتى العادات والتقاليد عدلتها تعديلا منوعاً ، وأن المناخ والحكومة ، والدين ، هى العوامل الأساسية التى تقرر هذه الاختلافات ، وأن دولة العادات والتقاليد أوسع كثيراً من دولة الطبيعة » [٥٠] والاتفاق والمصادفة (فى نطاق السلطان الشامل للقوانين الطبيعية (يلعبان دوراً هاماً فى توليد الأحداث ، والتاريخ لا تصنعه عبقرية الأفراد بقدر ما تصنعه الأفعال الغريزية التى تؤثر بها الجماهير البشرية فى بيئتها ؛ وهكذا تنتج ، جزءاً فجزءاً ، العادات ، والأخلاق ، والاقتصاديات ، والقوانين ، والعلوم ، والفنون والآداب التى تصنع حضارة وتبعث روح العصر . « إن هدفى الرئيسى هو دائماً ملاحظة روح العصر ، لأنه هو الذى يوجه أحداث العالم الكبرى . » [٥١]

والتاريخ فى جملته ، كما رآه فولتير فى « تلخيصه » ، قصة مرة محزنة (كما يكتب عموماً) .

« لقد اجتزت الآن المشهد الضخم للثورات التى عرفها العالم منذ عهد شارلمان ؛ فإلام كان اتجاهها ؟ إلى الخراب ، وخسارة ملايين الأنفس ! فكل حدث كبير كان نكبة كبرى . ولم يحفظ لنا التاريخ وصفاً لعصور السلم

والطمأنينة ؛ فهو لا يروى غير الغارات المدمرة والكوارث ... والتاريخ كله بإيجاز ، ليس إلا سلسلة طويلة من أعمال القسوة العقيمة ... مجموعة من الجرائم ، والحماقات ، والنكبات ، التقينا وسطها بين الحين والحين ببعض الفضائل ، وبعض الأويقات السعيدة ، شأننا حين نرى أحياناً أكواخاً مبعثرة فى صحراء مقفرة ... وبما أن الطبيعة ألقت فى قلب الإنسان الأنانية والكبرياء وجميع الأهواء ، فلا عجب إذن ... أن نلتقى بسلسلة من الجرائم والكوارث لا تكاد تنقطع . » (٥٢)

وهذه صورة مقبضة جداً وكأن صاحبها رسمها فيما بين أيامه النكدة فى برلين ، أو وسط ضروب الإهانة والقهر التى لقيها فى فرنكفورت . ولعل الصورة كانت تصبح أكثر إشراقاً لو أن فولتير أنفق صفحات أكثر على رواية تاريخ الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والفن . أما والصورة قاتمة إلى هذا الحد ، فإنا نتساءل : ما باله قد جشم نفسه كل هذه المشقة ليرسمها بهذا الاسهاب الشديد ؟ ولعله كان يجيب : لكى يصدم القارىء حتى يتنبه ضميره وفكره ، ويهز الحكومات حتى تعيد صياغة التعليم والتشريع لتكون ناساً أفضل . صحيح أننا لا نستطيع أن نغير الطبيعة البشرية ، ولكننا نستطيع أن نعدل تصرفاتها بتقاليد وعادات أصح وشرائع أحكم . وإذا كانت الأفكار قد غيرت العالم ، فلم لا تصنع الأفكار الأفضل عالماً أفضل ؟ وهكذا خفف فولتير فى النهاية من تشاؤمه بالأمل فى نشر التعقل عاملا صابراً من عوامل النهوض بالبشر .

وسرعان ما نقد الناقدون ما فى « مقال الأعراف » ؛ من عيوب . فلم يقتصر الأمر على نونوت ، بل إن لارشير ، وجينيه ، وكثيرين غيرهم نددوا بأخطاء الحقائق التى وردت فيه ، ولم يعسر على اليسوعيين كشف التحامل الذى شوهه . واتفق معهم مونتسكيو فى هذه الناحية فقال « إن فولتير يشبه الرهبان الذين لا يكتبون من أجل الموضوع الذى يعالجونه . بل لمجد طائفتهم ؛ إنه يكتب من أجل ديره . » (٥٣) ورد فولتير على نقاده بأنه أكد على أخطاء المسيحية لأن غيره ما زالوا يدافعون عنها ؛ ثم استشهد

بأقوال مؤلفين معاصرين امتدحوا الحروب التى شنت على الالبيجنس ، وإعدام هس ، بل مذبحة القديس برتلميو ، فالعالم يحتاج ولا ريب إلى تاريخ يدمغ هذه الأفعال بالأجرام ضد الإنسانية والفضيلة . (٥٤) — وربما أخطأ فولتير فى فهم وظيفة المؤرخ رغم كل فكرته المنيرة عن الكيفية التى ينبغى أن يكتب بها التاريخ ، فلقد جلس فى مجلس القضاء يحاكم كل شخص وكل حادث ، ويصدر الأحكام كأنه « لجنة أمن عام » التزمت بحماية الثورة الفكرية ودفعها قدماً . وقد حكم على الناس لا بلغة زمانهم الفاسد ومعرفتهم المحدودة ، بل فى ضوء المعرفة الأوسع التى توافرت منذ أن ماتوا . وقد ألف فولتير « المقال » فى أوقات متفرقة على مدى عشرين عاماً ، وسط الكثير من المغامرات والشدائد التى شتتت انتباهه ، لذلك افتقر هذا الكتاب إلى اتصال الرواية ووحدة الشكل ، ولم يدمج أجزاءه تماماً فى كل متماسك .

ولكن محاسن الكتاب لا تحصى . فرقعة معرفته هائلة ، وهى شهادة على ما بذله فيه مؤلفه من البحث الجاد المثابر . وأسلوبه المشرق ، الذى أثقلته الفلسفة وخففته الفكاهة ، رفعه إلى مرتبة دونها مرتبة أكثر كتب التاريخ فيما بين كاسيتوس وجيبون . وقد لطفت روحه العامة من تحيزه ، وما زال الكتاب ينبض بمحبة الحرية ، والتسامح . والعدالة ، والعقل . فى هذا أيضاً .أصبحت كتابة التاريخ فناً ، بعد الكثير جداً من كتب الأخبار التى اتسمت بالغفلة وافتقرت إلى الحياة . وفى جيل واحد أحال ثلاثة كتب تاريخ أخر أحداث الماضى أدباً وفلسفة : « تاريخ انجلتره » لهيوم ، و « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » لروبرتسن ، و « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » لجيبون — وكلها مدينة لروح فولتير ، ومن بعض الوجوه للمثال الذى ضربه . وقد نوه ميشليه بالكتاب فقال فى عرفان بالجميل أنه . « التاريخ » الذى صنع فن كتابة التاريخ كله ، والذى أنجبنا كلنا ، نقاداً ورواة على السواء . (٥٥) وليت شعرى ما الذى نفعله نحن هنا إلا السير على درب فولتير ؟

عندما وضعت حرب السنين السبع فرنسا فى صف أعداء فردريك ، انبعث حب فولتير الكامن لوطنه من جديد ، ربما ممزوجاً بذكريات قديمة

لفرانكفورت وارتياب جديد فى جنيف . فبعد مقال دالامبير ، وتراجع إكليروس جينف عن الآراء الجريئة التى ربطهم بها المقال ، أحس فولتير بأن الخطر عليه فى سويسرة لا يقل عنه فى فرنسا . فمتى يستطيع العودة إلى وطنه ؟

وحالفه الحظ هذه المرة . ذلك أن الدوق دشوازيل الذى أمتعته قراءة كتب هذا الطريد المنفى عن بلده تقلد وزارة الخارجية فى ١٧٥٨ ، وبلغت مدام دبومبادور ذروة نفوذها رغم اضمحلال جسدها ، وكانت قد عفت عن حماقات فولتير ؛ واستطاعت الحكومة الفرنسية الآن ، والملك يلهو وسط حريمه ، أن تغضى عن عودة الزنديق الرهيب إلى فرنسا . ففى أكتوبر ١٧٥٨ ، انتقل ثلاثة أميال ونصفاً خارج سويسرة ، وأصبح سيد فيرنيه . وكان فى الرابعة والستين ، لم يزل قريباً من الموت كما قال من قبل ، ولكنه اختصم أقوى دوله فى أوربا فى أخطر صراعات القرن .

* * *

الكتاب الرابع

تقدم العلم ١٧٥١ – ٧٩

الفصل الخامس عشر

الأدباء

١ – البيئة الفكرية :

تعطل نمو المعرفة نتيجة للجمود ، والخرافة ، والاضطهاد ، والرقابة ، وهيمنة الكنيسة على التعليم . حقيقة أن هذه المعوقات ضعفت عن ذى قبل ، ولكنها ظلت أقوى كثيراً منها فى حضارة صناعية يضطر فيها الناس ، بسبب تنافس الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، إلى البحث عن أفكار وأساليب جديدة ، عن وسائط جديدة لغايات قديمة . وكان أكثر الناس فى القرن الثامن عشر يتحركون فى بيئة بطيئة التغير ، تكفى الاستجابات والأفكار التقليدية عادة لسد حاجات الحياة فيها . فإذا لم تسمح المواقف والأحداث الجديدة بالتفسيرات الطبيعية دون عناء ، عزتها عقول العوام لأسباب خارقة ، ثم أخلدت إلى الراحة .

وبقيت مئات الخرفات جنباً إلى جنب مع الاستنارة المطردة . مثال ذلك أن نساء الطبقة العليا كن يرتعدن إذا كانت طوالعهن نحوسا ، أو يؤمن بأن فى الإمكان إحياء طفل غريق إذا أضاءت امرأة فقيرة شمعة وعومتها فى فنجان لتشعل النار فى كوبرى على السين . وقد وعدت أميرة كونتى الأبيه لورو بحاشية فخمة إذا عثر لها على حجر الفلاسفة . واحتفظت جولى دلبسيناس بإيمانها بالأيام السعيدة والمشئومة رغم أنها عاشرت العالم الشاك دالامبير عدة سنين .

وكان قارئوا البخت يعيشون على صيت شفافيتهم ؛ من ذلك أن مدام دبومبادور ، والابيه دبيرنيس ، والدوق دشوازيل كانوا يستشيرون خفية مدام بونتان ، التى تقرأ لهم البخت فى تفل القهوة . [١] ويقول مونتسكيو أن باريس كانت تعج بالسحرة وغيرهم من الدجالين الذين يكفلون للناس التوفيق فى دنياهم أو التمتع بشباب دائم . وقد أقنع الكونت سان جرمان لويس الخامس عشر أن فى الإمكان إصلاح ماليات فرنسا التى فسدت بوسائل خفية لصنع الماس والذهب [٢] وكان الدوق دريشليو يتسلى بالسحر والشعوذة — مستعيناً بالشيطان . أما أمير انهالت دساو العجوز ، الذى كسب معارك كثيرة لبروسيا ، وكفر بالله ، فكان إذا التقى بثلاث عجائز فى طريقه إلى الصيد قفل إلى بيته ، لأن « اليوم نحس » . [٣] وكان آلاف الناس يحملون التمائم أو الطلاسم اتقاء الشرور . واستعملت مئات الوصفات السحرية علاجات طبية شعبية . واعتقد الناس أن فى قدرة المخلفات الدينية أن تشفى كل العلل تقريباً ، وكانوا يجدون مخلفات المسيح أو ذخائر القديسين فى أى مكان — فقطعة من ثوبه فى تريبيه ، وعباءته فى تورين ولاون ، ومسمار من مسامير الصليب الحقيقى فى دير سان — دنيس . وقد تدعمت قضية المطالبين الاستيواريين بالعرش فى انجلترة بفضل فكرة آمن بها أكثر الناس ، وهى أن فى استطاعتهم شفاء الداء الخنازيرى بلمسة منهم — وهى قوة حرم منها الملوك الهانوفريون لأنهم « غاصبون » لم يتباركو بحق الملوك الإلهى . وكان أكثر الفلاحين على يقين من أنهم سمعوا العفاريت أو الجنيات فى الغابات . ومع أن الاعتقاد بوجود العفاريت كان فى اضمحلال ، فإن دوم أوجستن كالميه ، البندكتى المثقف ، كتب تاريخاً لمصاصى الدماء Vampires — وهى جثث تترك قبورها فى الليل لتمتص دم الأحياء ؛ وقد نشر هذا الكتاب بموافقة السوربون . [٤]

واختفت فى هذا القرن شر الخرافات قاطبة ، وهى الإيمان بالسحر ، اللهم إلا بعض بقاياه المحلية . ففى ١٧٣٦ اتخذ « أحبار الكنائس المشيخية المتحدة » الاسكتلندية قراراً يؤكد من جديد إيمانهم بالسحر ، [٥] وفى ١٧٦٥ (وهو تاريخ متأخر) كتب أشهر الفقهاء الإنجليز ، السر وليم

بلاكستون فى « تعليقاته » يقول : « إن إنكار إمكان السحر والعرفة ، لا بل وجودهما الفعلى ، إنما هو تكذيب صريح لكلمة الله ، فالشىء وذاته حقيقة شهدتها كل أمة فى العالم بدورها » . ولكن القانون الإنجليزى الذى جعل من السحر جناية كبرى ألغى فى ١٧٣٦ رغم بلاكستون والكتاب المقدس . ولم يرد ذكر لأى حكم بالاعدام عقاباً على تهمة السحر لا فى فرنسا بعد ١٧١٨ ، ولا فى اسكتلندة بعد ١٧٢٢ ؛ وحكم الإعدام الذى نفذ فى سويسرة عام ١٧٨٢ هو آخر ما ورد ذكره من أحكام إعدام فى القارة الأوربية . (٦) وكان لازدياد الثروة ، وتكاثر المدن ، وانتشار التعليم ، وتجارب العلماء ، ونداءات الأدباء والفلاسفة — كان لهذا كله أثره فى الحد شيئاً فشيئاً من دور الشياطين والعفاريت فى حياة الناس وتفكيرهم ، ورفض القضاة الاستماع إلى تهم العرافة ، متحدين فى ذلك التعصب الجماهيرى . وبدأت أوربا تنسى أنها ضحت بمائة ألف رجل ، وامرأة ، وفتاة ، على مذبح خرافة واحدة فقط من خرافاتها الكثيرة . (٧)

وظل اضطهاد الكنيسة والدولة ، والكاثوليك والبروتستنت ، للمنشقين والخوارج يرهب الناس بأهواله ليحجب عن عقولهم أى أفكار قد تمس المعتقدات الراسخة أو تزعج السلطات المقررة . وقد زعمت الكنيسة الكاثوليكية أن مؤسسها هو ابن الله ، فهى إذن مستودع الحق الإلهى ، والمفسر الشرعى الوحيد له ، ولها إذن حق قمع الهرطقة . وقد انتهت إلى أنه لا خلاص لإنسان من الهلاك الأبدى خارج الكنيسة . ألم يقل المسيح « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » ؟ (٨) ومن ثم فإن مجمع اللاتران المسكونى الرابع ، المنعقد فى ١٢١٥ ، جعل النص الآتى جزءاً من العقيدة النهائية التى يلزم بها كل كاثوليكى « هناك كنيسة جامعة واحدة للمؤمنين ، لا خلاص خارجها لأحد على الإطلاق » (*)

(*) أكد البابا بيوس التاسع هذه العقيدة من جديد فى منشوره الذى أصدره فى ١٠ أغسطس ١٨٦٣ ، « أن العقيدة الكاثوليكية معروفة جيدا ، وهى أنه لا يستطيع أحد أن يخلص بعيدا عن الكنيسة الكاثوليكية (الموسوعة الكاثوليكية ، ٣ — ٧٥٣ ب) .=

وقد قبل لويس الخامس عشر هذه العقيدة باعتبارها منطقياً مستقاة من نصوص الكتاب المقدس ، نافعة فى تشكيل عقل قومى موحد . وفى ١٧٣٢ كانت ممارسة العبادة البروتستنتية علانية فى فرنسا محرمة ، وإلا كان التعذيب ، أو التشغيل فى مراكب الأسرى ، أو الموت ، عقاباً للمخالفين . (٩) على أن الأهالى الكاثوليك كانوا أكثر تسامحاً من قادتهم ، فأنكروا هذه العقوبات الوحشية ، واشتد التراخى فى تطبيق المرسوم حتى جرؤ هيجونوت فرنسا فى ١٧٤٤ على عقد مجمع قومى لهم على أن السوربون ، كلية اللاهوت فى جامعة باريس ، أكدت من جديد فى ١٧٦٧ الدعوى القديمة ، « أن الملك تلقى السيف الزمنى ليقمع به مذاهب كالمادية ، والإلحاد ، والربوبية ، تمزق روابط المجتمع وتحرض على الجريمة ؛ وليسحق أيضاً كل تعليم يهدد بزعزعة أسس الإيمان الكاثوليكى . » (١٠) وقد طبقت هذه السياسة بصرامة فى أسبانيا والبرتغال ؛ وفى إيطاليا طبقت تطبيقاً أكثر ليناً ، وفى روسيا اشترطت الكنيسة الأرثوذكسية إجماعاً مماثلا .

ووافق الكثير من الدول البروتستنتية الكاثوليك على ضرورة الاضطهاد . ففى الدنمرك والسويد طالبت القوانين بالتزام المذهب اللوثرى . ولكن غير اللوثريين من البروتستنت ، بل الكاثوليك أيضاً ، كانوا من الناحية العلمية فى مأمن من الاضطهاد ، وإن ظلوا محرومين من حق شغل مناصب الدولة . وفى سويسره كانت كل مقاطعة حرة فى اختيار مذهبها وفرضه على أهلها . وفى ألمانيا كانت القاعدة التى تقضى بأن يتبع الناس دين أميرهم تغفل باطراد .

= ومن الانصاف أن نضيف أن اللاهوت الكاثوليكى الحديث يخفف من غلواء هذه العقيدة ، أن يقرر أن العقيدة ... التى تلخصها عبارة « لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية . . . لاتعنى أنه لاخلاص الا للذين فى شركة منظورة مع الكنيسة . فقد علمت الكنيسة الكاثوليكية دائما أنه لا شىء يلزم للتبرير غير فعل المحبة الكاملة والتوبة . وكل من تصدر عنه هذه الأفعال بدافع النعمة الحقيقية ، ينال على الفور عطية النعمة التى تقدسه ، ويحسب فى عداد أبناء الله . فإذا مات فى هذه الأوضاع والنوازع فسوف يدخل الجنة بالتأكيد » . . . .

(النص السابق ٧٥٢) ب .

وفى الأقاليم المتحدة رفض رجال الدين البروتستنت التسامح باعتباره محرضاً على اللامبالاة الدينية ، ولكن العلمانيين رفضوا الاقتداء برجال الدين فى هذا الأمر ، فأصبحت هولندة بفضل تحريرها النسبى من الاضطهاد ملاذاً للأفكار والمطبوعات غير التقليدية . وفى انجلتره سمحت القوانين بالانشقاق الدينى ، ولكنها تعقبت المنشقين بالقيود الاجتماعية والسياسية . وقد صرح صموئيل جونسن فى ١٧٦٣ بأن « التعليم الباطل ينبغى قمعه بمجرد ظهوره ؛ وينبغى أن تتكاتف السلطة المدنية مع الكنيسة فى عقاب من يجرؤن على مهاجمة الدين المقرر . » (١١) وأحرقت الحكومة الانجليزية بين الحين والحين الكتب ، أو وضعت فى المشهرة مؤلفيها الذين تشككوا فى أسس الإيمان المسيحى ؛ مثال ذلك أن وولستن غرم وحبس فى ١٧٣٠ ، وفى ١٧٦٢ حكم على بيتر آرنت بوضعه فى المشهرة ، ثم بالسجن سنة مع الأشغال الشاقة ، بسبب تهجمه على المسيحية . وكانت القوانين التى شرعت ضد الكاثوليك تطبق فى انجلتره تطبيقاً غير دقيق ، ولكنها نفذت بصرامة فى ارلنده ، إلى أن رفض اللورد تشسترفيلد تطبيقها حين تولى حكم الإقليم فى ١٧٤٥ ؛ وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ألغى بعض اللوائح الصارمة . ويمكن القول بصفة عامة أن نظرية الاضطهاد كان يؤمن بها رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت حتى سنة ١٧٨٩ ، إلا حيث كان الكاثوليك أو البروتستنت أقلية ، ولكن ممارسة الاضطهاد تضاءلت بظهور رأى عام جديد مع تطور الارتياب الدينى . وانتقلت غريزة الاضطهاد من الدين إلى السياسة بحلول الدولة محل الكنيسة حارساً على الإجماع والنظام وهدفاً للانشقاق المبتدع .

أما الرقابة على الكلام والمطبوعات فكانت فى الدول البروتستنتية بصفة عامة منها فى الدول الكاثوليكية ، وكانت أهون ما تكون فى هولندة وانجلتره . وكانت صارمة فى أكثر المقاطعات السويسرية . وقد أحرق آباء المدينة فى جنيف بعض الكتب الخارجة على السنة ، ولكن ندر أن اتخذوا إجراء ضد مؤلفيها . وفى ألمانيا تعطلت الرقابة لتعدد الولايات التى كان لكل منها عقيدته الرسمية الخاصة ؛ وكان فى استطاعة الكاتب أن ينتقل عبر الحدود

من بيئة معادية إلى بيئة صديقة أو محايدة . وفى بروسيا ألغى فردريك الأكبر الرقابة عملياً ، ولكن خلفه أعادها فى ١٧٨٦ . أما الدنمرك فإنها احتفظت بالرقابة على الكتب حتى عام ١٧٤٩ باستثناء فاصل قصير فى عهد شتروينزى. وأما السويد فقد حظرت نشر المواد التى انتقدت اللوثرية أو الحكومة ، وفى ١٧٦٤ أصدرت جامعة أوبسالا قائمة بالكتب المحرمة ؛ ولكن فى ١٧٦٦ قررت السويد الحرية الكاملة للمطبوعات .

كانت الرقابة فى فرنسا قد اتسعت من سابقة إلى سابقة منذ عهد فرنسوا الأول ، ثم جددت بمرسوم صدر فى ١٧٢٣ ينص على « ألا يطبع ناشرون أو غيرهم ، أو يعيدوا طبع ، أى كتب فى أى مكان فى المملكة ، دون الحصول سلفاً على إذن بخطابات مختومة بالخاتم الكبير » . وكان هناك ستة وسبعون رقيباً رسمياً فى ١٧٤١ ، يطلب إلى الرقيب منهم قبل أن يمنح الكتاب « إذن الملك وامتيازه » أن يشهد بأن الكتاب لا يحوى شيئاً ضد الدين ، أو النظام العام ، أو الخلق القويم . ويجوز لبرلمان باريس أو السوربون أن يشجبا الكتاب حتى بعد نشره بإذن الطبع الملكى . وفى النصف النصف الأول من القرن الثامن عشر لم تطبق الرقابة الملكية إلا تطبيقاً هيناً ، فظهرت آلاف الكتب دون إذن ودون أن يمسها سوء ، وفى كثير من الحالات لا سيما حين تولى مالزيرب رئاسة الرقابة (١٧٥٠ — ٦٣) كان المؤلف يحصل على « إذن ضمنى » — وهو تعهد غير رسمى بأن الكتاب المراد نشره يصرح بطبعه دون خوف من محاكمة . فإذا صدر كتاب لم تصرح الحكومة بنشره جاز أن يحرقه جلاد الدولة بينما يظل المؤلف حراً طليقاً ، فإذا زج به فى الباستيل لم يسجن غير سجن قصير كريم . (١٢)

على أن هذه الحقبة من التسامح النسبى انتهت بمحاولة داميان اغتيال لويس الخامس عشر (٥ يناير ١٧٥٧) . ففى أبريل قضى مرسوم وحشى بالموت على « جميع من يدانون بكتابة أو طبع أى مؤلفات قصد بها التهجم على الدين أو العدوان على السلطة الملكية أو تكدير نظام المملكة وهدوئها .» وفى ١٧٦٤ حرم مرسوم آخر نشر الكتب التى تتناول مالية الدولة . وأخضعت الكتب ، والنشرات ، وحتى مقدمات المسرحيات ، لأكثر ضروب الفحص

والإشراف تفصيلا . وفرضت أحكام تتفاوت بين الوضع فى المشهرة والجلد ، وبين التشغيل تسع سنين فى سفن الأسرى والعبيد عقاباً على شراء أو بيع نسخ من قصيدة فولتير « لابوسيل » أو « قاموسه الفلسفى » . وفى ١٧٦٢ كتب دالامبير إلى فولتير يقول : « إنك لا تتصور مبلغ الهياج الذى بلغته محكمة التفتيش (فى فرنسا) . فإن مفتشى الفكر ... يحذفون من جميع الكتب ألفاظاً مثل « الخرافة » و « التسامح » و « الاضطهاد » . [١٣]

واشتدت الكراهية فى طرفى الصراع بين الدين والفلسفة ؛ وما بدأ حملة على الخرافة تصاعد حتى أصبح حرباً على المسيحية . وقد نشبت الثورة فى فرنسا ، لا فى انجلتره القرن الثامن عشر ، من بعض الوجوه لأن رقابة الدولة أو الكنيسة ، التى كانت معتدلة فى انجلتره ، اشتدت فى فرنسا إلى حد استحال معه على العقل الحبيس أن ينطلق إلا بتحطيم أغلاله تحطيما عنيفاً .

واحتج « الفلاسفة » (وهو اصطلاح يراد به الفلاسفة الفرنسيون الذين شاركوا فى الهجوم على المسيحية) على الرقابة لأنها تحكم على الفكر الفرنسى بالعقم . ولكنهم هم أنفسهم كانوا أحياناً يطلبون إلى الرقيب أن يكبح جماح خصومهم . مثال ذلك أن دالامبير رجا مالزيرب أن يصادر مجلة فريرون المسماة « عدو الفيلسوف » ، و « العام الأدبى » . ولكن مالزيرب أبى رغم ميله للفلاسفة . [١٤] وطلب فولتير إلى الملكة أن تحظر تمثيل تقليد ساخر لمسرحيته « سميراميس » ، فلم تشأ حظرها ، ولكن بومبادور حظرتها . [١٥]

واحتال الفلاسفة أثناء ذلك بشتى الطرق لتفادى الرقابة فأرسلوا مخطوطاتهم إلى الناشرين الأجانب ، عادة إلى أمستردام ، أو لاهاى ، أو جنيف ؛ ومن هناك كانت كتبهم بالفرنسية تستورد بالجملة إلى فرنسا ، فتصل كل يوم تقريباً بالمراكب إلى بوردو أو غيرها من الموانى على الساحل أو الحدود الفرنسية . وكان الباعة يطوفون بها من شارع إلى شارع ، ومن بلد إلى بلد ، مستخفية وراء عناوين بريئة . وسمح بعض النبلاء الذين لم يكونوا شديدى الإخلاص للحكومة الممركزة ببيع هذه الكتب فى أرضهم . [١٦] ونجت رسائل فولتير ، التى وحدت الحملة الفلسفية من كثير من الرقابة لأن صديقه داميلافيل شغل حيناً منصباً فى إدارة المالية ، فاستطاع أن يصدق بختم الرقيب العام على رسائل فولتير وشركائه وطرودهم . [١٧] وقرأ

الكثير من موظفى الحكومة ، وبعض رجال الدين ، بلذة تلك الكتب التى شجبتها الحكومة أو الأكليروس . وندر أن وضع مؤلفو الكتب الفرنسيون المنشورة خارج فرنسا أسماءهم على الغلاف ، فإذا اتهموا بتأليفها كذبوا بضمير جرىء ، وكان هذا جزءاً من اللعبة باركته قوانين الحرب . ولم يكتف فولتير بانكار تأليف العديد من كتبه ، به أنه أحياناً نسب تأليفها إلى الموتى . وضلل الرقيب بنشره مقالات ينقد فيها كتبه أويندد بها . واشتملت اللعبة على حيل فى الصياغة أو التعبير أعانت على تشكيل ما فى النثر الفرنسى من رقة ورهافة فى توورياته ، وحواراته ، ورمزياته ، وقصصه ، ومفارقاته ، ومبالغاته الشفافة ، وفى ما يتسم به فى مجموعه من ذكاء وظرف بلغا مبلغاً لم يضارعه فيها أدب قط . وقد عرف الأبيه جاليانى البلاغة بأنها فن قول الشىء دون أن يزج بقائله فى الباستيل .

وثمت عقبة أخرى فى طريق التفكير الحر لم تفقها غير عقبة الرقابة ، وهى هيمنة رجال الدين على التعليم . فقد كان القساوسة المحليون فى فرنسا يعلمون أو يشرفون على التعليم فى مدارس الابرشيات . وكان التعليم الثانوى فى قبضة اليسوعيين معلمين للغات والآداب الكلاسيكية ، ولكنهم كانوا أقل عوناً فى ميدان العلوم . وقد شحذ التعليم اليسوعى أذهان عدد كبير من « الفلاسفة » . وكانت جامعة باريس تخضع لقساوسة أشد محافظة من اليسوعيين أما جامعة أورليان المشهورة بالقانون ، وجامعة مونبلييه المشهورة بالطب ، فكانتا علمانيتين نسبياً . ومما له دلالة أنه لا مونتسكيو ، ولا فولتير ، ولا ديدورو ، ولا مويبرتوى ، ولاهلفيتيوس ، ولا بوفون ، درسوا فى جامعة فقد ازدهر العقل الفرنسى المناضل للتحرر من سلطان اللاهوتيين ، لا فى الجامعات ، بل فى الأكاديميات والصالونات .

وكانت الأكاديميات العلمية قد ظهرت فى هذا القرن فى برلين (١٧٠١) وأوبسالا (١٧١٠) وسانت بطرسبورج (١٧٢٤) وكوبنهاجن (١٧٤٣) . وفى ١٧٣٩ ألف لينيوس وخمسة أدباء سويديين آخرين « الكوليجيوم كوريوزم » ، وفى ١٧٤١ تأسست من هذه الهيئة أكاديمية «كونجليجا زفنسكا فيتنسكابس » ، التى أصبحت الأكاديمية الملكية السويدية . وكان فى فرنسا

أكاديميات اقليمية فى أورليان ، وبوردو ، وتولوز ، وأوجزير ، ومتز ، وبيزانسون ، وديجون ، ولبون ، وكان ، وروان ، ومونتوبان ، وأنجير ، ونانسى ، وأكس — أن — بروفانس . وتجنبت الأكاديميات الهرطقة ، ولكنها شجعت العلم والتجربة ، وتسامحت فى النقاش وشجعته ، ومسابقات الجوائز التى قدمتها أكاديمية ديجون فى ١٧٤٩ و ١٧٥٤ هى التى أطلقت روسو على الدرب إلى الثورة الفرنسية . وفى باريس أيقظ انتخاب دوكلو (١٧٤٦) ودالامبير (١٧٥٤) أكاديمية الخالدين المحتضرين الفرنسية من غفواتها الدجماطيقية ؛ وكان ارتقاء دوكلو إلى منصب استراتيجى فى الأكاديمية ، هو منصب « السكرتير الدائم »(١٧٥٥)إيذاناً بسيطرة الفلاسفة على الأكاديمية .

وأضافت المجلات العلمية مزيداً من الحفز للحركة الفكرية . وكان من خيرة هذه المجلات « مذكرات للانتفاع بها فى تاريخ العلوم والفنون الجميلة » التى رأس تحريرها اليسوعيون من ١٧٠١ إلى ١٧٦٢ ، وتعرف بمجلة « تريفو » نسبة إلى دار النشر فى تريفو ، قرب ليون ، وكانت أكثر المطبوعات الدينية تفقهاً وتحرراً . وكان فى باريس وحدها ثلاث وسبعون مجلة وعلى رأسها « المركيز دفرانس » و « مجلة العلماء » . ورأس اثنان من أقوى خصوم فولتير وأشدهم لدداً تحرير مجلتين واسعتى النفوذ : فأسس ديفونتين «أخبار الأدب» فى ١٧٢١ ، ونشر فريرون « العام الأدبى » من ١٧٥٤ إلى ١٧٧٤ . ونسجت ألمانيا على هذا المنوال ، فأصدرت « رسائل فى الأدب الجديد » التى كان ليسنج وموسى مندلسون من بين من زودوها بمقالاتهم الكثيرة . وفى إيطاليا تناولت « مجلة الأدباء » المواضيع العلمية والأدبية والفنية ، أما مجلة « كافيه » فكانت صحيفة رأى على طريقة « الاســبكتاتور الانجليزية » وفى السويد جعل أولوف فون دالين من صحيفة « سفنسكا آرجوس » رسولا للتنوير : ولما كانت كل هذه الدوريات تقريباً تستعمل اللغات القومية ولا تخضع لإشراف كنسى ، فقد كانت بمثابة خميرة طالعة فى حركة عصرها المضطربة :

ومن سمات القرن الثامن عشر ، كما أنه من سمات عصرنا الحاضر ، ذلك التشوف المنتشر إلى المعرفة — وهو بالضبط تلك الشهوة الفكرية التى أنكرتها العصور الوسطى باعتبارها خطيئة الغرور الأحمق . وقد استجاب الكتاب بحماسة ليجعلوا المعرفة أوسع منالا وفهماً . فكثرت « الخلاصات » ، وحاولت كتب مثل « الرياضة الميسرة » و « آراء بيل الأساسية » و « عقل مونتينى » و عقل فونتيل » أن تضع العلم ، والأدب ، والفلسفة فى متناول جميع الناس ، وازداد باطراد عدد الأساتذة الذين يحاضرون باللغات الوطنية ، ووصلت بذلك محاضراتهم إلى جماهير لا قبل لها بتعلم اللاتينية . وأخذت المكتبات والمتاحف تتسع وتفتح كنوزها للطلاب . فنى ١٧٥٣ أوصى السير هانز سلون للأمة البريطانية بمجموعته البالغة خمسين ألف كتاب ، وعدة آلاف من المخطوطات ، وعدداً كبيراً من الصور ، والعملات ، والتحف الأثرية . وقرر البرلمان تعويض ورثته بعشرين ألف جنيه ، وأصبحت المجموعة نواة للمتحف البريطنى ، وأضيف إليها مجموعتا مخطوطات هارلى وكوطن ، والمكتبات التى جمعها ملوك انجلتره ؛ وفى ١٧٥٩ فتح المتحف العظيم للجمهور . وكان يقتنى فى ١٩٢٨ نحو ٣,٢٠٠,٠٠٠ مجلد مطبوع و ٥٦,٠٠٠ مخطوط ، تملأ أرففه البالغ طولها خمسة وخمسين ميلا .

وأخيراً ظهرت الموسوعات لتجمع ، وترتب ، وتوصل للقراء ذخائر العلم الجديدة لكل قادر على القراءة والتفكير . وقد عرفت العصور الوسطى موسوعات كتلك التى وضعها ايزيدور أسقف إشبيلية (حوالى ٦٠٠ — ٦٢٦) ، وفانسان البوڤى (حوالى ١١٩٠ — ١٢٦٤) ؛ وفى القرن السابع عشر كان هناك موسوعة يوهان هنريش آلستيد (١٦٣٠) و « القاموس التاريخى الكبير » لمورتيرى (١٦٧٤) . وكان « القاموس التاريخى النقدى » لبيل (١٦٩٧) أقرب إلى تجميع لحقائق مقلقة ، ونظريات موحية ، منه إلى الموسوعة ، ولكن تأثيره على فكر أوربا المثقفة فاق تأثير أى مؤلف مماثل آخر قبل مؤلف ديدور . وفى لندن نشر أفرايم تشيمبرز عام ١٧٢٨ ، فى مجلدين « موسوعة أو قاموساً عاماً للآداب والعلوم » ، وقد أسقط منه التاريخ ، والتراجم ، والجغرافيا ، ولكنه بفضل نظام الأحالات أو الإسنادات

الترافقية الذى ابتكره ، وبغير ذلك من الوسائل ، فتح الطريق الذى سلكته « موسوعة » ديدرو ودالامبير الخطيرة (١٧٥١ وما بعدها) . وفى ١٧٧١ ظهرت فى ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى من « الموسوعة البريطانية » ، أو قاموس الآداب والعلوم — من وضع بعض السادة فى اسكتلندة ، ومطبوعة فى أدنبرة وبلغت طبعة ثانية منها (١٧٧٨) عشرة مجلدات ، وتقدمت على سابقتها باحتوائها التاريخ والتراجم . وهكذا اطرد نموها من طبعة لأخرى خلال مائتى عام . وما أكثر الذين تزودوا منا من هذا المحصول ، وسطوا على تلك الذخيرة ، غير مرة كل يوم » .

وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كانت الطبقات الوسطى فى أوربا الغربية لا تقل ثقافة عن طبقتى الأشراف والاكليروس . لقد شقت الطباعة طريقها ، تلك كانت الثورة الأساسية رغم كل ما يقال .

٢ — إلهام الدراسات الكلاسيكية :

كانت الدراسات الكلاسيكية تهبط فى رفق من مكان القمة الذى تربعت عليه أيام جوليوس وجوزف سكاليجر ، وكازوبون ، وسالماسيوس ، وبنتلى ؛ ولكن نيكولا فريرى واصل ما نهجوا عليه من تفان جدير بالعلماء ، وما حققوه من نتائج بعيدة المدى . فقد قبل عضواً فى الأكاديمية) الفرنسية الملكية للمأثورات والآداب البحتة وهو فى السادسة والعشرين ، وقرأ لها فى ذلك العام (١٧١٤) بحثاً « فى أصل الفرنجة » قلب الأسطورة الفخور التى زعمت أن الفرنجة رجال « أحرار » قدموا من اليونان أو طروادة ، فقال إن الأصح أنهم كانوا همجاً من الألمان الجنوبيين . وأبلغ عنه الأبية فرتو الحكومة لأنه قذف فى الملكية . فزج بالعالم الشاب فى الباستيل فترة قصيرة ، وبعدها قصر أبحاثه على بلاد غير فرنسا . ورسم ١,٣٧٥ خريطة توضح الجغرافيا القديمة . وجمع البيانات المثيرة عن تاريخ العلوم والآداب الكلاسيكية ، وعن أصول الأساطير اليونانية . وقد صححت مجلداته الثمانية عن التأريخ القديم (الكرونولوجيا) كتاب جوزف يوسطس سكاليجر الخطير ، وأرسى التاريخ الصينى على أسس مقبولة فى يومنا هذا ، فكان هذا

واحداً من مئات الوخزات العلمية التى أحدثت تقوياً فى مفهوم الكتاب المقدس للتاريخ :

ووجهت ضربة مماثلة للخرافات الكلاسيكية حين قرأ بوبى على الأكاديمية (١٧٢٢) بحثاً يتشكك فى رواية ليفى للتاريخ الرومانى القديم . وكان لورنتسو فاللا قد ألمع إلى هذه الشكوك عن هذه النقطة حوالى عام ١٤٤٠ ، وقد طورها فيكو عام ١٧٢١ ، ولكن بحث بوبى المستفيض سخف بشكل قاطع قصص رومولوس وريموس ، والهوراشيين ، والكورياتيين ، باعتبارها مجرد أساطير ؛ ومهد الطريق لعمل بارتولد نيبور فى القرن التاسع عشر . ولا تدخل الكتب التالية تماما فى النطاق الزمنى لهذا الفصل ، مع انتمائها إلى القرن الثامن عشر ، وهى كتاب « ملاحظات تمهيدية عن هومر » (١٧٩٥) الذى فكك فيه فريدرش فولف الشاعر هومر إلى مدرسة وأسرة كاملة من المنشدين ؛ وطبعات رتشرد بورسن المدققة لأسخيلوس ويوربيديس ، وكتاب يوزف ايكيل « نظرية المسكوكات » (١٧٩٢ — ٩٨) الذى أسس علم المسكوكات والمعادن .

ولم يشعر عالم الدراسات الكلاسيكية ثانية بنشوة إلهام كذلك الإلهام الذى جاءه من إنسانيي النهضة ، إلا حين اكتشفت مدينة هركولانيوم . فنى ١٧٣٨ كان عمال يضعون أساس بيت للصيد يبنى لشارل الرابع ملك نابلى ، فكشفوا بطريق الصدفة عن أطلال هركولانيوم ، وفى ١٧٤٨ أظهر فحص مبدئى بعض الأبنية المذهلة لمدينة يومبى التى طمرها هى أيضاً ثوران فيزوف فى ٧٩ م . وفى ١٧٥٢ استنقذت المعابد الفخمة التى بناها المستعمرون اليونان فى بيستوم من غياهب القرون المظلمة . وقد رسم الحفار الكبير بيرانيزى معابد بومبيى وقصورها وتماثيلها التى أخرجتها الحفائر على محفورات وجدت النسخ المنقولة عنها إقبالا من المشترين فى كل أنحاء أوربا . وأسفرت هذه الكشوف عن إحياء حار لاهتمام القوم بالفن القديم ، ودافع قوى للحركة الكلاسيكية الجديدة التى تزعمها فنكلمان ، وإضافة هائلة للمعرفة الجديدة بأساليب الحياة القديمة .

ويجب أن نقف هنا هنيهة للإقرار بدين العلم للرهبان الذين استخدموا

مكتباتهم ومجموعات مخطوطاتهم للقيام بأبحاث وتصنيف سجلات كانت معينة جداً للفكر الحديث . من ذلك أن رهبان القديس مور البندكتيين واصلوا عكوفهم القديم على الدراسات التاريخية . وأنشأ دوم برنار دمونفوكون علم الباليوغرافيا (الكتابات القديمة) بكتابه « الباليوغرافيا اليونانية » (١٧٠٨) ، ووضح التاريخ القديم بالفن القديم فى كتابه « العلم القديم مشروحاً وممثلا بالصور » (عشرة مجلدات ، ١٧١٩ — ٢٤) ووجه دراساته المدققة لوطنه فى خمسة مجلدات من القطع الكبير « آثار المملكة الفرنسية » (١٧٢٩ — ٣٣) . وبدأ دوم أنطوان ريفيه دلاجرانج فى ١٧٣٣ التاريخ البندكتى المسمى « التاريخ الأدبى لفرنسا » الذى أصبح السلف والمعين الذى استمدت منه جميع التواريخ اللاحقة للأدب الفرنسى القديم . وكان أعظم علماء القرن الثامن عشر البندكتيين هؤلاء هو دوم أوجستن كالميه ، الذى التجأ فولتير إلى ديره فى سينون عام ١٧٥٤ ، ولم ين فولتير عن الإفادة من كتاب كالميه « شروح نصية على جميع أسفار العهدين القديم والجديد » (١٧٠٧ — ١٦) ، بل سطا عليه أحياناً . ورغم ما فى هذه المجلدات الأربعة والعشرين من مآخذ(١٨) فقد امتدحها القراء باعتبارها أثراً شامخاً للتفقه فى العــلم . وقد ألف كالميه عدة كتب أخرى فى تفسير الكتاب المقدس ، وحذا حذو بوسويه فى تصنيف « تاريخ للعالم » (١٧٣٥) ، وأنفق كل ساعات يقظته تقريباً فى الدرس والصلاة . ومرة سأل فولتير فى جهل سعيد « من تكون مدام دبومبادور هذه ؟ » (١٩) ورفض منصب الأسقفية ، وكتب قبريته التى قال فيها باللاتينية « هنا يرقد إنسان قرأ كثيراً ، وكتب كثيراً ، وصلى كثيراً ، فلعله أحسن عملا ! آمين » (٢٠) .

وشارك بعض العلمانيين الأجرياء فى نقد الكتاب المقدس مثال ذلك الطبيب جان آستروك ، الذى درس مصادر الأسفار الخمسة ، التى افترض أن موسى كاتبها ، فى كتابه « استقراءات حول السجلات الأصلية التى يبدو أن موسى اقتنع بها فى كتابة سفر التكوين » (١٧٥٣) ؛ هنا ذكر لأول مرة أن استعمال اسمين مختلفين لله ، وهما يهوه وأيلوهيم ، يشير إلى قصتين أصليتين للخليفة ، ربط بينهما فى سفر التكوين ربطاً واهياً متكرراً . وحاول آخرون من دارسى الكتاب المقدس أن يحسبوا تاريخ الخليفة من واقع

الأسفار الموسوية الخمسة ، فخلصوا إلى مائتى نتيجة مختلفة . وأزعج المستشرقون المؤمنين المحافظين بذكرهم التأريخ المصرى (الكرونولوجيا) الذى زعم أنه يرجع إلى ثلاثة عشر ألف سنة ، والحسابات الصينية التى قدرت عمر الحضارة الصينية بتسعين ألف سنة . ولم يصدق أحد البراهمة الهنود الذين يعتقدون أن العالم عمر ٣٢٦,٦٦٩ عصرا ، يحتوى كل منها على قرون كثيرة . (٢١)

أما أجرأ وأخطر إسهام فى دراسات الكتاب المقدس Biblical Studies فى القرن الثامن عشر فصاحبه أستاذ ألمانى للغات الشرقية فى أكاديمية هبورج ، هو هرمان رايماروس . وقد ترك عند موته فى ١٧٦٨ مخطوطاً من أربعة آلاف صفحة عكف عليه عشرين عاماً ، وعنوانه « دفاع عن عباد الله العقلانيين » . ولم يجرؤ أحد على نشره إلى أن نشر وعنوانه « دفاع عن عباد الله العقلانيين » . ولم يجرؤ أحد على نشره إلى أن نشر ليسنج(١٧٧٤ — ٧٨) سبع قطع منه وصفها بأنها «كسر من كتاب مجهول المؤلف وجد فى فولفنبوتل» (حيث كان ليسنج أميناً للمكتبة) . وهبت كل ألمانيا المثقفة تقريباً محتجة إلا فردريك الأكبر . لا بل أن يوهان زملر ، العالم المتحرر ، رمى ليسنج بالجنون لأنه احتضن مثل هذا النقد المدمر للمعتقدات السنية . ذلك أن رايماروس لم يكتف فى الكسرة السابعة التى تناولت « هدف المسيح وتلاميذه » برفض معجزات المسيح وقيامته ، بل صوره يهودياً شاباً ، جاداً ، لطيفاً ، مخدوعاً ، ظل وفياً لليهودية إلى النهاية ، وقبل معتقد بعض اليهود بأن العالم مشرف على الزوال ، وأرسى مبادئه الأخلاقية على هذه المقدمة إعداداً للحدث . وذهب رايماروس إلى أن المسيح فسر عبارة « ملكوت السموات » بالمعنى المتعارف عليه بين قومه ، وهو ملك آت لليهود المحررين من روما . (٢٢)

وزعم أن صرخته اليائسة على الصليب « إلهى إلهى لماذا تركتنى » كانت اعترافاً بناسوته وبهزيمته . وبعد أن غاب أحال بعض الرسل هذا الملكوت الموعود حياة بعد الموت ، وبهذا المعنى لم يكن مفتتح المسيحية هو المسيح بل الرسل . ويقول ألبرت شفايتسر ، المفسر العلامة لكتاب رايماروس ، « ربما كان كتابه أروع إنجاز فى كل مسار البحث التاريخى فى حياة المسيح ، لأنه أول

من أدرك أن حياة الفكر التى تحرك فيها المسيح كانت فى صميمها أخروية ((eschatological)) « — أى مبنية على نظرية نهاية وشيكة للعالم . » [٢٣]

ومن دراسة الآثار اليهودية انتقل العلماء فى حذر إلى شعوب الشرق التى رفضت المسيح أو لم تسمع باسمه قط . فترجمة جالان الفرنسية لألف ليلة (١٧٠٤ — ١٧) وكتاب ريلان « ديانة المسلمين » (١٧٢١) ، وكتاب بورينيه « تاريخ الفلسفة الوثنية » (١٧٢٤) ، وكتاب بولانفلييه « حياة محمد » (١٧٣٠) ، وترجمة سيل الإنجليزية للقرآن — هذه كلها أظهرت الإسلام ، لا عالماً من الهمجية ، بل ساحة لعقيدة منافسة قوية ، ولنظام خلقى بدا موفقاً رغم تسامحه مع فطرة تعدد الزوجات فى جنس الرجال . وفتح إبراهام هياسنت آنكتيل — دوبرون ميداناً آخر بترجمته أسفار البرت المقدسة . وقد جذبته إليها قراءته مختارات من الزند أفستا فى مكتبة بباريس ، فعدل عن تحضيره للقسوسية ، واعتزم أن يرتاد كتب الشرق المقدسة فى أصولها . ولما كان أفقر من أن يدفع نفقات الرحلة ، فقد انخرط وهو فى الثالثة والعشرين (١٧٥٤) فى سلك الحملة الفرنسية إلى الهند . وما أن وصل إلى بوندتشيرى حتى تعلم قراءة الفارسية الحديثة ، وفى شاندرناجور درس السنسكريتية ، وفى صورات أقنع كاهناً برتيا بأن يعلمه البهلوية والزندية . وفى ١٧٦٢ عاد إلى باريس ومعه ١٨٠ مخطوطاً شرقياً عكف على ترجمتها ؛ وكان خلال ذلك يعيش على الخبز والجبن والماء ، ويتجنب الزواج لأنه ترف لاطاقة له به . وفى ١٧٧١ نشر ترجمته الفرنسية للزند — أفستا ، وشذرات من كتب أخرى للبرت ، وفى ١٨٠٤ أصدر « الأوبانيشادات » . وقد شارك الوعى بالديانات والنواميس الأخلاقية غير المسيحية ، ببطء ، فى تقويض دجماطيقية العقائد الأوربية .

وكان أبعد هذه الإلهامات العرقية أثراً إماطة المرسلين والرحالة والعلماء الأوربيين اللثام عن تاريخ الصين وفلسفتها . وكانت البداية هى عودة ماركو بولو إلى البندقية فى ١٢٩٥ ؛ وعززتها الترجمات الفرنسية والإنجليزية (١٥٨٨) لكتاب الأب اليسوعى خوان جونداليس دى مندوزا « تاريخ الصين » (لشبونه ١٥٨٤) . وترجمة هاكلويت الإنجليزية ، فى كتابه

« رحلات » (١٥٨٩ — ١٦٠٠) ، لمقال لاتيني « عن مملكة الصين » (مكاو ، ١٥٩٠) . وظهر الأثر الجديد فى مقال مونتيني » فى التجربة (١٥٩١) حيث يقول « الصين ، التي تفضل حكومتها وآدابها وفنونها نظائرها عندنا فى كثير من مواطن التفوق ، دون أى علم منها بنظمنا . » [٢٤] وفى ١٦١٥ نشر الأب اليسوعى نيكولاس تريجوت وصفه للبعثة المسيحية إلى الصين ، وسرعان ما ترجم إلى الفرنسية ، وإلى الإنجليزية فى « حجاج برتشاش » (١٦٢٥) . وقد امتدح تريجوت وغيره النظام الصينى الذى قضى باشتراط التعليم المتخصص المفصل لتولى المناصب العامة ، وبالسماح لجميع الطبقات من السكان الذكور بالامتحان للوظائف ، وباخضاع كل الهيئات الحكومية للتفتيش الدورى . ونشر يسوعى آخر هو أثناسيوس كيرشر ، العلامة المدهش المتعدد المعارف ، فى عام ١٦٧٠ ، موسوعة بمعنى الكلمة اسمها « الصين المصورة » امتدح فيها الحكومة الصينية لأن على رأسها ملوكاً — فلاسفة . [٢٥] .

وأثنى اليسوعيون ثناء مستطاباً على ديانة الصين وفلسفتها . فقال تريجوت إن الصينيين المتعلمين يتصورون الله روح العالم ، والعالم جسده ؛ وكان فى وسع سبينوزا ، الذى قال بمثل هذا الرأى ، أن يقرأ هذه الفكرة فى كتاب نشر بأمستردام فى ١٦٤٩ ، يقتنيه فى مكتبته فرانز فان دن إندن ، الأستاذ الذى علمه اللاتينية ؛ [٢٦] وفى ١٦٢٢ نشر اليسوعيون ترجمة لاتينية لكونفوشيوس « حكمة الصين » وفى خلاصة أخرى سموها « الفيلسوف الصينى كونفوشيوس » (١٦٨٧) وصفوا النظام الأخلاقى الكونفوشى بأنه « أرقى فضيلة علمت للناس ، فضيلة يجوز القول بأنها منبثقة من مدرسة المسيح » . [٢٧] وقد كتب الأب اليسوعى لوى لكونت فى « مذكراته عن الصين » (١٦٩٦) أن الشعب الصينى « حفظ معرفة الإله الحق مدى ألفى عام » وأنه « مارس أنقى ناموس للفضيلة فى الوقت الذى كانت فيه أوربا لا تزال متردية فى حمأة الخطيئة والفساد » [٢٨] وقد شجبت السوربون هذا الكتاب . وفى ١٦٩٧ نشر ليبنتز الحذر سياسياً ، المتيقظ لكل هبة نسيم فى جو الفكر ، كتابه « آخر الأنباء من الصين » . وقد قدم فيه أوربا على الصين فى العلوم والفلسفة ، ولكن :

« من كان يعتقد أن هناك شعباً يبزنا فيما يتبعه من مبادىء الحياة المدنية ؟ فهذا الذى نراه فى حالة الصينيين . . . فى الأخلاق والسياسة . فمحال أن نصف الجمال الذى وجهت به كل الأشياء فى قوانين الصينيين لتحقيق الطمأنينة والسلام للشعب أكثر من توجيهها فى قوانين الشعوب الأخرى . . . ويخيل إلى أن الوضع فى شئوننا قد بلغ من السوء — بسبب انتشار الفساد بيننا بغير حدود — مبلغاً يكاد يكون فيه من الضرورى أن يبعث إلينا مرسلون صينيون ليعلمونا فائدة الدين الطبيعى وممارسته ، تماماً كما نبعث إليهم بالمرسلين ليعلموهم الدين السماوى . لذلك أعتقد أنه لو اختير حكيم ليصدر حكمه ... فى تفوق الشعوب ، لأعطى قصب السبق للشعب الصينى — اللهم إلا فى تمايزنا عليه بشىء سام واحد ولكنه فوق الطبيعة البشرية ، وأعنى به العطية الإلهية التى وهبناها ، وهى الدين المسيحى . » (٢٩)

وحث ليبنتز أكديمات أوربا على جمع المعلومات عن الصين ، وساعد فى إقناع الحكومة الفرنسية بإرسال العلماء اليسوعيين الأكفاء للانضمام إلى البعثة فى الصين وتقديم التقارير الواقعية . وفى ١٧٣٢ لخص جان باتيست دوهالد هذه التقارير وغيرها من المعلومات فى كتابه « وصف ... امبراطورية الصين » ، وبعد عام ترجم الكتاب إلى الإنجليزية ، فكان له فى فرنسا وانجلتره تأثير بعيد المدى . وكان دوهالد أول من أذاع شهرة الفيلسوف الصينى مينسيوس فى أوربا . وما انتصف القرن الثامن عشر حتى كان كتاب بوسويه فى « تاريخ العالم » قد غض من قدرة ذلك الكشف عن حضارات قديمة ، واسعة ، مستنيرة ، كاد تاريخه « العالمى » يغفلها تماماً ، وأصبح الطريق ممهداً لمنظور فولتير الأوسع عن قصة الحضارة .

وظهرت نتائج هذه المبالغات الحماسية فى التقاليد والفنون والعادات والآداب والفلسفة الأوربية . ففى ١٧٣٩ نشر المركيز دارجنس سلسلة من « الرسائل الصينية » بقلم صينى وهمى ، انتقد فيها النظم والعادات الأوربية ، وفى ١٧٥٧ أضحك هوراس ولبول انجلتره بكتابه « رسالة من الفيلسوف الصينى كسوهو » ، وفى ١٧٦٠ لجأ جولدسمث إلى نفس الحيلة فى كتابه « مواطن العالم » . وحين كان الامبراطور جوزيف الثانى يحرث بنفسه قطعة

أرض كان يقلد عادة اتبعها الأباطرة الصينيون . (٣٠) وحين كانت سيدات باريس الراقيات يفتحن شماسيهن اتقاء الشمس ، كن يعرضن بدعة جميلة أدخلها اليسوعيون إلى فرنسا من الصين . (٣١) وفي أخريات القرن الثامن عشر تطورت الشمسية pavasol إلى مطرية umbrella . وكان الخزف الصيني واللاكيه الياباني قد أصبحا في القرن السابع عشر مقتنيات غالية في البيوت الأوربية ، واستهوى خيال الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠ ورق الجدران الصيني الذى تؤلف وحداته الصغيرة الموضوعة في مكانها الصحيح رسماً كبيراً واحداً . ودخل الأثاث الصيني البيوت الإنجليزية حوالى عام ١٧٥٠ . وطوال القرن الثامن عشر كان الولع بالصينيات Chinoisees وهي الأدوات الصينية الصنع أو الطراز — يميز الزخرفة الإنجليزية والفرنسية . وسرى إلى إيطاليا وألمانيا ، واختلط بحلية الروكوك ، واستبدت بدعته بالناس استبداداً حمل الكثير من النقاد على أن يهبوا لتحدى طغيانه . وأصبح الحرير الصيني رمزاً لعلو المكانة الاجتماعية ، وانتشرت الحدائق الصينية في غرب أوربا ، وأحرقت الألعاب النارية الصينية أباهم الأوربيين . (٣٢) وكانت « توراندوت » التى ألفها جوزى « فنتازيا » صينية . وظهر نيف وعشر مسرحيات بخلفية صينية على المسرح الإنجليزى ، وطور فولتير مسرحيته « يتيم صيني » من دراما صينية في المجلد الثالث من كتاب دوهالد . (٣٣)

وكان التأثير الصيني في الفكر الغربي على أشده في فرنسا ، حيث تلقفه أحرار الفكر سلاحاً آخر يشهرونه على المسيحية . وأبهجهم أن يجدوا أن كونفوشوس كان رجلا حر التفكير لا يسوعياً مرحل عن وطنه . وصرحوا بأن نظام كونفوشيوس الخلقى أثبت أن الناموس الخلقى الذى لا يعتمد على دين سماوى شيء ممكن عملياً . (٣٤) ولاحظ بيل (١٦٨٥) أن امبراطوراً صينياً كان يمنح المرسلين الكاثوليك حرية العمل في الوقت الذى يفرض فيه لويس الرابع عشر ، بعد إلغائه مرسوم نانت المتسامح الذى أصدره هنرى الرابع ، الامتثال لمذهب الدولة ، مستعيناً على ذلك بالعنف الهمجى الذى استعملته خيالته في احتلالها بيوت الهيجونوت . وقد أخطأ بيل في تفسير عقيدة الكونفوشوسيين فحسبهم ملحدين ، ومن ثم استشهد بهم لدحض الحجة المستمدة من الإجماع العالمى على وجود الله . (٣٥) أما مونتسكيو

فلم يستسلم للمد الشرقى ، ووصف الأباطرة الصينيين بأنهم حكام مستبدون ، وندد بالتجار الصينيين غير الأمناء ، وفضح فقر الجماهير الصينية ، وتنبأ بما سيسفر عنه تكاثر السكان فى الصين من عواقب وخيمة .(٣٦) وحاول كزينيه الرد على مونتسكيو فى كتابه « حكم الصين الاستبدادى» (١٧٦٧) ، فأثنى على هذا الحكم لأنه « استبداد مستنير » واستشهد بنماذج صينية على اصلاحات لازمة فى الاقتصاد والحكم الفرنسيين . أما طرجو ، المرتاب فى مثالية الصين ، فقد كلف كاهنين كاثوليكيين صينيين فى فرنسا بأن يذهبا إلى الصين ويحاول الحصول على إجابات حقيقية عن اثنين وخمسين سؤالا ، وقد شجع تقريرهما على تقييم أكثر واقعية لما فى الحياة الصينية من خير وشر.(٣٧)

وقد قرأ فولتير عن الصين فى إفاضة وشغف . وخص الحضارة الصينية بالفصول الثلاثة الأولى فى « المقالة عن العرف » ، ووصف الصين فى قاموسه الفلسفى بأنها « أروع ممالك الأرض ، وأقدمها ، وأوسعها ، وأحفلها بالسكان ، وأحسنها تنظيما . »(٣٨)

وقد أسهم إعجابه بالحكومة الصينية فى ميله إلى الاعتقاد بأن خير أمل فى الإصلاح الاجتماعى معقود على « الاستبداد المستنير » ، الذى عنى به الملكية المستنيرة . وكان كالعديد من الفرنسيين . وكالفيلسوف الألمانى فولف ، على استعداد لسلك كونفوشيوس فى زمرة القديسين ، لأنه «علم الشعب الصينى مبادىء الفضيلة قبل تأسيس المسيحية بخمسمائة سنة » .(٣٩) وذهب فولتير ، وهو الذى عرف عنه أدب السلوك ، إلى أن ما تحلى به الصينيون من ذوق وضبط للنفس ، ومسالمة هادئة ، مثال ينبغى أن يقتدى به مواطنوه السريعو الانفعال ،(٤٠) وربما أن يقتدى به هو نفسه . فلما ترجمت إلى الفرنسية قصيدتان من نظم تشين لونج (حكم ١٧٣٦ — ٩٦) امبراطور الصين فى تلك الفترة ، استجاب فولتير لها شعراً . فأهداه الامبراطور زهرية من الخزف الصينى .

وكان علم الأوربيين بالأديان والأنظمة الأجنبية عاملا قوياً فى إضعاف اللاهوت المسيحى . وأفضت الأنباء الواردة من فارس ، والهند ، ومصر ، والصين ، وأمريكا ، إلى سلسلة لا آخر لها من الأسئلة المربكة . فتساءل

مونتسكيو مثلا كيف يتأتى للمرأ أن يختار الدين الحق من بين ألفى دين مختلفة ؟ (٤١) وتساءل عشرات غيره كيف أمكن خلق العالم سنة ٤٠٠٤ ق.م ، فى حين أن الصين كان لها حضارة راقية سنة ٤٠٠٠ ق. م ؟ ولم لم تحتفظ الصين بسجل أو تقليد متوارث لطوفان نوح الذى تقول التوراة – إنه أغرق الأرض كلها ؟ ولم خص الله بوحيه الكتابى أمة صغيرة فى غرب آسيا إن كان قد قصد به البشرية كلها ؟ وكيف يستطيع إنسان أن يصدق بأنه لا خلاص بعيداً عن الكنيسة ؟ – فهل كل تلك الملايين التى عاشت فى الهند ، والصين ، واليابان ، تصلى الآن نار جهنم ؟ وكافح اللاهوتيون للإجابة عن هذه الأسئلة وأشباهها بتلال من التمييزات والتعليلات ، ولكن هيكل العقيدة ظهرت فيه رغم ذلك شروخ جديدة يوماً بعد يوم ، فى الغالب نتيجة لتقارير البعثات الدينية ، ولاح أحياناً أن اليسوعيين فى الصين قد اعتنقوا الكونفوشيوسية بدلا من أن يهدوا الصينيين إلى المسيح .

وألم يكن العلم الذى جاء به هؤلاء اليسوعيون المثقفون ، لا اللاهوت الذى علموه ، هو صاحب الفضل فى كسبهم الكثير جداً من الأصدقاء من بين الصينيين ؟

* * *

الفصل السادس عشر

التقدم العلمى (*)

١٧١٥٠ - ٨٩

١ - البحث المتسع

كان العلم أيضاً يزود الناس بإلهام جديد . ونمو العلم - نمو طلبه ، وطرائقه ، وكشوفه ، وتنبؤاته ، وثمراته الناجحة ، وسلطانه ، ومكانته - هذا النمو هو الجانب الايجابي لذلك التطور الحديث الأساسى الذى كان جانبه السلبي هو اضمحلال الايمان بالخوارق . ونشب الصراع بين كهانتين : الأولى كرست نفسها لتشكيل الخلق بطريق الدين ، والثانية لتربية العقل بطريق العلم . والكهانة الأولى هى الغالبة فى عصور الفقر أو الكوارث ، حين يكون الناس شاكرين لفضل العزاء الروحي والنظام الخلقى ، والثانية هى الغالبة فى عصور الثروة المتصاعدة ، حين يميل الناس إلى قصر آمالهم على هذه الدنيا .

ومن المألوف اعتبار القرن الثامن عشر دون السابع عشر فى انجازاته العلمية ، ولا شك أنه يخلو من الفحول الشوامخ أمثال جاليليو أو نيوتن ، ومن المآثر التى يمكن أن تقاس بإتساع العالم المعروف ، أو الامتداد الكونى للجاذبية . أو صياغة حساب التفاضل والتكامل ، أو كشف الدورة الدموية . ومع ذلك فأى كوكبة من النجوم يتألق بها المشهد العلمي فى القرن الثامن عشر! - أويلر ولاجرانج فى الرياضة ، وهرشل ولابلاس فى الفلك، ودالامبير وفرانكلن وجلفانى وفولتا فى الفيزياء ، وبريستلى ولافوازييه فى الكيمياء ، ولنابيوس فى النبات ، وبوفون ولامارك فى الأحياء ، وهاللر فى الفسيولوجيا ، وجون هنتر فى التشريح . وكونديالك فى علم النفس ، وجنز بوبرها فى الطب -

* هذا الفصل مدين بصفة خاصة لكتاب ا . ولف A. Wolf : History of science Technology and Philosophy in the 18th Century (تاريخ العلم التكنولوجيا والفلسفة في القرن ١٨) .

وقد خصصت الأكاديميات المتكاثرة المزيد من وقتها ومالها للبحث العلمى . وأدخلت الجامعات العلوم بازدياد فى برامجها ، فأنشأت كمبردج بين عامى ١٧٠٢ و ١٧٥٠ كراسى فى التشريح ، والفلك ، والنبات ، والكيمياء ، والجيولوجيا ، و « الفلسفة التجريبية » — أى الفيزياء . وأصبحت الطريقة العلمية تجريبية بصورة أدق .. وهبطت الخصومة الوطنية ، التى لوثت دولية الفكر بالجدل المحتدم بين نيوتن وليبنتز ، وتكاثفت الكهانة الجديدة عبر الحدود ، والحقائد اللاهوتية ، والحروب ، لترتاد المجهول المتعاظم . وجاء طلاب البحث من كل طبقة ، من بريستلى الرقيق الحال ودالامبير اللقيط ، إلى بوفون حامل لقب الشرف ولافوازييه المليونير . ودخل الملوك والأمراء ساحة البحث : فاشتغل جورج الثالث بالنبات ، وجون الخامس بالفلك ، ولويس السادس عشر بالفيزياء . وعكف الهواة أمثال مونتسكيو وفولتير ، والنساء أمثال مدام دشاتليه والممثلة الآنسة كلبرون ، على العمل بجد فى المختبرات أو تلهوا بها ، وحاول العلماء اليسوعيون أمثال بوسكوفش الجمع بين الايمانين القديم والجديد .

ولم يتمتع العلم بمثل هذه الشعبية وهذا التشريف حتى جاء عصرنا الحاضر المتفجر . فقد رفع دوى كشوف نيوتن فى الرياضة والميكانيكا والفلك هامات العلماء فى كل بلد فى أوربا . صحيح إنهم لم يستطيعوا الارتقاء حتى يصل أحدهم — كما وصل نيوتن — إلى منصب مدير دار المسكوكات ، ولكنهم فى القارة ، بعد عام ١٧٥٠ ، وجدوا الترحيب فى المجتمع المعطر وغشوا المحافل جنباً إلى جنب مع اللوردات والأدواق . وفى باريس غصت قاعات المحاضرات العلمية بالمستمعين من الجنسين ومن جميع المراتب . كتب جولدسمث الذى زار باريس فى ١٧٥٥ يقول : « رأيت فى محاضرات روويل فى الكيمياء من نجوم الجمال المتألقة ما هو خليق بأن يزين بلاط الملك فى فرساى . »[1] وكانت نساء المجتمع العصريات يحتفظن بكتب العلوم على خزانات زينتهن ، وترسم لهن الصور — كما صورت مدام بومبادور — وعند أقدامهن ، المربعات والتلسكوبات . وفقد الناس الاهتمام باللاهوت ، ونفضوا عنهم العالم الآخر مع حرصهم على خرافاتهم . وغدا العلم الأسلوب والمزاج لعصر يتحرك فى نهر معقد من التغير المحموم إلى نهايته الوبيلة .

٢ — الرياضة

(أ) أويلر

كان التغيير فى الرياضة الآن أبطأ لأن الكثير جداً قد أنجز فى ذلك الميدان طوال خمسة آلاف عام ، بحيث بدا أن نيوتن لم يترك زيادة لمستزيد . وبعد موته (١٧٢٧) حدث رد فعل ، بعض الوقت ، ضد فروض حساب التفاضل وأبهاماته . فهاجمها الأسقف باركلى ، فى مقال نقدى قوى (المحلل ، ١٧٣٤) ، لأنها تعادل تماماً غوامض الميتافيزيقا واللاهوت ، ورمى أتباع العلم بـ « الخضوع للسلطان ، وقبول الأشياء بالتسليم ، والإيمان بنقاط لا يمكن تصورها » وهى بالضبط التهم التى اتهم بها من قبل أتباع الدين . وقد لقى الرياضيون وما زالوا يلقون من العنف فى الرد عليه فى هذه النقطة ما يلقاه الماديون فى تفنيد مثاليته .

على أن الرياضة بنت لها جسوراً ، واستمر البحث فى الأرقام . فطور أبراهام ديموافر ، ونيكولاس سوندرس ، وبروك تيلر فى انجلتره ، وكولن مكلورن فى اسكتلندة . الشكل النيوتونى للتفاضل . ودفع ديموافر قدما رياضيات الصدفة ومعاشات مدى الحياة . وإذكان فرنسى المولد ، انجليزى الموطن ، فقد اختارته جمعية لندن الملكية (١٧١٢) حكماً فى دعاوى نيوتن وليبنتز المتنافسة على أيهما سبق صاحبه إلى اختراع حساب التفاضل النهائى الصغر . أما سوندرسن فقد كف بصره فى عامه الأول ، فتعلم حل المسائل الحسابية الطويلة العويصة عقلياً ، وعين أستاذاً للرياضة فى كمبردج فى عامه الحادى والعشرين (١٧١١) ، وألف كتاباً فى « الجبر » حاز الاستحسان الدولى . وسنرى كيف استهوت سيرته ديدرو . وترك تلور اسمه على النظرية الأساسية فى حساب التفاضل ، وأثبت مكلورين أن الكتلة السائلة التى تدور حول محورها تتخذ شكل القطع الناقص .

وفى بازل واصلت أسرة بونوللى إنجاب العلماء المبرزين طوال أجيال ثلاثة . وكانت هذه الأسرة البروتستنتية المذهب قد فرت من أنتورب (١٥٨٣) اتقاء فظائع دوق ألفا . وينتمى اثنان من الرياضيين البرنوليين السبعة لعصر لويس الرابع عشر ، وكان الثالث وهو يوهان الأول) ١٦٦٧ —

١٧٤٨ (مخضرماً أدرك حكم ملكين) لويس ١٤ و ١٥) وأصبح دانيال (١٧٠٠ — ٨٢) أستاذاً للرياضة فى سانت بطرسبورج وهو فى الخامسة والعشرين ، ولكنه عاد بعد ثمانية أعوام ليدرس التشريح ، والنبات والفيزياء ، وأخيراً الفلسفة ، فى جامعة بازل وترك مؤلفات فى حساب التفاضل والتكامل ، والصوتيات ، والفلك ، وأسس الفيزياء الرياضية تقريباً . وعلم أخوه يوهان الثانى (١٧١٠ — ٩٠) البلاغة والرياضة ، وترك بصمته على نظرية الحرارة والضوء . وقد نال دانيل جوائز من أكاديمية العلوم عشر مرات ، ويوهان ثلاث مرات . وأصبح أحد أبناء يوهان ، وهو يوهان الثالث (١٧٤٤ — ١٨٠٧) ، فلكى الملك فى أكاديمية برلين ، وعلم ياكوب الثانى (١٧٥٨) — ٨٩) الفيزياء فى بازل ، والرياضة فى سانت بطرسبورج . لقد امتدت هذه الأسرة العجيبة عبر المنهج ، والقرن ، والقارة الأوربية .

ويتميز ليونارد أويلر ، تلميذ يوهان بونوللى الأول والمنافس الصديق لدانيال ، إماماً لرياضى عصره من حيث تعدد القدرات وغزارة الإنتاج . ولد فى بازل عام ١٧٠٧ ومات فى بطرسبورج عام ١٧٨٣ ، وبرز فى الرياضة ، والميكانيكا ، والبصريات ، والسمعيات ، والديناميكا المائية ، والفلك ، والكيمياء ، والطب ، وحفظ نصف الانيادة عن ظهر قلب ، فكان بهذا كله خير بيان لفوائد التنوع ومدى قدرات العقل البشرى . وفى ثلاث رسائل كبرى فى التفاضل والتكامل حرر هذا العلم الجديد من العقد الهندسية التى ولد بها ، وأرسى أسسه بوضعه تفاضلا جبرياً — « تحليلا » . وأضاف إلى هذه الرسائل الكبرى .مؤلفات فى الجبر ، والميكانيكا ، والفلك ، والموسيقى ؛ على أن مقاله عن « نظرية جديدة فى الموسيقى » (١٧١٩) » احتوى من الهندسة فوق يسيغه الموسيقيون ، ومن الموسيقى فوق ما يسيغه الهندسيون . » [٢] وقد احتفظ رغم تبحره فى العلم بإيمانه الدينى إلى النهاية .

وحين انتقل دانيال برنوللى إلى سانت بطرسبورج وعد ليونارد بأن يحصل له على وظيفة فى أكاديميتها . وذهب الشاب إليها وهو فى العشرين ، ولما غادر دانيال روسيا (١٧٣٣) خلفه أويلر رئيساً لقسم الرياضة . وأدهش زملاءه الأكاديميين بأن حسب فى ثلاثة أيام جداول فلكية قدر أنها تحتاج إلى عدة شهور وعكف على هذا العمل وغيره عكوفاً شديداً ليل نهار

على ضوء ضعيف ، حتى فقد بصر عينه اليمنى فى ١٧٣٥ . ثم تزوج ، وشرع على الفور يجمع ويضرب ، بينما الموت يطرح ، فقد مات ثمانية من أبنائه الثلاثة عشر أطفالا . ولم يأمن على حياته فى عاصمة أنهكتها الدسائس والاغتيالات السياسية . وفى ١٧٤١ قبل دعوة من فردريك الأكبر للانضمام إلى أكاديمية برلين ، وهناك ، فى سنة ١٧٥٩ ، خلف موبرتوى فى الاضطلاع بالرياضة . وأحبته أم فردريك ، ولكنها وجدته صموتاً بشكل غريب . وسألته « لم لا تتحدث إلى ؟ » فأجاب « سيدتى ، إننى قادم من بلد يشنق المرء فيه إن تكلم[٣] » . على أن الروس كانوا قادرين على السلوك المهذب . فقد واصلوا صرف راتبه له بعد رحيله بزمن طويل ، وحين نهب جيش روسى مزرعة أويلر أثناء غزوه برندنبورج سخا القائد الروسى فى تعويضه عن خسارته ، وأضافت الإمبراطورة إليزابث بتروفنا إلى التعويض مبلغاً من عندها .

وتاريخ العلم يكرم أويلر أولا لما أنتجه فى حساب التفاضل ، لاسيما لتناوله النظامى لتفاضل التغيرات . وقد دفع الهندسة وحساب المثلثات إلى الأمام باعتبارهما فرعين من فروع التحليل . وكان أول من تصور فى وضوح فكرة الوظيفة الرياضية التى هى الآن قلب الرياضة . وفى الميكانيكا صاغ المعادلات العامة التى ما زالت تحمل اسمه . وفى البصريات كان أول من طبق حساب التفاضل على ذبذبات الضوء وصاغ منحنى التذبذب باعتباره متوقفاً على المرونة والكثافة . واستنبط قوانين الانكسار تحليلياً وقام بدراسات فى انتشار الضوء مهدت لصناعة العدسات الأكروماتية . وشارك فى مشروع دولى هدفه إيجاد خط الطول فى البحر برسم موقع الكواكب وأوجه القمر ، وأعان حله التقريبى جون هاريسون على وضع جداول قمرية موفقه للبحرية البريطانية .

وفى ١٧٦٦ طلبت كاترين الكبرى إلى أويلر أن يعود إلى سانت بطرسبورج . وقد عاد إليها ، فاحتفت به حفاوة بالغة . ولم يثبت بعد وصوله أن كف بصره تماماً ، ولكن ذاكرته بلغت من الدقة ، وسرعة حسابه بلغت من

العظمة مبلغاً أتاح له أن يواصل الإنتاج بنشاط يقرب من نشاطه السابق . وأملى الآن كتابه « مقدمة كاملة للجبر » على خياط شاب لم يكن حين بدأ عمله هذا يعرف شيئاً عن الرياضة أكثر من الحساب البسيط ، وقد أضفى هذا الكتاب على الجبر الشكل الذى احتفظ به إلى يومنا هذا . وفى ١٧٧١ دمرت نار بيت أويلر ، وأنقذ مواطن سويسرى من بازل يدعى بيتر جريم الرياضى الأعمى من النيران إذ حمله على كتفيه بعيداً عن الخطر . ومات أويلر عام ١٧٨٣ وقد بلغ السادسة والسبعين بنوبه فالج أصابته وهو يلعب مع أحد حفدته .

(ب) لجرانج

ولم يفقه غير رجل واحد فى قرنه وعلمه ، وهو الفتى الذى بسط عليه رعايته — جوزف لوى لجرانج . وكان واحداً من أحد عشر طفلا ولدوا لزوجين فرنسيين يقيمان فى تورين ، ولم يتجاوز الطفولة من هؤلاء كلهم غيره . وقد تحول عن الدراسات الكلاسيكية إلى العلم عند قراءته مذكرة وجهها هالى إلى جمعية لندن الملكية ، فكرس نفسه للتو لدراسة الرياضة ، وسرعان ما برز فيها تبريزاً أوصله فى سن الثامنة عشرة إلى منصب أستاذ الهندسة فى أكاديمية المدفعية بتورين . وقد ألف من تلاميذه ، وكلهم تقريباً أكبر منه سناً ، جماعة بحث نمت حتى غدت أكاديمية تورين للعلوم . وفى التاسعة عشرة أرسل إلى أويلر طريقة جديدة لتناول حساب تفاضل التغيرات . ورد أويلر بأن الطريقة تذلل صعوبات لم يستطع هو نفسه تذليلها . وأجل السويسرى الكريم إذاعة النتائج التى وصل إليها ، حتى لا أحرمك من أى قسط من المجد الذى تستحقه . « وأذاع لجرانج طريقته فى المجلد الأول الذى أصدرته أكاديمية تورين (١٧٥٩) وشهد أويلر فى مذكرته عن حساب تفاضل التغيرات بكل الفضل للفتى . وفى ذلك العام (١٧٥٩) انتخب بنفوذه عضواً أجنبياً بأكاديمية برلين وهو لا يعدو الثالثة والعشرين . ولما غادر أويلر بروسيا زكى لجرانج خلفاً له فى الأكاديمية ، وأيد دالامبير هذا الاقتراح بحرارة ، وفى ١٧٦٦ انتقل لجرانج إلى برلين . وقد حيا

فردريك الأكبر باعتباره « أعظم ملك فى أوربا » ، ورحب به فردريك « أعظم الرياضيين فى أوربا »(٥) وكان هذا سابقاً لأوانه ، ولكنه صدق بعد قليل . والعلاقات الودية التى ربطت أئمة رياضيى القرن الثامن عشر — أويلر ، ولجرانج ، وكليرو ، ودالامبير ، ولجاندر — تؤلف فصلا مبهجاً فى تاريخ العلم .

وخلال العشرين السنة التى أقام فيها لجرانج ببرلين ألف تدريجياً أجزاء رائعته الكبرى « الميكانيكا التحليلية » . وعلى هامش هذا المشروع الأساسى نقب فى الفلك ، وقدم نظرية عن توابع المشترى وتعليلا لترجحات القمر ، أى التغيرات فى الأجزاء المنظورة منه . وفى ١٧٨٦ مات فردريك الأكبر ، وخلفه فردريك وليم الثانى ، الذى لم يكن يعبأ كثيراً بالعلم . فقبل لجرانج دعوة من لويس السادس عشر للانضمام إلى أكاديمية العلوم الباريسية وأعطى سكناً مريحاً فى اللوفر ، وأصبح أثيراً لدى مارى أنطوانيت التى بذلت ما وسعها لتخفف عنه نوبات الاكتئاب التى كثيراً ما انتابته وجلب معه مخطوط « الميكانيكا التحليلية » ، ولكنه لم يستطع العثور على ناشر يتصدى لمثل هذه المشكلة الطباعية العسيرة فى مدينة تغلى مراجلها بالثورة . وأخيراً أقنع صديقاه أدريان لجاندر وألابية مارى طابعاً بالاضطلاع بهذه المهمة ، ولكنه لم يقتنع إلا بعد أن وعده ألابيه بأن يشترى جميع النسخ غير المباعة بعد تاريخ محدد . فلما وضع الكتاب الذى لخص جهد حياة لجرانج بين يديه (١٧٨٨) لم يكترث بالنظر إليه ، فقد كان فى إحدى نوبات اكتئابه الدورية التى أفقدته كل اهتمام بالرياضة ، بل بالحياة . وظل الكتاب مقفلا على مكتبه عامين كاملين .

وهناك إجماع على وضع « الميكانيكا التحليلية » فى قمة رياضة القرن الثامن عشر . فهذا الكتاب الذى لم يفقه غير « الأصول » فى الميدان الذى تناوله الكتابان . تقدم على كتاب نيوتن هذا باستعماله « التحليل » — التفاضل الجبرى — بدلا من الهندسة فى إيجاد الحلول وعرضها ، وقد جاء فى المقدمة « ليس فى هذا الكتاب رسوم بيانية » وبهذه الطريقة اختزل لجرانج الميكانيكا إلى صيغ عامة — تفاضل التغيرات — تمكن أن تستخلص منها معادلات نوعية

لكل مسألة بعينها ، وما زالت هذه المعادلات العامة تسود الميكانيكا وتحمل اسمه . ووصفها إرنست ماخ بأنها من أعظم الإسهامات فى الاقتصاد فى الفكر (٦) وقد رفعت ألفرد نورث هوايتهيد إلى ذرى النشوة الدينية فقال « إن فى هذه المعادلات من الجمال ، ومن البساطة التى تكاد تبلغ مرتبة القداسة ، ما يجعل هذه الصيغ جديرة بأن تضارع تلك الرموز الغامضة التى آمن الناس فى القديم بأنها تدل مباشرة على الكائن الأعلى الذى يكمن وراء كل الأشياء (٧) .

فلما نشبت الثورة بسقوط الباستيل (١٤ يوليو ١٧٨٩) نصح لجرانج ، المقرب إلى الملكية ، بأن يعود إلى برلين ، ولكنه أبى . فلقد كان على الدوام متعاطفاً مع المظلومين ، ولكنه لم يؤمن بقدرة الثورة على النجاة من نتائج عدم المساواة الطبيعى بين البشر . وهالته مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، وإعدام صديقة لافوازييه ، ولكن صمته المكتئب أنقذ رأسه من الجيلوتين . فلما فتحت مدرسة المعلمين (١٧٩٥) نيط لجرانج بقسم الرياضة فيها ، وحين أقفلت وأسست مدرسة الفنون والصنائع (١٧٩٧) كان أول أساتذتها ، والأساس والاتجاه الرياضيان للتعليم الفرنسى هما بعض تأثير لجرانج الطويل الأمد .

وفى ١٧٩١ عينت لجنة لوضع نظام جديد للموازين والمقاييس . وكان لجرانج ، ولافوازييه ، ولابلاس ، من أوائل أعضائها . وبعد ثلاثة أشهر « طهر » اثنان من هذا الثالوث ، وأصبح لجرانج العقل القائد فى وضع النظام المترى . واختارت اللجنة أساساً للطول ربع الكرة الأرضية — ربع الدائرة العظمى التى تمر حول الأرض على مستوى البحر بطريق القطبين ، وأخذ جزء على عشرة ملايين منه وحدة جديدة للطول وسمى متراً . واختارت لجنة فرعية الجرام وحدة جديدة للموازين : وهو وزن الماء المقطر فى درجة الصفر المئوية ، ويشغل مكعباً كل ضلع فيه سنتيمتر واحد — أى جزء على مائة من المتر . وبهذه الطريقة بنيت جميع الأطوال والأوزان على ثابت فيزيائى واحد ، وعلى العدد عشرة . وظل هناك مدافعون عن النظام الإثنى عشرى ، الذى اتخذ العدد اثنى عشر أساساً له ، كما هو متبع فى انجلترة ، وبوجه عام فى تقديرنا للزمن . ولكن لجرانج أصر على النظام العشرى ، وكان له ما أراد . فقررت الحكومة الفرنسية هذا النظام فى ٢٥ نوفمبر ١٧٩٢ ،

وما زال ، مع بعض التعديلات باقياً إلى يومنا هذا ، ولعله أبقى نتائج الثورة الفرنسية .

وأضاءت تجربة رومانسية كهولة لجرانج . ذلك أنه حين بلغ السادسة والخمسين أصرت فتاة فى السابعة عشرة ، كانت ابنة صديقه الفلكى لمونييه ، على الزواج منه وتكريس نفسها للتخفيف من أوهامه ووساوسه . وأذعن لجرانج ، وبلغ من عرفانه بصنيع حبها أنه كان يصحبها إلى المراقص والحفلات الموسيقية . وكان قد تعلم أن يحب الموسيقى - التى هى لعبة تحتال بها الرياضة على الأذن - لأنها « تعزلنى . إننى أسمع الموازين الموسيقية الثلاثة الأولى ، وفى الرابعة لا أعود أعى شيئاً ، فأستسلم لأفكارى ، ولا شىء يقطعها على ، وبهذه الطريقة أحل أكثر من مسألة عويصة » (٨) .

فلما هبطت حمى الثورة ، هنأت فرنسا نفسها لأنها أعفت إمام رياضيى العصر من الجيلوتين . وفى ١٧٩٦ أوفد تاليران إلى تورين ليزور بصفة رسمية والد لجرانج ويقول له « إن ابنك الذى تفخر بيدمونت بأنها أنجبته ، وتفخر فرنسا بأنه مواطن فيها ، وقد شرف البشر أجمعين بعبقريته » (٩) . وكان نابليون يحب فيما بين حملاته أن يتحدث إلى الرياضى الذى تحول إلى الفلسفة .

واستعاد الشيخ اهتمامه بالرياضة حين نفخ ووسع « الميكانيكا التحليلية » (١٨١٠ - ١٣) لإعداد طبعة ثانية من الكتاب . ولكنه أسرف فى الجهد والسرعة كعادته ؛ وأضعفته نوبات من الدوار ، ومرة وجدته زوجته فاقد الوعى على أرض الحجرة ، وقد نزف رأسه من قطع سببه سقوطه على حرف المائدة . وأدرك أن قواه البدنية آخذة فى النضوب ، ولكنه تقبل هذا التحلل البطىء على أنه طبيعى ومعقول . وقال لمونج ولغيره من عواده :

« كنت مريضاً جداً أمس أيها الأصدقاء ، وأحسست أننى سأموت . وأصاب الضعف بدنى شيئاً فشيئاً ، وانطفأت قواى العقلية والبدنية دون وعى منى . ولاحظت « متوالية » تناقص عافيتى ، الحسنة التدرج ، ووصلت إلى النهاية دون أسف ، أو حسرات ، وفى هبوط غاية فى الرفق . يجب

ألا نخشى الموت ، وحين يأتى دون ألم ، فإنه يكون وظيفة أخيرة ليست بالكريهة ... إن الموت هو الراحة الكبرى للجسد [١٠] .

ومات فى ١٠ ابريل ١٨١٣ وقد بلغ الخامسة والسبعين غير باك على شىء إلا اضطراره لترك زوجته الوفية عرضة لمخاطر ذلك العهد ، حين بدا أن العالم كله قد امتشق الحسام لقتال فرنسا .

وحمل صديقاه جسبارمونج ، وأدريان لجاندر ، إلى القرن التاسع عشر تلك الأبحاث الرياضية التى كانت الأسس للتقدم الصناعى . وينتمى إنتاج لجاندر (١٧٥٢ — ١٨٣٣) إلى عصر ما بعد الثورة ، وحسبنا أن نقرئه التحية فى طريقنا . أما مونج فكان بابن بائع متجول وسنان سكاكين . ونحن نراجع فكرتنا عن الفقر الفرنسى حين نرى هذا العامل البسيط يوفر لثلاثة من أبنائه التعليم فى الكلية . ونال جسبار كل ما أتيح من جوائز فى فى المدرسة . وفى الرابعة عشرة صنع آلة لإطفاء الحريق . وفى السادسة عشرة رفض دعوة معلميه اليسوعيين إياه أن ينضم إلى طريقتهم . وبدلا من هذا أصبح أستاذ الفيزياء والرياضة فى المدرسة الحربية بميزيير . وهناك صاغ أصول هندسته الوصفية — وهى طريقة لعرض شكل ثلاثى الأبعاد على مستوى وصفى واحد . وتبين عظم فائدة هذه الطريقة فى تصميم الحصون وغيرها من المبانى ، حتى أن الجيش الفرنسى ظل خمسة عشر عاماً يحظر عليه البوح بسرها علناً ، ثم سمح له (١٧٩٤) بتدريسها فى مدرســـة المعلمين بباريس . وقد أخذ لجرانج العجب وهو يستمع إلى محاضراته فيها ، شأن جوردان فى مسرحية فولتير « قبل أن أستمع إلى مونج لم أعرف أننى أعرف الهندسة الوصفية » [١١] . وقد أبلى مونج بلاء حسناً فى خدمة الجمهورية التى تعد نفسها للمعركة . وارتقى إلى منصب وزير البحرية . وعهد إليه نابليون بالكثير من المهام السرية . وبعد عودة البوربون إلى الملك عانى مونج من الفاقة والتعرض للخطر . فلما مات (١٨١٨) منع تلاميذه فى مدرسة الفنون والصنائع من السير فى مأتمه . وفى الغد ساروا إلى المدفن بهيئتهم الكاملة ، ووضعوا على قبره اكليلا من الزهر .

٣ — الفيزياء

(١) المادة والحركة والحرارة والضوء

نمت الرياضة لأنها كانت الأساس والأداة التي لاغنى عنها للعلوم كلها ، إذ اختزلت الخبرة والتجربة إلى قوانين كمية أتاحت التنبؤ الدقيق والضبط العملي . وكانت الخطوة الأولى هي تطبيقها على المادة عموماً : بكشف الاطرادات ووضع « القوانين » للطاقة ، والحركة ، والصوت ، والضوء ، والمغنطيسية ، والكهرباء ، هنا كمن ما يكفي من الأسرار التي تتطلب الكشف عن خوافيها .

وقد ضحى بيير لوى مورو دموبرتوى بمستقبله في الجيش الفرنسي ليكرس نفسه للعلم . وسبق فولتير في تعريف فرنسا بنيوتن ، وفي تقدير مفاتن مدام دوشاتليه وتعليمها . وفي ١٧٣٦ ، كما سنرى ، رأس بعثة إلى لايلاند لقياس درجة طولية . وفي ١٧٤٠ قبل دعوة لزيارة فردريك الثاني ، وتبع فردريك إلى معركة مولفتز (١٧٤١) ، وأسره النمساويون ، ثم أطلقوا سراحه بعد قليل . وفي ١٧٤٥ انضم إلى أكاديمية برلين للعلوم ، وبعد عام أصبح عميداً لها . وشرح المبدأ الذي توصل إليه لأكاديمية باريس للعلوم في ١٧٤٤ ، ولأكاديمية برلين في ١٧٤٦ ، وهو المبدأ القائل بأقل حركة : « حين يحدث أي تغيير في الطبيعة فإن كمية الحركة المستخدمة لهذا التغيير هي دائماً أقل ما يمكن . » وذهب إلى أن هذا يثبت وجود نظام منطقي في الطبيعة ، وإذن وجود اله منطقي [١٢] . وطور أويلر ولجرانج هذا المبدأ ، وفي زماننا هذا لعب دوراً في نظرية الكم . وفي « مقال في علم الكون » (١٧٥٠) أحيا موبرتوى بدعة لا يمكن القضاء عليها : فهو مع تبينه قصداً في الطبيعة ، إلا أنه اعترف بأنه يرى فيها أيضاً علامات الغباء أو الشر ، وكأن شيطاناً ينافس إلهاً خيراً في تعريف شئون الكون [١٣] . ولعل موبرتوى كان يوافق خصمه اللدود فولتير على أن القديس أوغسطين كان ينبغي أن يظل مانويا .

وقد سبقت الإشارة إلى مولد دالامبير ، ثمرة غير مقصودة لصلة عابرة بين ضابط مدفعية وراهبة سابقة . عثرت عليه شرطة باريس على سلم كنيسة

سان جان لورون ولما تمض على مولده ساعات (١٧١٧) . فعمـــدوه باسم جان بانيست لورون ، وأرســـلوه إلى مرضع فى الريف . وطالب به أبوه ، الشفالييه ديتوش ، وسماه دارامبير (لأسباب نجهلها) ، ودفع أجراً لمدام روسو ، وهى زوجة صانع زجاج ، لتتبنى الطفل . وتبين أنها رابة مثالية ، وأن جان غلام نابغة . فلما بلغ السابعة أراه أبوه فى فخر لأمه ، مدام دتانسان ، ولكنها قررت أن مستقبلها خليلة وصاحبة صالون سيضار بقبول الطفل ، ولم تسهم بشيء فى إعالته على قدر علمنا ، أما الشفالييه فقد ترك له قبل موته فى ١٧٢٦ معاشاً سنوياً قدره ألف ومائتا جنيه .

وتلقى جان تعليمه فى الكوليج دكاتر ناســيون (كلية الأمم الأربع) ، ثم فى جامعة باريس ، حيث نال درجة القانون . وهناك ، حوالى عام ١٧٣٨ ، غير اسمه من دارامبير إلى دالامبير . ثم اتجه إلى دراسة الطب بعد أن مل القانون ، ولكن ميلا عارضاً إلى الرياضة انقلب فيه غراماً مشبوباً . قال « كانت الرياضة لى أشبه بالخليلة للرجل » (١٤) . وواصل السكنى مع مدام روسو حتى بلغ الثامنة والأربعين وهو يعتبرها فى عرفانه بصنيعها أمه الوحيدة . وكان من رأيها أن مما يشين الرجل أن يسلم نفسه إلى حياة الدرس ولا يبدى أى شهوة للمال . فكانت تقول له فى أسى « إنك لن تعدو أن تكون فيلسوفاً . وما الفيلسوف ؟ مجنون يعذب نفسه طوال حياته ليتحدث الناس عنه بعد موته » (١٥) .

ولعل دوافعه الملهمة لم تكن الرغبة فى الشهرة بعد الموت . بل المنافسة الأبية مع العلماء الراسخين . وتلك الغريزة الشبيهة بغريزة القندس ، التى تبتهج بالبناء ، وبخلق النظام من فوضى المواد أو الأفكار . على أية حال فإنه فى الثامنة والعشرين بدأ يقدم أبحاثاً لأكاديمية العلوم : أحدها فى حساب التكامل (١٧٣٩) ، وآخر فى انكسار الضوء (١٧٤١) ؛ وفى بحث الضوء هذا أقدم تعليل لإنحناء أشعة الضوء وهى تنتقل من سائل إلى آخر أكبر كثافة ، ومكافأة له على هذا البحث قبلته الأكاديمية عضواً « ملحقاً » . وبعد عامين نشر أهم آثاره العلمية » رسالة فى الديناميكا » ، وقد حاول فيها أن يختزل كل مسائل المادة المتحركة إلى معادلات رياضية ، وسبقت الرسالة رسالة

لجرانج الأفضل منها « الميكانيكا التحليلة » باثنتين وأربعين سنة ، وهى تحتفظ بأهميتها التاريخية لأنها صاغت النظرية الأساسية المعروفة الآن باسم « مبدأ دالامبير » ، وهى أعسر تخصصاً مما يحتمله هضمنا العام ، ولكنها عون كبير على الحسابات الميكانيكية . وقد طبقها فى « رسالة فى توازن السوائل وحركتها » (١٧٤٤) ، وظفرت من الأكاديمية بإعجاب حملها على مكافأته بمعاش من خمسمائة جنيه ، لابد أنه هدأ من ثائرة مدام روسو .

ومن مبدئه هذا من ناحية ، ومن معادلة مبتكرة فى حساب التفاضل ، توصل دالامبير إلى صيغة لحركة الرياح . وأهدى كتابه « تأملات فى السبب العام للرياح » (١٧٤٧) إلى فردريك الأكبر ، الذى استجاب بدعوته للإقامة فى برلين ، ولكن دالامبير رفض ، فأبدى بذلك من الحكمة وهو فى الثلاثين أكثر مما سيبديه فولتير وهو فى السادسة والخمسين . وفى « مقال عن نظرية جديدة فى مقاومة السوائل » (١٧٥٢) : حاول أن يجد صيغاً ميكانيكية لمقاومة الماء لجسم يتحرك فوقه ، فأخفق ؛ ولكن فى ١٧٧٥ ، وبتكليف من طورجو ، أجرى هو وكوندورسيه والابيه بوسو تجارب أعانت على تقرير قوانين مقاومة السوائل للأجسام المتحركة على سطوحها . وفى أخريات عمره درس حركة الأوتار المتذبذبة ، وأصدر (١٧٧٩) « مبادىء الموسيقى النظرية والعملية » متبعاً ومعدلا طريقة رامو ؛ وقد ظفر هذا الكتاب بثناء عالم الموسيقى الشهير تشارلز بيرنى . ويمكن القول أن دا لامبير أوتى فى مجموعه عقلا من أذكى وأرهب العقول فى هذا القرن .

وعرض فردريك الأكبر وظيفة عميد أكاديمية برلين على دالامبير حين استقال موبرتبوس . وكان الرياضى — الفيزيائى — الفلكى — الموسوعى رجلا رقيق الحال ولكنه رفض المنصب فى أدب ، ذلك أنه كان يعتز بحريته ، وبأصدقائه ، وبباريس . واحترم فردريك بواعثه ، وأرسل إليه معاشاً متواضعاً من ألف ومائتى جنيه بعد استئذان لويس الخامس عشر . وفى ١٧٦٢ دعته كاترين الكبرى إلى روسيا وأكاديمية سانت بطرسبورج ، فرفض الدعوة ، لأنه كان الآن عاشقاً . وأصرت كاترين ، ربما بعد علمها بهذا ، وطلبت إليه أن يحضر « ومعك كل أصدقائك » ، وعرضت عليه راتباً

من ١٠٠,٠٠٠ فرنك فى العام . وقبلت اعتذاراته فى سماحة ، وواصلت مراسلته ، وناقشت معه أسلوب حكمها ومشاكله . وفى ١٧٦٣ ناشده فردريك أن يزور بوتسدام على الأقل ، فذهب دالامبير ، وكان يتناول الطعام مع الملك شهرين . ورفض مرة أخرى عمادة أكاديمية برلين ، وبدلا من ذلك اقتنع فردريك بأن يرفع راتب أويلر رب الأسرة الكبيرة (١٦) . ونرجو أن نلتقى بدالامبير مرة أخرى .

وكان لآل برنوللى المدهشين مساهمات عارضة فى الميكانيكا . فصاغ يوهان الأول (١٧١٧) مبدأ السرعات الافتراضية : « فى كل توازن للقوى أياً كانت ، وعلى أى صورة استخدمت ، وفى أى اتجاهات يؤثر بعضها فى بعض ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، يكون مجموع الطاقات الموجبة معادلا لمجموع الطاقات السالبة إيجابياً » . وأعلن يوهان وابنه دانيال (١٧٣٥) أن مجموع « القوة الحية » فى العالم ثابت دائماً ؛ وقد أعيدت صياغة هذا المبدأ فى القرن التاسع عشر باسم عدم فناء الطاقة . وطبق دانيال الفكرة تطبيقاً مثمراً فى كتابة « الديناميكا المائية » (١٧٣٨) وهو من عيون الكتب الحديثة فى ميدان بالغ الصعوبة . وفى ذلك المجلد أرسى أساس النظرية الحركية للغازات ، فالغاز يتألف من ذرات ضئيلة تتحرك بسرعة كبيرة ، وتحدث ضغطاً على الإناء بالصدمات المتكررة ، والحرارة تزيد من سرعة الذرات ، ومن ثم من ضغط الغاز ، ونقص الحجم (كما أثبت بويل من قبل) يزيد الضغط بنسبة النقص .

أما فى فيزياء الحرارة فإن ألمع الأسماء فى القرن الثامن عشر هو اسم جوزيف بلاك . ولد فى بوردو لأب اسكتلندى مولود فى بلفاست ، ودرس الكيمياء فى جامعة جلاسجو ، وفى السادسة والعشرين (١٧٥٤) أجرى تجارب فيما نسميه الآن التأكسد أو التآكل . وقد بينت هذه التجارب مفعول غاز ميزه عن الهواء العادى ، وكشف عن هذا الغاز فى الميزان ، وسماه « الهواء الثابت » (ونسميه الآن ثانى أوكسيد الكربون) ، وكان قد أوشك على الكشف عن الأوكسجين قبل ذلك . وفى ١٧٥٦ ، حين كان محاضراً فى الكيمياء ، والتشريح ، والطب فى الجامعة ، بدأ ملاحظات هدته إلى نظريته

فى « الحرارة الكامنة » : فحين تكون مادة ما بسبيلها إلى التغير من الحالة الجامدة إلى حالة السيولة أو من السيولة إلى الغازية ، فإن المادة المتغيرة تمتص من الهواء كمية من الحرارة لا يمكن ملاحظتها كتغيير فى درجة الحرارة ، وهذه الحرارة الكامنة ترد إلى الهواء حين يتحول غاز إلى سائل أو سائل إلى جامد . وقد طبق جيمس وات هذه النظرية فى تحسينه للآلة البخارية . وكان رأى بلاك فى الحرارة كرأى جميع أسلاف بريستلى ، أنها مادة تزداد أو تتناقص دفئاً ، وظلت هذه الفكرة سائدة حتى أثبت بنيامين طومسن ، كونت رمفورد ، فى ١٧٩٨ ، أن الحرارة ليست مادة بل شكلا من أشكال الحركة ، يفهم الآن على أنه حركة مكتسبة للأجزاء المكونة للجسم .

وفى هذه الأثناء توصل يوهان كارل فيلكى الاستوكهولمى إلى نظرية مماثلة فى الحرارة الكامنة (١٧٧٢) مستقلا عن بلاك . وفى سلسلة من التجارب رواها هذا العالم السويدى فى ١٧٧٧ أدخل اصطلاح « الحرارة المشعة » — أى الحرارة غير المنظورة التى تنبعث من المواد الساخنة ، وقد ميز بينها وبين الضوء ، ووصف خطوط حركتها وانعكاسها وتركيزها بواسطة المرايا ، ومهد للربط الذى ربطه فيما بعد بين الحرارة والضوء باعتبارهما شكلين متشابهين من أشكال الإشعاع . وحدد فيلكى ، وبلاك ، ولافوازييه ، ولابلاس ، وغيرهم من الباحثين ، القيمة التقريبية للصفر المطلق (وهو أدنى درجة حرارة ممكنة من حيث المبدأ) . أما البريطانيون فكانت وحدة الحرارة التى اتخذوها هى الكمية التى ترفع درجة حرارة رطل من الماء درجة فهرنهيتية ، أما الفرنسيون ، وشعوب القارة عموماً ، فقد فضلوا استعمال كمية الحرارة التى ترفع درجة حرارة كيلو جرام من الماء درجة مئوية واحدة .

أما نظرية الضوء فإن ما أحرزه القرن الثامن عشر من تقدم فيها كان ضئيلا ، لأن جميع الفيزيائيين تقريباً قبلوا « فرض الجسيمات » الذى قال به نيوتن — وهو أن الضوء انبعاث كريات من الجسم إلى العين . وكان أويلر يتزعم أقلية تدافع عن نظرية الموجات . فافترض — كما افترض هويجنز — أن الفضاء « الخالى » بين الأجرام السماوية ، وبين الأجسام المنظورة الأخرى ،

يملؤه « الأثير » ، وهو مادة أرق من أن تدركها حواسنا أو آلاتنا ، ولكن تلمع إليه إلماعاً شديداً ظواهر الجاذبية ، والمغنطيسية ، والكهرباء . والضوء فى رأى أويلر تموج فى الأثير ، كما أن الصوت تموج فى الهواء . وقد ميز بين الألوان على أنها ترجع إلى فترات مختلفة من التذبذب فى أمواج الضوء ، وكان سباقاً إلى نظريتنا التى تنسب اللون الأزرق إلى أقصر فترة تذبذب ، واللون الأحمر إلى أطولها . وقد أثبت بيير بوجيه بالتجربة ما سبق أن توصل إليه كيلر نظرياً ، وهو أن شدة الضوء تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع بعده عن مصدره . وتوصل يوهان لامبرت إلى طرق لقياس شدة الضوء ، وقرر أن ضياء الشمس يبلغ ٢٧٧,٠٠٠ ضعف ضياء القمر ، وأن علينا أن نتقبل هذا بالإيمان كما تقبلنا اللاهوت الذى ألقى إلينا فى طفولتنا .

٢ — الكهرباء

حققت فيزياء القرن الثامن عشر أروع تقدم لها فى ميدان الكهرباء . لقد عرف الناس كهرباء الاحتكاك منذ زمن طويل . وكان طاليس المليطى (٦٠٠ ق . م) على علم بما للعنبر (الكهرمان) ، والكهرمان الأسود ، وغيرهما من المواد إذا حكت من قدرة على جذب الأجسام الخفيفة كالريش أو القش . وقد سمى وليم جلبرت ، طبيب الملكة اليزابث ، هذه القوة الجاذبة « إلكترون » (من كلمة Electron اليونانية بمعنى الكهرمان) وباللاتينية vis electrica . وكانت الخطوة التالية هى إيجاد وسيلة لتوصيل هذه الكهرباء الساكنة واستخدامها . وقد بحث جويريكى وهاوكسبى عن مثل هذه الوسيلة فى القرن السابع عشر ، وبقى أن يظل الكشف الحاسم عليها سراً حتى يتم على يد ستيفن جراى (١٧٢٩) .

وكان جراى رجلا متقاعداً حاد الطبع ، نزيل ملجأ من ملاجىء لندن . وحين « كهرب » أنبوبة زجاجية ، مسدودة بفلينتين عند طرفيها ، بدعكها وجد أن الفلينتين وكذلك الأنبوبة تجذب ريشة طائر . فأدخل أحد طرفى قضيب خشبى فى إحدى الفلينتين ، والطرف الآخر فى كرة من العاج ، فلما دعك الأنبوبة ، جذبت الكرة الريشة كما جذبتها الأنبوبة والفلينتان ، وهكذا أمكن توصيل الكهرباء على طول القضيب . واستطاع باستعمال

الدوبارة أو خيط القنب المتين بدلا من القضيب أن يوصل الكهرباء لمسافة ٧٦٥ قدماً . فلما استخدم الشعر ، أو الحرير ، أو الراتنج ، أو الزجاج . فى الربط انعدم التوصيل ؛ وهكذا لاحظ جراى الفرق بين الأجسام الموصلة وغير الموصلة ، واكتشف أن الأجسام غير الموصلة يمكن استعمالها لحفظ الشحنات الكهربائية أو تخزينها . فلما علق ٦٦٦ قدماً من الدوبارة الموصلة من سلسلة طويلة من الأعمدة المائلة ، وأرسل « القوة أو الفضيلة » الكهربائية (كما سماها) خلال تلك المسافة ، كان فى الواقع سباقاً إلى ابتكار التلغراف .

وتبنت فرنسا البحث ، فواصل جان ديزاجوليبه (١٧٣٦) تجارب جراى ، وقسم المواد إلى موصـــلة وغير موصلة (سماها « كهربات قائمة بذاتها ») ووجد أن هذه يمكن تغييرها إلى موصلات ببلها بالماء . وأجرى شارل روفيه أبحاثاً أنهاها إلى أكاديمية العلوم فى ١٧٣٣ — ٣٧ . وفى رسالة متواضعة إلى جمعية لندن الملكية (١٧٣٤) صاغ أهم استنتاجاته على النحو الآتى :

« لقد ألقت الصدفة فى طريقى بمبدأ آخر ... وهو أن هناك كهربائين متميزتين . تختلفان الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً ، اسمى إحداهما « الكهرباء الزجاجية » والأخرى « الكهرباء الراتنجية » والأولى هى كهرباء الزجاج . والبللور الصخرى ، والأحجار الكريمة ، وشعر الحيوان والصوف ؛ وأجسام كثيرة أخرى . والثانية كهرباء العنبر ، والكوبال ، والجملكة ، والحرير ، والخيط ، والورق ، وعدد هائل من المواد الأخرى . وطبيعة هاتين الكهربائين هى أن جسما من نوع الكهرباء الزجاجية ... يصد كل الأجسام التى من هذا النوع من الكهرباء ، وبالعكس يجذب كل الأجسام التى من نوع الكهرباء الراتنجية [١٧] .

إذن فإن جسمين مكهربين بالتماس مع نفس الجسم المكهرب يصد أحدهما الآخر وهو ما اكتشفه دوفيه ، ويستطيع كل تلميذ أن يتذكر دهشته حين رأى كرتى بلسان معلقتين بواسطة مادتين غير موصلتين من نفس النقطة وموضوعتين بحيث تمس الواحدة منهما الأخرى ، تنتقضان فجأة مبتعدتين الواحدة عن الأخرى حين يلمسهما نفس القضيب الزجاجى المكهرب . وأظهرت تجارب لاحقة أن الأجسام « الزجاجية » قد تكتسب كهرباء راتنجية » ، وأن الأجسام « الراتنجية » قد تكتسب كهرباء « زجاجية » .

ومن ثم غير فرانكلن مصطلحات دوفيه إلى « موجبة وسالبة » . وروح دوفيه عن معاصريه بتعليقه رجلا بحبال غير موصلة ، وشحنه بالكهرباء بتلامسه مع جسم مكهرب ، ثم بعث الشرر من جسم الرجل المعلق دون أن يصيبه أذى (*) .

وانتقل المشهد إلى ألمانيا . فسبق جورج بوزيه فى ناحية فرانكلن بإلماعه إلى أن ظاهرة الفجر الكاذب مصدرها كهربائى . وفى ١٧٤٤ أثبت كرستيان لودولف فى أكاديمية برلين أن فى استطاعة شرارة كهربية أن تشعل سائلا قابلا للالتهاب . وفجر بونيه البارود بهذه الطريقة ، فأفتتح بذلك عصر استعمال الكهرباء فى التفجير ، وإطلاق المدافع ، وعشرات الأغراض الأخرى . وفى نفس العام بدأ جوتليب كراتسنشتين استعمال الكهرباء فى علاج الأمراض . وفى أكتوبر ١٧٤٥ اكتشف قسيس بومرانى يدعى أ . ج كلايست أن فى الإمكان تخزين شحنة كهربية فى أنبوبة زجاجية يملئها بسائل أدخل فيه مسماراً متصلا بآلة تحدث كهرباء احتكاكية ، فلما قطعت الوصلة احتفظ السائل بشحنته عدة ساعات . وبعد بضعة شهور توصل إلى هذا الكشف ذاته أستاذ بجامعة ليدن يدعى بيتر فان موسشينبرويك ، دون أن يعلم شيئاً عن تجارب كلايست . وتلقى من طاس مشحونة غير مفصولة صدمة بدا لحظة أنها قاضية عليه ، ولم يفق منها إلا بعد يومين . وأثبت المزيد من التجارب فى ليدن أن فى الإمكان تخزين شحنة أثقل فى قارورة فارغة إذا غلف سطحاها السفليان ، الداخلى والخارجى ، بورقة قصدير . وخطرت لدانيال جرالات فكرة ربط عدة « جرار ليدينية » معاً ، ووجد أن إفراغ شحنتها الكهربية يقتل صغار الحيوان .

---

* بدأ الآن قرن من الحيل الكهربية فدعا جورج بوزيه ، الأستاذ بجامعة ليبزج ، عدة أصدقاء للغذاء ثم عزل المائدة خفية ، ولكنه أوصل شتى الأجسام التى فوقها بآلة تحدث الكهرباء مخفاة فى الحجرة المجاورة . فلما أقبل الضيوف على الطعام أشار لمساعد له بأن يدير الآلة ، وتطاير الشرر من الأطباق ، والأطعمة ، والأزهار . ثم قدم للجماعة شابة جذابة عزلها حذاؤها عن أرض الحجرة ، ولكن جسمها كان قد شحن كهرباء ، ودعا الضيوف الى تقبيلها . فأصيب المقبلون بصدمات كادت « تخلع اسنانهم » على حد قول الأستاذ .

وعرض لوى جيوم فى باريس عام ١٧٤٦ ، ووليم واطسن فى لندن عام ١٧٤٧ ، ما بدأ واطسن بتسميته « دائرة » . فقد مد واطسن سلكاً طوله نحو ألف ومائتى قدم عبر كوبرى وستمنستر ، وعلى إحدى ضفتى التيمز أمسك رجل بطرف السلك ولمس الماء ؛ وعلى الضفة الأخرى أمسك آخر بالسلك وبجرة من الجرار الليدينية ، فلما لمس ثالث الجرة بيد وقبض بالأخرى على سلك امتد داخل الماء أقفلت « الدائرة » وأصيب الرجال الثلاثة بصدمة . وفى ١٧٤٧ لاحظ جرومبرت الدرسدنى أن فى الإمكان بعث الشرر مسافة ما خلال فراغ جزئى . فينشأ عن ذلك ضوء غير قليل .

ويوصلنا هــذا العام – عام ١٧٤٧ إلى بنيامين فرانكلن ، الذى بدأ آنئذ تجاربه الكهربية التى جعلت اسمه وصـيته يتذبذبان بين العلم والسياسة . هنا ذهن وقلب من أعظم ما وعى التاريخ ، اتسعت رقعة فضوله الخــلاق وتفاوتت من مقترحات كالتوقيت الموفر لنور النهار ، والكراسى الهزازة ، والنظارات المزدوجة البؤرة إلى مانعات الصواعق ونظرية السائل الواحد الكهربية . وقد اعترف عالم من أئمة علماء قرننا هذا ، هو السير جوزيف طومسن ، بأنه « دهش للتشابه بين بعض الآراء التى تهدينا إليها نتائج أحدث الأبحاث ، والآراء التى قال بها فرانكلن فى طفولة الموضوع [١٩] » .

كان من أول كشوف فرانكلن تأثير الأجسام المدببة فى « جذب وقذف النار الكهربية » [٢٠] . فقد وجد أن إبرة طويلة رفيعة تستطيع جذب تيار من الكهرباء من كرة مكهربة على بعد ست بوصات أو ثمان ، فى حين أن جسما غير حاد اقتضى إحداث هذا الأثر فيه تقريبه إلى مسافة بوصة من الكرة . وكان فرانكلن يتحدث عن الكهرباء باعتبارها ناراً ، ولكنه ذهب إلى النار نتيجة خلل بين توازن السائلين الناريين « الموجب والسالب » ، اللذين ظن أنهما الكهرباء . فكل الأجسام عنده تحوى هذا السائل الكهربى : فالجسم « الزائد » المحتوى على أكثر من كميته العادية ، يكهرب إيجابياً ويميل إلى إفراغ فائضه فى جسم يحوى كمية عادية أو أقل من العادية ؛ والجسم « الناقص » المحتوى على أقل من كميته العادية ، يكهرب سلبياً ، ويجتذب

الكهرباء من جسم يحوى كمية عادية أو أكثر . وعلى هذا الأساس طور فرانكلن بطارية مكونة من إحدى عشرة لوحة زجاجية كبيرة مغطاة برقائق من الرصاص كهربت إلى درجة عالية ؛ فلما قرب هذا الجهاز ليلمس أجساماً أخف شحنة ، أطلق جانباً من شحنته بقوة قال عنها فرانكلن « أنها لا تعرف حدوداً » تفوق أحياناً » أشد ما نعرف من آثار البرق العادى » (٢١) .

وكان العديد من الباحثين — وول ، ونيوتن ، وهوكسبي ، وجراى ، وغيرهم — قد لاحظوا الشبه بين الشرر الكهربى والبرق ؛ فأثبت فرانكلن أنهما واحد . وفى ١٧٥٠ أرسل إلى جمعية لندن الملكية رسالة جاء فيها :

« ألا يجوز أن يفيدنا علمنا بقوة الأطراف المدببة هذه فى وقاية البيوت والكنائس والسفن الخ . من الصواعق ، وذلك بإرشادنا إلى أن نثبت فوق قمم المبانى قضباناً مستقيمة من الحديد ، يسن القضيب منها كالأبرة ويغشى بالذهب منعاً لصدئه ، ومن أسفل هذه القضبان يمد سلك من خارج البناء هابطاً إلى الأرض ، أو حول أحد حبال صارى المركب إلى جنبها حتى يصل إلى الماء ؟ ألا يحتمل أن تجذب هذه القضبان المدببة النار الكهربائية فى هدوء من السحابة قبل أن تقترب قرباً يتيح لها أن تصعق البناء ، وبهذا نأمن ذلك الشر الفجائى المستطير ؟ » (٢٢) :

ثم وصف تجربة يمكن أن تختبر بها هذه النظرية . أما الجمعية الملكية فقد رفضت الاقتراح لأنه من قبيل الخيال ، ورفضت أن تنشر رسالة فرانكلن . ولكن عالمين فرنسيين هما دلور ودالبيار ، وضعا نظرية فرانكلن موضع الاختبار ، فأقاما فى حديقة بمارلى (١٧٥٢) قضيباً حديدياً مدبباً طوله خمسون قدماً ، ونبها على حارس بأن يلمس القضيب بسلك نحاسى معزول إن مرت فى غيابهما سحب رعدية فوق رأسه . وجاءت السحب ، ولمس الحارس القضيب لا بالسلك فقط بل بيده كذلك ؟ وتطاير الشرر وطقطق ، وصدم الحارس صدمة عنيفة . وأيد دلور ودالبيار رواية الحارس بمزيد من الاختبارات ، وأبلغا أكاديمية العلوم الباريسية أن « فكرة فرانكلن لم تعد حدساً بل حقيقة » .

أما فرانكلن فلم يقنع بهذا ، فقد أراد أن يوضح وحدة البرق والكهرباء فى جلاء ، وذلك بأن « يستخلص » البرق بشىء يرسل صعدا إلى السحابة

المبرقة ذاتها . فنى يونيو ١٧٥٢ حين بدأت عاصفة رعدية ، طير على خيط قنب متين طيارة من الحرير (لأنه أصلح من الورق لحمل الريح والرطوبة ، دون أن يتمزق) ؛ وبرز سلك شديد التدبب على نحو اثنتى عشرة بوصة من قمة الطيارة ، وعلى طرف الخيط الذى ينتهى عند المشاهد ربط مفتاح بشريط حريرى ؛ وبين فرانكلن نتائج التجربة فى رسالة إلى انجلترة (١٩ أكتوبر) ضمنها توجيهات لتكرارها :

« إذا بلل المطر خيط الطيارة بحيث يستطيع توصيل النار الكهربية دون معوق ، ستجد أنها تنطلق بوفرة من المفتاح بمجرد أن تدنى منه مفصل اصبعك . وبهذا المفتاح يمكن شحن قنينة (أو جرة ليدينية) ، ومن النار الكهربية التى يحصل عليها بهذه الطريقة يمكن إشعال المواد الكحولية وإجراء جميع التجارب الكهربية الأخرى التى تجرى عادة بالاستعانة بكرة أو أنبوبة زجاجية محكوكة ، وهكذا يتضح تماماً أن المادة الكهربية هى والبرق شىء واحد » [٢٣] .

وكررت التجربة فى فرنسا (١٧٥٣) بطيارة أكبر وحبل طوله ٧٨٠ قدماً ملفوف حول سلك حديدى ، ينتهى عند المشاهد بأنبوبة معدنية كانت فى التجربة تبعث شرراً طوله ثمانى بوصات . وقد قتلت الصدمة الكهربية ج. و. وتشمان الأستاذ بجامعة سانت بطرسبورج وهو يجرى تجربة مماثلة . فلما أرسلت مؤلفات فرانكلن إلى انجلترة فى ١٧٥١ — ٥٤ أكسبته الانتخاب عضواً فى الجمعية الملكية ، ومدالية كوبلى . وجاءته ترجمتها إلى الفرنسية بخطاب تهنئة من لويس الخامس عشر ، وثناء حار من ديدرو ، الذى وصفها بأنها نماذج فى تحرير التقارير العملية . وقد مهدت هذه الترجمات للاستقبال الودى الذى لقيه فرانكان حين قدم إلى فرنسا ملتمساً العون للمستعمرات الأمريكية إبان ثورتها فلما نجحت الثورة بمعونة فرنسا لخص دالامبير (أوطورجو) إنجاز فرانكلن فى بيت محكم خليق بقيرحل أو لوكريتيوس :

« إنه خطف البرق من السماء ، والصولجان من الطغاة » .

وعجت أوربا كلها بالنظريات والتجارب الكهربية بعد عام ١٧٥٠ . ففتح جون كانتون (١٧٥٣) وفيلكى العالم المتعدد القدرات (١٧٥٧) الطريق لدراسة التوصيل الكهربى الاستاتيكى ، الذى يتكهرب بواسطته موصل غير مشحون إذا وضع بقرب جسم مشحون . وبرهن فيلكى على أن فى الإمكان شحن معظم المواد بالكهرباء الموجبة (أو السالبة) إذا حكت بجسم مشحون بشحنة أقل منها (أو أزيد) . وأثبت أيبينوس (فرانتز أولريش هوخ) الذى كان يعمل مع فيلكى فى برلين أن لوحتين معدنيتين لا يفصلهما إلا طبقة من الهواء تعملان عمل الجرة الليدينية . وحاول جوزف بريستلى قياس قوة الشحنة الكهربية وأقصى اتساع تمر عبره شرارة شحنه معينة . وقد قرر أنه حين عبرت شرارة فجوة لا تتجاوز حتى بوصتين بين قضيبين معدنيين فى فراغ ظهر فى الفجوة « ضوء أزرق أو أرجوانى خفيف ». على أن أروع اسهام أسهم به بريستلى فى النظرية الكهربية هو إلماعه إلى أن قوانين الكهرباء قد تكون شبيهة بقوانين الجاذبية وأن القوة التى تؤثرها الواحدة على الأخرى بواسطة شحنات كهربية منفصلة تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بين مصدريهما . وقد جرب هنرى كافندش (الذى يذكر كما يذكر بريستلى بفضل منجزاته فى الكيمياء على الأخص) اقتراح بريستلى فى سلسلة من التجارب الصابرة ، وتوصل إلى تعديل طفيف ولكنه هام ، زاده جيمس كلارك ماكسويل صقلا فى ١٨٧٨ ، والقانون يقبل اليوم بوضعه هذا . وبعد أن قام شارل أوجستن وكولومب بأعمال قيمة فى ميدان توتر العوارض ومقاومة المعادن للالتواء ، قدم لأكاديمية العلوم الباريسية تقارير عن تجارب (١٧٨٥ — ٨٦) استخدمت الميزان الالتوائى (إبرة تعتمد على شعرة رقيقة) فى تقدير التأثيرات المغنطيسية والشحنات الكهربية ، وفى كلتا الحالتين أثبت مادياً قانون المربعات العكسية .

وقد ترك إيطاليان ، كما ترك كولومب ، على اسميهما مصطلحات الكهرباء. فلم يقتصر لويجى جلفانى أستاذ التشريح فى بولونيا على كشفه إمكان إحداث التقلصات العضلية فى الحيوان الميت بالتماس الكهربى المباشر (وكان هذا معروفاً قبل ذلك بزمن طويل) بل زاد بأن هذه التقلصيات تحدث إذا قربت ساق ضفدع ميت موصلة بالأرض من آلة تبعث شرارة كهربية . وأحدثت

تقلصات مماثلة فى سيقان الضفادع — الموصلة كذلك بالأرض والمربوطة بأسلاك حديدية طويلة — حين ومض البرق فى الحجرة . وأدهش جلفانى أن يكتشف أن فى إمكانه أن يقلص ساق ضفدع دون أى استعمال أو وجود لجهاز كهربى بمجرد تقريب عصب الضفدع وعضلته ليمسا معدنين مختلفين . وخلص من ذلك إلى أن فى جسم الحيوان كهرباء طبيعية .

وكرر هذه التجارب أليساندرو فولتا ، أستاذ الفيزياء فى بافيا ، ووافق أول الأمر على نظرية مواطنه فى الكهرباء الحيوانية ، ولكن المزيد من أبحاثه عدل آراءه . فبعد أن أعاد فولتا تجربة رواها ى . ج. زولتسر حوالى عام ١٧٥٠ وجد أنه إذا وضع قطعة من القصدير على طرف لسانه ، وقطعة من الفضة على ظهر لسانه شعر بطعم شديد الحموضة كلما وصل المعدنين بسلك . فلما وصل جبينه وسقف حلقه بهذين المعدنين المختلفين حصل على إحساس بالضوء . وفى ١٧٩٢ أذاع النتيجة التى خلص إليها ، وهى أن المعدنين ، لا النسيج الحيوانى ، أحدثا الكهرباء بمجرد تفاعل الواحد مع الآخر ولمسهما مادة رطبة يحسن أن تكون محلول ملح . وأثبت المزيد من التجارب أن تماس معدنين مختلفين يحدث بهما شحنة كهربية — الواحد إيجاباً والآخر سلباً — دون تدخل من أى مادة رطبة ، حيوانية كانت أو غير حيوانية . ولكن هذا التماس المباشر يحدث تفاعلا فى الشحنات فقط ، لا تدفقاً فى التيار . ولكى يحدث فولتا تياراً صنع » رصيفاً كهربائياً « (فولطياً) بوضع عدة طبقات بعضها فوق بعض ، يتألف كل منها من صفيحتين موصولتين من معدن مختلف ، وصفيحة من الورق أو الخشب المبلل . وهكذا كونت فى آخر سنة فى القرن الثامن عشر أول بطارية ذات تيار كهربى . وفتح الطريق أمام الكهرباء لتعيد صنع وجه الأرض وليلها .

٤ — الكيمياء

(أ) البحث عن الأوكسجين

كتب إدوارد جيبون فى ١٧٦١ يقول « إن الفيزياء والرياضة تتربعان الآن على العرش ، تريان أخواتهما ملقيات على الأرض أمامهما ، مغلولات إلى عربتهما ، أو على الأكثر يزين موكب انتصارهما . ولعل الزمن لن

تمهلهما كثيراً حتى يسقطهما عن عرشهما » .[٢٤] وكانت تلك نبوءة مشئومة ، فالفيزياء الآن ملكة العلوم ، والرياضة معينتها ، ولكن ما من أحد يستطيع التنبؤ بما قد يسفر عنه اتحادهما .

ومع ذلك ، ففي وسط جميع انتصارات رياضة القرن السابع عشر وفيزيائه وفلكه ، كان علم صغير قد انبعث من أقطة الكيمياء . وأوشك خطأ مؤسف أن يخنقه وهو بعد في المهد . ذلك أن جورج شتال أستاذ الطب والكيمياء في هاللي ، عملا بنظرية اقترحها بوهان بيشر في ١٦٦٩ ، علل الاحتراق بأنه إطلاق « الفلوجستون » (اللاهوب) من المادة المحترقة إلى الهواء وكلمة Phlogiston هي المقابل اليوناني لكلمة inflammable أى قابل للاحتراق ؛ وكلمة phlox هي المقابل اليوناني لكلمة flame أى اللهب ، وتعني اليوم نباتاً تتلون أزهاره أحياناً باللون الأحمر المشتعل) . وبما وافى عام ١٧٥٠ حتى قبل معظم الكيميائين في غرب أوربا هذه النظرية التي تزعم أن الحرارة أو النار مادة منفصلة عن المادة المشتعلة . ولكن أحداً لم يستطع أن يفسر ، إذا كان الأمر كذلك فما السر في أن المعادن تزن بعد احتراقها أكثر منها قبله .

وقد مهد لتعايلنا الراهن للاحتراق العمل الذى قام به هيلز ، وبلاك ، وشيليه في كيمياء الهواء . أما ستيفن هيلز فقد عبد الطريق باختراعه « الحوض الغازى » وهو وعاء هوائي يمكن أن تجمع فيه الغازات في إناء مقفل فوق الماء . وقرر أن الغازات (وقد سماها « الأهوية ») تحتويها جوامد كثيرة ، ووصف الهواء بأنه « سائل مطاط رقيق » له جزئيات ذات طبيعة مختلفة جداً تطفو فيه »[٢٥] .

وقد أنهى تحليل الهواء والماء إلى مواد منوعة الفكرة القديمة عن الهواء ، والماء ، والنار ، والتراب ، باعتبارها العناصر الرئيسية الأربعة . وفى الجيل التالى أثبتت تجارب جوزف بلاك (١٧٥٦) أن من مكونات الهواء ما سماه اقتداء بهيلز — « الهواء الثابت » أى الهواء المحتوى في المواد الجامدة أو السائلة والقابل للازالة منها ، ونحن نسميه الآن ثانى أوكسيد الكربون أو غاز حامض الكربونيك » . وزاد بلاك بتمهيده الطريق للكشف عن الأوكسجين بإثباته

بالتجربة أن هذا الغاز يحتويه زفير الإنسان . ولكنه ظل يؤمن بالفلوجستون ، وظل الأوكسجين والهيدروجين والأزوت (النيتروجين) أسراراً غامضة .

وقد أسهمت السويد بعطاء سخى فى كيمياء القرن الثامن عشر فتوربرن أولوف بيرجمان ، الذى سنلتقى به ثانية رائداً فى الجغرافيا الطبيعية ، كان أولا وقبل كل شىء كيميائياً ، عرفه الناس وأحبوه أستاذاً لذلك العلم فى جامعة أوبسالا . وهو أول من حصل على النيكل فى حالة نقاء ، وأول من أثبت أهمية الكربون فى تحديد الخواص الطبيعية للمركبات الكربونية الحديدية . وقد درس فى حياته القصيرة نسبياً — والتى لم تتجاوز تسعة وأربعين عاماً — الائتلافات الكيميائية لتسع وخمسين مادة ، بعد أن أجرى عليها نيفاً وثلاثين ألف تجربة ، ونشر كشوفه فى كتابه « الاجتذابات الانتخابية » (١٧٧٥) ومات قبل أن يكمل هذا العمل ، ولكنه كان خلال ذلك قد أورث شيليه تفانيه فى البحوث الكيميائية .

ويسلم مؤرخو العلم الانجليز الآن فى شهامة بأن كيميائياً سويدياً — هو كارل فلهلم شيليه سبق (١٧٧٢) كشف بريستلى (١٧٧٤) لما سماه لافوزييه (١٧٧٩) لأول مرة بالأكسجين . وقد قضى شيليه أكثر عمره الذى لم يتجاوز الثلاثة والأربعين عاماً فقيراً معدماً . بدأ صبياً لصيدلى فى جوتبورج ، ولم يرق إلى أكثر من صيدلى فى مدينة كوبنج المتواضعة . وقد حصل له معلمه توربيرن بيرجمان — على معاش صغير من أكاديمية استوكهولم للعلوم ، فكان شيليه ينفق ثمانين فى المائة منه على التجارب الكيميائية ، يجرى أكثرها ليلا بعد الفراغ من عمل نهاره مستعيناً بأبسط الأجهزة المعملية . ومن هنا موته المبكر . ومع ذلك فقد غطى ميدان هذا العلم الجديد كله تقريباً ، وعرفه ببساطته المعهودة فقال « إن هدف الكيمياء ومهمتها الرئيسية هى أن تفصل المواد بمهارة ، وتردها إلى مكوناتها ، وأن تكشف خواصها ، وأن تركبها بطرق مختلفة »[٢٦] .

وفى ١٧٧٥ أرسل إلى المطبعة مخطوطة عنوانها « رسالة كيميائية فى الهواء والنار » ؛ وتأخر نشرها حتى ١٧٧٧ ، ولكن كل التجارب التى وصفها تقريباً كانت قد أجريت قبل ١٧٧٣ . ومع أن شيليه ظل حتى مماته متمسكاً

بإيمانه باللاهوب ، فإنه أرسى قضية أساسية هى أن الهواء غير الملوث يتألف من غازين ، سمى أحـــدهما « هواء النار » وهو الأكسجين لأنه أهم عماد للنار وسمى الثانى « الهواء التالف » وهو الأزوت لأنه هواء فقـــد « هواء النار » . وقد حضر الأكسجين بطرق عديدة ، مزج فى إحداها حامض الكبريتيك المركز بالمنغنيز المطحون طحناً دقيقاً ، وسخن المزيج فى إنبيق ، وجمع الغاز الناتج فى كيس ضغط حتى خلا من الهواء تقريباً . ووجد أن الغاز الذى أنتج على هذا النحو إذا مرر على شمعة مشتعلة « بدأت تشتعل بلهيب أكبر ، وبعثت نوراً ساطعاً يبهر العين »(٢٧) . وخلص إلى أن « هواء النار » هو الغاز الذى تعتمد عليه النار . ولا شك أنه استخرج هذا الغاز قبل أن يستخرجه بريستلى بسنتين (٢٨) .

ولم يكن هذا سوى قسط يسير من منجزات شيليه . ولعل سجله مكتشفاً لمواد جديدة لا ضريب له بين المكتشفين (٢٩) فهو أول من عزل الكلورين ، والباريوم ، والمنغنيز ، ومركبات جديدة مثل النشادر ، والجلسرين ، وأحماض الهيدروفلوريك ، والتانيك ، والبنزويك ، والأوكساليك ، والماليك ، والطرطريك . وقد انتفع برتولليه فى فرنسا ، وجيمس وات فى انجلتره ، انتفاعاً تجارياً بكشفه لتبييض الكلورين للثياب ، والخضر ، والزهر . وفى أبحاث أخرى اكتشف شيليه حمض البوليك بتحليل حصاة المثانة (١٧٧٦) . وفى ١٧٧٧ حضر الهيدروجين المكبرت ، وفى ١٧٧٨ حمض المولبديك . وفى ١٧٨٠ أثبت أن حموضة اللبن الحامض سببها حمض اللبنيك ؛ وفى ١٧٨١ حصل على حمض التنجستيك من تنجستات الكلسيوم (ويعرف الآن بالشيلى) . وفى ١٧٨٣ اكتشف حمض البروسيك (الهيدروسيانيك) دون أن يدرك ما له من طبيعة سامة . كذلك استخرج غاز الأرسين (وهو مركب قتال من الزرنيخ (وصبغة الزرنيخ المعروفة الآن بأخضر شيليه (٣٠) . وقد أعان على تيسير التصوير الفوتوغرافى بإثباته أن ضوء الشمس يحيل كلوريد الفضة إلى فضة . وأن الأشعة المنوعة التى يتألف منها الضوء الأبيض لها تأثيرات مختلفة على أملاح الفضة . وقد تبين أن الجهد الذى أنفق فى هذا العمر القصير ، وهو جهد مثمر إلى حد لا يصدق ، ذو أهمية بالغة فى التنميات الصناعية فى القرن التاسع عشر .

(ب) بريستلى

ظل الفضل فى اكتشاف الأكسجين ينسب طويلا إلى جوزف بريستلى لا إلى شيليه ، لأنه اكتشفه مستقلا عن شيليه ، وأذاع اكتشافه هذا فى ١٧٧٥ قبل عامين من نشر شيليه المتأخر لكشفه . ومع ذلك فنحن نكرمه لأن أبحاثه أتاحت للافوازييه أن يضفى على الكيمياء شكلها الحديث ، ولأنه كان من الرواد فى الدراسة العلمية للكهرباء ، ولأنه أسهم بشجاعة فى الفكر البريطانى عن الدين والحكومة حتى أن جماعة متعصبة من الغوغاء أحرقت بيته فى برمنجهام وحملته على الالتجاء إلى أمريكا . وقد لمس تاريخ الحضارة فى نقط كثيرة ، وهو واحد من أعظم شخصياته إلهاماً .

ولد فى يوركشير فى ١٧٣٣ ، لمشاط من المنشقين على الكنيسة الرسمية . وأكب بنهم على دراسة العلم ، والفلسفة ، واللاهوت ، واللغات ؛ فتعلم اللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، والعربية ، وحتى طرفاً من السريانية والكلدية . واشتغل أول الأمر واعظاً منشقاً فى سافوك ، ولكن عقده فى لسانه انتقصت من تأثير بلاغته فى السامعين . فلما بلغ الخامسة والعشرين نظم مدرسة خاصة بعث الحياة فى مناهجها بتجارب فى الفيزياء والكيمياء . وفى الثامنة والعشرين أصبح معلماً فى أكاديمية للمنشقين فى وارنجتن ، وهناك علم خمس لغات ، ووجد رغم ذلك الوقت ليجرى أبحاثاً أكسبته زمالة فى الجمعية الملكية (١٧٧٦) . فى تلك السنة التقى بفرانكلن فى لندن فشجعه على تأليف كتابه « تاريخ الكهرباء ووضعها الراهن » (١٧٧٦) وهو مسح جدير بالإعجاب للموضوع بأسره حتى جيله ؛ وفى ١٧٦٧ عين راعياً لكنيسة مل هل بليدز . وقد تذكر فى تاريخ لاحق من حياته ، إنه « نتيجة لسكناى حيناً بقرب مصنع عمومى للجعة أغريت بإجراء تجارب على الهواء الثابت »[٣١] . لأن عجين مصنع الجعة انبعث منه غاز ثانى أكسيد الكربون . وقد أذابه فى الماء ، وأعجبته نكهته الفوارة ؛ وكان هذا أول « ماء صودا » .

وفى ١٧٧٢ أعفى من هموم الرزق بتعيينه أمين مكتبة للورد شلبرن . وفى البيت الذى جهز له بكولن أجرى التجارب التى أكسبته شهرة دولية .

وقد حسن « وعاء هيلز الغازى » بأن جمع فوق الزئبق ، بدلا من الماء ، الغازات التى ولدها بأنواع مختلفة من المزج . ففى ١٧٧٢ عزل أكسيد النتريك ، وأكسيد النترى (الغاز الضحاك) وكلوريد الهيدروجين ؛ وفى ١٧٧٣ النشادر (مستقلا عن شيليه) ؛ وفى ١٧٧٤ ثانى أكسيد الكبريت ؛ وفى ١٧٧٦ بيروكسيد الأزوت . وفى ١٥ مارس ١٧٧٥ أرسل إلى الجمعية الملكية خطاباً أذاع فيه كشفه للأكسجين . وقد وصف طريقته فى المجلد الثانى من كتابه تجارب ومشاهدات فى مختلف أنواع الهواء (١٧٧٥) فقال أنه باستعمال عدسة حارقة قوية : « شرعت ... بالاستعانة بها فى أن أفحص نوع الهواء الذى تطلقه أنواع كثيرة جداً من المواد) حين تسخن بهذه الطريقة (بوضعها فى ... أوان ... مملوءة بالزئبق ومقلوبة فى حوض الزئبق ... وبهذا الجهاز ... ، فى أول أغسطس ١٧٧٤ ، حاولت استخراج الهواء من الزئبق المكلس وحده (أكسيد الزئبق) وسرعان ما وجدت أن الهواء يطرد منه بسرعة باستعمال هذه العدسة ... والذى أدهشنى دهشة لا يمكننى التعبير عنها أن شمعة اشتعلت فى هذا الهواء بلهب قوى جداً [٣٢] .

فلما لاحظ — كما لاحظ شيليه — أن فى استطاعة فأر أن يعيش أطول فى هذا الهواء المنزوع اللاهوب أو الفلوجستون (كما سمى الأكسجين) مما يعيش فى الهواء العادى ، خطر له أن يجرب بنفسه الهواء الجديد .

« لن يعجب القارىء لأننى بعد أن أكد لى عظم صلاحية الهواء المنزوع اللاهوب من حياة الفيران فيه ، وبغير ذلك من التجارب التى سبق ذكرها ، تطلعت إلى تذوقه بنفسى . فأشبعت فضولى باستنشاقه وسحبه من زجاجة سيفون ؛ وبهذه الطريقة أحلت ابريقاً كبيراً مملوءاً به إلى مستوى الهواء العادى . ولم يكن إحساس رئتى به يختلف اختلافاً محسوساً عن إحساسهما بالهواء العادى ، ولكن خيل إلى أن صدرى ظل بعض الوقت بعدها يحس بأنه خفيف إلى درجة غريبة . ومن يدرى ، فلعل هذا الهواء النقى سيصبح يوماً ما أداة عصرية من أدوات الترف ؟ أما إلى اليوم فإن أحداً لم يستمتع باستنشاقه سواى أنا وفأرين [٣٣] ...

وقد تنبأ ببعض صور هذا الترف المستقبل :

لنا أن نحزر — من قوة لهيب الشمعة المضاءة فى هذا الهواء النقى وسطوعها الزائد — أنه قد يكون أصلح جداً للرئتين فى حالات مرضية معينة ، حين لا يكفى الهواء العادى لإزالة الزفر الفلوجستى الفاسد (ثانى أكسيد الكربون) بالسرعة الكافية . ولكن ربما استنتجنا أيضاً من هذه التجارب أنه وإن كان الهواء المنزوع اللاهوب (الأكسجين) مفيداً جداً كدواء ، فإنه قد لا يكون بمثل هذه الصلاحية لنا فى حالة الصحة العادية للبدن ، لأن الشمعة تشتعل فى الهواء المنزوع اللاهوب بأسرع مما تشتعل فى الهواء العادى ، ومن ثم فقد نفنى حياتنا بأسرع مما ينبغى وتستهلك فينا القوة الحيوانية على عجل فى هذا النوع النقى من الهواء (٣٤) .

وقد تألقت تجارب بريستلى بالفروض المثمرة والإدراكات اليقظة ، ولكن تفسيراته النظرية كان أكثرها تقليدياً . فقد ظن كما ظن شتال وشيليه أنه فى الاحتراق يخرج الجسم المشتعل مادة هى الفلوجستون (اللاهوب) وذهب إلى أن هذه المادة تتحد مع أحد مكونات الهواء ليكونا « الهواء التالف » أو « الهواء ذات اللاهوب » (وهو الأزوت) أما المكون الآخر فسماه « الهواء المنزوع اللاهوب » وهو ما سيطلق عليه لافوازييه اسم الأكسجين . وبينما كان لافوازييه يقول بأن الجسم فى عملية الاحتراق يمتص الأكسجين من الهواء بدلا من أن يطرد الفلوجستون فيه ، ظل بريستلى إلى آخر حياته متمسكاً بالمفهوم القديم .

وفى ١٧٧٤ سافر مع اللورد شلبرن إلى القارة ، وأخبره بتجارب الأكسجين . وفى ١٧٨٠ أحاله شلبرن إلى التقاعد بمعاش سنوى قدره ١٥٠ جنيها . واستقر بريستلى فى برمنجهام قسيساً أصغر لجماعة كبيرة من المنشقين تدعى « المحفل الجديد » . وانضم إلى جيمس وات ، وجوسيا ودجوود ، وارزمس داروين ، وماثيوبولتن ، وغيرهم فى « جمعية قمرية » تناقش أحدث الأفكار فى العلم ، والتكنولوجيا ، والفلسفة . وكان محبوباً من جميع الطبقات تقريباً وموضع الإعجاب لوجهه البشوش ، وتواضعه ، وسماحته ، وطهارة حياته التى لا تشوبها شائبة (٣٥) . ولكن بعض جيرانه

ارتابوا فى مسيحيته . وفى كتابه « مقالات فى المادة والروح » (١٧٧٧) رد كل الأشياء ، حتى النفس ، إلى المادة وأصر على أن هذا الرأى شىء لا غبار عليه .

« فمعلوم جيداً لأهل العلم ... إن ما عناه القدماء بالكائن اللامادى إنما هو نوع مهذب مما ينبغى أن نسميه الآن مادة ، شىء كالهواء أو النفس ، زود الناس لأول مرة باسم للنفس ... ومن ثم لم يستبعد القدماء من العقل خاصية « الامتداد » والضغط المحلى . فقد كان له فى رأيهم بعض الخواص المشتركة بينه وبين المادة ، وكان فى استطاعته أن يتحد معها ، وأن يؤثر فيها ويتأثر بها ... وعليه فقد رؤى أن .... قوة الحس أو التفكير ... يمكن أن تنقل لأغلظ ضروب المادة ... وأن « النفس » « والجسم » لابد أن يموتا معاً لأنهما فى الواقع مادة واحدة (٣٦) .

وفى كتاب آخر نشره فى نفس العام اسمه « شرح عقيدة الضرورة الفلسفية » ، أنكر بريستلى بحماسه حرية الإرادة أسوة بهارتلى وهيوم . وفى كتابه « تاريخ تحريفات المسيحية » (١٧٨٢) رفض المعجزات وسقوط آدم ، وكفارة المسيح ، وعقيد الثالوث . وذهب إلى أن هذه العقائد كلها تحريفات أدخلت أثناء تطور المسيحية ؛ إذ لا وجود لها فى تعاليم المسيح والرسل الاثنى عشر . ولم يبق من المسيحية فى بريستلى غير الايمان بالله المبنى على شهادة للقصد الإلهى . ولم يكن راضياً تمام الرضى عن فكرة الخلود ، فألمع إلى أن الله فى يوم الحشر سيعيد خلق الأموات جميعاً . على أن رجاءه الحقيقى لم يكن معقوداً على سماء فى الآخرة بل على « يوتوبيا » تبنى على هـــذه الأرض بانتصار العلم على الخرافة والجهل . وندر أن عبر إنسان بحرارة كما عبر بريستلى عن دين القرن الثامن عشر ، وعن التقدم . إذ يقول :

كل المعرفة ستقسم فروعاً وتوسع . ولما كانت المعرفة قوة كما لاحظ اللورد بيكون ، فإن قوى البشر ستزداد فى الواقع . فالطبيعة — مواردها وقوانينها — ستكون فى متناولنا أكثر من ذى قبل . وسيجعل الناس وضعهم فى هذا العالم أشد يسراً وراحة . وأغلب الظن أنهم سيطيلون وجودهم فوقه ، وسيصبحون كل يوم أسعد حالا : كل سعيد فى ذاته ، وأقدر

(وأكثر ميلا فى ظنى) على توصيل السعادة لغيره . ومن ثم ، فأياً كانت بداية هذا العالم ، فإن نهايته ستكون أمجد وأسعد مما يستطيع خيالنا الآن أن يتصوره . . . (٣٧) وطوبى للذين يسهمون فى نشر النور النقى لهذا الإنجيل الخالد (٣٨)

وفى رؤيا بريستلى أن بعض هذا التقدم المجيد سيكون سياسياً ، وسيبنى على مبدأ إنسانى بسيط « فتحقيق الخير والسعادة .... لأغلبية الناس فى أى دولة ، هو المعيار العظيم الذى يجب أن يقرر به نهائياً كل شىء يمت إلى تلك الدولة(٣٩) . ويقول بنتام أنه وجد هنا مصدراً من مصادر فلسفة المنفعة التى بشر بها . وعند بريستلى أن الحكومة العادلة الوحيدة هى التى تستهدف إسعاد مواطنيها . ومما يتفق تماماً مع المسيحية أن يطيح الشعب بالحكومة التى يتضح له ظلمها . وقد أجاب عن تحذير القديس بولس الذى قال فيه « إن السلاطين الكائنة هى مرتبة من الله . » بقوله « للسبب نفسه ستكون سلاطين المستقبل مرتبة من الله أيضاً (٤٠) .

وكان طبيعياً أن يتعاطف ثائر كهذا مع المستعمرات فى احتجاجها على فرض الضرائب عليها دون أن يكون لها ممثلون فى البرلمان البريطانى . وقد وقد صفق للثورة الفرنسية بحرارة أشد حتى من حرارة تعاطفه مع المستعمرات . ولما ندد بها بيرك دافع عنها بريستلى . فدمغه بيرك فى البرلمان بالهرطقة . وكان بعض أصدقاء بريستلى يشاركونه آراءه المتطرفة . وفى ١٤ يوليو ١٧٩١ اجتمعت « جمعية برمنجهام الدستورية » فى الفندق الملكى للاحتفال بالذكرى السنوية لسقوط الباستيل . ولم يحضر بريستلى الاحتفال . واحتشد جمع أمام الفندق واستمعوا إلى اتهامات زعمائهم للمهرطقين والخونة ، ثم قذفوا نوافذ الفندق بالحجارة . ففر أصحاب المأدبة . وانطلق الجمع إلى بيت بريستلى فأحرقوه مبتهجين وأتوا على مختبره وأدواته ومكتبته ومخطوطاته . ثم ظلوا ثلاثة أيام يجوبون أنحاء برمنجهام وهم يقسمون أن يقتلوا جميع « الفلاسفة » ؛ وراح المواطنون المروعون يخطون على زجاج نوافذهم عبارة « لايوجد هنا فلاسفة » . وفر بريستلى إلى ددلى ، ثم إلى لندن . ومنها وجه رسالة فى ١٩ يوليو إلى أهل برمنجهام قال فيها :

مواطنى وجيرانى الأسبقون .

بعد أن عشت معكم أحد عشر عاماً ، خبرتم كلكم على السواء خلاله ذلك المسلك المسالم الذى كنت أسلكه فى العكوف على الواجبات الهادئة لمهنتى وللفلسفة ، لم أتوقع قط تلك الاضرار التى أوقعتموها مؤخراً بى وبأصدقائى ... وعقول الإنجليز لحسن الحظ تستبشع « القتل » ، ومن ثم لم تفكروا فيه (وهو ما أرجوه) . ولكن ما قيمة الحياة إذا ارتكب كل شىء لجعلها شقية تعسة ؟ ..

لقد دمرتم أثمن وأنفع جهاز حقاً من أجهزة الأدوات الفلسفية ..... لقد دمرتم مكتبة .... لا يمكن لمال أن يشتريها من جديد إلا بعد زمن طويل ولكن ما يحز فى نفسى أكثر من هذا أنكم دمرتم مخطوطات هى ثمرة الدرس الكادح فى سنوات كثيرة ، ولن أستطيع أبداً إعادة تأليفها من جديد ؛ وقد فعلتم هذا بإنسان لم يؤذكم قط ولم يخطر له قط أن يؤذيكم .

وتخطئون إذا ظننتم أن مسلككم هذا قد يخدم قضيتكم أو يضر قضيتنا ... فلو أنكم قضيتم على كما قضيتم على بيتى ، ومكتبتى ، وأجهزتى ، فإن عشرة أشخاص آخرين لهم من الجرأة والكفاية ما يعادل مالى أو يفوقه سيظهرون على الفور . ولو قضى على هؤلاء العشرة لظهر بدلهم مائة ...

نحن فى هذا الأمر أشبه بالحملان وأنتم بالذئاب . وسنستمسك بخلقنا ، ونرجو أن تغيروا خلقكم . وأياً كان الأمر ، فإننا نرد على لعناتكم بالبركات . ونرجو أن تثوبوا سريعاً إلى ما امتاز به أهل برمنجهام فيما مضى من جد واجتهاد وعادات رزينة .

وإننى المتمنى لخيركم ، المخلص .

ج . بريستلى [٤١]

ولكنه قاضى المدينة مطالباً بتعويض ، وقدر خسارته بمبلغ ٤،٥٠٠ جنيه . وأعان قضيته تشارلز جيمس فوكس ، ومنحته برمنجهام ٢،٥٠٢ جنيهاً . فحاول أن يستقر فى موطن جديد فى انجلتره ولكن رجال الكنيسة ، وأنصـــار الملكية ، وزملاءه فى الجمعية الملكية ، تجنبوا صحبته [٤٢] .

وعرضت عليه الأكاديمية الفرنسية للعلوم عن طريق سكرتيرها كوندورسيه بيتاً ومختبراً فى فرنسا . وفى ٨ ابريل ١٧٩٤ هاجر إلى أمريكا ، وكان يومها فى الحادية والستين ، واختار بيته الجديد فى مدينة نورثمبرلاند ، فى بنسلفانيا وطن فرانكلن ، على ضفاف نهر سسكويهانا الجميل الذى سيحلم به بعد قليل كولردج وسوذى . ثم استأنف تجاربه واكتشف تركيب أول أكسيد الكربون . وقد احتفت به الجماعات العلمية وعرض عليه كرسى الكيمياء فى جامعة بنسلفانيا . وفى ١٧٩٦ ألقى على الجامعيين فى فيلادلفيا سلسلة من الأحاديث عن « الشواهد على المسيحية » وكان من بين جمهور المستمعين جون آدمز نائب رئيس الجمهورية وكثيرون من أعضاء الكونجرس . ومن هذه الاجتماعات انبعثت جمعية للموحدين . وبعد عامين اقترح تيمونى بيكرنج ، الوزير فى حكومة الرئيس آدمز ، ترحيل بريستلى بوصفه أجنبياً غير مرغوب فيه . ووضع انتخاب جفرسن (١٨٠٠) نهاية لقلق بريستلى ، فأتيحت له أربعة أعوام من السلام . وفى ١٨٠٣ كتب آخر أبحاثه العلمية التى ظل يدافع فيها عن الفلوجستون ومات فى نورثمبرلاند فى ٦ فبراير ١٨٠٤ . وفى ١٩٤٣ قررت الهيئة التشريعية البنسلفانية أن يكون بيته بيتاً تذكارياً قومياً .

وبينما اضطلع توماس بين بحملة بريستلى بوصفه مسيحياً متمرداً ، واصل هنرى كافندش أبحاثه فى كيمياء الغازات . وكان كافندش ابن لورد ، وابن أخى دوق . وقد ورث فى الأربعين ثروة من أعظم الثروات فى انجلتره . كان خجولا متردداً فى حديثه ، مهملا فى لباسه . فعاش عيشة النساك فى مختبره بكلابهام كومن بلندن . ولم يسع إلى الشهرة . وتميزت أبحاثه بالتدقيق الشديد فى قياس جميع المواد ووزنها قبل التجربة وبعدها ، وقد أعانت هذه المعايرات لافوازييه على أن يصوغ مبدأه القائل بأن كمية المادة تظل ثابتة فى التغيرات الكيميائية .

وفى ١٧٦٦ أنهى كافندش إلى الجمعية الملكية تجاربه على « الهواء الصناعى » أى الغاز المشتق من الجوامد . فقد توصل بإزابة الزنك أو القصدير فى أحماض إلى استخراج ما سماه « الهواء القابل للاحتراق » ، وقال أن هذا

والفلوجستون شيء واحد ، ونحن نسميه الآن الهيدروجين . وكان كافندش أول من أدرك أنه عنصر متميز ، وعين وزنه النوعي . وفي ١٧٨٣ ، وجد — وهو يتابع تجربة أجراها بريستلي — أنه إذا مررت شرارة كهربية في مزيج من الهواء العادي « والهواء القابل للاحتراق » تكاثف جزء من المزيج وتحول إلى ندى . واستنتج من هذا التحليل الكهربي أن الماء مركب من ٢,٠١٤ حجماً من « الهواء القابل للاحتراق » إلى حجم واحد من هواء برستلي المنزوع الفلوجستون ، أو كما نقول الآن (يد ٢ ا) . وكان هذا أول برهان قاطع على أن الماء مركب لا عنصر (وقد ألمع جيمس وات ، مستقلا ، إلى نفس التركيب للماء في نفس السنة ١٧٨٣) . وبعد أن مرر كافندش ثانية شرارة كهربية في مزيج من الهيدروجين والهواء العادي حصل على حمض النتريك ، واستنتج أن الهواء النقي مركب من الأكسجين والنتروجين (الأزوت) . (وكان دانيال رذرفورد الأدنبرى قد اكتشف النتروجين بوصفه عنصراً متميزاً في ١٧٧٢) ، واعترف كافندش بوجود بقية صغيرة لم يستطع تعليلها ، ولكنه قدرها فبلغت ٠,٨٣ من الكمية الأصلية . وقد ظل هذا سراً غامضاً حتى ١٨٩٤ ، حين عزل رايلي ورامزي هذا الجزء الذي نسميه الآن الأرجون ، بوصفه عنصراً قائماً بذاته ، ووجدا أن وزنه ٠,٩٤ من الهواء العادي . وهكذا ثبتت دقة موازين كافندش .

(ج) لافوازييه :

في هذه الأثناء أتاحت مجموعة من الباحثين المتحمسين ، عبر القنال الانجليزي ، لفرنسا مكان الريادة في هذا العلم الجديد ، وأعطت الكيمياء الشكل الذي تبدو عليه اليوم في جوهرها . وقام في مكان المنبع منهم جيوم روويل ، الذي تميز بجهوده في كيمياء الأملاح ، ولكنه اشتهر بدورات محاضراته التي علم الكيمياء فيها للأغنياء والفقراء ، ولذيدرو وروسو ، ولأعظم كيميائي فيهم أجمعين .

وقد كان لأنطوان لافوازييه ميزة أو معوق ، هي أنه ولد غنياً (١٧٤٣) . أتاح أبوه — وكان محامياً في برلمان باريس — للصبي كل ما توفر من تعليم

فى ذلك الحين ، وورثه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه وهو بعد فى الثالثة والعشرين . وثروة كهذه كان يمكن أن تجهض مستقبلا فى مهنة الأدب ، ولكنها كانت عوناً لعلم تطلب أجهزة غالية وسنوات طويلة من الإعداد . وقد فر أنطوان من مدرسة الحقوق التى أرسل إليها ، مؤثراً عليها دراسة الرياضة والفلك ، وحضر محاضرات رورويل فى قاعة الجاردان دروا . ومع ذلك أتم دراساته القانونية ، ثم رافق جان جتار فى القيام برحلات ورسم خرائط تعدينية لفرنسا . وفى ١٧٦٨ انتخب عضواً فى أكاديمية العلوم ، وكانت يومها تضم بوفون ، وكزنيه ، وطورجو ، وكوندورسيه . وبعد عام انضم إلى هيئة الملتزمين العامة فى عملية بغيضة هى جمع ضرائب الإنتاج لاستعاضة ما أنفقوه فى إقراض الحكومة . فدفع ٥٢٠,٠٠٠ جنيه ثمناً لثلث نصيب فى أحد الأسهم الستين لهيئة الالتزام العامة ، وفى ١٧٧٠ رفعه إلى نصيب كامل . وفى ١٧٧١ تزوج مارى بولز ، ابنة ملتزم عام غنى ، وأنفق الآن بعض وقته فى رحلات للأقاليم ، وفى تحصيل إيراداته ، وجميع بيانات الضرائب ، والعينات الجيولوجية . وقد مولت ثروته مختبراً عظيما وتجارب غالية التكاليف(*) ، ولكنها قادته إلى الجيلوتين .

ثم شارك بدور إيجابى فى الشئون العامة . فلما عين (١٧٧٥) مأموراً للبارود ، زاد إنتاج تلك المادة المتفجرة وحسن نوعها ، فيسر بذلك تصديرها على نطاق واسع إلى المستعمرات الأمريكية ، وانتصارات جيوش الثورة الفرنسية .

وقال لافوازييه « لقد أصبح البارود الفرنسى خير بارود فى أوربا ... ويجوز لنا أن نقول أن أمريكا الشمالية تدين له بحريتها . »[٤٣] وقد خدم فى مختلف المجالس الرسمية ، قومية وبلدية ، وعالج بذكائه المتعدد النواحى شتى مشكلات نظام الضرائب ، والعملة ، والمصارف ، والزراعة العلمية ،

(*) فى احدى تجاربه الأولى أحرق ماستين ليثبت أن الناتج الوحيد من احتراقهما هو ثانى أوكسيد الكربون وبما أن هذا الغاز كان كذلك الناتج الوحيد للفحم النباتى التام الاحتراق ، فقد برهن لافوازييه بهذه الطريقة على الوحدة الكيماوية للفحم النباتى والماس بوصفها شكلين من أشكال الكربون الخالص .

وأعمال البر العام . وحين كان عضواً فى الجمعية الإقليمية بأورليان (١٧٨٧) جاهد في سبيل تحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى الأقاليم . وخلال نقص الطعام الخطير فى ١٧٨٨ أقرض ماله لكثير من المدن لتشترى به قمحاً . لقد كان رجلا أحب خير المجتمع ؛ وثابر على جمع المال .

على أنه فى هذه الأنشطة كلها لم يكف عن الاشتغال بالعلم . فغدا مختبره أعقد وأوسع المختبرات السابقة للقرن التاسع عشر : قوامه ٢٥٠ آلة ، وثلاثة عشر ألف مخبار ، وآلاف المستحضرات الكيمائية ، وثلاثة موازين دقيقة أعانت فيما بعد على تقدير الجرام وحدة للموازين فى النظام المترى . وكان الوزن والمعايرة نصف السر فى كشوف لافوازييه ، وبفضلهما غير الكيمياء من نظرية كيفية إلى علم كمى . وبالوزن الدقيق برهن على أن « فلوجسنون » شتال ليس إلا خرافة مربكة افترضت وجود مادة غامضة تترك الجسم المشتعل فى عملية الاحتراق وتدخل الهواء . فنى أول نوفمبر ١٧٧٢ قدم لافوازييه إلى أكاديمية العلوم مذكرة هذا نصها :

قبل ثمانية أيام اكتشفت أن الكبريت فى احتراقه لا يفقد الوزن بل يكسبه ، أى أننا قد نحصل من رطل الكبريت على أكثر من رطل من الحمض الكبريتى ، مع أخذ رطوبة الهواء فى حسابنا . وهذا ما يحدث أيضاً فى الفوسفور . وزيادة الوزن تأتى من كمية الهواء الكبيرة التى تثبت (أى تمتصها المادة المحترقة) أثناء الاحتراق وتتحد مع الأبخرة (الكبريتية) . وقد اقنعنى هذا الكشف ، الذى أثبته بتجارب أراها حاسمة ، أن ما يلاحظ فى احتراق الكبريت والفوسفور قد يحدث فى جميع الأجسام التى تكتسب وزناً عند الاحتراق أو التكلس (٤٤) . فالجسم المحترق لا يعطى الهواء شيئاً بل يأخذ منه شيئاً . فما هذا الشيء ؟

فى خريف ١٧٧٤ نشر لافوازييه وصفاً لمزيد من التجارب . فقد وضع كمية موزونة من القصدير فى قنينة موزونة تتسع لقدر كبير من الهواء . ثم ختم القنينة ، وسخن الكل حتى تأكسد القصدير تأكسداً جيداً . وبعد أن أتاح للجهاز وقتاً ليبرد ، وجد أن وزنه ظل دون تغيير . ولكنه حين كسر الختم

اندفع الهواء إلى القنينة ، مما دل على أن فراغاً جزئياً قد حدث فى القنينة .. فكيف حدث ؟ لم يجد لافوازييه تعليلا إلا أن القصدير المحترق قد امتص جزءاً من الهواء .. فما هذا الجزء ؟

وفى أكتوبر ١٧٧٤ التقى لافوازييه ببريستلى فى لندن . وأخبره برستلى بالتجارب التى أجراها فى أغسطس ، والتى ظل يفسرها بأنها دليل على أن الفلوجستون ينطلق من الجسم المحترق إلى الهواء . وفى ٢٦ ابريل ١٧٧٥ قرأ لافوازييه على الأكاديمية مذكرة روى فيها التجارب التى هدته إلى اعتبار الاحتراق امتصاص جسم محترق لعنصر غامض من الهواء ، أطلق عليه مؤقتاً اسم « الهواء الشديد النقاء » . لقد اكتشف الأكسجين كما اكتشفه بريستلى ، ولكنه اختلف عنه لأنه نبذ خرافة الفلوجستون . ولم ينحت لفظ « الأكسجين » للدلالة على العنصر القابل للاشتعال فى الهواء إلا عام ١٧٧٩ ، وقد اشتقه من كلمتين يونانيتين معناهما « مولد الحمض » لأنه ظن خطأ أن الأكسجين مكون لا غنى عنه فى جميع الأحماض .

ولاحظ لافوازييه كما لاحظ بريستلى أن نوع الهواء الذى تمتصه المعادن فى الاحتراق هو نفس النوع الذى يدعم الحياة الحيوانية . فى ٣ مايو ١٧٧٧ قدم للأكاديمية بحثاً فى « تنفس الحيوان » قال فيه « إن خمسة أسداس الهواء الذى نستنشقه عاجزة عن دعم تنفس الحيوان ، أو الاشتعال والاحتراق ، ... فخمس حجم الهواء فقط هو الصالح للتنفس » . ثم أضاف « هناك شبه كبير بين الهواء الذى استعمل لدعم هذه الوظيفة الحيوية وقتاً ما ، والهواء الذى تكلست (تأكسدت) فيه المعادن ، والعلم ب (عملية) واحدة يمكن بالطبع أن يطبق على الأخرى » . وعليه فقد أسس لافوازييه التحليل العضوى ، بوصف التنفس بأنه اتحاد الأكسجين بالمادة العضوية . وفى هذه العملية لاحظ انطلاق حرارة ، كما تنطلق فى الاحتراق ؛ ثم زاد تأكيد الشبه بين التنفس والاحتراق ، بإثباته أن ثانى أكسيد الكربون والماء ينطلقان (كما فى التنفس (من احتراق مواد عضوية مثل السكر والزيت والشمع . وحدثت الآن ثورة فى علم الفسيولوجيا بفضل التفسير المتزايد للعمليات العضوية بلغة فيزيا — كيميائية .

واقتضى تكاثر التجارب ، ونمو المعرفة الكيميائية ، ونبذ نظرية الفلوجستون ، صياغة جديدة ، ووضع مصطلحات جديدة ، لهذا العلم المتفتح . وعينت أكاديمية العلوم لافوازييه ، وجيتون دمورفو ، وفوركروا ، وبرتولليه ، لمحاولة إنجاز هذه المهمة . وفى ١٧٨٧ نشروا « طريقة لوضع المصطلحات الكيميائية » . فنبذت أسماء عتيقة مثل « مسحوق الألجاروت » ، و « زبد الزرنيخ » و « أزهار الزنك » ؛ وسمى الهواء المجرد من الفلوجستون « أوكسجينا » والهواء المحتوى على الفلوجستون « أزوتا » ، ثم نتروجينا ، والغاز القابل للاشتعال هيدروجينا ، والهواء الثابت غاز حامض الكربون . والتلكس تأكسداً ، واشتقت أسماء المركبات من مكوناتها . وعدد جدول للمواد البسيطة اثنين وثلاثين عنصراً معروفة للافوازييه ، ويعدد الكيميائيون اليوم من هذه العناصر ثمانية وتسعين . ومعظم الأسماء التى تقررت فى كتاب « الطريقة » المذكور قياسية فى علم المصطلحات الكيميائية فى يومنا هذا . وقدم لافوازييه للمصطلحات الجديدة ولخص العلم الجديد ، فى « رسالة تمهيدية فى الكيمياء » ظهرت عام ١٧٨٩ ، وكانت علامة ثورة أخرى — هى نهاية فلوجستون شتال وعناصر أرسطو .

وكان لافوازييه نفسه ضحية من ضحايا الثورة الفرنسية . فلقد شارك فى الجهود المبذولة لتفاديها ، وفى الشرور التى أفضت إليها . وفى العقد الذى هيأ للثورة عمل بهمة فى لجان تدرس عيوب السجون والمستشفيات وتصلحها . وقدم إلى لوران دفيلدوى المراقب العام (١٧٨٧) مذكرة عدد فيها تسعة عوامل مسئولة عن استغلال طبقة الفلاحين . وكان فى كلامه ما يشرفه تشريفاً خاصاً ، لأنه صادر من مالك أرض من أصحاب الملايين . قال :

« فليكن لنا من الشجاعة ما يحملنا على أن نقرر أنه ... إلى أن ارتقى لويس السادس عشر العرش لم يكن للشعب أى وزن فى فرنسا ، ولم يكن هناك اعتبار لغير قوة الدولة ، وسلطانها ، وثروتها ، أما سعادة الشعب ، وأما حرية الفرد ورفاهيته ، فتلك الكلمات لم تقرع قط آذان حكامنا الأسبقين ، الذين لم يدركوا أن الهدف الحقيقى من الحكومة يجب أن يكون الاستكثار من أسباب الاستمتاع ، والسعادة ، والرفاهية ، لكل رعاياها . إن المزارع

المنكود الحظ يئن فى كوخه . لا يمثله أحد ولا يدافع عنه أحد ، ولا تعباً بمصالحه أى إدارة من الإدارات الكبرى فى الحكومة القومية[٤٥] » .

وقد اختير لافوازييه لتمثيل الطبقة الثالثة العامة فى المجلس الإقليمى الذى اجتمع بأورليان فى ١٧٨٧ . وهناك تقدم بقانون لإلغاء السخرة ولصيانة الطرق ، لا بتشغيل الفلاحين إلزامياً بل بضرائب تفرض على جميع الطبقات، ولكن النبلاء والاكليروس هزموا هذا الاقتراح . ثم أوصى بنظام للتأمين الاجتماعى يساهم فيه من يريد من الفرنسيين تأمين شيخوختهم ، فهزم هذا أيضاً . وفى مذكرة وجهها إلى الحكومة عام ١٧٨٥ وضع المبدأ القائل بأن مجلس طبقات الأمة القادم يجب أن يحول إلى سلطة تشريعية كاملة ، فيكون الملك عامله المنفذ فقط ، وأنه يجب دعوته للانعقاد بانتظام ، وأن الضرائب يجب أن تفرض على الجميع ، وأن تطلق حرية الصحافة والطباعة[٤٦] . لقد كان لافوازييه من أكثر أفراد البورجوازية الفرنسية استنارة ما فى ذلك شك ، ولعل اقتراحاته عبرت عن جزء من استراتيجيتها السياسية .

كذلك كان من كبار الأعضاء فى هيئة الملتزمين العموميين ، التى كانت هدفاً للسخط من الجميع تقريباً . وبين عامى ١٧٦٨ و ١٧٨٦ بلغ متوسط أرباحه من عملية الالتزام هذه ٦٦٦،٦٦٧ جنيهاً فى العام ، وهو ما يساوى نسبة مئوية قدرها ٨،٢٨ ٪ فى السنة ، وربما كان محقاً فى اعتباره هذا العائد معقولا نظراً لما تتطلبه العملية من جهد ومخاطرات . وعملا باقتراح منه بنى كبير الوزراء كولون ، فى ١٧٨٣ — ٨٧ ، سوراً حول باريس لمنع المهربين الذين يتهربون من أداء المكوس . وقد كلف السور والجمارك والبوابات الجديدة ثلاثين مليوناً من الجنيهات . وأثار المشروع سخطاً عاماً ، وصرح الدوق دنيفرنوا بأن صاحب فكرته يجب أن يشنق .

وأيد لافوازييه الثورة فى ١٧٨٩ وهى ما تزال تحت سيطرة الطبقات الوسطى . وبعد عام شعر بأنها تنزع إلى التطرف ، والعنف ، والحرب ، فناشد القائمين بها الاعتدال وضبط النفس . وفى نوفمبر نشر بعض موظفى الالتزام العام نبذة اتهموا فيها الهيئة باختلاس صندوق معاشاتهم . وقالوا فيها

« ارتعدوا يا من مصصتم دم التعساء » (٤٧) . وفى ١٧٩١ بدأ مارا حملة شخصية ضد لافوزييه . فقد كان « صديق الشعب » قد نشر فى ١٧٨٠ « أبحاثاً فيزيائية فى النار » زعم فيها أنه أظهر للعيان العنصر الخفى فى النار ، وأبى لافوازييه أن يأخذ هذا الزعم مأخذ الجد . ولم ينس مارا له فعلته هذه . ففى عدد ٢٧ يناير ١٧٩١ من مجلته « صديق الشعب » اتهم مارا الكيميائى — المالى بأنه دجال ضخم الموارد ، رجل « سنده الوحيد فى المطالبة بتقدير الشعب له أنه حبس باريس بمنعه الهواء النقى عنها بسور كلف الفقراء ٣٣ مليون جنيه . فليته شنق على عمود المصباح » (٤٨) . وفى ٢٠ مارس ١٧٩١ ألغت الجمعية التأسيسية هيئة الالتزام العام .

وجاء دور الهجوم الآن على أكاديمية العلوم ، لأن جميع المؤسسات التى تخلفت عن النظام القديم اشتبه فى تعاطفها مع أعداء الثورة . ودافع لافوازييه عن الأكاديمية ، فأصبح الهدف الأكبر للهجوم . وفى ٨ أغسطس صدر الأمر بأن تحل الأكاديمية نفسها . وفى آخر اجتماع لها وقع جدول الورديات فيمن وقع لاجرانج ، ولافوازييه ، ولالاند ، ولامارك ، وبرتولليه ، ومونج . وانصرف كل منهم إلى حال سبيله مؤملا ألا تعثر عليه الجيلوتين .

فى هذا الشهر قدم لافوازييه إلى المؤتمر مشروع نظام قومى للمدارس أوحت به إليه أفكار كوندورسيه ، ويقضى بأن يكون التعليم الابتدائى مجاناً للجنسين « لأن هذا واجب مفروض على المجتمع نحو الطفل . » أما التعليم الثانوى ، المباح هو أيضاً للجنسين ، فيوسع بتأسيس الكليات الصناعية فى جميع أرجاء فرنسا . وبعد شهر فتش عمال الحكومة مسكنه ، وكان بين الخطابات التى وجدت به من أصدقاء لافوازييه خطابات نددت بالثورة ، وتحدثت فى أمل عن الجيوش الأجنبية التى ستطيح بها سريعاً ، وأظهرت خطابات أخرى أن لافوازييه وزوجته يخططان للهروب إلى اسكتلنده (٤٩) . وفى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣ قبض على اثنين وثلاثين من الملتزمين العموميين السابقين ، ومن بينهم لافوازييه . وقد حركت زوجته كل نفوذ ليفرج عنه ، ففشلت ، ولكن سمح لها بزيارته . وفى السجن واصل عمله فى شرحه للكيمياء الجديدة . واتهم الماليون بأنهم تقاضوا ربا فاحشاً وغشوا التبغ بالماء ، وابتزوا ١٣٠ مليون جنيه فى أرباح غير مشروعه .

وفى ٥ مايو ١٧٩٤ استدعوا للمثول أمام محكمة الثورة . وبرىء ثمانية منهم ، وحكم على أربعة وعشرين بالاعدام ، ومنهم لافوازييه . فلما طلب إلى القاضى الذى رأس المحكمة أن يخفف الحكم على أساس أن لافوازييه وبعض الآخرين علماء ذوو قيمة للدولة ، كان رده فيما روى « ليس بالجمهورية حاجة إلى علماء » ولكن الرواية لا تستند إلى دليل مقنع (٥٠) . وأعدم لافوازييه بالجيلوتين فى اليوم الذى صدر فيه الحكم ، ٨ مايو ١٧٩٤ ، فى المكان الذى يقوم فيه اليوم ميدان الكونكورد . ويقال أن لاجرانج علق على إعدامه بهذه العبارة « إن قطع رأسه لم يستغرق أكثر من لحظة ، وقد لا تكفى مائة عام لنوهب رأساً نظيره » (٥١) .

وصودرت كل أموال لافوازييه وأرملته لتساعد فى الوفاء للجمهورية بمبلغ ١٣٠ مليوناً من الجنيهات ادعى أن الملتزمين العموميين مدينون به للدولة . أما مدام لافوازييه ، المملقة ، فقد عالها خادم قديم للأسرة . وفى ١٧٩٥ استنكرت الحكومة الفرنسية إدانة لافوازييه ، وردت إلى ارملته ثروتها ، وقد عمرت حتى عام ١٨٣٦ . وفى أكتوبر ١٧٩٥ أقامت ليسيه الآداب والفنون جنازاً لذكرى لافوازييه ، وألقى فيه لاجرانج تأبيناً . وأزيح الستار عن تمثال نصفى يحمل هذه العبارة : « إن ضحية الطغيان ، وصديق الآداب والفنون المبجل ، لم يمت ، ولم يزل يخدم الإنسانية بعبقريته (٥٢) .

٥ — الفلك :

(ا) مقدمة فى الأدوات الفلكية :

إلى أى حد أثارت كشوف الرياضة والفيزياء والكيمياء قبة السماء ؟ إن أجرأ ما اقتحم العلم من مغامرات محاولته أن يقذف بأدوات قياسيه حول النجوم ويتجسس بالليل على أولئك الحسان المتألقات فى كبد السماء ، ويحلل مكوناتهن عبر بليون من الأميال ، ويحدد حركاتهن بمنطق البشر وقوانينهم . إن العقل والسماوات هما قطبا دهشتنا ودراستنا ، والعجب العجاب أن يشرع العقل القوانين للقبة الزرقاء .

كانت الأدوات المقربة للأبعاد قد اخترعت ، والاكتشافات الكبرى قد تمت ؛ فاضطلع القرن الثامن عشر بتحسين هذه الأدوات (جراهام ، وهادلى ، ودولاند) ، وبالتوسع فى تلك الكشوف (برادلى وهرشل)

وبتطبيق أحدث الرياضيات على النجوم (دالامبير وكليرو) . وبترتيب النتائج فى نسق جديد من الديناميكا الكونية (لابلاس) .

وقد حسن التلسكوب وزيد حجمه . وصنعت « التلسكوبات الاستوائية » التى تدور حول محورين — أحدهما مواز لمستوى محور الأرض ، والآخر عمودى عليه ، واختيار هذين المحورين مكن الراصد من أن يبقى الجرم السماوى تحت بصره زمناً يكفى للدراسة المفصلة والقياس المكرومترى . وقد ثنى نيوتن عن استعمال التلسكوب الانكسارى اعتقاده بأن الضوء إذ تكسره العدسات لابد أن يتحلل ألواناً فيشوش الرصد ، ويئس من مشكلة إيجاد انكسار خال من الألوان ، واتجه إلى التلسكوب العاكس . وفى ١٧٣٣ قام هاو يدعى السـيد تشستر مور هول بحل المشكلة ، إذ جمع عدسات ذات وسائط عاكسة مختلفة تبطل بذلك تنوع اللون . ولم ينشر كشفه ، وكان على جون دولاند أن يتوصل بجهده الخاص إلى مبادىء التلسكوب الاكروماتى وتركيبه ، وقد أعلن عن كشفه هذا فى « الأعمال الفلسفية لجمعية لندن الملكية » فى ١٧٥٨ .

وفى ١٧٢٥ صنع جورج جراهام ، الساعاتى الكويكرى ، لأدموند هالى فى مرصد جرينتش آلة ربع جدارية — هى عبارة عن ربع دائرة ميكانيكى مقسم إلى درجات ودقائق ومثبت على جدار ليلتقط مرور نجم عبر الزوال . وصنع جراهام لهالى ، وجيمس برادلى ، وبيير لمونيه ، أدوات لتسجيل هذا المرور تجمع بين التلسكوب ، والمحور ، والساعة ، والكرونوجراف ، لتسجيل هذا المرور بدقة أعظم من ذى قبل . وفى ١٧٣٠ ، وصف توماس جودفرى ، عضو جماعة فرانكلن الفكرية فى فيلادولفيا ، لأصدقائه آلة لقياس الزوايا والارتفاعات بالانعكاس المزدوج خلال مرايا متقابلة ترى فى تلسكوب ، ولكنه لم ينشر عن هذه الآلة حتى عام ١٧٣٤ . وفى ١٧٣٠ صـنع جون هادلى آلة مشابهة لها ، وهى آلة الثمن — أى قوس مدرج من ثمن دائرة . وفى ١٧٥٧ وسعت إلى السدس . وقد أتاحت « آلة السدس » هذه التى صنعها هادلى قياساً أضبط للزاوية التى تفصل بين جسمين ، لأنها مكنت الملاح من أن يرى فى وقت واحد ، فى التلسكوب

العاكس ، كلا من الأفق والشمس (أو النجم) . ويفضل هذه الآلة ، مضافاً إليها كرونومتر هاريسون البحرى ، أصبحت الملاحة علماً أقرب ما يكون إلى العلوم الدقيقة .

وكان على الملاح أن يحدد خطى الطول والعرض إن أراد تحديد موقع سفينته فى البحر . ولكى يعين خط الطول كان عليه أن يعين زمنه فى المكان واللحظة بالرصد الفلكى ، ويقارن بين هذا الزمن المحلى وبين ساعة ضبطت لتحتفظ بزمن قياسى (جرينيتش) أينما كانت الساعة . وكانت المشكلة هى صنع كرونومتر لا يتأثر بتغيرات درجة الحرارة أو حركات السفينة . وفى ١٧١٤ أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها عشرون ألف جنيه لمن يبتكر طريقة لايجاد خط الطول فى حدود نصف درجة . وعرض ساعاتى من يوركشير يدعى جون هاريسون على جورج جراهام (١٧٢٨) تصميمات لكرونومتر بحرى ، وأقرضه جراهام المال لصنعه . وقد اكتمل صنعه فى ١٧٣٥ ، واستعمل ميزانين ضخمين متقابلين بدلا من البندول ، وعادلت حركة السفينة أربعة زنبركات موازين ، تتحرك ضد بعضها البعض ؛ وأمكن إبطال مفعول التغيرات فى درجة الحرارة بعدة قضبان مصنوعة من النحاس والصلب ، تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة ، وموصلة بالزنبركات . وأوفد « مجلس خطوط الطول » هاريسون بكرونومتره فى رحلة إلى لشبونه لاختباره ، وشجعت النتائج المجلس على توفير المال لتحسين ثان ، وثالث ، ورابع . وقد جرب هذا الكونومتر الرابع ، الذى لم يزد عرضه على خمس بوصات ، فى رحلة إلى جزر الهند الغربية (١٧٥٩) ؛ ولم تؤخر الساعة فى تلك الرحلة أكثر من خمس ثوان بالإضافة إلى تأخيرها العادى المحسوب سلفاً (حين تكون ثابتة على البر) ومقداره ثمانون ثانية فى كل ثلاثين يوماً . وبعد نزاعات حصل هاريسون على جائزة العشرين ألف جنيه كاملة . وبفضل هذه الآلة وغيرها من الآلات البحرية تهيأت البحرية البريطانية الآن (فى ذروة حرب السنين السبع ١٧٥٦ – ٦٣) للسيطرة على البحار .

(ب) النظرية الفلكية :

تبارى البريطانيون والفرنسيون مباراة حامية فى دراسة الفلك ، ولم يكن

الفلك بالعلم البعيد أو « البحث » بالنسبة لهم ، فقد دخل فى الصراع على سيادة البحار ، ومن ثم على كل عالم المستعمرات والتجارة . وأسهمت فى المباراة ألمانيا وروسيا بفضل أويلر ، وإيطاليا بفضل بوسكوفش دون أن تحظيا بنصيب فى المغانم .

وأعان أويلر ، وكليرو ، ودالامبير ، الملاحة بدراساتهم للقمر ، وجدولوا تغيرات موقعه واوجهه بالنسبة للشمس والأرض ، وتأثيره على المد والجزر . ومن سجلات أويلر وضع يوهان طوبياس ماير فى جامعة جوتنجن جداول قمرية أتته بمنحة من مجلس خطوط الطول البريطانى . وفى ١٧٣٨ أعلنت أكاديمية باريس للعلوم عن جائزة لمن يتوصل إلى نظرية فى المد والجزر . ومنحت جوائز لأربعة مؤلفين : دانيال برتوللى ، وأويلر ، وكولن ماكلورن ، وأ . كافاللرى . وقد بنوا جميعهم — إلا الأخير — تعليلاتهم على تعليل نيوتن . وأضافوا دوران الأرض إلى جاذبية الشمس والقمر عاملا فى إحداث المد والجزر . ودعت الأكاديمية فى مناسبات عديدة المؤلفين لتقديم مقالات عن حركات الكواكب — عن انحرافاتها الحقيقية أو الظاهرية عن الأفلاك البيضية ، وظفر مقال كليرو بالجائزة فى ١٧٤٧ ، ومقال أويلر فى ١٧٥٦ .

وشرف روجيرو جوزيبى بوسكوفش طائفته اليسوعية بكشوف منيرة فى الفلك والفيزياء . وقد ولد فى راجوزا ، وتتلمذ للرهبنة بروما وهو فى الرابعة عشرة ، وأدهش معلميه فى « الكلية الرومانية » بنبوغه المبكر فى العلم . وعين أستاذاً لكرسى الرياضة هناك فى التاسعة والعشرين . ومن ذلك التاريخ أصدر ستة وستين مؤلفاً ، وشارك فى تحديد المدار العام للمذنبات وقدم أول حل هندسى لايجاد مدار الكوكب واستوائه . وفى رسالة عن « انقسام المادة » (١٧٤٨) شرح رأيه فى المادة ، وهو أنها مكونة من نقط أو مجالات قوة ، كل منها مركز يتبادل عليه الصد والجذب — وهى نظرية تذكرنا بمونادات ليبنتز وتسبق إلى تصوير نظريات عصرنا الذرية . ونظم اليسوعى المتعدد المواهب مشروعات عملية — كمسح الولايات البابوية وعمل خرائط لها ، وبناء سدود على البحيرات التى هددت بإغراق لوكا ، ووضع

خطط لصرف المستنقعات البونتية ، والمساعدة فى تصميم مرصد بريرا فى ميلان . وبفضل إلحاحه ألغى البابا بندكت الرابع عشر فى ١٧٥٧ الأمر الذى أصدرته لجنة الفهرس (للتحريمات) على النظام الكوبرنيقى . وقد أختير عضواً فى أكاديمية باريس للعلوم وجمعية لندن الملكية . وفى ١٧٦١ — ٦٢ استقبل بمظاهر التكريم فى فرنسا ، وانجلتره ، وبولنده ، وتركيا . وفى ١٧٧٢ قبل وظيفة مدير البصريات فى البحرية الفرنسية التى عينه فيها لويس الخامس عشر . ثم عاد إلى إيطاليا فى ١٧٨٣ ، ومات بميلان فى ١٧٨٧ وهو فى السادسة والسبعين ، وخلف عدة مجلدات من الشعر .

أما ألمع نجم بين الفلكيين البريطانيين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر فهو جيمس برادلى . وكان خاله ، جيمس باوند ، القسيس بوانستد فى إسكس ، فلكياً هاوياً يملك مرصداً خاصاً ، تعلم فيه الصبى أن للنجوم علماً كما أن لها فلسفة جمالية . وبعد أن نال برادلى درجة الأستاذية من أكسفورد عجل بالعودة إلى وانستد ، وقام بأرصاد مبتكرة ، وأبلغها إلى الجمعية الملكية ، وانتخب عضواً بها وهو فى السادسة والعشرين (١٧١٨) وبعد ثلاث سنوات أصبح أستاذاً « سافيليا » للفلك فى أكسفورد . فلما مات هالى العظيم فى ١٧٤٢ ، عين برادلى خلفاً له فى جرينتش فلكياً للملك . وظل يشغل هذه الوظيفة حتى مماته (١٧٦٢) .

وكان أول مشروعاته الكبرى تحديد « اختلاف المرأى » السنوى للنجم — أى الفرق فى اتجاهه الظاهرى كما يرى (١) من نقطة على سطح الأرض ، و (٢) من نقطة وهمية فى مركز الشمس . فإذا كانت الأرض تدور فى فلكها حول الشمس كما افترض كوبرينق ، فلابد من وجود هذا الفرق ، ولكن أحداً لم يبرهن على وجود أى فرق ، فلو أمكن البرهنة عليه لعزز ذلك نظرية كوبرينق . وكان روبرت هوك ، المغامر فى كل ميدان ، قد حاول (١٦٦٩) أن يبين هذا الاختلاف فى مرأى النجم جما دراكونيس ، ولكنه أخفق . واستأنف المحاولة هاو ثرى يدعى صموئيل مولينو عام ١٧٢٥ فى كيو ، وانضم إليه برادلى هناك ، وأسفرت النتائج التى تمخضت عنها محاولتهما عن تأييد جزئى فقط لنظرية كوبرنيق . وعاد برادلى إلى وانستد ،

وكلف جورج جراهام بأن يصنع له تلسكوب « قطاع أوج » يمكنه من رصد مائتي نجم ، لانجم واحد ، فى عبورها الزوال . وبعد أن أنفق برادلى ثلاثة عشر شهراً فى الرصد والحساب ، تمكن من أن يبرهن على دورة سنوية من الانحرافات المتجهة بالتناوب للجنوب والشمال فى الموقع الظاهرى للنجم ، وفسر هذا التناوب بأنه راجع إلى حركة الأرض فى مدارها . وفسر كشف « انحراف الضوء » (١٧٢٩) مئات من المشاهدات والانحرافات التى كانت محيرة إلى ذلك الحين . وقد فرقت تفريقاً ثورياً بين الموقع المرصود والموقع « الحقيقى » أو المحسوب لأى نجم . واتفقت اتفاقاً حسناً مع كوبرنيق ، لأنها اعتمدت على دوران الأرض حول الشمس . وبلغ من تأثيرها المنير على الفلك أن فلكياً – مؤرخاً فرنسياً يدعى جوزف دلامبر ، اقترح أن يسلك برادلى فى صف كبلر ، لا بل فى صف هيبارخوس ذاته (٥٣) .

وانتقل برادلى إلى كشفه الكبير الثانى – وهو ميل mutation ومعناها الحرفى إيماء – محور دوران الأرض كتذبذب النحلة المحورى . فالنجوم التى وصفت حركاتها الظاهرية بأنها تقوم بدورة سنوية نظراً إلى دوران الأرض حول الشمس ، لا تعود – فى مشاهدات برادلى – بعد سنة إلى نفس المواقع الظاهرية السابقة . وخطر له أن الفرق ربما نشأ عن ميل محور الأرض بسبب تغيرات دورية فى العلاقة بين مدار القمر حول الأرض ومدار الأرض حول الشمس . فدرس هذه التغيرات طوال تسعة عشر عاماً (١٧٢٨ – ٤٧) ، وفى نهاية العام التاسع عشر وجد أن النجوم عادت بالضبط إلى نفس المواقع الظاهرية التى كانت لها عند بدء العام الأول « وتأكد الآن أن ميل محور الأرض ناشىء عن الحركة الفلكية للقمر ، وتأثيره على الأجزاء الاستوائية من الأرض . وكان تقريره عن هذه الكشوف حدثاً مثيراً فى أعمال الجمعية الملكية لعام ١٧٤٨ . أن للصبر – كما للحرب – أبطاله .

وخلال اشتغال برادلى فلكياً للملك ، استسلمت بريطانيا لجراحة مؤلمة : فبعد ١٧٠ عاماً من المقاومة قبلت التقويم الجريجورى ، ولكنها سمته فى عناد التقويم المصلح وأمر قانون برلمانى (١٧٥٠) ، بأن تحذف الأحد عشر

يوماً التالية لليوم الثانى من سبتمبر ١٧٥٢ من « نظام التقويم الجديد » وأن يسمى يوم ٣ سبتمبر يوم ١٤ سبتمبر ، وألا تبدأ السنة القضائية بعد ذلك فى ٢٥ مارس بل فى أول يناير . وقد سبب هذا تعقيدات فى المعاملات التجارية والعطلات الكنسية ، وأثار هذا احتجاجات كثيرة ، وتصايح البريطانيون الغاضبون قائلين « ردوا إلينا أيامنا الأحد عشر ! » (٥٤) — ولكن العلم انتصر فى النهاية على مسلك الدفاتر وعلى اللاهوت .

(جـ) هرشل

بلغ الفلك الإنجليزى قمته حين أضاف وليم هرشل الكوكب أورانوس إلى قائمة الكواكب وهجر عمله موسيقياً . وكان أبوه(*) موسيقياً فى الجيش الهانوفرى . واتخذ الصبى المولود فى ١٧٣٨ ، والذى سمى فريدرش فلهلم ، مهنة أبيه ، وعمل موسيقياً فى أول حملة فى حرب السنين السبع ، ولكن صحته كانت رقيقة هشة فسرحه الجيش (ومع ذلك عمر إلى الرابعة والثمانين) . وفى ١٧٥٧ أرسل إلى انجلترة ليلتمس رزقه فى الموسيقى . وفى باث التى نافست آنذاك لندن مركزاً للمجتمع الراقى ، ارتقى من عازف على الأوبرا ، إلى قائد فرقة ، إلى عازف على الأرغن فى « الكنيسة المثمنه » . وكان يؤلف الموسيقى ، ويعلمها ، ويعطى أحياناً خمسة وثلاثين درساً فى الأسبوع . وفى الليل يروح عن نفسه بدراسة حساب التفاضل ، ومنه انتقل إلى البصريات ، وأخيراً إلى الفلك . واستقدم من ألمانيا أخاه ياكوب ، وفى ١٧٧٢ أخته كارولين ، التى أدارت بيتهما ، وتعلمت أن تمسك السجلات الفلكية ، وأخيراً أصبحت فلكية بجهدها هى دون اعتماد على أحد .

(*) أن اسم هرشل اسم يهودى نموذجى ، وقد ظن أول مترجم للفلكى ا. س. هولدن ، أن الأب ، واسمه اسحاق ، كان يهوديا . ولكن الدليل على هذا غير قاطع . وقد عمد الصبى فى المسيحية فى تاريخ مبكر . أنظر The Jewish Encyclopedia VI 362 and Cecil Roth, The jewish Contribution to Civilization, 189.

وكان هرشل يضطرم شوقاً إلى وضع الخرائط للسماء ، فصنع تلسكوبه الخاص بمعاونة أخيه . وشحذ العدسات وصقلها بنفسه ، وذات مرة واصل هذه العملية بلا انقطاع ست عشرة ساعة ، وكارولين تطعمه وهو يشتغل ، أو تخفف من سأمه بأن تقرأ له من سرفانتس ، أو فيلدنج ، أو ستيرن . وكان هذا الأول فى عدة تلسكوبات صنعها هرشل بيده أو تحت إشرافه . وفى ١٧٧٤ ، حين بلغ السادسة والثلاثين ، أجرى أول أرصاده ، ولكنه ظل سنين كثيرة لا يستطيع أن يعطى الفلك من وقته إلا ما يسمح به عمله موسيقياً . وقد درس كل جزء من أجزاء السماء أربع مرات . وفى الجولة الثانية من هذه الجولات ، فى ١٤ مارس ١٧٨١ ، كشف كشفه الخطير الذى بخس قدره بخساً شديداً . قال :

رأيت وأنا أفحص النجوم الصغيرة القريبة من ﻫ . جمينورم أ نجما ظهر بوضوح أنه أكبر من غيره . وإذ أدهشنى مظهره غير العادى ، فقد قارنت بينه وبين ﻫ جمينورم والنجم الصغير الذى فى الزاوية القائمة بين أوريجا وجمينى ، وإذ وجدته أكبر كثيراً من كل منهما ، فقد اشتبهت فى كونه مذنباً » (٥٥) .

ولم يكن النجم مذنباً ؛ وقد أظهر الفحص المتصل أنه يدور حول الشمس فى فلك يكاد يكون دائرياً ، يكبر تسع عشرة مرة عن فلك الأرض ، ومرتين عن فلك زحل ، لقد كان كوكباً جديداً ، وأول الكواكب التى ميزت على هذا النحو فى سجلات الفلك المدونة . وهلل العالم المثقف بأسره للكشف الذى صاعف قطر المجموعة الشمسية عما عرف من قبل . وكافأت الجمعية الملكية هرشل بزمالتها وبمدالية كويلى ، وأقنعه جورج الثالث بأن يترك عمله موسيقياً ويصبح فلكياً للملك . وأطلق هرشل على الكوكب الجديد اسم جورجيوم سيدس (نجم الجورجيين) ، ولكن الفلكيين اتفقوا بعد ذلك على تسميته « أورانوس » ، فانتزعوه بذلك من الملوك الهانوفرين وأسلموه لآلهة الوثنيين كما فعلوا بكل أخوته تقريباً .

وفى ١٧٨١ انتقل وليم وكارولين إلى سلاو ، وهى مدينة لطيفة على الطريق من لندن إلى وندسور . ولم يكف راتبه المتواضع البالغ مائتى جنيه

فى السنة حاجاته هو وأخته وأدواته ، فأكمله بصنع التلسكوبات وبيعها . وزاد من حجم ما صنعه منها لنفسه ، حتى بلغ طول أحدها الذى صنعه فى ١٧٨٥ أربعين قدماً . بمرآة قطرها أربعة أقدام وقد كتبت فانى بيرنى ، ابنة الموسيقى المؤرخ التى نقلنا عنها كثيراً ، فى يوميتها بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٧٨٦ :

هذا الصباح حملنى أبى (بمعنى أركبها عربته ، فقد كانت إذ ذاك فى السادسة والثلاثين) إلى الدكتور هرشل واستقبلنا هـذا الرجل العظيم الغريب الأطوار جداً بحفاوة بالغة ... وبدعوة من المستر هرشل قمت بجولة .. داخل تلسكوبه ! وقد احتوانى هذا التلسكوب مستقيمة العود دون أدنى مضايقة ؛ وكذلك كان يحتوينى لو كنت ألبس ريشتى وطوقى — فحيطه كبير إلى هذا الحد (٥٦) .

وفى ١٧٨٧ اكتشف هرشل قمرين لأورانوس سماهما أوبرون وتيتانيا ؛ وفى ١٧٨٩ وجد قمرى زحل (ساتورن) السادس والسابع . وفى ١٧٨٨ تزوج بأرملة غنية ؛ فلم يعد هناك ما يقلقه من جهة المال ، ولكنه واصل أبحاثه بحماسة لم تفتر . وألف أن يعمل طوال الليالى التى تطلع فيها النجوم ولا يحجب ضوءها قمر زاه . وكان يجرى أكثر أرصاده فى الهواء الطلق من رصيف يصل إليه بسلم متنقل ارتفاعه خمسون قدماً . وكان البرد يشتد أحياناً حتى يتجمد الحبر فى الزجاجة التى تأخذها كارولين معها لتسجل كشوفه .

وبعد أن واصل هرشل بأسلوب أكثر نظاماً وتيلسكوبات أفضل صنعاً عمل شارل مسييه ونيكولا دلاساى فى تحديد مواقع السدم وعناقيد النجوم وعمل قوائم لها ، قدم إلى الجمعية الملكية (١٧٨٢ — ١٨٠٢) قوائم حوت ٢,٥٠٠ سديم وعنقود ، و ٨٤٨ نجماً مزدوجاً . ومن هذه النجوم الأخيرة كان هو نفسه قد اكتشف ٢٢٧ نجماً . وألمع إلى أنها قد تكون ازدوجت فى جذب ودوران متبادلين — وهذا تطبيق منير لنظرية نيوتن على العلاقات بين النجوم . وفى كثير من الحالات تبين أن ما بدا كأنه نجم واحد إنما هو فى الحقيقة عنقود من نجوم منفردة ، وتبين أن بعض هذه العناقيد — حين رؤيت فى التلسكوبات الكبيرة — هى نجوم قائمة بذاتها على مسافات من

الأرض مختلفة أشد الاختلاف . وتحول « درب التبانه » فى التكبير الجديد من سحابة من المادة المتأججة ، إلى تجمع وتتابع هائلين من نجوم نيرة مفردة . وتبددت السماء الآن مكتظة بالنجـــوم اكتظاظ قطرات الماء فى المطر ، بعد أن كانت تبدو مرصعة بها فقط ، وبينما لم تر العين المجردة إلا نجوماً من الدرجة الأولى إلى السادسة فى كبر الحجم ، كشفت تلسكوبات هرشل عن مزيد من النجوم أضعف ضوءاً ١,٣٤٢ مرة من ألمعها . لقد بسط هرشل كما بسط جاليليو من قبل رقعة الكون المعروفة بسطاً هائلا . وإذا كان بسكال قد غشيته الرعدة أمام « لانهائية » السماوات المعروفة فى زمانه ، فماذا يكون شعوره أمام أعماق وراء أعماق لا آخر لها من نجوم لا تحصى ؛ قدر هرشل بعد بعضها عن الأرض بنحو ١١,٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل ؟ (٥٧) وكان كثير من النجوم شموساً لها كواكب تدور حولها . أما شمسنا وما يدور حولها من كواكب وأقمار ، فقد هبطت بجملتها إلى مقام الذرة فى عالم من الضوء .

وكان من أذكى إلماعات هرشل ما اتصل بحركة مجموعتنا الشمسية فى الفضاء ، فقد دلت المشاهدات السابقة على أن بعض النجوم المتصلة قد زادت أو أنقصت ، فى الزمن المدون ، من تباعدها عن بعضها البعض . فتساءل هرشل : ألا يجوز أن يكون مرجع هذا الاختلاف تحرك المجموعة الشمسية بعيداً عن النجوم الملتقية — أو صوب النجوم المفترقة ، كما يبدو مصباحان على جانبين متقابلين من الطريق ملتقيين أو مفترقين حين نبتعد أو نقترب منهما ؟ وقد خلص إلى أن المجموعة الشمسية ، بجملتها ، تتحرك مبتعدة عن بعض النجوم ، مقتربة من نجم فى برج هرقول . ونشر فرضه هذا فى ١٧٨٣ ، وبعد شهور أذاع بيير بريفوست نظرية مشابهة . وكان فريقا الفلكيين الأنجليز والفرنسيين يعملان فى تنافس غيور وتوافق وثيق .

وصف معاصر هرشل فى عامه الثانى والثمانين فقال « شـــيخ جليل ، بسيط ، طيب ، وبساطته ، ولطفه ، ونوادره ، واستعداده لشرح مفاهيمه الرفيعة للكون ، كلها جذابة إلى حد لا يوصف . (٥٨) وفى جهوده كلها شاركت كارولين فى إخلاص رائع روعته فى أى رواية خيالية . فلم تكتف

بتسجيل أرصاده بدقة وإجراء الحسابات الرياضية المعقدة لترشده ، بل اكتشفت بنفسها ثلاثة سدم وثمانية مذنبات . وبعد موت وليم (١٨٢٢) عادت لتعيش مع أقربائها فى هانوفر ؛ وهناك واصلت دراساتها وأعدت مزيداً من القوائم بكشوف أخيها . وفى ١٨٢٨ نالت المدالية الذهبية للجمعية الفلكية . وفى ١٨٤٦ نالت مدالية من ملك بروسيا . وماتت عام ١٨٤٨ وقد بلغت الثامنة والتسعين .

(د) بعض الفلكيين الفرنسيين

تجمعت حول مرصد باريس (الذى اكتمل بناؤه عام ١٦٧١) كوكبه من الراصدين . ألفت فيهم أسرة كاسينى ، خلال أجيال أربعة ، برجاً من الأنجم التى يتلو بعضها بعضاً . فكان جوفانى دومنيكو كاسينى مديراً للمرصد من ١٦٧١ إلى ١٧١٢ . وبعد موته خلفه فى إدارة المرصد ابنه جاك ، الذى خلفه (١٧٥٦) ابنه سيزار فرنسوا كاسينى دتورى ، الذى خلفه هو الآخر (١٧٨٤) ابنه جاك دومنيك ، الذى مات بلقب كونت كاسينى فى ١٨٤٥ بعد أن عمر إلى السابعة والثمانين . هنا أسرة جديرة بأن يقرن اسمها باسمى أسرتى برنوللى وباخ .

أما جان لورون دالامبير فكان بغير أسرة ، لا قبل مولده ولا بعده ، ولكنه جمع العلوم من حوله كما يجمع الإنسان أطفاله . وقد طبق رياضته على الفلك ، فقنن نظرية نيوتن فى « استقبال » الاعتدالين ، وفرض برادلى فى الميل المحورى للأرض : يقول لايلاس « إن اكتشاف هذه النتائج كان فى زمن نيوتن ممتنعاً على التحليل والميكانيكا ... وقد أرجىء شرف القيام بهذه المهمة دالامبير . فبعد عام ونصف من المؤلف الذى قدم فيه برادلى كشفه ، قدم لدالامبير رسالته « أبحاث فى استقبال الاعتدالين (١٧٤٩) ، وهى عمل رائع فى تاريخ ميكانيكا وديناميكا الأجرام السماوية ، روعة عمل برادلى فى حوليات الفلك [٥٩] » .

وقد لوثت سجل دالامبير لطخة ، هى أنه لم يغتبط بما أدركه منافسوه من نجاح — ومن منا قد سما به خلقه إلى هذا الابتهاج المقدس ؟ واشتدت

حماسته فى نقد عمل ألكسيس كليرو . والكسيس هذا عرف حساب التفاضل المتناهى الصغر . وهو بعد فى العاشرة ؛ وحين بلغ الثانية عشرة قدم أول أبحاثه لأكاديمية العلوم : وفى الثامنة عشرة نشر كتاباً حوى من الاضافات الهامة للهندسة ما حمل الأكاديمية على اختياره عضواً ملحقاً بها (١٧٣١) فى سن يصغر ست سنوات عما يبلغه دالامبير عند نيله هذا الشرف ذاته عام ١٧٤١ . وكان كليرو واحداً من العلماء الذين اختيروا لمرافقة موبرتوى فى البعثة الموفدة إلى لابلاند (١٧٣٦) لقياس قوس من أقواس الزوال . فلما عاد قدم إلى الأكاديمية مذكرات فى الهندسة ، والجبر ، والقطاعات المخروطية ، وحساب التفاضل . وفى ١٧٤٣ نشر نظرية فى شكل الأرض حسبت بمقتضى « نظرية كليرو » ، وبأدق مما حسب نيوتن وماكلورن ، ذلك الشكل الذى يتخذه ميكانيكياً جسم دائر على محوره من الجاذبية الطبيعية لأجزائه . وقد اتصل بمدام دشاتليه بفضل اهتمامه بنيوتن ، فأعانها على ترجمتها لأصول نيوتن ، وشارك فولتير شرف تحويل العلماء الفرنسيين من دوامات ديكارت إلى جاذبية نيوتن .

وفى ١٧٣٦ — ٤٩ عكف أويلر ، وكليرو ، ودالامبير ، مستقلين بعضهم عن البعض على إيجاد أوج القمر ، أى أقصى حد فى البعد بينه وبين الأرض بطرق التفاضل الجديدة — ونشر أويلر وكليرو نفس النتائج تقريباً ، وتلاهما دالامبير بحساب أدق حتى من حسابهما . وفاز كليرو بجائزة قدمتها أكاديمية سانت بطرسبورج لتصوير حركة القمر ، وكان قد نشر النتائج التى خلص إليها فى كتابه « نظرية القمر » (١٧٥٢) ثم طبق رياضته على حركات الأرض الناشئة عن الزهرة والقمر ؛ ومن هذه الاختلافات قدر أن كتلة الزهرة ٦٦,٧٪ ، وكتلة القمر ١,٤٩٪ من كتلة الأرض ، وتقديراتنا الحالية هى ٨١,٥ ٪ و ١,٨٢ ٪ .

وفى ١٧٥٧ بدأ فلكيو أوربا فى ترقب عودة المذنب التى تنبأ بها هالى ولكى يرشد كليرو أرصادهم اضطلع بحساب التقلبات التى كانت تطرأ على المذنب فى مروره بزحل والمشترى . فحسب أن هذه التقلبات وغيرها عطلته ٦١٨ يوماً ، وأشار على أكاديمية العلوم بأن المذنب سيكون فى الحضيض

(أقرب نقطة للشمس) حوالى ١٣ أبريل ١٧٥٩ . وتبينه راصد هاو فى عيد الميلاد ١٧٥٨ ، ومر بالحضيض فى ١٢ مارس ١٧٥٩ ، قبل الموعد الذى حسبه كليرو باثنين وثلاثين يوماً . ولكن حتى مع هذا الفارق فإن الحدث كان انتصاراً للعلم ولطمة عابرة للخرافة(*) وقدم كليرو دراسته عن الموضوع فى « نظرية حركة المذنبات » (١٧٦٠) وقد جعلته انتصاراته وعظم جاذبيته الشخصية ، مطمحاً تتنافس عليه الصالونات . وكان كثير الاختلاف إليها ، ومات فى الثانية والخمسين (١٧٦٥) « ولم يستحق عالم فرنسى فى هذا العهد صيتاً أبعد من صيته » [٦٠] .

وكان غير هؤلاء كثيرون ممن يجدر بالتاريخ أن يخلدهم ، وإن كان سردهم جميعاً يفسد قصتنا . نذكر منهم جوزف دليل ، الذى درس بقع الشمس وهالتها ، وأنشأ مرصد سانت بطرسبورج ؛ ... ونيكولا دوسيل ، الذى ذهب إلى رأس الرجاء الصالح موفداً من أكاديمية العلوم ، وأنفق عشر سنين (١٧٥٠ — ٦٠) يرسم الخرائط للأجواء الجنوبية ، وقد مات فى التاسعة والأربعين ، وبيير لمونييه ، الذى صاحب مويرتوى إلى لابلاند وهو فى الحادية والعشرين ، وأجرى دراسات على القمر طوال خمسين عاماً ، وحلل حركات المشترى وزحل ، ورصد وسجل أورانوس (١٧٦٨ — ٦٩) قبل أن يكشف هرشل أنه كوكب بسنين طويلة (١٧٨١) ، وجوزف دلالاند ، الذى مسح كتابه « رسالة فى الفلك » كل فرع من فروع هذا العلم ، والذى قام بتدريسه فى الكوليج دفرانس ستة وأربعين عاماً ، وأنشأ فى ١٨٠٢ جائزة لالاند ، التى ما زالت تمنح سنوياً لأفضل بحث فى الفلك ، وجان باتيست دلامبر ، الذى عين مدار أورانوس ، وخلف لالاند فى « الكوليج » ، وأضاف إلى عرض لالاند العالمى تاريخاً للفلك فى ست مجلدات بذل فيها كل جهد وعناية (١٨١٧ — ٢٧) .

(هـ) لابلاس :

ولد (١٧٤٩) باسم بيير سيمون لابلاس ، لأسرة من الطبقة الوسطى فى نورمانديا ، ثم أصبح المركيز بيير سيمون دلابلاس ، وحقق أول فوز له

(*) ينتظر مذنب هالى مرة أخرى ١٩٨٦ .

بمقالاته اللاهوتية الورعة فى المدرسة ، وغدا أشد الملحدين إمعاناً فى الحادهم فى فرنسا النابوليونية . أوفد إلى باريس فى الثامنة عشرة من عمره ومعه خطاب تعريف إلى دالامبير . ورفض دالامبير لقاءه ، فقد كان يتلقى الكثير من أمثال هذا الخطاب ولا يعبأ بما حوت من مديح ، ولكن لابلاس الذى لم تفل عزيمته أرسل إليه خطاباً فى المبادىء العامة للمكانيكا . ورد عليه دلامبير قائلا « سيدى ، أنت ترى أننى لم أعبأ كثيراً بالتوصيات . ولكنه لا حاجة لك بتوصية . فقد عرفتنى بنفسك تعريفاً أفضل ، وهذا يكفينى . ومن حقك أن أساعدك » (٦١) . وما لبث لابلاس ، بفضل نفوذ دالامبير ، أن عين مدرساً للرياضة فى المدرسة الحربية . وقد حلل حبه المشبوب للرياضة فى خطاب وجهه بعد ذلك إلى دالامبير ، قال :

لقد عكفت على الرياضة مدفوعاً دائماً بميلى لا بالرغبة فى شهرة باطلة . وأعظم تسلية لى أن أدرس موكب المخترعين ، وأرى عبقريتهم تصارع العقبات التى صادفوها وذللوها . ثم أضع نفسى مكانهم وأسائلها كيف كنت فاعلا للتغلب على هذه العقبات ذاتها ؛ ومع أن هذا البدل كان فى الكثير الأغلب من الحالات مذلا لأنانيتى ، فإن لذة الابتهاج بنجاحهم عوضتنى عوضاً وافراً عن هذا الإذلال القليل . وإذا أتيح لى من الحظ ما أضيف به شيئاً لأعمالهم ، فإننى أعزو كل الفضل لجهودهم الأولى » (٦٢) .

ونحن نلمس شيئاً من الكبرياء فى هذا التواضع الواعى . على أية حال كان طموح لابلاس أبعد الأشياء عن التواضع ، لأنه اضطلع باختزال الكون كله إلى نسق رياضى واحد ، بتطبيق نظرية الجاذبية النيوتينية على جميع الأجرام والظواهر السماوية . لقد ترك نيوتن الكون فى وضع قلق ؛ فظن أنه عرضة لشذوذات تتصاعد أحياناً ، بحيث يلزم أن يتدخل الله من حين إلى حين ليقومه من جديد . ولم يقتنع كثير من العلماء — مثل أويلر — بأن العالم جهاز آلى ، ولكن لابلاس أراد أن يثبت هذا ميكانيكياً .

وبدأ (١٧٧٣) بمقال بين أن الاختلافات فى متوسط أبعاد كل كوكب من الشمس تخضع لصياغة رياضية مضبوطة ، تقريباً ، فهى إذن دورية

وميكانيكية ، واختارته أكاديمية العلوم بفضل هذا المقال عضواً ملحقاً بها وهو بعد فى الرابعة والعشرين . ومن ذلك التاريخ كرس لابلاس حياته ، بوحدة وتوجيه وإصرار فى الهدف ، لاختزال عمليات الكون واحدة تلو الأخرى إلى معادلات رياضية . كتب يقول « إن كل تأثيرات الطبيعة ليست سوى نتائج رياضية لعدد قليل من القوانين الثابتة » (٦٣) .

ومع أن أعماله الكبرى لم تنشر إلا بعد الثورة ، فإن إعداده لها بدأ قبل ذلك بكثير . وكان كتابه « عرض لنظام العالم » . (١٧٩٦) مقدمة مبسطة غير ميكانيكية لآرائه ، تتسم بأسلوبها الصافى المتدفق ، وتجسد نظريته الشهيرة (التى سبقه إليها كافط فى ١٧٥٥) عن أصل المجموعة الشمسية . وكان هدف لابلاس أن يفسر دوران الكواكب حول محاورها وحول الشمس ، ودوران أقمارها ، بافتراض وجود سديم أزلى من الغازات الحارة ، أو غيرها من الذرات الدقيقة ، يغلف الشمس ويمتد إلى آخر أطراف المجموعة الشمسية . وقد برد هذا السديم الدائر مع الشمس شيئاً فشيئاً ، وانكمش مكوناً حلقات ربما كانت شبيهة بالحلقات التى ترى الآن حول زحل . فلما ازدادت البرودة والانكماش تكاثفت هذه الحلقات فكونت كواكب ، وبمثل هذه الطريقة كونت الكواكب أقمارها ؛ ولعل تكاثفاً شبيهاً بهذا فى السدم كون النجوم . وافترض لابلاس أن جميع الكواكب والأقمار تدور فى نفس الاتجاه ، وفى نفس المستوى عملياً ، ولم يعرف وقتها أن أقمار أورانوس تتحرك فى اتجاه مضاد . وهذه « النظرية السديمية » مرفوضة الآن كتفسير للمجموعة الشمسية ، ولكنها مقبولة على نطاق واسع كتفسير لتكاثف النجوم من السدم . على أن لابلاس لم يعرضها إلا فى كتابه الشعبي هذا ، ولم يغل فى أخذها مأخذ الجد : « هذه التكهنات حول تكون النجوم والمجموعة الشمسية ... أعرضها بكل التشكك الذى يجب أن توحى به جميع الأشياء التى ليست تنتجه للمشاهدة أو للحساب » (٦٤) .

وقد لخص لابلاس مشاهداته ، ومعادلاته ، ونظرياته — وتقريباً كل علم الفلك المعروف فى زمانه — فى الأسفار الخمسة الجليلة التى يتألف منها كتابه « ميكانيكا الأجرام السماوية (١٧٩٩ — ١٨٢٥) ، والذى سماه جان باتيست

فوريبه « مجسطى » الفلك الحديث . وقد ذكر هدفه فيه ببساطة رائعة فقال « بناء على أجرام المجموعة الشمسية الثمانية عشر المعروفة ، وعلى مواقعها وحركاتها فى أى وقت ، أريد استنباط مواقعها وحركاتها فى أى وقت آخر ، من جاذبيتها المتبادلة .... بالحساب الرياضى ، والبرهنة على أن هذه تتفق مع تلك التى شوهدت فعلا . » وتحقيقاً لهذه الخطة كان على لابلاس أن يدرس التقلبات التى تحدثها التأثيرات المتعارضة لأعضاء المجموعة — الشمس ، والكواكب ، والأقمار — ويختزلها إلى انتظام دورى يمكن التنبؤ به . وقد آمن بأن هذه التقلبات كلها يمكن أن تفسر برياضيات الجاذبية . وفى هذه المحاولة لإثبات ما تتمتع به المجموعة الشمسية وسائر الكون من ثبات واكتفاء ذاتى ، اتخذ لابلاس رأياً يدين بالميكانيكية البحتة ، وعبر عن الفلسفة الحتمية تعبيراً مشهوراً فقال :

« ينبغى أن ننظر إلى حالة الكون الراهنة على أنها نتيجة لحالته الماضية ، وسبب لحالته المستقبلة . وإن ذكاء يحيط بجميع القوى العاملة فى الطبيعة فى لحظة معلومة ، كما يحيط بالمواقع الوقتية لجميع الأشياء فى الكون ، فى استطاعته أن يدرك فى صيغة واحدة حركات أكبر الأجرام وأخف الذرات فى الكون ، شريطة أن يكون عقله من القوة بحيث يخضع جميع المعطيات للتحليل ، فلا شىء يغم على فهمه ، وسيبصر المستقبل كما يبصر الماضى ، (قارن مفهوم الفلاسفة السكولاستيين عن الله) . والكمال الذى استطاع العقل البشرى أن يوصل إليه علم الفلك يعطينا صورة عامة ضعيفة لهذا الذكاء . وقد أتاحت كشوف الميكانيكا والهندسة ، مشفوعة بكشوف الجاذبية الكونية ، للعقل أن يدرك فى نفس الصيغ التحليلة الحالة الماضية والمستقبلة لنظام الكون . وكل جهود العقل بحثاً عن الحقيقة تنحو إلى القرب من الذكاء الذى تصورناه ، وإن بقى إلى الأبد بعيداً عن هذا الذكاء بعداً سحيقاً » (٦٥) .

حين سأل نابليون لابلاس لم لم يرد ذكر الله فى كتابه « ميكانيكا الأجرام السماوية » ، قيل إنه أجاب « لم يكن بى حاجة إلى ذلك الفوضى » (٦٦) على أن

لابلاس كانت له لحظاته المتواضعة . فني كتابه « نظرية تحليلية للاحتمالات » ، (١٨١٢) — وهي الأساس لكل ما جد بعد ذلك من عمل في هذا الميدان — جرد العلم من كل يقينية فقال :

إذا توخينا الدقة في التعبير قلنا إن معرفتنا كلها تقريباً غير يقينية ؛ وفي الأشياء التي نستطيع معرفتها يقيناً ، حتى في العلوم الرياضية ذاتها ، يقوم الاستنباط والقياس على الاحتمالات ، وهما أهم السبل للكشف عن الحقيقة (٦٧) (*) وكان للابلاس إسهامات نوعية ، بالإضافة إلى صياغته الخطيرة الأثر للكشوف والفروض الفلكية المعروفة إلى وقته . فقد أنار كل فرع تقريباً من فروع الفيزياء بـ « معادلات لابلاس » عن « الجهد » التي يسرت التأكد من شدة الطاقة ، أو سرعة الحركة ، في أي نقطة في ميدان خطوط القوة . وحسب البيضية الديناميكية للأرض من تقلبات القمر التي كانت تعزى لشكل الكرة المفرطح ، ووضع نظرية تحليلية للمد والجزر ، واستنبط كتلة القمر من ظواهرهما . وابتكر طريقة محسنة لتحديد مدار المذنبات ؛ واكتشف العلاقات العددية بين حركات أقمار المشترى . وحسب بدقته المعهودة السرعة « القرنية » المتوسطة حركة القمر . وأرست دراساته للقمر الأساس للجداول المحسنة لحركات القمر ، التي وضعها تلميذه جان شارل بوركهارت عام ١٨١٢ . وأخيراً ارتفع من العلم إلى الفلسفة — من المعرفة إلى الحكمة — في فيض من البلاغة جدير ببوفون :

« إن الفلك بحكم جلال موضوعه وكمال نظرياته ، هو أبدع صرح من صروح الروح البشرية ، وأنبل شهادة على الذكاء البشرى . فالأنسان الذى أضلته أنانيته وأوهام حواسه ظل طويلا يعتبر نفسه المركز في حركات النجوم ، وقد لقي غروره الكاذب عقاباً من الأهوال التي أوحت بها هذه النجوم .

---

* ان برهان لابلاس ، حتى فى الميكانيكا القديمة (النيوتنية) عن ثبات المجموعة الشمسية ، لم يعد حاسما ... فهو لم يعط جوابا دقيقا . فلوريان كاجورى عن كتاب نيوتن .

Mathematical Principles of Natural Philosophy, p. 678.

ثم ألقى بنفسه فوق كوكب لا يكاد يدرك حجمه فى المجموعة الشمسية ، وامتداده الشاسع ليس إلا نقطة تافهة فى اتساع الفضاء . والنتائج السامية التى قاده إليها هذا الكشف خليقة بأن تعزيه عن المرتبة التى وضعت فيها الأرض ، لأنها تبصره بعظمته فى كل ضآلة القاعدة التى يقيس منها النجوم . فعليه أن يصون بعناية نتائج هذه العلوم السامية التى هى بهجة للكائنات المفكرة ، وأن يوسع رقعتها . وقد أدت تلك العلوم خدمات جلية للملاحة والجغرافيا ، ولكن بركتها الكبرى هى تبديد المخاوف التى سببتها الظواهر الفلكية والقضاء على الأخطاء المنبعثة من الجهل بعلاقتنا الصحيحة بالطبيعة — وتلك أخطاء ومخاوف ستنبعث من جديد إذا قدر لمشعل العلم يوماً ما أن ينطفىء » (٦٨) .

وقد وجد لابلاس أن تكييف حياته وفق اضطرابات السياسة الفرنسية أيسر له من تكييف رياضياته لشذوذات النجوم . فلما أقبلت الثورة قوى عليها بكونه أعظم قيمة حياً منه ميتا ، فاستخدمته مع لاجرانج لصنع ملح البارود للبارود ، وحساب مسارات قذائف المدافع . وعين عضواً فى لجنة الموازين والمقاييس التى وضعت النظام المترى . وفى ١٧٨٥ كان قد امتحن وأجاز طالباً متقدماً لسلاح المدفعية ، هو بونابرت الذى كان فى السادسة عشرة من عمره ؛ وفى ١٧٩٨ أخذه الجنرال بونابرت إلى مصر ليدرس النجوم من الأهرام . وفى ١٧٩٩ عينه القنصل الأول وزيراً للداخلية وبعد سبعة أسابيع عزله لأن « لابلاس يبحث عن الرقائق والدقائق فى كل مكان . . وينقل إلى الإدارة روح اللانهائى الصغر » . (٦٩) ولكى يطيب بونابرت خاطره عينه فى مجلس الشيوخ الجديد ، وخلع عليه لقب الكونت . ورسم له الان جاك أندريه نيجون صورة فى ذهب رتبته الجديدة وزينتها : وجه مليح شريف ، وعينان محزونتان كأنهما شاعرتان بأن الموت يهزأ بكل عظمة وجلال ، وبأن الفلك ما هو إلا تحسس فى الظلام ، وأن العلم ليس إلا نقطة ضوء فى بحر من الليل البهيم . وعندما حضرته المنية (١٨٢٧) فارقه كل غرور ، وكانت كلماته الأخيرة تقريباً هى « إننا لا نعلم إلا القليل ، أما الذى نجهله فلا حدود له » (٧٠) .

٦ - فى الأرض :

درست أربعة علوم الأرض : فعلم الظواهر الجوية (المتيورولوجيا) ارتاد غلافها الجوى ، وعلم المساحة التطبيقية (الجيوديسيا) قدر حجمها . وشكلها ، وكثافتها ، والمسافات التى تشمل انحناء سطحها ؛ والجيولجيا نقبت فى تكوينها ، وأعماقها ، وتاريخها ، والجغرافيا رسمت الخرائط ليابسها ومائها .

(أ) المتيورولوجيا :

استعمل علم الجو أربع آلات للقياس بالإضافة إلى المقياس البسيط للمطر : الترمومتر لدرجة الحرارة ، والبارومتر للضغط الجوى ، والانيمومتر للرياح ، والهيجرومتر لرطوبة الهواء .

فى عام ١٧٢١ أو قبله ، وفق جابرييل دانييل فارنهايت . وهو صانع آلات ألمانى فى أمستردام ، فى تطوير الترمومتر الذى كان جاليليو قد اخترعه فى ١٦٠٣ ، واستعمل فارنهايت الزئبق بدلا من الماء سائلا متمدداً منكمشاً . وقسم المقياس إلى درجات مبنية على نقطة تجمد الماء (٣٢°) ودرجة حرارة الفم لجسم الإنسان العادى (٩٨,٦°) . وفى ١٧٣٠ أنهى رينيه دريامور إلى أكاديمية العلوم « قواعد لبناء الترمومترات بتدرجات قابلة للمقارنة » ، واتخذ درجة تجمد الماء صفراً ، ودرجة غليانه ٨٠° ، ودرج المقياس بحيث يجعل الدرجات تتفق والزيادات المعادلة فى صعود أو هبوط السائل الترمومترى الذى استعمل له الكحول . وحوالى عام ١٧٤٢ أدخل أنديرس كلسيوس الأوبسالى تحسينات على ترمومتر دريامور بالعودة إلى استعمال الزئبق وتقسيم المقياس إلى مائة درجة « سنتجرادية أى مئوية » بين نقطتى تجمد الماء وغليانه . واستطاع جان أندريه دلوك الجنيفى فى ١٧٧٢ أن يعطى الترمومترين المتنافسين شكلهما الحالى : الشكل الفهرنهايتى للشعوب الناطقة بالانجليزية ، والشكل المئوى لغيرها من الشعوب .

أما البارومتر فكان قد اخترعه توريتشيللى فى ١٧٤٣ ، ولكن قراءاته للضغط الجوى كانت تتأثر دقتها بعوامل لم يحسب لها حساب ، كنوعية الزئبق ،

واتساع الأنبوبة ، ودرجة حرارة الهواء . على أن شتى الأبحاث التى بلغت ذروتها فى تجارب دلوك وحساباته (١٧١٧ — ١٨١٧) عالجت هذه العيوب ، وأوصلت البارومتر الزئبقى إلى شكله الراهن .

وصنعت أنيمومترات بدائية متنوعة فى القرن السابع عشر . من ذلك أن بيير أوويه أسقف أفرانش العالم ، ترك عند موته فى ١٧٢١ تصميما لانيمومتر (والكلمة من ابتكاره فيما يبدو) يقيس قوة الريح بتمريره فى أنبوبة يرفع ضغطه فيها عموداً من الزئبق . ودخل على هذا الأنيمومتر تحسين بـ « مقياس الريح » (١٧٧٥) الذى ابتكره الطبيب الاسكتلندى جيمس لند . وابتكر جون سميتن (حوالى ١٧٥٠) جهازاً لقياس سرعة الريح . وأفضل آلات قياس الرطوبة فى القرن الثامن عشر هى هيجرومتر أوراس دسوسير (١٧٨٣) الجنيفى المتعدد القدرات ، وقد بناه على تمدد وانكماش شعرة إنسان بفعل التغيرات فى الرطوبة . وأرسى وليم كولن الأساس لنوع آخر من الهيجرومتر بملاحظة ما للسوائل من تأثير مبرد على البخر .

بهذه الأدوات وغيرها ، كالأبرة المغنطيسية ، حاول العلم أن يكشف عن الانتظامات فى تقلبات الجو . وكان أول ما يستلزمه هذا الكشف وجود السجلات الموثوق بها ، وقد احتفظت ببعض هذه السجلات لفرنسا أكاديمية العلوم منذ ١٦٨٨ . ومن ١٧١٧ إلى ١٧٢٧ احتفظ طبيب برزلاوى بسجلات يومية للتقارير الجوية التى كان يطلبها من أنحاء كثيرة فى ألمانيا ؛ وفى ١٧٢٤ بدأت جمعية لندن الملكية فى جمع التقارير المتيورولوجية ، لا من بريطانيا وحدها بل من القارة الأوربية ، والهند ، وأمريكا الشمالية . ثم نظم ج . ج . هيمر فى مانهايم ، عام ١٧٨٠ ، تنسيقاً أوسع وأنظم من هذا كله للتقارير اليومية تحت رعاية شارل تيودور أمير بالاتين الناخب ، ولكنه توقف (١٧٩٢) خلال حروب الثورة الفرنسية .

ومن الظواهر المتيورولوجية التى أطلقت الكثير من التكهنات ظاهرة الفجر الكاذب . وقد درس ادموند هالى بعناية تفجرات هذه « الأضواء الشمالية » فى ١٦ — ١٧ مارس ١٧١٦ ، وعزاها إلى تأثيرات

مغنطيسية منبعثة من الأرض . وفى ١٧٤١ لاحظ هيورتر وغيره من المشاهدين السكندناويين أن اختلافات غير منتظمة فى إبرة البوصلة تحدث فى وقت ظهور الأضواء . وفى ١٧٩٣ قرر جون دولتين الكيميائى أن ألسنة الضوء موازية لإبرة الانحراف المغنطيسى ، وأن سمتها ، أو نقطة إلتقائها ، تقع فى الزوال المغنطيسى . إذن فقد أدرك القرن الثامن عشر الطبعة الكهربية لهذه الظاهرة التى تعلل الآن بأنها تفريغ شحنة كهربى فى جو الأرض ، سببه التأين الناشىء عن جزيئات تطلق من الشمس .

وبدأت مؤلفات القرن الثامن عشر فى المتيورولوجيا بكتاب كرستيان فولف فى « مقاييس الجو الأساسية » (١٧٠٩) ، الذى لخص المعلومات المعروفة إلى عهده واقترح أدوات جديدة . وقد حاول دالامبير وضع صيغة رياضية لحركات الرياح فى كتابه « تأملات فى السبب العام للرياح » الذى نال جائزة قدمتها أكاديمية برلين فى ١٧٤٧ . أما أبرز بحث فى هذه الفترة فهو كتاب ضخم يسمى « رسالة فى المتيورولوجيا » (١٧٧٤) بقلم لوى كوت ، أحد قساوسة مونمورنسى . وقد جمع كوت نتائج مشاهداته وغيرها وجدولها ، ووصف الآلات ، وطبق كشوفه على الزراعة ، وعين وقت الأزهار والنضج لمختلف المحاصيل ، والتواريخ التى تفد فيها عصافير الجنة وترحل ، ومتى يتوقع أن يشدو البلبل بغنائه ، واعتبر الرياح أهم أسباب التغيرات فى الجو ، وأخيراً اقترح صيغاً اجتهادية للتنبؤات الجوية ، أما كتاب جان دلوك « أبحاث فى تغيرات الجو » (١٧٧٢) فقد وسع تجارب بسكال (١٦٤٨) وهالى (١٦٨٦) فى العلاقات بين الارتفاع والضغط الجوى ، ووضع صيغة القانون الذى ينص على أنه « فى درجة حرارة معينة تعطى الفروق بين لوغاريتمات ارتفاعات الزئبق (فى البارومتر) فوراً ، فى أجزاء من القامة — الفرق فى ارتفاعات الأماكن التى رصد فيها البارومتر » (٧١) . واستطاع دلوك بإلحاق ميزان ماء ببارومتره ، أن يقدر بارومترياً ارتفاع مختلف الشواخص . فقدر أن « المون بلان » يعلو ١٤,٣٤٦ قدماً عن سطح البحر . أما أوراس دسوسير ، فبعد أن ارتقى الجبل وسجل قراءات عند قمته (١٧٨٧) ، خلص من قياسه إلى أنه يعلو ١٥,٧٠٠ قدم .

(ب) الجيوديسيا :

كان المعنى الحرفى للجيوديسيا هو « تقسيم الأرض » . وللقيام بهذه المهمة بدقة كان من الضرورى معرفة شكل الكرة الأرضية . وكان هناك اتفاق عام فى ١٧٠٠ على أن الأرض ليست تامة التكور بل لها شكل القطع الناقص — فهى مفرطحة بعض الشيء فى نهايتها . وذهب نيوتن إلى أنها مفرطحة عند القطبين ، أما العلماء من آل كاسينى فذهبوا إلى أنها مفرطحة عند خط الاستواء . وللفصل فى هذا الخلاف الدولى أوفدت أكاديمية علوم باريس بعثتين ، ذهبت الأولى فى ١٧٣٥ وعلى رأسها شارل دلاكوندامين ، وبيير بوجيه ، ولوى جودان ، إلى ماكان بيرو يومها (وهو الآن اكوادور) لقياس درجة عرض فلكية على منحنى من الزوال قرب الاستواء . (*) وقد وجدو أن البعد بين درجة عرض فلكية والدرجة التى تليها ، على الزوال المار فوق مكان رصدهما ، هو ٣٦٢,٨٠٠ قدم . وفى ١٧٣٦ أوفدت بعثة كهذه إلى لابلاند وعلى رأسها نوبرتياس وكليرو ، لقياس درجة عرض فلكية على منحنى من الزوال عند مكان أقرب ما أمكن للدائرة القطبية . وقد قررت أن طول الدرجة هناك ٣٧٦,١٠٠ قدم — أى أكثر قليلا من تسعة وستين ميلا . ودلت هذه الكشوف على أن طول درجة العرض الفلكية ، يزداد زيادة طفيفة كلما تحرك الراصد من الاستواء إلى القطب ؛ وقد فسرت الزيادة بأنها راجعة لتفرطح الأرض عند القطبين . وسلمت أكاديمية العلوم بأن نيوتن كان على حق . واتخذت المقاييس التى حصلت عليها البعثتان بعد ذلك أساساً لتحديد المتر ، والنظام المترى ، والزمن الفلكى المضبوط لمختلف الأماكن على سطح الأرض .

وقد عزا بوجيه انحرافات ميزان الاستقامة التى لاحظها فى أرصاد بعثة بيرو إلى القوة الجاذبية لجبل شيمبورازو القريب . وبقياس الانحراف قدر كثافة الجبل . وعلى هذا الأساس حاول حساب كثافة الأرض . وواصل

---

* العرض الفلكى هو البعد الزاوى بين الاستواء واتجاه ميزان للجاذبية فى مكان معين . وزاول المكان هو الدائرة الكبرى التى تمر فوقه رأسا من القطب الى القطب .

هذا البحث نفيل ماسكلين ، فلكى الملك وجورج الثالث (١٧٧٤ — ٧٨) ، بإسقاطه ميزان الاستقامة تارة على جانب جبل جرانيتى فى اسكتلاندة وتارة على الجانب الآخر . وفى كلتا الحالتين انحرف الميزان نحو اثنتى عشرة ثانية زاوية نحو الجبل . واستنتج ماسكلين أن نسبة كثافة الأرض إلى كثافة الجبل هى نفس النسبة بين قوة جاذبية الأرض وانحراف الاثنتى عشرة ثانية ، وعلى هذا الأساس قدر تشارلز هتن أن كثافة الأرض تقرب من ٤,٥ مرة من كثافة الماء — وهو رقم مقبول الآن عموماً ، وقد توصل إليه نيوتن بما عهد فيه من حدس ذكى قبل قرن من الزمان .

(ج) الجيولوجيا :

ظلت ضروب التحريم اللاهوتية تعرقل دراسة أصل الأرض . وعمرها ، وتركيبها ، والبحث فى قشرتها وما دونها ، وفى زلازلها . وبراكينها ، وفوهاتها ، وأحافيرها . وكانت الأحافير تفسر عموماً بأنها مخلفات كائنات بحرية تركتها على الأرض مياه انحسرت عقب طوفان نوح . الذى كان الاعتقاد أنه غطى الكرة الأرضية . وفى ١٧٢١ قرر أنطونيو فاللزنيرى فى كتابه عن الأجسام البحرية . . . . أن فيضاناً مؤقتاً لا يمكن أن يعلل راسباً من التكوينات البحرية بهذا الانتشار الواسع . ورأى أنطون مورو فى كتابه « البندقية » ، (١٧٤٠) أن الأحافير قذفت بها ثورانات بركانية من البحر . فالأرض كانت فى الأصل مغطاة بالماء ، فدفعت النيران الباطنية اليابس الذى تحت الماء إلى فوق البحر الهابط ، وكونت الجبال والقارات .

وقد خلف بنوا دماييه عند موته (١٧٣٨) مخطوطة طبعت عام ١٧٤٨ باسم « تياميد ، أو لقاءات بين فيلسوف هندى ومراسل فرنسى » وقد ساق آراءه على لسان حكيم هندى . ولكن سرعان ما تبين أن « تياميد » ليس إلا « دمامية » مقلوباً ، ولعل الزوبعة التى أثارها الكتاب قد صالحت بين مؤلفه وبين موته الذى أدركه فى أوانه . ونظريته تزعم أن الأرض والجبال والأحافير لم تكونها الثورانات البركانية — بل الانحسار التدريجى للمياه التى غطت وجه الأرض فيما مضى من الزمان ، وألمح ماييه إلى أن كل

النباتات والحيوانات تطورت من كائنات بحرية مقابلة ، لابل الرجال والنساء تطوروا من أناسى البحر وعرائسه الذين فقدوا ذيولهم كما فقد الضفدع ذيله . وقد نشأ انحسار الماء عن البخر الذى هبط بمستوى البحر نحو ثلاثين قدماً كل ألف عام . وأنذر ماييه بأن المحيطات ستجف تماماً فى النهاية ، وستصعد النيران الباطنية إلى السطح وتفنى كل شىء حى .

وبعد « تياميد » بعام أصدر جورج لوى دبوفون أول مجلديه الرئيسيين اللذين أسهم بهما فى علم وليد لم يزل مقمطاً فى تكهنات لا سبيل إلى التثبت من صحتها . وقد ألف « نظرية الأرض » (١٧٤٩) وهو فى الثانية والأربعين ، « وحقب الطبيعة » (١٧٧٩) وهو فى الحادية والسبعين . وبدأ باحتياط على طريقة ديكارت ، فسلم بدفعة أولى دفع الله بها العالم ، وبعدها قدمت « النظرية » تفسيراً طبيعياً خالصاً للأحداث الكونية . وقد استبق آخر نظريات تكوين العالم بقرنين ، إذ ذهب إلى أن الكواكب نشأت كشظايا انفصلت عن الشمس إثر صدمة مذنب قوى أو بفعل جذبه ، فكل الكواكب إذن كانت فى البداية كتلا منصهرة مضيئة كالشمس الآن ، ولكنها بالتدريج بردت وأظلمت فى برد الفضاء . أما « الأيام » التى استغرقتها الخليقة فى سفر التكوين فلابد من تفسيرها على أنها حقب ، قد نتبين منها سبعاً :

١ — اتخذت الأرض شكلها الكروى نتيجة لدورانها ، ثم برد سطحها ببطء (٣,٠٠٠ سنة) .
٢ — تجمدت الأرض فأصبحت جسما جامداً (٣٢,٠٠٠ سنة) .
٣ — تكاثفت الأبخرة التى غلفتها وكونت محيطاً عالمياً (٢٥,٠٠٠ سنة) .
٤ — هبطت مياه هذا المحيط باختفائها فى شقوق فى قشرة الأرض ، تاركة نباتاً على السطح ، وأحافير على ارتفاعات شتى على اليابس (١٠,٠٠٠ سنة) .
٥ — ظهرت الحيوانات البرية (٥,٠٠٠ سنة) .
٦ — فصل هبوط المحيط نصف الكرة الغربى عن نصفها الشرقى ، وجرينلند عن أوربا ، ونيوفوندلند عن أسبانيا . وترك الكثير من الجزر تبدو كأنها طالعة من البحر (٥,٠٠٠ سنة) .

٧ — تطور الإنسان (٥,٠٠٠ سنة) .

ولاحظ بوفون بجمع هذه الحقب معاً أن حاصلها ٥٨,٠٠٠ سنة . ولعله كان يعجب لخيال الجيولوجيين الفائق فى يومنا هذا ، فهم يمدون عمر الأرض إلى أربعة بلايين سنة .

وقد أسس بوفون علم الأحافير (البليونتولوجى) بدراسته العظام المتحجرة واستنباطه الحقب المتعاقبة للحياة العضوية منها . ويتبين منظوره وأسلوبه من الأسطر الأولى التى استهل بها « حقب الطبيعة » إذ يقول :

« كما أننا فى التاريخ المدنى نرجع إلى ألقاب الناس ، وندرس العملات والمداليات ، ونفك رموز الكتابات القديمة ، لنحدد عصور الثورات الإنسانية وتواريخ الأحداث فى تاريخ المجتمع ، فكذلك يجب علينا فى التاريخ الطبيعى أن ننقب فى محفوظات الدنيا ، ونخرج من أحشاء الأرض الآثار القديمة ، ونجمع بقاياها ، ونحشد فى مجموعة من الأدلة كل الإشارات على التغيرات الفيزياثية التى تتيح لنا الرجوع إلى مختلف عصور الطبيعة . وهذا سبيلنا الأوحد إلى تحديد بعض النقط فى الفضاء الشاسع ، ووضع عدد من الشواخص على الطريق الأبدى للزمن . وما أشبه الماضى بالمسافات فبصرنا به كان يتناقص بل يتلاشى لولا أن التاريخ والترتيب وضعا المعالم والمشاعل فى أشد نقطه ظلاماً » [٧٢] .

ثم لأنه لم يتوصل إلى علم الأحافير إلا فى شيخوخته كتب يقول :

« إننى أترك أسفاً هذه الأشياء الخلابة . هذه الآثار الثمينة التى خلفتها لنا الطبيعة القديمة ، والتى لا تمهلنى شيخوختى لفحصها فحصاً يكفى لأن أستخلص منها النتائج التى أتصورها ، والتى ينبغى ألا تجد لها مكاناً فى الكتاب لأنها لا تقوم إلا على الافتراض ، فى حين أننى جريت فيه على سنة ، هى ألا أعرض فيه غير الحقائق المبنية على الواقع . وسيأتى من بعدى آخرون [٧٣] .

وكتابه « حقب الطبيعة » كان من أهم كتب القرن الثامن عشر . وقد أغدق عليه بوفون كل ما يملك من صنعة فى الأسلوب ، حتى أنه كتب بعض أجزائه

من جديد سبع عشرة مرة (إذا صدقناه) [٧٤] . وسكب فيه كل قوة خياله حتى لقد بدا أنه يصف ، عبر فجوة من ستين ألف عام ، تصورات فكره وكأنها أحداث تنبسط أمام عينيه(*) . وقد أشاد جريم بالكتاب لأنه « من أروع القصائد التي جرؤت الفلسفة على أن توحي بها » وقال كوفييه في حكمه عليه إنه « أذيع أعمال بوفون قاطبة ، مكتوب بأسلوب رفيع حقاً » [٧٦] .

وفي هذه الأثناء حاول نفر من الدارسين أكثر تواضعاً أن يرسموا خرائط لتوزيع المعادن في التربة . وقد ظفر جان جتار بثناء أكاديمية باريس للعلوم على كتابه « مذكرة وخريطة في علم المعادن » (١٧٤٦) وبينما كان يبذل هذه المحاولة الأولى للقيام بمسح جيولوجي ، اكتشف براكين خامدة في فرنسا ، وعلل الرواسب المحيطة بها بأنها حمم متجمدة ، والينابيع الحارة بأنها آخر مراحل هذه القوى البركانية . وحفز زلزال لشبونه جون متشل إلى إعداد « مقال في أسباب الزلازل وظواهرها » (١٧٦٠) ، وقد ذهب إلى أنها راجعة إلى الالتحام الفجائي بين النار والماء الباطنيين ، مما أحدث بخراً متمدداً ، وقد وجد هذا البخر منفذاً خلال البراكين والفوهات ، ولكن إذا تعذرت هذه المخارج أحدثت اهتزازات في سطح الأرض . وهذه الأمواج الأرضية يمكن في رأي متشل رسمها لإيجاد بؤرة الزلزال . وهكذا تمخض علم الجيولوجيا الذي كان حدثاً بعد عن علم الزلازل .

كذلك أصبح علم طبقات الأرض فرعاً متخصصاً . فقد حار الناس في أصل طبقات القشرة الأرضية وتركيبها وتعاقبها . وأتاحت مناجم الفحم مفتاحاً لهذه الدراسات ؛ ومن ثم قدم جون ستراتشي للجمعية الملكية (١٧٠٩) « وصفاً غريباً للطبقات الأرضية لوحظ في مناجم فحم منديب بسمرستشير . » وفي ١٧٦٢ أصدر جيورج كرستيان فوشزل أول خريطة جيولوجية مفصلة ، ووصف « التكوينات » التسعة في تربة تورنجيا ، وأرسى مفهوم « التكوين » باعتباره تعاقباً لطبقات تمثل في مجموعها حقبة جيولوجية .

---

* عبر سانت ـ بوف عن هذا اروع تعبير : « قال الله لأيوب أين كنت حين أرسلت أساسات الأرض ؟ » وكأني بمسيو ديوفون يقول لنا في غير انفعال « كنت هناك » . [٧٥]

وتنازعت النظريات المتنافسة على أسباب هذه التكوينات . من ذلك أن أبراهام فرنر ، الذى ظل اثنين وأربعين عاماً (١٧٧٥ — ١٨١٧) يعلم فى مدرسة المناجم بفرايبورج ، جعل كرسى أستاذيته المقر الشعبي للرأى « النبتيونى » ، وهو القائل بأن القارات ، والجبال ، والصخور ، والطبقات قد نشأت كلها من فعل المياه ، من هبوط محيط كان يوماً يغطى العالم — وهو هبوط بطىء أحياناً ، مباغت أحياناً أخرى ؛ فالصخور هى ترسب معادن تركها البحر المنحسر جافة ، والطبقات هى فترات هذا الانحسار ورواسبه .

وزاد هتن نار الجدل اشتعالا بتعليله تغيرات الأرض وتقلباتها . وقد أصبح هذا الرجل الذى ولد بأدنبرة فى ١٧٢٦ ، واحداً من ذلك الفريق الممتاز الذى ألف حركة التنوير الاسكتلندى — هيوم ، وجون هوم ، واللورد كيمس ، وآدم سمث ، وروبرتسن ، وهتشسن ، وماسكلين ، ومكلورين ، وجون بلايفير ، وجوزف بلاك . تنقل من الطب إلى الكيمياء إلى الجيولوجيا ، وما لبث أن خلص إلى أن تاريخ كرتنا الأرضية استغرق أضعاف أضعاف الآلاف الستة من السنين التى قال بها اللاهوتيون . ولاحظ أن الريح والمياه ينحران الجبال فى بطء ويرسبانها على السهول ، وأن آلاف النهيرات تحمل المواد إلى الأنهار ، التى تحملها بعد ذلك إلى البحر ، ولواستمرت هذه العملية إلى ما شاء الله لابتلعت المحيطات النهمة الثائرة قارات برمتها . ولعل جميع التكوينات الجيولوجية نجمت عن هذه العمليات الطبعية البطيئة كما نشهد اليوم فى أى مزرعة تتعرى تربتها أو أى بحر يجور على اليابس ، أو أى نهر يحفر قاعه فى إصرار صابر ، تاركاً سجل مستوياته الهابطة على طبقت الصخور والتربة . وقد ذهب هتن إلى أن هذه التغيرات التدريجية هى الأسباب الأساسية لما يطرأ على أرضنا من تحول . وعنده أننا « فى تفسيرنا للطبيعة ، يجب ألا نستخدم قوى ليست من طبيعة الكرة الأرضية ، وإلا نسلم بأى عمل إلا الأعمال التى نعرف مبدأها ، وألا ندعى أى أحداث خارقة لنعلل بها ظاهرة شائعة » (٧٧) .

ولكن إذا سلمنا بأن هذا التحات ظل آلاف الآلاف من السنين ، فلم لا تزال هناك قارات على ظهر الأرض ؟ ويرد هتن بأن السبب هو أن

المواد التى أزالها التحات وتجمعت فى قاع البحر تتعرض للضغط والحرارة ، فهى تنصهر ، وتتجمع ، وتتمدد وتتصاعد ، وتطلع من المياه لتكون الجزر والجبال ، والقارات . إما أن هناك حرارة باطنية فالدليل عليه ثوران البراكين . فالتاريخ الجيولوجى إذن عملية دائرة ، انقباض وانبساط شاسعان لا يفتآن يصبان القارات فى البحار ويرفعان القارات الجديدة فى قلب تلك البحار . وقد أطلق الدارسون الذين جاءوا بعد هتن على نظريته اسم « الفلكانية » ، (نسبة لفلكان إله النار) لقيامها على تأثيرات الحرارة ، أو « البلوتونية » نسبة إلى بلوتو الإله القديم للعالم السفلى .

وقد تردد هتن نفسه فى نشر آرائه لأنه عرف أنها ستلقى المعارضة لا من المؤمنين بالعصمة الحرفية للكتاب المقـــدس فحسب ، بل من « النبتيونيين » على نحو لا يقل حدة . وقد وجد هؤلاء مدافعاً متحمساً فى روبرت جيمسن أستاذ الفلسفة الطبيعية فى جامعة أدنبرة . وقد اقتصر هتن أول الأمر على شرح نظريته لنفر من أصدقائه ، فلما ألحوا عليه قرأ بحثين فى موضوعها على جمعية أدنبرة الملكية ، الحديثة التشكيل . فى ١٧٨٥ . وكان النقد الذى وجه إليها مهذباً حتى عام ١٧٩٣ ، حين هاجمه عالم معادن دبلنى بعبارات أثارت حنقة ، فرد بنشره كتاباً من عيون الجيولوجيا عنوانه « نظرية الأرض » (١٧٩٥) . ومات بعد ذلك بسنتين . وبفضل كتاب جون بلايفير الواضح الأسلوب « إيضاحات لنظرية هتن » (١٨٠٢) ، انتقل مفهوم التغيرات العظمى الناجمة عن العمليات البطيئة إلى علوم أخرى غير الجيولوجيا ، وأعد أوربا لتطبيق داروين لهذا المفهوم على أصل الأنواع وتسلسل الإنسان .

(د) الجغرافيا :

ولكن وجه الأرض أكثر استهواء للدارسين من أحشائها . ولقد كان العرض المتصاعد لاختلافات البشر فى العرق ، والأنظمة ، والأخلاق ، والعقائد ، عاملا قوياً فى توسيع آفاق الذهن الحديث . ومضى ارتياد المجهول برغبة فى الاستطلاع وحب للتملك أكثر من أى عهد سبق ،

لا حبا فى سواد عيون العلم ، بل سعياً إلى المواد الخام ، والذهب ، والفضة ، والأحجار الكريمة ، والطعام ، والأسواق ، والمستعمرات ، وإلى رسم خرائط للبحار تضمن مزيداً من السلامة للملاحة فى السلم والحرب . لا بل إن رحلة السفينة المتمردة « باونتى » (١٧٨٩) كان هدفها الأصلى شتل شجرة فاكهة الخبز من بحار الجنوب إلى جزر الهند الغربية واشتد التنافس فى هذه اللعبة بين الفرنسيين والهولنديين والإنجليز ، وهم يعلمون أن السيادة على العالم رهن بنتيجة هذا التنافس .

وقد انبعثت من ذهن بطرس الأكبر رحلة من أجرأ رحلات الارتياد ، إذ أنه قبل موته فى ١٧٢٥ كلف فينوس بيرنج ، وكان قبطاناً دنمركياً فى البحرية الروسية ، بارتياد الساحل الشمالى الشرقى لسيبيريا . وعينت أكاديمية سانت بطرسبورج فلكياً وطبيعياً ومؤرخاً لمرافقة البعثة وبعد أن سافر بيرنج إلى كمشاسكا براً ، أبحر (١٧٢٨) إلى خط عرض ٦٧° شمالا ، واكتشف المضيق الذى يحمل اسمه ، ثم عاد إلى سانت بطرسبورج . وفى رحلة ثانية بنى أسطولا فى أوخوتسك وأبحر شرقاً حتى لمح أمريكا الشمالية (١٧٤١) ؛ وهكذا اكتشف دنمركى تلك القارة من الغرب كما اكتشفها لايف إريكسن السكندنافى من الشرق . وفى رحلة العودة ضلت سفينة بيربج طريقها وسط ضباب كثيف ، وأنفق الملاحون ستة أشهر على جزيرة لم يسبق أن سكنها أحد قرب كمشاسكا . وعلى هذه الجزيرة ، التى تحمل هى أيضاً اسمه ، مات الدنمركى العظيم من الاسكربوط (١٧٤١) وهو فى الستين . واكتشفت سفينته أخرى من سفن البعثة جزائر الوشيان . واستولت روسيا على ألسكا ، وبعث المرسلون لتعريف الاسكيمو باللاهوت المسيحى . .

وحفز تقدم روسيا داخل أمريكا أمماً أخرى لارتياد المحيط الهادى فجردت انجلتره فى حربها مع أسبانيا (١٧٤٠) أسطولا تحت امرة جورج آنسن ليضيق الخناق على المستوطنات الاسبانية فى أمريكا الجنوبية . وقد اهلك الاسكربوط أكثر ملاحيه ، وحطمت الزوابع بعض مراكبه ، ولكنه شق طريقه إلى المحيط الهادى الجنوبى ، ووقف عند جزائر خوان فرنانديز ،

ووجد الدليل على أن الكسندر سلكرك (وهو روبنصن كروزو فى رواية ديفو) كان هناك من قبل (١٧٠٤ — ٩) . ثم عبر المحيط الهادى واستولى على غليون أسبانى قرب الفلبين ، وأخذ كنز الذهب والفضة الذى يحمله (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار) وعبر المحيط الهندى ودار حول رأس الرجاء الصالح ، وأفلت من الأسطولين الاسبانى والفرنسى اللذين حاولا اعتراضه . ثم وصل إلى انجلتره فى ١٥ يونيو ١٧٤٤ بعد رحلة ثلاثة سنوات وتسعة أشهر . ونقلت غنيمة السبائك من سبتهيد إلى لندن فى اثنتين وثلاثين عربة تصاحبها الموسيقى العسكرية . وصفقت انجلتره كلها لآنسن ونفدت أربع طبعات من قصته فى سنة واحدة .

وفى ١٧٦٣ أوفدت الحكومة الفرنسية بعثة مماثلة على رأسها لوى أنطوان دبوجانفيل ، تحمل تعليمات بإقامة مستوطنة فرنسية فى جزر فوكلند ؛ وقد أتاح لها موقعها على ثلاثمائة ميل شرقى مضيق مجللان قيمة حربية ، لأنها تشرف على المعبر من الأطلنطى إلى الهادى . وقد أنجز مهمته وعاد إلى فرنسا . وفى ١٧٦٥ أبحر ثانية ، وعبر المضيق إلى المحيط الهادى ووصل إلى تاهيتى (١٧٦٨) . التى كان صموئيل واليس قد اكتشفها قبل ذلك بسنة — واستولى عليها لفرنسا ، واكتشف مجموعة جزر ساموا وهبريد الجديدة ، ودار حول رأس الرجاء الصالح . ووصل إلى فرنسا فى ١٧٦٩ ، وجلب معه من أقاليم الباسفيك المدارية نبات البوجانفليا المتعرش (الجهنمية) . وقد ركزت روايته لرحلته على مناخ تاهيتى اللطيف ، وما يتمتع به الأهالى من صحة سابغة ، وطبيعة خيرة ، وخلق أنيس : وسنلتقى بديدرو معقباً فى حسد على هذا التقرير فى كتابه « ملحق لرحلة بوجانفيل » .

وفى ١٧٦٤ كلفت الحكومة البريطانية الكابتن جون بايرون أن يضع يده على أرض تفيدها فى البحار الجنوبية . فرسا على فورت إجمونت فى جزر فوكلند ، واستولى على الجزر الإنجليزية وهو لا يدرى أن الفرنسيين كانوا هناك فعلا . وادعت أسبانيا أن لها حقاً أسبق فى تملك الجزر ، فأذعنت لها فرنسا ، ثم أذعنت اسبانيا لإنجلترة (١٧٧١) وتطالب بها الأرجنتين اليوم .

وواصل بايرون رحلته حول الكرة الأرضية ، ولكنه لم يترك على التاريخ أكثر من هذه البصمة . وكان فى رحلة سابقة ، أثناء عمله ضابط صف تحت إمرة آنسن قد تحطمت به السفينة على ساحل شيلى (١٧٤١) ، وقد استخدم حفيده اللورد بايرون روايته لهذا الحادث فى قصيدته « دون جوان »

أما أبرز رائد فى رواد القرن الثامن عشر فى نظر الشعوب الناطقة بالانجليزية فهو الكابتن جيمس كوك . كان ابن فلاح فى مزرعة ، ألحق وهو فى الثانية عشرة ببائع خردوات ، فلما لم يجد فى بيع الملابس الداخلية ما يشبع شوقه للمغامرة التحق بالبحرية ، وعمل « ملاحظاً بحرياً » على طول سواحل نيوفوندلند ، وذاعت شهرته رياضياً ، وفلكياً ، وملاحاً ، وفى ١٧٦٨ ، حين بلغ الخمسين ، اختير لرآسة بعثة تسجل مرور كوكب الزهرة ، وتقوم بأبحاث جغرافية فى المحيط الهادى الجنوبى . فأبحر فى ٢٥ أغسطس على السفينة « إندفر » بصحبة عدة علماء ، جهز أحدهم وهو السر جوزف بانكس السفينة من ماله الخاص(*) . وشوهد مرور الزهرة فى تاهيتى فى ٣ يونيو ١٧٦٩ . ومنها أبحر كوك باحثاً عن قارة كبرى (تيرا أوستراليس) زعم بعض الجغرافيين أنها تختبىء فى بحار الجنوب . فلم يجد شيئاً ، ولكنه ارتاد جزر سوسايتى وسواحل نيوزيلندة ، ورسم لها خرائط بعناية : ثم واصل رحلته إلى استراليا (التى عرفت يومها بهولندة الجديدة) ، واستولى على ساحلها الشرقى لبريطانيا العظمى ، وأبحر حول أفريقيا ، ووصل إلى انجلتره فى ١٢ يونيو ١٧٧١ .

وفى ١٣ يوليو ١٧٧٢ ، ركب البحر من جديد ، ومعه السفينتان رزوليوشن وإندفر ، بحثاً عن القارة الجنوبية المزعومة . وقد حرث البحر شرقاً وجنوباً بين رأس الرجاء الصالح ونيوزيلندة ، وعبر الدائرة القطبية الجنوبية إلى خط عرض ٧١ دون أن يشهد أرضاً ، ثم أكرهه الخطر المتزايد من قطع الجليد الطافية على العودة . وزار جزيرة إيستر وكتب وصفاً

(*) عمل رئيسا لجمعية لندن الملكية من ١٧٧٨ إلى ١٨٢٠ ، وأوصى بمكتبته ومجموعاته للمتحف البريطانى .

لتماثيلها العملاقة . ورسم خرائط لجزر ماركيزا وتونجا ، وسمى هذه « فرندلى » أى الجزيرة الصديقة لما خبر فى أهلها من لطف ودماثة خلق . واكتشف كلدونيا الجديدة ، وجزيرة نورفوك ، وجزيرة باينز (كونى) . وعبر المحيط الهادى الجنوبى شرقاً إلى رأس هورن ، وواصل الرحلة عبر الأطلنطى الجنوبى إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم أبحر شمالا إلى انجلترة ، فرسا على برها فى ٢٥ يوليو ١٧٧٥ بعد رحلة قطع فيها نيفاً وستين ألف ميل و ١,١٠٧ يوماً .

أما بعثته الثالثة فقد التمست طريقاً مائياً من ألسكا عبر أمريكا الشمالية إلى الأطلنطى . وقد أقلع من بليموث فى ١٢ يوليو ، ومعه السفينتان رزوليوشن وسكفرى ، وطاف حول رأس الرجاء الصالح ، ووصل بر تاهيتى ثانية ، ومضى شمالا بشرق ، ووقع على أعظم كشوفه ، وهى جزر هاواى (فبراير ١٧٧٨) التى كان الملاح الاسبانى خوان جيتانو قد رآها فى ١٥٥٥ ، ولكن أوربا نسيتها أكثر من قرنين . وبعد أن واصل كوك الرحلة إلى الشمال الشرقى وصل إلى ما نسميه الآن بولاية أوريجون ، ومسح ساحل أمريكا الشمالية إلى مضيق بيرنج ووراءه حتى الحدود الشمالية لألسكا . وعند عرض ٧٠,٤١° شمالا عاق تقدمه جدار من الجليد يرتفع اثنى عشر قدماً فوق البحر ويمتد إلى آخر ما يصل إليه بصر الرقيب . وعاد كوك إلى هاواى بعد أن أخفق فى بحثه عن ممر شمالى شرقى عبر أمريكا . وهناك لقى مصرعه حيث لقى من قبل ترحيباً ودياً . ذلك أن الأهالى كانوا لطفاء ولكنهم يميلون إلى السرقة ، فسرقوا قارباً من قوارب السفينة « دسكفرى » ، وقاد كوك نفراً من رجاله ليسترده ، فنجحوا فى استرداد القارب ، ولكن الأهالى الحانقين أحاطوا بكوك الذى أصر على أن يكون آخر من يبرح الساحل . فأوسعوه ضرباً حتى مات (١٤ فبراير ١٧٧٩) ، وكان فى الحادية والخمسين من عمره . وتكرمه انجلترة بوصفه أعظم روادها البحرين وأنبلهم ، وباعتباره عالماً مهذباً ، وقبطاناً شجاعاً محبوباً من جميع ملاحيه .

ولا تكاد تقل عن هذه البعثات بسالة تلك البعثة التى قادها جان فرانسوا دجالوب ، كونت لابيروز ، الذى كلفته الحكومات الفرنسية بأن يتابع

كشف كوك . فأبحر فى ١٧٨٥ حول أمريكا الجنوبية ثم مصعدا إلى ألسكا وعبر إلى آسيا ، وكان أول أوربى يمر بالمضيق (الذى كان يحمل اسمه إلى عهد قريب) الواقع بين سخالين الروسية وهوكايدو اليابانية . ثم اتجه إلى الجنوب وارتاد ساحل استراليا وبلغ جزر سانتا كروز . ويبدو أن سفينته تحطمت هناك (١٧٨٨) لأن أحداً لم يسمع بخبره قط .

وكان ارتياد اليابس هو أيضاً تحدياً لشهوة المغامرة والكسب . ففى ١٧١٦ وصل مراسل يسوعى إلى لحاسا — مدينة التبت « المحرمة » وارتاد كارستن بيبور ووصف جزيرة العرب ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسيا الصغرى ، وفارس (١٧٦١) . وجاب جيمس بروس شرق أفريقيا واكتشف من جديد منبع النيل الأزرق (١٧٦٨) . وفى أمريكا الشمالية أسس الرواد الفرنسيون نيو أورليان (١٧١٨) وتحركوا شمالا على طول المسسبى إلى المسورى . وفى كندا كافحوا ليصلوا إلى المحيط الهادى ، ولكن جبال روكى كانت عقبة كؤودا . وفى هذه الأثناء تقدم المستعمرون الإنجليز فى الداخل إلى نهر أوهايو ، وفتح الرهبان الأسبان الطريق لمن بعدهم من المكسيك عبر كاليفورنيا إلى مونتيريه ، وصعدوا فى حوض نهر كلورادو إلى يوتاه ، ولن تلبث أمريكا الشمالية أن تصبح إحدى المغانم التى يصطرع عليها المقاتلون فى حرب السنين السبع . وفى أمريكا الجنوبية قاد لاكونداميں بعثة من منابع الأمازون قرب كيتو إلى مصبه عند الأطلنطى ، على بعد أربعة آلاف ميل بعد أن قاس درجة عرضية عند خط الاستواء .

وعجز رسامو الخرائط الجغرافية عن اللحاق بالرواد . فخلال نصف قرن (١٧٤٤ — ٩٣) أصدر سيزار فرنسوا كاسينى وابنه جاك دومنيك فى ١٨٤ فرخ متوال خريطة لفرنسا طولها ٣٦ قدماً وعرضها ٣٦ قدماً ، تبين فى تفصيل لم يسبق له نظير ، جميع الطرق ، والأنهار ، والأديار ، والمزارع ، والمصانع ، وحتى ما وضع على جانب الطرق من صلبان ومشانق . وفى ١٧٦٦ نشر توربيرن ألوف بيرجمان ، الذى لم يقنع بكونه واحداً من أعظم كيميائيى القرن الثامن عشر ، « وصفاً للعالم » لخص فيه المتيورولوجيا ، والجيولوجيا ، والجغرافيا الطبيعية فى عصره . وذهب إلى أن كثيراً من الجزر هى قمم

لسلاسل جبلية غمر أكثرها فى الماء ، فجزر الهند الغربية قد تكون مخلفات سلسلة ربطت يوماً ما فلوريدا بأمريكا الجنوبية . أما أوراس دسوسير ، فبعد أن قضى أربعة وعشرين عاماً أستاذاً للفلسفة فى جامعة جنيف ، ارتقى جبل مون بلان (١٧٨٧) وجبل كلاين ماترهورن (١٧٩٢) ارتقاءين مشهورين ، وكتب دراسات ضخمة لجبال سويسرة من حيث أحوالها الجوية ، وتكويناتها ، وطبقاتها ، وأحافيرها ، ونباتاتها ، فجمع بذلك جمعاً رائعاً بين المتيورولوجيا ، والجيولوجيا ، والجغرافيا ، والنبات . فلنتذكر حين يقال لنا أن التاريخ هو « تقويم نيوجيت » للأمم ، أنه كذلك سجل لمئات من ضروب البطولة والشرف .

٧ — النبات :

(أ) لينيوس :

وهكذا نصل فى قصتنا إلى الحياة ! فبعد أن طور المكرسكوب المركب أصبح فى الإمكان فحص تكوين النباتات فحصاً أدق ، يصل إلى خفايا جنسها . وشب علم النبات عن الطوق فلم يعد تابعاً للطب ، ورسم لينيوس عالم الحياة المكتظ بعناية راهب العلم وتفانيه .

وكان أبوه نيلز لينيه ، راعياً لشعب لوثرى فى شتنبروهولت بالسويد . ومن العسير جداً على ابن قسيس أن يحتفظ بتقواه ، ولكن كارل استطاع ذلك ، ووجد فى عالم النبات على الأخص أسباباً لا حصر لها تدعوه لشكر الخالق . والحق إن هناك لحظات تبدو فيها الحياة رائعة الجمال بحيث لا يمكن أن يكفر بالله غير إنسان جحود .

وكان نيلز بستانياً متحمساً ، أحب اقتناء الأشجار المنتقاة والأزهار النادرة وغرسها فى التربة من حول مسكنه كأنها تسبيحة حية . وكانت هذه لعب كارل وأصفيائه فى صباه ، فشب (كما يروى لنا) وفى قلبه « حب للنبات لا يرتوى » [٧٨] . وما أكثر ما « زوغ » من المدرسة ليجمع عينات فى الغابات والحقول . وكان أبوه تواقاً لجعل ولده قسيساً ، لأن الصبى كان

آية فى الطيبة ، وقد تعلم بالقدوة خيراً مما يعلم بالعقيدة ، ولكن كارل مال إلى الطب لأنه رأى فيه المهنة الوحيدة التى يستطيع فيها الجمع بين الاشتغال بالنبات وكسب قوته . وعليه فنى ١٧٢٧ ، حين كان فى العشرين من عمره ، قيد طالب طب فى جامعة لوند . وبعد عام أرسل إلى أوبسالا حاملا توصيات حارة من معلميه . ولم يستطيع أن يتلقى الكثير من العون المادى من أبويه لأنه كان واحداً من خمسة أبناء لهما . وإذ أعجزه الفقر عن ترقيع حذائه فقد فرشه بالورق ليغطى ثقوبه ويتقى بعض البرد . أما وقد تهيأت له حوافز الدرس فإنه تقدم حثيثاً فى دراسة النبات والطب . وفى ١٧٣١ عين محاضراً مساعداً فى النبات ومدرساً خاصاً فى بيت الأستاذ رودبيك ، الذى كان أباً لأربعة وعشرين طفلا، فكتب يقول « إننى الآن بفضل الله أملك دخلا » (٧٩) .

فلما قررت جمعية أوبسالا العلمية إيفاد بعثة لدراسة نباتات لابلاند ، أختير لينيوس لرآستها . وبدأ هو ومساعدوه الشبان الرحلة فى ١٢ مايو ١٧٣٢ . وقد وصف رحيلهم بأسلوبه الزاهى بطبيعته فقال :

كان الجو مشرقاً لطيفاً ، وأضفى نسيم عليل هب من الغرب على الهواء برودة منعشة ... وكانت براعم أشجار البتولا قد بدأت تتفتح ، والأوراق على معظم الشجر متوافرة ، ولم يبق عارياً غير الدردار والبلوط . وكانت القبرة تصدح فى العلا . وبعد أن قطعنا ميلا أو نحوه جئنا إلى مدخل غابة ، وهناك فارقتنا القبرة ، ولكن على قمة شجرة الصنوبر راح الشحرور يتدفق بأغنية حبه » (٨٠) .

وهذا الوصف ينبىء بطبع لينيوس ؛ فقد كان يقظاً أبداً بكل جوارحه لمشاهد الطبيعة ، وأصواتها ، وعبيرها ؛ ولم يسلم قط بأى فرق بين علم النبات والشعر . وقد قاد جماعته فوق ١,٤٤٠ ميلا من لابلاند ، خلال عشرات المخاطر والمشاق ، ثم عاد بهم سالمين إلى أوبسالا فى ١٠ سبتمبر .

وإذ كان لا يزال رقيق الحال ، فقد حاول أن يكسب قوته بالتدريس فى الجامعة ، ولكن غريماً له أفلح فى حظر محاضراته بدعوى أن لينيوس لم يكمل بعد دراسته الطبية أو ينال درجته الجامعية . وكان كارل فى هذه

الأثناء قد وقع فى غرام « ليزا » — وهى ساره إليزابث مورايا ، ابنة طبيب محلى . فقدمت له مدخراتها ، وأضاف إليها مدخراته ، وإذ تهيأ له المال على هذا النحو فقد انطلق ميمماً هولنده (١٧٣٥) . وفى جامعة هاردرفيلك فاز فى امتحاناته ونال درجته الطبية . وبعد عام التقى فى لندن بيوبرهافى العظيم ، وكاد ينسى ليزا . وأصدر لينيوس كتاباً من أمهات كتب النبات بإلهام وعون من ذلك النبيل العالم ، وهو « نظام الطبيعة . » وقد طبع اثنتى عشرة مرة فى حياته ، وكان يتألف فى الطبعة الأولى من أربعة عشر فرخاً فقط من القطع الكبير ، أما فى الطبعة الثانية عشرة فقد ازداد إلى ٢,٣٠٠ صفحة ، فى ثلاثة مجلدات من قطع الثمن ، وعلى مقربة من أمستردام تزود بما نقصه من مال بإعادة تنظيم المجموعة النباتية التى يملكها جورج كليفورت وعمل قوائم بها ، وكان كليفورت هذا مديراً لشركة الهند الشرقية . فأخرج فى ١٧٣٦ ، بهمة قعساء ، « مكتبة النبات » . وفى ١٧٣٧ « أجناس النبات » . وفى ١٧٣٨ قصد باريس ليدرس الجاردان دووا . وهناك ، دون أن يقدم نفسه ، انضم إلى مجموعة من الطلاب كان برنار دجوسيو يحاضرهم باللاتينية فى نباتات دخيلة : وقد حير الأستاذ نبات منها ، واجترأ لينيوس على إبداء رأى فقال أن لهذا النبات مظهراً أمريكياً : ونظر إليه دجوسيو ، وقال وهو يحزر هويته « أنت لينيوس» ؛ واعترف كارل ، وبأخوة العلم الرائعة رحب به دجوسيو ترحيباً حاراً [٨١] . وعرض على لينيوس منصب الأستاذية فى باريس ، ولندن ، وجوتنجن ، ولكنه رأى أن قد آن الأوان ليعود إلى ليزا (١٧٣٩) . ولم تكن مثل هذه الخطبات الطويلة بالأمر الشاذ فى تلك الأيام ولعلها عاونت فى كثير من الحالات على استقرار الخلق ونضج الشخصية . وتزوجا ، واستقر كارل فى استوكهولم طبيباً .

وظل حيناً يترقب عبثاً مجىء المرضى كما يفعل أى طبيب ناشىء . وذات يوم سمع وهو فى حانة شاباً يشكو من أن أحداً لم يستطع شفاءه من السيلان . وشفاه لينيوس ، ومالبث غيره من الشبان الذين اشتد بهم الشوق لإثبات رجولتهم أن جاءوه ملتمسين الشفاء . وامتدت خبرة الطبيب إلى أمراض الرئتين وتعرف إليه الكونت كارل جوستاف تسين ، رئيس مجلس النبلاء

فى الركزداج ، وحصل له على وظيفة طبيب للبحرية (١٧٣٩) . فى ذلك العام ساعد لينيوس فى إنشاء أكاديمية العلوم الملكية ، وأصبح أول عميد لها . وفى خريف ١٧٤١ اختير أستاذاً للتشريح فى أوبسالا . وسرعان ما استبدل بكرسيه كرسى النبات ، والمواد الطبية ، والتاريخ الطبيعى (الجيولوجيا والاحياء) ، وهكذا وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب أخيراً . وقد بث فى تلاميذه تحمسه للنبات ، وكان يعمل معهم فى صداقة لا تكلف فيها ، وأسعد أوقاته حين يأخذهم فى جولة من جولات التاريخ الطبيعى . يقول :

كنا نقوم برحلات كثيرة بحثاً عن النباتات ، والحشرات ، والطيور ، ففى الأربعاء والسبت من كل أسبوع نجمع الأعشاب من الفجر إلى العشية ثم يعود التلاميذ إلى الميدان واضعين الأزهار على قبعاتهم ، ويصحبون أستاذهم إلى حديقته ، يتقدمهم موسيقيون بسطاء . ذلك منتهى الروعة فى علمنا اللذيذ » [٨٢] .

وقد أوفد بعض طلابه إلى شتى بقاع الأرض ليأتوه بالنباتات الغريبة ، وحصل لهؤلاء الرواد الصغار (الذين ضحى بعضهم بحياته فى بحثهم هذا) على الاعفاء من أجرة الرحلة على سفن شركة الهند الشرقية الهولندية . وحفزهم بالأمل فى إضافة أسمائهم للنباتات فى نظام التسمية الكبير الذى كان بصدد إعداده . وقد لاحظوا أنه أطلق اسم « كاميليا » على الشجيرة المزهرة التى عثر عليها اليسوعى جورج كاميل فى الفلبين .

وقد أقام بجهده المتصل تصنيفه الضخم للنبات فى كتبه « نظام الطبيعة » و « أجناس النبات » و « زيت النبات » (١٧٣٨) ، و « فلسفة النبات » (١٧٥١) و « أنواع النبات » (١٧٥٣) وقد سبقه نفر من علماء النبات إلى هذه المهمة ، نخص بالذكر منهم بوهن وتورنفور ، وكان ريفينوس قد اقترح (١٦٩٠) طريقة ثنائية لتسمية النباتات . ولكن رغم هذه الجهود وجد لينيوس مجموعات عصره فى حالة من الخلل عطلت الدراسة العلمية للنباتات تعطيلا خطراً . فقد اكتشفت مئات الأنواع الجديدة التى

أطلق عليها علماء النبات أسماء متضاربة . وأخذ لينيوس على عاتقه تصنيف جميع النباتات المعروفة أولا حسب طائفتها ، وفى طائفتها حسب رتبتها ، وفى رتبتها حسب جنسها ، وفى جنسها حسب نوعها ؛ وهكذا توصل إلى اسم لاتينى مقبول دولياً . واتخذ أساساً لتصنيفه وجود وطبيعة الأعضاء التناسلية الواضحة أو عدم وجودها ، فقسم النباتات إلى « نباتات زهرية » وهى التى لها أعضاء تناسل ظاهرة (أزهارها) و « نباتات لا زهرية » ليس لها أزهار تخرج بزوراً وهياكلها التناسلية مخفاة أو غير واضحة (كما فى الطحلب والسرخس) .

وقد اعترضت بعض النفوس الحجولة على هذا التركيز على الجنس لأنه سيؤثر تأثيراً خطراً على خيال الشباب [٨٣] . ولكن نقاداً أصلب وأجرأ بينوا خلال الأعوام المائة التالية عيوباً أهم فى تصنيف لينيوس ، فقالوا إنه غلا فى الاهتمام بإيجاد أركان وأسماء للنباتات غلواً جعله يحول علم النبات حيناً عن دراسة وظائف النباتات وأشكالها . ولما كان تغير الأنواع سيشوش النظام الذى وضعه ، فضلا عن تناقضه مع سفر التكوين ، لذلك وضع مبدأ مؤداه أن جميع الأنواع خلقها الله مباشرة وظلت دون تغيير طوال تاريخها . وقد عدل من هذا الموقف التقليدى فى تاريخ لاحق (١٧٦٢) بإلماعه إلى أن أنواعاً جديدة قد تظهر نتيجة لتهجين الأنواع المتقاربة . ومع أنه تناول الإنسان (الذى سماه فى ثقة واطمئنان « هومو سابينز » أى الإنسان العاقل) بوصفه جزءاً من مملكة الحيوان ، وصنفه نوعاً فى رتبة الحيوانات العليا ، جنباً إلى جنب مع القرد ، فإن نظامه عطل نمو الأفكار التطورية .

وقد انتقد بوفون تصنيف لينيوس ، على أساس أن الأجناس والأنواع ليست أشياء موضوعية ، إنما هى مجرد أسماء لتقسيمات عقلية مريحة لواقع معقد ، تذوب فيه جميع الرتب ، عند أطرافها ، بعضها فى البعض ، فلا شىء يوجد خارج الذهن ، إلا الأفراد ؛ هنا نجد جدل العصور الوسطى القديم بين الواقعية والإسمية . أما لينيوس فرد (مثبتاً أنه بشر) بأن بلاغة بوفون يجب ألا يسمح لها بأن تخدع العالم ، و رفض أن يأكل فى قاعة علقت فيها صورة بوفون مع صورته [٨٥] . على أنه سلم فى لحظة أكثر سماحة أن

ترتيبه ناقص ، وأن تصنيف النباتات حسب الجهاز التناسلى ترك أطرافاً كثيرة غير محكمة ؛ وفى كتابه « فلسفة علم النبات » اقترح نظاماً طبيعياً مبنياً على شكل أعضاء النبات وتطورها . وقد تبين أن نظام التسمية الذى وضعه لا التصنيف ، مريح جداً ، سواء فى علمى النبات والحيوان ، وما زال سائداً مع بعض تعديلات أدخلت عليه .

وكرمت أوربا كلها لينيوس فى شيخوخته أميراً لعلماء النبات . ففى ١٧٦١ خلع عليه الملك لقب الفروسية ، فأصبح اسمه كارل فون لينيه . وبعد عشر سنوات تلقى خطاب حب من ثانى أشهر مؤلف فى القرن وهو جان جاك روسو ، الذى ترجم « فلسفة علم النبات » ، ووجد فى الاشتغال بالنبات دواء للفلسفة . قال « تقبل أيها السيد الكريم ولاء تلميذ من تلاميذك ، جاهل جداً ، متحمس جداً ، يدين ديناً كبيراً للتأمل فى كتاباتك فى السكينة التى ينعم بها ... إننى أكرمك ، وأحبك من كل قلبى [(٨٦)] .

ومات لينيوس ، كروسو وفولتير ، عام ١٧٧٨ . وباعت أرملته مكتبته ومجموعاته إلى جيمس ادوارد سمث ، الذى اشترك مع آخرين (١٧٨٨) فى تأسيس « جمعية لينيوس اللندنية » للعناية بتراث لينيوس ومن ذلك المركز أذاعت سلسلة طويلة من المطبوعات جهود عالم النبات فى جميع أرجاء أوربا وأمريكا وقد قرر جوته أن أعظم التأثيرات فى حياته العقلية كان الفضل فيها لشكسبير ، وسپينوزا ولينيوس [(٨٧)] .

(ب) فى الكرمة

واصل مئات من الدارسين المخلصين البحث فى علم النبات . ففى فرنسا مثلا نجد أسرة من أسر الفحول التى يربط أعضاءها تكريس مشترك للحياة عبر القرون . وقد ارتقى رب هذه الأسرة ، انطوان دجوسيو ، الذى وفد على باريس من ليون ، ليصبح مديراً للجاردان دوروا فى ١٧٠٨ . وكان أخوه الأصغر برنار محاضراً و « معيداً » هناك ؛ وقد رأيناه يرحب بلينيوس . وذهب أخ آخر يدعى جوزف إلى أمريكا الجنوبية فى صحبة لاكوندامين ، وأرسل نوعاً من عباد الشمس يسمى Heliotropium peruvianum

شتله فى أوربا . وفى ١٧٨٩ نشر ابن أخ له يدعى أنطوان لوران دى جوسيو كتاباً بدأ يحل محل النظام الذى وضعه لينيوس واسمه Genera plantarum secundum ordines naturales disposita

وقد صنف النباتات مورفولوجياً (أى حسب أشكالها) بناء على وجود أوراق البزار أو عدم وجودها ، أو عددها ؛ فما ليس له أوراق عديم الفلقة ، وما له ورقة واحدة سماه « وحيد الفلقة » وما له ورقتان « ثنائى الفلقة » . وواصل ابنه أدريان عملهم فى القرن التاسع عشر . وفى ١٨٢٤ وضع أوجستن وكاندول خطوط التصنيف الذى يتقبله علماء النبات اليوم بعد أن أقامه على جهود أسرة جوسيو .

وقد اكتشف تحميا جرو جنسانية النباتات عام ١٦٨٢ أو قبل ذلك ، وأيد كامبراريوس هذا الكشف فى ١٦٩١ . وأنهى كوطن ماذر من بوسطن إلى جمعية لندن الملكية (١٧١٦) تجربة تهجين بطريق التلقيح بالريح .

زرع جارى خطاً من الكومات فى حقل ذرة ، وكان لون الحب أحمر وأزرق ، أما باقى الحقل فزرعه ذرة من اللون الأعم وهو الأصفر . فعدى هذا الصف فى الجانب الذى يواجه الريح أكثر من غيره ؛ أربعة من الصفوف المجاورة ... ليلونها بلونيه (الأحمر والأزرق) اللذين ظهرا عليه . أما على الجانب المتجه مع الريح ، فقد تلون بهذين اللونين مالا يقل عن سبعة خطوط أو ثمانية ، وتأثرت الخطوط الأبعد تأثيراً أقل » (٨٨) .

وفى ١٧١٧ برهن رتشرد برادلى على ضرورة الإخصاب بتجربة أجراها على أزهار الطوليب (الخزامى) . فقد نزع كل اللقاح من اثنتى عشرة زهرة منها « مكتملة الصحة » ؛ فلم تحمل هذه أى بزر طوال الصيف ... فى حين أن كل زهرة من الأربعمائة التى تركها وشأنها أخرجت بزراً » (٨٩) وقد درس التلقيح المختلط وتنبأ بنتائج خلابة له « فقد نستطيع بهذه المعرفة أن نغير خاصية أى فاكهة ومذاقها بتلقيح فاكهة بلقاح أخرى من نفس الرتبة ولكن من نوع مختلف » . يضاف إلى هذا أنه فى قدرة شخص محب للاستطلاع أن يستعين بهذه المعرفة على إنتاج أنواع نادرة من النبات لم يسمع

بها إلى الآن . وروى كيف أن توماس فيرتشايلد أنبت نوعاً جديداً « من حبة قرنفل لقحت بلقاح زهرة القرنفل الملتحى "Sweet William" وقد وجد أن هذه المهجنات من الأنواع عقيمة ، وشبهها بالبغال .

وفى ١٧٢١ روى فليب ملر أول وصف معروف لتلقيح النحل للنبات . فقد نزع « قمم » بعض الأزهار قبل أن تسطيع أن « تنفض غبارها » ، ومع ذلك فإن بزرة هذه الأزهار العنينة فى الظاهر نضجت نضجاً سوياً . وقد تشكك الأصدقاء فى روايته فكرر التجربة ذاتها بمزيد من العناية ، فحصل على النتيجة ذاتها . قال :

بعد يومين ، وبينما كنت جالساً فى حديقتى ، شاهدت فى حوض طوليب قريب منى بعض النحل تنشط نشاطاً شديداً وسط الأزهار ؛ ورأيتها وأنا ألحظها تخرج وأرجلها وبطونها محملة بالغبار ، وطار ذكر فيها إلى طوليبه كنت قد خصبتها ، وعلى الفور تناولت مجهرى وفحصت الطوليبة التى طار إليها ، فوجدت أنه ترك من الغبار ما يكفى لتلقيح الطوليبة . فلما أخبرت أصدقائى بما حدث .... عادوا للاطمئنان إلى روايتى ... فما لم يتخذ احتياط لمنع الحشرات من الدخول إلى النباتات ، فإن هذه النباتات تقبل التلقيح من حشرات أصغر كثيراً من النحل » (٩٠) .

وقد أجرى كولرويتر ، أستاذ التاريخ الطبيعى فى كارلسروهى ، دراسة خاصة (١٧٦٠ وما بعدها) للاخصاب المختلط وفيزيوكيميائية التلقيح ، وكان لتجاربه الخمس والستين أثر هائل على الزراعة فى عدة قارات . فقد انتهى إلى أن التهجين لا يثمر إلا فى النباتات الوثيقة التقارب ؛ ولكنه إذا نجح نمت المهجنات بسرعة أكبر ، وأزهرت أسرع ، وعاشت أطول ، وأخرجت براعم صغيرة أوفر من الأنواع الأصلية ، ولا يضعفها إنماء الحب . وأثبت كونراد شبرنجل (١٧٩٣) أن الإخصاب المختلط — بواسطة الحشرات عادة ، وأقل من ذلك بواسطة الريح — يعم داخل النوع ، وزعم فى اقتناع غائى حار أن شكل الأجزاء فى كثير من الأزهار وترتيب هذه الأجزاء مقصود به منع الإخصاب الذاتى . وفتح يوهان هدفج ميداناً جديداً للبحث

بدراسة عملية الإنسال فى النباتات اللازهرية (١٧٨٢) وفيما بين عامى ١٧٨٨ ، ١٧٩١ أصدر يوزف جيرتز الأستاذ بجامعة فورتمبرج ، على دفعتين ، مسحه الموسوعى لفاكهة النباتات وبزارها ، وقد أصبح هذا المسح أساساً لعلم النبات فى القرن التاسع عشر .

وفى ١٧٥٩ أعلن كسبار فريدرش فولف فى كتابه « نظرية الأجيال » نظرية فى تطور النبات تعزى عادة إلى جوته .

« عندما أنظر إلى النبات بجملته ، الذى نعجب لأجزائه لأنها تبدو لأول وهلة شديدة التنوع ، لا أرى فيه وأميز نهائياً غير الأوراق والساق ، لأن الجذر يمكن اعتباره ساقاً ... وكل أجزاء النبات ، باستثناء الساق ، أوراق معدلة » (٩١) .

وخلال ذلك ارتاد خفايا تغذية النبات أحد أساطين العلم فى القرن الثامن عشر ، وهو ستيفن هيلز . وكان واحداً من أولئك القساوسة الإنجليكان الكثيرين الذين لم يجدوا فى لاهوتهم الطيع ما يعوقهم عن الاشتغال بالعلم أو الدراسات القديمة . ومع أنه تقبل عقيدة القصد الإلهى ، فإنه لم يستخدمها فى تحقيقاته العلمية وفى ١٧٢٧ نشر النتائج التى خلص إليها فى كتاب من أمهات كتب النبات « استاتيكا النبات . . . . نحو تاريخ طبيعى للنبات » . وقد شرحت المقدمة هدفه :

« قبل عشرين عاماً أجريت عدة تجارب شريانية على الكلاب ، وبعد ستة أعوام كررت التجارب ذاتها على الخيل وغيرها من الحيوانات لكى أجد قوة الدم فى الشرايين (وهو ما نعركفه بضغط الدم الانقباضى (... وتمنيت وقتها لو استطعت إجراء تجارب مماثلة لاكتشاف قوة العصارة فى الخضروات ، ولكنى يئست من إمكان إجرائها إطلاقاً ، إلى أن وقعت عليها مصادفة قبل سبع سنوات بينما كنت أحاول بشتى الطرق أن أقف نزف ساق كرمة قديمة (٩٢) » .

وكان كشف هارفى للدورة الدموية فى الحيوان قد أدى بعلماء النبات إلى افتراض حركة دورية مماثلة للسوائل فى النبات . وقد نقض هيلز هذا الفرض

بتجارب بينت شجرة تمتص الماء فى أطراف أغصانها كما تمتصه بجذورها ؛ وقد تحرك الماء إلى الداخل من الأغصان إلى الجذع كما تحرك من الجذع إلى الأغصان ؛ واستطاع قياس الامتصاص . على أن العصارة تحركت إلى أعلى من الجذور إلى الأوراق بفضل ضغط العصارة المنتشر فى الجذور . وامتصت الأوراق غذاءها من الهواء .

عند هذه النقطة أثار بريستلى الذكى المشكلة بكشف من ألمع كشوف القرن — هو تمثيل ثانى أكسيد الكربون الذى تخرجه الحيوانات فى زفيرها ، تمثيلا غذائياً ، بواسطة كلورفيل النباتات فى ضوء الشمس . وقد وصف هذا الشطر من عمله فى المجلد الأول (١٧٧٤) من كتابه « تجارب ومشاهدات » قال :

« أخذت كمية من الهواء فسدت فساداً تاماً نتيجة لتنفس الفيران وموتها فيها ، وقسمتها قسمين ، وضعت أحدهما فى قنينة مغمورة فى الماء ، ووضعت فى الآخر فرعاً من النعناع ، وكان هذا القسم محتوى « فى أبريق زجاجى قائم فى الماء . كان هذا فى بواكير أغسطس ١٧٧١ ، وبعد مضى ثمانية أيام أو تسعة وجدت أن فأراً يحيا فى تمام الصحة فى قسم الهواء الذى نما فيه فرع النعناع ، ولكنه مات لحظة أن وضعته فى القسم الآخر من نفس كمية الهواء الأصلية ، والذى حفظته فى نفس الوضع المكشوف ولكن دون أن ينمو فيه أى نبات » .

وبعد عدة تجارب مشابهة خلص بريستلى إلى أن :

« الضرر الذى يلحق بالهواء باستمرار تنفس هذا العدد الكبير من الحيوانات ، وتعفن هذه الكتل الكبيرة من المادة النباتية والحيوانية ، تصلحه — جزئياً على الأقل — الكائنات النباتية . ورغم ضخامة كمية الهواء الذى يفسد يومياً من جراء الأسباب السالفة الذكر ، فإننا إذا أخذنا فى حسابنا المقدار الهائل من النباتات النامية على وجه الأرض .... لم يخامرنا شك فى أنه هذا موازن كاف لذلك ، وأن الدواء شاف من الداء » [٩٣] .

وفى ١٧٦٤ تعرف بان إنجنهوز إلى بريستلى ، وكان عالم أحياء هولندياً يسكن لندن . وقد أعجبته نظرية تنقية النباتات للهواء بتمثيلها ثانى أكسيد الكربون الذى تخرجه الحيوانات وترعرعها عليه . ولكن انجنهوز وجد أن النباتات لا تؤدى هذه الوظيفة فى الظلام . وقد بين فى كتابه « تجارب على النبات » (١٧٧٩) أن النباتات كالحيوانات تخرج ثانى أكسند الكربون ، وأن أوراقها وبراعمها الخضر تمتص هذا الغاز ، وتخرج الأكسجين فى رائعة النهار فقط . ولهذا السبب تخرج الأزهار من غرف المستشفيات ليلا .

« إن ضوء الشمس ، لا الدفء ، هو السبب الأهم ، إن لم يكن السبب الأوحد ، الذى يجعل النباتات تخرج هواءها المجرد من الفلوجستين (أى الأكسجين (..... فالنبات ... الذى لا يستطيع ... البحث عن طعامه يجب أن يجد داخل ... الحيز الذى يشغله كل شىء يلزمه .... والأشجار تنشر فى الهواء تلك المراوح الكثيرة وتوزعها ... بطريقة تقلل قدر الإمكان من تزاحمها على أن تمتص من الهواء المحيط بها كل ما تستطيع امتصاصه وأن تقدم ... هذه المادة ... إلى أشعة الشمس المباشرة ، لكى تنال الخير الذى يستطع هذا النجم العظيم أن يهبها إياه » (٩٤) .

ولم يكن هذا بالطبع إلا صورة جزئية لتغذية النبات . وقد أوضح راعى كنيسة فى جنيف يدعى جان سنيبيه (١٨٠٠) أن الأجزاء الخضر فقط من النباتات هى التى تستطيع تحليل ثانى أكسيد الكربون الذى فى الهواء إلى كربون وأكسجين . وفى ١٨٠٤ درس نيكولا تيورور دسوسور ، ابن الرائد الألبى ، الدور الذى تسهم به التربة ، والمـــاء والأملاح ، فى تغذية النبات . وكان لهذه الدراسات جميعها نتائج حيوية فى التطوير الخطير لخصوبة التربة والإنتاج الزراعى فى القرنين التاسع عشر والعشرين . هنا أثرت بصيرة العلماء وصبرهم مائدة كل أسرة تقريباً فى العالم المسيحى :

٨ — علم الحيوان :

(أ) بوفون :

ولد أعظم عالم طبيعى من علماء القرن الثامن عشر بمونبار فى برجنديه (١٧٠٧) لمستشار فى برلمان ديجون . وكانت ديجون آنذاك مركزاً مستقلا

من مراكز الثقافة الفرنسية . والذى فتح منفذاً لثورة روسو على الحضارة وفولتير هو مسابقة اقترحتها أكاديمية ديجون . وقد درس جورج لوى لكليرك دبوفون فى الكلية اليسوعية بديجون ، وهناك تعلق بشاب انجليزى يدعى اللورد كنجزتن ، سافر معه عقب التخرج فى رحلة إلى إيطاليا وانجلترة . وفى ١٧٣٢ ورث تركة كبيرة أتته بدخل سنوى قدره ٣٠٠,٠٠٠ جنيه ، فأصبح الآن حراً فى هجر القانون الذى كان أبوه يعده للاشتغال به ، وإشباع غرامه بالعلم . وبنى على تل فى نهاية حديقته بمونبار ، وعلى مائتى ياردة من منزله ، حجرة للدراسة فى برج قديم يسمى برج القديس بولس ، هنا كان يعتكف من الساعة السادسة صباح كل يوم ، وهنا ألف معظم كتبه . وقد انفعل بقصة أرخميدس الذى أحرق أسطول الأعداء فى ميناء سيراكيوز بسلسلة من المرايا الحارقة ، فأجرى ثمانى تجارب ، جمعت فى النهاية ١٥٤ مرآة ، أشعل بها النار فى ألواح من الخشب على بعد ١٥٠ قدماً (٩٩) . وتردد حيناً بين التاريخ الطبيعى والفلك ؛ وفى ١٧٣٥ ترجم كتاب هيلز « استاتيكا النبات » وأسس نفسه فى علم النبات ؛ ولكن فى ١٧٤٠ ترجم كتاب نيوتن فى « التدفقات » وأحس بإغراء الرياضة وانضم بذلك إقليدس إلى أرخميدس فى مجمع أربابه .

وفى ١٧٣٩ عين مديراً (ناظراً) للجاردان دوروا ، فانتقل إلى باريس . عندها فقط جعل علم الأحياء شغله الشاغل . فتحت إشرافه أغنت مئات النباتات الجديدة المجلوبة من كل أصقاع الدنيا هذه الحديقة النباتية الملكية . وسمح بوفون لجميع الدارسين المهتمين بالنبات بدخول الحديقة فجعل منها مدرسة للنبات . وبعد حين عاد إلى مونبار وبرج القديس لويس بعد أن ترك الحديقة فى أيد أمينة ، وشرع فى تنظيم مشاهداته ليؤلف منها أشهر كتب القرن العلمية .

ونشرت المجلدات الثلاثة الأولى من كتابه هذا « التاريخ الطبيعى ، العام والخاص » فى ١٧٤٩ . وكانت باريس فى مزاج يهيئها لدراسة العلم ،

وإذ وجدت الآن الجيولوجيا والبيولوجيا مقدمتين لها فى نثر صاف رصين ، موضحتين بلوحات مغرية ، فقد أقبلت على هذه المجلدات إقبالا يقرب من إقبالها على كتاب مونتسكيو « روح القوانين » الذى صدر قبل ذلك بعام فقط . ومضى بوفون — بمساعدة الأخوين أنطوان وبرنار دجوسيو له فى النبات ، ولوى دوبنتون وجينو دمونبليار وغيرهما له فى الحيوان ، يضيف المجلد تلو المجلد إلى رائعته الكبرى ، فصدر اثنا عشر مجلداً جديداً قبيل ١٧٦٧ ، وتسعة مجلدات أخرى عن الطيور فى ١٧٧٠ — ٨٣ ؛ وخمسة عن المعادن فى ١٧٨٣ — ٨٨ ، وسبعة عن موضوعات أخرى فى ١٧٧٤ — ٨٩ . وبعد موته (١٧٨٨) أشرف إتيين دلاسيبيد على نشر مخطوطاته التى لم تنشر وأصدرها فى ثمانية مجلدات (١٧٨٨ — ١٨٠٤) . وبلغت جملة المجلدات الصادرة من كتاب « التاريخ الطبيعى » فى النهاية أربعة وأربعين مجلداً استهلك إعدادها أكثر من حياة ، واستغرق نشرها أكثر من نصف قرن . ودأب بوفون على أن ، يستيقظ مبكراً ويمضى إلى برجه ، ويقترب من هدفه خطوة فخطوة . ويبدو أنه — بعد أن اجتاز بسلام بعض الفلتات الجنسية فى شبابه أقصى النساء عن حياته حتى عام ١٧٥٢ حين تزوج مارى دسان — بيلون وهو فى الخامسة والأربعين . ورغم أنه لم يدع الوفاء لرباط الزوجية (٩٦) ؛ فقد تعلم أن يحب زوجته ، كما يفعل الكثير من الفرنسيين بعد حياة الزنا ، وقد أظلم موتها فى ١٧٦٩ سنى عمره الباقية .

وقد أخذ « التاريخ الطبيعى » على عاتقه وصف السماوات ، والأرض ، وكل المعروف من عالم النبات والحيوان ، بما فيه الإنسان . وحاول بوفون أن يرد كل هذه المتاهة من الحقائق إلى نظام وقانون عن طريق أفكار الاستمرارية والضرورة الشاملتين . وقد مرت بنا نظريته التى تذهب إلى أن الكواكب شظايا تحطمت عن الشمس إثر اصطدامها بمذنب ، ونظريته فى « حقب الطبيعة » التى رآها مراحل فى تطور الكرة الأرضية . أما فى عالم النبات فقد رفض تصنيف لينيوس للنباتات حسب أعضائها الجنسية لأنه شديد التعسف والنقص والصلابة . وقد قبل طريقة لينيوس فى المصطلحات على مضض ، واشترط أن توضع الأسماء على جنب فى أسفل البطاقات الملحقة

بالنباتات فى حديقة الجاردان [٩٧] . وكان تصنيفه للحيوانات غير معقول ، ولكنه اعترف بأنه مؤقت ؛ فقد رتبها حسب نفعها للإنسان ، ومن ثم بدأ بالحصان . وفى تاريخ لاحق ، وبعد إلحاح من دوبنتون ، وضع تصنيفاً جديداً لها حسب خصائصها المميزة . وضحك نقاده المتخصصون على تصنيفاته وتشككوا فى تعمياته ، ولكن قراءه طربوا لأوصافه الحية ولاتساع نظراته العظيم .

وقد ساعد على إرساء دعائم الأنثروبولوجيا (علم الأجناس البشرية) بدراسة اختلافات النوع الإنسانى تحت تأثير المناخ ، والتربة ، والأنظمة ، والمعتقدات ؛ ورأى أن هذه القوى قد نوعت لون الأجناس وملامحها ، وولدت خلافاً فى العادات ، والأذواق ، والأفكار . ومن أجرأ فروضه قوله بأنه ليس فى الطبيعة أنواع ثابتة لا تقبل التغير ، وأن النوع منها يذوب فى النوع التالى ، وأن فى استطاعة العلم إذا نضج أن يصعد خطوة فخطوة من المعادن المفروض أنها ميتة ، إلى الإنسان نفسه . ولم ير إلا فرقاً فى الدرجة بين غير العضوى والعضوى .

وقد لاحظ أن صوراً جديدة من الحيوان تكونت بالانتخاب الطبيعى ، وزعم أن فى الإمكان إحداث نتائج مماثلة فى الطبيعة بالهجرة والعزل الجغرافيين . وسبق مالثوس بملاحظته أن خصوبة أنواع النبات والحيوان التى لا رابط لها تلقى باستمرار عبئاً باهظاً على خصوبة التربة ، مما قد يؤدى بالكثير من الأفراد والأنواع فى الصراع على البقاء :

« لقد اختفت ، أو ستختفى ، أنواع أقل كما لا ، وأضعف ، وأثقل ؛ وأقل نشاطاً ، وأردأ تسليحاً . [٩٨] . . . وهذبت أنواع كثيرة ، أو انحطت ، نتيجة لتغيرات كبيرة فى اليابس أو الماء ، ولرضى أو سخطها عليها ، وللطعام ، ولتأثيرات المناخ الطويلة الأمد ، المعاكسة أو المواتية ... فلم تعد اليوم كما كانت بالأمس » [٩٩] .

ومع أنه سلم بوجود نفس للإنسان ، فقد تبين فى جسم الإنسان أعضاء الحس والأعصاب ، والعضلات ، والعظام ، ذاتها التى فى الحيوانات العليا .

و من ثم فقد رد « الحب الرومانسى » إلى ذات الأساس الفسيولوجى الذى فى جاذبية الحيوان الجنسية . لا بل أنه احتفظ بشعر الحب لأوصافه البليغة لتزاوج الطيور ورعايتها لصغارها . وتساءل « لم يسعد الحب جميع الكائنات الأخرى ويشقى الإنسان هذا الشقاء الكثير ؟ لأن الجزء البدنى من هذه العاطفة هو وحده الحسن ، أما العناصر الأخلاقية فيها فلا قيمة لها » (١٠٠) . (وقد وبخته مدام دبومبادور على هذه الفقرة ولكن فى لطف كثير) (١٠١) وخلص بوفون إلى أن الإنسان حيوان فى كل نقطة « مادية » (١٠٢) .

« ومتى سلمنا بأن هناك عائلات من النبات والحيوان ، أى أن الحمار قد ينتمى لعائلة الحصان ، وأن الواحد منها لا يختلف عن الآخر إلا فى تسلسله المنحط من نفس الجد ... فقد نضطر إلى التسليم بأن القرد ينتمى لعائلة الإنسان ، وأنه ليس إلا إنساناً منحطاً ، وأنه هو والإنسان كان لهما جد واحد . وإذا تبين أنه كان بين الحيوانات والنباتات ... ولو نوع واحد أنتج خلال التسلسل المباشر من نوع آخر ... إذن فليس هناك حدود يمكن أن تقيد قوة الطبيعة ، ولن نخطىء إن افترضنا أنه لو ترك لها الوقت الكافى لاستطاعت أن تطور جميع الأشكال العضوية الأخرى من نوع أصلى واحد » .

ثم أضاف بوفون هذه العبارة بعد أن تذكر فجأة سفر التكوين وجامعة السوربون « ولكن لا . فالثابت من الوحى الإلهى أن جميع الحيوانات قد وهبت بالتساوى نعمة خلقها خلقاً مباشراً ، وأن أول زوج من كل نوع خرج مكتمل الصورة من يدى الخالق » (١٠٣) .

ولكن مدير السوربون ، أو كلية اللاهوت فى جامعة باريس ، نبه بوفون رغم ذلك (١٥ يونيو ١٧٥١) إلى أن أجزاء من « تاريخه الطبيعى » تناقض تعاليم الدين ، ويجب أن تسحب — لا سيما آراؤه عن عمر الأرض الطويل ، وانبعاث الكواكب من الشمس ، وتأكيده بأن الحقيقة لا تستقى إلا من العلم . واعتذر المؤلف مبتسما :

« أقرر أنه لم يكن لدى أى نية فى مناقضة نص الكتاب المقدس ، وإننى أومن أوطد الإيمان بكل ما حواه الكتاب خاصاً بالخليقة ، سواء من حيث ترتيب الزمن أو الحقائق المتضمنة . وإنى أعدل عن كل ما ورد فى

كتابى عن تكوين الأرض ، وبصفة عامة عن كل ما قد يناقض رواية موسى » (١٠٤) .

ولعل بوفون ، الرجل الأرستقراطى ، أحس أن من سوء الأدب أن يختلف جهراً مع إيمان الشعب ، وأن « سوربونا » لم تهدأ تأثرتها قد تفسد عليه خطته الكبرى ؛ وعلى أية حال ، فإن كتابه إذا اكتمل سيكون تعقيباً منيراً على اعتذاره . وقد تبينت الطبقات المتعلمة الابتسامة فى سحب آراءه ، ولاحظت أن مجلدات الكتاب التالية واصلت هرطقاته . ولكن بوفون أبى أن ينضم إلى فولتير وديدور فى هجومهما على المسيحية . وقد رفض دعوى لامترى وغيره من الماديين باختزال الحياة والفكر إلى مادة فى حركة ميكانيكية . أن النظام ، والحياة ، والنفس ، هى وجودنا الحقيقى الصحيح ؛ وما المادة إلا غلاف غريب لا نعرف صلته بالنفس ، ووجوده عقبة (١٠٥) .

ومع ذلك رحب به « الفلاسفة » حليفاً قوياً . ولاحظوا أن حماسته ونداءاته موجهة إلى طبيعة لا شخصية ، خلاقة ، خصبة ، لا إلى إله شخصى . فالله عند بوفون كما هو عند فولتير بذر بذور الحياة ثم ترك للأسباب الطبيعية القيام بالباقى كله . وقد رفض بوفون فكرة القصد فى الطبيعة ، ومال إلى وحدة وجود اسبينوزية ورأى الحقيقة الواقعة كما رآها تورجنيف ، مختبراً كونياً شاسعاً تتناول فيه الطبيعة بالتجربة ، على مدى دهور طويلة ، الشكل أو العضو أو النوع ، الواحد تلو الآخر ، وفى هذه الرؤية انتهى إلى نتيجة تبدو متناقضة مع نقده للينيوس : فالفرد هو الذى بدا الآن غير حقيقى ، والنوع هو الحقيقة الباقية نسبياً . ولكن التناقض يمكن حله : فالنوع والجنس والعائلة والرتبة ، لم تزل أفكاراً لا غير ، يركبها الذهن ليعطى نظاماً ميسراً لخبرتنا بالوفرة المحيرة فى الكائنات العضوية ، والأفراد هم الحقائق الحية الوحيدة ، ولكن أجلهم قصير قصراً يجعل الفيلسوف لا يرى فيهم غير بصمات عابرة يتركها شكل أكبر وأطول بقاء . وبهذا المعنى كان أفلاطون محقاً : فالإنسان « حقيقى » ، أما « الناس » فلحظات عابرة فى خيال ظل الحياة .

واستمتع قراء بوفون بهذه الرؤى التى تدير الرءوس ، ولكن نقاده

أخذوا عليه إنه ضيع نفسه بتهور شديد فى التعميمات ، مضحياً أحياناً بدقة التفاصيل . وضحك فولتير على تقبله فكرة التوالد الذاتى ، واحتقر لينيوس مؤلفه فى النباتات ، ولم يحترم ريامور دراسته للنحل ، واستخف علماء الحيوان بتصنيفه الحيوانات نفعها للإنسان . ولكن الناس جميعاً صفقوا لأسلوبه .

ذلك أن بوفون ينتمى للأدب كما ينتمى للعلم ، ولا يستطيع إنصافه إلا التاريخ المتكامل . فندر من العلماء من أفصح عن نفسه بمثل هذه البلاغة الرائعة . وقد قال فيه روسو ، وهو أحد أساتذة الأساليب ، « إننى لا أعرف له ضريباً فى عالم الكتابة . فقلمه أول قلم فى قرنه » (١٠٦) . وفى هذا اتفق جريم الحكيم مع روسو رغم عدائه له . « يحق للمرء أن يدهش لقراءة أحاديث قد يبلغ الحديث منها مائة صفحة ، كتبت دائماً من أول سطر إلى آخره ، بأسلوب رفيع واحد وحرارة مضطردة واحدة ، وزينت بأروع تلوين وأكثره طبيعية (١٠٧) . ولقد كتب بوفون كما يكتب رجل تحرر من أغلال العوز ووهب متسعاً من الوقت ، فلم يكن فى إنتاجه ما كتب على عجل كما نجد ذلك كثيراً فى فولتير ، وكان يعنى بألفاظه عنايته بعيناته . وإذ تبين فى الأشياء قانون استمرارية لاينتسيا » ، فقد أرسى نظرية فى الأسلوب ، فصقل كل الانتقالات ، ورتب كل الأفكار فى تسلسل جعل لغته تتدفق كأنها نهر عريض عميق . وبينما كان السر فى أسلوب فولتير هو التعبير السريع الواضح عن الفكر الثاقب ، كانت طريقة بوفون هى الترتيب المتأنى لأفكار عريضة تنبض بالوجدان فلقد أحس بجلال الطبيعة وجعل من علمه أنشودة تسبيح .

وكان على وعى تام بنزعته الأدبية ، يبهجه أن يقرأ لزواره فقرات عذبة من كتبه ؛ وحين انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية لم يتخذ موضوعاً له يوم استقباله (٢٥ أغسطس ١٧٥٣) عجيبة من أعاجيب العلم ، بل تحليلا للأسلوب . وحوى هذا الخطاب المشهور ، كما قال كوفييه ، « المبدأ والمثال جميعاً » (١٠٨) ، لأنه هو نفسه كان درة من درر الأسلوب . وهو مخفى عن عين جميع الناس — إلا الفرنسيين — تحت أكداس مؤلفاته ، ولم نكد نعرف منه غير حكمه الشهير ، الجامع ، الخفى المغزى ، « الأسلوب هو الإنسان .

فلنبسطه هنا إذن ، ونتأمله على مهل . والترجمة تذهب ببعض روائه ، ولكنه مع ذلك ، ورغم ما تضطرنا إليه العجلة القبيحة من بتر لبعضه ، فإنه خليق بأن تزدان به الصحائف أياً كانت » . قال بعد أن قدم لخطابه بتحية لجمهور ضم الكثيرين من أصحاب الأساليب :

« إن الناس لم يتقنوا الكتابة والحديث إلا فى العصور المستنيرة . فالبلاغة الصادقة ... تختلف تماماً عن سهولة الحديث الطبيعية ... التى وهبت لكل صاحب عاطفة قوية ... وخيال سريع ... أما القلة من الناس الذين وهبوا الفكر المتزن ، والذوق الرفيع ، والحس المرهف — والذين لا يعبأون كثيراً ، شأنكم أيها السادة ، بنبر الكلمات ، وإيماءاتها ، ورنينها الأجوف — هؤلاء يتطلبون المضمون ، والفكر ، والتمييز ، يتطلبون فن تقديم كل أولئك وتحديدها ، وترتيبها ، فلا يكفى قرع الآذان واسترعاء العيون ، فلا بد للمرء أن يؤثر فى النفس ويلمس القلب وهو يتحدث إلى الذهن ... وكلما ازدادت المادة والقوة اللتان نضفيهما على فكرنا بالتأمل ، سهل بلوغهما فى التعبير .

كل هذا ليس الأسلوب بعد ، بل أساسه ، أنه يدعم الأسلوب ويوجهه ، وينظم حركته ، ويخضعه للقوانين . فبدونه يضل خير الكتاب ، ويتوه قلمه دون مرشد ، ويقذف كيفما اتفق بالخطوط المبهمة والأشكال المتنافرة . ومهما كان بريق الألوان التى يستعملها ، وأياً كانت المحسنات التى ينثرها فى التفاصيل ، فسيختنق بكثرة أفكاره ، ولن يبعث فينا وجداناً ، ولن يكون لكتابته هيكل أو بنيان ... ومن ثم يسىء الكتابة من يكتبون كما يتحدثون ، مهما أجادوا الحديث ، والذين يستسلمون لأول الهام حار من خيالهم يتخذون نبرة لا يستطيعون الإبقاء عليها ...

ما السر فى كمال أعمال الطبيعة ؟ هو أن أى عمل من هذه الأعمال كل متكامل : لأن الطبيعة تعمل وفق خطة سرمدية لا تنساها أبداً ، فهى تعد فى صمت بذور إنتاجها ، وترسم بخطة فرشاة واحدة الشكل البدائى لكل شىء حى ، ثم تطوره وتصقله بحركة متصلة وفى زمن مقرر ... وذهن الإنسان لا يستطيع أن يخلق شيئاً ، أو ينتج شيئاً ، إلا بعد أن تثريه التجربة

والتأمل ، وتجاربه هى بذار منتجاته . ولكن لو أن الإنسان حاكى الطبيعة فى طريقته وفى جهوده ، ولو أنه ارتقى بالتأمل إلى أسمى الحقائق ، ولو أنه وحد بينها من جديد وربط بينها فى سلسلة ، وألف منها كلا واحداً ، ونسقاً محسوباً ، لو أنه فعل هذا كله لأقام على أسس راسخة صروحاً خالدة على الزمن؛

وبسبب افتقار الكاتب إلى مخطط ، وعدم تفكيره فى هدفه تفكيراً كافياً ، يجد نفسه حائراً — حتى إذا كان من رجال الفكر — لا يعرف من أين يبدأ الكتابة ؛ فهو يرى فى وقت واحد عدداً كبيراً من الأفكار ، ولأنه لم يوازن بينها ، ولم يرتبها ترتيباً منظماً ، فما من شىء يدعوه لتفضيل بعضها على بعض ، ومن ثم يظل فى حيرته . أما إذا وضع له مخططاً ، وإذا جمع ورتب جميع الأفكار الأساسية فى موضوعه ، فسيرى للتو ، وفى يسر ، فى أى نقطة يجدر به أن يتناول قلمه ، وسيحس بأفكاره تنضج فى ذهنه . وسيبادر إلى إخراجها للنور ، وسيستشعر لذة فى الكتابة ، وستتلو أفكاره بعضها بعضاً فى غير عناء ، وسيكون أسلوبه طبيعياً وسهلا ، وسينبعث من هذه اللذة ضرب من الدفء ينبسط على عمله ، ويضفى الحرارة على عبارته ؛ وسيزداد النبض فى كتابته ويعلو النبر ، وتتخذ الأشياء لها لوناً ، ويزداد الشعور وينتشر بعد التحامه بالنور ، وينتقل من ذلك الذى نقوله إلى ذلك الذى نوشك أن نقوله ؛ وسيصبح الأسلوب ممتعاً مشرقاً ...

ولن تنحدر إلى الأجيال القادمة غير الأعمال التى أجيدت كتابتها . ولن يكون ما حوت من غزارة فى المعرفة ، أو غرابة فى الوقائع ، أو حتى طرافة فى الكشوف ، ضماناً أكيداً للخلود . فلو أن الأعمال التى تحوى هذا كله اهتمت بموضوعات تافهة ، أو كتبت دون تمييز أو سمو ... لكان مآلها إلى الزوال ، ذلك أن المعرفة ، والوقائع والكشوف ، يسهل نقلها وسلبها ، بل إنها تكون أوفر حظاً لو وضعت فى أيد أقدر وأكفأ . فتلك الأشياء خارجة عن الإنسان ، أما الأسلوب فهو الإنسان ذاته Le style est l'homme même ، إن الأسلوب لا يمكن سرقته ، ولا حمله ، ولا تغييره وتبديله ، وإذا كان أسلوباً رفيعاً ، نبيلا ، سامياً ، كان صاحبه موضع الإعجاب فى جميع العصور على السواء ؛ ذلك أن الحقيقة وحدها هى الباقية الخالدة » (١٠٩) .

يقول فيلمان « أن هذا الخطاب الذى أثار الإعجاب الشديد فى ذلك الحين يبدو أسمى من كل ما خطر على الأفكار قبله فى هذا الموضوع ، ونحن نستشهد به حتى فى يومنا هذا بوصفه قاعدة عامة جامعة . » وربما وجبت بعض الاستثناءات من هذا الحكم . فوصف بوفون هذا يصدق على النثر خيراً مما يصدق على الشعر ، وهو ينصف الأسلوب « الكلاسيكى » أكثر مما ينصف الأسلوب « الرومانسى » ، وهو يتبع تقليد بوالو ، ويرفع بحق من شأن العقل ؛ ولكنه لا يترك متسعاً يذكر لفحول النثر الفرنسى من أمثال روسو ، وشاتوبريان ، وهوجو ، ولا لفوضى رابليه ومونتيني اللذيذة ، ولا لبساطة العهد الجديد المؤثرة البريئة من التكلف . ومن العسير عليه أن يدلنا على السر فى أن « اعترافات » روسو ، الشديدة الفقر فى الفكر ، الوافرة الغنى فى الوجدان ، ما زالت من أروع كتب القرن الثامن عشر . فالحقيقة قد تكون واقع وجدان كما تكون بنيان فكر أو كمال صورة .

ولقد كان أسلوب بوفون هو الرجل ، رداء وقوراً لنفس أرستقراطية . فهو لم ينس أنه سيد اقطاعى كما كان عالماً وكاتباً إلا فى دراساته . ولم تغير خطوه أسباب التشريف المتكاثرة التى توجت شيخوخته . فقد خلع عليه لويس الخامس عشر لقب الكونت دبوفون فى ١٧٧١ ودعاه إلى فونتنبلو . ومنحته أكاديميات أوربا وأمريكا العلمية عضويتها الشرفية . وقد تفرس فى هدوء واطمئنان فى التمثال الذى أقامه له ابنه فى الجاردان دوروا وغدا برجه فى مونبار أبان حياته قبلة يحج إليها الزائرون كما يحجون إلى بيت فولتير فى فرنيه ، وفد عليه روسو ، وركع على عتبته ، وقبل الأرض (١١١) . وزاره هنرى أمير بروسيا ، ومع أن كاترين الكبرى لم تسطع زيارته ، إلا أنها أرسلت له كلمة تقول إنها تضعه فى أعلى المراتب بعد نيوتن .

ولقد كان مهيب المظهر مليح الصورة حتى فى شيخوخته — « له جسم رياضى » كما قال فولتير « وروح حكيم » (١١٢) وكان فى رأى هيوم لا يبدو رجل أدب بل قائداً من قواد فرنسا الحربيين (١١٣) . أما أهل مونبار فكانوا يعبدونه . وكان بوفون على وعى تام بهذا كله ، يفخر بلياقته البدنية وبمظهره ، ويرجل له شعره ويبدر مرتين فى اليوم (١١٤) . وقد نعم

بصحة سابغه حتى بلغ الثانية والسبعين . ثم بدأ يشكو الحصى ، ولكنه واصل العمل ، وأبى أن تجرى له جراحة . وأفسح له فى الأجل تسع سنين أخر ، ومات فى ١٧٨٨ . ومشى فى جنازته عشرون ألفاً . ولكن لم تكد تمضى سنة على موته حتى نبشت رفاته وذريت فى الريح ، وسوى تمثاله بالتراب ، بأيدى الثوار الذين لم يستطيعوا أن يغفروا له أنه كان نبيلا ، أما ابنه فقد أعدم بالجيلوتين (١١٥) .

(ب) نحو التطور :

بدأ علم الأحياء الذى تزعمه هذا الأستاذ الفذ فى نظرته ، وصبره ، ونثره ، فى إغراء المزيد من الطلاب وتحويلهم عن الرياضة والفيزياء اللتين استأثرتا بمعظم العلماء فى القرن السابع عشر . وقد أحسن ديدرو ببعض هذا التغير ، وهو الذى تأثر بجميع تيارات عصره ، فكتب فى ١٧٥٤ يقول « فى هذه اللحظة نصل إلى ثورة كبرى فى العلوم . وأنى إذ ألحظ الميل الذى تستشعره أفضل العقول لدراسة الفلسفة الأخلاقية ، والأدب ، والتاريخ الطبيعى ، والفيزياء التجريبية ، أجرؤ على التنبؤ بأنه قبل أن تنقضى مائة سنة أخرى لن يكون لدينا ثلاثة رياضيين كبار فى أوربا » (١١٦) . وقد شهد عام ١٧٥٩ ذروة البيولوجيا الحديثة .

وقد فت فى عضد هذا العلم الجديد (الأحياء) معضلته الأولى — وهى أصل الحياة . وبذلت المحاولات الكثيرة لإثبات إمكان توليد الحياة ذاتياً من المادة غير الحية . ودبت الحياة من جديد فى نظرية التولد الطبيعى أو الذاتى abiogenesis القديمة نظراً إلى كثرة ما وجد بالمجهر من كائنات دقيقة فى قطرة ماء ، وذلك برغم ما وضح من تفنيد ريدى لهذه النظرية فى ١٦٦٨ . ففى ١٧٤٨ أحيا النظرية جون نيدام ، وكان قسيساً كاثوليكياً إنجليزياً يسكن القارة ، بإعادته تجارب ريدى وحصوله على نتائج مختلفة عن نتائجه . فقد غلى بعض مرق الضأن فى قوارير سدها فوراً بفلين وختم عليها . فلما فتح القوارير بعد أيام وجدها تعج بالكائنات الحية . ولما كان الغلى — فى رأى نيدام — كفيلا بقتل أى جراثيم حية فى المرق ، ولما كانت القوارير قد أحكم ختمها بالصمغ ، فقد استنتج أن كائنات جديدة تولدت

تلقائياً فى السائل . وأعجبت الحجة بوفون ، ولكن فى ١٧٦٥ كرر أستاذ فى جامعة مودينا يدعى سباللانزانى تجارب نيدام وخرج منها بنتيجة عكسية . فقد وجد أن غلى شراب دقيقتين لم يقضى على كل الجراثيم ، أما غليه خمساً وخمسين دقيقة قد قضى عليها ، وفى هذه الحالة لم تظهر أى كائنات حية . ومضى الجدل حتى بدا أن شفان وباستير قد أنهياه فى القرن التاسع عشر .

كذلك أحاطت بعمليات التناسل أسرار لا تقل عن هذا السر إثارة للحيرة . فقد حار جيمس لوجان ، وشارل بونيه ، وكاسبار فولف ، فى دورى عنصرى الذكر والأنثى فى التناسل ، وتساءلوا كيف يمكن أن يحتوى العنصران المتحدان فى ذاتيهما — كما يبدو أنهما يفعلان — التحديد المحتوم لجميع الأجزاء والهياكل فى الكائن الناضج . واقترح بونيه نظرية مغرقة فى الخيال سماها emboîtement (التكييس) ، فالأنثى تحوى جراثيم أطفالها جميعاً ، وهذه الجراثيم تحوى جراثيم الحفدة ، وهكذا دواليك حتى يتمرد الخيال . ولا عجب فالعلم هو أيضاً يستطيع الانحراف إلى الخرافة . أما فولف ، الذى يزين اسمه القنوات الفولفية ، فقد دافع عن نظرية هارفى فى التوالد الخارجى epigenesis : فكل جنين يخلق من جديد بواسطة العناصر الأبوية . وسبق فولف نظرية تكوين الأعضاء التى قال بها فون باير فى واضع الجراثيم ، بكتابة « فى تكوين الأحشاء » . (١٧٦٨) ، الذى وصفه فون بابر بأنه « أعظم ما نملك من روائع الملاحظة العملية » (١١٧) .

وهل تجدد النسيج نوع من التناسل ؟ لقد أدهش العالم الجنيفى إبراهام ترمبلى المجتمع العلمى فى ١٧٤٤ بتجارب كشفت عن أصرار « كثير الأرجل Polyp » الذى يعيش فى الماء العذب على التجدد ، فقد قطع واحداً منها إلى شطائر طولية أربعة ، نما كل منها إلى كائن سوى كامل . وتردد هل يسمى كثير الأرجل هذا نباتاً أم حيواناً ؛ فقد بدا أن له جذوراً كالنبات ، ولكنه ينهش الطعام ويهضمه كما يفعل الحيوان ؛ وهلل المتكهنون له باعتباره همزة الوصل بين عالمى النبات والحيوان فى « سلسلة الوجود العظمى » (١١٨) أما ترمبلى فقد انتهى إلى أنه حيوان ، وهو رأى البيولوجيين فيه اليوم . وقد أطلق عليه ريامور لفظ « Polyp » أو كثير الأرجل بسبب قرون

استشعاره المترعصة المتحسسة . ونحن نعرفه أيضاً باسم الهيدرا hydra نسبة إلى الوحش الخرافى (الافعوان) ذى الرءوس التسعة (الذى كلما قطع هرقل رأساً منها نبت اثنان فى مكانه . وقد استعمل « الهيدرا » فى دنيا الأدب تشبيهاً له مائة ألف حياة .

ورينيه أنطوان دريامور هذا كان علما لا يبزه فى بيولوجيا العصر الذى نحن بصدده غير بوفون ، وكان يفوق بوفون كثيراً فى دقة الملاحظة . هيىء لمهنة الطب ، ولكنه هجرها حالما تحقق له الاستقلال المالى ، وكرس نفسه للبحث العلمى . خبر إثنى عشر ميدان . ففى ١٧١٠ كلف بأن يمسح ويصف صناعات فرنسا وفنونها الصناعية ، فقام بالمهمة بما عهد فيه من اتقان وقدم توصيات أفضت إلى إنشاء صناعات جديدة وإحياء أخرى أصابها الاضمحلال وابتكر طريقة لتصفيح الحديد ما زالت مستعملة . وبحث فى الفروق الكيميائية بين الحديد والصلب . وأتته هذه الاسهامات وغيرها فى علم المعادن بمعاش قدره اثنا عشر ألف جنيه من الحكومة ، فأعطى المال لأكاديمية العلوم . وقد مر بنا بحثه فى الترمومتر .

وفى غضون هذا راح يثرى البيولوجيا . ففى ١٧١٢ أثبت أن فى استطاعة جراد البحر (اللوبستر) أن يجدد طرفاً مبتوراً من أطرافه . وفى ١٧١٥ وصف الصدمة الكهربائية التى يحدثها السمك الرعاد — وصفاً صحيحاً . وفيما بين عامى ١٧٣٤ و ١٧٤٢ نشر رائعته « مذكرات ينتفع بها فى تاريخ الحشرات » — — وهى ستة مجلدات موضحة برسوم دقيقة ، ومكتوبة بأسلوب ساحر ينبض بالحياة ، جعل الحشرات قريبة فى طرافتها من العشاق فى روايات كريبيون (الابن) الغرامية . ولقد استهواه كما استهوى فابر فى أيامنا هذه :

« كل ما يمت إلى أخلاق الكثير من الحيوانات الصغيرة — إن جاز هذا التعبير — وعاداتها ومعيشتها . فلقد لاحظت طرق عيشتها المختلفة ، وكيف تحصل على قوتها ، والحيل التى يصطنعها بعضها للقبض على فريسته ، وأسباب الحيطة التى يتخذها غيرها اتقاء للاعداء ... — وانتقاء الأماكن التى تضع فيه بيضها حتى تجد صغارها حين تفقس طعاماً صالحاً لها لحظة خروجها للحياة » (١١٩) .

وقد وافق ريامور فولتير على أن فى الإمكان تفسير سلوك الكائنات الحية وبنيانها دون افتراض قوة قصد فى الطبيعة ، وكانت مجلداته ذخيرة استعان بها أولئك الذين قاوموا تيار الإلحاد الذى تدفق بعد حين فى فرنسا . واحتقره ديدرو لانفاقه الوقت الكثير على دراسة البق [١٢٠] ، ولكن أمثال هذا العمل المدقق هى التى أرست الأسس الواقعية للبيولوجيا الحديثة .

ترى ماذا قال ديدرو بالضرورة حين سمع أن شارل بونيه ، صديق ريامور ، قد برهن على الولادة العذرية parthenogenesis فى مملكة الحيوان ؟ فلقد وجد بعزل منّ حديث الولادة aphids(وهو قمل الشجر الذى يعشق أشجار البرتقال) إن أنثى هذا النوع تستطيع إنسال ذرية مخصبة دون أن تضطر إلى تلقّى العنصر الذكر المطلوب فى الإخصاب عادة ؟ إذن فهدف الجنس فيما يبدو ليس مجرد التناسل ، بل إثراء الذرية بشتّى الصفات التى يسهم بها أبوان مختلفا المواهب . وقد وصفت هذه التجارب التى أبلغت لأكاديمية العلوم فى ١٧٤٠ فى كتاب بونيه « رسالة فى علم الحشرات » (١٧٤٥) وأشار بونيه فى كتابة « أبحاث .... فى النباتات » (١٧٥٤) إلى أن لبعض النباتات قوى للحس ، بل للتمييز والانتقاء ، وإذن فقدرة على الحكم — وهذا سر الذكاء .

وبونيه هذا — الذى ولد بجنيف — أول من طبق اصطلاح « التطور » envolution على البيولوجيا فيما يبدو [١٢١] ، وعنى به سلسلة الكائنات من الذرات إلى الإنسان . وفكرة التطور ، بمعنى النمو الطبيعى لأنواع جديدة من أخرى قديمة ، ظهرت مراراً فى علم القرن الثامن عشر وفلسفته . ومن ذلك أن بنوا دمابيه ألمع فى كتابة « تياميد » الذى صدر بعد موته (١٧٤٨) إلى أن جميع الحيوانات البرية تطورت من كائنات بحرية قريبة منها بطريق تغير النوع بتغير البيئة ، وهكذا تولدت الطيور من السمك الطائر ، والسباع من سباع البحر ، والإنسان من أناسى البحر . وبعد ثلاث سنوات لم يكتف كتاب موبرتوى « نظام الطبيعة » بتصنيف القردة مع البشر نوعين متقاربين ، [١٢٢] بل سبق — فى خطوط عريضة — نظرية داروين فى تطور الأنواع

الجديدة بطريق الانتقاء البيئى لأشكال عارضة صالحة للبقاء . قال العالم المنكود الحظ الذى كتب عليه أن يقع بعد قليل فوق قلم فولتير السليط :

« أن كل جزىء من الجزيئات البدائية التى تؤلف الجنين مشتق من البنيان الأبوى المقابل له ، ويحتفظ بضرب من الذكرى لشكله الأسبق . ومن ثم نستطيع أن نعلل فى غير عناء تكون الأنواع الجديدة ... إذا افترضنا أن الجزيئات البدائية قد لا تحتفظ دائماً بالترتيب الذى تكون عليه فى الأبوين ، بل تولد بالصدفة فروقاً تسفر بتكاثرها وتراكمها عن الأنواع التى لا حصر لها ، والتى نشهدها اليوم » (١٢٣) .

وهكذا يستطيع نموذج أصلى واحد إذا ترك له الوقت الكافى ، أن يولد جميع الأنواع الحية (فى رأى موبرتوى) — وهى قضية قبلها بوفون من قبيل الاجتهاد ، ولقيت الاستحسان الحار من ديدرو .

وعاد جان باتيست روبينيه ، فى كتابه « عن الطبيعة » (١٧٦١) إلى فكرة أقدم عن التطور تقول بأنه « سلم من الكائنات » : فالطبيعة كلها سلسلة من المحاولات لإنتاج كائنات أكثر وأكثر رقياً ، وكل الكائنات — طبقاً لقانون لايبنتس فى الاستمرارية (الذى لم يعترف بأى انفصام بين أحط الكائنات وأرقاها) ، حتى الأحجار ، ما هى إلا تجارب تشق بها الطبيعة طريقها صعدا خلال المعادن ، والنباتات ، والحيوانات ، إلى الإنسان . وما الإنسان إلا مرحلة فى هذه المغامرة الكبرى ، سوف تحل محله يوماً ما كائنات أرقى منه » (١٢٤) .

أما القاضى الاسكتلندى جيمس بيرنت ، لورد مونبودو ، فقد كان داروينياً قبل داروين بزهاء قرن . ففى كتابة « أصل اللغة وتقدمها » (١٧٧٣ — ٩٢) صور إنسان ما قبل التاريخ كائناً بغير لغة وبغير نظام اجتماعى ، لا يتميز إطلاقاً عن القردة من حيث مدركاته العقلية أو طرقه المعيشية . فالإنسان والأورانجوتان (كما قال ادورد تايزن فى ١٦٩٩) ينتميان لجنس واحد ، والأورانجوتان (يقصد به مونبودو الغوريلا أو الشمبانزى) إنسان فشل فى أن يتطور . ولم يتطور إنسان ما قبل التاريخ ليصبح الإنسان البدائى

إلا بفضل اللغة والنظام الاجتماعى . فتاريخ البشر ليس هبوطاً من حالة الكمال الأصلية ، كما جاء فى سفر التكوين ، بل صعود بطىء أليم [١٢٠] »

وقد لمس الشاعر جيته تاريخ العلم فى نقاط عديدة . ففى ١٧٨٦ اكتشف العظم البينفكى ، وفى ١٧٩٠ ألمع إلى أن الجمجمة مؤلفة من فقار معدلة . وتوصل — دون اعتماد على كاسبار فولف — إلى النظرية القائلة بأن جميع أجزاء النبات تعديلات فى الأوراق ، وذهب إلى أن جميع النباتات انحدرت بالتطور العام من مثال أصلى واحد سماه Urpfanze .

وآخر العلماء فى شجرة دارونيي القرن الثامن عشر هو جد داروين العظيم . وأرزمس داروين هذا شخصية طريفة طرافة تشارلز حفيده . ولد فى ١٧٣١ ، وتلقى علومه فى كمبردج وأدنبره ، وشرع فى ممارسة الطب فى نوتنجهام ، ثم فى لتشفيلد ، ثم فى داربى ، حيث توفى عام ١٨٠٢ . وكان يركب بانتظام من لتشفيلد إلى برمنجهام (خمسة عشر ميلا) ليحضر حفلات عشاء « الجمعية القمرية » التى كان روحها المحرك ، التى أصبح بريستلى أشهر أعضائها . ومن الرسالة التالية التى بعث بها داروين الجد إلى ماثيو بولتن معتذراً عن غيابه عن اجتماع للجمعية تشرق شخصة ألمعية محببة للنفس ؛ قال :

« يؤسفنى أن منعتنى الشياطين التى تصيب البشر بالأمراض ... من مشاهدة جميع رجالكم العظام فى سوهو (برمنجهام) اليوم . ليت شعرى أى ابداعات ، وأى ذكاء ، وأى بلاغة — ميتافيزيقية ، وميكانيكية ، وصاروخية — ستحلق فى جو اجتماعكم ، يتقاذفها كالمكوك لفيف فلاسفتكم ؟— بينما يقضى على أنا المسكين ، حبيس مركبة البريد ، بأن تخضنى هذه المركبة ، وترجنى ، وتهزنى ، وترضنى ، على طريق الملك ، لكى أخوض حرباً مع وجع فى معدة إنسان ، أو حمى فى جسده [١٢٦] » .

ووسط هذه الحياة الحافلة بالشواغل كتب كتاباً قيما سماه زونوميا (فسيولوجيا الحيوان) (١٧٩٤ — ٩٦) مزج فيه الطب بالفلسفة ، وعدة مجلدات من شعر العلم : « الحديقة النباتية » (١٧٨٨) ، و « غراميات

النباتات » (١٧٨٨) و « هيكل الطبيعة » (١٨٠٢) . وقد أعرب هذا الكتاب الأخير عن أفكاره التطورية . فبدأ بتأكيده أن التوالد الذاتى هو أكثر النظريات احتمالا فى أصل الحياة . قال شعراً :

« إذن بغير أبوين ، وبالتوالد التلقائى ، ظهرت أول ذرات الأرض النابضة بالحياة ... وولدت الحياة العضوية تحت الأمواج الطاغية وعذبت فى كهوف المحيط اللؤلؤية ؛ أولا تتحرك كائنات دقيقة لا ترى بالمجهر على الوحل ، أو تخترق اليم ؛ وبعد أن تتفتح منها أجيال متعاقبة ، تكتسب قدرات جديدة ، وتتخذ لها أطرافاً أكبر ، ومن ثم تظهر مجاميع لا حصر لها من النبات ، وممالك حية تتنفس من ذوات الزعانف والأرجل والأجنحة(١٢٧) » .

وهكذا تطورت الحياة من الكائنات البحرية إلى البرمائية فى الطين ، ثم إلى الأنواع التى لا تحصى فى البحر والبر والجو . ونقل الشاعر عن بوفون وهلفتيوس آراءهما فى خصائص تشريح الإنسان دليلا على أن الإنسان مشى فى الماضى على أربع ، وأنه لم يكمل بعد تكيفه لوضعه المنتصب . وقد ارتقى نوع من القردة باستعماله قوائمه الأمامية أيادى ، وتطويره الإبهام قوة موازنة مفيدة للأصابع . وفى كل مراحل التطور صراع بين الحيوانات على الطعام والأزواج ، وبين النباتات على التربة ، والرطوبة ، والضوء ، والهواء . وفى هذا الصراع (فى رأى إرزمس داروين) حدث الارتقاء بتطور الأعضاء نتيجة محاولات لتلبية الحاجات الجديدة (لا بالانتقاء الطبيعى لتغيرات مصادفة تساعد على البقاء كما سيقول تشارلز داروين) ؛ والنباتات تنمو بجهودها للحصول على الهواء والضياء . وقد سبق هذا الطبيب فى كتابة « زونوميا » لامارك بقوله : « من أن كل الحيوانات تمر بتغييرات تحدث جزئياً بجهودها الخاصة ، استجابة للذة والألم ، وكثير من هذه الأشكال أو الميول المكتسبة تتحد إلى ذراريها (١٢٨) » . فخطم الخنزير طور للرعى ، وخرطوم الفيل للهبوط إلى الطعام ، ولسان الماشية الخشن لشد أوراق العشب ، ومنقار الطائر لالتقاط الحب . وأضاف الطبيب إلى هذا كله نظرية التلوين الوقائى : « هناك أعضاء طورت لأغراض وقائية ، تغير شكل الجسم ولونه للاستخفاء أو القتال » (١٢٩) . ثم اختتم كلامه بلمحة جليلة اشتملت دهوراً طويلة .

« فإذا تأملنا الحقب الصغيرة من الأزمنة التى حدث فيها الكثير من التغييرات سالفة الذكر . أيكون من الجرأة المسرفة أن نتصور — فى الزمن السحيق الذى انقضى منذ بدأت الأرض . ربما قبل بدء تاريخ الإنسان بملايين السنين — أن جميع الحيوانات ذوات الدم الحار نشأت من لقاح خييط حى واحد . وهبته العلة العظمى الأولى ميزة الحيوانية . والقدرة على اكتساب أعضاء جديدة . تلازمها ميول جديدة . وتوجهها الانفعالات . والأحاسيس والإرادات . والارتباطات . فتملك بذلك قوة مواصلة التحسن بنشاطها الفطرى الخاص . وتوريث تلك التحسينات لذراريها إلى آخر الدهر » (١٣٠) ؟

كتب تشارلز داروين يقول « عجيب كيف سبق جدى ... نظرات لامارك والأسس الخاطئة لآرائه . فى كتابة زونوميا » (١٣١) . ولعل الجد لا يرضى بالتسليم بأنه كان سائراً على الطريق الخطأ . وهو على أية حال بسط نظرية لم تتم بعد . وبطريقته اللطيفة أسهم بضربة فى الدفاع عن فكرة التطور .

— علم النفس :

ومضى البحث العلمى قدماً من المعادن إلى النباتات إلى الحيوانات إلى الإنسان . وراحت رابطة متزايدة من الدارسين تتفحص جسم الإنسان وقد تسلحت بالمجهر وحفزتها حاجات الأطباء ، فوجدت أعضاءه ووظائفه شبيهة شبهاً لا خلاف عليه بأعضاء الحيوانات الراقية ووظائفها . ولكن بدا أنه لا يزال هناك انفصال فى سلسلة الكائنات . وأجمع الناس كلهم تقريباً على أن ذهن الإنسان يختلف عن ذهن الحيوان فى النوع وفى الدرجة معاً .

وفى ١٧٤٩ اقتحم قسيس انجليزى ، تحول إلى احتراف الطب ، يدعى ديفد هارتلى . هذه الفجوة بتأسيسه علم النفس الفسيولوجى . وكان يجمع النباتات طوال ستة عشر عاماً (١٧٣٠ — ٤٦) ثم نشر فى ١٧٤٩ كتابه « ملاحظات حول الإنسان » : ولما كان يطمع فى إيجاد مبدأ يحكم العلاقات بين الأفكار كما اقترح نيوتن مبدأ يحكم العلاقات بين الأجسام . فقد طبق ترابط الأفكار على تفسير العاطفة . والعقل ، والحركة ، والحس الخلقى ،

لا على تفسير الخيال والذاكرة فحسب كما فعل هوبز ولوك من قبل فصور الإحساس على أنه فى بدايته تموج فى جزيئات عصب يثيره جسم خارجى ، ثم على أنه انتقال هذا التموج على هذا العصب إلى المخ ، على نحو « انتشار الأصوات الطليق على صفحة الماء » (١٣٢) . وقال إن المخ كتلة من الخويطات العصبية تموجاتها هى متلازمات الذكريات ، يثير خويط أو أكثر منها تموج وافد مرتبط به فى الخبرة الماضية ؛ وهذا التموج هو الملازم الفسيولوجى للفكرة . فلكل حالة عقلية ملازم بدنى ، ولكل عملية بدنية مرافق عقلى أو عصبى ؛ وترابط الأفكار هو الجانب العقلى لترابط التموجات العصبية الذى يحدثه تجاورها أو تعاقبها فى خبرة ماضية . على أن الصورة الفسيولوجية التى رسمها هارتلى كانت بالطبع شديدة التبسيط ، ولم تمس قط لغز الوعى ، ولكنها شاركت فى إقناع أقلية صغيرة من الانجليز بفكرة فناء عقولهم .

وتناول قسيس آخر يدعى إتيين بونو دكونديياك مشكلات الذهن من جانب سيكولوجى خاص . وقد ولد فى جريوبل (١٧١٤) ، وتعلم فى مدرسة لاهوتية لليسوعيين بباريس ، ورسم قسيساً . فلما سمح له بالاختلاف إلى صالونى مدام دتانسان ومدام جيوفران ، التقى بروسو وديدرو ، وفقد حماسته الدينية ، وهجر كل وظائفه الكهنوتية ، وكرس نفسه للعبة الأفكار . فدرس المذاهب التاريخية للفلسفة ورفضها فى كتابه « رسالة فى المذاهب » (١٧٤٩) الذى نطق بروح « الفلاسفة » فقال إن كل هذه الصروح المتعالية من أنصاف الحقيقة إنما هى تفرعات كثيرة كلها أوهام انتشرت من معرفتنا المبتورة للكون ؛ وفحص جزء من التجربة بالاستقراء خير من التدليل على الكل بالاستنباط .

وقد حذا كونديياك فى كتابه « مقال فى أصل المعارف البشرية » (١٧٤٦) حذو لوك فى تحليله للعمليات العقلية ، ولكنه فى أنجح كتبه « مقال فى الأحاسيس قبل رأياً أكثر تطرفاً — وهو أن « التأمل » الذى تبين فيه لوك مصدراً ثانياً للأفكار ، هو مجموعة أحاسيس ، هى المصدر الوحيد لكل الحالات العقلية . إن هناك عالماً خارجياً ، لأن أهم حواسنا وهى اللمس تلقى مقاومة ؛ ومع ذلك فإن كل ما تعرفه هو أحاسيسنا والأفكار التى تولدها .

وقد وضح كوندياك هذه الدعوى بمقارنة مشهورة ربما نقلها عن بوفون ، ولكنه نسب الفضل فيها إلى « مصدر وحيه » المتوفاة ، وهى الآنسة فيران التى أوصت له بميراث طوقت به عنقه . فصور لنا تمثالا من الرخام « نظم باطنه على غرارنا ، ولكن يحركه عقل تجرد من جميع الأفكار » (١٣٣) . وهو لا يملك غير حاسة واحدة هى حاسة الشم ، وفى استطاعته التمييز بين اللذة والألم . ثم عمد إلى أن يبين كيف يمكن أن تستقى جميع ألوان التفكير من أحاسيس هذا التمثال . فالحكم ، والتأمل ، والرغبات ، والانفعالات . الخ ليست غير أحاسيس تغيرت على أشكاله مختلفه (١٣٤) . فالانتباه يولد مع الإحساس الأول ، ويأتى الحكم مع الثانى ، مما يولد المقارنة مع الأول . والتذكر إحساس ماض أحياه إحساس حاضر أو تذكر آخر . والخيال ذكرى تتصور أو تربط . والرغبة فى الشىء أو النفور منه هى التذكر النشيط لإحساس لذيذ أو كريه . والتأمل هو تناوب الذكريات والرغبات . والإرادة رغبة قوية يرافقها فرض بأن الهدف ممكن بلوغه . والشخصية . أو الأنا ، أو النفس ، لا وجود لها أول الأمر ؛ فهى تتخذ لها شكلا بوصفها جماع ذكريات الفرد ورغباته (١٣٥) . وهكذا ، من حاسة الشم وحدها — أو من أى حاسة أخرى غيرها — يمكن أن تستنبط جميع عمليات الذهن تقريباً . فإذا أضفنا أربع حواس أخرى ، كون التمثال له ذهناً معقداً .

كل هذا كان جهداً ضخماً طريفاً ، أثار ضجة كبرى بين رجال الفكر فى باريس . ولكن النقاد لم يعسر عليهم أن يثبتوا أن طريقة كوندياك كان فيها من الاستنباط والفروض ما فى غيرها من مذاهب الفلسفة ، وأنه تجاهل مشكلة الوعى تجاهلا تاماً ؛ وأنه لم يبين لنا كيف نشأت الحساسية الأصلية . فالتمثال الحساس وإن اقتصرت حواسه على الشم ، ليس بتمثال ، إلا أن يكون ذلك الوجيه الذى قال ترجنيف فى وصفه إنه يقف فى كبرياء كأنه أثر لذكراه أقيم بالاكتتاب العام .

وفى ١٧٦٧ عين كوندياك مدرساً خاصاً للطفل الذى أصبح فيما بعد دوق بارما . فأنفق السنين التسع التالية فى إيطاليا وألف لتلميذه سبعة عشر مجلداً نشرت فى ١٧٦٩ — ٧٣ باسم « خطط دراسية » . وهى رفيعة المستوى ،

ولكن المجلدين اللذين تناولا التاريخ جديران بتحية خاصة لأنهما اشتملا على تاريخ الأفكار والعادات ، والمذاهب الاقتصادية ، والأخلاق ، والفنون ، والعلوم ، والملاهى ، والطرق — وهذا فى مجموعه يؤلف سجلا للحضارة أوفى مما سجله فولتير فى كتابه « مقالة عن الأعراف » . وفى ١٧٨٠ ، بناء على طلب الأمير أجناسى بوتوكى ، وضع كتاباً فى « المنطق » لمدارس لتوانيا . وكان هذا أيضاً كتاباً فذاً فى بابه . وفى تلك السنة مات مؤلفه .

ودام تأثير كونديلك قرناً ، فتجلى عام ١٨٧٠ فى كتاب تين « فى الذكاء » وكانت سيكولوجية كونديلك أساساً فى النظام التعليمى الذى وضعه المؤتمر الوطنى الذى حكم فرنسا من ١٧٩٢ إلى ١٧٩٥ . وقد اعترف له بفضل السبق مشرحون مثل فيك — دازير ، وكيميائيون مثل لافوازييه ، وفلكيون مثل لابلاس ، وأحيائيون مثل لامارك ، وأطباء عقليون مثل بينيل ، وسيكولوجيون مثل بونيه وكابانى . وقد وصف بيير جان جورج كابانى الدماغ فى ١٧٩٦ بأنه « عضو خاص وظيفته الهامة أن ينتج الفكر كما أن للمعدة والأمعاء وظيفة خاصة هى مواصلة عملية الهضم ، والكبد وظيفته هى ترشيح الصفراء » (١٣٦) . وقد تجاهل « الفلاسفة » الذين أحاطوا بكونديلك تصريحاته بالايمان بالله ، وحرية الإرادة ، والروح الخالدة غير المادية ، وزعموا أن فلسفة طبيعية ، نصف مادية ، مؤمنة بمذهب اللذة ، كانت النتيجة المنطقية لرده المعرفة كلها إلى الإحساس ، والبواعث كلها إلى اللذة والألم . وقد خلص روسو وهلفتيوس إلى أنه ما دام ذهن الإنسان عند مولده عبارة عن قدرة على الاستقبال لا أكثر ، إذن فى استطاعة التعليم أن يصوغ الذكاء والخلق دون كبير نظر إلى الفروق الوراثية فى القدرة العقلية . هذا كان الأساس السيكولوجى لكثير من الفلسفات السياسية المتطرفة .

ولم يأت الانتقاض على السيكولوجية المادية فى فرنسا إلا بعد أن قلم نابليون أظافر الثورة ووقع اتفاقية ١٨٠١ مع الكنيسة (الكونكوردا) . وقد بكر هذا الانتقاض فى ألمانيا ، حيث كان التقليد المضاد للمذهب الحسى (وهو التقليد الموروث عن لايبنتس) لا يزال قوياً وهاجم رجال كيوهان نيكولاوس تيتنز الأستاذ بجامعة روستوك ، مدرسة كونديلك زاعماً أن

أتباعها مجرد منظرين لا علماء . فكل هذا الحديث عن « التموجات » و « السائل العصبى » إنما هو محض افتراض ؛ فهل رأى أحد هذه الأشياء ؟ وزعم تيتنز أن السيكولوجية العلمية تستهدف الملاحظة المباشرة للعمليات الفعلية ، وتجعل الاستبطان أداتها الرئيسية . فتبنى بذلك سيكولوجية على أساس استقرائى بحق . وستجد بعد قليل أن « قوانين الترابط » التى صاغها هوبز ، ولوك ، وهارتلى ، لا تتفق وخبرتنا الفعلية ؛ وأن الخيال كثيراً ما يحيى أو يربط الأفكار فى ترتيب يختلف تمام الاختلاف عن الترتيب الذى أعطاه إياها الإحساس ، وأن حلقات فى سلسلة الترابط تسقط أحياناً على نحو غريب جداً . ويبدو أن الرغبة هى الحقيقة المحايثة (الباطنة) للكائن الحى ، وأنها لا تتفق غالباً مع القوانين الميكانيكية . والذهن قوة نشيطة مشكلة ، لا « صفحة بيضاء » ، يخط الإحساس عليها إرادته .

وهكذا هيىء المسرح لإيمانويل كانط .

١٠ — تأثير العلم على الحضارة :

إذا كان هذا الفصل قد طال أكثر من العادة رغم ما يشوبه من نقص فليس السبب أننا اعتبرنا العلماء وعلمهم منتمين إلى التاريخ فحسب ، بل إن تطور الأفكار أيضاً هو موضع اهتمامنا الأساسى ، وأن الأفكار لعبت دوراً فى القرن الثامن عشر لا يفوقه أهمية غير طبيعية الإنسان نفسه . وإذا كانت منجزات العلم فى تلك الحقبة الثورية لا تبلغ فى إدهاشها مبلغ نظائرها فى القرن الذى سبقها من جاليليو إلى ديكارت إلى نيوتن وليبنتس ، فإنها تغلغلت تغللا أقوى فى كل منحى تقريباً من مناحى التاريخ الأوربى . فبفضل فولتير وعشرات المفسرين الأقل منه شأناً نشرت نتائج البحث فى الطبقتين الوسطى والعليا ، وشاركت العلوم الجديدة — علوم الكيمياء ، والجيولوجيا ، والحيوان — فى التأثير البطىء ، العميق رغم بطئه ، الذى أثرت به المعرفة المتسعة على الذهن المثقف ، وكانت النتائج بغير نهاية .

والعجيب أن تأثير العلم كان أقله ، وآخره ، على التكنولوجيا . ذلك أن طرائق البشر فى الزرع والحصاد ، وفى التعدين والصناعة ، وفى البناء والنقل ،

كلها تكونت خلال قرون من التجربة والخطأ ، ولم تتقبل التقاليد والجمود التحسينات التى اقترحتها التجارب المعملية إلا على مضض . ولم يفلح العلم فى التعجيل بالثورة الصناعية إلا فى نهاية هذا العصر . وحتى مع هذا البطء فإن المراحل الأولى لتلك الثورة دانت ديناً كبيراً للأبحاث الكيميائية على الأصباغ ؛ فقد أرسى برتولليه (١٧٨٨) استعمال الكلورين فى تبييض المنسوجات . وأدخل جيمس هتن ونيكولا ليلان تصنيع الصودا وملح النشادر . وشاركت دراسة بوبل وماريوت للغازات ، ودراسة بلاك للحرارة ، فى تطوير الآلة البخارية — الذى كان أكبر الفضل فيه على أية حال للميكانيكيين المهتمين بالأمر آنئذ . وبتقدم القرن نمت علاقة أوثق بين الرجال العمليين الذين ينشدون الإنتاج ، والعلماء الذين ينشدون الحقيقة . وأوفدت أكاديمية باريس للعلوم باحثين إلى الحقول ، والمصانع ، والورش ، وأصدرت عشرين مجلداً فى « أوصاف الفنون والصنائع » (١٧٦١ — ٨١) . ولقاء هذا بدأت الصناعات الوليدة تلجأ إلى العلم طلباً للمعلومات والتجارب ؛ وهكذا اختزل كولومب جهد العوارض إلى صيغ يعتمد عليها ، وحفزت مشكلات الآلة البخارية العلم إلى أبحاث جديدة فى العلاقة بين القوة والحرارة . وقد قدر لهذه العلاقات فى القرن التاسع عشر أن تغير العالم الاقتصادى والفزيائى .

أما الأثر الأكبر للعلم فكان بالطبع على الفلسفة ، ذلك أن الفلسفة ، وهى البحث عن الحكمة ، لابد أن تقوم على العلم ، وهو البحث عن المعرفة . وقد بدا فى كل خطوة أن العلم يزيد العالم تعقيداً واتساعاً ، وكان لابد من تكوين منظورات جديدة . ولم يكن بالتكيف اليسير ذلك الذى كان على العقل البشرى أن يتكيفه بعد أن اكتشف أن الإنسان ليس مركز الكون ، بل ذرة ولحظة فى اتساعات الفضاء والزمان غير المحدودة والمحيرة ؛ ولم يتم ذلك التكيف إلى الآن . وباستجابة متعالية ، قديمة قدم كوبرنيف ، كاد الإنسان يغلبه الغرور بعظمة كشفه عن ضآلته ، وحجبت خيلاء العلم تواضع الفلسفة ؛ وتخيل الناس عوالم مثالية جديدة بلغة العلم ، وقدمت فكرة التقدم ديناً جديداً للنفس الحديثة .

وبدا أن تأثير العلم على الدين — أو على الأصح على المسيحية — مميت . إن الناس كانوا سيمضون ولا ريب فى تكوين ، أو تحبيذ ، مفاهيم عن العالم تمنح الأمل والعزاء ، والمغزى والكرامة ، للنفوس المعذبة القصيرة الأجل ؛ ولكن كيف تستطيع ملحمة المسيحية عن الخليقة ، والخطيئة ، والفداء الإلهى ، أن تثبت فى منظور اختزل هذه الأرض إلى ذرة وسط مليون من النجوم ؟ وما هو الإنسان حتى يذكره إله كون كهذا ويعنى به ؟ وكيف يستطيع شعر سفر التكوين أن يثبت لكشوف الجيولوجيا ؟ وما الرأى فى الأديان العشرة أو تزيد ، التى تدين بها أقطار كشفت عنها الجغرافيا ؟ — أهى منحطة انحطاطاً لاريب فيه عن المسيحية من حيث عقائدها ونواميسها ونتائجها الأخلاقية ؟ وكيف يمكن التوفيق بين معجزات المسيح ، فضلا عن المعجزات التى ينسبها الكثيرون للقديسين والشيطان ، وبين ما يبدو من سيادة ناموس الكون ؟ وكيف يمكن أن تكون نفس الإنسان ، أو عقله ، خالداً إذا كان معتمداً هذا الاعتماد على الأعصاب وغيرها من الأنسجة الواضح أن مصيرها الفناء ؟ وما الذى لا مناص من حدوثه للدين الذى يتحداه على هذا النحو علم ينمو يوماً بعد يوم فى رقعته ومنجزاته ومكانته ؟ وما الذى لا مناص من حدوثه لحضارة قائمة على ناموس أخلاقى قائم على ذلك الدين ؟

* * *

الفصل السابع عشر

الطب

١٧١٥ — ٨٩

١ — التشريح والفسيولوجيا

ثم هناك أثر العلم فى الطب . فقد ارتبط فن التطبيب بتحسن الميكروسكوب والترمومتر ، وظهور الكيمياء والأحياء ، وأهم من ذلك كله المعرفة المتقدمة بتشريح وفسيولوجيا الإنسان والحيوان . وكان معظم الأبحاث فى التشريح والفسيولوجيا من عمل الأطباء أنفسهم .

وكان جوفانى باتيستا مورجانى إنموذجا من الأطباء الكثيرين الذين جعلوا من الطب علما باحتفاظهم بسجلات أكلينية للحالات التى جاءتهم للعلاج . ففحص سبعمائة من هذه الحالات خلال الفترة التى عمل فيها باخلاص ممارسا للطب وأستاذا له فى بادوا . وفى عامه الثمانين (١٧٦١) روى ملاحظاته فى سبعين رسالة أرست أساس التشريح الباثولوجى : « فى مواطن العلل وأسبابها كما بحثها التشريح » هنا ساق أوصافا عملية لانسداد القلب ، والضمور الأصفر للكبد ، وعمل الكلى ، وربط بين العلامات الاكلينكية للالتهاب الرئوى وتصلب الرئتين ، وأضاف اضافات هامة لمبحث القلب يقول السر وليم أوزلر « ما زال الجزء الخاص بالتمدد الوعائى للأورطى من أفضل ما كتب فى هذا الباب . » « وهل من وصف أدق من وصفه للذبحة [الصدرية ؟ » [١] وحصر موطن كل دواء الآن بوضوح أكثر من أى وقت مضى ، فى تغيرات مرضية تعرو أعضاء بعينها . واعجبت المستشفيات بعمل مورجانى ، فزودته ومعاونيه — دون معارضة من الكنيسة أو الدولة — بجثث الموتى من جميع طبقات المجتمع ، حتى النبلاء ورجال الكنيسة ؛ وأعرب أفراد كثيرون حباً فى النهوض بالعلم ، عن رغبتهم فى أن يفحص مورجانى جثثهم بعد موتهم [٢] . وقد أجرى التجارب على الحيوانات ، دون أن يلقى هنا أيضا أى احتجاج من الكنيسة .

وواصل التدريس حتى بلغ التسعين . وفى ١٧٦٤ ، حين كان فى الثانية والثمانين ، روى أنه « ينعم بعافية ابن الخمسين ، ولا يزال يعمل دون استعانة بنظارات . »[٣] وقد لقبه طلابه فى فخر برئيس المشرحين فى أوروبا كلها . وفى ١٩٣١ أقامت له بلدته « فورلى » نصبا تذكاريا فى الميدان الذى يحمل اسمه .

وأصبح تلميذه انطونيو سكاربا أستاذا للتشريح فى مودينا وهو بعد فى العشرين . فلما رقى لكرسى التشريح فى بافيا حين بلغ السادسة والثلاثين (١٧٨٣) شارك سباللا نتسانى وفولتا فى دفع تلك الجامعة إلى مكانة مرموقة بين جامعات أوربا . واكسبته الشهرة الدولية درساته التشريحية على الأذن والأنف ، والأقدام ، والأعصاب ، وظل كتابه « ملاحظات على أمراض العيون الرئيسية » (١٨٠١) عشرات السنين الكتاب الجامعى العمدة فى الرمد . أما فيلكس فيك دازير ، الذى كان يصغر سكاربا بسنة واحدة فقط ، فقد درس التشريح المتارن للطيور ، وذوات الأربع ، والإنسان . وأظهرت نتائجه تشابها غريبا مفصلا فى بنية الأطراف فى البشر والحيوانات ، وأسهمت فى وضع الإنسان فى مكانه البيولوجى . وقد مات فى السادسة والأربعين (١٧٩٤) قبل أن يتم عملا أوصل تشريح الدماغ إلى ذروته فى القرن الثامن عشر .

وفى بريطانيا العظمى أضفى الاخوان هنتر ، والمولودان فى سكتلندة ، مزيداً من البهاء على حركة التنوير الاسكتلندية بعملهما فى التشريح والجراحة . فأحدثت محاضرات وليم ثورة فى تدريس التشريح فى لندن ، حيث تعطلت هذه الدراسة طويلا من جراء القيد المفروض على توافر الجثث . وقد زاع صيته لكشفه الخطير (١٧٥٨) للوظيفه الماصة للأوعية [illegible] ولتأليفه كتابا من عيون الكتب يسمى « تشريح الرحم الحامل » ([illegible]) ، ولطبعه النارى ، الذى علله بأنه ، وهو المشرح [illegible] الجثث له خضوعا سلبيا »[٤] ومات فى ١٧٨٣ وقد بلغ الخامسة والستين إثر إعياء أصابه فى إحدى محاضراته . وقد أوصى بمجموعته التشريحية الكبرى لجلاسجوا ، حيث ما زال محتفظا بها فى متحف هنتر .

أما أخوه جون هنتر فقد ولد بعده بعشر سنوات ، ومات بعده بعشر أيضا . وحين بلغ الحادية والعشرين (١٧٤٩) كان قد حصل من العلم ما أهله للاضطلاع بصف وليم فى التشريح العملى . وبينما كان يعمل مع أخيه ، حل مشكلة سقوط الخصيتين عند الجنين ، وتتبع دورة المشيمة وتشعبات الأعصاب الأنفية والشمية ، واكتشف القنوات الدمعية ، وقام بدور رائد فى عرض وظائف القنوات اللمفاوية . وفى السابعة والعشرين دخل أكسفورد ، فلما وجد اللاتينية واليونانية أشد مواتا من جثث الموتى ، ترك الكلية والتحق بالجيش جراحا . وتعلم الكثير فى أثناء الخدمة العاملة فى الخارج عن جراح البارود ، فخلف بعد موته رسالة قيمة فى الموضوع . وقد مارس الجراحة وعلمها عند رجوعه إلى إنجلتره ، وواصل أبحاثه فى التشريح والفسيولوجيا . وفى ١٧٦٧ أصيب بحادث مزق له « أربطة أخيل » (التى تربط عضلات سمانة الساق بالعقب) . ومن مشاهداته عن نفسه آنئذ ، ومن تجاربه على الكلاب ، توصل إلى جراحة ناجحة للأقدام المشوهة وغيرها من التشوهات التى تصيب الأربطة فيما تصيب . وحدث أنه حقن نفسه بالزهرى عن غير قصد ، فأرجأ علاجه ريثما يدرس المرض من خبرته الشخصية[٥] ، على أنه أخطأ فى اعتباره الزهرى والسيلان مرضا واحدا . وأثبت بالتجربة أن الهضم لا يحدث فى الأفاعى والسحالى أثناء إسباتها . وجمع لأبحاثه فى بيته ببرومتن معرضا غريبا للوحوش ، فيه الديوك البرية ، والحجل ،وضفادع البر ،والسمك ، والأوز ، والقنافذ ، وديدان القز ، والنحل ، والدبابير الكبيرة والصغيرة ، ونسر ، وفهدان ، وعجل . وكاد يفقد حياته فى صراعه مع العجل ومحاولته القبض على الفهدين الهاربين . وقد شرح نيفا وخمسمائة نوع من الحيوان . ودرس آثار مختلف السموم ، واعترف فى ١٧٨٠ بأنه « سمم بضعة آلاف من الحيوان » .

وفى ١٧٨٥ جلس إلى رينولدز ليرسمه ، ولكنه كان كثير الحركة والتململ أول الأمر . وأوشك السر جوشوا أن يعدل عن تصويره ، حين أخذت هنتر سنة من أحلام اليقظة عميقة ساكنة مكنت المصور من تخطيط اللوحة المعروضة الآن فى كلية الجراحين الملكية . وكان جون كأخيه صاحب

طبع نزق عات . وقال حين وجد نفسه عرضة للذبحة الصدرية « أن حياتى فى يد أى وغد يطيب له أن يضايقنى ويغيظنى » [٦] وحدث أن أحد زملائه ناقضه ، فاستشاط غضبا ، ولم يلبث أن فارق الحياة بعد دقائق (١٧٩٣) ، ودفن فى ديروستمنستر بجوار رفات بن جونسن . وقد حصل اتحاد الجراحين ، بفضل منحة من الحكومة ، على مجموعته المحتوية على ثلاثة عشر ألف عينة ، وأصبحت المجموعة فى ١٨٣٦ متحف هنتر اللندنى . و « الخطاب الهنترى » الذى يلقى فى ذكراه واقعة سنوية فى عالم الطب الانجليزى .

أما الفسيولوجيا فإن أعظم أعلامها فى هذه الحقبة هو ألبرشت فون هاللر وقد التقينا به شاعرا فى شبابه ، وفى سنواته اللاحقة وضع نفسة على رأس علماء الفسيولوجيا بكتابه « أصول فسيولوجية جسم الانسان » الذى صدر فى ثمانية مجلدات بين عامى ١٧٥٧ و ١٧٦٦ . ولم تقتصر هذه الأسفار على تسجيل ما توافر يومها من علم بتشريح الإنسان وفسيولوجيته ، بل شملت كذلك كشوفه عن دور الصفراء فى هضم الذهنيات ، وعن قابلية ألياف العضلات للتهيج أو التقلص مستقلة عن الأعصاب ، لا بل عقب فصلها عن الجسد . وخلص ديدرو من هذه التجارب وأمثالها إلى أنه « إذا كانت الحياة باقية فى أعضاء فصلت عن الجسد ، فأين هى النفس إذن ؟ وما الذى يحدث لوحدتها ؟ ... ولعدم قابليتها للانقسام ؟ » [٧] وزعم بناء على هذه الشواهد أن جميع العمليات الفسيولوجية ميكانيكية . وخالفه هاللر ، ففى رأيه أن قابلية النسيج العضوى للتهيج دليل مبدأ حيوى لا يوجد فى المواد غير العضوية ولا يتفق والفلسفة الميكانيكية . وأظهر المزيد من درسات هاللر أن « بنية عظام ذوات الأربع فى جوهرها واحد هى وبنية الطيور » وأن « العظام فى الانسان لا تختلف فى أى جزء من أجزاء بنيتها عن عظام ذوات الأربع » [٨] وفى ١٧٥٥ قام بأول ملاحظة مدونة لمرض التصلب السنبلى ، أى تراكم الدهن اللين فى جدران الأوعية الدموية . يقول السر وليم فوستر « حين نفتح صفحات هاللر نشعر أننا انتقلنا إلى العصور الحديثة » [٩] .

وأيدت أبحاث أخرى الرأى الميكانيكى . فتبين رورت هويت (١٧٥١) أن الأفعال المنعكسة لا تحتاج لأن يشارك فيها غير قطاع صغير من الحبل الشوكى . وبدا أن عمل برستلى ، ولا فوزييه ، ولا بلاس ، ولا جرانج ، يختزل النفس إلى عمليات كيمائية شبيهه بالاحتراق . وأثبتت تجارب ريامور (١٧٥٢) أن الهضم ينشأ عن الفعل الكيميائى للعصارات المعدية ، وأثبت سبا للانتسانى (١٧٨٢) أن هذا الفعل — فعل العصارات الهضمية — على الطعام يمكن أن يستمر حتى خارج المعدة ، واكتشف جون هنتر أن هذه العصارات تبدأ بعد الموت فى هضم جدار المعدة ذاته .

وكان سبااللانتسانى من أساطين فسيولوجية القرن الثامن عشر وقد رأينا تجاربه على التولد « الذاتى أو التلقائى » ، ولم يكن اهتمامه بعملية الهضم يعرف حدودا . فقد اكتشف الوظيفة الهضمية للعاب . وأجرى التجارب على نفسه بالقيء المصطنع ، وبابتلاع الأكياس والأنابيب ، التى استعادها بصبر من برازه . وكان أول من بين أن التقلص الانقباضى للقلب يرسل الدم فى أصغر الشعيرات . وبين أن العرق ليس شبيها بالتنفس ، ولكنه يستطيع إلى حد ما أن يحل محل الشهيق . وأصبح حجة فى الإخصاب رغم أنه رئيس دير . وقد وجد أنه إذا غطيت أعضاء الذكورة فى ضفدع بقماش مغموس فى الشمع ظلت أنثاه دون إخصاب بعد الجماع ولكن حين جمع سائل الذكر من القماش ووضعه ملتحما ببيض الأنثى أصبحت مخصبة . وحصل على الأخصاب الصناعى فى الثدييات بحقنه منى كلب فى رحم كلبة [١١] . وقد قدر القرن العشرون فى نهاية المطاف مدى تجاربه التى لم يعترها كلل ، وأدرك مغزاها ، واعترف به كاهنا من الصفوة المختارة فى كهنوت العلم .

٢ — دهاء المرض

ولكن ، هل هزم نمو المعرفة سعة حيلة المرض ؟ كلا . لقد قدر فولتير متوسط عمر الانسان فى عصره باثنتين وعشرين سنة [١١] وكان من

أثر الاحياء الفقيرة المزدحمة في المدن النامية ارتفاع نسبة الوفيات في الأطفال ، حتى بلغت أحيانا خمسين في المائه [١٢]. وفي لندن كان ثمانية وخمسون في المائة من جميع الأطفال يموتون قبل أن يبلغوا الخامسة [١٣] وشاعت على نطاق واسع عادة ترك الأطفال حديثي الولادة . وفي السنوات الثمان بين عامي ١٧٧١ و١٧٧٧ أدخل قرابة ٣٢,٠٠٠ طفل إلى مستشفى اللقطاء بباريس — بمعدل تسعة وثمانين يوميا ، ومن هؤلاء الرضع مات ٢٥,٤٧٦ (أي ثمانون في المائة) قبل أن يتموا ربيعهم الأول . وأعان على زيادة وفيات الأطفال في القرن الثامن عشر انتشار الرضاعة الجافة — أي احلال البزازة محل ثدي الأم أو المرضع وقد قدر السر هانز سلون نسبة الوفيات في الرضاعة الصناعية بثلاثة أضعاف نسبتها في أطفال الرضاعة الطبيعية . وراجت الطريقة الجديدة على الأخص بين الطبقات الراقية في فرنسا ، إلى أن أشاع كتاب روسو « أميل » (١٧٦٢) موضة الرضاعة من الثدي . واستمر الإجهاض ومنع الحمل . واستعمل القراب من القماش — الذي أوصى به فالوبيو في ١٥٦٤ للوقاية من عدوى الأمراض التناسلية — في القرن الثامن عشر لمنع الحمل [١٤]. وقد ورد في كتاب الدكتور جان استروك « في الأمراض التناسلية » (١٧٣٦) ذكر الزناة الذين « استعملوا حينا أكياسا من نسيج رقيق من قطعه واحدة على شكل قراب . تسمى بالانجليزية Condum [١٥] » وأصدرت امرأة تدعى المسز فلبس في ١٧٧٦ إعلانات يدوية في لندن أذاعت أن في حانوتها كمية وافرة من « أسباب الأمان التي تكفل صحة زبائنها » [١٦] . ولكن الأمراض التناسلية اقتضت الضحايا من كل طبقة رغم هذه « الآلات » كما كانت تسمى ... وقد كتب اللورد تشسترفلد إلى ولده محذرا منها « ففي الحب قد يضيع الرجل قلبه ويحتفظ بكرامته ..... أما إذا ضيع أنفه فإنه يضيع معه سمعته » [١٧] .

ويصعب علينا — نحن الذين نعيش بعد جنر — أن نتصور أي لعنة ابتلي بها الجدري البشر قبل أن يهدي هذا الطبيب العالم الغربي إلى التطعيم. ولقد حسب فولتير أن « من بين مائة شخص يولدون ، يصاب ستون على الأقل بالجدري ، ومن هؤلاء الستين يموت عشرون . . . وعشرون

آخرون يحتفظون بندوب كريهة لهذا المرض القاسي تلازمهم مدى الحياة »[١٨]
وبين عامي ١٧١٢ و١٧١٥ مات بالجدري ثلاثة من ورثة العرش الفرنسي.
وقد ذهب الأمير دلين إلى أن ٠٠٠ ر ٢٠٠ من نزلاء ديورة النساء والرجال
لجأوا إليها هرباً من ذل التشوه الذي أصابهم به الجدري .[١٩] واستفحل
المرض حتى بلغ درجة الوباء في باريس في ١٧١٩، وفي السويد في ١٧٤٩ — ٦٥ ، وفي فيينا في ١٧٦٣ و ١٧٦٧ ، وفي تسكانيا في ١٧٦٤ ، وفي
لندن في ١٧٦٦ و ١٧٧٠ .

وكانت الأوبئة الآن، بصفة عامة . أخف وطأة منها في القرون السابقة،
ولكنها ظلت أحد الأخطار التي تهدد الحياة . وكانت أشد هولا في الريف
منها في المدن ، رغم ما في هذه من أحياء فقيرة مزدحمة ، لأن الفلاحين
كانوا أعجز من أن يدفعوا ثمن الرعاية الطبية . وقد قتلت أوبئة التيفوس ،
وحمى التيفود ، والجدري ، ثمانين ألف شخص في برتني في سنة واحدة
(سنة ١٧٤١) .[٢٠] وفي ١٧٠٩ قضى الطاعون الدملي على ٠٠٠ ر ٣٠٠
شخص في بروسيا ، وعاد ظهوره بشكل أخف في أوكرانيا في ١٧٣٧ ،
وفي موسكو في ١٧٨٩ وكانت الحمى القرمزية ، والملاريا (mal aria
أي الهواء الفاسد) والدوزنتاريا أمراضا شائعة ، لا سيما بين الطبقات الدنيا ،
حيث أعانها على الانتشار الافتقار إلى حفظ الصحة للعامة والصحة الشخصية .
وأصيبت باريس ، ودبلن ، وأبردين ، وتورجاو ، وبرن ، بأوبئة من
حمى النفاس المعدية . أما الانفلونزة ، التي سماها الفرنسيون La grippe
(الالتصاق) فقد بلغت مرحلة الوباء في فترات مختلفة في إيطاليا ، والسويد،
وألمانيا . وكانت بين الحين والحين تقضي إلى شلل الأطفال ، كما حدث
للصبي الذي أصبح فيما بعد السر ولتر سكوت . وأشرف الالتهاب الرئوي ،
والدفتريا ، والحمرة ، أحيانا على مستوى الأوبئة . وكان السعال الديكي ،
الذي يبدو الآن قليل الشأن ، واسع الانتشار وخطرا ، لا سيما في شمالي
أوربا ، ففي السويد مات به أربعون ألف طفل بين عامي ١٧٤٩ و١٧٦٤.
ووفدت الحمى الصفراء من أمريكا ، وانتشرت حتى أصبحت وباء في
لشبونة عام ١٧٢٣ . وإلى هذه العلل وعشرات غيرها أضافت نساء الطبقات

العليا مرضا سمـــوه « the vapors » وهو مزيـج مضــطرب من الإرهاق العصبي ، والوهم ، والأرق ، والسأم ، يتفاقم أحيانا حتى يبلغ درجة الهستريا .

ولمقاومة هذه الأعداء العامة اتخذت الحكومات بعض التدابير لحفظ الصحة . ولكن القمامة كانت لا تزال فى أكثر الحالات تفرغ فى الشوارع . وظهرت المراحيض فى باريس فى مطلع القرن ، ولـكن فى بعض البيوت فقط ، ولم تـكن توجد إطلاقا فى غير باريس من بلاد أوربا . وكانت الحمامات ترفا يختص به الأغنياء . ولعل الحمامات العامة كانت أقل عددا منها أيام النهضة الأوربية . وأحرز حفظ الصحة فى الجيوش والبحريات تقدما أكثر منه فى المدن . ونهض السر جون برنجل بالطب الحربى (١٧٧٤) ، وأحدث الاسكتلندى جيمس لند ثورة فى حفظ الصحة البحرية (١٧٥٧) . وخلال بعثة آنسن سنة ١٧٤٠ كان الاسكربوط أحيانا يعجز نحو خمسة وسبعين فى المائة من الملاحين . وقرر لند فى رسالة خطيرة عن هذا المرض (١٧٥٤) أن عصير البرتقال أو الليمون تداوى به الهولنديون منه فى ١٥٦٥ واستعمله السر رتشرد هوكنز فى ١٥٩٣ ، وقد أدخل هذا الدواء الواقى بنفوذ لند إلى البحرية البريطانية (١٧٥٧) . ولم تـكن فى رحلة كوك الثانية التى امتدت أكثر من ثلاث سنين (١٧٧٢ — ٧٥) ، إصابات مميتة بالاسكربوط غير إصابة واحدة . وفى ١٧٩٥ تقرر استعمال العصير أو الفواكه الحمضية اجباريا فى البحرية البريطانية (ومن هنا اطلاق كلمة Limey على الجندى أو البحار البريطانى) ، وبعد هذا ختفى مرض الاسكربوط البحرى .

وكان من معالم إنسانية القرن الثامن عشر البارزة ، أن يضع فـكتور ركيتى ، مركيز ميرابوا ، مبدأ (١٧٥٦) مؤداه أن صحة الشعب مسئولية تقع على عاتق الدولة . وقد اقترح يوهان بيتر فرانك نظاما كاملا للخدمة الصحية العامة فى كتابه « نظام كامل للرقابة الطبية العامة » (١٧٧٧ —٧٨) ، وكان قد بدأ حياته طفلا فقيرا ملقى على عتبة بيت . وهذه المجلدات الأربعة — هذه « الذكرى النبيلة للولاء للإنسانية امتد طول العمر » [٢١] — وصفت

التدابير التى ينبغى لأى مجتمع مدنى أن يتخذها للتخلص من النفايات ، وللحفاظ على نقاء الماء والطعام ، ولصيانة الصحة فى المدارس والمصانع ، ولحماية صحة النساء فى الصناعة . وزاد الطبيب على هذا أن أوصى بفرض الضرائب على العزاب ، وبذل النصيحة للأزواج لحفظ صحتهم ، وطالب بتعليم الأطفال مبادئ الصحة . وكان نابليون أحد الذين قدروا أفكار فرانك ، فرجاه أن يأتى ويخدم فى باريس ، ولكن فرانك بقى فى فيينا .

وأما المستشفيات فقد تخلفت كثيراً عن واجب الاهتمام المنظم بالمرض . فقد ازداد عددها . ولكن جودتها هبطت . وضاعفت إنجلترا على الأخص من مستشفياتها فى القرن الثامن عشر ، ولكن كلها كان يعتمد على التبرعات الخاصة دون منحة من الدولة . [٢٢] وفى باريس تلقى أكبر مستشفياتها المسمى الأوتيل ديو ١٧٨ر٢٥١ مريضاً فى السنوات الإحدى عشرة بين ١٧٣٧ و ١٧٤٨ ، مات منهم ٠٩١ر٦١ . وقد أفضى التهافت على « منزل الله » هذا — كما سموه — إلى حشد ثلاثة أشخاص أو أربعة أو خمسة أو حتى سته فى فراش واحد ، « فكان المحتضرون والناقهون يرقدون جنبا إلى جنب . . . وكان الهواء ملوثا بالافرازات المنبعثة من هذا العدد العديد من الأجساد المريضة » . [٢٣] وكان من بين الأعمال الخيرة الكثيرة التى قام بها لويس السادس عشر فى ١٧٨١ أمره بأن « يخصص سرير مستقل لكل من ٥٠٠ر٢ مريض ، وأن ينام خمسمائة مريض على أسرة مزدوجة يفصلها حاجز » ، وأن تخصص حجرات للناقهين . [٢٤] ومع ذلك لم يكن بالمستشفى بعد سبع سنوات من الأسرة المنفردة سوى ٤٨٦ ، واحتوى ٢٢٠ر١ سريرا أربعة مرضى أو أكثر ، ورقد ثمانمائة مريض على القش . [٢٥] وفى فرانكفورت — على — المين وغيرها من المدن كان الهواء فى المستشفيات من الوخم بحيث « رفض الأطباء الخدمة فى المستشفيات باعتبارها معادلة لحكم بالإعدام » [٢٦] .

٣ - العـــلاج

واجترأ بعض الأطباء على تقويض مواردهم بنشر المعرفة بالطب الوقائى . من ذلك أن الدكتور جون آربثنوت اللندنى زعم فى « مقال عن طبيعة الأمراض » ، (١٧٣١) أن نظام التغذية يفعل كل ما فى وسع الطب أن يفعله . وقد تنبأ بأمراض المستقبل فى رسالة تسمى « ثمن صيانة الصحة » (١٧٤٤) . وتحسن تعليم طلاب الطب تحسينا بطيئاً ، مع احتفاظ الجامعات الإيطالية (بادوا ، وبولينا ، وبافيا ، وروما) بمكان الصدارة ، وفيينا ، وباريس ، ومونبلييه ، بالمكان التالى ؛ ولكن حتى فى هذه الجامعات لم يكن هناك أكثر من أربعة أساتذة أو خمسة . وكان كل مدرس يجمع المصروفات الجامعية للمقرر الذى يدرسه ، ويصدر تذاكر دخول ، أحيانا على ظهر ورق اللعب . [٢٧] وبدأت بعض المستشفيات الآن تعلم الطب الاكلينيكى . وكانت الممارسة القانونية للطب أو التوليد تتطلب دبلوما من معهد معتمد .

وكما أن نظرية جيورج شتال عن النار باعتبـارها « فلوجستونا » تسلطت على الكيمياء فى القرن السابق للافوازييه ، فكذلك تسلطت فكرته عن « حيوية المادة animism » على الطب . فقد رفض نظرة ديكارت إلى الجسم على أنه جهاز ميكانيكى ، وصور النفس على أنها أصل لا مادى للحياة يشكل الجسم بوصفه أداته . وبناء عليه ، رأى أن الطبيعة ، فى صورة قوة الحياة هذه ، هى العامل الأهم فى شفاء العلل ، وما المرض إلا جهد من « الروح الحية anima » لاسترداد الصحة ، والفعالية ، والانسجام الطبيعى للأعضاء المضطربة ؛ وارتفاع درجة الحرارة وسرعة النبض وسيلتان تلجأ إليهما الطبيعة للتغلب على المرض ، والطبيب الحكيم من يعتمد أول ما يعتمد على عمليات التخلص الذاتى من السموم ، ويكره استعمال العقاقير . ولكن شتال ترك سؤالا بغير جواب ، وهو ما السبب فى الاضطراب . ومن الأجوبة جواب قدمه ماركوس انطونيوس باينكتس ، الذى بعث فى ١٧٦٢ رأى اثناسيوس كيرشر فى أن المرض راجع إلى عدوى بكائن دقيق . فقال إن لكل مرض كائنا مغيرا خاصا به ، له فترة حضانة محدودة .

على أن هذه البصيرة الممتازة بنظرية الجراثيم لم تترك طابعا على طب القرن الثامن عشر العلاجي ، وكان لا بد من بعثها مرة ثانية فى القرن التاسع عشر.

واقترحت بعض طرق التشخيص الجديدة ، فدعا ستيفن هيلز إلى قياس ضغط الدم ، وادخل ليوبولد أوينبروجر النقر على الصدر وسيلة لتبين السائل فى القفص الصدرى . وطور اسكتلنديان ، هما جون مارتن وجيمس كرى ، استعمال الترومتر الاكلينيكى .

وتنافست العقاقير ، والجراحة ، والشعوذة ، على مال المريض . وظل الفصد الدواء الذى يصلح لكل الأدواء ، وقد قدر طبيب فى ١٧٥٤ أن أربعين ألف شخص يموتون كل عام فى فرنسا من جراء الإفراط فى الحجامة . [٢٨] وفى أخريات القرن تصاعدت الاحتجاجات على هـــذا الدواء ووجدت لها صوتا فعالا فى كتاب ولشتين « تعليقات على الفصد » وتكاثرت العقاقير . وقد نبذت فارماكوبيا لندن الرسمية الصادرة فى ١٧٤٦ الوصفات المؤلفة من نسيج العنكبوت ، وقرون الثور الوحشى ، ولبن العذراء ، ولكنها احتفظت بالترياق ، وعيون السرطان ، وقمل الصوف والأفاعى ، واللآلىء ، زعما منها أنها توافف مزائج شافية . وقد أعطت فارماكوبيا عام ١٧٢١ صفة رسمية لصبغ الأفيون الكافورى (paregoric) وعرق الذهب المقيئ (الابيكاك) ، ومقيئ الطرطير ، وروح النشـــادر الطيار ، وغيرها من العقاقير الجديدة ؛ وأضافت طبعة ١٧٤٦ الفالريانا ، وروح النترات الطيب ، و « البلسم » (صبغة الجاوى) ؛ واعتمدت طبعة ١٧٨٨ الازنيكا ، والعشبة ، والقشيرة ، والمانزيا ، وصبغة الأفيون . . . وبدأ استعمال زيت الخروع فى أوربا الحديثة حوالى ١٧٦٤ ، والزرنيخ حوالى ١٧٨٦ ، وادخل اللحلاح (الكولشيوم) علاجا للنقرس فى ١٧٦٣ وتعلم غلام من شروبشير يدعى وليم وذرنج من جدة عجوز أن كف الثعلب (الديجيتال) مفيد للاستسقاء . وقد ظفر بمكان مرموق فى تاريخ الطب باكتشافه فائدته فى أمراض القلب (١٧٨٣) . وكان كثير من مشاهير الأطباء يصنعون عقاقيرهم ويبيعونها ، ويتقاضون الأتعاب على تذاكرهم

الطبية لا على عيادتهم لمرضاهم . وأثرى أفراد من « الأدوية المملوكة لأصحابها » — المركبة من وصفات سرية مسجلة . وهكذا ابتلعت إنجلترة أطناناً من « إكسير ستوتن » و « زيوت بتن البريطانية » و « حبوب هوبر للنساء » و « أقراص الدود » لتشنج .

وكان دجاجلة الطب ومشعوذوه عنصرا محببا فى المسرح الطبى . من ذلك أن « الكونت » اليساندرو دى كاليوسترو ، واسمه الحقيقى جوزيبى بلساموا ، كان يبيع إكسيرا يطيل العمر للحمقى الأغنياء فى أقطار عديدة . وزعم الشفاليه تيلر ، وهو مسلح بابرة السد (الكترَكته) ، إنه يشفى أى مرض من العيون ، وقد استمع إليه جيبون وهاندل والأمل يراودهما . واقنعت جوانا ستيفنز البرلمان بأن يدفع لها خمسة آلاف جنيه لقاء الكشف عن سر علاجها الشافى من الحصى . فلما نشرت وصفتها (١٧٣٩) اتضح أنها مركب من قشر البيض ، والحلزونات ، والحبوب ، والصابون ، وفى كل حالة من الحالات التى زعمت أنها شفتها وجد الحصى فى المثانة بعد موت المريض .

وأما أشهر دجاجلة القرن الثامن عشر فهو فرانتز أنطون مزمير Mesmer وقد بعثت رسالته التى نال عليها درجة الدكتوراة من فيينا (١٧٦٦) الدعوى القديمة القائلة بتأثيرات النجوم على الإنسان ، ففسرها بأنها أمواج مغنطيسية وحاول حينا أن يشفى الأمراض بتمرير المغنطيس على الأعضاء المريضة ، ثم أقلع عن هذا العلاج بعد أن قابل قسيسا بدا أنه يشفى بمجرد وضع يديه على المريض ، ولكنه أعلن أن قوة سحرية تسكنه ، وأن فى إمكانه نقلها للغير بحفز من المال . وافتتح مكتبا فى فيينا ، حيث عالج المرضى بلمسهم — كما كان يفعل الملوك مع مرضى الداء الخنازيرى ، وكما يفعل دعاة الشفاء بالإيمان اليوم . وأعلن البوليس إنه مشعوذ ، وأمره بأن يبرح فيينا فى ظرف ثمان وأربعين ساعة . فرحل إلى باريس (١٧٧٨) وبدأ من جديد بنشر « مذكرة عن كشف المغنطيسية الحيوانية » (١٧٧٩) ، وأقبل إليه المرضى لينومهم mesmerize فكان يلمسهم بعصاه السحرية ، أو يحملق فى عيونهم

حتى يخضعهم لإيحاءاته اخضاعا أشبه بالتنويم ؛ وكان قبح صورته معينا رهيبا فى عملية التنويم هــذه . وأقام أحواضا مغنطيسية تحــوى مزيجا قوامه سلفيد الهيدروجين ، ومزودة بنتوءات حديدية يمسها المرضى وأيديهم متشابكة ؛ ولـكى يجعل مزمير الشفاء مؤكدا كان يلمس كلا منهم بدوره . وكان بين مرضاه المركيز دلافاييت ودوقة بوربون ، وأميرة لامبال ، وغيرهم من الشخصيات البارزة فى البلاط . وعرض عليه لويس السادس عشر عشرة آلاف فرنك أن كشف عن سره وأسس معهدا مغنطيسيا مباحا للجميع ، فرفض . وقد كسب خلال ستة أشهر ٣٥٠٫٠٠٠ فرنك(٢٩) وفى ١٧٨٤ عينت أكاديمية العلوم لجنة من أعضائها لافوازييه وفرانكلن لبحث طرق مزمير . وقد سلم تقريرها ببعض دعاواه وعلاجاته الشافية (لا سيما للأمراض العصبية الصغيرة) ، ولـكنه رفض نظرية المغنطيسية الحيوانية التى قال بها . ثم أدانته حكومة الثورة الفرنسية باعتباره نصابا ، وصادرت ثروته المغرية ونفته من فرنسا . وقد مات بسويسرة فى ١٨١٥ .

وفى لندن افتتح جيمس جراهام (١٧٨٠) « معبد للصحة » على مبادئ مزمير مع تحسينات أدخلها عليه . فزوده بسرير عرس سحرى للعروسين ضمن له كفالة النسل الجميل لهما ؛ وكان يتقاضى مائة جنيه أجرا عنــه لليلة . (٣٠) وكانت مساعدته « ربة الصحة » فى إجراءاته هى ايما ليون ، التى قدر لها حين أصبحت ليدى هاملتن أن تنوم اللورد نلسن ذاته .

واستغرق الجمهور ورجال الطب القرن الثامن عشر بطوله تقريباً لتقبل التطعيم الوقائى لونا مشروعا من ألوان الطب العلاجى بعد أن أختلط عليهم الأمر لـكثرة أدعياء الطب وعلاجاته المعجزة . وكان قدماء الصينيين قد مارسوا نقل الفيروس الذى أضعفت قوته من إنسان مصاب بالجدرى إلى آخر لتحصينه ضد الجدرى . (٣١) ولهــذا الغرض نفسه كانت النسوة الشركسيات يخزن الجسم بأبر مست بسوائل الجدرى . وفى ١٧١٤ وصفت رسالة من الدكتور ايمانويل تيمونى ، قرئت على جمعية لندن الملكية ، « الحصول على الجدرى بالحز أو التطعيم ، كما مورس منذ زمن طويل

فى الأستانة . (٣٢) كتبت ليدى مارى ورتلى مونتاجيو من الأستانة فى أول أبريل ١٧١٧ :

« أن الجدرى ، ذلك المرض الشديد الفتك والانتشار بيننا (نحن البريطانيين) قد جعله اختراع التطعيم سليم العاقبة تماما . . . . وفى كل عام تجرى العملية لألوف الناس . . . . وليس هناك حالة واحدة لشخص مات منها . وقد تصدق أننى مطمئنة جداً لسلامة التجربة إذا علمت أننى أنوى تطبيقها على ولدى الصغير الحبيب . (٣٣)

وقد طعم الصبى البالغ من العمر ست سنوات فى مارس ١٧١٨ بيد الدكتور تشارلز ميتلاند ، وهو طبيب إنجليزى كان يومها فى تركيا .

وفى ١٧٢١ انتشر وباء جدرى فى لندن وفتك بأهلها لا سيما الأطفال . وكانت ليدى مارى قد عادت من تركيا . فكلفت الدكتور ميتلاند ، الذى عاد هو أيضا إلى وطنه ، بأن يطعم أبنتها البالغة من العمر أربعة أعوام . ودعا ثلاثة من أبرز الأطباء ليروا أن الفتاة (التى أصبحت فيما بعد ليدى بيوت) لم تزعجها النتائج إزعاجا يذكر . فأعجبوا بما رأوا ، وسمح أحدهم بتطعيم أبنه . ونشرت ليدى مارى الفكرة فى البلاط . ووافقت الأميرة كارولين على تجربة التطعيم على ستة مجرمين حكم عليهم بالإعدام ، فارتضوا على وعد بأن يفرج عنهم إن ظلوا أحياء ؛ وعانى أحدهم من أصابة خفيفة بالمرض ، أما الباقون فلم يبد عليهم أى أذى ، وأفرج عن الستة جميعاً . وفى ١٧٢٢ أمرت الأميرة بأجراء العملية على الأطفال الأيتام فى أبرشية — سانت جيمس ، فتكللت بالنجاح التام . وفى أبريل أمرت باجرائها على اثنين من بناتها . وانتشر قبول التطعيم فى الأوساط الارستقراطية البريطانية ، ولكن موت شخصين مطعمين فى بيتهما عطل الحركة وقوى المعارضة لها ؛ وشكا أحد النقاد من أن « تجربة لم تمارسها غير قلة من النساء الجاهلات . . . . تسود فجأة ، وبعد خبرة ضئيلة ، على أمة من أكثر أمم الأرض أدبا وتهذيبا حتى وجدت طريقها إلى القصر الملكى . (٣٤) وأحست ليدى مارى بهذه الطعنة ، فنشرت دون توقيع « بيانا واضحا عن التطعيم بالجدرى بقلم تاجر تركى » وشجب معظم الأطباء الإنجليز التطعيم لما فيه من خطر ،

ولكن فى ١٧٦٠ أدخل روبرت ودانيال ستن التطعيم بالثقب ، وقررا أن لم يمت من بين ٣٠٫٠٠٠ مطعم غير ١٫٢٠٠ — أى أربعة فى المائة . وظل قسيس إنجليزى يدعى أدورد ماسى حتى علم ١٧٧٢ يعظ ضد « عادة التطعيم الخطرة المذنبة » ، ويدافع بقوة عن الرأى اللاهوتى القديم ، الذى يرى أن الأمراض ترسلها العناية الإلهيـــة عقاباً على الخطيئة . [٣٥] وربما أمكن صياغة هذا القول من جديد ككثير من التعاليم الدينية القديمة صياغة علمانية ، وهى أن المرض كثيراً ما يكون عقاباً على الجهل والإهمال) .

وتبنت الفكرة دول أخرى . ففى أمريكا طعم الدكتور زابديل بويلستن أبنه (١٧٢١) خلال وباء الجدرى السادس الذى تفشى فى بوسطن ، وأجرى ٢٤٦ تطعيما آخر رغم معارضة هائجة هددت بشنقه . ودافع عنه أكثر القساوسة البيورتان وقاسموه ما صب عليه من طعن ولوم . [٣٦] ومنح بينامين فرانكلين وبنيامين رش تأييدهما الفعال لحركة التطعيم فى فيلادلفيا . وفى فرنسا ضرب الوصى على العرش ، فيليب أورليان ، بشجاعته المعهودة ، المثل لغيره بتطعيم ولديه . وعارضت كلية الطب بجامعة باريس التطعيم حتى عام ١٧٦٣ . ولكن فولتير امتدح حملة ليدى مارى فى « رسائله حول الإنجليز » ، ولاحظ انتشار التطعيم بين الشراكسة ، وعزاه إلى القيمة المالية للجمال : « إن الشراكسة قوم فقراء ، ولكن لهم بنات جميلات ، هن إذن أهم سلعة فى تجارتهم الخارجية ، فهن اللاتى يزودن بالحسان حريم السلطان وصوفيى فارس وغيرهم ممن يتيح لهم ثراؤهم شراء هذه السلع الثمينة والاحتفاظ بها . » [٣٧] وأذاع طبيب إيطالى يدعى أنجيلو جاتى تجربة التطعيم فى فرنسا وأذاعها تيودور ترونشان فى سويسره . وتطعمت كاترين الكبرى والغراندوق بولس الروسى بناء على إلحاح فولتير (١٧٦٨) ، وفى ذلك العام طعم بان انجهنوز ثلاثة أعضاء من الأسرة الامبراطورية فى فينيا .

كل هذه التجارب التى استعملت مصل الجدرى من الإنسان ، كان فيها الكثير ممـــا يبعث على الشكوى ، لأن نسبة الوفيات من التطعيم وإن

هبطت إلى أربعة فى المائة كانت لا تزال مرتفعة ارتفاعا مؤذيا . ولاحظ جراح إنجليزى يدعى أدورد جنر أن اللبانات اللاتى أصبن بجدرى البقر (وهو مرض خفيف نسبيا) نادراً ما يصبن بالجدرى الذى يفتك بالمرضى فى غالب الأحيان . وحوالى ١٧٧٨ خطرت له فكرة نقل المناعة ضد الجدرى بالتطعيم بلقاح مصنوع من بقرة مصابة بالجدرى (vacca باللاتينية هى البقرة) . وكان هذا التطعيم قد تم من قبل على يد مزارع من دورست يدعى بنيامين جستى ، فى ١٧٧٤ — ٨٩ ، دون أن يلفت اهتمام أهل الطب وفى مايو ١٧٩٦ أجرى جنر عملية التطعيم بتلقيح جيمس فيلبس بصديد جدرى البقر . وفى يوليو لقح الصبى ذاته بفيروس الجدرى ولم يصب الصبى بالجدرى ، فاستنتج جنر أن لقاح جدرى البقر يعطى حصانة ضد الجدرى . وفى ١٧٩٨ نشر كتابه الخطير « تحقيق فى سبب ونتائج لقاح الفاريولا » ، (والفاريولا كان الاسم الطبى للجدرى) ، الذى روى فيه قصة ثلاث وعشرين حالة كانت كلها ناجحة ، وبلغ الاقتناع بالتجارب التى أعقبت هذا مبلغاً حمل البرلمان فى ١٨٠٢ و ١٨٠٧ على منح جنر ثلاثين ألف جنيه ليوسع عمله ويحسن طريقته ، وبعدها تناقصت سريعاً الإصابات بالجدرى ذلك المرض الذى ظل قروناً سوطاً من أسواط العذاب الكبرى التى أشرعت على حياة البشر ، حتى اقتصر حدوثه اليوم فى أوربا وأمريكا فى جميع الحالات تقريباً على عدوى الأشخاص الذين لم يطعموا من وفود الفيروس من أقطار لا يمارس فيها التطعيم .

٤ — الأطباء المتخصصون

كان فن التطبيب يتعقد بنمو علم الطب تعقداً أنبت فروع الطب المتخصصة . ولم تكن أمراض النساء بعد ميداناً للدرس قائماً بذاته ، أما التوليد فكان الآن مهارة متميزة ، وانتقل أكثر فأكثر إلى أيدى الرجال . وظل حياء النساء يؤثر المولدات المدربات أينما تيسرن ، ولكن العديد من الأمهات فى البيوت المالكة ضربن المثل فى قبولهن الرجال مولدين لهن . وكان وليم سميلى رائداً فى انجلترا بدراساته فى نظام المخاض واستعمال الملقط

— وهى دراسات جمعها بعد خبرة ثلاثين عاماً فى كتابه القيم « فن التوليد » (١٧٥٢) .

وأحرز الرمد تقدماً ذا بال بجراحات السد (الكترَكته) التى أجراها وليم تشسلدين (١٧٢٨) وجاك دافييل ، وقد أبتكر ثانيهما (١٧٥٢) العلاج الحديث للسد بانتزاع العدسة . وفى ١٧٦٠ صنعت أول نظارة ذات بعدين لبنيامين فرانكلن وبناء على اقتراحه فيما يبدو . وسنلتقى بديدرو يدرس سيكولوجية المكفوفين ويقترح إمكان تعليمهم القراءة باللمس ، ولعل روسو (على ما يقال) اقترح بالتفاهم معه الطباعة البارزة للمكفوفين (٣٨).

وتقدم طب الآذان بفضل استعمال القسطرة لتنظيف قناة يوستاكيوس (١٧٢٤) . وبفضل أول جراحة ناجحة للالتهاب الحلمى (١٧٣٦) . وكشف سائل مرن فى متاهة الأذن (١٧٤٢) . وقد انقطع جياكومو رودريجز بيريرا الأسبانى ، الذى شغف حباً بفتاة صماء بكماء ، لوضع لغة إشارات تستخدم يداً واحدة فقط ، وحسن الابيه شارل ميشيل دليبيه طريقة الكلام الصامت بأبجدية تستعمل كلتا اليدين ، وكرس حياته لتعليم تلاميذه بل لاعاشتهم .

وأصبح علاج مرضى العقول أكثر إنسانية باضمحلال النظرة اللاهوتية القديمة التى دان بها بوسويه وويسلى — والتى زعمت أن الجنون مس شيطانى سمح به الله عقاباً على الخطيئة الموروثة أو المكتسبة . فقد كان نزلاء النارنثروم (برج الحمقى) بفيينا يعرضون على المتفرجين لقاء رسم دخول شأن الحيوانات فى معرض للوحوش . وكان مستشفى بيت لحم للمجاذيب (Bedlam) من أماكن الفرجة فى لندن ، يستطيع الجمهور فيه لقاء أجر أن يتفرس فى المخبولين وهم موثقون بسلسلة وطوق حديدى إلى الحائط . وكان المجانين فى الأوتيل ديو بباريس يعاملون بقسوة أو إهمال على أيدى خدم مبخوسى الأجر مرهقين بالعمل . وأسوأ من هذا كانت المستشفيات الخاصة لمرضى العقول ، التى كان فى الإمكان اقناعها بقبول حبس أشخاص يسلمهم إليها أقرباؤهم المعادون لهم(٣٩) . واستعملت شتى

العقاقير أو الحيل لعلاج الضحايا أو تهدئتهم — كالأفيون ، أو الكافور ، أو البلادونا (ست الحسن) ، أو الفصد ، أو الحقن الشرجية ، أو لزقة الخردل على الرأس . وذهب بعض المتخصصين إلى أن « دوشا » فجائياً من الماء البارد يخفف من السوداء (المنخوليا) ، وأوصى غيرهم بالزواج علاجاً للجنون . أما أول خطوة حديثة نحو علاج أرشد للجنون فقد اتخذها كويكريو بنسلفانيا الذين أسسوا مستشفيات يعالج فيها الجنون على أنه مرض . وفى عام ١٧٧٤ أسس الغراندوق ليوبولد الأول أمير تسكانيا فى فلورنسه الأوسبدالى بونيفاتسيو ، حيث بدىء ، باشراف فنتشنتسو كياروجى ، تناول المشكلة تناولا علمياً . وفى ١٧٨٨ عينت الحكومة الفرنسية لجنة لإصلاح رعاية المجانين . وكان رئيس اللجنة . فليب بينيل قد بدأ حياته تلميذاً للاهوت ، ثم انتقل إلى الفلسفة ، وتشرب المبادىء الإنسانية التى نادى بها فولتير ، وديدور ، وروسو . وفى ١٧٩١ نشر كتابه « رسالة طبية فلسفية فى الغربة العقلية » وهو واحد من معالم الطب الحديث . وفى ١٧٩٢ عين مديراً طبيا للبيسيتر ، وكان من أكبر مستشيفات الأمراض العقلية فى فرنسا . وبعد عامين رقى لمستشفى أكبر هو سالبتريير وبعد أن وجه النداءات الكثيرة لحكومة الثورة ، سمح له بأن يحطم سلاسل مرضاه ، وأن يطلقهم من زنزاناتهم ويعطيهم الهواء النقى وضوء الشمس ، والرياضة ، والأعمال العقلية المتدرجة . وكان هذا واحداً من الانتصارات الكثيرة التى حققتها النزعة الإنسانية العلمانية فى أشد القرون إمعاناً فى اللاأدرية . .

٥ — الجراحات

كانت الجراحة أهم تقدم أحرزه طب القرن الثامن عشر باستثناء تطور التطعيم إلى التلقيح . وقد عمرت الرابطة القديمة بين الجراحة وفن الحلاق الصحى حتى عام ١٧٤٥ فى انجلترة . أما فى فرنسا فقد أنهاها لويس الرابع عشر . (وما زال شعار هذا الحلاق — وهو العمود المخطط بالأحمر والأبيض رمزاً للضمادة الملوثة بالدم — يذكرنا بماضيه الجراحى) .

وفى ١٧٢٤ صدق لويس الخامس عشر على إنشاء خمسة كراسى للجراحة فى كلية سان – كوم بباريس . واحتجت كلية الطب بجامعة باريس على رفع الجراحة إلى مثل هذا المقام الكريم ، وزحف الأطباء – وهم يرفلون فى أروابهم الجامعية الحمراء ويتقدمهم حامل صولجان ومناد – على سان كوم حيث كانت تلقى محاضرة فى الجراحة ، فلما وجدوا الباب مغلقا حاولوا فتحه عنوة وتصايحوا بالشتائم والسباب ، ناعتين الجراحين بأنهم حلاقون محدثو نعمة ، ولكن الجمع الذى احتشد انقلب على الأطباء وطردهم من المكان . وفى ١٧٣١ حصل جورج ماريشال وفرنسوا دلا بيرونى على براءة ملكية بتأسيس « أكاديمية الجراحة » ، وفى ١٧٤٣ أصدر الملك أمرا حرر جراحى فرانسا من ارتباطهم بطائفة الحلاقين ، واشترط الحصول على درجة من الكلية لممارسة الجراحة . ومن يومها استطاع الجراح أن يواجه الطبيب فى غير خجل ولا أحجام .

وحدث تطور مماثل لهذا فى انجلتره . ففى ١٧٤٥ فصل الجراحين رسميا عن الحلاقين ، وتقرر اعتبار ممارسة الجراحة فى لندن أو بقربها دون امتحان وأجازة تمنحها لجنة من كبار الجراحين جريمة يعاقب عليها القانون . على أن « كلية الجراحين الملكية » لم يصدر بها ترخيص رسمى إلا فى سنة ١٨٠٠ . أما فى ألمانيا فقد كانت الجراحة عموما قبل فردريك الأكبر فى أيدى الحلاقين والجلادين ، والمتجولين من الممارسين غير المرخصين ، الذين يجبرون العظام ويزيلون السد (الكتركتة) ، ويربطون الفتق ، ويستأصلون الحصى . وكان الجراح فى الجيش – وهو مفخرة بروسيا – يسمى « فيلدشيرر » ، أى حلاق الميدان ، لأن من وظائفه الحلاقة للضباط ولكن فى ١٧٢٤ فتحت فى برلين كلية للطب والجراحة .

وكانت كثرة جراحى القرن الثامن عشر العظام من الفرنسيون . واخترع لوى بتى « المرقأة » (ضاغطة الشرايين) وأدخل تحسينات على عمليات البتر والعنق وقد أجرى ديدرو فى كتابة « حلم دالامبير » على لسان الطبيب الشهير تيوفيل دبوردى وصفا لجراحة على المخ يجريها لابيرونى . وقد

أسس جان أندريه فثيل الجنيفى جراحة العظام (١٧٨٠) . وفى انجلتره طور وليم تشزلدن الجراحة الجانبية للحصى (١٧٢٧) إلى مرتبة لم تكد تجاوزها بعده [٤٠] ، وفاخر بأنه أجرى جراحة لاستخراج حصاة فى أربع وخمسين ثانية . وأصبحت الجراحة الانجليزية علما حين أرساها جون هنتر على أساس من التشريح والفسيولوجيا السليمين . وقد أجرى تجارب على الحيوان ليجد بدائل لجراحات كثيرا ما تؤدى بحياة الإنسان . ففى ١٧٨٦ ، بعد أن اكتشف وهو يجرب على وعل أن فى استطاعة الأوعية الدموية الفرعية أن تواصل دورتها إذا أوقف المرور من وعاء دموى رئيسى ، أنقذ حياة رجل يشكو ورما شريانيا فى الساق بربط الشريان الذى يعلو الورم والاعتماد على أجزاء الجسم المحيطة به فى امتصاص محتويات الورم . وقد أنقذت هذه الجراحة عددا لا حصر له من الأطراف والأنفس .

كذلك يحتل اسم جون هنتر مكانا مرموقا فى تطوير طب الأسنان . فقد كان هذا الفن فى انجلتره فى القرن السابع عشر متروكاً أكثره لخالعى الأسنان ، الذين كانوا يصيحون معلنين عن قدومهم ويعرضون على الجمهور حبالا من الأسنان كأنها شعار النبالة . وفى ١٧٢٨ أعلن بيير فوشار فى كتابه « جراح الأسنان » أن طب الأسنان فرع من الجراحة . ولكن هنتر كان أول من طبق الطرق العلمية على دراسة الأسنان . وقد أدخل تصنيفها إلى أنياب ، وضواحك ، وطواحن ، وقواطع ، وابتكر آلات لتقويم انطباق الأسنان . وكان أول من أوصى بازالة لب الضرس تماماً قبل حشوه . وقد لخص أراءه فى كتابه « التاريخ الطبيعى لأسنان الإنسان » (١٧٧١) .

وكان أكثر الجراحات الصغيرة يجرى دون مخدر . وقد استعمل القدماء من قبل شتى الأشربة المنومة — مثل « السلوى » ، والأفيون ، وقاتل الدجاج ، واللقاح ، ، والشوكران ، إلخ ، وفى سفر التكوين أن الله ذاته أوقع على آدم « سباتاً » قبل أن يأخذ منه ضلعا . وقد وصف ديوسكوريدس فى القرن الأول الميلادى نبيذ اللقاح فى العمليات الجراحية [٤١] . واستعملت الهند القنب الهندى cannabis indica (الحشيش) ، وذكر أوريجانوس فى

القرن الثانى أشربة التنويم الجراحى ، كما ذكرها القديس هيلارى — وموطنه بواتييه — فى القرن الرابع . واستمر استعمال أكثر المنومات القديمة فى العصور الوسطى ، فكانت مدرسة سالرنو الشهيرة تحبذ استعمال « اسفنجة تخدير » . أما فى أوربا الحديثة ، فإن المخدر المفضل كان السكر . ولم يكتشف السر همفرى ديفى الخواص المخدرة لأول أكسيد النتروجين (الغاز المضحك) إلا فى ١٧٩٩ . واكتشف الدكتور كروفورد لونج الطبيب بدانيالزفيل فى جورجيا خواص الأثير المخدرة فى ١٨٣٩ .

٦ — الأطباء

كان من أثر ازدياد الثروة ، ونمو الطبقات الوسطى عدداً وثراء ، وتقدم علم الطب والتعليم ، أن ارتفع مقام الأطباء ودخلهم إلى درجة لم يعهدوها من قبل وقد أثلج هذا صدر لامترى ، وكان هو نفسه طبيباً ، فقال « إن كل شىء يخلى السبيل أمام الفن العظيم ، فن الطبيب الشافى . . . فالطبيب هو الفيلسوف الوحيد الذى يستحق تقدير وطنه . . . فمجرد رؤيته تعيد إلينا هدؤنا . . . وتبعث الأمل الجديد »(٤٢) . أما فولتير فكان نقاداً للأدوية — « أن الحمية خير من الدواء » ومعظم الأطباء فى رأيه مشعوذين « فى كل مائة طبيب ثمانية وتسعون مشعوذين » ولكنه أضاف : « أن الرجال العاكفين على رد العافية لغيرهم من الناس بممارستهم المهارة والإنسانية معاً هم أولا عظماء هذه الأرض ، لا بل أن لهم نصيباً من صفات الله ، لأن عملية المحافظة والتجديد تكاد تبلغ فى سموها عملية الخلق » . (٤٣) وقد أثنى ديدرو على كلية الطب بجامعة باريس (٤٤) ، الجامعة التى نغصت كلية لاهوتها عليه حياته ، فقال : « ليس هناك كتب أطالعها بسرور أكثر من كتب الطب ، ولا رجال يمتعنى حديثهم أكثر من حديث الأطباء — ولكن حين أكون معافى « فقط » (٤٥) . وقد جعل الدكتور دبورديه الشخصية المحبوبة فى قصة « حلم دالامبير » وسلط الهجاء على مهنة الطب كالعادة ، كما ترى فى مسرحيات جلدونى وصور شودوفيكى ، وقصة سموليت « فرديناند كونت فاذوم » ، وكاريكاتورات توماس رولاندسن اللذيذة .

وقد رفعت الأتعاب والدخول الأعلى من مقام الأطباء الاجتماعى . وكان أكثرهم فى انجلترە يتقاضى جنيها نظير الكشف على مريض . وبلغ إيراد بعضهم ستة آلاف جنيه فى العام . وقد أصبح السر هانز سلون ، أول من رقى للبابوية من الأطباء رئيساً للجمعية الملكية ، وخلع جوزف الثانى إمبراطور النمسا على جوزف فون كوارين لقب البارون . ولقى الأطباء الترحيب فى خيرة أندية لندن وصالونات باريس ، وخلعوا عنهم الروب الأسود (السوتان) الكابى ، وتزيوا باحدث أزياء الطبقة الوسطى الراقية فكانوا فى انجلترە يبدون فى سترة من الساتان أو الحرير المطرز الأحمر ، وسروايل للركبة ، وأحذيه ذات مشابك ، وعصا ذات مقبض ذهبى ، وسيف أحياناً . أما فى فرنسا فكانوا يضارعون كبار رجال الكنيسة فى فخامة زيهم .

وبعض هؤلاء الأطباء يطالبنا بتنويه خاص . منهم سيمون أندرية تيسو الذى اشتهر فى لوزان بتزعمه الدعوة للتطعيم ، وبكونه حجة فى الصرع وقد جاهد لا ليشفى المرضى فحسب ، بل ليحفظ الصحة على الاصحاء ، وطبع كتابه « نصيحة للشعب فى الصحة » (١٧٦٠) عشر طبعات فى ست سنوات ، وترجم إلى كل لغة كبرى فى أوربا . ومنهم ليوبولد أونبروجر الذى كان قطبا بين عظام الأطباء الذين شرفت بهم فيينا فى عهد ماريا تريزا . وكان محبوبا لتواضعه وأمانته ، ومحبته للناس ، « مثل سام لخير ما فى الخلق الألمانى القديم من صادق القيمة والجاذبية » . [٤٦] ولم يكن الدكتور جوزف إجناس جيوتان محبوبا إلى هذا الحد ، وكان أحد نواب مجلس طبقات الأمة فى ١٧٨٩ ، وحبذ عقوبة الإعدام ، واقترح استعمال آلة لقطع الرؤوس (الجيلوتين) لتفادى ضربات الجلادين الخاطئة .

أما تيودور ترونشان فكان أشهر الأطباء فى سويسرة . وكان تلميذاً أثيرا لدى بويرهاف فى ليدن ، ومارس الطب عشرين سنة فى أمستردام ، وتزوج حفيدة جان دويت ، وعاد إلى مسقط رأسه فى جنيف ، وأدخل فيها التطعيم (١٧٤٩) بادئاً بنفسه وأطفاله . وفى ١٧٥٦

دعاه دوق أورليان إلى باريس ليطعم ولده الدوق شارتر وابنته التى كانت يومها المدموازيل دمانبانسييه . وعجبت باريس لهذه الشجاعة ، ولكن حين خرج المطعمان من هذه العملية دون أن ينالهم أذى ، تقاطر صفوة الناس على مسكن ترونشان فى البالية — رويال وكلهم شوق للتحصن من مرض ظل طويلا يحتفظ بنسبة عالية من الوفيات فى فرنسا .

وقد أعطى نجاحه وزنا لآرائه فى موضوعات أخرى . فسبق روسو فى حض الأمهات على إرضاع أطفالهن . ونصح مرضاه بالاقلال من الدواء والاكثار من الرياضة فى الهواء الطلق ، وبأكل الأطعمة البسيطة ، والاكثار من السباحة ، وبالاغتسال فى الماء البارد ، وبخلع باروكاتهم ، وطواقيهم ، وستائر أسرتهم ، وبالتبكير فى النوم والاستيقاظ . وحفل البلاط فى فرساى حين أمر بأن تفتح نوافذ القصر — التى ظلت مقفلة دائماً — بعض ساعات النهار على الأقل ، حتى فى الشتاء . وأصبحت أفكاره من موضات العصر ، فكانت النساء من علية القوم يتمشين فى ساعات الصباح الباكرة ، مرتديات الثياب القصار للتهوية ، وسرعان ما سميت هذه الثياب « ترونشين » (٤٧) .

وحين استقر بفولتير المقام فى جنيف وضع نفسه فى رعاية ترونشان . يقول « إنه رجل طوله ستة أقدام ، حكيم كأسكولابيوس ، وسيم كأبوللو . » (٤٨) ولم يبادله ترونشان هذا الثناء ، ولكن ربما كان كلاهما مخطئا كما قال فولتير عن نفسه وعن هاللر . أما مدام ديبينيه التى قطعت الرحلة الطويلة من باريس إلى جنيف طلبا للعلاج من ترونشان فقد رسمت لنا صورة كلها المديح والاطراء ، قالت :

سأنفق يومين أو ثلاثة فى بيت فولتير مع السيد ترونشان . والحق أنى فى كل يوم أكتشف فى ترونشان صفات جديدة توحى باحترام وإجلال له لا حد لهما . فليس هناك ما يضارع حبه للخير ، وتجرده من الأنانية ، ومحبته لزوجته ورعايته لها . وأصارحك بعد أن عرفتها بأنها أشد نساء الأرض عبوسا وثقلا (٤٩) .

ولكن من ذا الذى يصدق حديث امرأة عن أخرى ؟

هذا ولم يكن القرن الذى نحن بصدده فذا فى تاريخ الطب ، فلم يزل جو الطب يخيم عليه ظلمات السرية ، والشعوذة ، والنظريات التى كان ينبغى أن تتوارى خجلا منذ زمن نتيجة للخبرة ، إلا أن تقدم التشريح والفسيولوجيا أرسيا الطب فوق أساس أسلم من ذى قبل، وكان تعليم الطب أشمل وأيسر ، ومزاولة المهنة دون ترخيص فى طريقها إلى الزوال ، والتخصصات تزيد المعرفة وتحسن رعاية المرضى ؛ وقد أطلقت الجراحة من عقالها ، وأخذت العلاجات المعجزة تفقد سمعتها ، وانتصارات الطب تقوم بدورها الهادئ فى ذلك الصراع الأساسى بين الدين والعقل ، وهو صراع راح يحتل مكان الصدارة فى حياة الذهن . .

* * *

المَراجِـــع

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 11.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326; de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27; Thompson, J. W., *Economic and Social History of . . . the Later Middle Ages*, 483.
3. Taine, *Ancient Regime*, 18.
4. See Muhlhausen as described in Spitta, *J. S. Bach*, I, 344.
5. Láng, *Music in Western Civilization*, 608.
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 155 (Nov. 21, 1716).
7. Tietze, *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943.
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 40.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108.
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 838b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 298.
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept 5, 1748.
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63.
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec 17 1716.
25. Dillon, E., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin.
28. Barockmuseum, Vienna.
29. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music* IV 4
31. Láng, 450.
32. Spitta, *Bach*, II, 46; *Enc Brit.*, XVII, 896b
33. Spitta, III, 18.
34. Rolland, *Musical Tour*, 84.
35. *Ibid.*, 111.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n.
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. E.g., Concerto in D for trumpet; Suite in A Minor for flute; Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158. On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147.
46. Láng, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 261-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 321.
54. Spitta, II 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323.
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Láng, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167.
66. Rolland, 71.
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275.
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231
71. *Ibid.*, 230; Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238
73. *Ibid.*, 241.
74. 254

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV 173.
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 145.
4. Goodwin, 112
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 164; *New Camb Mod. History*, VII, 402.
6. In 1714–34.
7. 172[illegible]–33.

8. 1715–56.
9. 1722–32.
10. 1729–32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; cf. Baedeker, *Austria*, 46
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 94.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241
21. *Ibid.*, 242
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II, 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 288
25. *Camb. Mod. History*, VI, 210.
26. *Ibid.*, 213.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 212.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid.*, 154.
38. Carlyle, II, 327.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar. 28, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P., *Life and Times of Niccolò Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575
62. Carlyle, III, 161.
63. *Ibid.*, 165
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571
65. Carlyle, III, 175
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 233.
68. *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443
74. Lützow, Count von, *Bohemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94
76. *Ibid.*, 103
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70
80. Coxe, III, 309
81. Carlyle, V, 36
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5
85. *Enc. Brit.*, IX, 718c
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313
87. Carlyle, V, 201
88. *Ibid.*, III, 260
89. Carlyle, V, 197, hotly repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c
91. Carlyle, V, 65
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 61?
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid.*, 146.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752
106. Parton, II, 59
107. *Ibid.*, 59-60; Desnoiresterres, IV, 196.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184
109. Carlyle, V, 182
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 213.
113. 214, Strachey, *Books and Characters*, 191.
114. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 103
118 Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 28, 1753, in Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 162.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J., *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 27, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161
9. Oechsli, 264.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11 *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 261.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 56.
22. Épinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Épinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 148.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 228.
34. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, Ch lxviii.
35. Morley, 284.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254.
38 Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41 *Phil Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64
42 *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45 *Essai sur les moeurs*, Ch xx.
46 *Ibid.*, Ch cxxxix.
47 Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51.
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543, Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247
7. Clark, G N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 16.
10 Smith, P., *Modern Culture*, II, 555.
11 *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14 Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15 Brandes, II, 107.
16 Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. *Cf. Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351
21. Faguet, *Literary History of France*, 361, 516.
22 Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f.
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the author
27. In Lovejoy, *Essays*, 105
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6
30. Maverick, L A., *China a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485
32. Reichwin, A., *China and Europe*. 124.
33. Voltaire *Works*, VIIIa 176
34. Pinot, V. *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France* 425
35. *Ibid.*, 315, 281
36. Maverick, 242
37. *Ibid.*, 113
38. *Philosophical Dictionary*, art "Glory," in *Works*, Va, 208
39. *Works*, XVIa, 119, XVIIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, XLVI

CHAPTER XVI

1. Buckle, I, 660n.
2. Fuss, N., in Smith D. E., *History of Mathematics*, I, 522
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70
7. Whitehead, A N., *Science and the Modern World*, 91
8. Bell, 170
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185
12. Whitehead, 90
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123
16. Bertrand, 143, 153, 164. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 289.
22. 290
23. 295, Wolf, 232.
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la litterature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358.
27. *Ibid.*, 359.
28. *Enc Brit.*, XX, 62c.
29. *Ibid.*, 62b.
30. Moore, F J. *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
37. Priestley, Jos., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27
40. *Ibid.*, in Willey, 197.
41. Schuster, M Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187.
42. French, S. J., 215.
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166
44. Moore, 49
45. McKie, *Antoine Lavoisier* 225.
46. *Ibid.*, 293.
47. 325
48. 319
49. 412 f.
50. 404
51. 407
52. French, 267.
53. Williams, III, 11
54. Langer W L., *Encyclopedia of World History*, 435
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec 30, 1786)
57. Williams, III, 21.
58. *Enc Brit.*, XI, 520d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Martin, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172
64. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322
65. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 282
66. Quoted by Cajori in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

69. In Bell, 182
70. Berry, 307.
71. Wolf, 299.
72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455
73. *Ibid.*, 388.
74. XI, 454.
75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 269.
76. Buffon, *Oeuvres*, IX, 454
77. Trattner, *Architects of Ideas*, 66.
78. Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
79. *Ibid.*, 34
80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
81. Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
82. Sainte-Beuve, II, 263.
83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16
84. Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 130.
85. Bearne, *A Court Painter and his Circle*, 272.
86. Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
87. Gourlie, 270.
88. Wolf, 455.
89. *Ibid.*, 456.
90. 457.
91. *Enc. Brit.*, XVIII 32.
92. Locy, 399.
93. Wolf, 349
94. *Ibid.*, 450.
95. Jardine, Wm., *The Naturalist's Library*, 24.
96. *Ibid.*, 321.
97. Sainte-Beuve, II, 264.
98. Osborn, 136
99. In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175.
100. Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, H., XVI, 37.
101. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 145.
102. Osborn, H. F., *Men of the Old Stone Age*, 3.
103. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
104. In Smith, P., II, 518.
105. In Buffon, *Oeuvres completes*, I, introd., *xxii*.
106. Rousseau, letter of Nov. 4, 1764.
107. Sainte-Beuve, II, 208.
108. Buffon, I, introd., *xviii*.
109. *Ibid.*, XII, 324-30.
110. *Ibid.*, 324n.
111. Hazard, 144
112. Voltaire, letter to Helvétius, Oct. 27, 1740.
113. Sainte-Beuve, II, 254.
114. Jardine, 32.
115. *Ibid.*, 29.
116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
117. Garrison, F., *History of Medicine*, 11[illegible]
118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
119. Réaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118
122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis*, 81
123. Osborn, 114-15.
124. *Ibid.*, 122
125. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas* 147
126. Turberville, A. S., ed., *Johnson's England*, II, 245.
127. Osborn, 119.
128. *Ibid.*, 145.
129. 146
130. *Ibid.*
131. 149.
132. Brett, G. S., *History of Psychology*, 423
133. Condillac, *Traite des sensations*, 38
134. *Ibid.*
135. *Ibid.*, 70
136. Wolf, 689

رقم الإيداع : ٢٥٦٢ لسنة ١٩٨٣

م. الدجوى ـ الكرداسي عابدين

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

أوروبا الوسطى

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأخير من المجلد التاسع

٣٨

تونس
بيروت

فهرس

الجزء الأخير من المجلد التاسع

من قصة الحضارة

الصفحة

الكتاب الخامس

الهجوم على المسيحية

١٧٣٠ — ١٧٧٤

الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ — ١٧٥١

الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧١٣ — ١٧٦٨

الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ — ١٧٧٣

الصفحة

الفصل الحادى والعشرون

اتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ — ١٧٧٤

الفصل الثانى والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ — ١٧٧٨

الصفحة

الفصل الثالث والعشرون

إنتصار الفلاسفة

١٧١٥ — ١٧٨٩

خاتمــة فى الفردوس

الكتاب الخامس

الهجوم على المسيحية

١٧٣٠ - ١٧٧٤

الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ — ١٧٥١

١ — النشوة الفلسفية

لنبدأ بتحديد مصطلحاتنا . سوف نعني بلفظة فيلسوف . كل إنسان يحاول أن يصل إلى آراء مسببة مقنعة عقلانية فى أى موضوع مهما يكن ، إذا نظر إليه فى أبعاده العريضة . وفى تحديد أكثر ، سنطلق هذا المصطلح فى الفصول التالية على أولئك الذى يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره ، والحياة أو الإنسان . ويجدر ألا نفهم الفلسفة على أنها ضد الدين أو أنها تتعارض معه ، وينبغى أن نفسح فى النظرة الواسعة للحياة البشرية مجالا للدين . ولكن لما كان كثير من فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها ، فان لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوما معاديا للمسيحية(*) . وفى استعمالنا لهذا المصطلح الفرنسى فانه سيتضمن هذا المفهوم عادة . وسينطلق على لامترى وفولتير وديدرو ودالمبرت وجريم وهلفشيوس ودى هولباخ فلاسفة ، ولكنا لن نعد روسو فليسوفا بهذا المعنى — على الرغم من أنه يجدر بنا أن نسميه فيلسوفا ، لأنه زودنا بحجة عقلانية دفاعا عن الوجدان والإيمان . كما ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة من حوله ، ومع ذلك ، مثل فولتير ،

(*) ذكر جويوم فرنسوا برتييه ، المحرر اليسوعى اللامع للجورنال دى تريفو ، فى عدد يولية ١٧٥٩ : « جرت العادة على أن نطلق لفظة فلاسفة على أولئك الذين يهاجمون العقيدة الدينية الموحى بها ، ويطلقون لفظة مضطهد على من يناضلون دفاعا عنها »(١)

يتمسك إلى النهاية بالإيمان بالله . إن الجدل الذى هاج مشاعر الطبقات المفكرة فى نصف القرن الذى سبق الثورة الفرنسية لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة ، بل كان بالدرجة الأولى بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكى المسيحى كما وجد فى فرنسا آنذاك ، إنه الغيظ المكظوم فى قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطخت به الديانة سجلها من الوقوف فى وجه التقدم والمعرفة والاضطهادات والمذابح . وبلغ رد الفعل أقصى مداه ، ولكن كذلك كان الاسفاف فى مذبحة سانت برثلميو (١٥٧٢) ومقتل هنرى الرابع (١٦١٠) واضطهاد الهيجونوت بعد الغاء مرسوم نانت (١٦٨٥) .

ولم يكن ثمة مثل هذا العدد الكبير من الفلاسفة قط من قبل ، وألمع هلفشيوس إلى « تذوق عصرنا للفلسفة وحبه لها » [٢] وكتب دالمبير :

أطلق قرننا على نفسه قرن الفلسفة بغير منازع . فمن أصول العلوم الدنيوية الدنسة إلى أسس الوحى ، ومن الميتافزيقا إلى مسائل الذوق ، ومن الموسيقى إلى الأخلاق ، ومن حقوق الأمراء والملوك إلى حقوق الشعوب . كل شىء كان موضع دراسة وتحليل ومثار نقاش وخلاف . وليس فينا من ينكر أن الفلسفة أحرزت بيننا تقدما . إن العلوم الطبيعية تقدم لنا فى كل يوم ذخرا جديدا ... واتخذت كل ميادين المعرفة تقريبا أشكالا جديدة [٣] .

وكان الفلاسفة الفرنسيون نتاجا جديدا . فكانوا قبل كل شىء واضحين ولم يكونوا جماعة منعزلة عن العالم تكسوهم المهابة والقداسة ، يتحدثون إلى أنفسهم أو إلى نظرائهم أحاديث غامضة لا يفهمها إلا فئة معينة من الناس . وكانوا أدباء عرفوا كيف تتألق الأفكار والآراء فى الألفاظ . وولوا ظهورهم نحو الميتافيزيقا باعتبارها ضالة ميئوسا منها ، ونحو طرائق الفلسفة باعتبارها غرورا كاذبا عريضا . ولم يكتبوا أبحاثا مطولة معقدة جهدوا فيها فى استنباط العالم من فكرة واحدة ، ولكنهم كتبوا نسبيا موضوعات قصيرة ، ومحاورات مسلية وقصصاً متبلة أحيانا ببعض الفحش ، وهجاء قتالا من فرط السخرية ، أو حكمة معبرة بطريقة بارعة توهم بالتناقض فى سطر يحطم تحطيما . وساق هؤلاء الفلاسفة حديثهم متناغما مع رجال الصالونات وسيداتها ، وفى كثير من الأحوال وجهوا كتبهم ومؤلفاتهم إلى شهيرات النساء ، وكان لزاما أن

تكون مثل هذه الكتب واضحة جلية يسهل إدراك مراميها ، وقد تضفى على الإلحاد سحرا وفتنة . ومن ثم أصبحت الفلسفة قوة إجتماعية إنتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة . وأسهمت فى الصراع بين الدول ، وكانت جزءاً من الأنباء. ولما كانت كل أوربا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة آخر النظريات والآراء ، فان مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى انجلترا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا ، وأصبحت أحداثا فى دنيا أوربا . وفاخر فردريك الأكبر وكترين قيصرة روسيا بأن يكونا من بين الفلاسفة ، وربما لم يقلقهما تنبؤ الطبقة المحافظة الفرنسية بأن المفكرين الأحرار الفرنسيين كانوا يقوضون أساس أخلاق فرنسا ووحدتها وسلطانها وقوتها .

وكان لجوتنبرج أثره البارز : فان الطباعة عملت على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع الوثنيين ، وأصبح الفلاسفة الآن أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عدداً وأكثر استعداداً من ذى قبل ، ولم يستنكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة . ولم يكن هذا لأنهم وثقوا كثيرا فى « الرجل العادى » كما عرفوه فى ذاك العصر ، ولكنهم وثقوا فى أن نشر « الحقيقة » قد يعمل على تحسين سلوك البشر وتوفير مزيد من السعادة لهم . واعتبر دالمبير أن « فن تعليم الإنسان وتنويره أنبل مهمة وهبة فى متناول البشر » (٤) ، وأصبح « التجاسر على المعرفة » شعارة الاستنارة الذى حققه عصر العقل وفاز به .

ذلك أن الإيمان بالعقل الذى آذن بانبلاج فجره فرنسيس بيكون قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته — أى أن الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وبرز العقل متألقاً فى عظمة وحى جديد ، وطالب بالسيادة والسيطرة فى كل مجال وميدان ، وعرض اصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والأقتصاد والحكومة بمفهومه المشرق . وأقر الفلاسفة بضعف العقل ، مثله فى ذلك مثل أى شئ بشرى ، وأدركوا أنه من الميسور تضليله بأى منطق فاسد أو تفسير خاطئ للخبرة . وما كان لهم أن ينتظروا شوبنهور لينبئهم بأن العقل عادة خادم للرغبة وأداة للارادة . إن هيوم الذى هيمن على عصر العقل هذا فى بريطانيا كان

أقوى ناقد واجهه العقل ، وربما باستثناء كانت . واعترف فولتير من آن لآخر بحدود العقل . واتفق ديدرو مع روسو فى أن الوجدان أساسى أكثر من العقل . واعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريبا بأن غالبية الناس حتى فى أعظم الأمم حضارة ومدنية مرهقون بالحاجيات الإقتصادية والكدح فى سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل ، وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والحزازات أكثر من تأثرها بالعقل ، ومع هذا ظل الأمل معقودا على إنتشار العقل وإمكان تحريره من الأنانية الضيقة والتعاليم المغرضة .

وهكذا برغم فترات التشاوم التى مر بها الفلاسفة فقد سادت بينهم روح التفاؤل ، ولم يكن الناس قط من قبل واثقين بقدرتهم ، أن لم يكن على إعادة بناء أنفسهم ، فعلى الأقل على إعادة بناء المجتمع . وبرغم كوارث السنين السبع ، وفقدان كندا والهند واستيلاء إنجلترا عليهما ، فقد سيطرت على ذهن فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حماسة وحيوية بدا أنهما ستعيدان إلى فرنسا العجوز المتوجعة قوتها وشبابها من جديد . ولم يحدث قط منذ أيام السفسطائيين الإغريق أن انتشرت مثل هذه الآراء والأفكار الكثيرة ، أو ظهرت روح البحث والتحقيق والحوار والجدل المنعشة ، فلا عجب أن يحس ديكلوس حوله « بشئ من اختمار العقل يميل إلى التطور والنمو فى كل مكان » [٥] وبما أن باريس كانت آنذاك عاصمة الفكر فى أوربا ، فان حركة التنوير أصبحت حركة واسعة النطاق مثل حركة النهضة الأوربية وحركة الاصلاح الدينى ، والحق أن حركة التنوير هذه بدت وكأنها ذروة الحركات السابقة . وكانت النهضة قد ذهبت إلى ما وراء المسيحية لتكاتشف الذهن الوثنى ، كما أن الاصلاح الدينى كان قد كسر قيود السيادة المذهبية ، وعلى الرغم منه تقريبا أطلق العنان لعمل العقل ، وباتت مقدمتا العصر الحديث هاتين تكمل الواحدة الأخرى ، وأصبح الآن فى مقدور الإنسان فى نهاية المطاف أن يحرر نفسه من معتقدات العصور الوسطى ومن أساطير الشرق . كما أصبح فى مقدوره أن يهز كتفيه استخفافا باللاهوت المربك المرعب ، وأن يقف على قدميه حرا طليقاً . حرا فى أن يشك ؛ وفى أن يحقق ويدقق . حرا فى أن يفكر

ويجمع ألوان المعرفة وينشرها . حرا فى أن يقيم دينا جديدا حول مذبح ا. قل لخدمة البشر ، وكان ثملا كريما شريفاً .

٢ — خليفة الثورة

ولكن كيف حدث كل هذا ؟ ولماذا انقلب كل هؤلاء الفلاسفة وبخاصة فى فرنسا على المسيحية التى كانت فوق كل شىء قد مزجت الأمل بأهوالها ورعبها ، والصدقات بجرائمها ، والجمال بآثامها وخطاياها ؟

إن الثورة التى قام بها الربوبيون فى إنجلترا استطاعت أن تعبر عن نفسها مع تسامح نسبى حتى من جانب الكنيسة الرسمية ، وربما كان هذا هو السبب فى خمود لهيبها ، وفضلا عن ذلك كانت الكنيسة الإنجليزية خاضعة للدولة فلم تعد تزعم زعما فعالا أنها — أى الكنيسة — سلطة منافسة مستقلة . أما الكنيسة فى فرنسا فكانت هيئة قوية تملك نصيبا كبيرا من الثروة الوطنية وأرض الوطن ، وهى مع ذلك مرتبطة بولاء أسمى مكانة بسلطة أجنبية . ويبدو أنها كانت تستنزف مزيدا من الثروة من أيدى العلمانيين إلى أيدى رجال الكنيسة عن طريق الوصية والتوريث ، كما رفضت أن تدفع أية ضرائب أكثر من « المنح أو الهبات الاختيارية » واحتفظت بآلاف الفلاحين فى أراضيها فى استرقاق فعلى ، واحتفظت بالرهبان فيما بدا أنه خمول عقيم . وكم أفادت الكنيسة من الوثائق الزائفة والمعجزات الكاذبة . وسيطرت على كل المدارس والجامعات تقريبا ، وعن طريقها أشربت أذهان الشباب بالسخافات المخدرة المنافية للعقل ، واستنكرت ، على أنه هرطقة ، كل تعليم يتعارض مع تعليمها واستغلت الدولة فى فرض رقابتها على حرية الكلام والصحافة ، وبذلت الكنيسة غاية الجهد فى خنق التنمية الفكرية فى فرنسا . وحرضت لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير الإنسانى . والتخريب الخالى من الرحمة لبورت رويال ، وارتكبت الكنيسة إثما فى الحملات الوحشية التى شنتها ضد الألبيجنسيين وإقرار المذابح الوحشية مثل مذبحة سانت برثلميو ، وأشعلت نار الحروب الدينية التى دمرت فرنسا تقريبا . وفى وسط كل هذه الجرائم ضد الروح الإنسانية ادعت الكنيسة ، وحملت

الملايين من ذوى العقول الساذجة على الإعتقاد بأنها فوق العقل وفوق الريبة والمساءلة ، وأنها ورثت وحيا إلهيا ، وأنها ممثل الله على الأرض الملهم المعصوم من الخطأ . وأن جرائمها كانت ، بارادة الله مثل حسناتها .

وقدمت الكنيسة ردودا كثيرة على هذه الإتهامات . ولسوف نعرض لها فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه أثارت هذه الإتهامات المتزايدة حفيظة آلاف الناس ودفعتهم إلى الاحتجاج ، وأخيرا إلى العداوة المريرة . وتضاعف عدد المتشككين إلى حد أنهم لم يعودوا يخشون رجال الدين وأحرجوهم علنا بالأسئلة العويصة . وحين دعا الأب تورنمين غير المؤمنين حوالى ١٧٣٠ إلى كلية « لويس الأكبر » ، يقال « إن غرفته اكتظت بالمفكرين الأحرار والربوبيين وأنصار المذهب المادى . وما استطاع الأب الجليل أن يحول أحدا عن رأيه » [٦]. وجزع رجال الدين من كثرة عدد الفرنسيين والفرنسيات الذين فارقوا الحياة رافضين تناول الأسرار المقدسة للكنيسة . وهددت مدام دى برى بأن تأمر خدمها بالقاء راعى الكنيسة من النافذة حين ألح عليها فى قبول مسحها بالزيت المقدس [٧] . وشكا أحد القساوسة من أنه « فى اللحظة التى يظهرون فيها أمام الناس يجبرون على الدخول فى مناقشة ، فنحن مطلوب منا ، وعلى سبيل المثال ، أن نثبت فائدة الصلاة للإنسان الذى لا يؤمن بالله ، وضرورة الصيام لإنسان أنكر طوال حياته خلود النفس ، والمناقشة مزعجة إلى أقصى حد ، على حين أن أولئك الذين يسخرون ويهزأون يقفون إلى جانبنا » [٨] .

وذكر باربييه فى ١٧٥١ « قد نرى فى هذه البلاد ثورة تؤيد البروتستانتية [٩] » وكان مخطئا . فان طرد الهيجونوت لم يترك طريقاً وسطا بين الكاثوليكية وعدم الإيمان بصحة الكتب المقدسة . إن الفكر الفرنسى المتحرر تخطى الاصلاح الدينى وقفز طفرة واحدة من عصر النهضة الأوربية إلى عصر الاستنارة ، وهكذا فى فرنسا فان الذهن الفرنسى لم ينعطف بثورته نحو الجانسنيين أو إلى الفئة القليلة الباقية من البروتستانت ، بل انعطف إلى مونتانى وديكارت وجاسندى وبيل ومونتسكيو ، ولما رجع المفكرون الأحرار الفرنسيون إلى ديكارت رفضوا كل آرائه تقريبا اللهم إلا « شكه المنهجى »

وتفسيره الآلى للعالم الموضوعى . وكان بيل موضع إجلال وتقدير باعتباره أدق العقلانيين المتأملين ، فقد ولدت شكوكه مزيدا من آلاف الشكوك . وكان « قاموسه » معينا لا ينضب من الدروع التى يتسلح بها أعداء الكنيسة ضدها .

وكان ما حدث فى إنجلترا مثالا حافزا ملهما مشجعا للمفكرين الأحرار فى فرنسا . وبدا أولا أن دعوة فرنسيس بيكون إلى العلم الاستقرائى تبشر بثمار أكثر بكثير مما يبشر استنباط ديكارت السحرى لله والخلود من وجود ديكارت . ثم كانت مادية هوبز الفظة التى لم تكف قط عن إثارة ديدرو . وهناك أيضا نيوتن الذى بدا أنه هبط بالاله إلى مجرد ضاغط زرار فى آلة العالم ، ولم يكن الفرنسيون قد عرفوا بعد أن نيوتن أكثر إنتاجا فى اللاهوت منه فى العلوم . ولا ننس الربوبيين الإنجليز الذين أمدوا فولتير بالشجاعة والقوة الدافعة . وأخيراً جاء لوك ، لأن المتشككين الفرنسيين رأوا أن صرح الدين ينهار أمام القول بأن كل الأفكار مستمدة من الإحساس . وإذا كان الإحساس نتاج قوى خارجية فان الذهن نتاج الخبرة ، وليس هبة خالدة من لدن الله لا يراه أحد . وإذا كانت الخبرة تخلق الشخصية ، فان الشخصية يمكن تغييرها بتغيير طرق التعليم ومادته . وإصلاح النظم الاجتماعية ، ومن هاتين القضيتين خلص رجال مثل ديدور وهلفشيوس ودى هولباخ إلى نتائج ثورية . وتساءل فولتير مستحضرا لوك فى ذهنه « هل يمكن أن يكون ثمة شئ أعظم من أن تثير العالم بأسره سياسيا وإجتماعيا ببضع حجج ومناظرات » . (١٠) (مات فولتير قبل ١٧٨٩) .

واستمع مرة أخرى إلى ما كتبه المركيز دارجنسون اليقظ فى ١٧٥٣

« قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين فى فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التى لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف فى باريس ، بدلا من إرجاعه إلى الكراهية التى أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود »

ثم يضيف دارجنسون بعد التنبؤ بالثورة ، مما أسلفنا ذكره :

ستكون الثورة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الاصلاح الدينى — وهو

خليط مشوش من الخرافة والحرية جاءنا من ألمانيا فى القرن السادس عشر . ولما كانت أمتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين ، فانهما سيسيران إلى حيث ينبغى لهما أن يسيرا : سيطردان رجال الدين ، ويلغيان مهنة القساوسة ، ويتخلصان من كل الرحى وكل الأسرار الغامضة .... فلا يتحدث المرء فى مصلحة رجال الدين ولا يساندهم فى دوائر المجتمع وإلا كان موضع سخرية واستهزاء ، واعتبر جاسوسا لمحاكم التفتيش . ويشير القساوسة إلى أنه فى هذا العام نقص عدد أعضاء الجماعات الدينية بمقدار الثلث ، وهجر الناس الكلية اليسوعية ، وانسحب ١٢٠ راهبا من هؤلاء الرهبان الذين ساءت سمعتهم إلى حد كبير . (١١)

وكان ثمة تأثيرات فكرية أخرى أضعفت عقيدة العصور الوسطى الدينية . وانضم الفلاسفة إلى أصحاب المذهب المحافظ (الأرثوذكسى) فى رفض سبينوزا ، لأن هذا اليهودى الكبير دمغ بأنه ملحد ، وكان من الخطر التحدث عنه دون إتهامه ، كما حرص هيوم وفولتير على أن يفعلا . ولكنهم كانوا يقرأون سبينوزا سرا ، وكانت « رسالته اللاهوتية السياسية » تثير نقد الأسفار المقدسة . وشرح كونت بولانفيلير سبينوزا بحجة تفنيده . إن هيوم الذى تأثر بفرنسا هو نفسه ، كان يؤثر فيها كذلك ، وكان البناؤن الأحرار (الماسونيون) يؤسسون لهم مراكز فى فرنسا ، حيث كانوا يمارسون سراً هرطقتهم الربوبية . وكانت الكشوف الجغرافية والتاريخ والدراسة المقارنة للأديان تضيف نارا إلى البوتقة التى تجرى فيها أختبار المسيحية بما لم يعهد له مثيل قط من قبل . وكان كل علم من العلوم فى نموه وتقدمه يزيد من درجة احترام العقل ، ومن الإيمان بقانون كونى ، ومن عدم الإيمان بالمعجزات ، وبالذات بأعظمها شيوعيا وانتشاراً ، ألا وهى تحويل خمسين ألف كاهن يوميا الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه .

وعملت القوى الإجتماعية على إنحلال العقيدة . وكان كل إزدياد فى الثروة يعجل فى التسابق على اللذة والمتعة ، كما كان يجعل القيود على الأخلاق المسيحية أكثر إزعاجا يوما بعد يوم ، فى باريس التى احتفظ فيها أكثر الملوك مسيحية بمجموعة من الخليلات ، والتى إحتلت فيها مدام دى بمبادور مكان السيدة

مريم العذراء . بل أن الانحلال الخلقي في ذاك العصر تحول إلى إتهام للمسيحية ، فكيف يتأتى ، بعد سبعة عشر قرنا من سيطرة المسيحية ، ألا تكون أخلاق أوروبا أحسن حالا من متوحشي أمريكا أو « الوثنيين في الصين ؟ » .

وكانت كل طبقة ، عدا الفلاحين ، تضم أقلية متشككة . واستاءت البيروقراطية الحكومية من استقلال الكنيسة وإعفائها من الضرائب . والرباط الوثيق القديم بين الكنيسة و « ساعدها » الدنيوى العلماني وهو الدولة » بدأت تنفصم عراه . وكان هناك مفكرون أحرار ، مثل مالشرب في مصلحة الرقابة . وكان يحمي بكل قواه ديدرو ودائرة المعارف . وأوثق صلة بالملك كانت مدام دى بمبادور التي كانت تكره اليسوعيين ، والتي اعتبرها فولتير (واحدا منا) . ورأت الأرستقراطية في الكنيسة دعما لمركز أسرة البوربون التي كانت قد أطاحت بحكم هذه الأرستقراطية ، ومن ثم لم تكن هذه الطبقة تعارض أضعاف رجال الدين . بل لقد هلل كثير من النبلاء وسروا بامتهان فولتير وعدم توقيره للكنيسة والنيل منها ، وأبدى أفراد الطبقة الوسطى العليا ارتياحهم ورضاهم عن المفكرين الذين كانوا يحاربون رجل الدين . لأن هذه الطبقة لم تغفر للكنيسة استنكار الفائدة (الربا) وإيثارها ملاك الأرض على رجال المال ، فلو أن هؤلاء الأساقفة المتعجرفين أذيقوا المذلة والهوان لصعدت البرجوازية إلى مراقي الشهرة والثروة والسلطان ومن ثم فان رجال المال ، من أمثال بويلنيير وهلفشيوس ودى هولباخ فتحوا أبوابهم وخزائنهم ، بل حتى في بعض الحالات قاوبهم ، للحرب ضد الكنيسة . وكان المحامون منذ زمن غير قصير يحقدون على رجال الدين ويحسدونهم ، وكم تطلعوا إلى اليوم الذي يحكمون فيه الدولة ، كما كانوا بالفعل يحكمون البرلمانات . وذهب أحد تقارير الشرطة في ١٧٤٧ إلى أنه لا يكاد يوجد موظف في برلمان باريس لا يحتفظ بكتاب أو مخطوط مناف للدين في بيته [١٢] . وعجت مقاهي باريس بالالحاد . وكان هجاء رجال الدين والسخرية منهم متعة ظرفاء المدن الذين أشاروا إلى الله بأنه « السيد وجود » وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين إنتشارا واسعا حتى في الأقاليم ، ووزع بعض الباعة المتجولين لقاء ربح وفير ، ومن باب إلى باب ، منشورات عنوانها « أشهر الدجالين

الثلاثة »(*)؛ ألم ينتقل إلى رجال الدين أنفسهم عدوى الشك الديني ، بل هنا وهناك فى كل مكان ، عدوى الالحاد الصريح غير المقنع ؟ وإليك على سبيل المثال .

٣ — جان مسلييه : ١٦٧٨ — ١٧٣٣

كان جان راعي أبرشية أتربيني فى شمبانيا . وكان فى كل عام يمنح الفقراء كل ما يتبقى من راتبه بعد تسديد نفقات حياته المعتدلة البعيدة عن الإسراف والتبذير . وبعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية فى وظيفة الراعي ، قضى نحبه وهو فى الخامسة والخمسين ، موصيا بكل ما يملك لأهالى الأبرشية ، تاركا ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها « عهدى الجديد » وجهت إحداها إلى شعب الأبرشية : توسل فيها إليهم على المظروف الذى وضعت فيه المخطوطة ، أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم . وواضح أنه فقد الإيمان بالدين قبل أن يرسموه كاهنا » إننى لم أتقاد عملا يتعارض مع مشاعرى بشكل صريح طمعا فى المال ، بل أنى امتثلت فى هذا لأبوى (١٣) ونشر فولتير أجزاء من « العهد الجديد » ١٧٦٢ وأصدر ديدرو ودى هولباخ خلاصة له فى ١٧٧٢ تحت عنوان « رجاحة عقل الكاهن مسلييه » ولم يطبع النص الكامل حتى ١٨٦١ — ١٨٦٤ ونفدت طبعته منذ عهد بعيد . ويندر الحصول عليه . وفى كل الحملة ضد المسيحية من بيل إلى الثورة ، لم يوجد هجوم متطرف قاس لا يرحم مثل هجوم كاهن القرية هذا . ويبدو أنه بدأ شكوكه بدراسة الكتاب المقدس . وأظهرت نتيجة هذه الدراسة أن الكنيسة كانت حكيمة إلى حد ما فى إبعاد الكتاب المقدس عن العامة . وكان يجدر بها أن تحتفظ به بعيداً عن متناول رجال الدين أيضاً . ووجد الأب يوحنا صعوبات كثيرة فى الكتاب المقدس . لماذا اختلف نسب السيد المسيح فى إنجيل متى إختلافا كبيراً عنه فى إنجيل لوقا ، إذا كان كلاهما

(*) المخطوط محفوظ فى المكتبة الوطنية فى باريس (وهو بهذا يقصد الأنبياء ، مما لا تقره عليه) .

منزلا من عند الله ؟ لماذا لم تنته سلسلتا النسب هاتان بيوسف إذا كان سيعفى سريعا من انجاب يسوع ، لماذا يمتدح ابن الله بأنه ابن داود الذى كان زانيا بكل معنى الكلمة ؟ وهل تنطبق نبوءات العهد القديم على المسيح ، أم أن هذه التطبيقات مجرد شطحات للقوة اللاهوتية ؟ وهل كانت معجزات العهد الجديد حيلا أو خداعات ورعة ، أم كانت عمليات طبيعية أسئ فهمها ؟ وهل نصدق هذه الحكايات أم نتبع العقل ؟ وصوت جان إلى جانب العقل وأيده :

« لن أضحى بعقلى ، لأن عقلى وحده يمكننى من التمييز بين الخير والشر وبين الحق والضلال ... لن أتخلى عن الخبرة لأنها مرشد وهاد أفضل بكثير من الخيال ، أو من سلطان المرشدين الذين أرادوا أن يزودونى به . لن أرتاب فى حواسى . ولست أتجاهل أنها يمكن أحيانا أن تؤدى بى إلى الخطأ . ولكنى من جهة أخرى أدرك أنها لن تضللنى دائما ... إن حواسى تكفى لتصحيح الأحكام والقرارات المتسرعة التى ملت إلى إتخاذها [١٤] .

ولم يجد جان فى العقل مسوغا للإيمان بالإرادة الحرة أو خلود النفس ، ورأى أنه « يجدر بنا أن نكون شاكرين أن تهيأ لنا جميعا نوم أبدى بعد نصب وصخب الحياة الدنيا التى تسبب المشقة أكثر مما تسبب اللذه لغالبيتنا ... عودوا جميعا فى سلام إلى المستقر العام الشامل الذى جئتم منه ، ومروا دون ضجة أو تذمر مثل كل الكائنات التى حولكم » . [١٥] وعلى أولئك الذين دافعوا عن فكرة الجنة ، من قبيل العزاء ، أجاب « بأن أقلية ضئيلة ، على زعمها ، حققت هذا الهدف ، على حين كان مآل الأغلبية إلى الجحيم . فكيف إذن يمكن أن تكون فكرة الخلود عزاء ؟ إن العقيدة التى تخلصنى من المخاوف الرهيبة ... تبدو مرغوبا فيها أكثر من الشك الذى تركنى مؤمنا بإله يتحكم فى عطفه فلا يمنحه إلا لذوى الحظوة لديه ، ويهيئ للآخرين السبيل ليكونوا جديرين بالعذاب الأبدى ، كيف يمكن لأى إنسان متحضر أن يؤمن بإله يحكم على المخلوقات بالخلود فى الجحيم . ؟ »

> هل هناك فى الطبيعة إنسان بلغ من القسوة حداً يتعمد فيه تعذيب ، لا أقول رفاقه من الكائنات ، بل أى كائن واع حساس أياً كان ؟ فأقروا إذن يا رجال اللاهوت أن إلهكم طبقاً لمبادئكم ، شرير أكثر بكثير من أى شرير من بنى الإنسان . إن القساوسة ورجال الدين جعلوا من الإله كائنا خبيثا ماكراً صارماً إلى حد أن فئة قليلة فى هذه الدنيا هى التى لا تود إلا أن يكون الإله موجوداً .. وأية أخلاق نتحلى بها إذ كنا نقلد هذا الإله . (١٦)

ورأى فولتير فى هذا شيئاً من التطرف ، وبذل أقصى الجهد عند نشره « العهد الجديد » (الذى ألفه جان) فى أن يلطف من الحاد الكاهن بالربوبيه ، ولكن مسلييه كان عنيدا متشددا . واستطرد قائلا أن اله المسيحية هو منشئ كل الشرور ، لأنه حيث أنه قادر على كل شئ يتم دون رضاه وموافقته ، فاذا وهبنا الحياة فإنه كذلك كتب علينا الموت . وإذا وهبنا الصحة والثروة ، فإنه يعوض منهما بالفقر والقحط والمصائب والحروب . (١٧) إن فى العالم دلائل كثيرة على تصميم بارع ، ولكن هلا توجد فيه علامات كثيرة بنفس القدر على أن العناية الإلهية ، إن وجدت ، قادرة على إيقاع أشد أذى شيطانى؟

> إن كل الكتب زاخرة بأشد المديح والثناء رياء ونفاقا على العناية الإلهية التى أفرطوا فى الثناء على رقابتها اليقظة . ومهما يكن من أمر فإننا إذا تفحصنا كل أجزاء الكرة الأرضية لوجدنا أن الإنسان المتحضر وغير المتحضر على السواء فى صراع دائم مع العناية الإلهية . فهو مضطر إلى أن يصد الضربات التى تنزلها به فى صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبرد وفيضانات وجدب وغيرها من مختلف النازلات التى تجعل كد الإنسان وجده غير ذى جدوى . وفى إيجاز أرى أن البشر جميعا مشغولون باستمرار فى حماية أنفسهم من الحيل الشريرة الخبيثة التى تدبرها هذه العناية الإلهية التى يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم . (١٨)

وفوق كل شئ هل وجد إله أغرب وأبعد عن التصديق من هذا ؟ إنه لآلاف السنين ظل مختفياً عن أعين البشر ، واستمع دون استجابة واضحة بريئة

لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه . والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة ، ولكن ملكه يسوده الخلل والاضطراب والخراب . والمفروض أنه خير ولكنه يعاقب كما يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية . والمفروض أنه عادل وهو يهيئ للأشرار سبل الرخاء والإزدهار ، على حين يتعذب القديسون حتى الموت . إنه منهمك دائماً فى الخلق والتدمير (١٩) .

وبدلا من الإعتقاد مثل فولتير بأن الإيمان بالله أمر طبيعى عام ، أكد مسلييه أن مثل هذا الإيمان أمر غير طبيعى ، وأنه يجب أن يصب فى أذهان المراهقين أن :

كل الأطفال ملحدون — ليس لديهم فكرة عن الإله ... ويؤمن الناس بالله بناء على كلام أولئك الذين لا يعرفون عنه أكثر مما يعرف الأولون . إن مربياتنا هن أول معلمى اللاهوت . إنهن يتحدثن إليهم عن الإله كما يتحدثن عن آدميين تحولوا إلى ذئاب ... إن قلة قليلة من الناس كانت تتخذ إلها لولا ما يبذل من جهد فى أن يجعلوا لهم إلها.(٢٠)

وعلى حين أعلن معظم الملحدين عن إعجابهم بيسوع ، نرى مسلييه يشمل السيد المسيح نفسه فى هدمه الغاضب الانفعالى للعقيدة الدينية . وقبل كل شئ . أى رجل عاقل يصدق أن الله ، لكى يسترضى البشر ويستميلهم .. يمكن أن يضحى بأبنه البرىء الذى لم يرتكب إثما ؟ (٢١) أما عن يسوع نفسه فيقول : —

إننا نرى فيه ... متعصبا مبغضا للبشر ، يعظ البائسين فينصحهم بأن يكونوا فقراء . ويكافحوا الطبيعة ويجمدوها ، ويكرهوا اللذة ويلتمسوا الآلام والشقاء ، ويحتقروا أنفسهم ، ويطلب إليهم أن يتخلوا عن الأب والأم وكل أواصر الحياة ليتبعوه . أية أخلاق كريمة ! ... لابد أن تكون سماوية لأنها غير عملية بالنسبة للإنسان(٢٢)

وينتقل مسلييه إلى مادية كاملة : وليس من الضرورى أن نذهب إلى ما وراء المادة لنسأل عمن خلقها . ويمكن أن يتخلف لغز المنشأ خطوة إلى الوراء ليفسح مجالا للسؤال الطبيعى للطفل : « من الذى خلق الله ؟ » وأنا

أقول لكم أن المادة تعمل من نفسها بنفسها ... واتركوا لرجال اللاهوت عللهم الأولى وليس للطبيعة من حاجة بهذا لإحداث كل الآثار والنتائج التى تراها [٢٣] وإذا كان لزاما أن تعبدوا أحداً ، فاعبدوا الشمس ، كما تفعل شعوب كثيرة ، فإن الشمس هي الخالق الحقيقي لحياتنا وللصحة والضوء والدفء والبهجة والسرور . ولكن واحسرتاه ! ويأسف مسلييه، لو أن الدين كان واضحا لكان أقل جاذبية وفتنة لدى الجهال ... إن هؤلاء بحاجة إلى الغموض والأسرار والخرافات والمعجزات والأشياء التى لا يمكن تصديقها [٢٤] .... إن المساوسة والمشرعين ، بابتداع الأديان وإختلاق الأسرار ... قد أرضوا أذواق الجهال ، إنهم بهذه الطريقة يجتذبون المتحمسين والنساء والأميين . [٢٥]

وصفوة القول ، فى رأى مسلييه ، أن الدين كان جزءاً من مؤامرة بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للحكم المطلق [٢٦] . إن الكهنة « حرصوا كل الحرص على أن يجعلوا إلههم مرعبا متقلبا طاغية كثير النزوات والأهواء . وكان لزاما أن يكون كذلك من أجلهم حتى يكون فى خدمة مصالحهم المتنوعة » [٢٧] وتقع تبعة هذه المؤامرة على رؤوس رجال الدين أكثر منها على الملوك ، لأنهم يسيطرون على الأمير منذ طفولته ، عن طريق كاهن الاعتراف ، ويلقنونه الخرافات ، ويشوهون عقله ويعوقون نموه ويقودونه إلى التعصب الديني والاضطهاد الوحشي[٢٨] وبهذا :

> زعزعت الخلافات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى الثورات ودمرت الملوك وخربت أوربا بأسرها ، ولم يكن من الميسور إخماد هذه النزاعات الحقيرة حتى فى أنهار من الدماء . إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو المتوحشين ، فى كل مرة يستثيرهم فيها معلموهم إلى تحطيم إخوتهم ، وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس فى سبيل إرضاء الرب أو تسكين سورة غضبه [٢٩] ... أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا يوجد إلا فى خيالهم وحدهم [٣٠]

إنهم يدافعون عن هذه المؤامرة الضخمة المستمرة بذاتها من جانب الكنيسة والدولة ضد الإنسان والعقل على أساس أن ديانة خارقة للطبيعة ، بل قل ديانة إرهاب ، أمر لا غنى عنه فى مهمة بناء الفرد والأخلاق .

ولكن هل حقاً أن نظرية الجنة والنار تجعل الناس على جانب أكبر من الفضيلة ، وهل الأمم التى يسودها هذا الزعم تشتهر بالسلوك الحميد والخلق القويم ؟ [٣١] ويكفى لنتحرر من الوهم أن نفتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكا بالدين ونفكر فيها مليا ، وسنرى طغاة متعجرفين ، ورجال البلاط ، ومغتصبين لا حصر لهم ، وحكاما لا ضمائر لهم ، ودجالين وزانين وفاسقين وأباحيين فجرة ، وعاهرات ولصوصا ، وأوغاداً من كل صنف ، لم يشكوا لحظة فى وجود إله محب للإنتقام ، أو لم يشكوا فى عذاب الجحيم أو جنة النعيم [٣٢] .

كلا ، إن الأفكار اللاهوتية ، على الرغم من اعتراف كل الناس تقريبا بها ، فإن تأثيرها على سلوكهم ضعيف ، فالإله بعيد كل البعد ولكن الإغراء قريب « من ذا الذى ترهبه وتخيفه فكرة الإله ؟ نفر قليل من الضعاف البائسين المتبرمين بالحياة ، وبعض أفراد انطفأت فيهم بذرة العواطف والشهوات بحكم السن أو العجز والوهن أو تعثر الحظ . [٣٣] إن الدولة ، لا الكنيسة ، هى التى تخلق النظام وتعود المواطنين على طاعة القوانين » إن القيود والضوابط الإجتماعية أقوى من الدين فى تقويم سلوك الناس [٣٤] وأحسن العلاقات ، مع تعاقب الأيام ، هى تلك التى تؤسس على العقل والذكاء .

ولكى يتبين الناس مبادىء الأخلاق القويمة فإنهم ليسوا بحاجة إلى اللاهوت أو الوحى أو الآلهة . إنهم ليسوا بحاجة إلا إلى الفطرة السليمة وحسن الإدراك ، إنهم ينبغى عليهم أن يتفكروا فى أنفسهم ويتأملوا طبيعتهم ، ويتدبروا مصالحهم الواضحة ، ويأخذوا بعين الاعتبار هدف المجتمع وهدف كل عضو فيه ، ومن ثم يدركون بسهولة أن الفضيلة نعمة وأن الرذيلة نقمة على رفاقهم من الكائنات. والناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة ، وهم جهلة لأن كل شىء يتآمر على

الحيلولة بينهم وبين الاستنارة . وهم أشرار لمجرد أن عقلهم لم ينم ولم يتطور بعد بدرجة كافية : (٣٥)

ويستطيع الفلاسفة أن يبنوا أخلاقا طبيعية فعالة ، لو لم يكرهوا على معتقد تقايدى ؛ اتقى خشية الكهنة الأقوياء المتسلطين :

إن اللاهوت منذ أقدم العصور هو الذى حدد مسار الفلسفة وبم ساعدها اللاهوت ؟ إنه حولها إلى رطانة غير مفهومة ... ذات ألفاظ لا معنى لها ، أكثر ملاءمة للتعمية منها للتنوير ... كيف اضطر ديكارت ومالبرانش وليبنتز وكثيرون غيرهم لإبتداع فرضيات ومراوغات ليوفقوا بين كشوفهم وبين الأفكار الخيالية والأخطاء الفاضحة التى أضفى عليها الدين صفة القداسة ! وأية احتياطيات لم يلجأ إليها أعظم الفلاسفة لحماية أنفسهم . حتى إلى حد المغامرة بوصفهم بالطيش والحمق ، وبأن كلامهم غير مفهوم إذا تعارضت أفكارهم مع مبادىء اللاهوت ! وكان القساوسة اليقظون على أتم استعداد لهدم المبادىء والآراء التى يتعذر التوفيق بينها وبين مصالحهم . وكل ما استطاع الأفراد المستنيرون أن يفعلوه هو أن يتحدثوا ويكتبوا فى معان خبيئة وغالبا مطاوعة موصومة بالجبن ، حتى يوفقوا بين الباطل والحق توفيقاً مخزيا . كيف أمكن أن يدعى الفلاسفة والحديثون ، تحت التهديد بأقسى الإضطهاد والتعذيب ، إلى نبذ العقل والخضوع للعقيدة — أى لسيادة رجال الدين وسيطرتهم — وكيف يتأتى لأناس مكبلين بمثل هذه القيود والأغلال أن يطلقوا العنان لعبقريتهم ومواهبهم ... أو يعجلوا بتقدم الإنسانية (٣٦) ؟

وكان لدى بعض الفلاسفة من الشجاعة ما استطاعوا معه أن يتقبلوا الخبرة والعقل هاديا ومرشدا لهم ، ويحطموا أغلال الخرافة — لوسيبوس وديموقريطس وإبيقور وسترابو — ولكن مناهجهم كانت بسيطة معقولة مجردة من الأعاجيب والمعجزات من أجل عشاق الخيال حتى اضطرت إلى الاستسلام لأحداس أفلاطون وسقراط وزينون الخرافية . ومن بين الفلاسفة الحديثين اتبع هوبز وسبينوزا وبيل وغيرهم نهج ابيقور (٣٧) .

ورثى مسلييه لما منيت به البشرية من خسارة نتيجة لسيطرة اللاهوت

على الفلسفة . ودافع عن حرية الفكر حقاً أساسياً ، يمكنه وحده أن يحقق للناس معنى الإنسانية وعظمة النفس [٣٨] .

إنهم باظهارهم الحقيقة وحدها يمكنهم أن يدركوا أفضل مصالحهم ، والعوامل الحقيقية التي تؤدى بهم إلى السعادة . لقد طال العهد بمعلمى الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء ، فليرجعوا بأبصارهم ثانية إلى الأرض . لقد تعب الذهن البشرى من اللاهوت المبهم والخرافات السخيفة ، والأسرار العويصة والطقوس الصبيانية . فلينشغل هذا الذهن البشرى بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية والأهداف والأشياء الواضحة والحقائق المعقولة والمعرفة النافعة . [٣٩]

فليطلقوا حرية الكلام والفكر والصحافة والطباعة وليكن التعليم علمانيا غير مقيد . إذن لأسرع الناس الخطى يوما بعد يوم إلى اليوتوبيا (المثالية). إن النظام الإجتماعى الراهن جائر ، أنه يهئ لأقلية ضئيلة الثراء الخامل وينشر فيها الفساد نتيجة للترف والبذخ ، على حساب الإبقاء على الملايين فى فقر مذل وجهل مخز . ونظام الملكية هو أس البلاء ، فالتملك لصوصية ، وقد كيفوا التعليم والدين والقانون لحماية هذه اللصوصية وإجازتها ، [٤٠] وان ثورة للقضاء على مؤامرة الأقلية ضد الأغلبية لها ما يبررها كل التبرير . وصاح مسلييه فى غضبته الأخيرة « أين جاك كليمنت (قاتل هنرى الثالث) ورافايالك (قاتل هنرى الرابع) فى فرنسا ؟ هل بقى على قيد الحياة فى أيامنا هذه رجال يطيحون برؤوس هؤلاء الجبابرة البشعين المنحرفين أعداء الجنس البشرى ، وبهذا يخلصون الناس من الطغيان [٤١] ؟ فلنوزع الأمة الملكية توزيعا عادلا ، وليشتغل كل إنسان بعمل مناسب ، وليكن الإنتاج قسمة متساوية بينهم ، وليتزوج الرجال والنساء وليفترقوا متى شاءوا ، ولينشأ أطفالهم معاً فى مدارس مشتركة ، وعندئذ تكون ثمة نهاية للنزاع فى الأسرة ونهاية لحرب الطبقات والفقر . وهنا تكون المسيحية فى النهاية حقيقية صادقة [٤٢] .

وبعد أن ذكر جان مسلييه كل ما أسلفنا ، ختم إنجيله أو عهده الجديد بعبارة يتحدى فيها ، كما أدرك هو ، كل الذين يمقتونه ويصبون عليه اللعنات :

دعهم يفكروا أو يحكموا ويقولوا ويفعلوا مايريدون ... لن أعبأ بهم كثيراً ... بل إنى اليوم لم أعد أعبأ كثيرا بما يحدث فى العالم . إن الأموات الذين أوشك أن ألحق بهم قريبا ، لا يعانون الآن شيئاً ولم يعودوا يزعجون أنفسهم . ومن ثم فأنا أضع نهاية لكل هذا . أنا الآن أشبه شئ بالعدم ، وبعد قليل سأصبح لا شئ حقاً (٤٣) .

هل وجد ثمة عهد أو ميثاق مثل هذا فى تاريخ البشرية جمعاء ؟ تصور الكاهن المنعزل مجردا من كل عقيدة ومن كل أمل ، وهو يعيش منسيا لا ذكر له فى قرية قد ترتعد فيها كل النفوس رعبا ورهبا ، إلا نفسه هو ، لمجرد الاطلاع على أفكاره الخفية . ولهذا لم يتحدث بمثل هذه الحرية إلا لمخطوطته . وهناك ، ودون إكتراث ودون معرفة واسعة بطبيعة الإنسان ، صب كل غيظه واستيائه فى صراحة بالغة معادية للدين غاية العداء مما لم يعهده حتى عصره نفسه . وهنا كانت حملة فولتير ضد « المنبوذين » وكل مادية لامترى وكل الحاد دى هولباخ ، وكل خيال ديدرو الجامح المدمر ، بل شيوعية بابيف أيضاً . واصدر فولتير « عهد » جان مسلييه بعد تردد ، ونشره دى هولباخ فرحا مغتبطا ، ومن ثم اختمر فى ذهن فرنسا وأسهم فى التمهيد لسقوط النظام القديم . ونشوة الابتهاج بالثورة الفرنسية .

٤ — هل الإنسان آلة ؟

إن جوليان أجوفروى دى لامترى رد على هذا السؤال بالإيجاب . وولد فى سان مالو ١٧٠٩ لتاجر ميسور ، وتلقى تعليما واسعا واعتزم أن يكون شاعرا . وحبذ والده الوظيفة الكنسية باعتبارها أقل خطرا ، فأرسله إلى إحدى الكليات فى بليسيس حيث شب الولد جانسنيا متحمسا . ولكن طبيبا صديقاً للوالد رأى (هكذا يقول فردريك الأكبر) أن طبيبا عاديا يمكن أن يحصل من علاج المرضى على أكثر مما يحصل عليه القسيس الفاضل من عمليات الغفران . (٤٤) ومن ثم حول جوليان إهتمامه إلى التشريح والطب وحصل على درجة فى الطب من ريمس ، وتتلمذ على بورهاف فى ليدن ، وكتب عدة أبحاث طبية ، وعمل جراحا فى الجيش الفرنسى ، ورأى واحداً

فى المائة من الحمد والعظمة وتسعة وتسعين فى المائة من حالات الإسهال (٤٥) فى ساحتى القتال فى دتنجن وفونتنوى ، ولزم هو نفسه الفراش أثر حمى شديدة ، فلما شفى زعم أن صفاء ذهنه أو موضوع تفكيره كان يختلف باختلاف درجة الحمى . ومن ثم خلص إلى أن التفكير وظيفة المخ ، ونشر هذا كله وما يرتبط به من آراء ١٧٤٥ تحت عنوان « التاريخ الطبيعى للنفس » .

وسار البحث على هذا المنوال : « نحن لا نعرف ما هى النفس . ولا نعرف ما هى المادة ، ولكنا نعرف على أية حال أنه لا توجد نفس بلا جسد : ولدراسة النفس تجب دراسة الجسم ، ولدراسة الجسم ينبغى أن نبحث فى قوانين المادة . إن المادة ليست مجرد امتداد ، إنها أيضاً قدرة على الحركة ، وهى تشتمل على مصدر فعال يتخذ مزيدا من الأشكال فى مختلف الأجسام ، ولسنا نعرف أن للمادة فى ذاتها قوة الإحساس ، ولكنا نشهد دليلا على تلك القوة حتى فى أحط الحيوانات . وإنه لأكثر إتفاقا مع المنطق أن نعتقد بأن هذه الحساسية تطور من إمكانية من أصل واحد فى المادة ، من أن تعزوها إلى نفس خفية صبت فى الأجسام عن طريق قوة خارقة للطبيعة . وعلى هذا فإن هذا المصدر الفعال « فى المادة يتطور فى النبات والحيوان حتى إذا كان فى الإنسان مكنه من أن يدق قلبه ، ومن أن تهضم معدته ومن أن يفكر مخه . وهذا هو التاريخ الطبيعى للنفس . » —

وارتعدت فرائص القسيس فى كتيبه لامترى فزعا لهذه النتيجة ، وصاح منذراً متوعداً ، وفصل الطبيب الفليسوف من وظيفة الجراح فى الجيش ، وكان يمكن أن يهب زملاؤه الأطباء لنجدته ، لولا أنه كان قد كتب فى نفس الوقت تقريبا كتابا صغيرا تحت عنوان « سياسة الأطباء » يهجو فيه دسائسهم فى تنافسهم على الوظائف التى تدر مالا وفيرا . وانضموا إلى مهاجمته واستنكار آرائه . ورأى أن عمله فى الطب قد انهار كما انهارت شهرته ، ففر إلى ليون ، وهناك شن هجوما آخر على مهنة الطب وتحول إلى الفلسفة .

وهكذا أصدر لامترى فى ليون كتاب (الإنسان الآلة) وهو يقصد بالآلة هنا جسما ترجع كل أفعاله إلى أسباب وعمليات باطنية أو تلقائية . أما

جسم الحيوان آلة فيتضح له من مائة ظاهرة : فإن جسم الحيوان يظل ينبض ويرتجف ، وأن أمعاءه تظل تتمعج (التمعج موجات متعاقبة من تقلص لا إدارى تحدث فى جدران الأمعاء فتدفع محتوياتها إلى الأمام) لبعض الوقت بعد الموت . وتنبض العضلات التى تفصل عن الجسم إذا نبهت وهكذا . فالحيوانات عندئذ آلات ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم لا يكون الإنسان ، وعظامه وعضلاته وأوتاره وأعصابه قريبة الشبه إلى حد بعيد بالحيوانات العليا ؟ وواضح أن الذهن يعتمد على العمليات الفيزيائية الكيمائية فى الجسم والأفيون والقهوة والخمر ومختلف العقاقير لا تؤثر فى الجسم وحده . بل إنها يمكن أن تغير مجرى التفكير وطبيعته ، ومزاج الإرادة وقوتها . إنك إذا غيرت بعض الأنسجة فى مخ فونتينيل لجعلت منه شخصاً أحمق أبله [٤٦] ، إن مرض الجسم يمكن أن يضعف الذهن . إن النفس تكتسب حيوية ونشاطاً بالجسم ، وتكتسب حدة وذكاء كلما قوى الجسم [٤٧] ، والغذاء يؤثر فى الخلق . وعلى هذا فان « الانجليز الذين يأكلون اللحم أحمر مشويا بالدم ، غير مطهو طهيا جيدا مثل لحومنا ، يبدو أنهم يشتركون بشكل أو بآخر فى الوحشية تبعاً لهذا اللون من الطعام [٤٨] فهل ندهش إذن إذا وعى الفلاسفة دائماً فى أذهانهم صحة الجسم حفاظا على صحة النفس ؟ » ، وأن « فيثاغورس وضع قواعد للتغذية كما حرص أفلاطون على تحريم الخمر ؟ » [٤٩] ويخلص لامترى إلى أنه :

> حيث أن كل قدرات النفس تعتمد إلى مثل هذا الحد على التنظيم السليم للمخ وكل أجزاء الجسم ... فمن الواضح أن هذه القدرات ليست إلا هذا التنظيم نفسه . وواضح أن النفس آلة مستنيرة ... فالنفس لذلك لفظة جوفاء ، ليس لدى أى إنسان فكرة عنها ، ويجدر أن يستخدمها الإنسان المستنير لتعنى فقط ذلك الجزء الذى يفكر فينا [٥٠] .

وفى كتاب « الإنسان نبات » (١٧٤٨) توسع لامترى فى « سلسلة الوجود » الكبيرة إلى نظرية للتطور . وفقد بعض ثقته حين حاول تخطى الهوة الواضحة بين اللاعضوى والعضوى ، وفجأة نسى الآلية (المذهب الآلى) وانزلق إلى

المذهب الحيوى : افترض بذورا معينة مكنت المادة من أن تسبب الحياة (٥١) ووجد من السهل عليه بعد ذلك أن يتبع اوكريتس « لابد أن الأجيال الأولى كانت ناقصة غير تامة ... وما كان يمكن أن يكون الكمال عمل يوم واحد فى الطبيعة ، ولا فى الفن » (٥٢) . وليضيق الهوة بين الحيوان والإنسان يحاول لامترى ، على النقيض من ديكارت ، أن يبرهن على أن بعض الحيوانات تفكر : —

> لننظر إلى القرد والسمور (حيوان ذو فراء ثمين) والفيل وغيرها فى تصرفاتها . وواضح أن هذه الأنشطة لا يمكن تأديتها دون ذكاء . ولم ننكر الذكاء على هذه الحيوانات ؟ وإذا وهبتهم نفسا فقد ضيعت . ومن ذا الذى لا يرى أن روح الحيوان يجب أن تكون فانية أو باقية ، من أى النوعين نفس الإنسان ؟ (٥٣) .

وليس ثمة فرق كبير بين أبسط إنسان وأذكى حيوان « فالبلهاء » أو المعتوهون .... حيوانات لها وجوه بشرية . كما أن القرد الذكى إنسان صغير ذو شكل آخر (٥٤) ويستطرد لامترى فيقول فى دعابته المألوفة أن كل مملكة الإنسان ليست إلا مركبات من قردة مختلفة ، ووضع البابا نيوتن على رأسها (٥٥) ولم يعد الإنسان يكون قردا إلا عندما اخترع أصواتا معينة لتكون تعبيرا مناسبا عن أفكار بعينها . وأصبح إنسانا بفضل اللغة (٥٦) .

وهل أقر لامترى بوجود إله « محركا أول » لآلة العالم ؟ وكأن فولتير وديدور قد دافعا عن هذه الحجة من الحاجة إلى وجود نظام للكون . ورفضها لامترى فى احتقار :

> إن كل تفكير يقوم على العلل أو الأسباب النهائية تفكير طائش . إن الطبيعة تمهد الطريق للسيد البرجوازى ليتحدث نثرا دون أن يعرفه . إن الطبيعة عمياء حين تهب الحياة ، قدر ما هى بريئة حين تدمرها . وكما أنها دون نظر خلقت عينين تبصران ، فإنها كذلك صنعت دون تفكير ، آلة تفكر (٥٧) .

ولم يكن لامترى ملحداً صريحاً . إنه تظاهر بالميل إلى نبذ موضوع الإله

على أنه غير هام « فليس يهمنا من أجل راحة البال ، إذا كانت المادة أبدية أو أنها خلقت ، أو أنه يوجد أو لا يوجد إله » . [٥٨] ولكنه نقل ربما عن صديق وهمى « إن العالم لن يكون سعيداً مطلقاً إلا إذا كان ملحداً » ، فعند ذاك لا تكون ثمة مزيد من خلافات لاهوتية ولا اضطهادات من جانب الكنيسة ولا مزيد من الحروب الدينية ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن غرائزه الطبيعية دون شعور بالإثم [٥٩] وقنع لامترى بالنسبة لشخصه بالمادية (المذهب المادى) واختتم كتابه « الإنسان آلة » بعبارة جريئة متحدية : « هذا هو منهجى — بل هو الحق ، إلا إذا كنت قد ضللت كثيراً . إنه موجز بسيط . ناقشوه الآن إذا أردتم » . [٦٠] ويحتمل أنه من قبيل الدعابة أهدى لامترى بيانه « اللاأدرى » (الغنوصى) إلى الشاعر المتدين الورع والعالم الفسيولوجى البرخت فون هوللر الذى رفض الإهداء فزعا جزوعا فى خطاب إلى « صحيفة العلماء » عدد مايو ١٧٤٩ .

إن المؤلف المجهول لكتاب « الإنسان آلة » أهدى إلى كتابه الخطير بقدر ما هو شاذ غير مألوف ، وإنى لأشعر بأنى مدين بالفضل لله وللدين ولنفسى ، إذ أدلى بهذا التصريح ... إنى أعلن هنا أن الكتاب الذى نحن بصدده لا يلتئم مع مشاعرى ، وأعتبر أن فى إهدائه إلى شخصى إساءة بالغة تفوق فى قساوتها كل إساءة وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من أفاضل الناس . وأرجو أن يتأكد الجمهور أنى لا علاقة لى بهذا المؤلف ... وأنى لا أعرفه ... وأنه يجدر بى أن أعتبر أى توافق بيننا فى الآراء أعظم كارثة محققة يمكن أن تنزل بى [٦١] .

واستمر لامترى يطبع الإهداء فى الطبعات اللاحقة من هذا الكتاب .

وتناول الناس « الإنسان آلة » بالنقد والتمحيص على نطاق واسع ، واجمعوا على دحضه وتفنيده . وكان من اليسير نقد الأسلوب المضطرب فى هذا المجلد الصغير وشجب الثقة بالنفس وتبيان مواضع مجانبة الحقيقة . ولم يكن واضحا على الإطلاق أن النفس والجسم يغلبهما النعاس معاً [٦٢] وبعض الكتاب أكثر إشراقاً فى أحلامهم وأوهامهم منهم فى كتاباتهم . وقد

يستقر جسم مريض فى ذهن سليم مثل بوب وسكارون ، ولن يسلم محبو اللحوم النادرة أنهم لا يزالون فى مرحلة الصيد . إن لامترى نفسه الذى كان كثير المزاح نشر نقدا مزعوما لكتابه ، فى رسالة غفل من اسم المؤلف تحت عنوان « الإنسان أكثر من آلة » — وربما كان هذا وسيلة لجذب الأنظار إلى كتابه الأول .

ومن ناحية أخرى ربما كان لامترى متأثرا حقا بالحجج التى تساق ضد المذهب الآلى ، ونحن نعلم أنه كان مهتما بشرح ترمبلى (١٧٤٤) للقوى التجديدية فى الماء العذب لبعض الحيوانات المائية البسيطة ، مما لم يتفق بسهولة مع النظرية الآلية • وكان جورج سقتال الذى اشتهر برأيه فى وجود نارية فى الأجسام ، قد قلب فى جرأة (١٧١٧) الفرضية الفسيولوجية ، ذلك أنه بدلا من القول بأن الجسم هو الذى يحدد أفكار النفس واختياراتها ، فإن النفس — وهى العنصر المتأصل النشط — هى التى تتحكم فى نمو الأعضاء وعملها . وكان تيوفيل دى بوردو — طبيب دالمبر — يعتقد أن العمليات الفسيولوجية ، حتى أبسط الهضم غير قابلة لتفسيرات آلية أو كيميائية بحتة [٦٣] وعرض جان بابتست روبينيه حيوية كونية وهبت كل المادة الحياة والحساسية . وكان واضحا أن لامترى يود أن يرتضى هذا الحل لمشكلة المادة بازاء الحياة .

وفى الوقت عينه انتقل لامترى ليستنتج مذهبا قائما على اللذة من فلسفته المادية . وفى كتب ثلاثة مستقلة — بحث فى السعادة ، واللذة ، وفن الاستمتاع — أعلن أن حب الذات هو أسمى الفضائل . وأن اللذة الحسية هى أعظم الخير ، وكره تحقير اللاهوتيين للملذات الحياة ، ونازع فى سمو المتعة العقلية المزعومة ورأى أن كل الملذات حسية حقاً . ومن ثم فان البسطاء من الناس الذين لا يهتمون بالحياة الفكرية أسعد حالا من الفلاسفة ، ويقول لامترى : لا يندمن أى إنسان على انغماسه فى الملذات الحسية ما دامت لا تنطوى على أى ضرر للغير ، ولا يجوز أن يعتبر أى إنسان مسئولا مسئولية خلقية عن جرائمه لأنها نتاج الوراثة والبيئة اللتين لا سلطان له عليهما ، وينبغى ألا

يعالجوه بالعظات بل بالدواء . ويحزم يحمى المجتمع ، بل وبشفقه تعترف بحتمية كونية . ومن المرغوب فيه أن نختار لمناصب القضاء أمهر الأطباء (٢٤).

وكانت هذه الآراء من علائم إنتصار أبيقور (وقد أسئ فهمه) على زينون فى فرنسا القرن الثامن عشر : واستسلمت الفلسفة الرواقية فى العهد الزاهر للويس الرابع عشر ، لدفاع الأبيقورية عن مذهب اللذة فى عصر الإستنارة ، واشمولية المادة وإطراح الألهة . فلا عجب أن يشتد الإقبال على كتب لامترى من جمهور تحرر من أوهام اللاهوت وأرهقته الشكليات التقليدية والقيود الخلقية . ومهما يكن من أمر فإن المجتمع المهذب نفر من لامترى باعتباره مفكرا خارجا على جماعته كشف عن كثير من معتقدات الطبقة العليا ، وهو عاجز عن ضبط النفس . وهاجمه رجال الدين مبعوثا من عند الشيطان . واستحث رجال اللاهوت فى ليدن الحكومة الهولندية لإبعاده عن البلاد . وفى فبراير ١٧٤٨ دعاه المفكر الحر فردريك الأكبر للحضور إلى بروسيا ومنحه راتبا ، وضمه إلى أكاديمية العلوم فى برلين ، واستأنف لامترى ممارسته مهنة الطب وكتب عن الربو وعن الدوسنتاريا أبحاثا اعتبرها الملك أحسن ما كتب من نوعها . وبعد أن اصطدم فولتير بلامترى فى حاشية فردريك ، كتب إلى مدام دنيس فى ٦ نوفمبر ١٧٥٠ يقول :

> هنا رجل مرح جداً . هو لامترى ، وأفكاره عبارة عن ألعاب نارية ، على شكل صواريخ من السماء دائما . وثرثرته مسلية لبضع دقائق ، ولكنها مزعجة بعد ذلك إلى حد مؤلم . إنه ألف دون أن يدرى كتابا رديئا ، دأب فيه على تحريم الفضيلة والندم وامتداح الرذائل ، وحرض فيه قراءه على الحياة المختلفة والمنافية للأخلاق والحشمة — دون قصد سئ منه . وفى كتابه هذا ألف من اللمسات المشرقة ، ولكن فيه نصف صفحة من العقل . إنها أشبه بومضات برق فى الليل .. اللهم حل بينى وبين اتخاذه طبيبا لى ، إنه قد يعطينى عقارا مزعجا بدلا من الراوند بكل براءة . ثم يشرع فى الضحك والسخرية . وهذا الطبيب العجيب هو قارئ الملك .

وأحسن ما فى الموضوع أنه يقرأ له كتاب « تاريخ الكنيسة » إنه يقرأ مئات من الصفحات من الكتاب ، وهناك مواضع يكاد يختنق فيها الملك والقارىء من الضحك [٦٥] .

وكان لامترى قد وصف الموت بأنه خاتمة مسرحية هزلية ساخرة تمثل . وفى ١١ نوفمبر ١٧٥١ ، وهو فى الثانية والأربعين قدم نفسه مثالا لهذه المسرحية . ففى مأدبة عشاء أقامها له مريض عالجه من داء عضال ، فأتخم بفطيرة من لحم الطير ، فانتابته حمى شديدة وقضى نحبه . وهنا قتل المرض طبيبه [٦٦] . وكتب الملك بهذه المناسبة رثاء جميلا . وتنفس فولتير الصعداء . وانتقلت أفكار الرجل المتوفى إلى ديدرو ودى هولباخ ، ودخلت إلى روح العصر .

* * *

الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧١٣ – ١٧٦٨

١ – سنوات الضياع والكسل : ١٧١٣ – ١٧٤٨

ولد ديدرو فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى لانجرز فى شمبانيا ، على مسافة ٣٨ ميلا من ديجون . وكأن أبوه ديدييه ديدرو يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت . ولم يرث دنيس عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم ، ولكنه لم يكف يوما عن أجلاله وحسن تقديره لا مانة أبيه الموسومة بالبساطة وأقباله على أعمال البر والخير فى هدوء . وينقل عنه دنيس قوله « أى بنى ، أى بنى أن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى إلى وسادة الدين والقوانين »[1] وهنا فى جملة وأحدة تردد الصوتان اللذان سمعا فى فرنسا القرن الثامن عشر . — وكان له أخ أصبح كاهنا وخصما لدوداً لدنيس . وأخت دخلت الدير .

وكاد دنيس نفسه أن يكون كاهنا ، ذلك أنه منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمره التحق بمدرسة يسوعية فى لانجرز وفى الثانية عشرة حلق شعر رأسه وارتدى غفارة سوداء (لباس الكاهن فى الكنيسة) وعاش حياة الزهد والتقشف ، وعقد العزم على أن يكون يسوعيا . وفسر هو هذا فيما بعد ، بأنه فيض من حماسته ، وأنه كان قد أخطأ « الحافز الأول لحنين جنسى ينمو بين جنبيه فخاله صوت الله »[2] . وأبتهج الوالد ديدييه لهذا النداء الباطنى الجديد لدى أبنه . ورافقه مغتبطاً إلى باريس (١٧٢٩) ليلحق ، بكلية (لويس الأكبر) اليسوعية هناك ومنها حصل فى ١٧٣٢ على درجة الأستاذية . ولكن كما حدث فى حالات كثيرة كان اليسوعيون يفقدون راهبا مبتدئا بشحذ ذهنه وصقله . وأكتشف دنيس أن باريس عبارة عن

مواخير أكثر منها كنائس . فخلع غفارته وتخلى عن ورعه وتقواه ، وأنصرف إلى التدريب عند أحد المحامين . وسرعان ما نبذ القانون ، وقضى عشر سنين يتنقل من مهنة إلى مهنة . وعانى آلام الفقر فى حجرة فوق السطح ، ونفد صبر والده فمنع عنه النفقة ، ولكن والدته كانت تمده ببعض المعونة خفية . وأقترض دنيس بعض النقود ، وكان أحيانا يسدد ما أقترض . وأعطى دروسا خاصة فى الرياضيات ، ودبج العظات للقساوسة ، وأشتغل كاتبا عند بائع كتب ، وفى نفس الوقت تابع دراسته فى الرياضيات واللاتينية واليونانية والانجليزية ، وألم الماما جيدا بالأيطالية . وكان متمرداً على القانون ولكنه كان تواقا شديد التوق إلى المعرفة والحياة . لم يتعلم النظام والانضباط قط ، ولكنه تقريباً تعلم كل ما عداً ذلك .

وكان مفلسا خالى الوفاض ، ولكنه ممتلىء حيوية وقوة ، ووقع فى شرك الغرام وأعتزم الزواج . وكانت انطوانيت شامبيون تكبره بثلاث سنين وثمانية أشهر ، ولكنها كان سيدة . وعنفته على شبابه المفاجىء ، ولكنه أكد لها أن هذا مقدمة لحياة زوجية أمينة ، وأنه سيكون رفيق حياتها المخلص الأمين إلى الأبد . « أن خطابات غرامى الأخيرة موجهة اليك ، ولتعاقبنى السماء باعتبارى أشر الناس وأشدهم خيانة وغدرا إذا سطرت كتاب غرام إلى أحد غيرك »(٣) . ونقضت أرق خطاباته هذا العهد . واستسلمت والدة أنطوانيت لدموع أبنتها ولفصاحة الخطيب ولسانه الذرب ، ووافقت على الزواج شريطة الحصول على موافقة أبيه . وجمع ديدرو ما يكفى من المال لسداد نفقات العربة إلى لا نجرز على بعد ١٨٠ ميلا .

ووصل إلى لا نجرز ، وهناك تأثر والده بتجارب طبع وصلت إلى أبنه لترجمته لتاريخ اليونان عن الأنجليزية . وعرض الوالد أن يقدم العون لأبنه فى أى عمل . وكان على دنيس أن يختار ، ولابد أن يقع أختيارة على شىء ما . فأعلن الشاب عن تلهفه على الزواج فعنفه أبوه بقسوة على أنه شاب عاق كسول سىء التدبير . ورد الأبن ردا وقحا ، وأقسم أن يتزوج سواء وأفق أبوه أم لم يوافق ، ودون أى عون مادى منه . وسجنه أبوه فى دير محلى ،

وهرب دنيس وسار على قدميه تسعين ميلا إلى تروى حتى أستقل عربة هناك . وعاد أدراجه إلى باريس .

ولكن مدام شامبيون كانت مصممة على ألا تتزوج أبنتها من رجل منفصل عن أبويه محروم من الميراث وكان ديدرو يقيم فى حجرة حقيرة لايكاد يملك من حطام الدنيا شيئا ، وأنتابه مرض شديد فلما علمت أنطوانيت بذلك أسرعت إليه مصطحبة أمها معها قسرا ، وهناك أنهارت معارضة الأم. وسهرت مدام شامبيون وأبنتها على العناية بالفيلسوف المريض ، وفى ٦ نوفمبر ١٧٤٣ تزوجت « نانيت من نينو » (كما كان يسمى الواحد منهما الآخر) فى منتصف الليل فى كنيسة صغيرة أثرت بمثل هذه الزيجات السرية . وأبتهج الزوجان بانجاب طفلة بعد تسعة أشهر ، ولكنها لم تعمر لأكثر من ستة أسابيع . وولد لهما ثلاثة أطفال آخرين جاوز واحد منهم سن الطفولة . وأثبتت أنطوانيت أنها زوجة مخلصة ولكن رفيقة غير ملائمة عاجزة عن متابعة تحليقات أو شطحات زوجها الفكرية ، غير راضية فى شيء من المزاح ، عن دخله الضئيل من الترجمة . وعاد إلى مقاهى الفساد يعيش على القهوة ويلعب الشطرنج . وفى ١٧٤٦ كان قد إتخذ له عشيقة هى مدام بويسييه ، ومن أجلها كتب « الأفكار الفلسفية » « الحلى الزائفة » و « رسائل إلى العميان » .

وكان منذ وقت طويل قد أستسلم لفتنة الفلسفة التى تجتذبنا دائما ، لأنها لا تجيب أبدا عن الأسئلة التى لا نكف مطلقا عن القائها . ومثل بعض المفكرين لأحرار فى هذا القرن ، تأثر من هذه الناحية تأثرا عميقا بقراءة مونتانى وبيل ، ووجد فى كل صفحة تقريبا فى « المقال » وفى « القاموس » فكرة رائعة تلفت النظر . واجتذبة كثرة مراجع مونتانى وأشاراته إلى الروائع الوثنية إلى الأستزادة من دراسة الفلاسفة اليونان والرومان وبخاصة ديموقريطس ، وأبنيقوز ولوكريتس . وكان هو نفسه « الفليسوف الساخر » فى عصره ، فليسوفا ماديا يتدفق حيوية ونشاطا — ولم تتيسر له نفقات زيارة إنجلترا مثل فولتير ومونتسكيو ، ولكنه تعلم أن يقرأ الأنجليزية فى سهولة

ويسر . ولو ليستمتع بالشعراء والكتاب المسرحيين الانجليز . ولسوف نراه يتجاوب مع عواطف طومسون ويدافع ، مثل ليللو عن مأساة حياة الطبقة الوسطى . وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون إلى قهر الطبيعة وطريق البحث العلمى المنظم ، وأنتقل إلى تمجيد التجربة أداة عظيمة للعقل . وأستمع فى سنى تكوينه وتشكيله هذه ، ومرة أخرى عند إعداد الموسوعة — إلى محاضرات فى البيولوجيا والفسيولوجيا والطب . وشهد طيلة سنوات ثلاث مؤتمرات رويل فى الكيمياء ودون ملاحظات فى ١٢٥٨ ورقة من القطع الكبير . ودرس التشريح والفيزياء ، وتمشى مع رياضيات زمانه ، وتابع الأبحاث من بيكون إلى هوبز ولوك والربوبيين الأنجليز . وفى ١٧٤٥ ترجم كتابا شافتسبرى « بحث فى الفضيلة والجدارة » وأضاف تأملات من عنده ، وأستمر طوال التقلبات يؤمن بأن الخير والحقيقة والجميل كلها مؤتلفة تقريباً ، وأن قانونا أخلاقيا مؤسساً على العقل ، لا على الدين ، يفيد النظام الاجتماعى بدرجة كافية .

وأصدر فى ١٧٤٦ ، مدفوعا بكل هذه الحوافر وبخياله الواسع الخصيب ، كتابه « أفكار فلسفية » دون أن يذكر أسم المؤلف . وكان متطرفا إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى لامترى ، بليغاً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى فولتير . وربما كان لكليهما بعض الفضل فيه . وبدأ بدفاع عن « الانفعالات » وهنا حاول الفكر الجرىء ، متفقا فى ذلك مع صديقه روسو ، أن يبرهن على أنه لا ضير من « أن تقول الفلسفة كلمة فى صالح خصوم العقل ، مذ كانت الأنفعالات وحدها هى التى ترتفع بالنفس إلى الأشياء العظيمة ، ولن يبلغ شىء ذروة السمو فى الأخلاق أو الأعمال بدون الأنفعالات ، فقد ترجع الفنون القهقرى إلى طفولتها ، وتتقلص الفضيلة إلى أتفه الأعمال بدونها[٤] . ولكن الأنفعالات بدون نظام تكون مدمرة . ويجدر أن يكون هناك بعض التنسيق بينها ، ولا بد من إيجاد طريقة ليكبح الواحد جماح الآخر . ومن هنا نحتاج إلى العقل ، وينبغى أن يكون أعظم هاد ومرشد لنا ، وهنا كانت محاولة مبكرة فى عصر التنوير للتوفيق بين العقل والوجدان ، بين فولتير وروسو .

وكان ديدرو ، مثل فولتير ، فى أولى مراحل تطوره ونموه ، ربوبيا . أن شواهد تصميم العالم وتكوينه ترغم على الإيمان برب ذكى بارع . ويمكن أن يفسر المذهب الآلى المادة والحركة ، ولكنه لا يستطيع تفسير الحياة والفكر. أن ملحد المستقبل تحدى الملحدين أن يفسروا عجائب حياة الحشرات التى كشفت عنها حديثا أبحاث ربومير وبونيه :

هل رأيتم فى تفكير أى إنسان وأعماله ، ذكاءا ونظاما وحكمة وأتساقا أكثر من تركيب الحشرة ؟ اليست بصمات الإله واضحة فى عين البعوضة الصغيرة وضوح موهبة التفكير فى أعمال نيوتن العظيم ؟ . . . فكروا فقط فى أنى لم أبرز لكم إلا جناح الفراشة وعين البعوضة . على حين كان يمكن أن أسحقكم بثقل الكون[٥] .

ومهما يكن من أمر فأن ديدرو نبذ فى إزدراء الإله الذى جاء به الكتاب المقدس حيث بدأ له هذا الرب جباراً قاسياً غاية الجبروت والقسوة ، واتهم الكنيسة التى نشرت هذا المفهوم بأنها منبع الجهل والتعصب والأضطهاد . وهل ثمة شىء أشد حمقاً وسخفا من أن يجعل الهاً يموت على الصليب ليهدىء من غضب الله على رجل وامراة ماتا منذ أربعة آلاف سنه . ثم — كما يقول بعض رجال اللاهوت « إذا لعنت وعذبت ألف نفس مقابل خلاص نفس واحدة ، اليس الشيطان هو الرابح فى هذه القضية ، دون أن يسلم الرب أبنه إلى الموت ؟ ولم يعترف ديدرو بأى وحى الهى سوى الطبيعة نفسها . وناشد قراءه أن يرتفعوا إلى مفهوم رب جدير بالكون الذى كشف عنه العلم . وطالب « بتكبير الإاله وتحريره[٦] » .

وأمر برلمان باريس باحراق الكتاب بمعرفة المدعى العام بتهمة « تقديمه إلى الأذهان القلقة المضطربة الحرثية أشد الأفكار سخفا وأجراما ، والتى من شأنها إفساد الطبيعة البشرية ، وبوضعه كل الأديان فى مستوى واحد تقريباً ، فى ارتياب مصطنع ، حتى ينتهى إلى عدم الأعتراف بها جميعا[٧] ولما كان أحراق الكتاب الصغير (٧ يوليو ١٧٤٦) بمثابة أعلان عنـــه ، فوجد له عدداً غير متوقـــع من القراء ، وترجم إلى

الالمانية والأيطالية ، ولما تهامس الناس بأن ديدرو هو مؤلفه ، أرتفع إلى مرتبة تدانى فولتير . وتسلم من الناشر ٥٠ جنيها ذهباً . أعطاها لعشيقته التى كانت فى حاجة إلى ملابس جديدة .

ولما تزايدت مطالب مدام دى بويسيه ، ألف ديدرو كتاباً آخر (١٧٤٧) سمع به كاهن الأبرشية ، فتقدم بالرجاء إلى الشرطة لتحمى المسيحية من هجوم ثان . ففاجأ رجال الشرطة المؤلف فى داره وصادروا مخطوطة الكتاب ، أو كما يروى بعضهم ، قنعوا بوعد منه بعدم نشره . وعلى أية حال لم يظهر كتاب « نزهة الشكاك » حتى ١٨٣٠ ولم يزد هذا الكتاب شيئا فى شهرة المؤلف ولكن كان فيه تنفيس عن مشاعره . ولجأ إلى حيلة الفليسوف الأثيرة لديه فى المراوغة ، إلا وهى الحوار ، فهيأ لربوبى وقائل بوحدة الوجود (الله والطبيعة شىء واحد ، الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات لألهية) وملحد ، بأن يشرحوا وجهات نظرهم فى الألوهية . ويكرر الربوبى فى حماسة الحجة المأخوذه من تصميم الكون ، ولم يكن ديدرو مقتنعا بعد بأن تكيف الوسائل مع الغايات فى الكائنات هو تكييف رائع ممتاز يمكن تفسيره بعملية عمياء من تطور أتفاقى جاء مصادفة . أما الملحد فيصر على أن المادة والحركة والفيزياء والكيمياء تفسير للكون أفضل من إله لا يفعل إلا أن يؤجل مشكلة الأصل أو المنشأ . أما القائل بوحدة الوجود ، وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل ، فيعتقد أن الذهن والمادة أبديان معاً ، وأنهما يؤلفان الكون ، وأن هذه الوحدة الكونية هى الله . وربما كان ديدرو يقرأ سبينوزا .

وكان عام ١٧٤٨ مثيراً ومجهداً . كانت أنطوانيت قد وضعت طفلا . وكانت مدام دى بويسيه تطالب بتعويض عن الزنى والفجور ، ومن المحتمل أن ديدرو ، رغبة فى الحصول على المال بسرعة ، كتب آنذاك قصة فاجرة « الحلى الزائفة » وبناء على ما أوردته أبنته (مدام دى فانديل مستقبلا فى كتابها : مذكرات من تاريخ حياة وأعمال ديدرو) — ولاينبغى الأخذ بما جاء به قبل التأكد من صحته — فأن ديدرو ذكر لعشيقته أن كتابة قصة مسألة سهلة نسبيا ، ولكنها تحدته فى ذلك فراهن على تأليف قصة ناجحة فى

أسبوعين ، ووأضح أنه كان يقلد كريبيون Crebillon الأصغر فى « الأريكة» ١٧٤٠ حيث أخذت أريكة تتذكر من جديد عدد العاشقين الذين كانت تئن تحتهم . وتخيل ديدرو خاتما سحريا عند أحد السلاطين إذا وجهه إلى الحلى الزائفة عند المرأة ، جعلها وعشيقها يعترفان بكل ما قاسى الأثنان وعانيا من الغرام . ووجه الخاتم السحرى إلى ثلاثين سيدة ، وما كاد يفتر عنصر التشويق والأمتاع فى المجلدين كليهما . وخلط المؤلف البذاءة بشيء من الملاحظات المثيرة عن الموسيقى والأدب والمسرح — وأضاف حلما رأى فيه السلطان طفلا يسمى « التجربة » أخذ ينمو ويكبر ويقوى حتى دمر معبداً قديما أسمه « الفرضية » وحقق الكتاب غرضه على الرغم من إقحام الفلسفة فيه ، حيث أمكن أن يدر مالا ، ودفع الناشر لورنت دوراندا لديدرو مبلغ ١٢٠٠ جنيه فى المخطوطة وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن يباع إلا خلسة فقد عاد بربح وفير . وخرجت ست طبعات بالفرنسية فى ١٧٤٨ وظهرت عشر طبعات فى فرنسا بين عامى ١٩٢٠ — ١٩٦٠ والواقع أن هذا أوسع كتب ديدرو أنتشارا وأكثر عدد طبعات(٨) .

وبدل ديدرو من طبعه وحالته النفسية حين كتب رسائل علمية . وقدر أحسن التقدير كتابه « مذكرات فى موضوعات مختلفة فى الرياضيات » (١٧٤٨) الذى ضم أبحاثا علمية أصيلية فى الصوت والجهد ومقاومة الهواء، « وتصميما لارغن جديد » يمكن أن يعزف عليه أى إنسان . وأثنت « مجلة الرجل المهذب » « وصحيفة العلماء » على بعض المقالات ، بل إن صحيفة اليسوعيين « دى تريفو » إمتدحتها ، ودعت إلى مزيد من مثل هذه الأبحاث من رجل بارع قدير مثل مسيو ديدرو الذى نلاحظ أن أسلوبه رشيق واضح غير متكلف بقدر ما هو مبدع(٩) . وظل ديدرو طوال حياته ينطلق بشكل غير متواصل إلى العلوم الطبيعية . ولكن إزداد ميله إلى مسائل علم النفس والفلسفة . وكاد يكون فى كل مجال تقريباً أكثر المفكرين أصالة فى زمانه .

٢ – الأعمى والأصم والأبكم ١٧٤٩ – ١٧٥١

لفت نظر ديدرو بوجه خاص مسألة كان قد أثارها وليم مولينكس الايرلندى ١٦٩٢ : هل يستطيع إنسان ولد أعمى كان قد تعلم التمييز بين مكعب وجسم كروى باللمس . أن يفرق فى الحال إذا عاد إليه بصره ، بين هذين الجسمين ، أو هل يقتضى الأمر قبل هذا التفريق بعض الخبرة فى العلاقات بين الأشكال ملموسة ونفس الأشكال مرئية ؟ وجاء الجواب الثانى من مولينكس وصديقه لوك . وفى ١٧٢٨ قام وليم شزلدن بتجربة ناجحة على صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، كان ضريراً عند الولادة ، وكان لزاما أن يتدرب الصبى قبل أن يتمكن من التمييز بين الأشكال بالنظر وحده . ولاحظ ديدرو أيضا بعناية مثيرة حياة نيقولا سوندرسن الذى فقد بصره فى عامة الأول ، ولم يسترده قط ، ولكنه إبتدع لنفسه كتابة رياضية خاصة على طريقة بريل ، ومن ثم أكتسب قدرة إلى درجة عين معها أستاذا للرياضيات فى كمبردج .

وفى أوائل ١٧٤٩ دعا ريومور مجموعة مختارة من الناس ليشاهدوا ماذا يحدث عند إزالة الضمادات عن عينى امرأة أجريت لها عملية لعلاجها من عمى خلقى . وأستاء ديدرو وجرحت كبرياؤه لأنه لم يدع هو والفلاسفة الآخرون إلى هذه المناسبة . وباستهتاره المعهود قال إن ريومور كان قد رتب أن ترفع الضمادات أمام « بعض عيون لا قيمة ولا شأن لها[١١] » وطبقا لما روته أبنة ديدرو أساءت هذه العبارة إلى مدام ديبرى دى سانت مور التى كانت تفتخر بعينيها والتى كانت العشيقة الحالية لمدير المكتبة الحالى ، أو كبير مراقبى المطبوعات الكونت دارجنسون (مارك بيير ، الأخ الأصغر للمركيز رينيه لويس) .

وفى ٩ يونيو نشر دوراند كتاب ديدرو « رسالة عن العميان لخدمة المبصرين » وكانت على شكل رسالة موجهة إلى مدام بويسبيه . وبدأت بوصف زيارة قام بها ديدرو وبعض الأصدقاء لمزارع كروم أعمى . وأذهلهم روح النظام عند الرجل المكفوف البصر إلى الحد الذى تعتمد عليه فيه زوجته

بالليل فى إعادة كل شيء إلى مكانه بعد فساد النظام أثناء النهار . وكانت حواسه الباقية أحد وأقوى من حواس الناس العاديين « وهناك بالنسبة له فروق بسيطة لاتكاد تذكر من نعومة الأجسام » ، وهى فروق لاتقل دقة عن الفروق بين أصداء الأصوات ، ولاخوف من أن يحسب خطأ أن سيدة أخرى هى زوجته ، إلا اذا كان فى المبادلة كسباً له [١١] ولم يكن يدرك كيف يعرف الانسان الوجه دون أن يلمسه . وانحصرت روح الجمال عنده فى الأشياء الملموسة وفى رخامة الصوت والمنفعة ولا يجد عاراً فى العرى لأنه يجد أن فى الثياب حماية من الجو لا اخفاء الجسم عن أعين الآخرين . واعتبر السرقة جريمة كبرى لأنه يقف حيالها عاجزاً لاحول له ولا قوة .

وخلص ديدرو إلى أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله ، بل من خبرتنا الحسية . بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها ، وهى أيضاً مثل فكرتنا عن الأخلاق ، نسبية متنوعة . ووجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيراً من قوته . حقاً هناك شواهد وبراهين على التصميم والتركيب فى كثير من الكائنات والأعضاء مثلما هو فى الذبابة والعين ، ولكن ليس ثمة شواهد على التصميم فى الكون باعتباره كلا ، لأن بعض الأجزاء عوائق — إن لم تكن أعداء فتاكة — لأجزاء أخرى ، وكل تركيب تقريباً محكوم عليه أن يلتهمه تركيب عضوى آخر وتبدو العين مثالا رائعاً لتطابق الوسائل مع الغايات ، ولكن فيها عيوب وشوائب جسيمة (كما يوضح هلمهولتز هذا تفصيلا فيما بعد) وثمة عفوية أو تلقائية خلاقة فى الطبيعة ، ولكنها نصف عمياء . وتؤدى إلى كثير من الخلل والاضطراب والتبديد والضياع . وزعم ديدرو أنه اقتبس من كتاب « حياة دكتور نيقولا سوندرسون وخلقه لمؤلفه وليم انشليف (وواضح أنه لم يوجد قط) ، فأجرى على لسان الأستاذ الأعمى قوله « لماذا تحدثنى عن هذا المشهد الجميل الذى لم يصنع من أجلى قط ؟ . . . إذا أردت منى أن أومن بالله فينبغى أن تجعلنى ألمسه [١٢] وفى سيرة الحياة الوهمية هذه رفض

سوندرسن الإيمان بالله (*) وعزا نظام الكون إلى انتقاء طبيعي للأعضاء والتركيبات العضوية عن طريق بقاء الأصلح .

كل تركيبات معيبة ناقصة من المادة اختفت . ولم يبق منها إلا ما انطوى تركيبه على تعارض غير ذى أهمية ، والتي يمكن أن تستمر وتبقى بوسائلها الخاصة وتتوالد بنفسها . . . بل إن نظام العالم الآن ليس بالغ الكمال ، ولكن النتاجات الضخمة الغريبة تظهر من حين إلى حين . . . ماهو العالم ؟ إنه مركب خاضع لثورات تشير كل منها إلى نزعة ملحة إلى التدمير ، تسلسل سريع للكائنات يعقب بعضها بعضاً . ويدفع بعضها بعضاً ثم تختفى (١٣) ويختم ديدرو بمذهب اللاأدرية : « وأجسمرتاه يا سيدتى ، إننا إذ نضع المعرفة الإنسانية فى ميزان مونتانى فلن نبعد عن شعاره ، لماذا نكتسب المعرفة ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة المادة ، وعن طبيعة الذهن والفكر ، لانعرف إلا أقل من ذلك . بل لانعرف شيئاً إطلاقاً (١٤) .

وجملة القول إن رسالة العميان من أعظم وأروع ما كتب فى عصر الاستنارة فى فرنسا . إنه كتاب جميل ساحر من حيث السرد والقصص ، كما أنه يتميز بدقة الملاحظة والتبصر البارع العطوف بوصفه بحثاً فى علم النفس ، كما يتميز بخيال مثير بوصفه بحثاً فى الفلسفة ، وهو مرهق قرب انتهاء صفحاته الستين ولكنه يضم بعض ما يجافى الحشمة مما لا يكاد يليق برسالة مفروض إنها موجهة إلى سيدة ، ولكن ربما كانت مدام دى بويسييه متعودة على خاطر ديدرو بين بذاءة السوقة وسعة الاطلاع والمعرفة . وشمل البحث ، لحسن الحظ ، اقتراحاً مفصلا لما عرف فيما بعد باسم طريقة لويس بريل (١٥) .

وأرسل فولتير الذى كان آنذاك فى باريس (١٧٤٩) إلى ديدرو تقريظاً حماسياً للبحث ، قال فيه : « قرأت فى سرور بالغ كتابك الذى يذكر الشيء الكثير ويوحى بشيء أكثر . وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير ، بقدر ما أحتقر أولئك الهمج الأغبياء الذين ينقصون من قدر مالا يفهمون . . .

(*) مات سوندرسن ، طبقاً لما رواه أصدقاؤه ، متمسكاً بدينه . واستاءت الجمعية الملكية بلندن من نسبة ديدرو الإلحاد إلى أحد أعضائها ، ولم تسمح له قط بالانضمام إليها عضواً مراسلا .

ولكنى أعترف لك أنى لست من رأى سندرسن الذى ينكر وجود إله ، لأنه ولد أعمى . وربما كنت مخطئاً ، ولكن لو أنى فى مكانة لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبنى اضافات كثيرة تكمل البصر . أود من كل قلبى أن أتحدث إليك . وليس يهمنى أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته ، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية . وقبل مغادرتى لونفيل أرجو أن تشرفنى بتناول عشاء فلسفى معى ، فى دارى بصحبة بعض الحكماء .

ورد عليه ديدرو فى ١١ يونية :

سيدى الأستاذ العزيز : إن اللحظة التى تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة . . . إن رأى سوندرسن ليس رأيى ولا هو رأيك . . . إنا أومن بالله ، ولكنى أنسجم كثيراً مع الملحدين ، ومن المهم جداً ألا نخلط بين الشوكران (نبات يستخرج منه شراب سام) والبقدونس . ولكن ليس يهمنى مطلقاً أن تؤمن بالله أولا تؤمن به . وقال مونتانى إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها . . . [١٦] .

وقبل ظهور أية نتيجة لهذه المراسلات قبض على ديدرو . ذلك أن الحكومة ثار غضبها لنقد صلح إكس لاشابل المذل علناً . وأودعت السجن نفرا من النقاد ، ورأت أن الوقت قد حان لكبح جماح ديدرو وإيقافه عند حده ولسنا ندرى إذا كان الالحاد المندس فى رسالة العميان هو الذى أثار إحتجاج رجال الدين ، أو أن مدام دبرى دى سانت مور وقد ساءتها إشارة ديدرو إلى العيون التى لاقيمة لها قد حفزت عشيقها (كبير مراقبى المطبوعات) إلى إتخاذ إجراء . وعلى أية حال فإن الــكونت دارجنسون أرسل أمراً مختوماً (٢٣ يوليو ١٧٤٩) إلى ماركيز دى شاتيليه محافظ قلعة فنسان « إستقبلوا فى القلعة المدعو ديدرو ، وأودعوه فى السجن لحين صدور أوامر أخرى منى »[١٧] وفى الصباح الباكر فى اليوم التالى طرق رجال الشرطة باب ديدرو ، وفتشوا مسكنه ووجدوا نسختين أو ثلاثا غير مجلدة من رسالة العميان ، وعدة صناديق مملوءة بمادة الموسوعة الشهيرة التى كان يعدها

ديدرو ، وحملوها إلى القلعة (فى ضواحى باريس) حيث وضع وحيداً فى زنزانة فى القلعة الكئيبة ، وسمح له بالاحتفاظ بكتاب كان فى جيبه عند إعتقاله « الفردوس المفقود » وتهيأ له الآن فسحة من الوقت لقراءته بعناية . وكتب عليه حواشى وتعليقات بغير الطريقة التقليدية . واستخدم صفحاته الخالية فى تدوين بعض أفكار وموضوعات أقل ورعاً وتديناً ، وتوصل إلى صنع الحبر من كشط الاردواز من الجدران وطحنه وخلطه بالنبيذ ، وإستخدام عودا من الخلال قلماً . وفى نفس الوقت هرعت زوجته التى عاشت بمكتئبة مع طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى رئيس الشرطة بربيه ، وتوسلت إليه أن يطلق سراح زوجها ، وأنكرت علمها بكتاباته « وكل ما أعرفه أن كتاباته شبيهة بسلوكه . أنه يعتز بالشرف أكثر ألف مرة مما يعتز بالحياة ، وإن مؤلفاته لتعكس الفضائل التى يتمسك بها[18].» وإذا كانت إنطوانيت لاتعلم شيئاً عن مدام دى بوبسييه ، فإن الشرطة كانت تعلم ، وكان أشد فعالية وتأثيراً من ذلك الالتماس الذى تقدم به الرجال الذين عهدوا إلى ديدرو تحرير الموسوعة ، حيث أكدوا لكونت دارجنسون أن المشروع لايمكن أن يخطو خطوة بدون السجين . وفى ٣١ يوليو استدعى بربيه ديدرو وحقق معه وأنكر ديدرو أنه مؤلف « رسالة العميان » وكتاب « الأفكار » وكتاب « الحلى الزائفة » وأدرك رئيس الشرطة أنه يكذب ، وأعاده إلى السجن .

وفى شهر أغسطس ، كتبت مدام دى شاتيليه — قبل وفاتها بشهر واحد والمفروض أن هذا بايعاز من فولتير ، من لونفيل إلى قريبها محافظ فنسان ، ترجوه على الأقل أن يخفف من الشدة التى يعامل بها ديدرو . وحوالى ١٠ أغسطس عرض بربيه أن يسمح للسجين بالتمتع بالحرية والتيسيرات فى قاعة السجن الكبرى مع الترخيص له باستقبال الزوار وتلقى الكتب ، إذا قدم إعترافاً صادقاً . وفى ١٣ أغسطس وجه الفيلسوف المعاقب إلى بربيه الوثيقة الآتية : —

أعترف لك بأن الكتب الثلاثة أن هى إلا نزوات غواية أملاها ذهن تملص منى ، ولـكنى أستطيع . . . أن أعد تحت كلمة الشرف (وأنا فعلا رجل شريف) بأنها ستكون الأخيرة . . . وستكون الوحيده . . . أما بالنسبة لهؤلاء الذين اشتركوا فى نشر الـكتب وطبعها ، فلن أخفى عنكم شيئاً يتعلق بهم ، وسأفضى إليك سرا بأسماء الناشرين والطابعين (١٩).

وفى ٢٠ أغسطس أطلق سراحه من الزنزانة . ووضعوه فى غرفة مريحة ، وسمح له باستقبال الزائرين والتنزه فى حدائق القلعة ، وفى يوم ٢١ وقع تعهداً بألا يغادر المبنى أو منطقته دون ترخيص رسمى . وجاءت إليه زوجته لتواسيه وتؤنبه وتلومه ، وبعث من جديد حبه القديم لها . وزاره دالمبير ورسو ومدام دى بوبسييه وجاء إليه ملتزمو الموسوعة ببعض المخطوطات واستأنف عمله فى تحريرها . ومنذ علم أن أخاه أبلغ أباه بنبأ إعتقاله فانه كتب إلى الوالد « السكاكينى » المتألم ، وأدعى أن اعتقاله كان بناء على مكيده إحدى السيدات ، وطلب منه معونة مالية . وفى ٣ سبتمبر أرسل الوالد رداً يكشف عن الجانب الانسانى فى الصراع بين الدين والفلاسفة :

يابنى : تسلمت خطابيك اللذين بعثت بهما إلى مؤخرا ، تنبئنى بخبر إعتقالك وسببه ، ولم أتمالك نفسى من القول بأنه لابد بالتأكيد أن هناك أسباباً أخرى غير التى ذكرتها فى أحد الخطابين . . . وحيث أنه لايحدث شىء إلا بإذن الله ، فإنى لست أدرى أيهما أفضل لتقويم خلقك : اخلاء سبيلك أو إطالة مدة بقائك فى السجن لمدة شهور أخرى لتفكر جيداً وملياً فى نفسك . ولا تنس أن الله إذا كان قد أنعم عليك بالمواهب ، فإنه منحك إياها لا لتستخدمها فى العمل على أضعاف مبادىء عقيدتنا المقدسة . لقد قدمت دليلا كافياً على حبى لك . هيأت لك فرصة التعلم على أمل أن تفيد منه أعظم فائدة ، لا أن تورثنى أشد الهم والغم والكمد حين علمت بما لحق بك من خزى وعار . . . سامحنى يابنى . ولسوف أصفح عنك . أنا أعلم أنه ليس ثمة إنسان بمنجاة عن الافتراء وتشويه السمعة ، وأنهم قد ينسبون

إليك أعمالا لم تشترك فيها . . . ولن يكون لك إعتبار أو قيمة فى نظرى إلا إذا صدقتنى القول دون لبس أو مواربة ، بأنك كما أبلغونى من باريس بأنك تزوجت وأن لك طفلين . فان كان الزواج شرعياً وأن الأمر قد إنتهى فأنا راض ، وآمل ألا تضن على شقيقتك بالشعور بالفرح لتنشئتهما ، وعلى بالسعادة لرؤيتهما أمام عينى . . . إنك تسألنى مالا . ماذا ! إن رجلا مثلك يعمل فى مشروعات ضخمة . . . هل يمكن أن يكون فى حاجة إلى مال ؟ ولقد قضيت شهراً فى مكان لاتكلفك الإقامة فيه شيئاً ؟ . . . تذكر أمك المسكينة . . . إنها فى تأنيبها لك ، كم من مرة قالت إنك أعمى . . . قدم لى الدليل على عكس ذلك . ومرة أخرى ، وقبل كل شىء ، كن صادقاً ومخلصاً فى الوفاء بوعودك . . . ستجد مرفقاً بهذا حوالة بمائة وخمسين جنيهاً . . . تنفقها كما تريد . . . وإنى لأنتظر بفارغ الصبر اليوم الذى تخفف فيه من آلامى وهمومى حين أعلم بنبأ إطلاق سراحك . . . وسأقدم الشكر لله حالما أعلم ذلك .

مع كل الحب الذى أكنه لك . . .

(والدك الحبيب ديدرو)[٢١]

ولسنا ندرى ماذا كان رد دنيس . وربما وجد مشقة فى مجاراة هذه الرسالة فى نبلها . وفى ٣ نوفمبر ١٧٤٩ أفرج عنه بعد قضاء ثلاثة شهور ونصف شهر فى السجن . وقصد داره سعيداً مبتهجاً بالعودة إلى زوجته وصغاره ، ونسى مدام دى بويسييه لفترة من الوقت ؛ ولكن فى ٣٠ يونية ١٧٥٠ مات إبنه البالغ من العمر أربع سنوات ، إثر حمى شديدة ؛ وأنجب طفلا ثالثا بعد ذلك مباشرة . ولكنه أوذى أذى بالغاً عند تعميده ، حيث أوقعه أحد الخدم على الأرض فى الكنيسة ، وما لبث أن فارق الحياة قبل انقضاء عام واحد على مولدة ، وهكذا ولد له ثلاثة ومات ثلاثتهم (وعاد ديدرو إلى أمسياته فى مقهى بروكوب . وحوالى ١٧٥٠ قدمه روسو إلى فودريك ملخيور جريم ، وهناك بدأ ثالوث من الصداقة كان له بعض الأهمية

فى عالم الأدب . وتلك هى السنة التى غادر فيها فولتير فرنسا إلى برلين وكتب فيها روسو بحثه الذى نال به الجائزة عن (المدنية مرض) وأصدر ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة :

وبينما كان ديدرو يعمل فى المجلد الأول من مشروع الموسوعة استطرد إلى تحقيق فى علم النفس نشر نتائجه (١٧٥١) فى « رسالة عن الصم والبكم لخدمة أولئك الذين يسمعون ويتكلمون » . ولم يكن ديدرو قد نسى قلعة فنسان بعد ، ومن ثم تجنب الهرطقة ، وتسلم من الرقيب (مالشرب الطيب الرحيم آنذاك) « إذناً ضمنياً » بنشر الكتاب فى فرنسا دون ذكر إسمه ، ودون خوف من المحاكمة أو المقاضاة . واقترح ديدرو أن يوجهأسئلة إلى أحد الصم البكم ، ويلاحظ الايماءات التى يجيب بها الأصم الأبكم على هذه الأسئلة، وبذلك يلقى الضوء على منشأ اللغة عن طريق الإشارات والايماءات . أن الممثل القدير (وكان ديدرو آنذاك منشغلا بوضع كتابه « تناقض الممثل » ينقل أحياناً عن طريق إيماءة أو تعبير بالوجه فكرة أو إحساساً بشكل أعظم تأثيراً منه عن طريق الألفاظ . ومن الجائز أن الألفاظ الأولى (فى اللغة) كانت عبارة عن إيماءات صوتية أو معبرة توضح فكرة فى الذهن ، وليس للفظة التى يختارها الشاعر دلالة أو معنى عقلى فحسب ، ولكن لها كذلك مفهوماً رمزياً متضمناً وفارقاً دقيقاً لايكاد يذكر ، ولها تضمينات بصرية (قارن مثلا بين يرى ويتفرس أو يحدق النظر أو نغمات توافقية فى الصوت ، قارن بين يقول ويتذمر ، Say, murmur ومن ثم فان الشعر الحقيقى تتعذر ترجمته) .

والحديث — كما هو معهود فى ديدرو مضطرب يعوزه الترتيب والنظام ولـكنه زاخر بالجوانب الموحية . « قد تكون فكرتى أن أحلل الإنسان إذا جاز التعبير ، وأدرس ماذا يستمد من كل حاسة من حواسه » . (بنى كوندياك مؤخراً فى ١٧٥٤ ، رسالته عن الأحاسيس حول هذه الفكرة) أو قارن مرة أخرى بين الشعر والرسم ، أن الشاعر يستطيع أن يسرد

الأحداث على حين يبرز الرسام لحظة واحدة ، وصورته عبارة عن إشارة تحاول أن تعبر فى وقت واحد عن الماضى والحاضر والمستقبل . وهنا كانت بذرة فى كتاب ليسنج « لاوكون » (١٧٦٦) .

ولكن فى هذه الاثناء كان المجلد الأول من الموسوعة معداً للنشر .

٣ — تاريخ كتاب : ١٧٤٦ — ١٧٦٥

قال الناقد الكاثوليكى برونتيير « إن الموسوعة أعظم عمل فى عصرها ، والهدف الذى كان يصبو إليه كل شيء سبقها ، ومصدر كل شيء جاء بعدها ، ومن ثم فإنها المركز الحقيقى لأى تاريخ للأفكار فى القرن الثامن عشر » .(٢١) وقال ديدرو إن محاولة إخراج موسوعة إنما تنسب فقط إلى قرن فلسفى .(٢٢) إن عمل بيكون وديكارت وهوبز ولوك وباركلى وسبينوزا وبيل وليبنتز فى الفلسفة ، والنهوض بالعلوم على أيدى كوبرنيكس وفيساليوس وكبلر وجاليليو وهوجينز ونيوتن ، وإرشياد الأرض بفضل الملاحين والبعثات التبشيرية والسياح ، وإعادة الكشف عن الماضى على أيدى الباحثين والمؤرخين ، كل هذه المعرفة المتراكمة انتظرت لتنسق فى موسوعة تكون فى متناول الجميع وخدمتهم .

وبدا فى أول الأمر أن « موسوعة تشامبرز » أو « القاموس العالمى للفنون والعلوم » (١٧٢٨) قد يسد هذه الحاجة . وفى ١٧٤٣ اقترح ناشر فى باريس هوأندريه فرنسوا لى بريتون ترجمته إلى الفرنسية مع بعض تعديلات وإضافات تفى بحاجة فرنسا . ونما المشروع ليظهر فى عشر مجلدات ولمواجهة النفقات أشرك لى بريتون معه فى هذه المهمة ثلاثة ناشرين آخرين هم برياسون ودافيد ودوران . واستخدموا الأب دى جوا دى مالف محررا . وحصلوا على إذن ملكى بالطبع ، وأصدروا فى ١٧٤٥ نشرة مؤقتة . ورأى الناشرون أو رأى المحرر دى جوا دى مالف الاستعانة بديدرو ود المبير . وفى ١٧٤٧ انسحب دى جوا دى مالف . وفى ١٦ أكتوبر عين الناشرون ديدرو ورئيساً

للتحرير مقابل راتب قدره ١٤٤ جنيهاً في الشهر . وطلبو إلى دالمبير أن يكون مسئولا عن مقالات الرياضيات .

وكلما تقدم العمل ازداد ديدرو سخطاً على نص تشامبرز ويمكن أن تقدر هذا السخط والاستياء إذا عرفنا أن ديدرو خصص للتشريح ٥٦ عموداً على حين أفرد له تشامبرز عموداً واحداً ، وللزراعة ١٤ عموداً ، على حين أوردها تشامبرز في ستة وثلاثين سطراً . وأخيراً أوصى بتنحية قاموس تشامبرز جانباً وإعداد موسوعة جديدة تماماً ، (وربما اقترح مالف هذا فوراً) . ووافق الناشرون واستحث ديدرو (ولم يكن قد اتضح بعد أنه المؤلف الزنديق لرسالة العميان) المستشار الجاد المتدين دى أجسو حتى يشمل الترخيص الملكي المشروع الموسع (أبريل ١٧٤٨) .

ولكن كيف كان يمكن تمويل المشروع ؟ قدر لى بريتون أنه قد يكلف مليون جنيه . والواقع أنه تكلف مليوناً وأربعمائة ألف — حتى ولو كان من المشكوك فيه كثيراً أن يكون عدد المشتركين كافياً إلى حد يدفعون معه بالموسوعة إلى المطبعة . وكان ديدرو قد أعد بالفعل كثيراً من المقالات وحصل على عدد آخر منها من أجل المجلدات الأولى حين أوقف أعتقاله في فنسان سير العمل . وعندما أطلق سراحه تفرغ تفرغاً كاملا للمضى في المشروع . وفى نوفمبر ١٧٥٠ أخرج الناشرون ثمانية آلاف نسخة من نشرة تمهيدية دبجها يراع ديدرو . (وفى ١٩٥٠ أعادت الحكومة الفرنسية طبع هذه النشرة تذكاراً وطنياً لهذا الحادث) . وأعلنت هذه النشرة أن فريقاً من الأدباء والخبراء والمتخصصين اتجه رأيهم إلى جمع المادة الموجودة في العلوم والفنون في صعيد واحد مرتبة ترتيباً أبجدياً ، مزودة بمراجع قد يسهل على العلماء والباحثين والطلاب استخدامها . وقالت النشرة إن لفظة الموسوعة أو دائرة المعارف تدل على العلاقات المتبادلة بين العلوم وهى تعنى حرفياً التثقيف أو التعليم مجموعاً في صعيد واحد . وقال ديدرو إن المعرفة لم تنم على أوسع نطاق فحسب ولكن الحاجة إلى نشرها مهمة كذلك ،

حيث لاجدوى منها إلا اذا أفاد منها الجميع . وجاء فى النشرة أن هذا كله سوف تضمه ثمانية مجلدات للنصوص ومجلدان للوحات والرسوم ، وحدد الاشتراك بمائتين وثمانين جنيهاً للمجموعة تدفع على تسعة أقساط . ويجب تسديد المبلغ كله على مدى عامين . وتبدو لنا الآن هذه النشرة وكأنها أحد الأعلانات بأن عصر العلم قد بدأ . وأن عقيدة جديدة قد ظهرت لخلاص الجنس البشرى .

وكانت الأستجابة للنشرة مشجعة ، وبخاصة لدى الطبقة الوسطى العليا . وتبين بعد وفاة مدام جيوفرين أنها وزوجها أسهما فى نفقات الموسوعة بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه(٢٣) .

وبهذه الموسوعة فى فرنسا وقاموس جونسون فى إنجلترا (١٧٥٥) أعلن الأدب الأوربى إستقلاله عن الأرستقراطيين والأهداءات الذليلة ، وإتجه إلى الجمهور العريض الذى عرض هذا الأدب أن يكون عينه التى تبصر وصوته الذى يعبر . وكانت الموسوعة أشهر تجربة لتبسيط المعرفة ونشرها(٢٤) .

وظهر المجلد والأول فى ٢٨ يونية ١٧٥١ محتويا على ٩١٤ صفحة من القطع الكبيرة من ذات النهرين . وكانت صورة الصفحة الأولى من رسم شارل كوشان ، وكانت رمزاً صادقاً للقرن الثامن عشر ، فقد أبرزت البشرية تتلمس طريقها إلى المعرفة تمثلها امرأة جميلة فى ثوب رقيق شفاف . وكان العنوان مثيراً : الموسوعة أو قاموس موضوع بعد دراسة وترو لمختلف العلوم والفنون والمواد ألفه فريق من رجال الأدب رتبه وحرره ديدرو وتعهد قسم الرياضيات فيه دالمبير ، ونشر بتصديق من الملك وترخيص منه وأهدى المجلد من باب الحكمة إلى السيد الكونت دار جنسون وزير الحربية . ولم يكن موسوعة بالمعنى الحالى عندنا ، فانها لم تر أن تشمل سير حياة أو تاريخا . ولكن الغريب فى الأمر أنها تضمنت بعض سير الحياة تحت عنوان محل الميلاد للشخص . ومن جهة أخرى كانت بشكل جزئى قاموسا عرض لتعريف بعض المصطلحات وإيراد المترادفات وبعض قواعد الأجرومية .

وأبرز ما فى المجلد الأول وأجدره بالذكر هو « مقال تمهيدى » ووقع الأختيار على دالمبير لكتابته لأنه كان معروفا بأنه من رجال العلم المرموقين وبأنه كذلك من البارعين الأفذاذ فى النثر الفرنسى ، وعلى الرغم من هذه المزايا كان دالمبير يحيا حياة رواقية بائسة فقيرة فى باريس . وحين وصف فولتير المشهد الرائع من لى دليس أجاب دالمبير : « أنت تكتب إلى من مخدعك حيث تشرف على عشرة فراسخ من البحيرات وأنا ارد عليك من جحرى الذى لا يشهد إلا رقعة من السماء لا تجاوز ثلاث أذرع »[٢٥]. وكان لا أدريا ، ولكنه لم ينضم إلى نقد علنى للكنيسة . وفى — مقاله التمهيدى حاول أن يفحص حجج معارضى الكنيسة :

« إن طبيعة الإنسان سر لا يمكن سبر أغواره إذا إستنار الإنسان بالعقل وحده . ويمكن أن نقول مثل هذا عن وجودنا فى الحاضر والمستقبل ، وعن جوهر « الكائن » الذى ندين له بهذا الوجود ، وعن نوع العبادة التى يتطلبها منا . ومن ثم فأننا أحوج ما نكون إلى ديانة منزلة تهدينا سواء السبيل فى مختلف الموضوعات[٢٦] . »

واعتذر لفولتير عن هذه الاحترامات : « أن مثل هذه العبارات هى أسلوب توثيق ، وما هى إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقائق التى ننشد تدعيمها . . . أن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه[٢٧] .

ونهج المقال التمهيدى نهج إقتراح لفرانسيس بيكون ، فصنفت المعارف وفق الموهبة العقلية التى تنتج عنها : فوضع التاريخ تحت بند « الذاكرة » والعلوم فى باب « الفلسفة » واللاهوت تحت بند « العقل » والأدب والفن فى باب « الخيال » وكان ديدرو ودالمبير فخورين كل الفخر بهذا التقسيم وجعلا منه ورقة مطوية وضعاها بعد المقال أو خريطة للمعرفة أثارت أشد الأعجاب . وكان أقوى أثر فى الموسوعة بعد أثر بيكون هـــو أثرلوك . « أننا مدينون للأحاسيس بكل أفكارنا » . هذا هو ما جاء فى المقال . ومن

هذا البيان راود الأمل المحررين على مدى المجلدات الثمانية أن يستنتجوا فلسفة كاملة دينا طبيعيا يهبط بالاله إلى مجرد دفعة إبتدائية أولى وإن يستنتجوا علم نفس طبيعيا يجعل الذهن وظيفة من وظائف الجسم ، ومبادىء أخلاق طبيعية تحدد الفضيلة على أساس واجبات الإنسان نحو الإنسان لا نحو الله — وتضمن « المقال التمهيدى » هذا البرنامج فى حرص وحذر .

ومن هذه المبادىء الأولى أنتقل دالمبير إلى إستعراض تاريخ العلم والفلسفة وأمتدح الأقدمين ، وأستنكر العصور الوسطى وانتقص من قدرها ، وهلل لعصر النهضة وأبتهج به :

لن نكون منصفين إذا لم نعترف بفضل أيطاليا علينا ، فمنها تلقينا العلوم التى انتجت فيما بعد ثمارا وفيرة فى كل أوربا . ونحن مدينون لهـا فوق كل شىء بالفنون الجميلة والذوق الرفيع الذى زودتنا منه بعدد كبير من نماذج لا تبارى أو تتعذر محاكاتها(٢٨) .

وجاء أبطال الفكر الحديث ليتوجوا بأكاليل الغار :

يجدر أن يوضع على رأس قائمة الشخصيات اللامعة مستشار إنجلترا الخالد فرانسيس بيكون الذى تستحق أعماله بحق أن ندرسها حتى أكثر من أن تمتدحها . أننا حين نتأمل وندرس آراء ونظرات هـذا الرجل العظيم الحكيمة الواسعة الأفق ، والموضوعات الكثيرة التى أستعرضها فى ذهنه ، وجرأة أسلوبه التى جمعت فى كل موضع بين أروع الصور والأنطباعات الذهنية وبين أعظم الدقة والأحكام . فاننا نميل إلى اعتباره أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأشملهم وأوسعهم بحثا(٢٩) .

وأنتقل دالمبير ليبرز كيف أن عبقرية ديكارت العميقة الخصبة فى الرياضيات قد عوقها فى الفلسفة الأضطهاد الدينى :

إن ديكارت على الأقل تجاسر فبين للأذهان اليقظة كيف تتحرر من نير السكولاسية والرأى والسيطرة — وصفوة القول من التحيز والتحامل

والوحشية . وبهذه الثورة التى نجنى نحن ثمارها اليوم أدى ديكارت للفلسفة خدمة قد تكون أجـل وأشق مما تدين به لخلفائه البارزين المشهورين . وقد نعتبره زعيم عصابة تعاهدت ، وكان لها من الشجاعة ما قادت به ثورة ضد سلطة أستبدادية . وأرسى بفضل تصميمه الأكيد المشجع الملهم أساس حكومة أعدل وأفضل ما كان يمكن أن يعيش ليراها قائمة ، وإذ أنتهى به التفكير إلى أيضاح كل شىء فأنه على الأقل بدأ بالشك فى كل شىء . إن الأسلحة التى يجب إستخدامها لمحاربته ليست على الرغم من ذلك أسلحته لأننا نصوبها إليه .

وبعد أن تحدث دالمبير عن نيوتن ولوك وليبنتز ختم حديثة بالإعراب عن إيمانه بالنتائج الطيبة للمعرفة التى تزكو وتنمو وتنتشر : « إن قرننا ليعتقد بأنه قد كتب عليه أن يغير القوانين فى جميع المجالات[٣٠] . ونشجع دالمبير بحرارة هذا الأمل فجعل من مقاله التمهيدى هذا تحفة من روائع النثر الفرنسى فى القرن الثامن عشر . وشارك بيفون وموتنسكيو فى الثناء على مقدمة الموسوعة هذه كما إعتبرها — أى صفحات المقدمة — من أعظم المقالات التى كتبت فى لغتنا فلسفة ومنطقا وإشراقا وأحكاما ودقة[٣١] .

ولم يكن المجلد الأول ضد الدين بشكل سافر . وكانت المقالات عن العقيدة والطقوس المسيحية تقليدية تقريباً . وأبرزت عدة مقالات بعض الصعوبات ، ولكنها أختتمت كلها عادة باحترام مهيب للكنيسة . وكثيراً ما وجدت هرطقات مغلفة وهجمات عارضة على الخرافة والتعصب ، ولكنها مستترة فى مقالات واضح أنها كانت تعالج موضوعات بريئة مثل « حمل سكيزيا » أو النسر. من ذلك أن ما كتب عن حمل سكيزيا توسعوا فيه حتى صار بحثا عن شواهد تركت الإيمان بالمعجزات فى حالة يرثى لها . كما أن مادة « النسر » بعد مناقشة سذاجة الناس وسرعة تصديقهم إنتهت بتهكم صريح :

« سعيد هذا الشعب الذى تطالبه ديانته ألا يؤمن إلا بالأشياء الحقيقية

المقدسة السامية الرفيعة الشأن ، وإلا يقتدى إلا بصالح الأعمال . ومثل هذه الديانة هى ديانتنا وهى التى فيها لا يتبع الفيلسوف إلا عقله حتى يصل إلى مذبحنا[٣٢] وفى شىء من المكر والدهاء كانوا يهاجمون الخرافات والأساطير هنا وهناك . وأنبثقت روح من الإنسانية العقلانية .

وعلى الرغم من كل شىء أستقبل اليسوعيون هذا المجلد أستقبالا ودياً . وأعترض جويوم فرنسوا برتييه المحرر العالم المثقف لصحيفة تريفو فى رقة وأدب على توكيد المقال التمهيدى على الفلاسفة المهرطقين ، وأشار إلى بعض الأخطاء والأنتحالات ، وطالب بتشديد الرقابة على المجلدات التى ستصدر فيما بعد ، ولكنه أثنى على الموسوعة مشروعا عظيما ضخما جدا يمكن لمحرريه حق بعد إنجازه أن يطبقوا على أنفسهم قول هوراس « لقد أقمت نصبا أبقى من النحاس » .

ثم أضاف برتييه « ليس هناك من هو أكثر منا ميلا إلى تبين الخفايا الدقيقة فى الموسوعة ولسوف نعرضها برفق فى مقتطفاتنا القادمة[٣٣] .

وثمة كاهن آخر لم يكن مترفقا متساهلا إلى مثل هذا الحد ، وهو جان فرنسوا بوير أسقف ميربوا سابقاً الذى شكا المحررين إلى الملك بأنهم خدعوا الرقباء ، فأرسله الملك لويس إلى مالشرب الذى كان قد أصبح كبير مراقبي المطبوعات ، فوعد مالشرب بفحص المجلدات التالية بشكل أدق ، ولكنه أثناء توليه مناصب حكومية مختلفة استخدم كل نفوذه لحماية الفلاسفة . وكان من حسن حظ الثائرين أن هذا المسيحى جويودى مالشرب الذى كان قد أصبح متشككا حين قرأ كتابات بيل والذى كان قد ألف كتاب « حرية الصحافة » هو الذى كان رقيب المطبوعات من ١٧٥٠ — ١٧٦٣ وهى أحرج فترة فى حياة فولتير وديدرو وهلفشيوس وروسو . وكتب مالشرب « فى قرن كان يستطيع فيه كل مواطن أن يتحدث إلى الأمة عن طريق الكتاب فإن هؤلاء الذين أوتوا المقدرة على تعليم الناس وتثقيفهم أو موهبة التأثير فيهم — وفى إيجاز رجال الأدب — وسط شعب مشتت يقومون بالدور الذى

كان يقوم به خطباء رومه وأثينا فى شعب ملتف حولهم » . وشجع مالشرب الحركة الفكرية بمنح « تراخيص ضمنية » للمطبوعات التى لا يمكن أن تحصل فى ظل النظام القائم على ترخيص ملكى أو تنال إستحسان السلطات . ذلك أنه كان من رأيه أن الإنسان الذى لم يقرأ إلا الكتب التى صدرت بموافقة صريحة من الحكومة . . يكون متخلفا عن معاصريه بنحو قرن من الزمان تقريباً(٣٥) .

وانتهت هذه الفترة السعيدة فى حياة الموسوعة بحادث من أغرب الحوادث فى تاريخ عصر الأستنارة ، ذلك أنه فى ١٨ نوفمبر ١٧٥١ تقدم جان مارتن دى براد للحصول على درجة جامعية من السوربون ، وعرض على رجال اللاهوت رسالة ظاهرها البراءة والخلو من أية شائبة « من ذا الذى نفخ الله فى وجهه روح الحياة » ؟ وبينما كان النعاس يغلب على أعضاء هيئة الإمتحان عرض الراهب الشاب فى لغة لاتينية ممتازة تضاربات زمنية فى الكتاب المقدس ، وهبط بمعجزات المسيح إلى مستوى معجزات أسكولابيوس ، وإستبدل بالوحى لا هوتا طبيعيا متحرراً . وقبلت جامعة السوربون الرسالة ومنحت دى براد الدرجة . وأتهم الجانسنيون الذين كانوا يسيطرون على برلمان باريس الجامعة ، ورأحت الشائعات بأن لديدرو يداً فى الرسالة ، وسحبت الجامعة الدرجة وأمرت بالقاء القبض على الراهب . وهرب دى براد إلى بروسيا حيث آواه فولتير حتى خلف دى لامترى قارئا لفرد ريك الأكبر .

وصعق الأمناء الحراس على الديانة التقليدية إذ رأوا أن دى براد هذا نفسه كان قد كتب مقالة « اليقين » فى المجلد الثانى من الموسوعة الذى صدر فى يناير ١٧٥٢ . وكان فى هذه المقالة أيضا بعض لمحات من ديدرو ، وتعالت الصيحات ضد الموسوعة حتى أن برتييه الذى أطرى هذا المجلد لما فيه من إسهامات كثيرة فى المعرفة ، وجه اللوم إلى المحررين على قطعة ذكر فيها أن معظم الناس ينظرون إلى الأدب بعين الأجلال والأكبار مثلما ينظرون إلى الدين « أى إلى شيء لا يستطيعون أن يعرفوه أو يمارسوه أو يحبوه » .

وقال اليسوعيون أن مثل هذا الكلام يجب لفت نظر المؤلفين والمحررين إليه حتى لا يعودوا يثبتون شيئا من هــذا القبيل فى الموسوعة مستقبلا[٣٦] . وفى ٣١ يناير أتهم كريستوف دى بومونت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينيه : وفى ٧ فبراير صدر قرار من مجلس الدولة بحظر بيع الموسوعة أو نشرها . وفى نفس اليوم كتب مركيز دارجنسون فى صحيفته « صدر فى هذا الصباح قرار من المجلس لم يكن متوقعا يقضى بمنع تداول الموسوعة أو نشرها بسبب مزاعم مروعة : منها الكفر بالله والتمرد على سلطة الملك . وفساد الأخلاق . . . وقيل فى هذا الصدد أن مؤلفى الموسوعة ينبغى إعدامهم فى أقرب وقت[٣٧] .

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء ، فلم يعتقل ديدرو ، ولكن الحكومة صادرت كل المادة التى كان قد جمعها ، وكتب فولتير من بوتدام يستحث ديدرو على نقل المشروع إلى برلين حيث يمكن النهوض به تحت حماية فردريك ، ولكن ديدرو وقف عاجزا بدون المادة التى صودرت . أما لى بريتون فكان يأمل أن تعدل الحكومة من قرار الحظر بعد سكون العاصفة ، وأيد مالشرب ومركيز دارجنسون ومدام دى بمبادور النداء الذى تقدم به لى بريتون إلى المجلس . وفى ربيع عام ١٧٥٢ وافق المجلس على نشر المجلدات الأخرى « بترخيص ضمنى » وأشارت دى بمبادور على دالمبير وديدرو باستئناف العمل « مع تحفظ ضرورى فيما يتعلق بما يمس الدين والسلطة الحاكمة »[٣٨] . ورغبة فى تهدئة خواطر رجال الدين وافق مالشرب على أن يراجع المجلدات التالية ثلاثة من رجال اللاهوت يختارهم الأسقف السابق بوير .

وصدر المجلدان الثالث والرابع فيما بين عامى ١٧٥٣ — ١٧٥٦ ، بعد خضوعهما لرقابة صارمة . وزاد الغضب من إنتشار الموسوعة ، كما أصبحت رمز الأفكار الحرة ، وزاد عدد المشتركين إلى ٣١٠٠ فى المجلد الثالث ، و ٤٢٠٠ فى المجلد الرابع

واجتاز دالمبير المحنة وقد اهتزت أعصابه بعض الشيء ومن ثم فانه ضماناً لسلامته الشخصية إشترط ألا يكون مسئولا بعد الآن إلا عن مقالات الرياضيات ، ومهما يكن من أمر فان ديدرو ظل يناضل الرقابة . وفى ١٢ أكتوبر ١٧٥٢ نشر ظاهريا فى برلين وباسم دى براد « مواصلة الدفاع عن الراهب دى براد » ، وتحدث فيه غاضباً ، مشيراً إلى أن أحد الأساقفة شجب مؤخرا رسالة السوربون : « لست أعلم شيئاً أكثر مجافاة للياقة وأشد خطرا على الدين من هذه الخطب الغامضة التى تهاجم العقل والتى يلقيها بعض رجال اللاهوت . وقد يقول المرء لدى سماعها أن الناس لايستطيعون الدخول فى المسيحية إلا كما يدخل قطيع من الحيوان إلى حظيرة ، وأن على المرء أن يتخلى عن الإدراك السليم وحصافة الرأى ليعتنق ديننا أو يستمسك به . وأكرر القول بأن إقرار هذه المبادىء معناه الهبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان ، ووضع الزيف والحقيقة على قدم المساواة » [٣٩] .

وتابع فى المجلد الثالث هجماته غير المباشرة على المسيحية ، مغلفة بالجهر بالايمان بالعقيدة القويمة. وأبرزت مقالته « التوقيت الزمنى المقدس » مرة أخرى تناقضات التوراة . وألقت ظلالا من الشك فى نصوص الأسفار المقدسة . وأكدت مقالته عن «الكلدانيين» على إنجازاتهم فى الفلك، ولكنها رثت لخضوعهم للكهنة «أنه لما يزرى بالعقل ولا يشرفه تقييده فى الأغلال كما فعل الكلدانيون. ولد الإنسان ليفكر لنفسه » وعددت مقالته عن « الفوضى » الاعتراضات على فكرة الخلق وأسهبت — زعما أنها تدحض وتفند — القول فى حجج أبدية المادة . واشتملت على بعض النقاط الخلافية التى تثير الجدل مقالاته الممتازة فى التجارة والمنافسة وأسلوب التأليف والتركيب (فى الرسم) « والكوميديين » أى الممثلين ، وأوضح ديدرو أنه لم يكن رساماً ولا خبيرا باللوحات والرسوم ولكنه اضطر إلى الكتابة فى الموضوع لأن « الهاوى المتبجح » الذى عهد إليه بالكتابة عن أسلوب التأليف فى الرسم ، كان قد قدم موضوعاً تافهاً غير جدير بالنشر . وعبرت مقالة ديدرو عن بعض

فكار أبهجت فيما بعد « صالونانه » فكانت مقالته عن « الممثلين » إستمرار لحملة فولتير دفاعاً عن حقوقهم المدنية .

وحظى المجلد الثالث بثناء كبير خفف منه نقد اليسوعين وليلى فرينون فى مجلة « السنة الأدبية » ورفع المشتركون الجدد من قيمة العمل ومكانته : وبدأ ديكلوس ينهض بقسط من الجهد فى إخراج المجلد الرابع ، وفولتير وترجو يشاركان فى المجلد الخامس . وفى أثناء السنوات الأربع الأولى من المشروع كان فولتير مشغولا أو متورطاً فى ألمانيا — أما الآن فى عام ١٧٥٥ فقد استقر به المقام فى جنيف وأرسل منها المقالات عن « الأناقة » و « الفصاحة » و « الذكاء » وكلها تفيض أناقة وفصاحة وذكاء وكتب ديدرو نفسه للمجلد السادس مقالا تحت عنوان « الموسوعة » عده بعض العلماء والباحثين أحسن ماكتب فى المجموعة كلها . وكانت بالفعل من أطول المقالات حيث بلغ عدد كلماتها ٣٤ ألف كلمة ، تحدث فيه عن الصعوبات التى واجهت العمل لامن حيث القوى التى كانت تهدف إلى هدم المشروع فحسب بل كذلك من حيث ضآلة الاعتمادات المالية غير الكافية لدفع أجور المؤلفين ونفقات الطبع ، والعلل الطبيعية التى إنتابت الكتاب حيث أقعدهم المرض أو ضيق الوقت . وأقر العيوب الكثيرة التى صابت المجلدات الخمسة الأولى التى كانت قد أخرجت فى عجالة وخوف ، ووعد بالعمل على ملاقاتها ، وفى شىء من الانفعال كتب قانون الايمان الخاص به : إن الغاية القصوى من أية موسوعة هو جمع المعرفة المتناثرة هنا وهناك على الأرض ، وشرحها للمعاصرين ونقلها إلى الأعقاب ، والغرض من ذلك هو ألا تكون جهود القرون الماضية غير ذات نفع للاجيال القادمة وأن يكون خلفاؤنا وقد أصبحوا أكثر ثقافة وأغزر علماً ، فى نفس الوقت أسعد وأكثر تمسكا بالفضيلة ، وألا نفارق الحياة دون أن نحظى بثناء الجنس البشرى وتقديره .

ورأى ديدرو فى الموسوعة لطمة للاعقاب ، ووثق أنهم سيدافعون عنه ويبرئونه ، وتصور ثورة عارمة عطلت مؤقتاً تقدم العلوم وعمل فنون

الصناعة ، وغمرت من جديد بالظلام جزءا من العالم . وراوده أكبر الأمل فى « إعتراف مثل هذا الجيل بفضل أولئك الرجال الذين أوجسو خيفة من هذا الخراب وتوقعوه فجمعوا شتات المعرفة التى تراكمت عبر القرون وحفظوها فى حرز أمين » وقال « إن الأعقاب بالنسبة للفيلسوف هى بمثابة الدار الآخرة بالنسبة لرجل الدين (٤٠) .

وخلق المجلد السابع الذى ظهر فى خريف ١٧٥٧ أزمة أخرى أسوأ مما سبقها . وذلك أن كسنى وترجوكتبا أبحاثاً مستفيضة مشهورة فى شرح سياسة عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية ، (مذهب الفيزيوقراطيين فى حرية التجارة والصناعة — ظهر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر) كما أن لويس دى جوكور ، الذى كثيرا ما أسهم الآن فى الكتابة فى الموسوعة ، كتب مقالة موجزة مهينة تحت عنوان « فرنسا » بلغت كلماتها تسعمائة كلمة ولم ترو معظمها شيئاً من تاريخ فرنسا ، بل عددت شوائبها وأخطائها : الافراط الخطير فى عدم المساواة فى توزيع الثروة ، فقر الفلاحين ، وتضخم باريس وتناقص السكان فى الأقاليم . وفى مقال عن « الحكومة » كتب جوكور « أن الخير كل الخير للشعب فى حريته . . . وبدون الحرية تنتفى السعادة فى الدول » وفى هذا المجلد كتب فولتير مقالة عن الفسوق والزنى ، وتفاخر بأنها علمية ، ولكن مقالة « المقاومة » — على الأقل المقالة التى أثارت أشد مقاومة — هى المقالة عن جنيف التى التقينا بها فى محيطها السويسرى . ونسى دالمبير ما أخذ به نفسه من حيطة وحذر وتصميمه على الاقتصار على الرياضات وأثار على نفسه سخط جنيف وباريس كلتيهما حين صور رجال الدين الكلفنيين بأنهم يرفضون ألوهية المسيح .

ورأى جريم على الغدر أن هذه المقالة زلة فظيعة تعوزها اللباقة ، وقال إنها تسبب اهتياجاً وبلبلة . واستنكر أحد اليسوعيين المجلد فى عظة ألقاها أمام الملك فى فرساى . وكتب دالمبير إلى فولتير يقول « إنهم يجزمون بأنى امتدح قساوسة جنيف فى أسلوب يضر بالكنيسة الكاثوليكية » (٤١) . وفى ٥ يناير

١٧٥٧ بذلت محاولة لقتل الملك . فكان رد الملك عليها أنه أحيا قانوناً قديماً يعاقب بالإعدام مؤلفي وناشري وبائعي الكتب التي تهاجم الديانة أو تزعج الدولة ، وزج بعدد من الكتاب في السجن ، ولم يعدم أحد ولكن دالمبير المرهف الحس تولاه الفزع بشكل واضح ، وقطع علاقته بالموسوعة نفوراً من الهياج والصخب (١ يناير ١٧٥٨) . وفقد بعض الوقت قدرته على رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة ، وأتهم مدام بمبادور بمحابات « أعداء الفلاسفة » وتأييدهم ، وطلب إلى مالشرب أن يكبح جماح زعيمهم فريرون . وألح عليه فولتير في عدم الاستقالة ، فأجاب دالمبير في ٢٠ يناير « أنت لاتدرك الوضع الذى نحن عليه ، وصورة غضب السلطات علينا . . . أنا أشك في مواصلة ديدرو العمل بدوني . . . فإذا فعل هذا فإنه يمهد السبيل لسلسلة من المحاكمات والبلايا لمدة عشر سنوات »(٤٣) وكان رعبه قد إزداد في السبعة أو الثمانية أيام التالية « إذا كان الأعداء ينشرون مثل هذه الأشياء اليوم باذن صريح من قبل هذه المراجع المسئولة ، فلن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذا يعني إثارة الهياج ضد المجلد السابع ، وألقاءنا في أتون المحرقة بالنسبة للمجلد الثامن »(٤٣) وأذعن فولتير لرأى دالمبير . ونصح ديدرو بالتخلي عن الموسوعة ، حيث أنه إذا استمر العمل فيها بأية حال ، فستكون خاضعة لرقابة تقضي على قيمة العمل باعتباره أداة للحد من سيطرة الكنيسة على الأذهان في فرنسا(٤٤) وأبي ترجو ومارمونتيل وديكلوس وموريللي أن يكتبو أية مقالات أخرى ، وفترت همة ديدرو نفسه لفترة من الزمن ، وكتب يقول « لايكاد يمر يوم إلا وتحدثني نفسي بالذهاب إلى مسقط رأسي في شمبانيا لأعيش منزوياً في هدوء »(٤٥) ولكنه لن يلقي سلاحه ولن يستسلم . وفي فبراير ١٧٥٨ كتب إلى فولتير « أن التخلي عن العمل معناه أن ننقض العهد وننكص على أعقابنا ونفعل ما يريده منا هؤلاء الأوغاد الذين يضطهدوننا . آه لو علمت كم إبتهجوا وفرحوا عندما علموا باعتزال دالمبير العمل ، وكم من مناورات قاموا بها للحيلولة دون رجوعه إليه !

وفى إجتماع أساقفة فرنسا ١٧٥٨ قدموا إلى الملك منحة اختبارية كبيرة بشكل غير عادى ، وتقدموا إليه برجاء إلغاء « الترخيص الضمنى » الذى يجيز نشر الموسوعة فى فرنسا . وفى ١٧٦٨ شرع أبراهام دى شوميكس فى إصدار سلسلة من النشرات تحت عنوان « أحكام شرعية ضد الموسوعة » وأثار نشر كتاب هلفشيوس « أسس الروح » (٢٧ يوليو ١٧٥٨) مزيدا من الاحتجاجات ، وتورطت الموسوعة فى هذه العاصفة حيث إنتشرت الشائعات القوية بأن ديدرو تربطه بهلفشيوس علاقات وثيقة . وزاد الطين بلة أن روسو الذى كان يكتب للموسوعة مقالات فى الموسيقى ، رفض أن يسهم فى التحرير الآن . وروجت رسالته إلى دالمبيز عن العروض المسرحية نبأ إنشقاقه على الفلاسفة . وبدا أن معسكر الموسوعيين قد تمزق . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ حذر وكيل الملك أميردى فليرى برلمان باريس من أن هناك مشروعاً أعد وجماعة تكونت لنشر المذهب المادى ، والقضاء على الدين ونشر روح الاستقلال ، والعمل على إفساد الأخلاق[٤٦] وأخيراً فى ٨ مارس ، صدر من مجلس الدولة أمر بتحريم الموسوعه تحريماً تاماً ، فلايطبع أى مجلد جديد ، ويمنع بيع أو تداول المجلدات الموجودة . وأوضح القرار أن الفوائد التى تجنى من هذا العمل من حيث تقدم الفنون والعلوم لايمكن بحال من الأحوال أن تعوض عن الأضرار البالغة المتعذر إصلاحها التى تنشأ بالنسبة للعقيدة الدينية والأخلاق[٤٧] .

ولم يتهدد هذا المرسوم سلامة أشخاص الفلاسفة فحسب ، بل تهدد كذلك قدرة الناشرين على الوفاء بديونهم . وكان كثير من المشتركين قد دفعوا قيمة إشتراكهم فى المجلدات التالية ، فكيف يتيسر رد ما دفع مقدماً ؟ فمعظم هذه الأموال أنفق على المجلدات السبعة الأولى ، وعلى الأعداد لاخراج المجلد الثامن الذى كان معدا للتوزيع حيث صدر المرسوم الملكى . وحرض ديدرو الناشرين على ألا يستسلموا ، لعل هذا المرسوم يجرى أيضاً تعديله أو العدول عنه فى الوقت المناسب ، وإلا طبعت المجلدات الباقية فى الخارج .

وبناء على طلب الناشرين لزم ديدرو داره وواصل العمل فى المجلد التاسع . وفى الوقت نفسه بذل مالشرب وآخرون غيره أقصى الجهد فى تسكين غضب الحكومة .

وهنا — فى صيف ١٧٥٩ ظهرت فى باريس نشرة سرية غفل الاسم ، تحت عنوان مذكرة إلى « فرنسوا شوميكس » وهى قطعة مملة عنيفة فى موقف واحد ، تهاجم فى أقذع الإهانة والسباب ، لا الحكومة والبرلمان واليسوعيين والجانسنيين وحدهم ، بل هاجمت المسيح وأمه كذلك . وقال ديدرو « إن العمل منسوب إلينا بما يشبه الاجماع » ، [٤٨] وقصد إلى مالشرب وإلى مدير الشرطة وإلى المحامى العام للبرلمان وأقسم أنه لاعلاقة له بتفجر الإلحاد فى الشوارع على هذا النحو ، وصدقه أصدقاؤه ، ولكنهم نصحوه بمغادرة باريس فأبى الهروب ، محتجاً فإن فى الهروب إعترافا بالذنب . وحذره مالشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه ، ومن ثم ينبغى إخفاؤها . فتساءل الثائر الحائر المنزعج « ولكن أين أخفيها ؟ » وكيف يتسنى له فى ساعات قلائل أن يوفق إلى مكان يخفى فيه كل هذه المادة التى جمعها ؟ فقال مالشرب « أرسلها إلى أنا ، لن يأتى أحد ليفتش عنها هنا[٤٩] » . وفى الوقت نفسه عثر رجال الشرطة على طابعى النشرة المخزية ، وانتهوا إلى أن ديدرو لم يكن له صلة بها ، ولم يصدر أمر بمصادرة أوراقه ، وتنفس الصعداء ولكنه أشرف على الإصابة بانهيار عصبى . وصحبه صديقه الغنى دى هولباخ لقضاء عطلة فى بعض الأماكن القريبة من باريس . وكتب ديدرو « حملت معى إلى كل مكان قصدناه خطى مضطربة متعثرة ونفساً مكتئبة »[٥٠] .

وعاد ديدرو إلى باريس ، ووقع مع الناشرين عقداً جديداً لإعداد تسعة مجلدات إضافية من الموسوعة لقاء مبلغ ٢٥ ألف جنيه . وعرض دالمبير أن يستأنف مسئوليته عن مقالات الرياضيات ، ووجه ديدرو إليه اللوم على تخليه عن العمل فى وقت المحنة حين حمل عليه العدو ، ولكنه قبل إسهامه

فى الموسوعة ، وكذلك إنضم إليهم فولتير . وكان ديدرو يأمل أن يكمل المجلد السابع عشر والأخير فى ١٧٦٠ . ولكنه فى سبتمبر ١٧٦١ . كتب يقول « إنتهت المراجعة المزعجة ، حيث قضيت فيها خمسة وعشرين يوماً متصلة بمعدل عشر ساعات فى اليوم »(٥١) وظل لعشرة أيام أخر حبيساً فى داره لمراجعة اللوحات والرسوم . وتم طبع المجلدات من الثامن إلى السابع عشر فى تعاقب سريع فى باريس ، ولكنها موسومة بعلامة تشعر بأنها نشرت فى نيوشاتل ، وتغاضى سارتين مدير عام الشرطة الجديد عن هذه الخدعة أو التضليل (٥٢) ومهد الطريق لهذا طرد اليسوعيين من باريس ١٧٦٢ (*) وفى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت كثرين قيصرة روسيا استكمال الموسوعة تحت حماية الحكومة فى سان بطرسبرج ، وجاء مثل هذا العرض من فردريك الأكبر عن طريق فولتير . وربما استحثت هذه الاقتراحات الرجال الرسميين فى فرنسا على إجازة الطبع فى باريس . وظهر المجلد الأخير من النصوص فى ١٧٦٥ ، وأضيف أحد عشر مجلدا للوحات والرسوم فيما بين عامى ١٧٦٥ و ١٧٧٢ وصدر ملحق من خمسة مجلدات ، مجلدان لفهرس الموسوعة فيما بين عامى ١٧٧٦ — ١٧٨٠ وطلب إلى ديدرو تحريرها ولكنه كان منهوكا مرهقاً فرفض ، فان أهم مشروع نشر فى هذا القرن إستنزف قواه ، ولكنه خلد ذكره بالقدر الذى تسمح به تقلبات المدنية .

(*) إن القصة الطريفة التى تقول بأن مدام بمبادور أقنعت لويس الخامس عشر بالتخلى عن معارضته فى نشر المجلدات من الثامن إلى السابع عشر باطلاعه على مقالة « البارود » قصة مرفوضة الآن بصفة عامة على أنها من نسج خيال فولتير(٥٣) والقصة مذكورة فى المجلد الثامن والأربعين من طبعة بيشو لأعمال فولتير ، وفى كتاب جونكور « مدام دى بمبادور » ص ١٤٧ .

٤ — الموسوعة نفسها

إن كل محتويات الموسوعة تقريبا نسختها الثورة الفكرية التي ساعدت على إذكاء نارها ، ولكنها تسترعي إنتباهنا لمجرد أنها أحداث في تاريخ الأفكار ، وأسلحة استخدمها الفلاسفة في صراعهم مع المسيحية الوحيدة التي عرفوها . وقل إن كان الهجوم مباشرا كما رأينا وكانت مقالتا « المسيح والمسيحية » وكلتاهما بقلم ديدرو . فويمتين تقليديتين في جوهرهما . وامتدح المقالة الثانية أحد الرهبان الإيطاليين . وكتب نفر من الكهنة مقالات للموسوعة ، ومن ذلك أن الراهب يفون كتب مقالة بعنوان « الملحدون » ولم تؤيد الموسوعة الإلحاد بل الربوبية . ومهما يكن من أمر فإن المراجع المفترضة كانت في بعض الأحيان مضللة ، ملحقة بمقالة تقليدية رشيدة . وكثيرا ما أشارت إلى مقالات أخرى تثير الشكوك . من ذلك أن المقالة المثالية عن « الله » أشارت إلى مقالة « البرهان » التي أوردت قواعد للبرهنة فيها تشويه للمعجزات والأساطير . وفي بعض الأحيان شرحت أقل العناصر إعتدالا ومعقولية في العقيدة المسيحية في قبول ظاهر . ولكن بطريقة تستدعي الإرتياب والجدل . ورفضت المبادىء الصينية أو الإسلامية المماثلة للنظريات المسيحية باعتبارها غير عقلانية . وارتفعت الصيحات بأن مقالة « الكهنة » غير ودية . ويحتمل أن دى هولباخ هو الذى دبجها . لأن الفلاسفة كانوا يمقتون رجال الدين بوصفهم أعداء للفكر الحر ومشجعين على الاضطهاد وزعم المؤلف أنه إنما كان يكتب عن رجال الدين الوثنيين : « إن الخرافة ضاعفت من مراسم وطقوس الشيع المختلفة . ومن هنا شكل القائمون عليها طائفة مستقلة . واعتقد الناس أن هؤلاء الأشخاص مخلصون للمعبود كل الإخلاص . ومن هنا كان للكهنة نصيب في إجلال الناس لله . وبدت المناصب العادية التي يشغلونها أدنى مستوى منهم . واعتقد العامة أنهم مرغمون على أن يقدموا لهؤلاء الكهنة ما نعولهم ... وكأنهم ودائع ينفذون وصية الله . ووسطاء بين الآلهة والناس .

وعمد الكهنة . لكي يثبتوا سلطانهم ويؤكدوا سيطرتهم . إلى تصوير الآلهة بأنهم قساة حقودون محبون للإنتقام لا يستشعرون الرحمة . وأدخلوا

المراسم والطقوس والشعائر والأسرار التى يمكن أن تبعث فظاعتها فى نفوس الناس الإكتئاب الرهيب الملائم كل الملاءمة لدنيا التعصب . ثم تدفق الدم البشرى الغزير فوق المذابح . وظن الناس ، وقد ملأهم الخوف بالجبن وأعمتهم الخرافة . أنه لن يكون أى ثمن يدفعونه غاليا فى سبيل الحظوة برضا الأرباب . وأسلمت الأمهات أطفالهن الصغار دون أن يذرفن دمعة واحدة ، إلى النيران الملتهبة . وسقط آلاف الضحايا تحت سكين القربان المقدس ... وكان من الميسور على الرجال الذين كانوا موضع الإجلال والإحترام إلى هذا الحد . أن يبقوا طويلا داخل حدود الخضوع الضرورى للنظام الإجتماعى . فإن الكهنة الذين أسكرتهم السلطة كثيرا ما نازعوا الملوك حقوقهم . وأمسك التعصب والخرافة بالسيف مصلتا على رؤوس الملوك واهتزت العروش حين رغب الملوك فى كبح جماح أو معاقبة الرجال المقدسين الذين كانت مصالحهم متشابكة مع مصالح الآلهة ... كان الحد من سلطانهم يعنى تقويض أركان الديانة . » (٥٤) .

وبصفة عامة اتخذت الحرب ضد العقيدة القديمة شكل الثناء على المعتقدات الجديدة فى العلوم والفلسفة ومناهجهما . وكان الفلاسفة يحلمون باحلال العلوم محل الدين والفلاسفة محل الكهنة على الأقل بين الطبقات المتعلمة . وحظيت العلوم بتفسيرات وشروح مسهبة . مثال ذلك أن ستة وخمسين عمودا خصصت «للتشريح» . وتحت بند « الجيولوجيا » كتبت مقالات مطولة عن المياه المعدنية والمعادن والطبقات وأنهار الجليد والأحافير والمناجم والزلازل والبراكين والأحجار الكريمة . وكان لزاما أن توضع الفلسفة فى النظرة الجديدة إليها على أساس من العلوم تماما . وينبغى ألا تبنى « نظما » ويجب أن تتجنب الميتافيزيقا ويجب ألا تتحدث بلغة الأساقفة عن منشأ العالم ومصيره . وشنت مقالة « المدرسة » هجوما مباشرا على الفلاسفة السكولاسيين (المدرسيين) على إعتبار أنهم تخلوا عن البحث عن المعرفة ، واستسلموا للاهوت . وضيعوا أنفسهم ، وهم آمنون فى المنطق الواهى مثل خيوط العنكبوت ، وسط غيوم الميتافيزيقا .

ودبج ديدرو سلسلة من المقالات الممتازة فى تاريخ الفلسفة ، استندت

كثيرا على كتاب جوهان جاكوب بروكر « تاريخ النقد الفلسفى » (١٧٤٢ — ١٧٤٤) ولكنها كشفت عن بحث أصيل فى الفكر الفرنسى . وشرحت المقالات التى كتبت عن مدرسة إلياوأبيقور المذهب المادى . وأفرطت بعض المقالات فى إطراء برونو وهوبز . وباتت الفلسفة عند ديدرو ديانة . « والعقل للفليسوف هو بمثابة البركة والنعمة الإلهية للمسيح » [٥٥] . وصاح « فلنسارع لنجعل الفلسفة شعبيه » [٥٦] . وفى مقالة « الموسوعة » كتب كما يكتب الرسل أو الحواريون « اليوم حين تتقدم الفلسفة إلى الأمام بخطى جبارة ، وتخضع لسلطانها كل الأشياء التى تهمها ، وحين يكون صوتها عاليا مدويا ، وتشرع فى طرح نير السلطة والتقاليد وتستمسك بقوانين العقل ... » وهنا كانت العقيدة الجريئة الجديدة مع ثقة فتية شابة قليلا ما توجد ثانية . وربما كان يفكر فى حاميته الإمبراطورية فى روسيا ، فأضاف مثل أفلاطون » وحدوا بين حاكم (كترين الثانية) وبين فليسوف من هذا الطراز (ديدرو) ومن ثم تجدون ملكا بلغ درجة الكمال [٥٧] .

وإذا حل مثل هذا الفليسوف محل كاهن اعتراف مرشد وموجه للملك ، فلابد أن ينصحه أول ما ينصح باطلاق الحرية ، وبخاصة حرية الكلام والصحافة « إن أحداً لم يتلق من الطبيعة حق التحكم فى الآخرين » [٥٨] وفى هذا تعريض شديد بحقوق الملك الألهية أما بالنسبة للثورة : « إن السلطة التى يتم الإستيلاء عليها عن طريق العنف ليست إلا اغتصابا ، لا تدوم إلا بقدر تفوق قوة من سيطر على قوة من أذعنوا له . فاذا توافر لهؤلاء الآخرين قسط كبير من القوة وتخلصوا من نير من تسلط عليهم من قبل فإنهم يفعلون بحكم الحق والعدل مثل ما فعل هذا الذى كان قد تحكم فيهم وفرض عليهم سلطانه من قبل . إن نفس القانون الذى فرض السيادة هو الذى يحطمها ويبطلها ، وهو قانون الأقوى ، ... ومن ثم فإن السلطة الحقيقية الشرعية لها بالضرورة حدود وقيود ... إن الأمير (الملك) يتلقى من رعاياه السيادة التى يمارسها عليهم . وهذه السيادة محدودة بقوانين الطبيعة وقوانين الدولة ... إن الدولة لا تتبع الأمير ، بل إن الأمير هو الذى يتبع الدولة وينتسب إليها [٥٩] .

ولم تكن الموسوعة إشتراكية ولا ديموقراطية ، بل إنها قبلت الملكية ،

ونبذت نظرية المساواة التى شرحها روسو بقوة ١٧٥٥ . ودافعت مقالة جوكور « المساواة الطبيعية » عن المساواة أمام القانون ، ولكنها استطردت تقول « إنى أدرك تمام الإدراك ضرورة تباين الأحرال والدرجات والمقامات والطبقات والإمتيازات والتبعية التى يجب أن تسود فى كل الحكومات » (٦٠) واعتبر ديدرو آنذاك أن الملكية الخاصة أساس لا غنى عنه للمدنية (٦١) على أن مقالة « الإنسان » على أية حال كانت لها وقفة مع الشيوعية : « إن الربح الصافى للمجتمع إذا وزع توزيعا عادلا بالتساوى قد يكون مفضلا على ربح أكبر إذا لم يوزع على قدم المساواة ، ومن ثم تكون نتيجته تقسيم الشعب إلى طبقات » . وعند التحدث عن الملاجىء قيل « قد يكون السعى إلى منع الفقر والبؤس ذا قيمة أكبر من مضاعفة الملاجىء لإيواء البؤساء » (٦٢) .

إن الملك الفليسوف قد يفحص من وقت لآخر شئون الإقطاع ويلغى الإمتيازات الإقطاعية التى لم تعد تتكافأ مع خدمات السادة الإقطاعيين للفلاحين أو للدولة (٦٣) . وقد يجد بديلا إنسانيا للعمل الإجبارى ، أى نظام السخرة . ويحرم تجارة الرقيق . ويضع حداً ، كلما اتسع سلطانه ، للحروب بين الأسرات المتنافسة والصراعات التى يمليها الجشع ، ويسعى إلى تطهير المحاكم من الفساد . ويوقف بيع الوظائف ، ويخفف من وطأة قانون العقوبات وعلى الأقل يضع حداً للتعذيب القضائى . وعليه ، بدلا من العمل على استدامة الخرافة وانتشارها ، أن يبذل أقصى جهوده فى أن يدفع إلى الأمام هذا العصر الذهبى الذى يمكن أن يتحالف فيه فن الحكم وسياسة الدولة مع العلم فى حرب متصلة ضد الجهل والمرض والفقر .

وكانت الأفكار الإقتصادية فى الموسوعة فى جملتها هى أفكار الطبقة الوسطى التى ينتمى إليها معظم الفلاسفة . وهى على الأغلب آراء الفيزيوقراطيين التى سيطرت بزعامة كنى وميرابو الأب على النظرية الإقتصادية فى فرنسا فى أواسط القرن الثامن عشر . فقد ساد الإعتقاد بأن حرية العمل والمشروعات — ومن ثم التجارة الحرة والمنافسة الحرة — أمر حيوى بالنسبة للأحرار من الناس . ولذلك كانت النقابات وهى عوائق لهذه كلها ، غير مرغوب فيها ولا يتقبلها أحد . وقدر لهذه الأفكار أن تبرز على مسرح التاريخ فى وزارة

ترجو ١٧٧٤ ونبهت الموسوعة الأذهان إلى التكنولوجيا الصناعية وأولتها عناية متحمسة ، وهى التكنولوجيا التى بدات تغير وجه الإقتصاد فى إنجلترا وفرنسا . واعتقد ديدرو أن الفنون الميكانيكية يجب إكبارها والرفع من شأنها باعتبارها تطبيقاً للعلوم ، والتطبيق بالتأكيد ذو قيمة كبيرة مثل النظرية تماما . « ما هذا الحمق فى قراراتنا وتقديراتنا ! إننا نحض الناس على أن يشغلوا أنفسهم بما يفيد وينفع ، ثم نحتقر الرجال النافعين » (٦٤) . وكان يأمل فى أن تكون الموسوعة مستودعا جامعا مانعا للتكنولوجيا حتى إذا وقعت بالفنون الميكانيكية كارثة دمرتها أمكن بناء هذه الفنون من جديد بفضل مجموعة باقية من مجلدات الموسوعة . وكتب هو نفسه مقالات مطولة بذل فيها جهداً كبيراً عن الصلب والزراعة والإبر والبرونز وآلة النقب والقمصان والجوارب والأحذية والخبز . وأعجب بعبقرية المخترعين وبمهارة الحرفيين . وقصد بنفسه أو أرسل مساعديه إلى المزارع والحوانيت والمصانع لدراسة العمليات والمنتجات الجديدة ، وأشرف على حفر الرسوم والنقوش التى قارب عددها ألفا والتى جعلت من مجلدات اللوحات الأحد عشر إحدى العجائب من نوعها فى ذلك العصر . وكانت الحكومة فخورة بأن يشمل هذه المجلدات الأحد عشر الإذن الملكى بطبعها ونشرها . وقد ضمت خمساً وخمسين لوحة عن صناعة النسيج وإحدى عشرة لوحة عن سك العملة وعشرا عن الصناعات الحربية ، وخمسا عن البارود ، وثلاثا عن صناعة الدبابيس . وكانت هذه اللوحات الثلاث الأخيرة مصدراً لمقالة آدم سميث الشهيرة عن توزيع العمل إلى « ١٨ عملية متميزة » فى إنتاج الدبوس (٦٥) . قال ديدرو : « من أجل الحصول على هذه المعلومات كنا نقصد إلى أقدر الحرفيين فى باريس وفى سائر أنحاء المملكة ، وحرصنا على أن نوجه إليهم الأسئلة ونكتب ما يملون علينا . ونحصل منهم على المصطلحات المستخدمة فى حرفهم . وفى مقابلات طويلة كثيرة مع مجموعة واحدة من العمال كنا نستكمل ما قد يكون الآخرون قد شرحوه بشكل ناقص أو غامض أو أحيانا غير دقيق . وأرسلنا إلى الحوانيت حفارين ورسامين رسموا الآلات والأدوات دون أن يحذفوا شيئا يمكن أن يجعلها واضحة تمام الوضوح أمام الأعين . » (٦٦)

وفى ١٧٧٣ ، عندما طلب سلطان تركيا إلى بارون دى توت أن يصنع المدافع لحصون الدردنيل استخدم البارون مقالة « المدافع » فى الموسوعة مرشدا دائما يسترشد بما جاء فيها . (٦٧)

وبعد أن فرغ ديدرو من إعداد النص كاملا ، أصيب بنكسة زلزلت كيانه وحطمت روحه ، ذلك أنه وهو يراجع إحدى المقالات اكتشف أن أجزاء كثيرة من أوراق التجارب التى كان قد صححها واعتمدها حذفت أو سقطت عند الطبع . وأظهرت مراجعة بعض المقالات الأخرى أن حذفا مماثلا جرى فى المجلدات من التاسع إلى السابع عشر . وجرى الحذف والتعديل عادة فى أجزاء ربما أثارت مرة أخرى رجال الدين أو البرلمان . وجرى الحذف دون اعتبار للمنطق أو السياق فى الجزء الباقى من المقالة . واعترف لى بريتون بأنه عمد إلى هذه العملية الجراحية (الحذف) لينقذ الموسوعة مما قد تتعرض له من محن ، وينقذ نفسه من الإفلاس . وروى جريم نتيجة هذا العمل « لقد جن جنون ديدرو عند اكتشاف هذا التصرف ، ولن يغيب عن ذاكرتى مطلقاً هذا الذى حدث له وظل لعدة سنين يصرخ فى وجه لى بريتون « لقد كنت تخدعنى بشكل مخز ودنىء .... وضيعت جهود عشرين من أفاضل الرجال ، الذين خصصوا كل وقتهم وقدراتهم ومواهبهم ونشاطهم حبا فى الحق وجريا وراء الحقيقة ، يحدوهم مجرد الأمل فى وصول أرائهم إلى جمهور الناس ، ولا يريدون منها إلا أيسر الجزاء بثمن غال ... ولسوف يذكرونك منذ الآن رجلا اقترف جريمة الخيانة ، وتصرف تصرفا وقحا كريها ، مما لا يقارن به أى شىء حدث فى هذا العالم » (٦٨) . ولم يغتفر ديدرو لبريتون هذه الزلة قط » .

إننا لو ألقينا نظرة فاحصة إلى هذا العمل ، سواء من حيث تاريخه أو محتوياته : لأدركنا أنه المشروع البارز الرائع فى عصر الإستنارة فى فرنسا ، ومنذ كان ديدرو فيه رئيسا لا غنى عنه ، كانت مكانته تجىء بعد فولتير وروسو فى الصورة العامة الشاملة للحياة الفكرية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .. وكانت مثابرته على تحرير الموسوعة عملية متشعبة الأطراف مضنية . إنه أثبت المراجع المتعارضة وصحح الأخطاء وقرأ تجارب الطبع ، وطاف

بأرجاء باريس يبحث عن الكتاب ويستحثهم . ودبج بقلمه مئات المقالات في حالة عدم العثور على الكتاب أو عجزهم عن الكتابة . وكان المرجع الأخير إذا قصر الآخرون ، ومن ثم نجده يكتب فى الفلسفة والفن والمسيحية ، والأصلة العاصرة (نوع من الحيات الضخمة الماحقة) والجمال وأوراق اللعب ومصانع الجعة والخبز المقدس . وسبقت مقالته عن « التعصب أو عدم التسامح » رسالة فولتير فى نفس الموضوع ، وربما أوحت ببعض الأفكار الواردة فيها . وزخر الكثير من مقالاته بالأخطاء ، وكان بعضها عدائيا غير منصف بشكل مشوش ، مثال ذلك مقالته عن اليسوعيين ، ولكنه كان فى عجلة من الأمر ، على حذر يستعد للنضال . كما كانوا يطاردونه ، وكان يحارب بكل سلاح فى متناول يده .

أما وقد خفت حدة المعركة ، فى مقدورنا أن نتبين مواطن الضعف فى الموسوعة . ففيها ألف خطأ فى إيراد الحقائق ، وفيها تكرارات طائشة غير مدروسة وحذف فاضح . وكان فيها انتحالات جوهرية ، كما أوضح الباحثون اليسوعيون «وكانت بعض المقالات» لوحة من المسروقات أو الإقتباسات(٦٩) . وفى ثلاثة أعداد من صحيفة تريفو أورد برتييه ، استناد إلى مراجع دقيقة ومقتبسات متطابقة أكثر من مائة من الانتحالات فى المجلد الأول وكان معظم هذه المسروقات مختصرا غير ذى أهمية ، ولكن بعضها إمتد إلى ثلاثة أو أربعة أعمدة منقولة بالحرف الواحد .

وكان فى الموسوعة شوائب فكرية خطيرة . ومن ذلك أنه كان لدى المؤلفين فكرة بالغة السذاجة عن الطبيعة البشرية ، وتقدير متفائل إلى حد بعيد لأمانة العقل وإدراك غامض غاية الغموض لضعف هذا العقل وهشاشته أو سهولة إنقياده ، ونظرة عامة متفائلة أكثر مما ينبغى إلى كيفية استخدام الناس للمعرفة التى يزودهم بها العلم . إن الفلاسفة بصفة عامة وديدرو بصفة خاصة ، كانت تعوزهم الحاسة التاريخية . إنهم قليلا ما توقفوا ليبحثوا كيف نشأت ونهضت تلك المعتقدات التى حاربوها ، وأية حاجات بشرية ، لا إبتداعات كهنوتية انتجتها وهيأت لها الدوام . وعميت أبصارهم تماما عن إسهام الديانة الضخم فى النظام الإجتماعى وفى الأخلاق وفى الموسيقى والفنون ، وفى

تخفيف الفقر والشقاء . إن تحاملهم على الدين شديداً إلى حد أنهم لا يستطيعون مطلقاً إدعاء النزاهة أو عدم التحيز الذى ينبغى أن نعتبره الآن عنصراً أساسيا فى الموسوعة الجيدة . وعلى الرغم من أن بعض اليسوعيين مثل برتييه ، كانوا فى الغالب منصفين فى نقدهم للموسوعة ، فإن معظم نقادنا كانوا متحيزين مثل الفلاسفة .

وأحس ديدرو إحساسا قويا بالأخطاء الحقيقية الفعلية فى الموسوعة فكتب فى ١٧٥٥ : إن الطبعة الأولى من موسوعة لا يمكن إلا أن تكون جمعا وتصنيفا مشوهين ناقصين ، (٧٠) وتوقع أن تحل محلها وشيكا طبعة أخرى مصححة . وحتى مع هذا شق هذا الإنتاج الضخم طريقه إلى الأوساط الفكرية فى القارة . وأعيد طبع المجلدات الثمانية والعشرين ثلاث مرات فى سويسرا ، ومرتين فى إيطاليا ، ومرة فى ألمانيا ، ومرة فى روسيا ، وعادت الطبعات المنتحلة إلى فرنسا لتنشر تأثير الأفكار المهربة . وبلغ عدد الطبعات ثلاثا وأربعين طبعة على مدى خمسة وعشرين عاما — وهو رقم قياسى لمثل هذه المجموعة الغالية الثمن . وكان أفراد الأسرة يجتمعون فى المساء ليقرأوا الموسوعة وتألفت مجموعات متلهفة على دراستها . وأشار توماس جفرسون على جيمس ماديون بشرائها .

والآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير ، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية ، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل أو التفكير القديم فى الموت ، فكأنما هبت هذه كلها على أوربا مثل ريح محملة بلقاح جديد ، تبدد كل التقاليد وتنير الفكر وتوقظه ، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة .

إن الموسوعة كانت ثورة قبل « الثورة الفرنسية »

* * *

الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ – ١٧٧٣

١ – القائل بوحدة الوجود

إننا نسميه بروتية Proteus لأنه مثل إله البحر عند هوميروس ، حاول أن يفلت من أيدى صائديه بالتشكل فى مختلف الأشكال.[١] أما فولتير فقد أطلق على ديدرو اسم بانتوفيلس ، لأنه أولع بكل فروع العلوم والأدب والفلسفة والفن . وكان له بكل هذه المجالات معرفة واسعة ، وأسهم فى كل واحد منها إسهاماً مثيراً موحيا . وكانت الأفكار هى كل زاده وعتاده . فجمعها وتذوقها وفحصها . ثم سكبها مشوشة تشويشا مسرفا حيثما وجد قرطاساً خالياً أو آذانا صاغية « إنى أضع أفكارى على الورق ولتكن ما تكون » [٢] وربما أصبحت أعداء . ولم ينسق قط بينها ولم يهتم قط بترابطها . ويمكن أن نقتبس عنه فى أى اتجاه تقريباً ، ولكن نزعته المركبة كانت جلية واضحة . وكان أكثر أصالة من فولتير ، وربما كان السبب فى هذا أنه لم يرتض قط المعايير التقليدية . وقد يطلق لنفسه العنان دون قيود مقبولة . وتتبع كل نظرية أنى قادته ، أحياناً إلى أعماقها وأحياناً أخرى إلى حثالتها . وتعرف على كل وجهات النظر إلا وجهات نظر القسيس والقديس لأنه لم يكن لديه حقائق أو أشياء يقينية « أنى لا أهتم بتشكيل السحب أكثر منى بتبديدها ، وتعطيل القرار أو الحكم ، لا باتخاذه .. أنا لا أقرر ، بل أتساءل [٣] أنا أترك ذهنى يهيم إلى حد السرف ، وأطلق العنان لمتابعة أية فكرة سليمة كانت أو طائشة ، تأتى أو تقفز إلى ذهنى أولا ، وأتعقبها كما يتعقب الشباب الداعر محظية بائسة وهى تبتسم ، وتتلألأ عيناها وتنظر بازدراء ... إن أفكارى هى محظياتى [٤].

وكان لديدرو خيال عقلانى ، فتخيل الأفكار والفلسفات والشخصيات كما يتخيل الآخرون الأشكال والمشاهد . ومن غيره كان يستطيع فى زمانه أن يتصور « أين أخى رامو » المخزى اللا أخلاقى الفاتن . إنه بعد أن يخلق أحد شخوصه يدعه ينمو ويتطور وكأنما يفعل ذلك طواعية واختياراً . ثم يدع هذه الشخصية تقوده ، وكأنما المؤلف هو الدمية المتحركة أوالألعوبة . إنه تخيل نفسه فى مكان راهبة شابة كارهة ثم جعلها حقيقة إلى حد أن المتشككين الفرنسيين تولاهم الجزع لمحنتها . أنه جرب الأفكار تجريبا عقاياً ، وتمسك بها بعض الوقت ، وتخيل نتائجها منطقيا أوعمليا ، ثم طرحها جانبا. وما كادت توجد فكرة فى هـــذا العصر إلا دارت بخلده . أنه واقعيا لم يكن مجرد موسوعة متحركة ، بل كان معملا متنقلا . سارت أفكاره معه أينما سار .

وهكذا فإن ديدرو فى كتابة « بعض الأفكار فى تفسير الطبيعة » الذى نشره فى ١٧٥٤ غفلا من اسم المؤلف ، بترخيص ضمنى من الرقيب الكريم المحسن مالشرب — تلاعب بأفكار عن الأحدية (القول بأن ثمة مبدأ غائيا واحداً ، كالعقل أو المادة . القول بأن الحقيقة كل عضوى واحد) .والمادية والآلية والحيوية (المذهب الحيوى الذى يقول بأن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتمادا كليا على العمليات الفيزيائية والكيميائية)والتطور . وكان لا يزال متأثراً ببيكون وأخذ عنه العنوان والصيغة الحكيمة ودعوة رجال العلم ليتكاتفوا فى العمل على قهر الطبيعة عن طريق التجريب والعقل . وتأثر كذلك بكتاب موبرتيوس « منهج عام للطبيعة » (١٧٥١) وكتاب بيفون (التاريخ الطبيعى (١٧٤٩) . واتفق مع موبرتيوس على أن كل مادة قد تكون حية ، ومع بيفون فى أن علم الحياة (البيولوجيا) مستعد الآن للتحدث إلى الفلسفة . ورحب عند المؤلفين كليهما بفرضية التطور الناشئة.

وبدأ ديدرو بمخطط ضخم : (إنها الطبيعة هى التى أريد أن أصفها ، إن الطبيعة هى الكتاب الوحيد أمام الفليسوف) [٥] وتصور أن الطبيعة قوة

نصف عمياء ونصف ذكية ، تؤثر فى المادة وتبعث فيها الحياة ، وتهيء للحياة مليون شكل تجريبى ، وتدخل التحسين على هذا العضو . وتنبذ ذاك العضو ، تحيي وتميت بشكل مبدع . وفى هذا المعمل الكونى ظهرت واختفت آلاف الأنواع .

(أنه مثل ما هو حادث فى مملكتى الحيوان والنبات ، ينشأ فرد وينمو ويبقى ثم يهلك ويزول ، فهلا يمكن أن تكون كل الأنواع على هذا المنوال؟ إذا لم تعلمنا العقيدة أن الحيوانات تأتى عن يدى الخالق كما نراها ، وإذا كان هناك أدنى شك فى بدايتها ونهايتها ، فهلا يفترض الفليسوف المستسلم لخواطره أن الحيوانية أخذت عن كل الأبدية كل العناصر الخاصة بها ، ثم تبعثرت و اختلطت بكتلة المادة ، وحدث أن هذه العناصر اتحدت كلما أمكن حدوث هذا الاتحاد ، وأن الجنين الذى تكون من هذه العناصر مر بتنظيمات وتطورات لا حد لها ، وأنه اكتسب على التوالى حركة وأفكاراً وتفكيراً وتأملا ووعيا ومشاعر وانفعالات ورموزا وإيماءات وأصواتا واضحة ولغة وقانونا وعلوما وفنونا ، وأن ملايين من السنين انقضت بين هذه التطورات ، وأنه قد لايزال أمام هذا الكائن تطورات أخرى يمر بها وأضافات أخرى يتلقاها ، غير معروفة لنا الآن . . وأنه قد يفقد هذه المواهب والقدرات كما اكتسبها ، وأنه قد يختفى إلى الأبد من الطبيعة ، لا بل إنه قد يبقى على قيد الحياة فى شكل آخر بمواهب وقدرات مختلفة كل الاختلاف عما نراه فيه فى هذه اللحظة من الزمان ؟ (٦)

إن الطبيعة عند ديدرو هى كل شىء و هى إله . ولكنا لا نعرف عن جوهرها إلا وفرتها المضطربة و التغير الدائب الذى لا يهدأ فيها . والطبيعة هى المادة الحية . ولكن المادة تحتوى فى نفسها على اندفاع الحياة وعلى إمكانية التفكير . وليس الإنسان آلة كما أنه ليس روحا غير مادية ، والجسم و النفس كائن واحد ويفنيان معا (إن كل شىء يدمر نفسه ثم يهلك

ولا يبقى إلا العالم ، ولا يثبت إلا الزمان (٧) والطبيعة محايدة ولا تعمد إلى التفريق بين الخير والشر والكبير والصغير والآثم والقديس . أنها تعنى بالأنواع الفرد . فلينضج الفرد ويتكاثر ثم ليمت ولسوف يفنى كل نوع كذلك . أن الطبيعة حكيمة فى عدد لا يحصى من التفاصيل البارعة التى يبدو أنها تكشف عن التخطيط. إنها تمنح الكائنات غرائز تمكنها من الحياة ومن تهيئة الحياة لغيرها ، ولكن الطبيعة أيضاً عمياء تدمر الفلاسفة والحمقى على حد سواء ، بقذيفة واحدة من النار أو بضربة واحدة من يدها على أديم الأرض ، ولن يكون فى مقدورنا أن نفهم الطبيعة ولا أن نكشف النقاب عن أغراضها أو معناها إذا كان لها ثمة أغراض أو معنى ، لأننا نحن أنفسنا طوال تاريخنا الدموى الجليل من بين ألعابها أو رياضاتها العابرة المتناهية فى الصغر .

٢ — حلم دالمبير

تابع ديدرو تأملاته فى الطبيعة فى واحد من أغرب المؤلفات فى الأدب الفرنسى — حلم دالمبير (وامتاز ديدرو بعرض أفكاره فى صورة حلم ، ودس الحلم على صديقه بأن جعل اثنين من مشاهير المعاصرين — جولى دى لسبيناس ودكتور تيوفيل دى بوردو — متحدثين فى الحوار . وقال ديدرو لخليلته « إنى أضع أفكارى على لسان رجل يحلم . وغالبا ما يكون ضروريا أن نضفى على الحكمة جوا من السخف والحمق حتى نهيىء لها مدخلا » (٨) وتحت هذه الأقنعة أطلق العنان لخياله الفلسفى غير مبال بأى خطر شخصى أو أية نتائج اجتماعية ، وكان مسروراً غاية السرور بالنتيجة . ووصفه صوفى فوللاند بأنه (أكثر ما كتب حمقا وعمقا ، فيه خمس أو ست صفحات تجعل شعر رأسك ينتصب »(٩) على أنه أكد لها أنه لم يتضمن كلمة واحدة خاطئة(١٠). أنه كتبه فى عام ١٧٦٩ وقرأ أجزاء منه على أصدقائه ، وفكر فى طبعه ، والمفروض فى الخارج . فاحتجت الآنسة دى لسبيناس لأسباب سوف تتضح فيما بعد . وفى حركة بطولية ألقى بالمخطوطة فى النار ، وربما كان يعلم أن هناك نسخة أخرى . وعلى أية حال طبع الكتاب فى ١٨٣٠ .

أنه عمل ثلاثي . وفي « المحادثة » الأولية بين ديدرو ودالمبير يعترض العالم الرياضي على مذهب صديقه المادي الحيوي بأنه ليس مقبولا أكثر من قبول مفهوم الله عند رجال اللاهوت في القرون الوسطى . يقول ديدرو : « ليس بينك وبين الحيوان إلا فارق واحد في الكائن الحي (درجة التطور العضوي) وكذلك الحال بين الحيوان والنبات » . ومن ثم فإن كل شيء في الإنسان يجب أن تكون له بذرته أو نظيره في النباتات» . ويسأل دالمبير : وفي المادة أيضاً ؟ فيرد ديدرو بالإيجاب ، لأنك « كيف تعرف أن الوجدان لا يلتئم مع المادة—أنت الذي لا تعرف جوهر أي شيء لا المادة ولا الوجدان؟ وليس ثمة إلا جوهر واحد في الكون في الإنسان وفي الحيوان (١١) » .

ويبرز الجزء الثاني من هذه الثلاثية دكتور بوردو والآنسة دي لسبيناس إلى جوار سرير دالمبير وهو نائم بعد أمسية قضاها في الجدل والحوار مع ديدرو (وكانت الآنسة وقد اشتهرت فعلا بصالونها تقيم مع دالمبير في لون من الحياة الأفلاطونية) . وتروي للطبيب أن صديقها رأى فيما يرى النائم حلما مزعجاً وأنه تحدث في نومه حديثا غريبا وأنها دونت بعض ملاحظات عن هذا الحديث ، مثال ذلك إن دالمبير قال لديدرو « انتظر قليلا أيها الفيلسوف. أنا أستطيع أن أدرك بسهولة مجموعة . . من الكائنات الصغيرة التي تحس ، ولكن الحيوان ؟ هل هو كل . . بوعي من وحدته الخاصة به ؟ أنا لا أرى هذا (١٢) ويرى الحالم في منامه أن ديدرو يروغ إذ من السؤال يتخذ موقفاً عفوياً « عندما رأيت المادة الهامدة تصبح في حالة شعور فلا شيء يدهشني بعد ذلك » .(١٣) . ويتابع ديدرو :«إذا كانت كل الأنواع الموجودة ستزول فإنها أو أية أشكال أخرى من الحيوان ستنتج على إمتداد الزمن تخمر الأرض والهواء . ويشترك بوردو والآنسة في المناقشة ، ولكن تقاطعهما صرخة مفاجئة من الرجل الذي يحلم الذي يتحدث الآن مثل ديدرو . « لماذا أكون أنا الآن كما أنا ؟ لأنه لم يكن ثمة مفر من أن أكون كذلك . إذا كان كل شيء في تغير عام متواصل فما الذي لا يمكن إنتاجه هنا أو في أي مكان آخر

بمرور ملايين القرون وتقلباتها ؟ . . . ومن يدرينا أن الكائن المفكر الذى يحس ويشعر موجود على كوكب زحل ؟ . . . هل يمكن أن يكون للكائن المفكر الذى يحس ويشعر فى زحل حواس أكثر منا ؟ آه إذا كان الأمر كذلك لكان ساكن زحل سيء الحظ لأنه كلما ازدادت الحواس ازدادت الحاجات (١٤) » .

ويعلق بوردو على ذلك « أنه على حق طبقا لنظرية لا مارك فى التطور العضوى ، فإن الأعضاء تولد الحاجات وبالتبادل تولد الحاجات الأعضاء » .

ويصحو دالمبير لحظة ويجد بوردو يقبل لسبيناس فيحتج . ويأمرانه بالعودة إلى النوم فيمتثل . وينسى الطبيب وصاحبته الصالون ويتتبعان الأفكار التى بدأت فى الحلم ويشير بوردو إلى ولادة المخلوقات الإنسانية الغريبة ويتحدى المؤمنين بالتخطيط الالهى أن يفسروها . وتسنح للآنسة لمحة خاطفة بارعة « ربما كان الرجل مجرد صورة مشوهة من المرأة أو المرأة صورة مشوهة من الرجل(١٥) . ويضيف الطبيب إلى هـــذا على طريقة ديدرو « الفرق الوحيد بينهما أن لأحدهما كيس يتدلى فى الخارج وللآخر كيس مثبت فى الداخل » . ويستيقظ دالمبير ويحتج « أنت تتحدث بكلام بذىء إلى الآنسة لسبيناس » وينهض بوردو لأنه كان على موعد مع مريض آخر ، ويتوسل إليه دالمبير أن يبقى ليفسر له : « كيف حدث أنه ظل كما هو بالنسبة لنفسه وللآخرين طوال التقلبات التى عاناها طوال سنى حياتة على حين أنه ربما لم يعد لديه شيء قط من الجزئيات التى كانت له عند مولده » ؟ فيجيب الطبيب « أنها الذاكرة و . . بطء التغيرات » . وتقدم الآنسة قياسا مثيراً « أن الدير يحتفظ بروحه لأنه يمتلىء بالرواد شيئا فشيئا وإذا قدم راهب جديد فأنه يجد مائة راهب قديم يقودونه إلى أن يفكر ويحس مثل ما يفعلون هم أنفسهم (١٦) » .

ويسيطر بوردو منذ الآن على المناقشة وهو يفرق بين النزعة الرومانتيكية والنزعة التقليدية القديمة حسبما تسيطر الحواس على الذهن الواعى أو يسيطر

الذهن الواعى عليها . ويرى ن لسبيناس مثال وأضح على الحالة الأولى ويقول لها فى رقة « إنك ستوزعين وقتك بين الضحك والدموع ولن تكونى أكثر من طفل » ويذكر تفسيرا فسيولوجيا للإحلام : « النوم حالة لا يعود يوجد فيها تنسيق بين الحواس عن طريق الوعى أو الهدف ، ولا يعود يوجد أى عمل مدبر أو نظام وضبط والسيد (النفس الواعية) ستسلم لهوى أتباعه (الحواس) . . . هل الخيط (الأعصاب) مشدود ؟ إذن يرى أصل الشبكة (المخ) . وإذا أراد خيط السمع فأنه يسمع . والفعل ورد الفعل (الأحساس والأستجابة) هما الشيئان الوحيدان اللذان يبقيان بينهما . وهذا نتيجة طبيعية لقانون الأستمرار والعادة . إذا بدأ الفعل بالغاية الشهوانية التى قدرتها الطبيعة للذة الحب ، وتكاثر النوع فإن أثره على أصل الحزمة (المجموعة) هو الكشف عن صورة المحبوب . ومن جهة أخرى إذا ظهرت هذه الصورة بادىء ذى بدء لأصل الحزمة فستكون شدة الرغبة الشهوانية وهياج السائل المنوى وتدفقه ، هذه كلها ستكون نتيجة رد الفعل . . . وفى حالة اليقظة تذعن الشبكة للصور التى يطبعها فى الذهن شىء خارجى . وفى حالة النائم ، فإنه من ممارسته شعوره الخاص ، ينبثق كل شىء فى نفسه . وليس فى الحلم شىء يصرف الأنتباه ومن ثم كانت حيويته ونشاطه[١٧] » .

وربما أحس بوردو بأن المريض الذى كان قد قرر زيارته قد يشفى بالطبيعة أسرع منه بالدواء ، ولذلك نسيه ، وأنطلق يشرح الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر) ويصف « إحترام الذات ، والخجل والندم » بأنها صبيانيات مبنية على جهل وغرور شخصى ينسب لنفسه مزايا ونقائض فى لحظة لا مفر منها[١٨] .

وأفتتن ديدور بالطبيب بوردو ناطقا بلسانه ، حتى أنه فى الجزء الثالث « مواصلة المحادثة » أغفل دالمبير . وإذ تحرر الطبيب فإنه أنكر العفة باعتبارها أمرا غير طبيعى ، ويقر الأستمناء متنفساً ضروريا عن الحويصلات المكتظة أو المحتقنة « أن الطبيعة لا تجيز شيئاً غير ذى فائدة . فهل أكون ملوما فى

مساعدتها إذا أهابت بي لمعونتها فى أقل الأعراض شبهة وريبة ؟ ويجدر بنا إلا نستفزها أبدا ، بل نمد لهـــا يد المعونة بين الحين والحين[١٩] » . ويختتم الطبيب كلامه بتحبيذ التجارب فى مجال الخلط المنتج بين مختلف الأنواع ، حيث يمكن أن ينتج هــذا الخلط نمطا من الإنسان الحيوان الذى قد يقنع بخدمة الإنسان . وتستبق الآنسة لسبيناس أناتول فرانس والبطارقة ، فتتسأل : وهل ينبغى تعميد أنصاف الرجال هؤلاء ؟

بوردو (وهو يهم بالخروج) : هل رأيت فى حديقة الحيوان ، فى قفص من زجاج إنسان الغاب (ضرب من القردة العليا الشبيهة بالإنسان يقطن فى بورنيو وسومطره) يبدو وكأنه سان جون يلقى المواعظ فى الصحراء ؟

الآنسة : نعم رأيته .

بوردو (وهو يغادر المكان) : قال له الكارد ينال دى بوليناك ، « تكلم وأنا أعمدك[٢٠] » .

وفى « مبادىء الفسيولوجيا » (١٧٧٤) صاغ ديدرو نظريته فى التطور ، متأملا فى الحلقة المفقودة ، فهو يقول « من الضرورى أن نبدأ بتصنيف الكائنات ، إبتداء من الجزىء الخامل غير الفعال (إذا وجد) إلى الجزىء النشيط الفعال ، إلى الحيوانات الدقيقة التي لاترى إلا بالمجهر . . . إلى النبات ، وإلى الحيوان ، وإلى الإنسان . : . يجدر إلا يصدق المرء أن سلسلة الكائنات قد عوقتها وأعترض سبيلها تباين الأشكال وتنوعها ، فالشكل مجرد قناع خداع . وربما وجدت الحلقة المفقودة فى كائن غير معروف ، لم يستطع علم التشريح المقارن بعد أن يحدد مكانه الحقيقى[٢١] » .

٣ — ديدرو والمسيحية

كان ديدرو قد وعد صوفى فوللاند بأنه لن يتعرض للديانة فى « حلم دالمبير » والواقع بطبيعة الحال أن « الثلاثى » أورد فلسفة استغنت عن الألهة تماما . وظل ديدرو فى العلن ربوبيا متمسكا بأن الله هو « المحرك الرئيسى » فقط ،

منكرا العناية الألهية والتخطيط والتدبير الألهى . وكان من الناحية النظرية « لا أدريا » ينكر أى علم أو إهتمام بأى شىء فيما وراء دنيا الحواس ودنيا العلوم ، وتحدث أحيانا بشكل غامض عن وعى كونى تعثر وتخبط عبر زمان لا حدود له ، وقام بتجارب تنتج الأن أشخاصا غريبة عقيمة أو يسبب أحداثا سعيدة — لا يكاد يكون ألها بتقبل الصلوات والدعوات . ويمكن أن يصبح فى أحدى نوبات الغضب خصيماً عنيفا ، وأنبأ عن مبغض البشر الذى بث فكرة الإله ، أنتقاما من الحياة ، وأنتشرت الفكرة ، وسرعان ما تشاجر الناس وكره بعضهم بعضا ، وقطع الواحد منهم رقبة الآخر . وكانوا يفعلون نفس الشىء منذ جرى هذا الأسم الكريه على الألسنة . وأضاف ديدرو فى إبتهاج مقرون بالحذر « ربما ضحيت بحياتى فى سبيل القضاء على فكرة الألة قضاء مبرما[٢٢] . » ومع ذلك فأن نفس العبقرية المهوشة أحست بنظام الكون وعظمته المذهلتين ، وكتب إلى الآنسة فوللاند : « أن الألحاد أقرب ما يكون إلى الحراقة ، وكلاهما صبيانى طائش » ، ثم أضاف « لقد جن جنونى لأنى حائر متورط فى فلسفة شيطانية لا أملك إلا أن يقرها ذهنى وينبذها قلبى[٢٣] » وأقر فى سنيه الأخيرة بعد ذلك صعوبة أشتقاق العضوى من غير العضوى أو الفكر من الأحساس [٢٤] » .

ولكن ديدرو لم يهدأ قط فى حملاته على المسيحية . وثمة فقرة مثيرة من رسالة خاصة تلخص موقفه منها ، « من رأيى أن العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون فى تعاليمها ومبادئها ، كما أنها مستعصية على الفهم ، ميتافيزيقية مربكة غامضة إلى أبعد الحدود . ومن ثم كانت أكثر تعرضا للأنقسامات والشيع والأنشقاقات والهرطقات ، وأكثرها ايذاء وازعاجا للهدوء العام ، وخطرا على الملوك والحكام فى تسلسل مراتبها الكهنوتية واضطهاداتها ونظامها العام ، وهى أشد العقائد فتورا وكآبة وبعدا عن المدنية ، وعبوسا فى طقوسها ، وأشدها صبيانية وأنطوائية وبعدا عن الروح الاجتماعية فى اخلاقياتها . . . وهى متعصبة لا تحتمل إلا أقصى[٢٥] .

وفى « نزهة المتشكك » (١٧٤٧) كان ديدرو قد اعترف بخدمات الكنيسة فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ولكنه بعد ذلك رأى أن المسيحية ، على حين تنهى عن الجرائم البسيطة ، تبعث على إقتراف الجرائم الكبيرة ، « سيأتى ، أن عاجلا أو آجلا . الوقت الذى نرى فيه أن نفس العقيدة التى حالت بين الإنسان وبين سرقة شلن واحد ، تكون سببا فى قتل ١٠٠ ألف شخص . تعويض رائع ![٢٦] ومهما يكن من أمر . فأن لأفكارنا الدينية أقل الأثر فى أخلاقنا[٢٧] ، والناس يرهبون القوانين الحالية أكثر مما يخشون نار جهنم الآجلة والأله الذى لايرونه . أن القسيس نفسه قلما يعتمد على الدعاء والصلاة للالهة ، اللهم إلا إذا كان المرء لا يعنيه إلا قليلا[٢٨] . وفى ١٧٧٣ تنبا ديدرو بأن الإيمان بالله والخضوع للملوك لن يعود لهما وجود فى بحر سنوات قلائل فى كل مكان[٢٩] ويبدو أن النبؤة تحققت فى فرنسا فى ١٧٩٢ . ولكن ديدرو تنبأ أيضاً « بأن الإيمان بوجود الله سيبقى[٣٠] » .

ومثل معظم الذين فقدوا إيمانهم بالمذهب الكاثوليكى ، فإن نفس ديدرو الذى ذهب إلى أن المراسم والطقوس الكاثوليكية كئيبة حزينة ، ظل حساسا لجمال ووقار الشعائر الكاثوليكية . ودافع عنها ضد النقاد البروتستانت فى صالونه ١٧٦٥ ، فهو يقول : « أن هؤلاء المتشددين الحمقى لا يدركون مدى تأثير الطقوس المظهرية على الناس . أنهم لم يشهدو قط توقير الصليب فى يوم الجمعة الحزينة ، وحماسة الجماهير فى موكب عيد القربان . وهى حماسة كانت فى بعض الأحيان تجرفنى أنا نفسى . أنى لم أر قط هذا الصف الطويل من القساوسة فى ملابسهم الكهنوتية ، ومساعديهم الصغار فى ثيابهم البيضاء ينثرون الزهور أمام القربان المقدس ، ولم أر هذه الجماهير الحاشدة التى تسبقهم وتعقبهم فى صمت دينى رهيب ، كما آن كثيراً من الناس ينبطحون على الأرض . ولم أسمع قط هذه التراتيل الوقورة التى ينشدها الكهنة وترددها فى حب وإخلاص الجموع الحفيرة من الرجال والنساء والأطفال ، إلا أهتز قلبى من الأعماق ، وذرفت عيناى الدموع[٣١] . »

ولكنه إستأنف الهجوم بعد أن مسح عينيه . ففي « مناقشة فيلسوف مع المارشال دى . . . (١٧٧٦) تخيل رجلا متشككا أسماه كروديلى (معناها بالأيطالية قاس) يتحدث مع أحدى سيدات المجتمع النبيلات ، تعتقد أن من ينكر « التثليث المبارك » إنما هو متوحش مصيره إلى المشنقة . وتدهش السيدة إذ تجد أن كروديلى الذى هو ملحد ، ليس أيضاً لصاً ومنغمساً فى الشهوات يقول « أظن أنه إذا لم يكن لدى شيء أخشاه أو آمل فيه بعد الموت فأنى سأستبيح لنفسى كثيراً من الملذات اليسيرة هنا » . ويسأل كروديلى « وما هى هذه الأشياء » ؟ « أنى أعترف بها للكاهن فحسب . . . . ولكن ما لذى يدفع الكافر غير المؤمن ليكون طيبا إلا إذا كان مجنونا ؟ » أنها تتراجع قليلا أمام حججه ثم تتخذ خط دفاع آخر : « ينبغى أن يكن لدينا ما نرهب به الأعمال التى تفلت من قبضة القانون القاسية وفضلا عن ذلك إذا قضيت على الديانة فماذا تضع محلها ؟ » . فيجيب كروديلى « هى أنه ليس هناك شيء يحل محل الدين ، فلسوف يكون دائما على ية حال ضرر وظلم أقل » . إنه يصور المسلمين فى ثورة يذبحون فيها المسيحيين ، والنصارى يحرقون المسلمين واليهود .

المارشال : هب أن كل ما اعتقدته باطلا كان حقاً ، وأنك هالك . إنه لشيء رهيب مزعج أن تكون هالكاً ملعوناً وأن تصلى النار إلى الأبد .

كروديلى : يقول لا فونتين بأننا سننعم بالراحة ، مثل السمك فى الماء .

المارشال : نعم ، نعم ، ولكن لافونتين أصبح وقوراً تقياً جداً آخر الأمر ، وأتوقع أن تكون كذلك .

كردريلى : أنا لا أستطيع أن أجيب بشيء إذا ضعف مخى .

أن أشد الفلاسفة عداوة لرجال الدين كان يحس بمرارة بالغة نحو ما بدا له أنه ضياع لحيوية البشر وطاقاتهم فى أديار الرهبان والراهبات . وفى إحدى

صفحاته الغاضبة أنحى بأعنف اللوم عـــلى الآباء الذين حكموا على بناتهم بالعيش بين جدران الدير وهن كارهات . إن من أروع كتاباته من الناحية الفنية ، بعثاً خيالياً من جديد لحياة راهبة من هؤلاء . أنه كتب رسالة الراهبة فى ١٧٦٠ نتيجة مزحة كان يأمل جريم وديدرو من ورائها أن يعيدا إلى رفقتهما المركيز دى كرواكسمبر من كاين إلى باريس . وحوالى هذه الفترة أثار ديدرو نداء وجهته الراهبة إلى برلمان باريس لاحلالها من القسم الذى أكرهها والداها عليه (كما تدعى) . وتعطف المركز فكتب إلى البرلمان يناصر قضية الراهبة ، ولكن دون جدوى .

إننا لانعرف عن هذه الراهبة شيئاً أكثر من هذا ، ولـكن ديدرو أعاد كتابة تاريخها فى تصوير واقعى يخلد ذكراها على مدى القرون . وافترض أنها هربت من الدير ، وأرسل إلى كرواكسمبر عدة رسائل — وكأنها بقلمها — تصف فيها معاناتها فى الدير ، وتطلب أن يمد لها يد المساعدة لتبدأ حياة جديدة . وأجاب المركيز ، ورد ديدرو ، باسمها ، واستمرت هذه المراسلات أربعة شهور فى مائة وخمسين صحيفة .

وصور ديدرو سوزان تعانى من رئيسة الدير الغليظة القلب ، فهى تضطهدها وتحبسها وتجردها من ملابسها وتعذبها وتحرمها من الطعام ، فتشكو إلى أحد الكهنة الذى يهيىء لها سبيل الانتقال إلى دير آخر . وهناك كانت رئيسة الدير الجديد مساحقة وشغفها الراهبة حباً ، وتوسلت إليها لمعاونتها . وربما بالغ ديدرو فى وصف قساوة الأمهات رئيسات الأديار وشقاء الراهبات وحزنهن . ولكنه جعل كل الكهنة فى قصته ودودين محبوبين مطبوعين على حب الخير ، وعالج فكرة السحاق فى رقة نادراً ما ظهرت فى مؤلفاته . وتأثر المركيز وقدم إلى باريس . وتكشفت له الخدعة ولكنه تجاوز عنها وكانت هذه القصة الغريبة قد أدت إلى دراسة رائعة فى علم النفس ، كانت متأثرة بقصة ريتشاردسن «كلاريسا» ولم يتعمق أى متشكك قط بمثل هذه القوة فى مشاعر القديس ، وفاجأ أحد الزوار

الكاتب وهو يدون هذه الرسائل ، فوجده كما يروى جريم « حزينا غاية الحزن ... ويذرف الدمع [٣٢] واعترف ديدرو بأنه كان يبكى لقصته هذه، فما أسرع ماكانت الدموع تجرى فى عينيه ، مثل روسو. وكان فخوراً ، بشكل يمكن الصفح عنه ، بقصته الموضوعة على هيئة رسائل ، وباحتمال أن تكون صحيحة ، وبالعاطفة الدافقة فيها ، وبأسلوبها ، وقد عنى بمراجعتها وتنقيحها ، وأوصى بنشرها بعد موته . ورأت هذه القصة الثورة فى ١٧٩٦ فى عهد الثورة وفى ١٨٦٥ أحرقت قصة « الراهبة » علناً بناء على أمر من محكمة السين [٣٣] :

ومع قصة الراهبة ، نشر فى ١٧٩٦ ، كما أحرق معها فى ١٨٦٥ « جاك المؤمن بالقضاء والقدر وسيده » الذى أعتبره ديدرو أعظم إنتاجه [٣٤] ، بداعى التقارب فى الزمن . وربما كان الأمر كذلك ، ولكنه أيضاً أسخف ماكتب . وافتتن ديدرو بقصة « ترسترام شاندى » فاتخذ أسلوب ستيرن (قصصى انجليزى فى القرن الثامن عشر ١٧٦٠ — ١٧٦٨) فى تأليف قصة قائمة إلى حد كبير على اعتراض السياق ، فيقطعه من حين إلى آخر ، فى نزوة من نزواته ، ليتحدث إلى القارىء عن شخوص القصة . وبدأ الكتاب واختتمه بقطع وأحداث منقولة مباشرة من ستيرن . [٣٥] وفاق ستيرن فى إزعاج القارىء بين الحين والحين بفحش القول . إن شخصى القصة يعكسان أسلوب سرفنتيز فى التباين بين السيد وتابعه فى المزاج والفلسفة . فالسيد يرفض فكرة القضاء والقدر على حين يؤمن جاك بها . إن كل شىء يحدث هنا على الأرض مسطور فى كتاب هناك . [٣٦] إن جاك « يعتقد أن الإنسان يشق طريقه بالضرورة إلى المجد أو إلى الخزى والعار ، كما تنطلق الكرة متتبعة انحدار الجبل الذى تدحرجت عليه . إن رئيس جاك السابق كان قد ملأ رأسه بكل هذه الأفكار التى استقاها من سبينوزا الذى حفظه عن ظهر قلب [٣٧] وهو رئيس نادر المثال .

وفى أواسط القصة يتلكأ ديدرو ليروى فى حماسة وبراعة قصة

المركيزة دى لا بومراى عشيقة المركيز دى ارسيز . أنها أرتابت فى أنه سئمها ، فعزمت على أن تكتشف الأمر بالأشارة إلى أن علاقتها أصبحت عبئاً ثقيلا ، أنه أساء إليها أبلغ أساءة بتصريحه بأنه يود أن يفلت من عشيقة إلى صديقة ، فتدبر المركيزة إنتقاما فريداً فى يأبه . وتعثر على بغى جميلة ، وتتحمل نفقات أبدال ملابسها وتعلمها الأجرومية وآداب السلوك وتلقنها مبادىء التقوى المثيرة للاعجاب ، وتقدمها إلى المركيز على أنها سيدة من ذوات الحسب والنسب ، ودربتها على أن تثير نزواته وترفض عرضه لأن تكون صديقته ، وأرشدتها إلى الطريقة التى تنتزع بها منه إقتراحا بالزواج . وبعد بضعة أشهر من الزواج تكشف مدام لا بومراى للمركيز عن ماضى زوجته . ولكن يفسد على المركيزة أنتقامها تطور غريب . ذلك أن المرأة الآثمة التى أعيد تشكيلها وصلح حالها عرفت كيف تحب زوجها المركيز ، وأعترفت له خجلة بأكية بخدعتها وعرضت أن تختفى من حياته ، وفى الوقت نفسه كانت هى زوجة مخلصة ووفية إلى حد أن المركيز أكتشف أن فى الزواج سعادة أكبر مما هى فى الفجور والزنى . فيغتفر لها تضليلها ويأبى أن تفارقه ، ويعيش معها عيشة راضية ممتازة ، ويتحطم قلب بومراى من مرارة الهزيمة .

أن هذا الفاصل على أية حال هـــو أكثر ما يأخذ بالألباب فى « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » فأنه يتميز بمتانة التركيب ، واللمسات الرقيقه للواقعية النفسية (السيكولوجية) ، والشعور العميق فى تعبير هادىء . وهذه كلها تعوزها القصة على وجه الأجمال . واعترف شيللر بأنها درة فى فن الأدب . وترجمها إلى الالمانية فى ١٧٨٥ .

٤ — ابن أخى رامو

أن « ابن أخى رامو » ، لا « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » هو أعظم كتب ديدرو وأسماه جوته « الكتاب الممتاز الذى ألفه رجل لامع[٣٨] ، كتبه فى ١٧٦١ ومات قبل أن ينشر ، لأنه كان أقبح كتبه وأكثرها خزيا ، وفى

نفس الوقت أكثرها أصالة . وظاهر أنه رأى أنه غير مستساغ ليقدمه حتى لاصدقائه . وبعد موته تسربت نسخة منه إلى المانيا أحدثت هناك دويا شديدا. وارتاع له شيللر وثارت نفسه ، وحمله إلى جوته ، وكان آنذاك فى قمة الشهرة (١٨٠٥) فترجمه إلى الإلمانية . ودخلت هذه الترجمة إلى فرنسا وأعيدت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية (١٨٢١) ونشرت طبعة أخرى١٨٢٣ ولكن هـــذه لم تصل إلى المطبعة إلا بعد أن كانت أبنة ديدرو قد هذبتها وحذفت منها ما لايليق نشره . ولم تكتشف المخطوطة الأصلية إلا فى عام ١٨٩١ فى كشك للكتب على ضفة نهر السين وهى موجودة الآن فى مكتبة بيير بونت موجان فى نيويورك .

وأختار ديدرو لسانا ناطقا بأفكار غريبة شاذة إلى حد كان من العسير معه أن يعبر عنها ديدرو بضمير المتكلم . جان فرنسوا رامو هو ابن أخى الملحن المشهور جان فيليب رامو (الذى توفى ١٧٦٤) والذى كان لايزال على قيد الحياة حين كتب الحوار غير القابل للنشر . وعرف ديدرو الموسيقى معرفة جيدة ، وتحدث بطلاقة ودون تكلف عن لوكاتللى ، برجوليسى وجوميللى ، وجالوبى ، وليووفنسى ، وتارتينى ، وهاس ، وتنبأ بحق أنه فى العزف على الكمان سرعان ما سيحل العزف الشاق محل العزف الجميل ويزحزحه من مكانه[٣٩] .

وألف ابن الأخ موسيقى ، وأصاب بعض النجاح معلما للموسيقى . ولكن كان أسمه يقض مضجعه ويقلق باله . وكان يغار أشد الغيرة من عمه ويحقد عليه تفوقه . فتخلى عن المعركة ، وانغمس فى اللهو وأطلق العنان لشهواته ورغباته بشكل ينافى الأخلاق ، مما وصفه ديدرو فى قصتة . وأكدت التقارير المعاصرة[٤٠] كثيراً من الصفات الأخرى التى نسبت إليه فى الحوار ، ولكن التاريخ لم يؤيد ماذهب إليه ديدرو من أنه كان قواد يتجر بجمال زوجته فى سوق الدعارة . وعندما فارقت هـــذه الزوجة الحياة فقد جان فرانسو كل احترام للنفس وجعل منه لسانه البذىء غير العف ، الشديد التهكم

والسخرية منبوذا فى المجتمع ، وطرد من دار مسيو برتان الثرى الذى كان لعدة سنوات قد إعتمد عليه فى تناول العشاء عندة ، وصار عليه أن يلتمس الزملاء فى مقهى « لا ريجانس » وفى أماكن أخرى تزخر بالأفكار التقدمية التى لاتغنى ولاتسمن من جوع . يقول ديدرو (لاحظ كيف يعكس حياته فى كتبه) : « فليكن الطقس معتدلا أو غائما معتما ، إن من عادتى أن أقصد سيراً على الأقدام فى الساعة الخامسة بعد الظهر إلى البالية رويال . وأنا الشخص الذى يمكن أن يقع بصرك عليه وحيدا دائما ، حالما على مقعد دارجنسون ، أبحث بينى وبين نفسى مشاكل السياسة والحب والذوق والفلسفة ، وأطلق لذهنى العنان . . . وإذا أشتد البرد أو هطل المطر ، آوى إلى مقهى لا ريجانس ، أراقب لعب الشطرنج . . . وكنت ذات مساء هناك ، أتلفت إلى ما حولى ، أتكلم قليلا ، وأسمع قليلا بقدر الأمكان . حين دنا منى شخص من أغرب الأشخاص على الأرض[٤١] » .

وتجيء بعد ذلك شخصية رائعة : رجل أخنى عليه الدهر ، وهو يتذكر الحمر فى مرارة وكان فيما مضى كثير المال ناعم البال مع أجمل زوجة فى باريس ، واستقبل مرة فى كل دار أنيقة[٤٢] ، كما كان متمشيا مع كل الوان الثقافة فى فرنسا . ولكنه الآن يعانى الفقر والخزى والعار ، يعيش على ما يقتات به من موائد الذين يستشعرون الأشفاق عليه ، وعلى القروض المنسية ، لا يرى فى الحياة إلا الصراع والهزيمة ، ينبذ كل الديانة باعتبارها قرية جميلة ولكنها مرعبة ، وينظر إلى الاخلاقيات على أنها جبن وخداع ، ومع كل هذا يحتفظ بقد ركاف من ماضيه ليغلف تحررا من الوهم بفصاحة بارعة مهذبة ، ويكسو هذا التحرير رداء عقلانيا . ودعابته حادة مريرة : من ذلك قوله « أن السيدة (كذا) وضعت توأما ، سيكون لكل والد واحد منهما » أو قوله عن أوبرا جديدة « أن فيها بعض قطع جميلة والمؤلم حقاً أن هذه القطع لم توضع لأول مرة[٤٣] » . أن مأساته الكبرى هى أنه لايؤمن بشىء « وسمع بعض كلام روسو عن الطبيعة — كم هى أفضل من المدنية

وخير منها ، ولكنه يلاحظ أن فى الطبيعة يفتك كل نوع بالآخر ؟ والخاتمة الرهيبة هى التهام كل كائن وهو يرى نفس الألتهام والفتك (أكل الكائنات بعضها بعضا) فى دنيا الاقتصاد ، اللهم إلا أن فيها أناسا يستنزف بعضهم دم بعض عن طريق اجراء قانونى مقبول . وهو يرى أن الأخلاق مجرد خدعة يضلل بها ذوو الدهاء من الناس بسطاء العقول منهم ، أو يخدع بها السذج من الناس أنفسهم . أنظر إلى تلك المرأة التقية الورعة التى تغادر الكنيسة (بعد الصلاة) « أنها أثناء الليل تتدرب فى خيالها على مشاهد الفسق والخلاعة وعلى الأوضاع الشهوانية الداعرة عند أريتينو[٤٤]» ويرى ابن الأخ (جان فرنسوا) أن الرجل العاقل لأبد أن يسخر من الوصايا العشر « ويتمتع بكل الخطايا والآثام فى حكمة وتبصر » . مرحى أمرحى ! بالحكمة والفلسفة ! — حكمة سليمان : شرب أجود الخمور ، التهام أطيب الأطعمة ، مضاجعة أجمل النساء ، النوم على الفراش الوثير ، وكل ماعدا هذا تافه لاقيمة له[٤٥] ؟ وماذا بعد هذا يمكن أن يقول الفيسوف الإلمانى نيتشه أو الشاعر والكاتب الفرنسى بودلير وأمثالهما ؟ .

ويختتم ديدرو هذا العرض المفزع « للأفكار بأن ينعت ابن الأخ بأنه « بليد شره جبان ، روح من الطين » ويجيب رامو على هذا بقوله « أعتقد أنك على حق[٤٦] وتجول بخاطرنا فكرة خبيثة : كيف كان يتسنى لديدرو أن يصور هذه الشخصية بمثل هذه القوة والحيوية ، إذا لم تكن تكمن بين جنبيه هو نفسه ؟ أنه يحتج على هذه الفكرة ، ولكنه يسلم بأنه ليس قديساً : « أنا لا أستنكر لذة الحواس ، فإن لى أنا أيضاً ذوقا يستسيغ أطباق الطعام الشهى والأنبذة الجيدة . كما أن لى قلبا وعينين أحب أن يقعا على سيدة جميلة ، وأحب أن ألمس بيدى أن رقبتها مستديرة ثابتة ، وأن تعتصر شفتاها شفتى ، وأن أرشف اللذة والمتعة من عينيها ، وأن ألفظ النفس الأخير بين ذراعيها . ولا يزعجنى الأنغماس البسيط فى الملذات فى بعض الأحيان مع أصدقائى ، حتى ولو كان صاخبا بعض الشىء . ولكن لا أخفى عليكم أنه

يبدو لى أنه يحلو لى أكثر إلى أبعد الحـــدود ، أن أمد يد المساعدة إلى المنكوبين ، أو أسدى نصيحة مفيدة ، أو أقرأ كتابا جيدا ، أو أتنزه مشياً على الأقدام مع رجل أو امرأة عزيزة لدى أو أقضى مع أولادى بضع ساعات أتولى فيها توجيههم وتثقيفهم ، أو أكتب صفحة جيده أو أؤدى واجبات عملى ، أو أصب فى أذن حبيبتى بضع كلمات حلوة رقيقة حتى تحيط عنقى بذراعيها وتعانقنى .. إن أحد معارفى رجل من ذوى الثراء فى قرطاجنة ، وكان الأبن الأصغر فى بلد جرت العادة فيه أن تؤول كل الممتلكات إلى الأبن الأكبر ،وترامت إليه الأنباء فى كولمبيا أن أخاه الأكبر ، وهو شخص متلاف ، قد سلب أبويه اللذين دللاه وتساهلا معه كل ما كانا يملكان ، وطردهما من قصرهما . وأن هذين الوالدين الطيبين يعيشان الآن فى مدينة صغيرة فى الأقاليم يعانيان مرارة الفقر ، فماذا فعل هذا الأبن الأصغر الذى أساء والده معاملته إلى حد إنه رحل إلى أقصى الأرض يلتمس الرزق ؟ إنه أرسل إليهما معونة وعجل بتدبير أموره ، ليعود ثريا ميسوراً إلى أبيه وأمه ، واسترد لهما دارهماً ، وهيأ الصداق لأخواته ليتزوجن . آه يا عزيزى رامو ، إن هذا الرجل يعتبر تلك الشهور أسعد أيام حياته . إنه حدثنى عنها والدموع تغمر عينيه . أما أنا ، وأنا أقص عليك هذه القصة ، فإنى أحس بأن قلبى قد أرهقه الفرح والغبطة والسرور الذى لا أجد كلمات للتعبير عنه (٤٧) .

٥ — علم الأخلاق والسياسة

كان لديدرو مثلما لنا جميعا ، شخصيتان على الأقل : نفس بأطنة تختزن فيها خفية كل دوافع الطبيعة البشرية ، كما هو موجود فى الحياة البدائية بل حتى حياة الحيوان ، ثم نفس ظاهرة للعيان تتقبل على كره منها التعاليم والانضباط والأخلاق ، ثمنا يجب أن يدفع مقابل الحماية التى يبسطها النظام الاجتماعى. ولا تزال له أنفس أو شخصيات أخرى : ديدرو الذى لم يكن قد نسى شبابه ، وحرياته البوهيمية وحبيباته وخلوه من المسئوليات اللهم الا

أمام الشرطة ، ثم ديدرو رب أسرة ، الذى لو تهيأت له سيدة قادرة على فهم كلامه وأفكاره ، لأمكن أن يكون هو أيضاً . أحيانا ، زوجا صالحاً وأبا شغوفا بأبنائه ، وحيواناً شبه مستأنس ، ورجلا يقدر بعض التقدير المسالى والأخلاق والقانون .

إن هذه الشخصيه المزدوجة ، « دكتور جيكل ومستر هايد » ، أنتجت فيما بين عامى ١٧٧٠ — ١٧٧٢ . محاورتين توضحان تذبذب آرائه . ففى « حوار بين أب وأبنائه » يقدم صورة جميلة لأبيه وهو يشرح فى رفق«خطر أولئك الذين يتعالون على القانون أو يضعون أنفسهم فوقه » ولكنه بعد ذلك بعام،بن كتب أكثر أعماله تطرفا .وكان لويس أنطوان بوجينفيل قد نشر لتوه (١٧٧٢) كتابه « رحلة حول العالم » عدد فيه خبراته وتجاربه فى تاهيتى وغيرها من جزر المحيط الهادى الجنوبى ووقع بصر ديدرو على بعض أجزاء من هذا الكتاب تبين تفوق الحياة البدائية فى بعض النواحى على المدنية .ورغبة من ديدرو فى إبراز نواحى التفوق والسمو هذه ، كتب فى ١٧٧٢ بما هو معهود فيه من حيوية وخيال وتميز وشغف ، « ملحق لرحلة بوجينفيل»، وهو كتاب لم ير النور إلا فى ١٧٩٦ . واختار ديدرو رجلا عجوزاً من أهالى تاهيتى أورد بوجينفيل ذكره ، وتخيل أنه يلقى خطابا يؤدع فيه أمير البحر لدى الفرنسيين الراحلين عن الجزيرة : « وأنت يا زعيم عصابة اللصوص المطاع الذين يمتثلون لأوامرك ، إغرب بسفينتك عن شواطئنا . فنحن أبرياء سعداء ، وكل ما تستطيع أن تفعل لنا هو أن تفسد علينا سعادتنا . إننا ننهج نهج الفطرة النقية ، ولكنك تسعى لمحو أساس هذه الفطرة من نفوسنا . وهنا كل الأشياء ملك لكل الناس ، أما أنت فتبشر بتفريق غريب بين ما هو « ملك لك » وما هو « ملك لى » وكل بناتنا وزوجاتنا كانت لنا جميعا على الشيوع ، ولكنكم شاركتمونا هذه الميزة ودفعتم بهن إلى لوثات من الجنون ، ولم يكن لهن بها عهد من قبل . . وتناحرتم وقتل بعضكم بعضا من أجلهن وعدن مضرجات بدمائكم ... نحن أحرار ، ولكن تأمل كيف أنكم نقشتم

على أرضنا عنوان عبوديتنا فى المستقبل ..إنكم كتبتم على هذا النصل المعدنى « هذا البلد بلدنا » . . . ولكن لماذا فعلتم هذا ؟ هل لأنكم حططتم رحالكم هنا ؟ وهل إذا رسا أحد أبناء تاهيتى ذات يوم على شواطئكم، ونقش على حجر عندكم « هذا البلد تابع لأهل تاهيتى » فماذا عساكم ترون فى مثل هذا العمل ؟ .. إن هذا التاهيتى الذى تريدون أن تمسكو به وكأنه حيوان ليس أخاً لكم .. وأى حق لكم عليه ليس له حق مثله عليكم ؟ إنكم جئتم إلينا ، فهل سطونا عليكم ؟ وهل أعملنا السلب والنهب فى مراكبكم ؟..كلا . لقد احترمنا ذاتنا فى شخصكم . . . اتركوا لنا عاداتنا وأعرافنا ، أنها أحكم وأشرف من عاداتكم وأعرافكم . وليست بنا من حاجة أو رغبة فى مقايضة ما تسمونه جهلنا بالمعرفة القيمة لديكم » (٤٨) .

ويمضى حكيم تاهيتى فيذكر الأوربيين بما قوبلوا به من ترحيب حار ، وكيف أسكنوهم وأطعموهم وأحبوهم . ولم يكن فى الجزيرة « وصية سادسة» (كما افترض ديدرو) كما لم يكن ثمة حقد ولا حسد . فلم يفهم نساء الجزيرة ما تحدث به قسيس السفينة عن الخطيئة والعار ، وأحطن البحارة بكل الكرم والرعاية .وماذا كانت النتيجة ؟ إن مرض الزهرى الذى لم يعرفه سكان الجزيرة من قبل ، ظهر الآن بين نسائها ، ثم انتقل إلى رجالها . ويتوسل الرجل العجوز إلى الزائرين أن يرحلوا إلى غير رجعة .

وأضاف ديدرو « مناقشة بين القسيس وأورو » وهو مواطن من تاهيتى كان قد تعلم الأسبانية ، صدرت إليه الأوامر بإيواء القسيس فى كوخه . ويعرض أورو على القسيس أن يختار لمشاركته فراشه بين زوجته وإحدى بناته ، ويوضح القسيس أن قانونه الأخلاقى يحرم عليه قبول مثل هذا العرض الكريم . ولكن إحدى البنات تمسه بيدها فيصبح رجلا . ويقضى القسيس الأيام الثلاثة التالية يشرح لأورو الأخلاق المسيحية والليالى الثلاث التالية مضاجعا البنات واحدة بعد الأخرى ، أما الليلة الرابعة ، وكأنما ارتبط بكلمة الشرف ، فأنه يخصصها لزوجة مضيفة (٤٩) وأمدت محاولات القسيس لتحويل أورو إلى المسيحية ديدرو بصحيفة سارة بهيجة .

القسيس — ما هو الزواج عندكم ؟

أورو — اتفاق على المشاركة فى كوخ واحد ، والمشاركة فى سرير واحد كلما طاب لنا أن نفعل ذلك .

القسيس — وإذا رغبتم عن ذلك

أورو — نفترق :

القسيس — وماذا يحدث للأبناء ؟

فيقول أورو إن هذه ليست مشكلة : تعود السيدة بأبنائها إلى بيت أبيها، وسرعان ما يتزوجها رجل آخر يسعد بقبول أبنائها ، لأن الأولاد فى المجتمع الزراعى كسب اقتصادى عظيم .

القسيس — هل يستطيع الوالد أن يضاجع ابنته ؛ والوالدة ابنها ،والأخ أخته والزوج زوجة رجل آخر ؟

أورو — ولم لا ؟

القسيس — أظن أنه حتى هنا — مهما يكن من أمر ، لا يضاجع الأبن أمه غالباً .

أورو — لا . اللهم إلا إذا كان احترام هذا الأبن لأمه شديدا[٥٠]

ويخرج القسيس من هذا وهو يكاد يحبذ كل التحبيذ طرق معيشة أهل تاهيتى ، ويقر بأنه « أغرى بخلع ملابسه الكهنوتية فى السفينة ليقضى بقية أيام حياته بين أبناء الطبيعة هؤلاء .

وينتهى ديدرو إلى مثل ما انتهى إليه صديقه القديم روسو ، الذى كان يناقش فى كتابه « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥٠) و « بحث فى منشأ عدم المساواة» (١٧٥٥) « هل تريدون لمحة موجزة عن كل تعاستنا وشقائنا تقريبا؟ هاكم هذه اللمحة . لقد وجد إنسان طبيعى ثم أدخل إلى هذا الإنسان الطبيعى إنسان صناعى ، ونشبت حرب أهلية استمرت طيلة الحياة . . وكان الإنسان الطبيعى فى بعض الأحيان هو الأقوى ، كما حطمه فى أحيان أخرى الإنسان

الصناعى الأخلاقى . وفى كلتا الحالتين يعامل العملاق بقسوة ويضيق عليه الخناق ويعذب، ويسام الخسف .. إنه دائما تعس منكوب » (٥١) .

وكان ديدرو بطبيعة الحال لا يعرف إلا القليل عن أهل تاهيتى ، وكان بوجينفيل قد وصفهم بأنهم متمسكون بالخرافات والمحرمات ، يرهبون أرواحاً شريرة خيالية ، يستسلمون للكهنة ، ناهيك بالعديد من أنواع الحشرات والأمراض . إن ديدرو الذى كان يضيق ذرعا بالزواج بواحدة ، لم يكن فى حاجة إلى أن يدرك لماذا وضعت ضرورات النظام الاجتماعى مثل هذه القيود الكثيرة على الغرائز الجنسية غير المشروعة لدى الجنس للبشرى ، وكان نموذجا آخر للفكر الفردى الذى يتصور نفسه أحكم وأعقل من عادات البشر وأعرافهم .

وثمة تناقض طريف بين الفلسفة الأخلاقية عند ديدرو الكاتب وديدرو الإنسان من الناحية النظرية ، وفى بعض الأحيال أشرفت آراؤه الأخلاقية على الفوضوية ، ففى تلك الأوقات وصف الطبيعة البشرية بأنها خيرة فى أساسها ، وبناء على هذا الفرض اقترح « إن نتبع الطبيعة أى الغريزة ،وأحس ديدرو أنه عن طريق الغرائز وحدها يمكن للانسان أن يحرر نفسه من القيود التى يفرضها الدين والمجتمع بآلاف التقاليد والمحظورات والقوانين . وفى هذا المزاج وصف الاتصال الجنسى بأنه « أعلى مراتب السعادة » (٥٢) ،وعرف الجب بأنه « احتكاك شهوانى بين غشائين » و« فقدان شهوانى لبضع قطرات من السائل » (٥٣) وأكد لخليلته أن الزنى « خطأ يستحق لوما أو توبيخا أقل مما تستحق أتفه كذبة(٥٤) .كان ديدرو فيلسوفا يتوق إلى أن يحيا حياة الديك الذى يختال عجباً بين الدجاجات .

ولما عركه الدهر وزادت خبرته بالحياة نقض كل آرائه الأخلاقية . ومنذ انحرف عن روسو إلى فولتير ، فأنه نظر إلى الإنسان نظرة تزداد كآبة وقتا ما ، على أنه شرير سيء بالطبيعة . أو بسبب تدهور النظام الاجتماعى على حد سواء . « وليس ثمة شيء يوضح أن الطبيعة البشرية كريهة بغيضة ؛

مثل السهولة التى يتقبل بها الناس أسوأ الأعمال حين لا يكون (كما هو الحال فى حشد منهم) .. هناك من هو مسئول شخصياً عن الشر الذى وقع (٥٥) ويقول جاك المؤمن بالقضاء والقدر : « صدقنى نحن لا نشفق على أحد إلا على أنفسنا » (٥٦) ويلغى ديدرو الآن مبالغاته القديمة بمبالغات جديدة . فربما « لوى الإنسان الطبيعى عنق أبيـه ليضاجع أمـه ، لولا تنمية عقله بفضل التعلم (٥٧) ولما تضاءلت حاجيات ديدرو الجنسية ، اتفق مع ابيقور على أن « ملذات أو مباهج النفس » مرضية بشكل أكثر اطرادا من الملذات الجنسية ، أو المادية (٥٨) وهو يتساءل « هل هناك متعة أو لذة مادية فحسب فى اقتناء امرأة جميلة ؟ وهل هناك ألم مادى فحسب فى فقدها بسبب الموت أو التحول عنها ؟ أليس التمييز بين المادى والمعنوى قائماً وطيدا مثل التمييز بين الحيوان الدقيق الذى لا يرى إلا بالميكرسكوب والذى يحس ، وبين الحيوان الذى يفكر ويتأمل ويعقل (٥٩) .

وإذ وصل الآن ديدرو إلى المفهوم البيولوجى للفضيلة — صفة تعمل على البقاء ، فقد تسنى له فى شىء من الغموض أن يدرك أن اسمى الفضائل هى تلك التى تعمل على بقاء المجموعة ، حيث أن التنظيم الاجتماعى هو الوسيلة الرئيسية لبقاء الفرد ، وفى قصة « أين أخى رامو » تبين ديدرو ماذا يحدث لمن يحاول تحطيم القيود المفروضة على الفرد من أجل الاحتفاظ بالجماعة أو الإبقاء عليها . ومثل هذا الإنسان يصبح كما مهملا ومنبوذا بغير عقيدة أو طعام أو زوجة أو أمل . وبذلك يختتم ديدرو حلمه عن تاهيتى بشىء من الاعتدال فى بطء : « إننا سوف نندد بالقوانين الوحشية حتى يتم إصلاحها ولكنا فى نفس الوقت سنخضع لها . إن من يكون من سلطته أن ينتهك حرمة قانون سىء يعطى لكل إنسان غيره الحق فى انتهاك حرمة القانون الصالح إنه أقل إزعاجا أن تكون مجنـونا بين المجانين من أن تكون عاقـلا بمفردك» (٦٠) .

وعندما اكتملت وبرزت مفاتن الأنوثة فى أنجليك ابنة ديدرو ، بدأ

يساوره القلق بشأن أخلاقها، وكان يقظا حريصا على عذريتها باعتبارها ذخرا ثمينا وسلعة رائجة . ولما رأى أنه قد تم زواجها فى أمان ، حذرها من الزنى ، قائلا إن مجرد الارتياب فى خيانتها لزوجها سيقتل الزوج كمدا ، وستقضى عليه بسبب الخزى والفضيحة . (٦١) وفى نقده للفنون عاب على الفنان بوشيه فساده وفسقه ، وامتدح التواضع وغيره من الفضائل المسيحية كما صورها جريز وشاردان . وبشر ديدرو فى رواياته بالفضائل القديمة مثل أى برجوازى راسخ الأركان مزدهر الأحوال . وتسلى ديدرو ببعض قطع من المرح الطائش مثل « ملحق رحلة بوجينفيل » وبعض المرح الصاخب وشطحات الخيال على مائدة العشاء عند دى هولباخ . حتى إذا عاد أدراجه إلى بيته أصر على الاستمساك بكل فضائل الطبقة الوسطى ، وحاول أن يمارسها إذا أجيز له شىء من الزنى على نطاق ضيق فقط .

وكانت أفكاره السياسية مهوشة مثل آرائه فى الأخلاق . وسلم هو بهذا فى صراحته لمحببة . ولم يتفق مع فولتير فى أن الملك المستنير هو أفضل أداة ممكنة للأصلاح . واتهم فردريك الأكبر بأنه طاغية ، وحاول أن يحول كاترين الكبرى إلى الأفكار الديموقراطية . ووافق على الملكيةالدستورية ولكنه اقترح جمعية وطنية ينتخبها الملاك لأن لهم سندا أو مصلحة فى حكومة اقتصادية صالحة . (٦٢) (وعندما كتب هذا لم يكن من المتصور أن يكون بديلا ممكنا للأرستقراطية فى حكومة فرنسا إلا الطبقة المتوسطة من الملاك) وحلم ديدرو بمجتمع كريم تتحقق فيه للجميع الحرية والمساواة كلتاهما (وهما العدوان الطبيعيان) ولكنه ارتاب فى جدوى أية اصلاحات ، حتى يرفع انتشار التعليم من مستوى تفكير الناس وعقولهم ( )

(*) الأبيات التى كثيرا ما اقتبست وشوهت هى : وقد تلوى يداه أحشاء الكاهن ، لعدم وجود حبل لشنق الملوك « وضعها ديدرو عن لسان أحد المتعصبين فى رواية « المجانين بالحرية » ولا يمكن أن تؤخذ على أنها وجهة نظر ديدرو ، لأنه استنكر صراحة قتل الملك : « لا يجوز أن يرى الشعب=

وكانت آراؤه الاقتصادية متطرفة من الناحية النظرية ، معتدلة عند التطبيق ، وحتى فى سنى الشيخوخة تعلق ديدرو بشيوعية فوضوية ، مثلا أعلى له : « إنى مقتنع بأنه لن يتيسر للجنس البشرى أية سعادة حقيقية الا فى دولة اشتراكية ليس فيها ملك ولا قاضى ولا قسيس ولا قوانين ،ولا يكون فيها هذا لك ، وهذا لى ، وليس فيها حق تملك ، وليس فيها رذائل أو فضائل [٦٥] ولكنه اعترف بأن هذه النظرية « مثالية إلى حد شيطانى»[٦٦] وتعجب ابن أخى رامو قائلا « أى اقتصاد اجتماعى شيطانى عندنا ! فهناك أناس يتوافر لديهم كل شيء إلى حد التخمة ، على حين هناك آخرون يتضورون جوعا ولا يجدون ما يتبلغون به » [٦٧] وأدرك ديدرو فى ساعات العسرة أن عدم المساواة فى التملك سيبقى ببقاء عدم المساواة أو التكافؤ فى القدرات ، وطرح فكرة الاشتراكية لأنها غير عملية ، حيث لم يوجد انذاك إلا بروليتاريا صغيرة غير منظمة لا تكاد تكون واعية ، ولكن راوده الأمل فى أن يرتفع مستوى هؤلاء العمال ويتحسن وضعهم وشيكا . ولما انتهى الأمر إلى الاصلاحات العملية ، أيد ديدرو الفيزيوقراطيين ووقف إلى جانب الرأسمالية الناشئة . وأعلن أن حق التملك يجب أن يكون مقدسا مطلقا ، واستنكر أى اعتداء على هذا الحق من جانب الدولة . وانضم إلى كنى وترجو وفولتير فى الدعوة إلى تحرير الصناعة والتجارة من أية قيود حكومية [٦٨] .

وحبذ الإعانات الحكومية للزراعة بوصفها أكثر فروع الاقتصاد حيوية وأهمية ، على حين أنها أيضا أكثر الفروع وقوعا تحت رحمة سائر الفروع [٦٩] . إن ديدرو مثلنا جميعاً أصبح أكثر محافظة (على القديم) كلما تقدمت به السن وزاد دخله .

= الدم الملكى مسفوحا لأى سبب مهما يكن[٦٤] ولا يمكن أن يكون لهذه الأبيات أى تأثير على مصير لويس السادس عشر ، لأنها لم تنشر إلا فى ١٧٩٥ .

٦ — ديدرو والفن

ن هذا العلاج المتجول للاهوت والأخلاق والسياسة والاقتصاد لا يشكل إلا بعض جوانب يسيرة من ديدرو المتعدد الاهتمامات والأنشطة ، فهناك غير هذا كثير . ومن كان يظن أن هذا الرجل الفظ الذى يزدحم رأسه بأفكار كثيرة سيصبح بين عشية وضحاها أعظم ناقد فنى فى عصره ؟ .

فى ١٧٥٩ كان صديقه جريم مشغولا بشئون الحرب وبمدام دى ابيناى ، فطلب إلى ديدرو أن يقوم مقامه فى تغطية أنباء معارض بينالى الرسم والنحت فى اللوفر من أجل قراء « كورسبوندانس — الرسالة » التى كان يصدرها جريم . وذكر ديدرو أنباء المعارض فيما بين عامى ١٧٥٩ — ١٧٧١ ، وعامى ١٧٧٥ — ١٧٨١ وكان فى بعض الأحيان يسهب فى ذلك أيما اسهاب لأنه كان فى هذه المذكرات يطلق لقلمه العنان ليعرض لكل مظاهر الحياة البشرية تقريبا. ولم يظهر فى مجال النقد الفنى شىء يمثل هذه القوة والصراحة وفى الصميم . وجاء بعض هذا النقد فى صيغة محادثات مع الرسامين أنفسهم فى المعرض أو على شكل رسالة شخصية إلى جريم . كما حدث فى ١٧٦١ : هاك ياصديقى الأفكار التى جالت بخاطرى عندما شاهدت اللوحات والرسوم الموجودة فى معرض هذا العام . ولقد دونتها دون أن أعنى كثيراً بفحصها أو التدقيق فيها أو إيضاحها .. وكل ما كان يدور بخلدى هو أن أوفر لك شيئا من الوقت تستغله استغلالا أفضل (٧٠) .

وأقبل على مهمته الجديدة فى ابتهاج متحمس ، وشكر لجريم إرغامه أياه على أن ينظر إلى الفن المعروض لا نظرة الجمهور العابرة ، أى نظرة سطحية زائفة ، بل العزم الأكيد على دراسة كل رسم وكل تمثال ، حتى شعر بحق بالبراعة الفنية فى العمل المعروض وقيمته وأهميته . ولم يكن ديدرو معداً من الناحية الفنية ولكنه تحدث إلى الفنانين أنفسهم — شاردان لا تور ، كوشان ، فلكونيه . . . ودرس طريقتهم فى التأليف والعمل ،

وشغل الفرشاة والتلوين . « فتحت قلبي للآثار التى ينتجها جهد الفنان ، وأدركت سحر الضوء والظل وعرفت اللون ، واكتسبت شعور الجسد (٧١)

وأصبح ديدرو آخر الأمر ناقداً قديراً للأسلوب الفنى ولكنه أنكر أية معرفة تقنية أوفنية ، فإنه عرض أن يقول ماذا يعنى عنده كل عمل فنى ، فعمد بادىء ذى بدء إلى شرح الموضوع أوالقصة فى شىء من التفصيل ، حيث أن بعض قراء جريم لم يكن يتيسر لهم قط رؤية القطع الفنية التى هى موضوع البحث ، كما أن نفراً منهم اشتروا اللوحات على أية حال ، بناء على تقريظ ديدورلها . إنه غالباً ما يتخيل ثم يعيد كتابة المسرحية الحية التى لم يمثل منها الفنان إلا اللحظة المعبرة المركزة . وحول فى بعض الأحيان الفن إلى أدب ، ثم تباهى آخر الأمر بقوله . « إن شاردان ولاجرينيه ، وجريز وغيرهم . . . أكدوا لى أننى الأديب الوحيد الذى يمكن لصوره أن تمر على قطعة القماش المعدة للرسم مثلما تعاقبت فى رأسك الواحدة بعد الأخرى تقريباً (٧٢) .

إن ديدرو أوضح ما يحب وما يكره ، أو مايؤثره وما لايعجبه بصراحة لا خجل فيها. إنه بعد أن استنكر كل شىء تقريباً فى المدنية الفرنسية المعاصرة عاد فدافع عن الرسامين الفرنسيين فى حماسة مشربة بحب الوطن . ورمى هوجارت بالكذب والجهالة لأنه قال إن فرنسا ليس فيها رسامون برعوا فى استخدام الألوان ، ورد على ذلك بقوله « ربما كان شاردان من أبرع من استخدموا الألوان فى كل عصور فن الرسم » (٧٣) وكان قاسياً مع ناتييه وعاب على بوشيه لوحاته العارية ولكنه استمتع بها . وبعد أن نقد العيوب فى إحدى هذه اللوحات قال « كله يستوى عندى فلاحصل عليها كما هى ، ولا أظن أنى سأضيع الوقت فى الشكوى من أن شعرها فاحم إلى حد بالغ . وأغضبته لوحة تمثل يوسف يرفض عروض زوجة بوتيفار « لا يمكن أن أتخيل ماذا كان يريد ، وما كنت أنا أتطلب شيئاً خيراً من هذا ،

وغالباً ما أرتضيت أقل منه (٧٤) وأبدى عطفاً نحو الفنانين الذين يرسمون الصور العارية ، وبصفة خاصة نحو المثالين الذين يصبونها . وفوق كل هذا « ماذا تفعل فى التماثيل بالأزرار والنفثات(٧٥) وأحب صور جريز التى تمثل براءة الفتيات وشارك جريز نزعته العاطفية وبصفة خاصة قدر لوحاته التى رسمها لزوجته التى كانت عشيقة ديدرو أيام شبابه . واستساغ المناظر الطبيعية الموحشة فى الفن الهولندى والفلمنكى ، ووجد شعراً أكثر فى شجرة بمفردها تعانى من كر السنين وتعاقب الفصول ، منه فى واجهة قصر منيف فلابد أن يكون القصر أطلالا حتى يثير الاهتمام وتكون اللوحة مشوقة (٧٦) واستهجن التوكيد القديم الكلاسيكى — التقليدى على العقلانية والنظام والتناسق ، وامتدح الخيال الخلاق وأثره على التفكير التحليلى . ودعا إلى « تآليف مرعبة أو حسية ... تنقل الحب أوالرعب إلى أعماق القلب وتذيب الحواس وتطهر النفس ، فثمة شىء فى هذا الذى لا يمكن أن تحققه أية قواعد .(٧٧) واحتقر فكرة « الفن للفن » فكان يرى أن للفن مهمة أخلاقية هى « تمجيد الفضيلة والتنديد بالرذيلة (٧٨) .

وكان ديدرو واثقاً من ملاحظاته على معرض ١٧٦٥ إلى حد أنه أضاف إليها مقالا عن الرسم « ووجد مثل أفلاطون وأرسطو ، إن جوهر الجمال يكمن فى علاقة التناسق بين الأجزاء فى كل واحد ، ولكنه ارتأى أن يضاف إليها أيضاً تناسق بين الشىء وبيئته والغرض المقصود منه . ومن الوجهة المثالية عرف الجمال بأنه تكيف كامل مع الوظيفة فالإنسان الذكى الصحيح الجسم لابد أن يبدو جميلا . وينبغى على الفن أن يختار فى منظرما ، المعالم والقسمات التى تحدد مغزاه ، كما ينبغى أن يستبعد العناصر التى لاعلاقة لها ، وليس ثمة ما يدعو إلى أن يكون الفن تقليداً صاغراً حقيراً للهدف والواقع ومع ذلك يجـــدر بالفنان أن يدرس الشىء الطبيعى لا النماذج القـــديمة أو القواعد الشكلية فإن تنير Teniers واحد خير من إثنى عشر واتو Watteau خياليين . وأحس ديدرو بشىء من التنافر بين الفن والعقل ، وتبين له أن

قواعد بوالو التقليدية الكلاسيكية قد عوقت الشعر الفرنسى أو أصابته بالشلل. وهنا خالف فولتير لينضم إلى روسو فى أن الفن يجب أن يكون فوق كل شيء صوت الوجدان ونتاجه . لذلك رفع من شأن اللون على حين أن رينولدز فى نفس العقد من السنن كان يطرى التصميم . وسلم ديدرو بأن التصميم يعطى الكائنات شكلا ولكن اللون يعطيها حياة[٧٩] . ووجد جوته فى هذا المقال أشياء كثيرة بدا له أنها خطأ ، ولكنه ترجم نبذا منها ووصفها لشيلر « بأنها عمل رائع ، أنها تتحدث بشكل أنفع حتى للشاعر منه للرسام ، ولو أنها للرسام كذلك مشعل قوى الضوء يهديه على الطريق[٨٠] » .

٧ — ديدرو والمسرح

كتب ديدرو يقول « ترددت عندما كنت شابا ، بين السوربون (الكهنوت) والمسرح[٨١] . وفى ١٧٧٤ كنت قد قضيت نحو ثلاثين عاماً أكتب الموسوعة على غير هوى منى ، وكتبت روايتين أثنتين[٨٢] » وأولى إهتماما أكبر لرواياته منه لقصصه . ولما كان معظم قصصه لم ينشر إلا بعد وفاته فقد كان لرواياته أثر أكبر على شهرته وعلى حياته ، كما أنها شكلت ما يقرب من الثورة فى تاريخ المسرح الفرنسى .

وكان ديدرو قد قرأ فى شغف زائد قصص ريتشاردسن . وفى ١٧٦١ كتب مقالة « فى مدح ريتشاردسن سما فيها إلى التغنى بالثناء على الرجل الإنجليزى ، لأنه ينفخ فى القارىء من روحه وبغرس الفضائل ، كما أنه أوتى الشجاعة ليصور حياة الطبقة الوسطى الجديرة بفن جاد وفوق هذا كان ديدرو قد تأثر برواية جورج للو Lillo « تاجر لندن » (١٧٣١) التى كانت قد أبرزت بنجاح عواطف طبقة رجال الأعمال وبلاياهم على المسرح الإنجليزى. وقال أن الرواية « من مستوى رفيع » حتى لوقورنت بسوفوكليس . لماذا لا تكون القلوب الكسيره جديرة بمسرحية « مأساوية على الرغم من أنها ليست من ذوات الحسب والنسب ؟ وعندما لجأ ديدرو إلى تأليف الروايات فى الأسلوب الجاد نراه قد أزعج وروع التقاليد الفرنسية بأستخدامه لروايته

شخوصا من الطبقة الوسطى وبالكتابة نثرا . وهكذا أرسل إلى المسرح والمطبعة فى ١٧٥٧ « الأبن الطبيعى أو المحرومون من الفضيلة ولم تلق نجاحا على خشبة المسرح ، ومثلت مرتين فى الأقاليم (١٧٥٧) ولم تمثل إلا ١٧٧١ فى باريس ، وواضح أنها مثلت مرة واحدة آنذاك ولكنها كانت حدثا هاما وحققت نجاحاً ورواجا وهى مطبوعة فى كتاب .

والقصة ممتعة إلى حد كبير فإن دورفال الأبن غير الشرعى المتمسك بالفضيلة الذى يعيش فى بجبوحة ، يجد نفسه قد وقع فى غرام روزالى المخطوبه لمضيفة كليرفيل ، ويحس دورفال أن الفتاة تبادله حبه فيعتزم أن ينأى بنفسه حتى لا يحطم زواج صديقة . وعندما كان على وشك مغادرة المكان رأى رجالا مسلحين يهاجمون كليرفيل ، فاشتبك فى قتال معهم وأنقذ حياة صديقة وعندما علم بأن والد روزالى التاجر فقد كل ثروته ولم يعد يستطيع أن يقدم لهـا صداقا ، فأنه يعوض الخسارة خفية ومن ثم أصبح التاجر المفلس والد دورفال ووالد روزالى معاً ، وتوطن النفس على أن تكون أختاله وتتزوج من كليرفيل ، ويتزوج دورفال من أخت صديقه كنستانس وتختتم الرواية وقد غمرت الجميع دموع الفرح . وهذا كان اسهام ديدرو فيما كان النقاد قد أسموه بالفعل « مسرحية الدموع » .

أن الذى هيأ للرواية مكانا فى التاريخ الفرنسى سلسلة من الحوادث نشرت معها ، سميت فيما بعد « مناقشات حول الأبن الطبيعى » وجرت تقاليد المسرح الفرنسى على أن المسرحية الجادة (تمييزاً لها عن الهزلية) يجب أن تقتصر على أشخاص النبلاء ويجب أن تكتب شعرا . وأوضح ديدرو آنذاك فكرته فى أن المسرحية الجادة ينبغى إلا تخشى إستخدام شخوص وأعمال رمهن برجوازية ومشاهد من حياة الأسرة وللبيت فى شكل واقعى ، مع كتابة الرواية نثراً . ورأى ديدرو أن يبين أن عبارة « سيد مهذب من الطبقة الوسطى » ليست التناقص اللفظى الساخر الذى كان قد ارتآه موليير ، ولكنه تطور المجتمع الجديد الذى تصاعدت فيه ثروة البرجوازية ومكانتها وسلطتها ، واحتج بأنه

يجدر بالكاتب المسرحى إلا يعرض كثيراً من الدراسة للشخصية بل كثيراً من ظروف الحياة الواقعية فى الأسرة ، فى الجيش ، فى السياسة ، فى المهن ، بل حتى فى الصناعة . وحيث كانت الطبقات الوسطى منبع الفضيلة فى فرنسا فقد أصر ديدرو على أن يكون من وظائف المسرحية الجديدة أن تغرس فى الناس حب الفضيلة ومقت الرذيلة « ودمغ الفن المقصود به مجرد الترفيه بأنه ترف الطبقة الخاملة » فلابد أن يكون لكل فن وظيفة وفائدة اجتماعية . وأى هدف أن يسعى المسرح إلى تحقيقه أفضل من أن يكسو الفضيلة فتنة وسحراً وجلالا !

أن الرواية وما صاحبها من بيانات وتصريحات فرقت أهل الفكر فى باريس إلى معسكرات متنابذة ، وتناول باليسو وغيره من أعداء الفلاسفة آراء ديدرو بالتسفيه والتسخيف . أما فريرون فأنه لم ينقد الرواية بأنها تعليمية جافة كئيبة متبلة ببعض المشاعر والفضائل الزائفه فحسب ، بل أنه كذلك أوضح فى إعداد متواليه من « السنة الأدبية » التى كان يصدرها تشابها مريبابين النصف الأول من « الأبن الطبيعى » وبين كوميديا « الصديق الحق » التى كان جولدونى قد مثلها فى البندقية ١٧٥٠ . وأعترف ديدرو بقوله : لقد إستحوذت عليها وكأنها ملك خاص بى ولم يكن جولدونى أكثر تدقيقا فأنه إستحوذ على رواية موليير « البخيل » . وماكان يدور بخلد أحد أن هذا غير لائق . ولم يحلم أحد منا باتهام موليير أو كورنى بالسطو والأنتحال لأنه أقتبس ضمنا فكرة أحدى الروايات من مؤلف إيطالى أو مسرح أسبانى(٨٣) .

وهذا يصدق بطبيعة الحال على رواية كورنى « السيد Lecid » ورواية موليير « مأدبة الصخرة » Le Feslin de Pierre (دون جوان) .

وبتشجيع من الأصدقاء وتحديا للأعداء ، ووسط أشدما يلاقى من عناء فى الموسوعة ، ألف ديدرو ونشر (١٧٥٨) رواية أخرى أسمها « رب الأسرة » وأضاف إليها موضوعا أثار الغضب : بحث فى الشعر المسرحى ، وهو عنوان يذكرنا بالعنوان الذى إستخدمه دريدن لبحث مماثل منذ تسعين

عاماً . وأخرجت الرواية فى تولوز ومرسيليا فى ١٧٦٠ ، وعلى « المسرح الفرنسى » فى باريس فى فبراياً ١٧٦١ ، حيث مثلت سبع ليال مما أعتبر نجاحا متواضعا . ووافق فولتير على تأجيل عرض مسرحيته Tanerede من أجل رواية ديدرو هذه، وكتب إلى منافسه الجديد « أيها الأخ العزيز ديدرو ، تخليت لك عن مكانى عن طيب خاطر وبودى أن أتوجك باكليل الغار » فرد عليه ديدرو « شكرا لك يا أستاذى العزيز وأنى لأعلم كم كنت ترغب فى أن يلاقى تلميذك نجاحا . وقد تأثرت لهـذا كثيراً، لك حبى وأحترامى إلى أخر لحظة فى حياتى[٨٤] » وأعيد تمثيل الرواية من جديد بنجاح فى ١٧٦٩ على المسرح الفرنسى وأصبحت عنصرا هزيلا فى إنتصار الفلاسفة .

وموضوع الرواية يتصل إلى حد ما بالسيرة الذاتية ، فالوالد تذكير جميل بديديه ديدرو ، اللهم إلا فى أنه يعظ أكثر كثيراً مما قيل لنا عن الرجل الطيب ديديه : أما الابن سانت ألبان (وهو صورة قريبة جداً من دنيس ديدرو) فانه يسعى فى الحصول على موافقة أبويه على زواجه من صوفيا ، وهى إحدى بنات الطبقة العاملة ، ويوافق الولد على أن يراها ويحبها ، ولـكنه يرفض أن يتزوج إبنه بمثل هذه البنت الفقيرة . وبعد خمسة فصول وبمحض الصدفة التى خدمت ألف مسرحية يتبين أن هذه الشابة إبنة أسرة كريمة ويرق قلب الوالد ويجرى كل شيء على مايرام ويمكن أن يغتفر لفريرون قوله أن الرواية مثيرة ميكانيكية سخيفة . وأثار أحد النقاد إلى أن التغنى بالفضيلة كان مقصوداً به جريم الذى كان يشارك روسو إحدى البغايا، وكان الآن عشيق مدام أبيناى ، وأن ديدرو أطلق على بطلة روايته إسم هذه العشيقة م صوفى فوللان Volland أما فولتير فانه على حين إمتدح المؤلف على مافى الرواية من « أشياء رقيقة فاضلة » كتب إلى مدام ديفان يتساءل « هل قرأ لك أحد رواية رب الأسرة ؟ أليست مضحكة تدعو إلى السخرية ؟ أن قرننا ، فيما يختص بالعقيدة والايمـــــان فقير، إذا قورن بقرن لويس الرابع عشر »[٨٥].

ومهما يكن من أمر فإن ديدرو أحس بأن مسرحية القرن السابع عشر فى فرنسا كانت على شكل غير طبيعى تماماً فى أسلوبها الخطابى الحماسى الطنان الرنان ، وفى وحداتها المحكمة المتزمتة فى العمل والمكان والزمان ، وفى تقليدها الكئيب للروايات الكلاسيكية القديمة لا الواقع الحى ، وكانت رواياته وهى عاطفية حسية دون موازنة أوخجل بشائر رد الفعل الرومانتيكى ضد المذهب العقلى والكبت العاطفى فى العصر الكلاسيكى ، وكان تأثير ديدرو محسوساً أيضاً فى الواقعية المتزايدة فى إعداد المسرح تبعاً لمختلف الفصول ، وفى دقة ملابس الممثلين بالنسبة لعصور التاريخ وفى الحفاظ على الخصائص القومية فى النطق . واشترك ديدرو مع فولتير فى الحملة التى شنها لاخلاء خشبة المسرح من النظارة . وقال جوستاف لانسون إن كل تحسين طرأ على فن الإخراج فى المائة والخمسين عاماً الماضية نبع من ديدرو»[٨٧] اللهم الا أن المناظر الآن تميل إلى أن تكون تخيلية أكثر منها واقعية . وكذلك تجاوبت ألمانيا مع ديدرو الذى أطلق عليه سانت بيف أقرب الفرنسيين إلى الألمان . وترجم لسنج رب الأسرة والمقالات المسرحية ، وصرح بأنه ليس ثمة ذهن أكثر ميلا إلى الفلسفة وتأثراً بها إنشغل بالمسرح منذ عهد أرسطو إلا ديدرو[٨٨].

الكوميدى كذلك كان لديدرو رأيه فى فن التمثيل المسرحى ، وفى مقال طابعه التحدى تحت عنوان « تناقض حول الممثل الكوميدى « ١٧٧٨ اعترض على القول بأنه من أجل تحريك شعور جمهور المتفرجين والتأثر فيهم يجب على الممثل ألا يستسلم للعاطفة التى يعبر عنها بل يجب أن يكون هادئاً رابط الجأش ، وهذا بالطبع تسفية لرأى هوراس الذى نصح الشعراء بقوله « إذا أردتمونى أن أبكى فلتجهشوا أولا بالبكاء » . ويـــرد عليه ديدرو : « يجدر بالممثل أن يضم بين جنبيه مشاهداً أو متفرجاً لايتأثر وغير متحيز . ويجب أن يكون لديه حسن الإدراك والتمييز ، لا الحساسية . . . وإذا كان الممثل مليئاً حقاً بالشعور والوجدان فكيف يمثل نفس الدور مرتين بنفس الروح ونفس النجاح ؟ وإذا كان ممتلئاً حماسة ونشاطاً فى العرض

الأول ، فلابد أن يهن ما اشتد من قوته أو يصبح جامداً كالصخر فى العرض الثالث ، أملأ المسرح بأناس يذرفون الدموع ، ولكنى لا أسمح لأحد منهم بأن يكون على خشبته (ممثلا)(٨٩). وتلك نصيحة قلما إتبعها ممثلو مسرحيات ديدرو . وكان ثمة تناقض فى ديدرو نفسه ، ذلك أنه فى ١٧٥٧ كتب يقول إن الشعراء والممثلين يحسون بقوة ولكنهم لايعكسون إلاالقليل من أحاسيسهم(٩٠) ولكنه الآن يناقض نفسه ، وربما كان هذا راجعاً إلى أنه شاهد فى باريس فيما بين عامى ١٧٦٣/ ١٧٧٠ دافيد جارك Gorrick يثير إنفعالات وأحاسيس متباينة فى تعاقب سريع ، متى أراد . أو أنه كان قد وجد المفارقة فى هملت وهو يأمر الممثلين السنيور : « وسط السيل والعاصفة (كما يمكن أن أقول) ودوامة الانفعال تذرعوا بشىء من الاعتدال الذى يضفى عليها شيئاً من الهدوء والرفق » (٩١) ورفض سير هنرى أرفنج تحليل ديدرو ولكن ناقدا حديثاً يعتقد أنه « ظل حتى اليوم أهم محاولة لمعالجة مشكلة التمثيل » (٩٢) . ويمكن أن يكون الممثلون عاطفين فى الحياة ولا يجوز أن يكونوا كذلك على خشبة المسرح . (وربما يؤدى ضبط النفس على المسرح إلى الانطلاق والتحرر فى الحياة ، ومن ثم يجب أن يغفر لهم خطايا كثيرة) . وينبغى عليهم أن يدرسوا الاحساس المعين فى أسبابه وعلله ، ويعبروا عنه بايماءاتهم واشاراتهم وكلامهم . ولكن يجب « أن يتذكروا فى هدوء وسكون »(٩٣) . ووتوصل ديدرو إلى إيضاح الفرق فى رسالة إلى الآنسة جودان : « ن الممثل الذى لا يتحلى إلا بحسن التقدير والتمييز فاتر بارد ، أما هذا الذى يتميز بالحيوية والحساسية فهو مجنون »(٩٤) .

إننا إذا ألقينا بنظرة إلى الوراء فى العرض غير المرتب الذى أوردناه للذهن ديدرو المشوش نغفر له إضطرابه وسط هذا العدد الوفير من الأفكار والآراء ومجالات إهتماماته . ولم يكن شىء من الانسانيات غريباً عليه أو بعيداً عنه ، اللهم إلا الدين . بل إنه حتى بالنسبة لهذا ، فأن ديدرو لم يخل من الشعور الدينى ؛ وكان من خصائص ديدرو أن يبدأ بالرياضيات والفيزياء

وينتهى بالمسرحية والموسيقى . ولم يكن فى مقدوره أن يكون من جهابذة العلوم ، لأنه لم يكن يطيق صبرا على البحث والتجربة ، ومن ثم قفز مبتهجاً إلى التعميات . على أنها كانت كثيراً ما تنير العقل . وعرف من الموسيقى الشيء الكثير حتى أنه كتب عن طريقة إستعمال المفاتيح ، ورسالة عن علم الايقاع ، وألف أعظم الروايات أثراً وأحسن القصص فى عصره ، ويتفرق فى القصة القصيرة على كل معاصريه فيما عدا فولتير . ولكنه بز فولتير نفسه فى أنه أضفى على القصة القصيرة من تركيز الفكر والعمل ما حدد لها شكلها حتى يومنا هذا . وحيث أدمن ديدرو على الحديث والنقاش وتدرب على إرتياد المنتديات (الصالونات) فانه طور الحوار إلى درجة من الاشراق والحيوية ، نادراً ما سمع بها قبله أو بعده . وكتب فى الفلسفة ، ولكنه لم يكتب لغة غامضة للابراج العاجية ، وإنما كتب مناقشة حية فى موضوعات حية بين أناس إندفعوا إلى معترك الحياة أو إلى خضم العالم راضين طائعين .

* * *

٨ — ديدرو

وراء هــذا الذهن المتغير الأشكال والألوان ، كان ثمة إنسان تجمل بفضائل كثيرة ، كما أنه لم يبرأ من كل الأخطاء تقريباً ، مما لعب كل منها دوره على مسرح حياته ، وعند مارسم فانلو لوحة لديدرو ، أحتج هذا على أن الوجه فى الصورة لم يظهر من صاحبه إلا جزءا سريع الزوال ، فلم يبرز إلا مجرد تعبير واحد عن حالة نفسية واحدة أومزاج واحد وقال : إن لى مائة من التعبيرات المتباينة فى كل يوم ، تبعا لحالتى النفسية أو مزاجى فى كل لحظة : كنت هادئا حزينا حالما رقيقا عنيفا منفعلا متلهفا . أن العلامات الخارجية الظاهرة لحالات ذهنى الكثيرة المتباينة كانت تلاحق بعضها بعضا بسرعة على وجهى إلى حد أن عين المصور وقعت على شخص مختلف من لحظة إلى أخرى ولم تقع على الشخص الحقيقى قط[٩٥] » .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الوجوه الكثيرة أندمجت شيئا فشيئا فى قالب مركب ، وتركت له التقاطيع والقسمات المجعدة التى نراها فى اللوحة التى رسمها له جريز Greuze مثل قيصر أضناه الالتحام العنيف مع جيش من الأفكار والأعداء ، كما أرهقته محاولاته التعبير بأدق عبارة وأجلى بيأن عن قبوله أو رفضه أى عن قوله نعم أولا . وكان له حاجبان عاليان يطلان على رأس نصف أصلع واذنان كبيرتان وأنف كبير منحن ، ولسان ناطق وذقن متجلد ، وعينان سمراوان ، ثقيلتان حزينتان ، وكأنما تستذكران من الأخطاء مالا يجوز تذكره ، أو تتأكدان من عدم قابلية الخرافة للتخريب ، أو تلاحظان أرتفاع معدل السذاجة ، وكان أمام الناس عادة يضع شعرا مستعارا ، وقد يخلعه إذا نسى نفسه فى نشوة الحديث ، وقد يلعب به أو يضعه على حجره ، وكان مستغرقا فى الحياة ، ولم يكن لديه فسحة من الوقت للتظاهر .

ولم يذعن لأى إنسان فى تقدير أخلاقه . وسلم « بأنى قد يغلبنى التأثر لحظة ولا ألبث إلا قليلا حتى أعود سيرتى الأولى ، الإنسان الصريح الوديع

المنصف المتسامح الأمين المحسن الذى يأسر الناس بحسن صنيعه . أستمر من فضلك فى قصيدة المديح لأنها لم تكمل بعد , إنى لم أذكر شيئا بعد عن ذكائى». وساوره الشك فى أن يوجد على ظهر البسيطة إنسان أكثر منه أمانة . وكان واثقا من أنه حتى « أعمدة الكنيسة » تستطيع أن تعتمد على كلمته . وكتب إلى خليلاته : « أية نفوس جميلة نفسك ونفسى ونفسه » وهنا أدخل جريم فى هذا الثالوث . وغمرته نشوة الفرح والابتهاج وهو يتحدث عن مؤلفاته ورواياته واثقا من خلودها . وأعتقد أن أخلاقه قويمة . والحق أنه احتفظ بسيدة واحدة فى وقت واحد . وتحدث عن نفسه على « أنه » الفيلسوف . « وسلم بوجود شبه بينه وبين سقراط وتساءل : « ماذا يهمنى إذا كنت أدين بمناقبى ومآثرى للطبيعة أو للخبرة مادامت ثابتة وطيدة ولن يفسدها الغرور (٩٦)

والواقع أن ديدرو تحلى بمعظم الفضائل التى نسبها لنفسه ، لقد كان أمينا بمعنى صريح ، ولو أنه أقترف كثيراً من الكذب فى شبابه . ولم يكن يتكلف أو يتظاهر ، وكان وديعا رفيعا ، اللهم إلا فى الحديث، حيث كثيراً ما كان متهورا ، وفى بعض الأحيان خشنا جافا إلى حد كانت تضطر معه مدام جيوفرين إلى أن تنبهه إلى التزام النظام واللياقة . إنه يقينا كان شجاعا لأنه أستمر يناضل حين تخلى عنه الكثير من أصدقائه ، بل حتى نصحه فولتير بأن يكف . وكان منصفا اللهم إلا مع التقوى ومع روسو ، وقد ندرك فيما بعد أنه لم يكن يستسيغ كثيراً حساسية جان جاك روسو . وكان كريما بلا منازع مستعدا لمعونة من يلجأون إليه ، أكثر ثناء وأطراء للناس منه لنفسه . وقضى أياما كثيرة فى القيام بأعمال جريم فى صحيفة كورسبندانس ؛ « وصياغة محاولات أصدقائه الأدبية فى الشكل الملائم . وساعد نفرا كبيراً من الفقراء بمنح قدمها إليهم من دخله المتواضع . وإذا عرض عليه أحد الصحفيين المحتاجين قطعة هجاء فى ديدرو نفسه طالبا إليه أن يراجعها معللا ذلك بأنه إنما يسعى وراء القوت أجابه ديدرو إلى طلبه وراجعها ونقحها . بل أقترح

عليه إهداءها إلى دوق أورليان الحالى الذى يولينى شرف كراهيته لى » وهذا ما حدث فعلا وأرسل الدوق للصحفى الناشىء خمسة وعشرين جنيها[٩٧]. وكان متساهلا فى نقده للكتب واللوحات والرسوم (فيما خلا رسوم بوشيه) قائلا أنه يؤثر الأشاره إلى الأعمال الجيده على السخرية من الأعمال الرديئه[٩٨] » وكان أكثر الفلاسفة أنسا وودا . وأيد روسو حتى ١٧٥٨ ، وجريم حتى النهاية تقديراً من ديدرو لخلقه هو نفسه . وقالت مدام أبيناى أنهم تحدثوا عنه « بأعظم الأجلال والأحترام » وأعجبوا بعبقريته ، ولكن خلقه كان مثار حماسة خاصة بينهم . ويقول جريم إنه أكمل من عرف من البشر[٩٩] . وكانت أخطاؤه فى نظر مثل هؤلاء الاصدقاء أخطاء طفل صريح إلى حد السذاجه . وأعتبروا أنه أعمق من فولتير .

ومن المحقق أنه كان أكثر ثراء فى الأفكار من فولتير ، لأنه لم يكن ثمة قيود ولاضوابط فى بنيانه ، وكان أكثر خيالا وأقل عقلانية . وكان أكثر تهورا وطيشا ، ولم يكن ناضجا قط . يقول فولتير « أن ديدرو أتون شديد الحرارة إلى درجة يحترق معها كل ما يخبز فيه[١٠٠]» . ومع ذلك خرجت منه أشياء كثيرة لم يكتمل نضجها ولاخبزها ، وكان شديد الحساسية مثل روسو رقيق العاطفه مثله ، كما كان ، مستعدا ليبكى على جمال الطبيعة ومآسى الحياة وأعلن رأيه فى الدين وربما عبر هذا الرأى عن نفسه : أن فى ذرف الدموع بالنسبة للنفس الحساسة الرقيقة لذة وبهجة[١٠١] . ورآه زواره أحيانا بذرف الدمع — أو فى سورة غضب — على كتاب ، وربما كانت صداقته مع روسو قائمة على التماثل فى المشاعر ونفس قـوة الوجدان ، ونفس حب الطبيعة ونفس المفهوم الرومانتيكى للعبقرية على أنها غريزه وأنفعال وخيال ، ونفس التحمس لقصص رتشاردسن . وتلهف على تحذير كلاريامن Loelace وعندما قرأ عن الملوك القساة كان من اليسير عليه أن يتخيل أنه يستخدم خنجراً فى سهولة عجيبة[١٠٢] أن فولتير + روسو = ديدرو . ولم يغفر أى من هذين الرجلين له أنه جمع بينهما كليهما ، على حين بقى هو فريدا مع نفسه .

وعبرت عاداته عن تناقص صفاته ، فأنه أحب الطعام إلى حد الشرة والأصابة بالحصى . ولكنه كان يقظا لكل النتاج الثقافى فى زمانه . وكره الترحال ولم يحبذه(١٠٣) ولكنه عبر قارة أوربا ليقدم إلى كاترين الثانية قيصرة روسيا شكره وتقديره ، وأنهمرت دموعه للشعر الجميل ، وانغمس فى البذاءة الفاحشة ، وأحتقر المال وتحدث عن الفقر صديقا ملهما للفلاسفة ، ولكن عندما مات والده قصد إلى لانجرز (١٧٥٩) ، وسر بحصوله على ثلث التركة . ومن ثم بلغ دخله فى ١٧٦٠ نحو أربعة الآف جنيه سنوياً . فقال عند ذاك « أنا فى حاجة إلى عربة وإلى مسكن مريح ، وإلى فراش وثير وإلى سيدة معطرة ، ومن ثم أستطيع بسهولة أن أصبر على بلايا دولتنا المتمدينة . أو هنا كبح جماح فولتير فى ديدرو ، وجماح روسو فيه وسخر منه .

وشغلت زوجته بالأمومة المثبطة للهمة وبأعمال البيت غير المعطرة إلى حد لم تستطع معه أن تلقى أذنا صاغية إلى أفكار زوجها وآرائه المتكاثرة . وجأر مثل ملتون بطلب الطلاق على أساس عدم التكافوء العقلى ، ولما لم يجيزوا له الطلاق لجـأ إلى ما لايزال الفرنسيون يلجأون إليه ألا وهو إتخاذ خليله — وصفوة القول كانت هناك الآنسه بابوتى Babuti التى لازمته عشر سنين . وفى جريز Greuze ثم مدام بوسييه Puisieux التى لأزمته عشر سنين . وفى ١٧٥٥ وجد ضالته المنشودة فى سيدة شابة وفرت له لمدة ثمانية عشر عاماً الحب والأخلاص وحسن التفاهم . تلك هى لويز هنريت فوللان Volland ، وعاد فأطلق عليها أسم صوفى Sophie (لأنها بدت فى عينيه روح الحكمة) وكانت عندما التقيا لأول مرة فى الثامنه والثلاثين من عمرها غير متزوجه ريانة ممتلئة الجسم قصيرة البصر ، ووصفها بأنها تضع منظاراً على وجه « جاف » تقريباً . وكثيراً ما عنفها بين الحين والحين لأنها كانت تنافسه فى حب القراءة ، لكنها جمعت الكتب بدلا سن العشاق ، وقرأت كثيراً حتى فى السياسة والفلسفة ، وكانت حلوة الحديث ، ولكنها أستمعت أكثر ممـا تحدثت ، ووجد ديدرو أن ساقيها غليظتان أكثر ممـا ينبغى ، ولكنه كان

شاكرا لهـا حسن أصغائها إليه ، مولعا بعقلها وقلبها . وكتب يوما إلى جريم يقول « آه ياعزيزى جريم ، أية سيدة هذه ! كم هى لطيفة جميلة أمينة رقيقة حساسة . ولسنا نعرف أكثر مما تأتى به هى من عادات وأخلاقيات ومشاعر فيما لا يحصى من الأشياء العامة . أن لها حكمها على الأشياء ، ووجهات نظرها وأراؤها وأفكارها وطريقة تفكيرها الخاصة بها ، كل أولئك قائم على العقل والحق وحسن الأدراك . ولا يثنيها عن شيء من ذلك الرأى العام أو الساطات أو أى شيء أخر[١٠٤] » ولا يمكن أن يكون كل هـذا هياما وغراما ، أما جوهر الموضوع فإن دكتور ترونشين رأى فيها روح نسر تسكن بيتا من السحاب[١٠٥] أى أنها أحبت الثياب الفاخرة والتحليق فى سماء الفكر والعقل .

وكتب إليها ديدرو طيلة عشرين عاماً أرق رسائله التى ستظل من ذخائر القرن الثامن عشر الأدبية . وقد استطاع أن يكتب إليها فى كل شيء بصراحة ويرسل إليها قصصه الداعرة وآخر تأملاته وأفكاره . فكتب لها كما لو كان يتحدث إليها « إذا كنت بجوارك وذراعى يطوق ظهر مقعدك[١٠٦] » . وفى علاقته بها تحقق مما لم يتحقق من مثله قط من قبل : تحقق من الدور الذى يمكن أن يلعبه الوجدان والعاطفة فى الحياة ، وكاد أن يكون من العسير عليه إلا أن يؤمن بالجبرية (القضاء والقدر) وبدا بعيداً عن التصديق أن تبادلهما المزدوج للأخلاص والحب والأفكار نتيجة فيزيوكيميائية لسديم بدائى . واستطاع وهو فى مثل هذه الحالة النفسية أحياناً أن يتحدث حتى عن الله . وإنه ليروى لصوفيا كيف أنه بينما كان يسير فى الريف يوماً مع جريم التقط سنبلة من القمح وأستغرق فى التفكير فى سر النمو فسأله جريم « ماذا تفعل » ؟ فأجاب « استمع » « ولكن من الذى يكلمك ؟ » فرد عليه « الله » [١٠٧]

وبعد اثنتى عشرة سنة من اتصاله بصوفيا فوللان فتر حبه لها . وأصبحت رسائله إليها موجزة ، كما أصبح توكيد الإخلاص أكثر تكلفاً . وفى ١٧٦٩ وهو فى السابعة والخمسين ، خلف صديقه المتوفى داميلافيل عشيقاً لمدام دى مو ، وكانت فى الرابعة والخمسين ، وبعد عام واحد أزاح ديدرو عن مكانه عاشق شاب ، على أن دنيس (أى ديدرو) ظل فى الوقت نفسه يؤكد لصوفى حبه الأبدى .

وفى كل شطحات قلبه و ذهنه احتملت زوجته أنطوانيت بكل الصدق والإخلاص ، ولم تكف عن لومه وتوبيخه . والتمست السلوى والعزاء فى الدين ولعب الورق ولم ينقطع الشجار بينهما يومياً تقريباً ، ولم يضيق الزمن الهوة بين الرجل الذى تدور برأسه ألف فكرة والمرأة التى تعبد رباً واحداً ولم يتوقف أصدقاؤه قط لتحيتها عندما كانوا يأتون لزيارته . ولما اكتشفت علاقته بصوفى ثارت ثائرتها التى بدت له فرصة غير ملائمة للافتراق عنها تماماً . ولفترة من الوقت ظل يتناول طعامه فى مكتبه ، وكتب إلى جريم يقول « إنها بدأت تحس بنتائج هذا الفراق البسيط . إن نفاد نقودها وهو ما أراد وشيكا ، سيؤدى حتما إلى الصلح وعودة الإمور إلى مجاريها[١٠٨]. وإنتابها المرض فرق قلبه لها وتولى رعايتها متذمراً ، وتجاوبت معه فى رقة ظن منها أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة . ومهما يكن من أمر فإنه فى رسالة بعث بها إلى صوفى وصف مرض زوجته أنطوانيت مازحاً . وعندما فكر صديقه سوارد فى الزواج نصحه ديدرو أن يلقى بنفسه فى لجة اليم بدلا من الزواج . (وكان زواج سوارد من أسعد الزيجات فى عصر الشقاء هذا) .

وكان من الجائز أن يولى ديدرو الفرار من داره لولا أنه أحب وسائل الراحة فى بيته ، وشغف حباً بابنته الجميلة . وكانت أنطوانيت (١٧٣) فى الثالثة والأربعين حين وضعت طفلها الرابع . وشبت مارى أنجليك واكتملت لها كل مفاتن الأنوثة ،فركز ديدرو كل اهتمامه عليها وتعلق بها ، فشاركها فى ألعابها . وأنا لنتصور الرجل الذى أثقلت الفلسفة رأسه يلعب مع ابنته الصغيرة الغمضية والحجلة والطفل المعصوب العينين « كنت شغوفاً بابنتى الصغيرة إلى حد الجنون . أية شخصية محبة هى : أوأية سيدة أستطيع أن أخلق منها إذا سمحت لى امها بذلك » . وعنى بتلقينها كل الفضائل المسيحية . ولما قاربت سن البلوغ زودها بتوجيهات صريحة لتصون نفسها من ذئاب باريس . وماذا كانت تعنى عروضهم ؟ « إنها تعنى يا آنسة رضاء لى ، هلا جللت نفسك بالفضيحة والعار ، وفقدت مركزك الاجتماعى

وتواريت عن أنظار المجتمع ، وحبست نفسك فى أحد الأديار وجعلت أباك وأمك يموتان حزناً وجزعاً (١٠٩)؟

ومن ثم فإنه مثل أى أب فرنسى أدخر مالا ليدفع لها الصداق ، واتصل بمختلف الأسرات ليجد لها زوجاً فى الوقت المناسب ، واستقر رأيه على اختيار زوج ابنته ورفضته أمها انطوانيت ، ولكن وافقت عليه الآنسة مارى وزفت إليه (١٧٧٢) ، وبكى ديدرو لفراقها ، ولكن اغرورقت عيناه أكثر بدموع الفرح عندما رأى سعادتها الزوجية ، وعاون الزوجان الصغيرين بسخاء قائلا « أليس من الأفضل أن أعاونهم فى وقت الشدة أكثر من أن أنتظر إلى الوقت الذى لايعودان يحتاجان إلى فيه » . وأصبح زوج الإبنة هذا صاحب مصنع ناجحاً كما أصبحت ذريته بعد عودة حكم البوربون (١٨١٤) من المحافظين الحذرين الحريصين .

ولما نضج فى ديدرو الاحساس بالأبوة بدأ يحسن فهم أبيه ، وينظر بين الاجلال والتقدير القانون الأخلاقى الذى ساعد رجلا على تنشئة أسرة طيبة ، ولكن قدراً كبيراً من البوهيمية ظل يلازمه . وعلى الرغم من أنه حب عرينه وملابسه وأخفافه القديمة ، وأولع بتدفئة أصابع قدميه أمام النار ويلزم البيت ، فإنه كان يحرم نفسه من هذه المتعة بين والحين ، مثلما قضى مرة شهراً مع دى هولباخ فى جراندفال Grandval وظل يرتاد المقاهى ، وكان شخصية مألوفة فى بعض الصالونات ، وأحبته مـــدام جيوفرين على الرغم من خشونته فى الحديث . وفى نوبة من نوبات عطف الأمومة أرسلت إليه مكتبا جديداً وطاقماً من الكراسى المريحة المصنوعة من الجلد وساعة حائط ضخمة من الذهب والبرونز ومبذلا فاخراً — « روب دى شامبر » وقدم لها الشكر وتخلى عن أثاثه القديم وهو حزين ولكنه عبر عن أعمق الأسف لردائه الذى نبذه ! « لم لم احتفظ به أنه قد صنع من أجلى ، ولا يصلح إلا لى ولا أصلح إلا له ، والتأم مع كل ثنية فى جسمى دون أن يزعجنى ، وكان رداء جميلا مليحا على حين أن الرداء الجديد جامد يابس

وكأنه يجعل منى تمثالا لعرض الأزياء (مانيكان) . وكانت طبيعته الطيبة الودودة تسارع إلى تلبية كل نداء وتأدية كل خدمة ، فإذا علا التراب أحد الكتب أمكن استخدام أحد جوانب الرداء منفضة . وإذا كان الحبر على قلمى سميكا لا يتدفق كان جانب الرداء على أهبة الاستعداد . وإنك لترى من خلال الخطوط السوداء الطويلة كم من الخدمات أدى هذا الرداء . إن هذه الخطوط والأشرطة السوداء هى التى أنبأت عن الأديب وعن الكاتب وعن المجد الكادح ، أما الآن فيبدو على انى ثرى خامل الذكر ، لا يعرفنى أحد وكنت صاحب السلطان المطلق على ردائى القديم أما الآن فقد أصبحت عبداً أسيرا للرداء الجديد »(١١٠)

واعتبر ديدرو أن صداقاته هى أكبر ساوى وأعظم إلهام له فى حياته . وكان ارتباطه بجريم أوثق وأبقى من سائر محبيه . وفى ١٧٧٢ بعد أن كان الواحد منهما قد عرف الآخر لمده اثنتين وعشرين عاما كتب إليه « عزيزى صديقى الوحيد ، لقد كنت دائماً وستكون دائماً صديقى العزيز الوحيد (١١١) ومع ذلك أساء فتور جريم وتظاهره بعدم الاكتراث فى بعض الأحيان إساءة بالغة إلى ديدرو . إن جريم الألمانى استغل طيبة قلب ديدرو وكثيراً ما أنابه عنـــه فى تحرير صحيفته « كورسبندانس » وحل محاه لا فى كتابة أخبار المعارض فحسب ، بل فى عرض أحدث الكتب كذلك . وفى بعض الأحيان اشتغل أثناء الليل حتى آخر لحظة حددها جريم لإنجاز العمل (١١٢) وعرض جريم على ديدرو أجراً فرفض أن يؤجر . ومن المؤسف أن نروى أنه فى ١٧٧٣ سمع ستانلاس بونياتوسكى ملك بولنده أن ديدرو كان يعد العدة لزيارة سانت بطرسبرج ، وفكر فى دعوته للتوقف لعدة أيام فى وارسو ، فما كان من جريم إلا أن نصح الملك بأنه لا غناء فى التعرف على الفيلسوف « إن ديدرو بدلا من استغلال وقته فى اقتسام مجد العبقرية مع فولتير يضيعه فى كتابة شذرات لصحيفة كورسبنداس أو يضيعه سدى مع كل من يجد فى نفسه الجرأة ليسأله . وأستطيع أن أؤكد لجلالتكم أنه سيموت مغموراً غير معروف (١١٣)» .

وربما كانت أسعد ساعات ديدرو (عدا الوقت الذى كان يقضيه مع ابنته أنجليك) هى تلك التى كان يقف فيها خطيبا فى أمسيات دى هولباخ أو مدام جيوفرين للعشاء ، وينطلق فى الحديث بفصاحة فى أى موضوع وهو لا يكون فى أفضل حالاته فى الاجتماعات التى يغلب عليها الأدب والتهذيب والتى يكون فيها الظرف هو المطلوب لا الأفكار . وكم انزعجت مدام جيوفرين نفسها من تحمساته ، وكانت نصائحها له بالاعتدال والتزام آداب اللياقة قدر شطحاته هو ، ولكن على مائدة البارون التى اجتمع إليها كما أكدوا لهيوم ، سبعة عشر ملحدا أطلق ديدرو لنفسه العنــان ومن ثم (كما أجمع كلهم تقريباً) لا يكون فى أحاديث باريس الممتعة ما هو أكثر امتناعا وسحرا من حديث ديدرو ويقول مارمونتل « إن الذى عرف ديدرو من كتاباته وحدها لا يعرفه إطلاقاً ...لقد نعمت منه بمتعة فكرية أعظم[١١٤] أما هنرى ميستر الذى كثيرا ما نسمعه فإنه يصفه فى مقارنة ملائمة « إنى عندما استرجع ديدرو فى ذاكرتى وأرى شدة تنوع أفكاره وغزارة علمه المذهلة وتحليقه وشطحاته السريعة وحرارته واضطراب خياله المتهور وكل ما فى حديثه من فتنه وسحر وتشويش ، أتجاسر فأشبه شخصيته بالطبيعة نفسها تماماً ، كما تعود أن يتصورها ، غنية خصبة تكثر فيها الجراثيم من كل جنس ، وديعة عنيفة بسيطة فخمة ، قيمة مهيبة ولكن على غير مبدأ أو قاعدة ، ودون سيد ذى سلطان ودون إله [١١٥] .

واستمع إلى تقرير مباشر عن حديث ديدرو عن نفسه « بدا أنى شاذ غريب عنهم ، ملهم سماوى . إن جريم نفسه لم يتهيأ له من البصر ما يرانى به ولا من السمع ما يستمع إلى به ، ودهشوا جميعا وأحسست أنا نفسى بين جنبى بشىء من الرضا لا أستطيع التعبير عنــه ، إنه كان أشبه بنار تضطرم فى أعماق تلفح صدرى ، انتشرت بينهم وألهبتهم . كانت أمسية من الحماسه كنت أنا مضرمها »[١١٦] .

وكانت شهرته المعاصرة أعظم بين من عرفوه منها بين أولئك الذين

أوا فقط أعماله المنشورة ، وأهمها دائرة المعـارف ورواياته وأحسنها التمسك بالدين وجاك المؤمن بالقضاء والقدر ،وحلم دالمبير وابن أخى رامو، ولم تكن قد طبعت عند وفاته . ومن أجل هذا السبب من ناحية ولتطرف آرائه وأفكاره فى الدين والجنس اخفق ولم يحاول قط اللحاق بالأكاديمية ومهما يكن من أمر فإنه فى نظر اصدقائه كان الفيلسوف زعيم جماعة الثائرين المتمردين . إن روسو حتى بعد أن كرهه باعتبـاره عدوا خفيا كتب فى اعترافاته « سيبدو ديدرو لعدة قرون قادمة فذا أعجوبة ، وينظر الناس من بعيد إلى هذا الرأس العالمى بمزيج من الأعجاب والدهشة كما ننظر نحن الآن إلى رأس أفلاطون وأرسطو (١١٧) .

وافتتن جيته وشيللر ولسنج بكتابات ديدرو وشارك ستندال وبلزاك ودلاكروا فى الاعجاب به واعتبره كومت أسمى عبقـرية فى ذاك العصر المثير (١١٨) واسماه ميشيليه « بروميثيوس الحقيقى (فى الأساطير اليونانية هو الشيطان المعبود الذى سرق النار من السماء وعلمها لأهل الأرض) . وقال إن المرء ليستطيع أن ينهل من كتابات ديدرو لمدة مئة سنة ومع ذلك تتبقى ذخائر لا حصر لها (١١٩) وهلا استمعنا إلى مدام جيوفرين التى عرفته حق المعرفة ، ولكنها لم تقرأ كتبه ، إنها كتبت تقول « أنه رجل طيب ورجل أمين ولكنه عنيد متشبث برأيه (ولو كان خطأ) غير متزن إلى حد أنه يرى ويسمع الأشياء على ما هى عليه ومثله دائماً كمثل رجل يحلم ثم هو يؤمن بأنه أحلامه صادقة (١٢٠) .

كان ديدرو طيبا وسيئاً ، أمينا وخائنا ، عنيداً ونزاعا إلى الحق ، قليل التوازن وخلاقا مبدعاً بشكل بارع ، كما كان حالماً ومناضلا ومتنبئاً ، يبدو أن مكانته فى التاريخ تعلو وتسمو كلما ابتعد زمانه ، حتى إن بعضهم اليوم ليعتقد أنه أعظم شخصية امتاعا وإثارة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر (١٢١) ولنقف الآن عند هذا الحد حتى نلتقى به مرة أخرى وجها وجها مع امبراطورة ثم فى لقاء الفلاسفة مع الموت .

الفصل الحادي والعشرون

إتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ — ١٧٧٤

هلفشيوس ١٧١٥ — ١٧٧١

١ — تطوره :

إنحدرت الأسرة من أصل سويسرى ألمانى سثل هؤلاء الأقوام الأشداء الممتلئين نشاطاً الذين تزهو وتزدهر بهم اليوم برن وزيوريخ . واتخذ أحد الأعضاء فى نيوشاتل إسم Schweitzer ومعناه سريسرى . وحمل آخر إنتقل إلى الأراضى الوطيئة إسم Helvetius ومعناه أيضاً سويسرى ، وانتقل هذا الفرع الثانى إلى باريس حوالى ١٦٨٠ ، وهنا أصبح جان كلود أدريان هلفشيوس طبيباً للملكة مارى لزكزنسكا . ومن أولاده العشرين يعنينا هنا كلود أدريان الذى ولد فى ٢٦ يناير ١٧١٥ والذى نشأ وترعرع فى كنف الطب الذى ترك بعض بصمات على فلسفته وبعد أن تلقى تعليمه على يد الجزويت فى كلية لويس العظيم تتلمذ على يد أحد جباة الضرائب . وسرعان ما أثرى . وفى سن الثالثة والعشرين بلغ دخله نحو ٣٦٠ ألف جنيه فى السنة (١) وكان وسيما وراقصاً ومبارزاً بارعاً كما كان محبوباً لدى رجال الحاشية ونسائها ، وعين سديراً للشئون الداخلية للملكة . ولم يكن مستعداً بأية حال ليكون فيلسوفاً ، اللهم إلا أنه كان يحذق تأليف الكتب :

ولـ،نه فى ١٧٣٨ ألتقى بفولتير فروعه عقله وشهرته وراوده حلم الكتابة والتأليف . فهلا يكون إمتيازاً غريباً أو غير مألوف أن يكون رأسمالياً وفيلسوفاً فى وقت معا ؟ وقضى بعض الوقت فى بوردو ضيفا على منتسكيو ،

ثم فى برجندى مع بيفون . وعمل تأثير هذين الرجلين على تشكيل هلفشيوس ، وأصبح صديقاً وثيق الصله بمليونير آخر هو البارون دى هولباخ الذى كان الزعيم المادى فى هذا العصر . وفى أمسيات العشاء لدى البارون وفى صالون مدام دى جرافينى التقى بديدرو وجريم وروسو ود يكلوس وجاليانى ومارمونتيل وترجو . ومن ثم تحولت إتجاهاته .

وفى ١٧٥١ إتخذ قرارين خطيرين ، فتخلى عن منصبه الوفير الكسب وهو منصب الملتزم العام للضرائب ، ولجـــأ إلى ضيعة إقطاعية فى Vore - au perche وتفرغ لتأليف كتاب يهز العالم وفى العام نفسه وهو فى السادسة والثلاثين تزوج من آن كاترين دى لينيفيل دى أوتريكورت ؛ وهى كونتيسه من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت آنذاك فى الثانية والثلاثين من من العمر وهى من أجمل السيدات وأكثرهن كياسة وعقلا فى فرنسا وأخذها على الفور إلى بلدته فوريه حتى لاتفسدها باريس على حد قول جريم . وهناك أو فى باريس دخل فونتنيل وكان يناهز مائة عام إلى حجرة ملابس الكونتيسة الجميلة وهى تكاد تكون عارية تماماً ، فصرخ وهو يرتد من من الحجرة فرحا : آه ياسيدتى لو أنى كنت فى سن الثمانين فقط [٢].

واحتفظ الزوجان السعيدان كذلك بدار فى باريس . وهناك جذب إليها كرم هلفشيوس ومفاتن زوجته كثيراً من قادة الفكر مثل ديدرو ودى هولباخ وفونتنيل وبيون ودالمبر وبيفوت وترجو وجالبانى وموريلى وكوندرسيه وهبوم . ويقول مارمونتيل : كم أصبحت هذه الدار ملائمة مريحة لرجال الأدب [٣] وحاول هلفشيوس فى حفلات العشاء أن يوجه المناقشة إلى الموضوعات التى فكر فى أن يكتب فيها ، ويثير النقد لأفكاره وأبدى أنه يصغى كل الاصغاء لما يقال من نقد ، وشكا موريليه من أن هلفشيوس يؤلف كتابه شركة بينهم [٤].

وظل هلفشيوس يعمل فى إعداد الكتاب سبع سنين دأبا ، حتى خرج

الكتاب المرموق فى ١٥ يولية ١٧٥٨ بعنوان « الذكاء » ولشد ما كانت دهشة الأصدقاء الذين رأوا المخطوطة حين ظهر الكتاب متمتعا بالترخيص الملكى الثمين بالنشر . ذلك أن مالشرب كان قد عهد إلى جان بيير ترسيية بمراجعة الكتاب تمهيداً لنشره (عمل الرقابة على المصنفات) ، فقرر ترسابيه « من رأيى أنه ليس فى الكتاب ما يحول دون نشره[٥] ولكن المحامى العام فى برلمان باريس دفع الكتاب فى ٦ أغسطس بأنه محشو بالهرطقة والكفر ، وألغى مجلس الدولة فى ١٠ أغسطس الترخيص بالطبع ، وسرعان ما عزل ترسييه عن مناصبه المربحه . ودفع يهاجم المسيحية قائلا : بأى لون من الإلحاد والكفر يتهموننى ؟ أنا لم أنكر فى أى جزء من الكتاب التثليث أو ألوهية المسيح أو خلود الروح أو بعث الموتى أو أية ناحية أخرى من نواحى العقيدة البابوية ، ومن ثم فانى لم أهاجم الديانة بأى شكل من الأشكال[٦]. وخشى فولتير أن يرسل هلفشيوس إلى الباستيل فنصحة بالرحيل ، ولكن هلفشيوس كان مستريحا فى ذاك إلى حد لا يضحى معه من أجل الكتاب ، فأصدر تراجعا فى صيغة رسالة إلى قسيس ، فأعلنت الحكومة بأن هذا غير كاف فنشر هو اعتذارا يقول جريم « أنه مذل إلى حد لايدهش معه المرء أن يرى رجلا يؤثر أن يلجأ إلى الهوتنتوت (قبائل السود فى جنوب أفريقية) على أن يضع اسمه على مثل هذه الاعترافات[٧] » وقصدت مدام هلفشيوس إلى فرساى لتشفع لزوجها ورضيت الحكومة بأن يأوى إلى ضيعته لمدة عامين ، وربما أصبحت العقوبة أشد من ذاك لولا أن الملك تذكر أن والد هلفشيوس أنقذ حياته ذات مرة حين كان طبيبا للملكة . وفى ٣ يناير إتهم البابا كليمنت الثالث عشر الكتاب بأنه مخز فاسق لا يلتزم قواعد الدين ، وفى فبراير أحرق علنا بأمر من البرلمان . ولقد رأينا كيف أن هذه « الضجة حول مسألة تافهة كما سماها فولتير قد أسهمت مع مقالة دالمبير عن جنيف فى تضييق الخناق على موسوعة ديدرو ، وبكل هذا الإعلان الواسع النطاق عن كتاب « الذكاء » تهافت الناس على قراءته أكثر مما أقبلوا على أى كتاب

لعب دوراً فى الحملة على المسيحية . وظهرت منه عشرون طبعة بالفرنسية على مدى ستة أشهر . وسرعان ماترجم إلى الإنجليزية والألمانية واليوم لايعرف عنه شيئاً إلا القليل من العلماء والباحثين ويكاد يكون من المتعذر الحصول على نسخة منه .

ولم ينشر هلفشيوس شيئاً بعد ذلك ، ولكنه استمر يكتب . وصرح ثانية وتوسع متروياً غاضباً فى شرح وجهات نظره فى رسالة «عن الإنسان» وهى التى هاجم فيها رجال الدين بوصفهم باعة متجولين يتجرون فى الرجاء والخوف وينشرون الجهل ويقتلون الفكر . وفى هذين الكتابين نجد كل مثله العليا فى هذا العصر الطموح ، الحرية والمساواة والأخوة : حرية الكلام والصحافة والاجتماع والعبارة ، والمساواة بين الجنسين كليهما ، وبين كل الطبقات فى فرص التعليم وأمام القانون ، وتأييد يكاد يكون إشتراكياً للدولة الخير العام حماية وتعويضاً للفقراء السذج ضد الأغنياء الأذكياء » . وكل هذه الآراء والمثل العليا يتوجها إيمان شبيه بالايمان الدينى فى إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال المطلق . وهنا أيضاً إذا أصغينا جيداً لسمعنا صوت الثورة .

٢ — فلسفته :

ومثل كل الفلاسفة تقريباً يبدأ هلفشيوس بلوك . فكل الأفكار مستمدة من الإحساس ، ويلى ذلك من خبرة الفرد . فكل الحالات العقلية عبارة عن مجموعات متضامة من الأحاسيس يشعر بها الإنسان حالياً أو تنبعث من جديد من الماضى عن طريق الذاكرة ، أو يتصورها مستقبلا عن طريق الخيال . أما إصدار الحكم أو إتخاذ القرار فهو الاحساس بالفوارق بين الأحاسيس . أما العقل فهو مجموعة من الأحكام أو القرارات .

وليس الذهن والنفس شيئاً واحداً فالذهن هو تجمع أو تعاقب للحالات العقلية . أما النفس فهى حساسية الكائن الحى أى القدرة على إستقبال

الأحاسيس وكل الإحساس مادى . وكل النفس قوة فى المادة . أن كل ظواهر الطب والتاريخ الطبيعى تثبت بوضوح أن هذه القوة . . . تبدأ بتكوين أعضاء الجسم ، وتبقى ما بقيت ثم تنقضى هذه النفس بانحلال هذه الأعضاء وفنائها(٨) . وللحيوانات أنفس . ويسموا الإنسان على الحيوان بفضل نموه واستواء قامته حيث تتحول قوائمه الأمامية تدريجاً إلى أيد قادرة على الامساك بالأشياء ومعالجتها .

وحيث بدأ هلفشيوس بجون لوك فأنه يتابع المسيرة مع هوبز . فكل عمل رغبة تستجيب لاحاسيس حالية أو مبتعثة . والرغبه هى تذكر اللذه التى أقترنت بأحاسيس معينة ، والأنفعال رغبة ملحة ، وتختلف فى شدتها تبعاً للألم أو اللذة المتذكرة والمتوقعة . والأنفعالات تؤدى بنا غالبا إلى الخطأ ، لأنها تركز إنتباهنا على ناحية معينة من شىء أو موقف بعينه ولا تهىء لنا المجـال لتدبره من جميع جوانبه(٩) . والذكاء بهذا المعنى هو تأخر رد الفعل ليهىء إدراكا أوسع وإستجابة أوفى . وعلى الرغم من ذلك فالأنفعالات بالنسبة للخلق هى الحركة بالنسبة للمادة . وهى تزودنا بالدافع حتى الدافع إلى المعرفة . فالأنجاز العقل لأى شخص يختلف تبعاً لحدة أنفعالاته فالإنسان العبقرى إنسان ذو إنفعالات قوية والإنسان الغبى مجرد منها (١٠) . والأنفعال الأساسى هو حب القوة والسيطرة ، وهو أساسى لأنه يزيد فى قدرتنا على تحقيق رغباتنا .

وعند هذا الحـد إستحق عمل هلفشيوس ما وصفه به فولتير من أنه « عجة بيض » أى خليط من الأفكار التى كانت سائدة منذ عهد طويل فى دنيا الفلسفة ، ولكنه إنطلق الآن إلى أكثر آرائه ومسائله إمتيازا . فحيث أن كل الأفكار تنبع من خبرات الفرد وتجاربه فإن التباين بين أفكار الأفراد والأمم وخلقها يعتمد على الفوارق بين بيئة الفرد أو الأمة . ولدى كل الناس عند مولدهم استعداد متساو للفهم والحكم وليس ، هناك تفوق فطرى أو طبيعى فى الذهن . لقد وهب الجميع قـوة وقدرة على الأنتباه كافيتين

للأرتفاع بهم إلى مرتبة الرجال اللامعين المرموقين إذا كانت البيئة والتعليم والظروف ملائمة لهم . وعدم المساواة فى القدرة والأهلية هــو دائما نتيجة الاختلاف فى الموقف الذى تصادف أن وضعوا فيه(١١) .

« وفى اللحظة التى يخرج فيها الطفل من بطن أمه . . . . يدخل إلى الحياة دون أفكار ودون انفعالات . وكل ما يحس به هو الجوع . إننا فى المهد (أى عن طريق الوراثة) لا نتلقى انفعالات الزهو والكبرياء والجشع والطمع والرغبة فى حسن التقدير والمجد والعظمه . إن هــذه الأنفعالات المثيرة للشقاق والشغب التى تتوالد بين البلدان والمدن تفترض مقدما وجود تقاليد وقوانين قائمة بالفعل بين الناس . . . ومثل هذه الأنفعالات لا تكون معروفة لدى من تحمله ساعة مولده عاصفة إلى صحراء مقفرة يغذيه ذئب مثل روميلوس . وحب المجد والعظمة شىء مكتسب ، ومن ثم فهو نتيجة درس وتعليم(١٢) » .

وحتى العبقرية نفسها نتاج البيئه ، أى الخبرة بالأضافة إلى الظروف ويضيف العبقرى الخطوة الأخيرة إلى خطوات أكتشفت وإتخذت قبله . وهذه الخطوة الأخيرة تكون تبعاً للظروف . وكل فكرة جديده هى نعمة من نعم الصدفة ، أى سلسة من النتائج والأثار لأندرك لها سبب(١٣) .

« ومن أين يأتى عدم المساواه التامة فى الفهم والذكاء » ؟ السبب فى هذا هو أن أى إنسان لأيدرك على وجه الدقه نفس الأشياء ، وليس هو على وجه الدقة فى نفس الموقف ، ولم يتلق نفس التعليم ، كما أن الصدفة أو الحظ الذى يسمو على تعليمنا لايؤدى بكل الناس إلى كنوز غنية مثمرة بقدر سواء . وإننا من أجل هذا ننسب إلى التعليم — بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . مع أخذ فكرة المصادفة والحظ فى أعتبارنا — ننسب عــدم المساواة فى الفهم والذكاء(١٤) .

ومن الجائز أن هذا التحليل النفسى وهو سخى بصفه خاصة من أحد أصحاب الملايين ، مشتق أو نابع من وضع سياسى . فالمحافظون يؤكدون

فوارق الوراثه وتأثيرها ، والحاجة إلى الحرص والحذر فى تغيير النظم المتأصلة فى عدم المساواة الطبيعية والمحلية فى القدرة والخلق . أما دعاة الأصلاح فيؤكدون على فوارق البيئة وتأثيرها ، ممـا يجعل عدم المساواة فى القدرة والقوة والثروة يبدو راجعاً إلى المصادفة والحظ ، إلى مفارقات المولد وميزات الظروف أكثر منه إلى جدارة فطرية . ومن ثم يمكن خفض عدم المساواة بالمساواة فى التعليم وتحسين البيئة . ويطبق هلفشيوس نظريته فى المساواة الطبيعية على الأجناس والأفراد . فكان يمكن أن تصل كل الأجناس إلى نمومتساو إذا تساوت الفرص البيئية لديها . وينتج عن هذا أن الغرور القومى أو الأعتزاز بالجنس مثل الغرور الفردى أو إعتزاز الفرد بنفسه ، ليس له فى الواقع أى مبرر . أن الحرية التى يفاخربها الأنجليز . . . ليست جزاء لشجاعتهم بقدر ما هى نعمة الحظ — « أعنى القنال الانجليزى والبحار التى تحميهم (الحرية الداخلية إذا تساوت الأشياء الأخرى تتفاوت عكسيا مثل الخطر الخارجى) .

وواضح على هذه الأسس أن طريق التقدم يتبع تحسين التعليم والمجتمع والحكومة . « إن التعليم قادر على التأثير فى كل شىء » . ألا يدرب التعليم الدب على الرقص(١٥) ؟ أن كل التقدم ، حتى فى الاخلاق يتوقف على إنتشار المعرفة وتدريب الذكاء . إقض على الجهل وبذلك تقضى على كل بذور الشر(١٦) ومن أجل الأقتراب من هذا الهدف يجدر أن يعاد بناء نظام التعليم فى فرنسا كما ينبغى أن يحرر من ربقة الكنيسة ويعهد به إلى الدولة ، كما يجب أن يكون فى متناول كل الأفراد من الجنسين كليهما وفى كل الأعمار . ويجدر أن يحل تدريس العلوم والتقنيات محـل تعليم اللاتينية والأغريقية ، ويجب أن يكون ثمـة تركيز جديد على بناء الأجسام الصحيحة « والعقول السليمة المتمسكة بالفضيلة(١٧) » .

وعلى الرغم من أن هلفشيوس لم ينكر أية تعاليم مسيحية نراه هنا يدخل فى دعوى مثيرة بقصد تقليص نفوذ الكنيسة فى فرنسا . أنه يهاجم الكنيسة من

وجهة نظر اجتماعية لا لاهوتية ، أنه يشجب وجهة النظر الكاثوليكية فى تمجيد العزوبة والفقر ، ولكنه يطرب ويبتهج لأن قلة ضئيلة من المسيحيين هم الذين ينظرون إلى هذه الأفكار بعين الجد . « أن ميلا خفياً إلى الشك وعدم التصديق يقاوم هذا الأثر الخبيث المؤذى للمبادىء الدينية[١٨] أنه يتهم سيطرة الكاثوليك على التعليم لا بأنها تعوق التقدم الفنى والعلمى فى الأمة بتجاهل العلوم والاستخفاف بها فحسب ، بل بأنها كذلك تمكن رجال الدين من تشكيل ذهن الطفل لأخضاعه للسيطرة الكهنوتية[١٩] .

« إن رغبة رجال الدين فى كل العصور إنصرفت إلى القوة والنفوذ والثراء . وبأية وسيلة يمكن أشباع هذه الرغبة ؟ ببيع الرجاء (فى التعليم) والخوف (من الجحيم) . إن الكهنة وهم تجار جملة فى هذه السلع كانوا يحسون ويدركون أن هذا البيع سيكون مؤكدا رابحا[٢٠] . . . . . وتتوقف قوة الكاهن وسلطانه على الخرافات ، وعلى تصديق الناس فى غباء وحمق لهم . وليس لتعليمهم قيمة لديه . وكلما قلت المعرفة عندهم ازدادوا إمتثالا لأوامره[٢١] . . . . إن أول هدف للكهنة فى كل ديانة هــو خنق حب الاستطلاع عند الناس ، والحيلولة دون فحص أية تعاليم و مبادىء يكون سخفها ملموسا محسوسا إلى حد لا يمكن إخفاؤه[٢٢] . . . لقد ولد الإنسان جاهلا ، ولكنه لم يولد مغفلا أبله ، وليس إلا بالجهد والمشقة ليكون كذلك ، ولابد لذلك وليكون قادرا على أطفاء هــذا النور الطبيعى فى داخله من إستخدام كثير من الخداع والحيل والأساليب ، ومن ثم يكدس التوجيه والتربية فى ذهنه أخطاء فوق أخطاء[٢٣] وليس ثمة شىء تعجز قوة الكهنوت بمساعدة الخرافة عن تنفيذه ، لأنها تسلب الحكام والقضاة سلطانهم وسيادتهم ، والملوك سلطتهم الشرعية . وبذلك تخضع الناس وتحرز السيطرة عليهم . وغالبا ما تكون هــذه أعلى من سيادة القوانين ، ومن ثم تفسد فى النهاية المبادىء الاخلاقية نفسها[٢٤] .

ويضيف هلفشيوس ثمانية فصول عن التسامح .

« أنه التعصب أو عدم التسامح الديني هو ربيب الطمع الكهنوتي وصرعة الصديق الغبي الأحمق[٢٥] . وإذا أنا صدقت مربيّ أو معلمي ، إن كل ديانة أخرى باطلة زائفة ، وديانتي وحدها هي الصحيحة الحقة . ولكن هل يعترف العالم كله بهذا ؟ لا ، فإن الأرض لاتزال تئن تحت وطأة المعابد الكثيرة الموقوفة على الخطأ[٢٦] . وماذا يعلمنا تاريخ الأديان ؟ أنها أضاءت في كل مكان مشعل التعصب وملأت السهول بالجثث وخضبت الحقول بالدماء واحرقت المدن وإقامت أمبراطوريات مهلهلة[٢٧] . اليس الأتراك ، ودينهم دين جهاد وحرب ، أكثر تسامحا منا ؟ إننا نشهد الكنائس في القسطنطينية ولكنا لانرى مساجد في باريس[٢٨] . أن التسامح يخضع الكاهن للأمير ولكن التعصب يخضع الأمير للكاهن[٢٩] .

ويميل هلفشيوس إلى القول باستثناء واحد في جانب التعصب ، حيث يقول : « هناك سبب واحد يمكن أن يكون فيه التعصب ضاراً بالشعب ، حيث يكون التسامح مع عقيدة تتسم بالتعصب مثل الكاثوليكية . فإن مثل هذه العقيدة التي تصبح أقوى ما تكون في دولة ما سوف تسفك دائماً دماء حماتها الأغبياء . لا تسمحوا للكاثوليك المتملقين أن يستغلوا البروتستانت . إن القساوسة الذين يعتبرون التعصب في بروسيا أمــراً بغيضاً وخرقاً للقانون الطبيعي والسماوي ينظرون إلى التسامح في فرنسا على أنه جريمة وهرطقة . وماذا يجعل الإنسان مختلفا عن غيره في مختلف الأقطار ؟ ليس إلا ضعفه في بروسيا وقوته في فرنسا. وإذا تأملنا في سلوك المسيحيين الكاثوليك ، لوجدنا أنهم في البداية حين يكونون ضعافاً يبدون وكأنهم حملان وديعة حتى إذا أصبحوا أقوياء كانوا وحوشاً ضارية[٣٠]

وأدلى هلفشيوس من حين إلى حين بكلمة طيبة عن المسيحية ، وبخاصة عن البروتستانتية ولم يكن ملحداً ولكنه كره تصوير الأصفار المقدسة للإله

طاغية . . . يعاقب على الهنات الهينات بالعذاب المقيم [٣١] . وراوده الأمل فى ديانة عالمية « تقيم تحت رقابة الدولة « أخلاقيات طبيعية » متحررة من الثواب والعقاب بعد الموت [٣٢]. ووضع العقل الإنسانى فوق كل دعاوى الإنسان للوحى الإلهى . فإن الرجل الأمين سوف يمتثل دائماً لعقله مؤثراً إياه على الوحى . لأنه سيقول بينه وبين نفسه عن يقين بالغ بأن الله هو منشىء العقل البشرى أكثر من أنه مؤلف كتاب بعينه [٣٣]

ولكن أليست المعتقدات الخارقة والوازع الدينى ضرورية لفاعلية القانون الأخلاقى ؟ يقول هلفشيوس . كلا « ليس على الدين ولكن على التشريع أو القانون وحده تتوقف رذائل الناس وفضائلهم وقوتهم وهناءتهم . . . إن كل جريمة لايعاقب عليها القانون تقترف كل يوم فأى دليل أقوى من هذا على عقم الدين وعدم جدواه ؟ ...

ومن أين ينشأ الأمن الحالى فى باريس ؟ هل ينشأ من تقوى أهلها وتبتلهم ؟ كلا إنما ينشأ من نظام الشرطة ويقظتهم . . . وفى أية فترة أصبحت القسطنطينية وكر الرذائل ؟ فى نفس اللحظة التى قامت فيها المسيحية هناك ... إن أشد الملوك تمسكاً بالمسيحية لم يكونوا أعظم الحكام . إن قليلا منهم تحلوا بفضائل تيتس أوتراجان أوانطونينس وأى أمير تقى ورع يمكن أن يقارن بهؤلاء ؟ [٣٤]

ومن هنا بدا لهلفشيوس أن مهمة الفلسفة أن تبتكر وتنشر أخلاقيات مستقلة عن العقيدة الدينية .ومن وجهة النظر هذه كتب ما أسماه أحد الباحثين « أعظم اختيار على الأخلاق الاجتماعية خطه يراع أى فيلسوف [٣٥] أنه عقد العزم على ألا ينتقص من قدر الطبيعة البشرية أو يجعلها مثالية ، بل يأخذها كما وجدها بكل ما فيها من أنانية ، ويحاول إن يبنى عليها أخلاقاً طبيعية . إن الإنسان ليس خيراً أوشراً بالطبيعة . إنه مخلوق حاول أن يحافظ على ذاته فى عالم يحاول كل كائن آخر فيه أن يفتك به إن عاجلا أوآجلا [٣٦] . إن الصورة التى كان قد رسمها روسو حديثاً للمجتمع البدائى بدت لهلفشيوس خيالا تافهاً

غير ذى قيمة . وكان هوبز أقرب إلى الحقيقة حين وصف « حالة الطبيعة » بأنها صراع كل فرد ضد الجميع . إن لفظتى الخير والشر فى تطبيقهما على الناس ليس لهما معنى إلا فى مجتمع ، وكل الطيبة فضيلة اجتماعية وهى نتاج التدريب أو التعليم الاجتماعى على الغايات والأغراض الاجتماعية . « إن الأمير الذى يثق فى استقامة الخلق الفطرى المتأصل فى النفوس شقى تعس . إن روسو يفترض وجود هذه الاستقامة ، ولكن الخبرة تنكر وجودها . وكل من يتأمل فى هذا سينتهى إلى أن الطفل يقتل الذباب ويضرب كلبه ويخنق عصفوره أى أن فى الطفل كل رذائل الرجل . إن الرجل وهو فى أوج سلطانه ، (متحرراً من كل القيود والضوابط الاجتماعية) غالباً ما يكون جائراً ظالماً . والطفل القوى مثله تماماً : فإنه إذا لم يكبح جماحه وجود رفاقه مثل الرجل فى أوج سلطانه يستحل لنفسه حلوى رفيقه وأدوات لعبه ويستولى عليها (٣٧)

ومن الواضح عندئذ أنه ليس هناك حاسة أخلاقية فطرية ، فكل الأحكام على الخطأ والصواب تنمو عن طريق خبرة الفرد نتيجة لتعاليم أسرته وجماعته وحكومته وكنيسته ، وفرضها عليه قسراً . فإذا تحرر الفرد من هذا القسر كما هو الحال فى الحكم المطلق أو الحرب أو الزحام فإنه يميل إلى العودة إلى مخالفة القانون والتمرد عليه ، وإلى عدم التمسك بالمبادىء الأخلاقية . وهنا « لا تكون الأخلاق فى معظم الأمم آنئذ إلا مجرد مجموعة من تعاليم وقواعد سلوكية يمليها ويفرضها الأقوياء ليضمنوا سيطرتهم وسيادتهم ، مع الاستمرار فى ظلمهم وطغيانهم ، مع الافلات من أى عقاب » ولكن الأخلاق بمعناها الصحيح هى « معرفة الوسائل التى يبتدعها الناس ليعيشوا معاً وجنباً إلى جنب فى أسعد حال ... وإذا كان من بيدهم الأمر والسلطة لا يعارضون تقدم المعرفة بهذه الوسائل فإنها تنهض وتتقدم كلما اكتسب الناس معرفة جديدة» (٣٩) .

وهلفشيوس يعتنق صراحة مذهب المتعة (اللذة أو السعادة) . وهى الخير الرئيسى أو الأوحد فى الحياة : فالسعادة هى هدف الحياة هنا على الأرض ، والسعادة هى استمرار اللذة ودوامها ، وكل اللذة حسية أو فسيولوجية

أساساً (٤٠)« إن نشاط الذهن واكتساب المعرفة . هما أعظم اللذات إشباعاً على الدوام (٤١) ولكنهما ماديان أيضاً بصفة جوهرية . والزهد أو التقشف ضرب من الحمق . واللذة الجنسية مشروعة تماما إذا لم تؤذ أحداً . وليست الفضيلة هي الأمتثال لشرائع الله بل هي السلوك الذى يوفر أعظم اللذة لأكبر عدد من الناس . وهنا وبشكل واضح يصوغ هلفشيوس الأخلاق النفعية التى جاء بها بالفعل هتشنسون (١٧٢٥) والتى شرحها بنتام فيما بعد(١٧٨٩). « لكى تكون فاضلا يجب أن تجمع بين نبل النفس والعقل المستنير . وهذا الذى يجمع بين هاتين النعمتين إنما يتجه إلى المنفعة العامة . وهذه المنفعة هى قاعدة كل الفضائل الإنسانية وأساس كل تشريع . . . وكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ أو قاعدة واحدة وهى نفع الناس جميعا أى أكبر عدد من الناس فى ظل الحكومة نفسها . . . فهذا المبدأ يتضمن كل الأخلاقيات وكل التشريع (٤٢).

وعلى الرغم من ذلك فإن كل الأفعال فى رأى هلفشيوس مهما كانت اخلاقية وفاضلة أنانية . وقد لا تكون الأفعال بالضرورة أنانية ، فكثير منها يتسم بالغيرية (حب الغير) بمعنى أنه مقصود به نفع الآخرين وفى بعض الأحيان تكلف فاعلها ثمناً غالياً . ولكن حتى مثل هذه الأفعال أنانية بمعنى أن الدافع إليها هو إرضاء الذات . أننا غيريون (نحب الغير) إننا بالفطرة أو بالتعليم والمران يمكن أن نجد لذة كبيرة فى إدخال السرور على الآخرين وإسعادهم .وهكذا قد تضحى الأم من أجل طفلها أو البطل من أجل وطنه. إننا إذ نفعل الخير لغيرنا فذلك يرجع إلى أننا عن قصد أو عن غير قصد نتذكر فى لذة وسرور ما قوبلت به مثل هذه الأفعال فى الماضى من حب أو تقدير اجتماعى .وبهذه الطريقة قد تصبح بعض الأفعال الغيرية عادة لدينا: وقد نشعر بالانزعاج أو الخوف إذ لم نقم بها . وقد يبدو النسك أو التبتل الدينى عملا فاضلا إلى درجة عالية ، ولكنه « مجرد استثمار طويل الأجل فى سندات السماء » أى مجرد محاولة طويلة الأمد لضمان حسن الجزاء فى السماء

« فإذا فرض ناسك أو راهب على نفسه قانون الصمت وجلد نفسه بالسوط فى كل ليلة وعاش على الحبوب والماء وافترش الأرض على القش فإنه يظن أنه بفضل النحول والهزال سيحظى بمنزلة رفيعة فى الجنة[٤٣]. وإذا لم يحكم المجتمع المحلى على أى تصرف أو فعل وحشى قاس بالإدانه ويستنكره فان هؤلاء الرجال المقدسين سيرتكبونه دون خجل أو لجوء إلى القانون : مثال ذلك إحراقهم المهرطقين[٤٤]. إن الصداقة نفسها ضرب من الأنانية : فهى تبادل خدمات حتى ولو كانت مجرد تأييد ، وحيثما انقطع مثل هذا التبادل تقطعت أواصر هذه الصداقة ، وليس ثمة شىء إستثنائى أو غير مألوف أكثر من الصداقة التى لا تدوم طويلا [٤٥]، وجوهر الحقيقة إننا دائماً نحن الذين نحب أنفسنا فى غيرنا [٤٦] .

وحين هبط لاروشفوكول بالمثل بمختلف الدوافع إلى حب الذات فأنه شعر بالأسى باعتبار أن حب الذات هذا رذيلة . ولكن هلفشيوس ارتضاه على اعتباره فضيلة ، على أنه سعى للمحافظة على الذات . وعلى أية حال فتلك حقيقة عامة من حقائق الحياة «فالغضب أو الشعور بالضيق من الأفعال القائمة على حب الذات وهو مثل الشكوى من رخات المطر فى الربيع أو من حر الصيف ... أو صقيع الشتاء » [٤٧]. ومن منطلق عمومية حب الذات تماماً يقترح هلفشيوس إقامة أخلاقيات « علمية » . فالتعليم والتشريع يمكن أن يشكلا الأخلاق والعادات إلى حد الانزعاج والشعور بالملق والضيق بالأفعال أو التصرفات غير الاجتماعية ، والشعور باللذة والسرور فى الفضيلة — أى فى الأفعال التى تفيد الجماعة وتسدى إليها خيرا . ويجدر بالفيلسوف أن يدرس السلوك الإنسانى والحاجة الاجتماعية بقصد اكتشاف أى أشكال السلوك أكثر نفعا وخيراً لأكبر عدد من الناس ، ويحاول مع المعلمين والمشرعين التماس المغريات والمحاذير التى يمكن مع الاستعانة بحب الذات أن تشجع السلوك الاجتماعى ، وأية فوائد تعود على الجنس البشرى من مثل هذا الاتفاق بين

الفلاسفة والملوك ؟ » إن فضائل الشعب وسعادته لا تنبع من قدسية عقيدتهم الدينية ونقاوتها بل من حكمة قوانينهم (٤٨) .

وهكذا تحول هلفشيوس فى قمة فلسفته إلى دراسة التشريع والحكومة . أنه من الناحية السياسية أشد الفلاسفة تطرفا . أنه لا يشارك فولتير إيمانه « بالحاكم المطلق المستنير » فان مثل هؤلاء الحكام قد ينزعون إلى إخماد أية آراء غير آرائهم هم أنفسهم ، التى قد تكون خاطئة ضارة . ويقتبس قول فردريك الأكبر لأكاديمية برلين « ليس ثمة ما هو أفضل من حكومة استبدادية يرأسها أمير عادل إنسانى عطوف متمسك بالفضيلة ، وليس ثمة شىء أسوأ من حكم الملوك العاديين البسطاء »(٤٩). والملكية المحددة السلطة أو الدستورية مثل انجلترا صالحة طيبة ، والأحسن منها اتحاد من جمهوريات ديمقراطية تعاهدت على العمل المشترك ضد أى ظالم (٥٠) . والارستقراطية جائرة نظرياً حيث أن المقدرة العليا نتاج الصدفة ، ولكن الديمقراطية الكاملة غير مرغوب فيها ، ما دام الفقراء غير متعلمين لا يملكون شيئاً . ومن ثم فان المشرع الحكيم يسعى إلى نشر التعليم وحسن توزيع الملكية .

إن هذا « المليونير » الخبير بشؤون المال يرثى لتركيز الثروة وتيسير هذا التركيز عن طريق الاقتصاد القائم على المال : « إن هذا الشقاء الذى يخيم على كل الناس والأمم تقريباً إنما ينشأ من قصور قوانينهم والتوزيع البعيد كل البعد عن المساواة لثرواتهم . وفى معظم الممالك توجد طبقتان فقط من المواطنين : واحدة فى مسيس الحاجة إلى الضروريات والأخرى تبذر تبذيرا (٥١) ... وإذا كان فساد السلطة فى الشعب أبرز ما يكون فى عصور الترف والبذخ فما ذاك إلا لأن ثروة الأمة فى تلك العصور كانت مركزة فى أيدى أقل نفر من الناس (٥٢) .

إن الاستعاضة بالمال أو النقود عن الأرض رمزاً للسلطة والقوة ونقطة ارتكاز لهما ، ينشأ عنها سباق على الثروة ، وفيه تقويض للاستقرار الاجتماعى وتصعيد للصراع الطبقى ، كما أنه يؤدى إلى تضخم مدمر . « وفى الأمة التى

تزداد تدريجا ثروتها وماها — وبخاصة العملة الورقية — ترتفع أسعار الحاجيات وأجور العمال باستمرار .. وكلما أصبح العمل غالى التكلفة فى أمة غنية فإنها لا بد أن تستورد من الأمم الأخرى أكثر مما تصدر إليها . وإذا ظلت كل العوامل الأخرى على حالها ... فإن أموال الأمة الغنية سوف تنتقل أو تتسرب دون أن يشعر بها أحد الى الأمة الأفقر التى ستدمر نفسها بدورها وبنفس الطريقة إذا أصبحت غنية (٥٣) .

وهل ثمة مهرب من تركيز الثروة أو التزاحم على المال ؟ « يجدر بالإنسان أن يضاعف عدد الملاك عن طريق توزيع جديد للأرض . . فاذا زادت أرض أحد الناس عن قدر معين من الأفدنة فيجب أن تفرض عليها ضرائب تفوق قيمة إيجارها . ومثل إعادة توزيع الأرض هذه قد تكون مستحيلة تقريبا فى اقتصاد يقوم على المال . ولكن إذا أمكن تداركها بحكمة فمن المستطاع تنفيذها بتغيرات دائمة غير محسوسة (٥٤) .

فلنعمد إلى انقاص ثروة بعض الناس وزيادة ثروة آخرين ونهيىء للفقراء حالة من اليسر والرخاء حتى يتمكنوا بسبع أو ثمان ساعات من العمل فى اليوم أن يوفروا لأنفسهم ولذويهم وسائل العيش ويسدوا حاجتهم ، ومن ثم يصبح الشعب سعيدا بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية (٥٥) .

٣ — تأثير هلفشيوس :

وهنا فى كتابين لرجل واحد نجد كل الأفكار التى صنعت الثورة الفرنسية وكل الأفكار التى تعتلج فى صدور الأمم وتحركها اليوم . فلا عجب أن وضعت الفئات الفرنسية المتعلمة المثقفة فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر هلفشوس فى منزلة سواء تقريبا مع فولتير وروسو وديدرو ، ورحبت بكتابه الأول وهللت له مما كاد لا يحظى به كتاب غيره فى ذلك العصر . وقال برونيتيير « إن أى كتاب غيره لم يحدث مثل هذه الضجة فى زمانه ، ولم ينشر فى الخارج أفكارا أكثر أخذت تشق طريقها إلى العالم بأسره (٥٦) .

وذكر بريسو فى ١٧٧٥ «لقى منهج هلفشيوس وآراؤه أعظم رواج وشعبية»؛ وشكا ترجو على حين كان يعارض هذا المنهج من أن الناس امتدحوه وأثنوا عليه فى شىء من الشدة والعنف : وقال آخر « إن هذا الكتاب كان يوجد على كل منضدة [٥٧] » . وأطرى كل النقاد وضوح أسلوبه وقوة حكمة وتصويراته البارعة والروح الإنسانية البارزة فى رجل يدافع عن إعادة توزيع الثروة على حين أنه ثرى أوتى كل شىء .

ومهما يكن من شىء فان الفلاسفة أنفسهم انتقدوا « منهج هلفشيوس» باعتباره قائما على مفاهيم خاطئة . ودافع فولتير عن دعاوى الوراثة . فكل الناس عند الميلاد ليسوا متساوين فى التفوق الذهنى والخلقى الكامن ورأى أن العبقريات مولودة لا مصنوعة [٥٨]. واتفق ديدرو مع فولتير فيما ذهب إليه . وفى « تفنيد لكتاب هلفشيوس بعنوان « الإنسان » (كتب فى ١٧٧٥ ، ولكن لم ينشر إلا بعد مائة عام من تأليفه) ، دفع ديدرو بأن الأحاسيس تنتقل بأشكال مختلفة إلى مختلف الأفراد بفعل الفوارق الموروثة فى تركيب المخ وبنيته [٥٩] « لا يولد الإنسان غفلا أو خاليا من كل شىء ، حقا أنه يولد بدون أفكار أو انفعالات موجهة ، ولكنه منذ اللحظة الأولى يوهب استعدادا أو ميلا إلى التصور والمقارنة والاحتفاظ ببعض الأفكار فى تلذذ واستمتاع أكثر من غيرها . وميلا ونزعات مسيطرة تنتج عنها فيما بعد الانفعالات الواقعية [٦٠]

وهنا نجد ديدرو ، الذى كان قد بدأ بجون لوك يتحول إلى ليبنتز ويمد يده إلى كانت . أن تأثير البيئة والتعليم فى نظر ديدرو ، محدود دائما بالوراثة « إننا لانستطيع أن نعطى ما رفضته الطبيعة ، وربما نقضى على ماتهبه الطبيعة .. إن التعليم يعمل على تحسين ماتهبه لنا »[٦١]واستاء من الهبوط بالمباهج الفكرية إلى لذة حسية ، واشترك فى الاحتجاج العام على فكرة هلفشيوس التى تقول بأن كل الغيرية (حب الغير) أنانية غير محسوسة أو محتجبة .

وكانت مدام دى ديفان واحـدة من النفر القليل الذين اتفقوا مع هلفشيوس فى هذه النقطة . وقالت « إن هذا الرجل كشف الغطاء عن سر كل إنسان »(٦٢) أما آدم سميث الذى كان يتبع صديقه هيوم فإنه أصر على أن الغيرية مؤسسة على مشاعر عطف فطرية مثل الأنانية سواء بسواء ، ولـكنه فى كتابه « ثروة الأمم » أسس نظريته الاقتصادية على شمولية حب الذات . وفى نشوة الثورة أثار هلفشيوس إشمئزاز مدام رولان . « لقد شعرت أنى مدفوعة بكرم لم يعترف هو به قط . . . . وواجهت نظرياته بالابطال العظام الذين خلدهم التاريخ(٦٣) .

ولا يمكن حل هذه المسائل بسهولة فى فقرة من الفقرات ، ويبدو واضحا أن الاختلافات فى التكوين الوراثى أو الخلقى توثر تأثيرا جوهريا فى عمل البيئة والتعليم . وكيف إذن نفسر بأى شكل آخر الخلق والنمو المتباينين كل التباين فى الإخوة على الرغم من التشابه فى النشأ والأصل والفرص ؟ ومع ذلك فإن هلفشيوس كان على حق ؟ فى نطاق الحدود التى فرضتها البيئة ، فيمكن أن تحدث تغييرات جسيمة فى سلوك الأفراد والجماعات، بفعل الاختلافات فى البيئة والتعليم والتشريع . وإلا كيف نفسر إنتقال الانسان من الهمجية إلى المدنية ؟ وربما يجدر بنا أن نسلم لهلفشيوس بأنه ليس ثمة إنسان يعمل واعيا بطريقة أشد إيلاما من بديلتها . ولـكن بعض الغرائز الاجتماعية — حب الأم ، حب العيش مع أبناء جنسه ، حب الاستحسان — على الرغم من أنها لاتقدر على منافسة غرائز النزعة الفردية فى كمال القوة ، فانها أى الغرائز الاجتماعية قوية إلى حد تستطيع معه توليد أفعالى إجتماعية قبل أى ترجيح واع للذة أو الألم أو النتيجة . فـكل منا ذات أو « أنا » ولـكن بعض الذوات أو « الأنا » تتسع لتشمل أسرتنا أو جماعتنا أو ووطنا أو الجنس البشرى بأسره . وعلى هذا الأساس تـكون أوسع « أنا » هى الأفضل .

وعلى أية حال فان كثيراً من الناس تأثروا وتحركوا للتفكير والعمل بفضل إراء هلفشيوس . ومن الجائز أنه تحت تأثير هلفشيوس بدأ لاشالوتيه

حملته لابدال مدارس كهنة القرى وكليات الجزويت بطرق تعليمية تشرف عليهـــا الدولة . وترجع المدارس العامة فى أمريكا إلى مقترحات كوندرسيه الذى سمى نفسه تلميذ هلفشيوس ومريده(٦٤) وأكد بكاريا Beccaria إن كتابات هلفشيوس هى التى أوحت بكتابة دفاعه التاريخى عن إصلاح قانون العقوبات والسياسه . وصرح بنتام بأنه « مدين لكتاب هلفشيوس « الذكاء » بكثير من أفكاره « — بما فى ذلك مبدأ المنفعة بالتماس أعظم السعادة لأكبر عدد من الناس فى الأخلاق وفى التعليم (٦٥) . وشهد « الميثاق الوطنى » فى ١٧٩٢ بتقدير تأثير هلفشيوس فى الثورة ، بأن منح بنات هافشيوس لقب «بنات الأمة» . وبنى وليم جودون Goduin بحثه فى العدل السياسى « (١٧٩٣) على تعاليم هلفشيوس . أما زوجته مارى و لستونكرافت فقد وجهها إلى حد ما إلى تأليف كتابها المؤذن بعهد جديد « حقوق المرأة » ، دعوى هلفشيوس بأن الفوارق بين الجنسين ترجع إلى حد كبير إلى التفاوت فى التعليم وفى الفرص (٦٦) .

وقابل كثير من معاصرى هلفشيوس بين نظريته فى شمولية الأنانية وبين كرم خلقه وحياته الموسومة بالخير والإحسان . وكتبت عنه مارمونتيل : « ليس ثمة رجل أفضل منه ، فهو متحرر كريم جواد دون تظاهر أو تصنع ، محسن من صميم قلبه (٦٧) ووصف جريم الذى نادراً ما كان مسرفاً فى مدحه ، هلفشيوس بأنه « رجل مهذب وديع حقا « منصف متسامح ، ليس سريع الغضب أبداً ، زوج صالح ووالد عطوف ،وصديق وفى وإنسان طيب (٦٨) .وكان يصدق على شخصه ذلك الذى جاء فى مؤلفه « الذكاء » « من أجل أن نحب الناس يجدر أن نتوقع القليل منهم . . . إن كل إنسان ما دامت أهواؤه وانفعالاته لا تغشى عقله سيكون أكثر تسامحاً كلما ازداد استنارة . . . فإذا كان الرجل العظيم هو دائماً أكثر تسامحاً ... وإذا كان يقابل أخطاء الآخرين ببلسم الاشفاق الشافى ويتمهل فى الكشف عن هذه الأخطاء ، فما ذاك إلا لأن سمو عقله لايجيز له أن

يطنب فى رذائل أفراد بعينهم وحماقاتهم ، بل يحوم حول رذائل وحماقات الجنس البشرى بصفة عامة (٦٩) .

إنه فى فورى وفى باريس عاش مع زوجته وأطفاله أنشودة الأخلاص والسعادة . وفى عام ١٧٦٤ تجول فى انجلترا وألمانيا . وقابل هيوم وجيبون وفردريك الأكبر . وفى عام ١٧٧٠ أسهم فى تكاليف التمثال الذى أقامه بيجال لفولتير . وفى ١٧٧١ فارق الحياة على فراشه مع دى هولباخ وغيره من الأصدقاء . ووفاء لذكراه رفضت أرملته كل من طلب يدها للزواج ، بما فيهم بنيامين فرنكلين . وعمرت بعد وفاة زوجها تسعاً وعشرين سنة . ومرت بعهد الثورة فى سلام وأمان وقضت نحبها فى عام ١٨٠٠ ، فى سن الواحدة والثمانين .

٢ — فلاسفة مساعدون

فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر إنضم حشد كبير من الفلاسفة الأقل شأناً إلى الهجوم على المسيحية . وعملوا بكل الجد والحماسة اللتين تميز بهما المسيحيون الأوائل فى نشر الانجيل والدين الجديد ، أو المسيحيون الأسبان فى طرد العرب من بلادهم ، ودبجوا فيضاً من المقالات والرسائل . ولما نضب معينهم عمدوا إلى ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب المناهضة للدين ، من لوكريشيس إلى هوبز وابتدعوا تقويماً جديداً للقديسين والشهداء ، وضموا إلى قائمة القديسين جوليان المرتد وآلهوا بومبونا تزى وبرونو وكامبانللا وفانيني وبيل وغيرهم من ضحايا الاضطهاد وأدانوا بنى إسرائيل لا لأنهم تقاضوا فوائد على القروض بل لأنهم أنجبوا المسيحية . وأنزلوا « يهوه » عن عرشه باعتباره أقوى رمز للقسوة والوحشية ، وإلهاً للحرب ، وأول من عمد إلى الإبادة الجماعية . وسخروا من الخطيئة الأولى ومن « الآب » الذى كان عليه أن ينزل إلى الأرض مثل إبنه ويضرب بالسياط ويصلب ليهدئ من غضبه وهو الآب « الذى أثارت امرأة

فضوله للفاكهة (التفاح) أو المعرفة . ودمغوا الحروب الصليبية بأنها حملة لاغتصاب الأرض واحتكار التجارة ، واحتقروا العصور الوسطى باعتبارها عصوراً مظلمة ، ونظروا بازدراء إلى الكاتدرائية القوطية على أنها وحشية بشعة . ولحظ عليــه دالمبير « قدرا من التسامى بالأفكار وقلقاً واهتياجاً وفورانا عــــاماً فى الأذهان اكتسح منه بشىء من العنف كل ما وقف فى طريقه »[٧٠].

وكان هناك جاك أندريه نجيون Noigeon الذى وصفه سانت بيف بأنه « شماس » متعصب للالحاد[٧١] أنه عاش وعمل مع دى هولباخ مترجماً وقوراً، ونشراً معاً على مدى عشر سنين ثلاثين كتاباً صغيراً أو كبيراً أصلا أو مستورداً، وكلها ضد المسيحية . وقال عنها ديدرو « إنها قنابل تتساقط كالمطر فى بيت الرب[٧٢] . كما كان هناك نيقولا بولانجيه ، وهو أيضاً أحد أصدقاء دى هولباخ . واشترك فى هذه الحملة على المسيحية حتى وفاته (١٧٥٩) وخلف وراءه مخطوطة عنوانها « إماطة اللثام عن عهد قديم » احتفظ بها دى هولباخ حتى عام ١٧٦٥ حين أصبح شوازيل على رأس الوزارة وكان صديقا لجماعة الفلاسفة . وعندئذ دفع بها إلى المطبعة مع مقــدمة مثيرة بقلم ديدرو . يقول بولانجيه : « أن الديانة نشأت من خلال مخاوف الإنسان البدائى من الفيضانات وغيرها من الكوارث الواضح أنها خارقة للطبيعة ونظمها (أى الديانة) ، أقامها قسيسون وملوك فى مؤامرة لتبرير الطغيان فى سبيل فرض جائر لعقيدة تقليدية ، ولن يجد الجنس البشرى مطلقا مهربا من هذه المؤامرة الشريرة إلا باتباع نور العقل تحديا للقساوسة والملوك[٧٣].

وأهم من هذا كان أندريه موريليه . وهو نتاج آخر لليسوعيين وراهب آخر تدرج فى مراتب المتمردين . ولد فى ١٧٢٧ وعاش طويلا حتى وصفته مدام نكر بأنه « دب » وعلى الرغم من ذلك أوتى من الصراحة والاخلاص والأستقامة بالأضافة إلى ألف من الصفات الحسنة وقدر كاف من الدين

ما يجعله يرتاب فى وجود إله . ويصرح أحيانا بذلك إلى أصدقائه اعتماداً منه على حكمتهم فى أنهم لن يفضحوا سذاجته وسرعة تصديقه[٧٤] . وكتب تحت إشراف ديدرو بعض المقالات لدائرة المعارف . وعلى مائدة العشاء لدى هولباخ كانت سخريته لاذعة حتى أن فولتير أسماه « الأب الموقر السيد عضهم إنهشهم » ولكن قال عنه ما رمونتيل « أنه كان لدية أفكار عميقة ... وكان قويم الخلق كما كان ثابت الجنان »[٧٥]. وفى ١٧٦٢ نشر « كتيبا عن أعضاء محاكم التفتيش » عبارة عن مختارات من « إدارة محاكم التفتيش » لنقولا أمريكو الذى قد عمل فى حماسة وغيرة محققاً وعضوا هاماً فى محاكم التفتيش من ١٣٥٦ إلى ١٣٩٩ . وكان الفرنسيون قد نسوا تقريباً محاكم التفتيش الأسبانية ولكن موريليه أعادها إلى ذاكرتهم بمجرد إقتباس اجراءات هذا النظام وعقوباته فى أوج عظمته . ومنح مالشرب موريليه ترخيصا حكوميا بطبع الكتاب قائلا أن قانون العقوبات الفرنسى كان لايزال من الوجهة العملية مطابقا لقانون محاكم التفتيش[٧٦] . وكاد موريليه إلا يصدق هذا ، ولكن فى السنة التى رأى فيها الكتاب طريقه إلى المطبعة وجد برلمان تولوز يقضى على جان كالا Calas فى آلة التعذيب .

وذكر جريم الرزين الرصين عادة عن رأهب آخر هوجوبوم رينال Raynal فى صحيفته « كورسبندانس » عن ١٧٧٢ « منذ صدور كتاب مونتسكيو روح القوانين ربما لم يظهر فى أدبنا كتاب أجدر بالأنتقال إلى أبعد الأعقاب والأجيال القادمة أو الرفع من شأن تقدم الاستنارة لدينا من كتاب رينال « التاريخ الفلسفى والسياسى للمستعمرات والتجارة الأوربية فى جزر الهند الشرقية والغربية[٧٧] » وربما كان جريم يتخذ بصفة خاصة موقفا وديا من المؤلف لأن رينال هو الذى أفتتح فى ١٧٥٣ وأوصى فى ١٧٥٥ بصحيفة الكورسبدانس الأدبية لجريم ، وعليها عاش جريم . وأكثر من هذا فإن ديدرو صديق جريم كان قد عاون فى إعداد كتاب رينال الخالد الذى لا يفتح ولا يقرأ فى أيامنا هـــذه أو يبدو أن رأى جريم أكده ما نال

الكتاب سالف الذكر « التاريخ الفلسفى والسياسى » على الفور من شعبية فبيعت منه أربعون طبعة قبل ١٧٨٩ عدا طبعات لا تحصى مسروقة أو مترجمة وحظى الكتاب بتقدير فوانكلين وجيبون وروبرتسون . وأوحى هذا الكتاب إلى توسان لوفرتير Toussain L، Boaverturn بجملته المخلصة لتحرير العبيد (١٧٩١) ، وذهب ناقد واسع الإطلاع إلى أنه كان لهذا الكتاب تأثير على الثورة الفرنسية أعظم حتى من تأثير كتاب روسو « العقد الاجتماعى(٧٨) » .

دخل رينال باريس قسيسا فقيراً . وتكشف أسطورة عن طبيعة المرح والأبتهاج عند المتمردين ، فتنسب نجاته من الموت جوعاً إلى أن الراهب بريفوست كان قد تلقى عشرين سو (عملة فرنسية قديمة قيمتها خمسة سنتيمات) ليقيم قداسا على روح أحد الموتى ، وأن بريفرست أعطى الراهب دى لا بورت ١٥ سو ليقيم القداس بدلا منه ، وأن هذا الراهب الأخير نفح رينال ثمانية فقط ليقيم القداس بدلا منه(٧٩) . وابتهج رينال بالأكل على موائد هلفشيوس ودى هو لباخ ، وأثبت أنه جليس أنيس . ويبدو أنه حظى بمعونة كثير من المؤلفين فضلا عن ديدرو فى جمع مادة كتابه . بل حتى فى تأليف بعض فصوله . أن روسو الذى تشاجر وتنازع مع كل الناس بلا أستثناء وجد رينال مسالما غير مشاكس ، وقدم له الشكر فى « إعترافاته » على وفائه بحق الصداقة وتقديره للمساعدة المالية(٨٠) .

ولأبد أن رينال قد جمع مالا بطريقة ما ، حيث قيل إنه رشا الرقيب للحصول على ترخيص بأصدار كتابه(٨١) . أنه قضى عشرين عاماً يعمل جاهداً فى إعداده ، وفصل القول تفصيلا فى جشع الأوربيين وخيانتهم وعنفهم فى معاملة السكان الأصليين فى جزر الهند الشرقية . واستنكر هـذا كله وحذر الرجل الأبيض من الأنتقام الرهيب الذى قد تعمد إليه الأجناس الملونة إذا عادت إليها السلطة(٨٢). وكان الكتاب أول أتهام فرنسى للاستغلال الأستعمارى ، كما كان من أوائل الكتب التى أكدت على أهمية التجارة فى تحديد التاريخ الحديث ، وأسهم بطريقة عابرة فى إضفاء المثالية على المواطنين

الهنود وإعجاب المتحررين الأوربيين بحضارة الصين . وزخرت المجلدات المسهبة بالموضوعات والأفكار الرئيسية فى عصر الاستنارة : مقت الخرافة وحرفة الكهانة وبغض تسلط الدولة والكنيسة على الحياة والفكر . وأيد رينال فكرة أن الكثلكة كانت خداعا أو دجلا جمع فيه الحكام والكهنة قواهم ليدعم كل فريق منهم الأخر عن طريق الأساطير والخرافات والمعجزات والدعاية والظلم والمذابح . وأهاب بحكام أوربا أن يحلوا انفسهم من أى أرتباط بالكنيسة ، ويسمحوا بحرية الكلام والنشر ، ويمهدوا الطريق للحكرمة الديمقراطية . ولم تنج البروتستانتية منه ، حيث قال أنها كذلك ارتكبت جريمة التعصب . ووصف تعصب البيوريتانيين فى إنجلترا الجديدة واضطهاد السحرة فى سالم Salem (مدينة فى ماساتشوست) .

وعلى الرغم من الوقت الطويل الذى قضاه رينال فى إعداد كتابه ، فأنه قضى عليه بالأهمال فى زوايا النسيان نتيجة لمـا ورد فيه من أخطاء . إنه لم يتحر الحقائق فأعتبر الأساطير تاريخا ، وأهمل تواريخ الأحداث ، ولم يورد أسماء المراجع الموثوقة ، وشوش المادة وأفسدها ، واستخدم ديدرو (أو سمح لديدرو أن يشغل نفسه فى كتابة الخطب المسرفة والنداءات العاطفية مما لايكاد يليق بمؤلف فى التاريخ ولكن هذه لم تكن عصور تجرد أو نزاهة ، فالكتاب كان سلاحا ، ولا يجوز أضعاف قوته بعرض الجوانب المتعارضة فإن الحرب كانت حربا وصراعا . وهكذا قدرت الحكومة الفرنسية فأصدر برلمان باريس أمرا بأحراق الكتاب ، كما صدر الأمر إلى رينال بمغادرة فرنسا ، فهوب إلى الأراضى الوطيئة ، ولكنه رأى ضمانا للأمن والسلامة أن يعود فى عام ١٧٨٤ فى عهد أكثر ملوك البوربون إعتدالا .

وكان رينال من الفلاسفة للقلائل الذين شهدوا الثورة الفرنسية وعمروا بعدها ، ورأى عنف الثورة واستخدامها لكل وسائل التعصب وعدم التسامح القديمة . وفى ٣١ مايو ١٧٩١ وهو فى سن الثامنة والسبعين وجه إلى الجمعية التأسيسية رسالة يحذرها من التطرف ، فكتب يقول « لقد تجرأت لأمد طويل

على تنبيه الملوك إلى واجباتهم ، فاسمحوا لى اليوم أن أنبه الشعب إلى أخطائه » فأشار إلى أن طغيان الأهالى قد يكون قاسيا وجائرا قدر طغيان الملوك وجورهم . ودافــع عن حق رجال الدين فى التبشير بعقيدتهم ، مادام معارضوهم يتركون أحراراً فى التعبير عن آرائهم . واحتج على القوانين التى تفرض دين دولة ما وعلى إعتداء الجماهير على القساوسة . وأغرى روبسبير الجمعية بالسماح للرجل العجوز بتفادى المقصلة ، ولـكن الحكومة صادرت ممتلكات رينال ومات فقيراً معدما (١٧٩٦) وسط إنتصارات الثورة واوهامها .

٣ — دى هولباخ

١ — الملحد اللطيف :

كان أحب جماعة الفلاسفة إلى باريس ألمانى ولد (١٧٣٣) فى اديشيم فى أمارة سبيير Speyer الأسقفية (فى بافاريا) وعمد باسم بول هنريخ ديتريش فون هولباخ ، ونشأ كاثوليكيا . وجمع جده ثروة من إدخال عرق الذهب من هولند إلى فرساى . وفى ليدن درس بول العلوم وتعلم اللغة الانجليزية . وبعد صلح أكس لأشابل (١٧٤٨) إستقر به المقام فى باريس وأصبح من رعايا فرنسا وتزوج من أسرة من خبراء المال ، وحصل على النبالة بأستثماره ١١٠,٠٠٠ جنيه بفائدة ٥ ٪ فى شركة سكرتيرى الملك . « وسماه المحيطون به » البارون « لأنه كان يمتلك فى وستفاليا ضيعة تدر عليه ستين ألف جنيه سنوياً . وبلغت جملة دخله السنوى مائتى ألف جنيه . ويقول موريليه أنها ثروة لم يستغلها أحد استغلالا أشرف ولا أنفع منه للعلم والفن(٨٣) وكان يرعى موريفو وغيره من الكتاب أحسن رعاية (مثل دور ما سيناس بالنسبة لهم ، وهو راعى هوراس وفرجيل فى القرن الأول ق .م) وجمع مكتبة ضخمة ولوحات ورسومات وعينات ونماذج للتاريخ الطبيعى .

وأصبحت داره كما وصفها أحد الظرفاء « مقهى أوربا » وجعلت منه

ولائم العشاء عنده وصالونه فى باريس أو فى داره الريفية « جراند فال » على حد تعبير هوراس وولبول « قهرمان الفلسفه » وأعدت مدام دى هولباخ كل يوم خميس ويوم أحد المائدة لاثنى عشر ضيفا . ولم يكونوا هم أنفسهم دائما فى كل مرة ، ولكنهم كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية: ديدرو ، هلفشيوس ، دالمبير ، رينال ، بولانجيه ، موريليه ، سانت لأمبرت ، ما رمونتيل ، وأحيانا بيفون ، ترجو ، وكنى ، كذلك جاء روسو ولكنه كان يرتاع للالحاد الذى يتدفق من حوله ، وهناك كان ديدرو فى ذروة الحماسة والعنف ، أما الراهب جالبانى فقد ابتعد عن الفلسفة حيث أفسد النظرية بالدعابة والسخرية . وكان عقد هذا الكنيس — كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات — يلتئم فى الساعة الثانية يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون ويتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة . وتلك كانت الأيام التى كانت فيها المناقشه إدبا غير مسطور وليس ثمـــة فوضى المقاطعة أو توافه الأمور . ولم يكن هناك موضوعات محظور الخوض فيها ، أو كما قال موريليه « هذا هو المكان الذى تستمع فيه إلى أكثر المناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتثقيفا بالنسبة للفلسفة والدين والحكومة ، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك . . . وهناك فوق كل شيء أثار ديدرو عقولنا وألهب نفوسنا[٨٤] وذكر ديدرو نفسه للآنسة فوللان أنهم تحدثوا فى الفن والشعر وفلسفة الحب وفكرة الخلود ، كما تحدثوا عن الإنسان والآلهة والملوك والفضاء والزمن وعن الموت والحياة[٨٥] . وقال ما رمونتيل « ظننت أحيانا أنى أستمع إلى تلاميذ فيثاغورس وأفلاطون[٨٦] . أو « إذا كان الطقس جميلا أستبدلنا بولائم العشاء أحيانا نزهات فلسفية سيراً على الأقدام على ضفاف السين ، وكانت وجبة الطعام آنذاك أكلة سمك ضخمة ، وكنا نذهب كل منا بدوره إلى أشهر الأماكن بهذا السمك ، وعادة إلى سان كلو ، وكنا نقصد مبكرين فى أحد القوارب لنستنشق نسيم النهر ونعود فى المساء عن طريق غابة بولونيا[٨٧] .

وبلغ صالون دى هولباخ من الشهرة حدا استخدم معه بعض زوار

باريس من الأجانب نفوذهم للحصول على دعوة ليحضروا هذه اللقاءات . ومن ثم جاء فى أوقات مختلفة هيوم وستيرن وجاريك وهوراس وولبول وفرانكلين وبريستلى وآدم سميث وبكاريا . وقد أزعجهم فى بعض الأحيان وجود هذا العديد من الملحدين هناك . وكم من مرة سمعنا ديدرو يقول (لروميللى) أنه حين كان هيوم يشك فى الوجود الفعلى للدلمحدين كان البارون يؤكد له « أنك تجلس إلى المائدة مع سبعة عشر[٨٨] . » وروى جيبون أن فلاسفة باريس « سخروا من تشككك هيوم الموسوم بالحذر ، وبشروا بتعاليم ومعتقدات الملحدين مـــع نفس التعصب الأعمى لدى الدوجماتيين (الدوجماتية أى الجزمية : توكيد الرأى بغطرسة دون مبرر وتمحيص كافيين وصبوا اللعنات على المؤمنين فى تسخيف وازدراء .[٨٩] » كذلك روى بريستلى أن « كل الفلاسفة الذين تعرفت بهم فى باريس كانوا لا يؤمنون بالمسيحية بل صرحوا بأنهم ملحدون[٩٠] ومهما يكن من أمر فان موريليه لحظ « أن عدداً كبيراً منا كانوا ملحدين ولم يخجلوا من ذلك . ودافعنا بشدة عن انفسنا ضد الملحدين ، على الرغم من إننا أحببناهم لحسن رفقتهم وصحبتهم .[٩١] ورأى وولبول أن « وكر الفلاسفة » لدى دى هولباخ يؤذى ذوقه الانجليزى. وما كان أشد امتعاضه حين رأى رينال يعرف عن تجارة انجلترا ومستعمراتها أكثر مما يعرف هـــو إلى حد أنه إدعى الصمم . أما بيان هيوم فكان فيه مجاملة بالغة ، أن رجال الأدب هنا (فى باريس) مقبولون يرتاح المرء إلى معاشرتهم ، وكلهم رجال ذووشهرة واسعة يعيشون فى انسجام تام (أويكاد يكون تاما) بينهم جميعا ، ولا تشوب اخلاقهم شائبة ، وقد يكون مبعث أعظم الرضا عندك إلا يكون بينهم ربوبى وأحد .[٩٢] والارجح أن هذا التصريح يدعو إلى الحيرة والأرتباك .

ولكن اتفق رأى الجميع على أن البارون وقرينته كانا مضيفين مثاليين وشخصيتين محببتين إلى النفوس . وعلى حد تعبير جريم : عاشت مدام دى هولباخ لزوجها فقط ، فكانت إذا فرغت من الترحيب بضيوف

زوجها وتقديم ما لذ وطاب لهم آوت إلى ركن منعزل وانصرفت إلى شغل الأبرة ، دون أن تشترك فى مناقشاتهم ،[٩٣] وماتت فى عام ١٧٥٤ فى ريعان شبابها وظل دى هولباخ لبعض الوقت يعانى يأسا تاما [٩٤] وبعد عامين تزوج من اختها التى اثبتت أنها مخلصة قدر اخلاص اختها . وكان متواضعاً فى سلوكه وعاداته وديعا فى مناقشته ، لا تعلم شماله ما فعلت يمينـــه من بر وإحسان ،[٩٥] حتى لم يكد أحد يرتاب فى أنه كتب مثل هذا الدفاع القوى عن الالحاد فى كتابه « نهج الطبيعة » فكتبت مدام جيوفرين منافسته فى عقد الندوات وإقامة المآدب فى صالونها : « لم أر قط رجلا فى غاية البساطة مثله ، [٩٦] أما روســـو الذى درج على كراهية كل جماعة الفلاسفة تقريباً فإنه احتفظ باعجابه بشخصية دى هولباخ وخلقه إلى حد أنه اتخذه نموذجا لفولمار الفاضل الذى يعتنق مذهب اللاأدرية فى رواية « هلواز الجديدة » . وكتب جريم الذى حلل كل إنسان فيما عدا روسو فى موضوعية رصينة :

« كان طبيعيا أن يؤمن البارون دى هولباخ بأمبراطورية العقل ، فقد كان هواه ، (ونحن دائما نحكم على غيرنا بمقدار عواطفنا) أن يضع الفضيلة والمبادىء القويمة فى المقام الأول وكان من العسير عليه أن يضمر الكراهية لاى من الناس ، ومع ذلك كان لا يستطيع دون جهد جهيد أن يخفى مقته الصريح لرجال الدين ... فكلما تحدث عنهم تخلى عنه خلقه الرضى بطبيعته »[٩٧] .

ومن هنا ساند دى هولباخ « دائرة المعارف » أكبر مساندة وأسهم فيها بماله ومقالاته . وطمأن ديدرو وشجعه حتى حين تخلى دالمبر وفولتير عن المشروع ، وكانت مقالاته فى معظمها عن العلوم الطبيعية ، فأنه من الجائز أن البارون كان فى هـــذا الحقل أوسع الفلاسفة أطلاعا . وكتب جريم فى ١٧٨٩ . « لم التق قط برجل أكثر منه علما وأطلاعا ، ولم أرقط رجل أقل منه أهتماما بالتظاهر بالعلم فى أعين الناس » .[٩٨] وترجم عن الإلمانية كثيراً من الرسائل العلمية بمساعدة نيجيون ، ومن أجل هذا عين عضواً فى أكاديميتى برلين وبطرسبرج ، ولم يحاول قط أن يلتحق بالأكاديمية الفرنسية .

وأفتتن دى هولباخ بالعلم وتوقع من ورائه نهوضا سريعاً بحياة الإنسان، ومن ثم فإن البارون نظر نظرة عدائية بالغة العداء إلى الكنيسة التى بدا أن سيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية ، فانتهز كل فرصة لمهاجمة رجال الدين فكتب مقالتى « آباء الكنيسة » و « الحكومة الدينية » لدائرة المعارف . فمنذ ١٧٦٦ فصاعدا نظم مع نيجبون مصنعا حقيقيا لاخراج الأدب المعادى للكنيسة . ثم ظهر فى تعاقب سريع « قائمة القديسين » ، « والوقفة المقدسة » و« آباء الكنيسة بغير قناع » و « القساوة الدينية وتحطيم الجحيم » وهنا جاء البشير بأنباء سارة — القضاء على الجحيم .

وفى ١٧٦١ صدر عن هذا الذى أطلق عليه بعضهم معمل الألحاد كتاب عنوانه « المسيحية فى خطر » كتبه أساساً دى هولباخ ، ولكنه نسب فى صحيفة العنوان إلى بولانجيه الراحل . وبسبب بيع هذا الكتاب أتهم ووصم بالعار أحد الباعة الجائلين وعوقب بالتجديف فى السفن الشراعية لمدة خمس سنين . ولقى مثل هذا الجزاء لمدة تسع سنين غلام إشترى هذا الكتاب ليبيعه ثانية .(٩٩) وكان الكتاب هجوما مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة كما أنه إستبق حقاً وصف ماركس للديانة بأنها « أفيون الشعوب » .

« إن الديانة هى فن تخدير الناس بالحماسة (وفى القرن الثامن عشر كانت هذه اللفظة تعنى الغيرة الدينية) لتحول بينهم وبين مناهضة المساوىء والمظالم التى يعانونها من حكامهم . ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من أخطاء وخمول الذهن والنفس . وهى ما غرقت فيه الأمم بفعل الخرافة . . . وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضا على الناس أن يعانوا ويحتملوا فى صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية ، وفرض عليهم أن يأملوا فى السعادة فى الحياة الآخرة إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين فى هذه الحياة الدنيا»(١٠٠) .

ورأى دى هولباخ فى إتحاد الكنيسة والدولة السيئة الجوهرية أو الشر الأساسى فى فرنسا . « أنى بوصفى مواطنا أهاجم الديانة لأنها تبدولى ضارة

بسعادة الدولة معادية للعقل البشرى ومناقضة للفضيلة الحقة أو الخلق القويم »[١٠١] .

« إن المسيحى يلقن ، بدلا من الفضيلة والأخلاق القويمة ، الخرافات الخارقة القائمة على المعجزات والمبادىء والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تتنافى تماما مع العقل السليم . إن هذا المسيحى منذ أول لحظة فى دراسته يتعلم إلا يثق فيما تشهد به حواسه وإن يخضع عقله . . . . . ويعتمد إعتمادا أعمى على ما يقرره أستاذه . إن أولئك الذين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لأحول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التى رضعوها مع ألبان إمهاتهم »[١٠٢] .

ودفع دى هولباخ بأن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات الدينية عمل فيه مجازفة ومخاطرة ، لأن هذه المعتقدات عرضة للتغيير وقد يدمر إنهيارها القانون الأخلاقى القائم على أساسها أو المتفق معها .

« إن كل من يكتشف ضعف أوزيف البينات التى قامت عليها ديانته ... لأبد يميل إلى الأعتقاد بأن الفضيلة والأخلاق وهمية مثل الدين الذى قامت عليه . وهذا يوضح كيف أن لفظتى « كافر وخليع » أصبحتا مترادفتين ، ولن يكون ثمة ضرر من تعليم أخلاق طبيعية بدلا من أخلاق لا هوتية ، وبدلا من تحريم الزنى والجرائم والرذائل لأن الله والدين حرماها ، يجد ربنا القول بأن كل إفراط يؤذى الإنسان ويحول دون صيانته والأبقاء عليه ويجعله جديرا بالأزدراء فى أعين المجتمع . . . وهو كذلك إفراط يحرمه العقل وتحرمه الطبيعة التى تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمه[١٠٣] .

وأنه لمن العسير أن نفهم كيف أن رجلا نعم بمثل هذا الثراء يجد فسحة من الوقت ليؤلف مثل هذا العدد الكبير من الكتب أو يحث على تأليفها . وفى ١٧٦٧ أخرج « اللاهوت السهل الحمل Theologie portative سخر فيه سخرية بالغة من المبادىء المخيفه ، وأجمل كل اللاهوت فى رغبة الكنيسة فى التسلط والسيطرة . وفى ١٧٦٨ نشر « العدوى المقدسة أو التاريخ

الطبيعى للخرافة » متظاهرا بترجمته عن « جان ترنشارد الانجليزى » . وفى نفس العام أصدر « رسائل إلى أوجينى » أو الضيانة ضد الآراء المسبقة (دون تمحيص) والمزعوم أنه بقلم فيلسوف ابيقورى فى سكو Sceaux . وفى ١٧٦٩ صدر « بحث فى الآراء المسبقة » من تأليف مسيو دى مارسى Marsais يوضح أن العلاج الوحيد لمساوىء الدين هو نشر التعليم والفلسفة . وفى ١٧٧٠ نشر البارون النشيط تحفته الرائعة ، وهو أقوى كتاب قد صدر فى الحملة ضد المسيحية .

٢ — منهج الطبيعة :

كان المزعوم أن كتاب منهج الطبيعة أو قانون العالم المادى والعالم المعنوى طبع فى لندن . ولكنه طبع فى الواقع فى أمستردام فى مجلدين كبيرين يحمل أسم مسيوميرابو Mirabaud وكأنه المؤلف . وهـذا الرجل الذى كان قد فارق الحياة منذ عشر سنوات كان سكرتير الأكاديمية الفرنسية . وجاء فى المقدمة عرض لتاريخ حياته ومؤلفاته ولم يصدق أحد أن الرجل الطيب المثالى ميرابود ألف مثل هذا الكتاب المخزى .

وفى ١٧٧٠ بعد أن قررت جمعية رجال الدين التى تجتمع كل أربع سنوات منحة مالية للملك وأهابت به أن يمنع تداول المؤلفات المعادية للمسيحية ، والتى إنتشرت كثيراً فى فرنسا . فأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام أن يتخذ الأجراءات فورا . وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتابا دى هولباخ « فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة » ، باعتبارها بعيدة عن التقوى ، مليئة بالتخريف ، محرضة على الفتنة ، نزاعة إلى القضاء على كل فكرة عن الالوهية ، وإلى اثارة الشعب للتمرد على ديانته وحكومته ، والقضاء على كل مبادىء الأمن العام والأخلاق . وصرف الناس عن واجب الطاعة والأذعان لمليكهم . وكان ينبغى أحراق الكتب وأعتقال مولفيها وعقابهم عقاباً صارما . ويقول موريليه أن كثيراً

من الناس عرفوا أن دى هولباخ هو المؤلف وأنهم كتموا السر لمدة عشرين عاما . وظلت الندوة تعقد الاجتماعات . ودعت مدام دى هولباخ إلى بعضها كانون برجييه الذى كان لتوه قد تلقى معاشا من رجال الكنيسة لمقالاته الرائعة التى كتبها دفاعا عن الكنيسة الكاثوليكية . وارتاب كثير من الناس فى أن ديدرو كتب بعض أجزاء من الكتاب ولكنه فى جملته كان حسن الترتيب وحسن الأسلوب مما يستبعد أن يكون بقلم ديدرو ، ولكنه ربما أسهم فيه بالمناجاة المتألقة البليغه للطبيعة فى آخر الكتاب . وعلى أية حال لم يشعر ديدرو بالأمن والطمائنينه فى باريس ورأى من الحكمة أن يزور لا نجرز .

ووصل كتاب « منهج الطبيعة » مهربا من هولنده ، وتهافت على شرائه جمهور كبير يشمل كما روى فولتير العلماء والباحثين والجهال والسيدات(١٠٤) . وسر به ديدرو فقال « إن ما أحب هو فلسفة وأضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة فى كتاب منهج الطبيعة ، والمؤلف ليس ملحداً فى أى من الصفحات ، وهو ربوبى فى بعضها . وفلسفته تجرى على نسق وأحد ».(١٠٥) وهذا يختلف عن ديدرو كل الأختلاف . أن ما أحبه فى الحقيقة هو أن دى هولباخ كان ملحداً فى كل صفحات الكتاب . ومع ذلك فإن الكتاب كان مشربا بروح تقارب التفانى الشديد أو الأخلاص الدينى فى سعادة المبشر . أن دى هولباخ رأى عالما يسوده البؤس والشقاء . حيث يحكمه الملوك والقساوسة ومن ثم خلص إلى أن الناس سيكونون أسعد حالا لوأنهم ولوا ظهورهم لرجال الدين والملوك واتبعوا رجال العلم والفلاسفه . وإن العبارات الأولى فى الكتاب لتنبىء عن روحه وفكرته الرئيسية :

« إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة . إن إصراره على التمسك بالآراء الخاطئة العمياء التى تلقنها فى طفولته . . . وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ضللا عقله وأفسد اذهنه . . يبدو أنهما قضيا عليه بالاستمرار على الخطأ . . . أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسئوليتهم ،

ثقة منه بهم ، وهم أنفسهم مخطئون ، أو أن لهم مصلحة فى تضليله وخداعه . ولازالة هذه الغشاوة وأخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب يداً حانية وحباً شديداً . . . كما يقتضى أعظم الشجاعه التى لا يعتريها خوف ولا وجل وتصميا أكيداً لا يكل ولا يمل . . . . ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التى نقضى بها على الأوهام التى تضللنا وتخدعنا . وينبغى أن نفتش عن العلاج لهـــذه المساوىء فى الطبيعة نفسها . ففى وفرة مواردها وحدها يمكن أن نتوقع فى تعقل وجود الترياق الشافى من كل الشرور التى جلبتها علينا حماستنا الطاغية الموجهة أسوأ توجيه . لقد حان الوقت للبحث عن هذا العلاج ومواجهة هذه المساوىء فى شجاعة وفحص أسسها وتدقيق النظر فى مقوماتها . أن العقل بخبرته الهادية المخلصة ينبغى أن يقتلع من الجذور هذه الأهواء التى كان الجنس البشرى هـــو الفريسة الوحيدة لها لأمد طويل . ولنحاول أن نغرس فى الإنسان الشجاعة واحترام عقله مع حب لا يفتر للحقيقة ، بهدف أن يلتمس المشورة والرأى من خبرته ، فلا يعود العوبة لخيال توجهه السلطات توجيها مضللا . ويتعلم أن يبنى أخلاقياته على الطبيعة وعلى حاجياته وعلى المنفعة الحقيقية للمجتمع . ويتجرأ على أن يحب ذاته ، ويصبح كائنا فاضلا عقلانيا . وفى هذه الحالة لأبد أن يكون سعيداً(١٠٦) .

وبعد أن أنتهى دى هولباخ من بيان برنامجه على هذا النحو تقدم فى ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والأعتبارات والأفكار الخارقه للطبيعة . ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقييد وأمكانات ، وليختزل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة ، ويبنى على هذا الأساس المادى منهجاً للفضيلة والأخلاق يامل أن يكون فى مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين ، ويشكل الخلق الفردى والنظام الاجتماعى ويضفى سعادة معقوله على حياة مقرر لها الموت المحتوم .

إنه يبدأ ويختتم بالطبيعة ، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسيدها .

إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذى ينتج من اجتماع المادة فى مجموعاتها المختلفة . وهذا هو الأسم المحبب لدى دى هولباخ للكون ، فهو يعرف المادة فى حرص وحذر بأنها بصفة عامة ، كل ما يؤثر على حواسنا بأى شكل كان «كل شيء فى الكون فى حركة دائبة . وجوهر المادة هو أن تعمل ، وإذا تأملناها فى يقظه تامة لاكتشفنا أنه ليس ثمة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق ، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو اللحظة واحدة على نفس الحالة ، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتناقص وتتفرق باستمرار . . . إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء(١٠٧)» .

إن هذا الكل لايقدم لمجال تأملنا وتفكيرنا « الا مجرد تعاقب ضخم متصل غير متقطع لأسباب ونتائج »(١٠٨) . وكلما إزدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها . وقد يكون من العسير أن ندرك كيف « أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة » ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفى خارج عن الكون المادى . ومن العسير معرفة كيف يمكن أن تحس المادة أو تشعر ولكن سائر خواص المادة مثل « الجاذبيه والمغناطيسية والمرونه والكهربية ، ليست ، أقل صعوبة فى إدراكها وفهمها من الشعور أو الأحساس »(١٠٩) .

والإنسان كذلك « كائن مادى صرف خاضع لنفس القوانين التى تحكم سائر العالم . وكيف يتسنى لجسم مادى وذهن غير مادى أن يتفاعل كل منهما مع الآخر ؟ أن « الروح » هى مجرد تنظيم الجسم ونشاطه ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل . أن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعانى بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التى تتهشم إلى ألف قطعة تستمر فى دقاتها ساعة بعد ساعة ! . . . وتبين مرور الوقت(١١٠) . إن مفهوم الذهن والجسم على أنهما وجودان غير ماديين عوق معالجتنا للأمراض

العقلية . وإذا اعتبرنا الذهن وظيفة من وظائف الجسم فاننا بذلك يمكن علم الطب من شفاء كثير من الأضطرابات العقلية بالقضاء عـلى أسبابها الجثمانية(١١١)(*) .

ومن حيث أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فأنه أى الذهن خاضع للقاعدة الكونية ، قاعدة الأسباب والنتائج الطبيعية . والفصل الحادى عشر من كتاب « منهج الطبيعة » أفصح وأبلغ دفاع عن مذهب الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر) فى مجال الفلسفة الفرنسية بأسرها .

« إن حياة الإنسان خط قضت عليه الطبيعة برسمه على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدره على الأنحراف عنه قيد أنملة . أنه ولد دون رضاه . أن كيانه أو تنظيمة لايتوقف البتة على نفسة . إن الأفكار التى تخالجه تأتى قسراً لا طوعا ، وعاداته واقفه تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلى عنها . ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعلل مرئية أوخفية ليس له سلطان عليها ولاتحكم فيها . وهى بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصبغ تفكيره بصبغة معينة ، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله ، فهو طيب أو ردىء ، سعيد أو تعس ، عاقل أو أحمق ، متعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل فى أى من هذه الحالات المختلفة(١١٣) .

ويبدو أن هذه الحتمية تنطوى على الجبرية وعلى النقيض من معظم الفلاسفة يرتضى دى هولباخ هذا التضمين . . . إن حالة الكون فى أية لحظة تحددها حالته فى اللحظة السابقة ، وهذه حددتها سابقتها ، وهكذا دواليك فى الماضى ،

(*) يقول جون مورلى « إنها لحقيقة تاريخية أكيدة أن العلاج العقلانى للمجانين والنظريه العقلانية لنوع معين من الاجرام ترجعان إلى رجال مثل بينل Pinel الذى درج على تعاليم مدرسة المذهب المادى فى القرن الثامن عشر . وكان من المتعذر بشكل واضح أن تتم الأصلاحات العظيمة الانسانية فى هذا المجال قبل إضمحلال اللاهوت بشكل حاسم(١١٢) .

ومن ثم فإن أية لحظة فى تاريخ الكون تعتبر محددة لأية لحظة فى المستقبل . أنى شئت أن الأخضاع الواضح للإنسان المتميز بكل العبقرية أو القديس بأى مفهوم أو بكل التضرع والصلوات — لغاز بدائى ، لا يفت فى عضد دى هولباخ فأنه يتقبل مصيره فى كبرياء ابيقورية :

« إن الإنسان من عمل الطبيعة ، وهـــو يوجد فى الطبيعة ، خاضع لقوانينها ، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين ، ولا يمكنه أن يخطو فيما وراءها خطوة واحدة حتى فى فكره . ولذلك فأنه بدلا من البحث خارج العالم . . . عن كائنات توفر له السعاده التى تنكرها عليه الطبيعة يجمل به أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها ويتأمل فى قواها ويراعى القواعد الثابته التى تعمل بمقتضاها . فليطبق الإنسان كل ما يصل إليه على هناءته هو ويخضع فى صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التى ليس فى مقدور أحد تبديلها أو تغييرها ، ويرتضى مبتهجا أن يتجاهل الأسباب والعلل التى يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن أختراقه ، ويستسلم دون تذمر لقوانين الضرورة الكونية التى يستحيل عليه ادراكها إطلاقا . ولا تحرره أبدا من تلك القوانين التى فرضت عليه بحكم ما هيته أو جوهره[١١٤] .

وهل تبرر لنا هذه « الجبرية (أى الايمان بالقضاء والقدر) أن نخلص إلى أنه لافائدة ترجى من وراء محاولتنا تفادى الشرور أو السيئات والأعمال المخزية أو المرض ، وأن نكف عن بذل أية جهود ، أو عن الطموح أو التطلع ، وأن ندع الأمور تجرى فى أعنتها ؟ ويجيب دى هولباخ بأنه حتى هنا ليس لنا الخيرة من أمرنا ، فان الوراثة والبيئة هما اللتان قررتا بالفعل أن نستسلم للدعة وعدم المبالاة ، أو أن نستجيب فى جد ونشاط لمتطلبات الحياة وتحدياتها ، ويسبق دى هولباخ إلى الاعتراض على أن هذه الجبرية — وهى تبدو كأنها تتغاضى عن الجريمة وتغتفرها — قد تزيد منها . أن الجبرية لاتوحى بعدم معاقبة الجريمة بل إنها على النقيض من ذلك ستؤدى بالشرع والمعلم والرأى العام أن يصنعوا بمقتضى القوانين أو الأخلاق عوائق

أفضل فى سبيل إرتكاب الجرائم ، ويوفروا الدوافع والمغريات بالسلوك الاجتماعى القويم ، وهذه العوائق والدوافع والمغريات ستنضم إلى العوامل البيئية التى تشكل سلوك الإنسان . ولكن الجبرية لاتسوغ لنا إعتبار الجرائم وكل السلوك غير الاجتماعى اختلال توازن عقلياً يرجع إلى الوراثة والبيئة والظروف . ولذلك يجدر بنا أن نعالج مثل هذا السلوك كما نعالج المرض ، وأن نتخلى عن التعذيب والعقوبات البالغة الصرامة لأنها تزيد الهوة بين الفرد والمجتمع . وتعود الناس على العنف والقسوة . أكثر مما تصرفهم عن إرتكاب الجرائم .

وليس فى هذه الفلسفة بطبيعة الحال مكان للاله . إن مفث دى هولباخ الشديد لمذهب التوحيد (الايمان بالله الواحد) وحده . بل لمذهب الربوبية ومذهب وحدة الوجود كذلك دعا معاصريه إلى أن يطلقوا عليه « العدو الشخصى لله سبحانه وتعالى[١١٥] . وإذا عدنا إلى الوراء إلى البداية فإننا نجد دائما إن الجهل والخوف خلقا الآلهة وزينهم الخيال أوالحماسة أو الخداع أوشوهوهم وعبدهم الضعف ، وأبقت عليهم السذاجة أحياء ، وأجلهم واحترمهم العرف والعادة . وناصرهم الطغيان . . . . ليخدم أغراضه[١١٦] ويثير ضدهم كل الحجج القديمة . ويتحمس بعنف كما فعل هلفشيوس ضد مفهوم الأسفار المقدسة عن الإله[١١٧] ولا يوحى إليه النظام والتناسق الرائعان للكون بأى « عقل أسمى » فان هذا النظام وهذا التناسق يرجعان إلى أسباب طبيعية تعمل بطريقة ميكانيكية . ولا يتطلب الأمر أن نعزوها إلى أى إله يمكن أن يكون هو أدق على الفهم والتوضيح أكثر من العالم . والنظام والاختلال مثل الخير والشر والجمال والقبح كلها مفاهيم ذاتية (غير موضوعية) مستمدة من اللذة أو الألم الذى توفره لنا مدركاتنا الحسية . ولكن الإنسان ليس « مقياس كل شيء » وليس إشباع رغباته أو رضاؤه معياراً موضوعياً يمكن تطبيقه على الكون . إن الطبيعة تسير قدما دون إعتبار لما نراه نحن من أصغر نقطة فى الفضاء حسنا أو سيئا ، قبيحا أو جميلا . ومن وجهة نظر الكل

« ليس هناك مايمكن أن يكون سيئا حقا ، فان الحشرة تأوى إلى ملجأ آمن فى أطلال القصر الذى يسحق الناس عند سقوطه »(١١٨) وينبغى أن نتعلم أن نعتبر الطبيعة فى سموها وكوارثها محـــايـــدة بقدر سواء حياداً يتسم برباط الجأش :

« إن كل ماقيل فى سياق هذا الكتاب يثبت بوضوح أن كل شىء قريب متناسب مع الطبيعة ، حيث لاتعمل فيها كل الكائنات إلا أن تتبع القوانين التى فرضت عليها كل حسب درجته أو طبيعته . إن الطبيعة توزع بنفس اليد ما يسمى نظاما وما يسمى اختلالا ، وما يسمى لذة وما يسمى ألما ، وقصارى القول أنها بمقتضى ضرورة وجودها تنشر الخير والشر . . ولذلك يجدر بالإنسان ألا يمتدح سخاءها أو يصب عليها جام غضبه وحقده ، أو يتصور أن صخبه وضجيجه أو تضرعاته وابتهالاته يمكن أن تغنى عنه من شىء أو تكبح جماح قوة الطبيعة الهائلة أو سلطانها العظيم وهى تعمل دوما وفق قوانين ثابتة . . . فاذا عانى الإنسان شيئا فلا يجوز له أن يلتمس علاجا فى الأوهام التى يصدرها له خياله المستقيم ، بل يستمد من مخازن الطبيعة العلاجات التى تقدمها للشرور والمساوىء التى تبتليه بها ، ويفتش بين أحضانها عن المنتجات التى أنتجتها الطبيعة نفسها(١١٩) .

ويقترب هولباخ من تقديم الإلة ثانية فى شكل « الطبيعة » ، وبعد أن يأخذ على نفسه ألا يشخصها أو يجسدها نراه يميل إلى تأليهها ، ويتحدث عن قدرتها وإرادتها وخطتها وسخائها ، ويرى فيها أفضل هاد ومرشد للانسان ، ويجيز لديدرو (؟) أن يكتب لها مناجاة عزيزة وكأنها الفقرة الختامية لكتاب ضخم « أيتها الطبيعة ، ياسيدة كل الكائنات ! ! إن بناتك الفاتنات الجديرت بالتوقير والعبادة — الفضيلة والعقل والحقيقة — يبقين إلى الأبد معبوداتنا الوحيدات . إن إليك تتجه كل تسابيح الجنس البشرى وينصب عليك ثناؤه ، وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله ، وهكذا . ومثل هذه التقوى الموسومة بمذهب وحدة الوجود (القائل بأن الله والطبيعة شىء واحد وأن

الكون المادى والانسان ليسا إلا مظاهر الذات الإلهية) . هذه التقوى لاتكاد تتسق مع نظرة دى هولباخ إلى الطبيعة على أنها تنزل الخير والشر دون تحيز ، « إن الرياح والعواصف والزوابع والبراكين والحروب والطاعون والمرض والموت كلها ضرورية لمسيرتها الأبدية (وليس فى كل مكان) مثل حرارة الشمس الصحية المفيدة(١٢٠) وهذا يذكرنا بإله كالفن الضنين بالجنة المسرف فى عذاب النار » .

إن دى هولباخ فى حالته النفسية المميزة ينكر لامجرد فكرة الله . بل نفس لفظته إن لفظتى الإله وبخلق ... ينبغى أن تختفيا من لغة أولئك الذين يريدون التحدث بلغة مفهومة . إن هاتين لفظتان مجردتان ابتدعهما الجهل . إنهما متعبدتان لإرضاء من تعوزهم الخبرة ، الخاملين والجبناء إلى الحد الذى لا يدرسون معه الطبيعة وأساليبها (١٢١) . وأنه ليرفض الربوبية التى تنسجم مع الخرافة(١٢٢) وتصنع من الالحاد ديناً حقيقياً .

« إن صديق الجنس البشرى لايمكن أن يكون صديقاً للإله الذى كان فى كل الأوقات سوطاً مصلتا على الأرض . إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المضللة التى تجعل الدنيا مقراً الخداع . إن من يقدس الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل . إنه يعلم أن سعاده الجنس البشرى تقتضى بشكل لارجعة فيه ، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه . لكى يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائما للسلام — هيكلا مقدسا للفضيلة . . . فاذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة فى الكائنات التى اعتادت أن ترتعد فرائصها جبنا . فان له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة . وعلى الرغم من ذلك فانة يحكم على جهوده بأنها عقيمة إذا إستطاع أن يجعل إنسانا واحداً سعيداً أو يهدىء من إضطرابات ذهن مستقيم واحد ، وأقل ما يقال أنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من إرهاب الخرافة المزعج . . . ومن أنه وطىء تحت قدميه الأوهام التى تقض مضاجع المنكودى الحظ وتعذبهم . وإذ نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع

أن يتأمل فى هدوء من قمة صخرته فى تلك الأعاصير المروعة التى أثارتها الخرافة . ويمد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها[١٢٣].

٣ — الأخلاق والدولة :

ولكن هل ينسجم الالحاد مع الأخلاق الشعبية العامة ؟ وهل يمكن ضبط الدوافع القوية الأنانية لدى عامة الناس بقانون أخلاقى مجرد من الإخلاص للدين ومن تأييده ؟ أن دى هولباخ واجه هذه المشكلة فى كتابه « منهج الطبيعة » ثم عاد إليها فى ١٧٧٦ فى كتاب ذى ثلاثة مجلدات « الأخلاق العــامة » وأنه يرتاب بادىء ذى بدء فى أن الديانة سعت إلى الفضيلة والأخلاق القويمة .

« على الرغم من الجحيم المروعة البغيضة حتى فى مجرد وصفها ، فأى حشد من المجرمين المتهتكين يملأ مدننا . . . وهل اللصوص أو القتلة المعاقبون ملحدون أو متشككون ؟ إن هؤلاء البائسين يؤمنون بالله . وهل يتحدث أكثر الآباء تمسكا بالدين وهو ينصح إبنه عن إله محب للانتقام ؟ إن انهيار صحته من أثر الزنى وضياع ثروته فى الميسر ، وازدراء المجتمع له — هى الدوافع التى دعت الولد إلى النصح[١٢٤].

وحتى مع إفتراض أن الدين فى بعض الأحيان يساعد الأخلاق ، فهل يتوازن هذا مع الضرر الذى يلحقه الدين بالانسان ؟

فى مقابل إنسان جبان واحد تكبح فكرة الجحيم جماحه هناك آلاف من الناس لاتؤثر فيهم هذه الفكرة مطلقا . وهناك ملايين منهم تجعلهم هذه الفكرة غير عقلانيين ، يعوزهم التفكير السليم . وتحولهم إلى أدوات إضطهاد وتعذيب وحشيين . وتحولهم إلى خبثاء أشرار . . . متعصبين . كما أن هناك ملايين تفسد عقولهم وتصرفهم عن واجبهم نحو المجتمع[١٢٥] .

وتأمل فى النفاق الذى يفرضة الضغط الاجتماعى للدين على المتشككين .

أولئك الذين يريدون أن يكونوا فكرة عن القيود التى فرضها اللاهوت على عقول وتفكير الفلاسفة الذين ولدوا فى ظل « الديانة المسيحية » فليقرأوا الرومانسيات (القصص الخيالية) الميتافيزيقية التى كتبها ليبنتز وديكارت ومالبرانش وكدورث وغيرهم ويفحصوا فى هدوء النظم والترتيبات البارعة ولكن الحماسية المسماة « التناسق المقرر مقدما للأسباب العرضية[١٢٦] .

وفوق ذلك فان المسيحية بتركيزها فكر الانسان على الخلاص الفردى فى الدار الآخرة ، أماتت الشعور الانسانى والاجتماعى فى مثل هذا الفرد . وتركت الناس غير شاعرين ببؤس رفاقهم ،وبالجور والاجحاف اللذين يتعرضون لهما من قبل الجماعات والحكومات الظالمة .

ويرفض دى هولباخ الفكرة المسيحية الفولتيرية التى تقول بأن الانسان يولد ولديه حاسة الصواب والخطأ . إن الضمير ليس صوت الله بل صوت رجل الشرطة . إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر والتأنيبات تلقاها الفرد منذ نشأته « ويمكن تعريف الضمير بأنه معرفتنا بآثار أفعالنا على رفاقنا ثم إنعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا[١٢٧] . ويمكن أن يكون هذا الضمير موجها أو مرشداً زائفا . فاربما تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم منحرف أو خبرة أسىء فهمها ، أو تفكير خاطىء ، أو رأى عام فاسد . وليس ثمة رذيلة أو جريمة لايمكن إظهارها فى ثوب الفضيلة عن طريق التعليم أو القدوة السيئة ومن ثم فان الزنى مهما يكن من أمر تحريم الدين له عمل يبعث على الفخر . والتملق الذليل مستساغ فى البلاط واغتصاب النساء والسلب والنهب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال . « أنا لنرى رجالا أغنياء لايعانون من وخز الضمير لما جمعوا من ثروة على حساب مواطنيهم » و « وطنيين متحمسين متعصبين لوطنهم أعمت ضمائرهم الأفكار الزائفة الباطلة فأغرتهم بابادة من يخالفونهم فى الرأى دون شعور بالندم أو تأنيب الضمير » وخير مانأمل فيه هو ضمير تشكل عن طريق تعليم

أفضل، واكتساب عادة التطلع إلى آثار أفعالنا على غيرنا وعلى أنفسنا . وعن طريق رأى عام أسلم وأصح يتردد أى فرد عاقل فى الاساءة إليه[١٢٨] .

ويتفق دى هولباخ مع المسيحية فى أن الإنسان بطبيعته نزاع إلى « الاثم » أى إلى السلوك الضار بالجماعة . ولكنه يرفض فكرة أن هذه الطبيعة النزاعه للاثم « موروثة عن خطيئة آبائنا الأولين . باعتبارها فكرة سخيفة . ويقبل الأنانية باعتبارها جوهرية فى سلوك البشر . ويرى مثل هلفشيوس أن يبنى عليها قانونه الأخلاقى ، بأن يجعل السلوك الاجتماعى مفيداً للفرد .

« فالأخلاق تصبح علماً عقيماً إذا لم تثبت للانسان بما لايقبل الجدل أن مصلحته تكمن فى تمسكه بالفضيلة[١٢٩] ويمكن أن يتحقق لنا شىء من تعليم يوضح اعتماد مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة . ويمكن بث درجة معقولة من الغيرية — حب الغير » باستثارة الرغبة الطبيعية فى كسب الاستحسان الاجتماعى العام والتفوق والامتياز والمكافآت . وهكذا يصوغ دى هولباخ علم الأخلاق عنده قانوناً للطبيعة : « عش لنفسك ولرفيقك فانى (أى الطبيعة) أقر ملذاتك مادامت لاتؤذيك ولا تؤذى الآخرين الذين جعلتهم ضروريين من أجل سعادتك . . وكن عادلا لأن العدل يعزز الجنس البشرى ويدعمه . . وكن طيباً لأن طيبتك ستجذب كل قلب إليك ، وكن متسامحاً حيث أنك تعيش بين كائنات ضعيفة مثلك . وكن متواضعاً لأن كبرياءك تجرح حب الذات عند كل من حولك . واعف عن الإساءة والأذى وأحسن إلى من أساء إليك . . حتى تكسب صداقته . وكن معتدلا مقتصدا فى شهواتك عفيفا فإن الانغماس فى الشهوات والاسراف والافراط سرف يدمرك ويقضى عليك ويجعلك مدعاة للاحتقار[١٣٠] .

إن الحكومة إذا أولت عناية أكبر وأكثر جدية لصحة الشعب وحمايته وتعليمه فقد تخف معدلات الجريمة إلى حد كبير[١٣١] . وإذا كان الإنسان يخسر كثيراً فى عدم الالتزام بالسلوك الاجتماعى السليم فإنه لن يكون على

استعداد للمغامرة بمثل هذه الخسارة فى مثل هذا السبيل . وإذا تدرب التلاميذ على التأمل والتعقل بدلا من غرس الخوف فيهم وإرهابهم بالمعتقدات غير العقلانية التى سرعان ما تفقد قوتها ، فإن أخلاق الرجال لابد أن تتحسس بتزايد قدرتهم على تطبيق خبرتهم على أفعالهم وتصرفاتهم حيث يتنبأون على ضوء الماضى بما سيكون فى المستقبل لأعمالهم الراهنة من نتائج .

وعلى المدى الطويل يكون العقل والذكاء أسمى فضيلة ، ومثل هذه الفضيلة هى السبيل الأمثل للسعادة .

وفى « منهج الطبيعة » و« المنهج الاجتماعى » (٣ مجلدات ، ١٧٧٢) ، و« السياسة الطبيعية » (١٧٧٢ ، مجلدان) و« روح الشعب » (١٧٧٦) عالج المليونير الذى لا يكل ولا يمل مشاكل المجتمع والحكومة . وفى هذه الكتب تنتقل الهجمات من الكنيسة إلى الدولة . ويتفق دى هولباخ مع لوك وماركس فى أن العمل هو مصدر الثروة ولكنه مثل لوك يبرر الملكية الخاصة على أنها حق للإنسان نتاجاً لعمله وحده . إنه نبيل وقد يتخلص من الارستقراطية الوراثية .

قد يدعى نفر من الناس حقاً فى الثروة ومراتب الشرف فحسب . ولو أن حق المولد واللقب لابد بالضرورة أن يوهن عزيمة الطبقات الأخرى من المواطنين أو يثبط همهم . إن الذين لا يملكون إلا عراقة الحسب والنسب أو كرم المحتد ليس لهم الحق فى الثراء والشرف . . . ولا يمكن أن نعتبر النبالة الوراثية إلا مجرد سوء استعمال أو تعسف مصطنع لا يصلح إلا ليدارى خمول ... وعجز طبقة بعينها على حساب الأضرار بالمجموع ... [١٣٢] وهل أعمال النبلاء القدامى والوثائق القديمة المحفوظة فى قصور العصور الوسطى تعطى لورثتها الحق فى تولى أرفع المناصب فى الكنيسة والدولة وفى دور القضاء أو فى الجيش دون اعتبار لما ينبغى أن يتحلى به هؤلاء الورثة من قدرات ومواهب لازمة لحسن القيام بهذه المهام [١٣٣] ؟

أما بالنسبة لرجال الدين فلنتركهم يدبرون أمورهم بأنفسهم ، ويجدر أن تنفصل الكنيسة والدولة كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال . ويجب أن تعامل الجماعات الدينية على أنها هيئات متطوعة تتمتع بالتسامح ولكن لاتحظى بأى دعم أوتأييد من الدولة . وينبغى على كل حكومة ملتزمة جانب الحكمة والعقل أن تسد الطريق أمام أية ديانة أومذهب للجوء إلى التعصب أو الاضطهاد (١٣٤) .

ودى هولباخ رجل دخل من الأرض وغير الأرض ، وهو ينتقد أصحاب الدخول الخاملين من أفراد الطبقة الوسطى . وبوصفه بارونا فإنه يحتقر رجال الأعمال . « ليس ثمة مخلوق حتى أشد خطراً من رجل الأعمال الذى يفتش عن فريسته (١٣٥). أن جشع التجارة يحل الآن محل طموح الأسرة سبباً للحروب : « إن الدول مستعدة لافناء بعضها بعضاً من أجل أكوام من الرجال . إن أمماً بأسرها أصبحت نسخاً طبق الأصل لرجال الأعمال الجشعين الذين يزينون لهم الأمل فى الثروة التى يجنون هم أنفسهم ثمارها ، ومن هنا يتناقص عدد سكان البلاد وتفرض عليهم أبهظ الضرائب ويعانون الفقر والعوز لإشباع فهم فئة قليلة . ويسدد طعنة عابرة إلى بريطانيا التى التهمت الهند وكندا . « هناك شعب يبدو أنه فى نشوة جشعة أعد مشروعاً متطرفا لاغتصاب تجارة العالم وتملك البحار — وهو مشروع جائر جنونى يؤدى تنفيذه إلى نوع من الخرافات يصيب الأمه التى تسير وراء هذا الخبل . . . وسيأتى اليوم الذى يقذف الهنود هولاء الأوربيين من شواطئهم حين يتعلمون منهم فن الحرب(١٣٦) .

ويميل دى هولباخ إلى الأخذ بسياسه الفيزيوقراطيين فى عدم التدخل (حرية التجارة والصناعة) . « لايجوز للحكومة أن تعمل للتاجر شيئا إلا أن تتركه وشأنه . وليس ثمة تعليمات أو تنظيمات يمكن أن توجهه فى مشروعات أفضل من مصلحته هو . . . وليس على الدوله إلا أن تحمى التجارة . إن الأمم التجارية التى تهيىء لرعاياها أكبر قدر من حرية التجارة لابد أن تثق

فى أنها ستفوق غيرها من الأمم سريعا[١٣٧].

ولكنه عندئذ كذلك ينصح الحكومات بالحيلولة دون تركيز خطير للثروة . ويقتبس عن طيب خاطر عبارة سانت جيروم الرشيقة اللاذعة « الرجل الغنى إما وغد أو وريث أحد الأوغاد[١٣٨]» . فى كل الأمم تقريبا لايملك ثلاثة أرباع الرعايا شيئا . . . وإذا استنزف نفر قليل من الناس الممتلكات والثروة فى الدولة ، لأصبحوا سادة هذه الدولة المتحكمين فيها . ويبدو أن الحكومات أهملت هذه الحقيقة الهامة إهمالا تاما[١٣٩]. . . وإذا توقفت إرادة الشعب أو القانون عن حفظ التوازن حتى بين مختلف أعضاء المجتمع ، فإن خمول بعض الناس مع الاستعانة بالقوه والخداع والاغراء ينجح (أى الخمول) فى الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين وعملهم[١٤٠].

وفى رأى دى هولباخ أن كل الملوك يتحالفون مع الأقلية البارعة الذكية لاستغلال أغلبية الشعب — ويبدو أنه كان يفكر فى لويس الخامس عشر . «إنا لانرى على وجه هذه البسيطة إلا ملوكا جائرين ظالمين ، أوهنهم البذخ والترف وأفسدهم الرياء والملق ، كما لوث الفجور والفسق أخلاقهم ، ودفعهم الدنس والرجس إلى الشر والخبث ، لايتحلون بأية مواهب أوقدرات أو بمكارم الأخلاق ، عاجزين عن بذل أى جهد لخير الدول التى يحكمونها . ومن ثم فانهم لايهتمون إلا قليلا بمصلحة شعوبهم ، مستهترون بواجباتهم التى غالبا ما يجهلونها فى الواقع . إنهم إنما تتملكهم الرغبة فى تحقيق أطماعهم التى لاحد لها ، ولذلك يشغلون أنفسهم بحروب عقيمة فيها فناء السكان ، ولا يشغلون أذهانهم أبداً بهؤلاء الرعايا ، وهم أهم شىء من أجل سعادة أمتهم[١٤١].

وواضح أن تفكير دى هولباخ إتجه إلى الحكومة الفرنسية ، فاندفع ينتقد بشدة تكليف رجال المال بمهمة جمع الضرائب ، أى تعيينهم ملتزمين عامين . ويهجوا هؤلاء الملتزمين : « إن الحاكم المستبد الطاغية يلجأ إلى

طائفة من المواطنين الذين يهيئون له وسائل تحقيق جشعه فى مقابل منحهم الحق فى إبتزاز أموال الآخرين دون عقاب . . . أنه بسبب غفلته وعماه لا يدرك أن الضرائب المفروضة على رعاياه تتضاعف وإن المبالغ التى تذهب إلى جيوب هـــؤلاء المبتزين وتزيد ثراءهم تضيع عليه هو نفسه ، وأن جمهور العامة الذليل الخاضع قد يرتشى فى غمار الحيرة ليشن حربا على الأمة . . . إن هؤلاء اللصوص (الملتزمون العامون) إذ تزداد ثرواتهم يثيرون حقد النبلاء وحسد مواطنيهم . . . وتصبح الثروة هى الدافع الوحيد . . . والظمأ إلى الذهب يتملك كل القلوب(١٤٢) .

إن الأرستقراطى الرخى البال يتحدث أحيانا كما يتحدث أشد الشبان القلقين المغمورين غضبا » ، هل ينبغى على الأمم أن تعمل دون كلل ولا ملل لأرضاء غرور حفنة عقيمة من مصاصى الدماء ، وتوفير أسباب البذخ والترف لهم وأشباع نهمهم(١٤٣) » ؟ . أنه فى هذه الحالة النفسية يردد صدى كلمات صديقه السابق روسو فى كتابة (العقد الاجتماعى) :

« أن الإنسان شرير لا لأنه ولد كذلك بل لأنهم صيروه شريرا . أن العظماء وذوى السيطرة والقوة يسحقون الفقراء المعوزين والبؤساء دون عقاب . إن هؤلاء يغامرون بحياتهم فى سبيل الثأر مما لحق بهم من أذى وشر . إنهم يهاجمون جهراً أو سرا البلد الذى هو بالنسبة لهم زوجة أب تعطى لبعض أبنائها كل شىء وتحرم الآخرين من أى شىء . . . والإنسان فى كل مكان تقريباً عبد رقيق . ويتبع هذا بالضرورة أن يكون حقيراً أنانياً مرائياً منافقاً بلا شرف ، وباختصار يتصف بكل رذائل الدولة التى هو فرد فيها . أن هذا الإنسان فى كل مكان مخدوع مضلل يشجع على الجهل ، محروم من استخدام عقله ، فلابد أن يكون بطبيعة الحال فى كل مكان غبيا غير متعقل شريرا ، وهو فى كل مكان يرى إمتداح الرذيلة والجريمة وتكريمها . ويستخلص من هذا أن الرذيلة حسنة ، وأن الفضيلة تضحية لأغناء فيها . . . وإذا كانت الحكومات مستنيرة مشغولة جديا بتربية الشعوب

وتعليمها ومصلحتها وإذا كانت القوانين عادلة ، فلن يكون من الضرورى التماس أحلام وأوهام مالية فى حياة أخرى يثبت دائما أنها ناقصة غير وافية أمام إنفعالات الإنسان الخانقة وحاجاته الحقيقية[١٤٤] .

وكيف يتسنى إيقاف هذا الاستغلال ؟ إن أول خطوة فى هذا السبيل هى الغاء الحكم الاستبدادى المطلق . « إن الحكم المطلق لأبد أن يفسد بالضرورة قلب من يتولاه وعقله[١٤٥] . . . ويجب دائما أن تخضع سلطة الملوك لممثلى الشعب ، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة ناخبيهم[١٤٦] » وهنا مناداة بدعوة مجلس الطبقات المشئوم ١٧٨٩ . « ومن حيث أن أية حكومة تستمد سلطتها من رضا المحكومين » فإن أى مجتمع يمكنه فى أى وقت أن يسحب هذه السلطات إذا لم تعد الحكومة تمثل الإرادة العامة[١٤٧] » . وهنا يتمثل صوت روسو والثورة .

ولكن الثورة ، بثمن غال أحيانا ، تهدم الماضى وتقضى عليه لكى تقيمه من جديد تحت شعار آخر وبصيغة أخرى : « لا يمكن شفاء جراح الأمة عن طريق الأضطرابات العنيفة والصراعات وقتل الملوك والجرائم العقيمة . إن هذه العلاجات العنيفة هى دائما أشد قسوة من المساوىء المقصود القضاء عليها أو التخلص منها . . أن صوت العقل ليس مثيرا للفتنة وليس متعطشا للدماء . ويمكن أن تكون الأصلاحات التى يهدف إليها متأنية ولكنها لذلك تتوخى خير تخطيط[١٤٨] .

إن الناس بعيدون عن الكمال وليس فى مقدورهم أن يصنعوا دولا بالغة حد الكمال . واليوتوبيا (المدينة الفاضلة) ضرب من الأوهام « تتعارض مع طبيعة الكائن « بآلته » الواهنة المعرضة للخلل وخياله المتوقد الذى لا يصغى دائما لهدى العقل . . . أن الوصول بالسياسة إلى مرتبة الكمال لن يكون إلا الثمرة البطيئة لخبرة قرون [١٤٩] . وليس التقدم خطا مستقيما بل هو خط طويل ونحن نحتاج إلى أجيال كثيرة من التعليم والخبرة لتبيان أسباب العلل أو الأمراض الاجتماعية ووسائل البرء منها . والديمقراطية مثل أعلى

وهى ممكنة فى الدول الصغيرة وحدها ، مع إزدياد وعى الشعب وعقله وذكائه . وقد لا يكون من الحكمة إقامة ديمقراطية فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر . وقد يستخدم هذا الملك الجديد الطيب ذو المقاصد الحسنة أناسا ذوى قدرات ومواهب عظيمة لأصلاح الدولة . وهكذا يرتضى دى هولباخ ، آخر الأمر ملكية دستورية ويهدى كتابة الأخير روح الشعب « إلى لويس » الملك العادل الإنسانى المحب للخير أبى الشعب وحامى الفقراء(١٥٠) وتعلق الفيلسوف العجوز بهذا الأمل المستميت .

٤ — دى هولباخ ونقاده :

إن « منهج الطبيعة » هو أشمل وأكمل وأصرح عرض للمادية والالحاد فى تاريخ الفلسفة بأسره . أن تردد فولتير وتناقضه ودقته التى لا نهاية لها ، وحماسة ديدرو الغامضة وكتاباته المتعارضة ، ورفض روسو المشوش المربك لما يكتبه جان جاك روسو نفسه ، كل أولئك حل محله هنا تماسك دقيق وإتساق شديد بين الأفكار ، وتعبير قوى فى أسلوب عميق أحيانا ، مشرق أحيانا ، فصيح غالبا ، ولكنه دائما أسلوب مباشر وأضح . ومع ذلك فقد أدرك أن سبعمائة صحيفة من هذا النوع قد لايستوعبها عامة القراء . وتلهف دى هولباخ على أن يقبل على قراءة الكتاب أكبر عدد من الناس ، ومن ثم فأنه شرح آراءه . ووجهات نظره مرة أخرى فى شكل أبسط فى حسن الأدراك ، أو « أفكار فى مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة» (١٧٧٢). وقلما تميز كاتب بمثل هذه المثابرة والجد فى نشر مثل هـــذه الآراء غير المألوفة التى يريد أن يقنع الناس بها .

وأنه لمما يدل على سعة إنتشار آراء دى هولباخ رد فعل « منهج الطبيعة » على فردريك الأكبر ، إن هذا الملك الذى كان يخطب ود الفلاسفة ، والذى مجدوه وأمتدحوه على أنه رأعيهم ومثلهم الأعلى ، أنقلب عليهم حين رأى أحد قادتهم يهاجم الملكية المطلقة والمسيحية بقدر سواء . لقد كان من

مصلحته أضعاف الوحدة الداخلية بين الدول الكاثوليكية نتيجة للحملة ضد الكنيسة ، ولكن أثار إستياءه وربما أثار مخاوفه أن يبلغ التمرد حداً يتجاسر معه الآن على تحقير الملوك والنيل من الأله . أن نفس القلم الذى دبج يوما ضد المكيافيللية ، يكتب الأن تفنيد منهج الطبيعة ، أن هذا الرجل دى هولباخ قد ركب متن الشطط : يقول فردريك « إذا تحدث إنسان إلى عامة الناس علانية فيجدر به أن يأخذ فى إعتباره رقـــة الآذان الخرافية ، ويجدر به إلا يصعق أحداً ، وينبغى عليه أن يتريث حتى تبلغ الأستنارة حدا يسمح له بالجهر بأفكاره(١٥١) .

ووأضح أنه بناء على إيحاء فردريك ، ولكن من الجائز أكثر من ذلك أنه نتيجة الخوف من أن تؤدى شدة تطرف دى هولباخ إلى انفضاض الناس من حبل الفلاسفة . اللهم إلا الملحدين والثوريين ، نجد فولتير وكأنما هو قائد جيش يؤنب ضابطا (ملازما أول) وقحا — خصص فى مقاله « عن الله » فى « قاموسه الفاسفى » عدة صفحات ينتقد فيها رائعة دى هولباخ ، فهو يقول فى بداية كلامة :

« أن المؤلف أفاد من أن الجميع يقبلون على قراءته : العلماء والجهلة والنساء على حد سواء . إن لا سلوبه مزايا نفتقدها عند سبينوزا . وهـــو فى الغالب وأضح وأحيانا فصيح ، على الرغم من أنه مثل الباقين قد يؤخذ عليه التكرار والأسلوب الخطابى والتناقض الذاتى . أما من حيث عمق التفكير فالغالب أنه لا يوثق به فى الفيزياء وفى الاخلاق كليهما . وهنا تكمن مصلحة الجنس البشرى ومن ثم يجدر أن نتبين هل نظريته صحيحة ومفيدة » .

ولا يوافق فولتير على أن النظام الذى ننسبه إلى الكون . والخلل الذى نظن أننا قد نجده فيه ، هما أفكار أو أهواء ذاتية . وحاول أن يبرهن على أن النظام بارز إلى ابعد الحدود وأن الخلل أحيانا وأضح إلى حد مؤلم :

« ماذا ! أليس الطفل الذى يولد أعمى أو بلا رجلين أو غير سوى بشع إلى حد بعيد يتعارض مع طبيعة الجنس البشرى ؟ إليس الأطراد المعتاد فى

الطبيعة هو الذى يصنع النظام والشذوذ هو الذى يشكل الخلل ؟ أليست فوضى صارخة وخللا رهيبا أن تعمد الطبيعة إلى تجويع طفل وتخلق له مريئا محدودا ؟ إن الأخراج بكل أنواعه ضرورى ، ولكن قنوات الأفراز كثيرا ما تكون بلا فتحات ، مما يتطلب العلاج ، ويبقى منشأ الخلل عرضة للكشف عنه ولكن الخلل حقيقة واقعة » .

ومن حيث كون المادة لها قوة توليد الحياة والذهن فإن فولتير على الرغم من أنه كان يوما ميالا إلى الأخذ بوجهة النظر هــذه ، آثر « لا أدرية » متواضعة على إفتراضات دى هولباخ الواقعة :

« إن الخبرة (وهو هنا ينقل من كتاب منهج الطبيعة) تثبت لنا أن المادة التى نعتبرها جامدة ميته ، تدعى الفعل والحياة والعقل إذا إتحدت وتجمعت بطريقة معينة » وتلك هى المشكله بعينها ، كيف تنشأ جرثومة حية ؟ أن المؤلف والقارىء كليهما يجهلان هذا على حد سواء ، ومن ثم ألا يكون منهج الطبيعة وكل المناهج الفلسفية فى العالم بأسره مجرد أحلام ؟ يقول دى هولباخ : « من الضرورى أن نعرف المبدأ الحيوى الأساسى ، وأحسب أن التعريف متعذر » . أليس هــذا التعريف ميسورا جداً . . . . اليس تنظيم الحياة بالشعور ؟ ولكن من المستحيل أثبات أن هاتين الخاصيتين تنشئان فقط من المادة وهى فى حركة . وإذا كان من المستحيل أثبات هذا ففيم توكيده ؟ ... أن كثيراً من القراء يشعرون بالسخط والاستياء لاتخاذ هذا الأسلوب الحاسم فى الوقت الذى لم يتم فيه تفسير أى شىء . . . فإذا تجاسرت على توكيد أنه لا يوجد إله أو أن المادة تعمل بنفسها بمقتضى ضرورة أبديه ، فيجدر أن تشرح هذا وتقيم عليه الدليل ، مثل قضيه من قضايا إقليدس وإلا أقمت منهجك على « ربما » ، أى مجرد الاحتمال . وأى أساس هذا لمعتقد على أعظم جانب من الأهمية للجنس البشرى .

وكان دى هولباخ قد أيد التوالد التلقائى بأشارته إلى تجارب اليسوعى الانجليزى نيدهام (١٧٤٨) الذى إعتقد بأنه كان قد أنتج كائنات جديدة

من مادة ليس فيها حياة . وكان فولتير يقظا لآخر تطورات العلم ، فأشار إلى تجارب سبللانزانى (١٧٦٥) الذى أوضح خطأ إجراءات نيدهام وما إنتهى إليه من نتائج . ولم يكن دى هولباخ قد رأى فى الطبيعة أى تصحيح أو تخطيط ، ولكن فولتير يرى الكثير ، ويحاول أن يبرهن على أن نمو العقل وتطوره فى الإنسان يدل على عقل فى الكون أو فيما وراءه ، ويعود آخر الأمر إلى قضيته المشهورة « إذا لم يوجد إله فمن الضرورى أن نصطنعه ، وأنه بدون إيمان بكائن أسمى فى عقله وعدله ، فإن الحياه بكل ما فيها من أسرار وبؤس وشقاء تكون غير محتملة ، وينضم إلى دى هولباخ فى إزدراء الخرافة ، ولكنه يدافع عن الدين باعتباره مجرد عبادة بسيطة لا له . ويختم فى رفق فيقول : « إننى ميال إلى القول بأنك وقعت فى خطأ جسيم ولكنى بنفس القدر مقتنع بأنك صادق أمين فى أنك مخدوع خداعا ذاتيا . يمكن أن تجد أناساً فضلاء دون وجود إله . ولوأنك من سؤ الحظ قلت « سرعان ما تجعل الرذيلة الإنسان سعيدا حتى يحب الرذيلة » . وتلك قضية مزعجة كان يجدر بأصدقائك أن يقنعوك بمحوها . أنك فى كل مكان أخر توحى بالأستقامة والأمانة . إن هذا الصراع الفلسفى سيكون فقط بينك وبين نفر قليل من الفلاسفة منتشرين فى أوربا . ومن يسمع عنه سائر العالم شيئا . إن الناس لا يقرأوننا . . . أنت مخطىء . ولكننا نقدر ونجل عبقريتك وفضائلك(١٥٢) » .

ولسنا ندرى إذا كان فولتير راضيا كل الرضا عن هذا التفنيد من كل قلبه . وأنا لنلاحظ ملاحظته البسيطة العابرة عندما سمع أن فردريك كان قد كتب كذلك ضد « منهج الطبيعة » « إن الله كان فى صفه إثنان على الأقل من أبعد الناس عن التمسك بالخرافات فى أوربا — مما لأبد أن يكون قد إثلج صدره كثيراً(١٥٣) وطلب إلى الدوق دى ريشيليو أن يحيط لويس الخامس عشر علما بأن المغترب العنيد فى فرنى كان قد كتب ردا على الكتاب الجرىء المشهور الذى كان حديث الناس فى باريس .

ونشر أصدقاء دى هولباخ نقد فولتير وسيلة للاعلان عن أفكار البارون. وإتخذ شباب المتمردين المادية سمة للبسالة والشجاعة فى الحرب ضد الكاثوليكية ودخلت فلسفة دى هولباخ إلى روح الثورة الفرنسية قبل روبسبيير وبعده — وكان يؤثر روسو . وانا لنسمع أصداء كتاب « منهج الطبيعة » فى كامى ديمولان وماراه ودانتون[١٥٤] قال فاجيه « إن دى هولباخ أكثر من فولتير وأكثر من ديدرو ، هو أبو الفلسفة والهجوم العنيف على الدين فى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر[١٥٥] وفى عهد حكومة الإدارة أرسل أحد الوزراء نسخا من أحد كتب دى هولباخ إلى رؤساء المصالح والهيئات فى محافظته للحيلولة دون بعث الكاثوليكية من جديد[١٥٦] .

وأنا لنحس تأثير دى هولباخ فى إنجلترا فى مادية بريستلى (١٧٧٧) ونبع كتاب جودوين « بحث فى العدالة السياسية » من دى هولباخ وهلفشيوس وروسو بهذا الترتيب فى التأثير[١٥٧] . وبدأ الألحاد المتحمس عند شللى صهر جودوين ، بقراءة « منهج الطبيعة » الذى شرع فى ترجمته كوسيلة لا شراك أساتذة أكسفورد فى الحملة ضد الدين[١٥٨] . أما فى ألمانيا فإن مادية دى‌هولباخ وتشكك هيوم هما اللذان أيقظا كانت من « سباته العقائدى » وربما ورث ماركس بطرق غير مباشرة تعاليمه المادية عن دى هولباخ .

وقبل أن يكتب البارون بزمن طويل كان بيركلى قد آذى المادية أكبر ايذاء . فالذهن هو الحقيقة الواقعة الوحيدة المعروفة مباشرة . والمادة (منذ عرفها دى هولباخ بأنها كل ما يؤثر فى حواسنا) معروفة بطريق غير مباشر ، عن طريق الذهن . ويبدو أنه غير معقول أن نهبط بالمعروف مباشرة إلى ما هو معروف بطريق غير مباشر . وليست المادة واضحة لدينا كما تعودنا أن تكون . إن الذرة تحيرنا كما يحيرنا الذهن سواء بسواء . فكلاهما يحلل إلى أشكال من الطاقة لايتيسر لنا فهمها ، وأنه لمن العسير الآن ، كما كان عسيراً فى أيام لوك وفولتير . أن نتصور كيف يمكن أن تصبح المادة فكرة أقل وعيا بكثير . أن التفسير الميكانيكى للحياة أثبت أنه مجد فى الفسيولوجيا ،

ولكن يبقى الاحتمال قائما . وهو أن الأعضاء (المادة) يمكن أن تكون نتاجا وأدوات للرغبة (الذهن) مثل عضلات اللاعب الرياضى . إن الميكانيكية (الآلية) والحتمية بل حتى القانون الطبيعى « قد تكون تيسيرات وأيضاحات عاجلة لا تقبل الجدل من الناحية المنطقية ، لأنها أدوات إصطنعها الذهن لتناول الظاهرات والأحداث والأشياء تناولا ملائما ، وأصبحت هذه الأدوات عناصر لا مفر منها فى الفكر العلمى ، ولكنها غير مرضية إذا طبقت على الذهن الذى شكلها . إننا لا نعرف أن العالم منطقى .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ — ١٧٧٨

١ — فولتير والله

قد ندرس فيما بعد الأنشطة والآراء والاهتمامات غير الدينية فى تلك النار المدمرة التى يقال لها فولتير ، والتى تتأجج بين الحين والحين فى فرنى Ferne ونكتفى هنا بتلخيص آرائه فى الدين وحربه ضد المسيحية . ولن نذكر هنا شيئا لم يذكر مائة مرة من قبل . كما أنه لم يقل عن المسيحية شيئاً لم يسبق قوله . وكل ما فى الأمر أنه حين تكلم انطلقت كلماته مثل اللهب سرى فى أوربا ، وأصبحت قوة شكلت عصره وعصرنا .

وكان طبيعيا أن يرتاب فى العقيدة المسيحية ، لأن الدين قصد به تهدئة الفكر لا إثارته . وكان فولتير هو الفكر مجسدا فهو قلق مضطرب لا يهدأ ولا يسكن . ورأيناه فى سيرة حياته ينضم إلى ذوى العقول المتشككة فى The Tempole يغذى شكوكه بين الربوبيين فى انجلترا ساعيا وراء العلم فى سيرى، متبادلا رسائل الالحاد مع فردريك فى ألمانيا . ومع ذلك فإنه حتى بلغ السادسة بعد الخمسين احتفظ بالحاده أو كفره مظهرا عارضا أو لعبة أو تسلية خاصة . ولم يشن على الكنيسة الحرب علانية . بل على النقيض من ذلك دافع علنا وتكراراً عن أساسيات العقيدة المسيحية : إله عادل وإرادة حرة والخلود . وإذا لم نعده كذوبا (وغالباً ما كان كذلك) فانه احتفظ حتى وفاته بإيمانه بالله وبقيمة الدين . ويمكن أن نقتبس عنه لأى غرض تقريبا ، لأنه مثل أى شىء حى ، نما وتغير واضمحل . ومن منا

احتفظ فى سن الخمسين بما اعتنق من آراء فى سن العشرين ، أو فى سن السبعين ، بآرائه حين كان فى الخمسين ؟ إن فولتير ناقض نفسه إلى أبعد الحدود ، لأنه عمر طويلا وكتب كثيراً ، فكانت آراؤه من فيض رؤيته كلما تقدمت به السنون (١)

وفى سيرى حوالى ١٧٣٤ حاول أن يصوغ أفكاره حول الأشياء الأولى والأخيرة فى « رسالة فى الميتافزيقا » وقبل أن يجعل بالى المقارنة مألوفة لدى الإنجليز بعدة سنين ذكر فولتير أنه من المنطق التسليم بذهن ذكى عاقل فى الكون مثلما هو منطقى افتراض أن الساعاتى قد صنع ساعة . ففى كلتا الحالتين رأى دليلا على التصميم والتخطيط فى تهيئة وسائل معينة لغايات بعينها . ولكن كما أن الساعة ولو أنها من تصميم العقل تعمل وفق قوانين ثابتة ، فكذلك الكون . وليس ثمة معجزات . ولكنه إلى حد ما لم يستطع أن يطرح جانبا الشعور بأن الإرادة الإنسانية ، بطريقة خفية ولدرجة بسيطة حرة . على الرغم من أنه عرف تمام المعرفة أن الاختيار الحر المطلق حين يتصرف فى عالم ميكانيكى لا بد أن يفسد آليته أو طبيعة تركيب اجزائه. والذهن شكل من أشكال المادة ووظيفة من وظائفها . ويقول فولتير متبعاً فى ذلك لوك . « ينبغى أن نقرر أنه من اليسير جدا على الله أن يضيف إلى المادة فكرا .(٢) وقدرة المادة على التفكير ليست معجزة أكبر من إمكان تأثير الذهن غير المادى على الجسم المادى . والنفس ليست إلا حياة الجسم وتفنى بفنائه ، وليس ثمة وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها ، وهذا كاف ، وهو معين لا ينضب . وقد يكون ثمة بعض النفع فى الدين ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه تعزيزا للفضيلة . وغالبا ما استخدمه رجال الدين على مدى التاريخ لإرباك أذهان الناس ، على حين ابتز الملوك أموالهم . وينبغى تعريف الفضيلة على أساس الخير الاجتماعى لا على أساس طاعة الله ، ويجب ألا تتوقف على الثواب والعقاب بعد الموت .

وقرأ فولتير هذه الصفحات الخمس والسبعين على مدام دى شاتيلية

التي يبدو واضحاً إنها لم تشجعه على نشرها . ويبدو أنه أقرها على ذلك وطرح المخطوطة جانبا ، فلم تنشر قط طيلة حياته . وفوق هذا أصبح مقتنعاً بأن أية ميتافيزيقا عقلانية وأية محاولة لتفسير أصل العالم والإنسان وطبيعتهما ومصيرهما عن طريق العقل ستكون إلى الأبد فوق طاقة البشر . وقرأ الفلاسفة ولكن لم ترقه مناهجهم ، وذهب إلى أن « الأقدمين قالوا كل شيء في الميتا فيزيقا وفي الأخلاق ، وأننا دائماً نعارضهم أو نكررهم. وكل الكتب الحديثة من هذا النوع هي مجرد تكرار معاد [٣] » ولا بد أنه تأثر بمنهج سبينوزا لأنه أجهد نفسه في دحضه وتفنيده .

وعلى الرغم من تنصله وإنكاره لم يستطع أن يتغلب على ولعه بالخوض في المسائل العويصة المستعصية.وبين الحين والحين فيما بين عامي ١٧٣٤—١٧٥٦ أخذ ينقب في الميتافيزيقا واللاهوت . وظل حتى آخر حياته يؤسس إيمانه بالله على حجة التخطيط أو التدبير منذ البداية ، ولو أنه عمد إلى تسفيه التطرف في الغائية (الاعتقاد بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة) . « قد لا أومن بأن الأنوف قد صنعت لتكون جسرا مريحاً للنظارات ، ولكني مقتنع بأنها صنعت لنشم بها [٤] » . « وأليس من أبشع السخف والحماقة أن نؤكد أن العين لم تصنع لتبصر والإذن لتسمع والمعدة لتهضم ؟ [٥] وعندما طرق مؤلف شاب الباب في Les Delices (١٧٥٧) وقدم نفسه إلى فولتير على أنه « ملحد شاب مستعد لخدمته ، أجاب فولتير لي الشرف أن أستخدم ربوبيا ، وعلى الرغم من تعارض آرائنا سأقدم لك طعام العشاء الليلة ، وأقدم لك العمل غدا ، سأستفيد من ذراعيك وعضلاتك لا من رأسك وذهنك .[٦] أنه سمى نفسه ربوبيا ولكنه كان مؤمنا ، أي أن ألهه لم يكن قوة غير مجسمة تماثل الطبيعة بشكل أو بآخر ، ولكنه عقل واع يصمم العالم ويحكمه . وبعد ١٧٥٠ بصفة عامة أطلق على نفسه أنه مؤمن بوجود إله .[٧] وفي القاموس الفلسفي في مقال « الإيمان بوجود الله

« كتب على أساس يمكن أن يبرر وصف كوندرسيه لفولتير بأنه رجل شديد التمسك بالدين :

« إن المؤمن الموحد بالله رجل مقتنع كل الاقتناع بوجود كائن أسمى فاضل قوى معا ، خلق كل الموجودات يعاقب على الخطايا دون قسوة ، ويثيب على صالح الأعمال فى رفق وحنان . إن المؤمن لا يعرف كيف يعاقب الله وكيف يثيب ، وكيف يعفو ، ويغفر لأنه لم تبلغ به الجرأة حدا يخدع معه نفسه بأنه يدرك كيف يتصرف الله ، ولكنه يعلم أن الله يفعل وإن الله عادل . إن العقبات التى تواجه العناية الإلهية لا تزعزع إيمانه لأنها مجرد عقبات ضخمة وليست اختبارات إنه يخضع نفسه لتلك العناية الإلهية ، ولو أنه لم يدرك منها إلا بعض آثارها وبعض المظاهر . إنه يحكم على الأشياء التى لا يراها بالأشياء التى يراها . ومن ثم فانه يرى أن هذه العنابة الإلهية تحيط بكل مكان وبكل زمان . وقد اتحد فى هذا المبدأ مع سائر الكون . فانه لا ينضم إلى أى من الشيع أو الطوائف التى تناقض نفسها . إن ديانته هى أقدم الديانات وأوسعها انتشاراً ، لأن العبادة البسيطة لله سبقت كل الأساليب والطرق فى العالم . . . أنه يؤمن بأن الديانة لا تقوم على آراء الميتا فيزيقا المبهمة التى يصعب سبر غورها ، ولا على الزخارف العقيمة ، بل تقوم على العبادة والتقديس والعدالة . إن عمل الخير عبادته والخضوع لله مذهبه . . . إنه يسخر من لوريتو ومكة ولكنه يغيث الملهوف ويدافع عن المظلوم (٨) .

فهل كان فولتير مخلصا فى هذه الاعترافات ؟ إن بعض الباحثين ينسبها إلى الحيطة والحذر ، أو إلى الرغبة فى التحول إلى الالحاد خطوة خطوة ،(٩) أو إلى أمل فى أن يقلل غرس الإيمان الدينى فى خدمه من السرقة والاختلاس . وهناك فى كتابات فولتير قطع يبدو أنها تبرر هذا التفسير (اذا كان لديك قرية واحدة لتحكمها ، فينبغى أن يكون لها دين) (١٠) . إن أكثر الملاحظات اقتباسا عنه يبدو انها تهبط بالديانة الى مجرد منفعة عامة ، ولكن سياق الكلام يلقى على هذا البيت ضوء أكثر اشراقاً وإيضاحا . أنه يوجد فى

رسالة إلى مؤلف الدجالين الثلاثة « إذا لم يكن الإله موجودا فيجب أن نبتدعه ، ولكن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجود فعلا .(١١)» والقصيدة كلها دعوة إلى الإيمان . إن فولتير يعود إلى قضية الإيمان بوجود اله واحد المرة بعد المرة ، وكأنما يرد على شكوكه . وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته كتب ضد الالحاد قدر ماكتب ضد الديانة التقليدية وفى نفس الوقت شن حربا ضد المفهوم المألوف للرب بأنه إله الانتقام الذى قدر على معظم الناس الخلود فى عذاب الجحيم : « سيكون الجنس البشرى تعساً بائسا إلى أبعد حد إذا ألف ارتكاب الفظائع قدر ما يألف التصديق بها (١٢) وإذا كان الرب قد خلق الإنسان على صورته فقد جازيناه على ذلك خير الجزاء(١٣) بتصويره على صورتنا . ولا شيء يوضح مفهوم الإنسان عن نفسه أكثر من فكرته عن الله » .

وحاول فولتير جاهدا أن يوفق بين إيمانه بإله واحد وبين وجود الشر. وفى محاولاته لتبرير العدل الإلهى لوجود الشر اقترب من تفاؤل ليبنتز (الذى عمد إلى تسفيهه فى كانديد) إن الشر من وجهة نظر الجزء قد يكون خيرا ، وعلى الأقل ليس شرا فى منظور الكل . إن هذا ليس أحسن عالم يمكن تصوره بل أكثر ما يحتمل وجوده .(١٤) وكتب فولتير إلى فردريك ١٧٣٨ يقول : « إذا حسب كل شيء وقدر أحسن تقدير فإن فى هذه الحياة متع لا تعد ولا تحصى أكثر مما فيها من مرارة .(١٥)» ولكن هذا كتب فى سنوات صحته وعافيته فى أواسط عمره . ولم يؤمن بأن الإنسان شرير بالطبيعة بل على النقيض من ذلك اعتقد أن فى الإنسان إحساساً فطريا بالعدالة وشعورا طيبا بالود نحو الآخرين (١٦) وهنا فوارق وتناقضات لا حصر لها فى الأفكار الأخلاقية لدى الجنس البشرى وفى عاداته . ولكن الشعوب تستنكر قتل الوالدين وقتل الإخوة والأخوات (١٧) .

وفى بوتسدام ١٧٥٢ نظم قصيدة « القانون الطبيعى » (نشرت فى ١٧٥٦) التى لخصت ديانته الطبيعية . «وحيث اتخذت القصيدة شكل رسالة إلى فردريك

الثانى المتشكك فإنه كان من الصعب أن تكون محاولة لإرضاء الأتقياء ، ولكنها تقترب من التقوى والعقيدة القويمة أكثر من أى شىء آخر طبعه فولتير . إنها لم تؤكد الإيمان بالله الخــالق فحسب ولكنها كذلك تصف الإحساس الخلقى عند الإنسان بأنه من غرس الرب (١٨) . إنه هنا يتحدث كما يتحدث روسو ويستبق حماسة كانت للسلطان المطلق للضمير . أنه يحدد ديانته فى سطر واحد : « أعبد الله وكن عادلا وأحب وطنك » .(١٩) ويعرض تنوع العقيدة الدينية ويرثى للكراهية والتعصب ويدعو إلى تسامح متبادل بين مختلف المذاهب والشيع ، ويختتم بدعاء كان يمكن أن يقره أى قديس . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ أمر برلمان باريس باحراق القصيدة علنا . ويحتمل أن يكون هذا بسبب أن بعض أبياتها استنكرت الجانسنية .

وقد تخلص إلى القول بأنه حتى عام ١٧٥١ — إلى أن بلغ فولتير السابعة والخمسين تورع عن أى هجوم مباشر صريح علنى على المسيحية أو الكنيسة الكاثوليكية . فماذا أثاره وحفزه لشن الحرب فى نفس الوقت الذى جنح فيه معظم الثائرين إلى السلم؟أنه كان وقت صدور دائرة المعارف ، والتفسيرات الدينية التقليدية لزلزال لشبونه ، والإعدام الوحشى لـكل من جان كالا Calas وشيفالييه دى لابار De La Barre .

٢ — فولتير ودائرة المعارف

كان فولتير فى بوتسدام حين نشر المجلد الأول من دائرة المعارف (١٧٥١) . ولا بد أنه قرأ وهو مغتبط أشد الاغتباط السطور التى كتبها دالمبير تقديراً لفولتير وثناء عليه فى « [illegible] حيث قال « قد لا أوفى هذه العبقرية الفذه حقها من الاجلال والمديح مما لقيه كثيرا من مواطنيه ومن الأجانب ومن أعدائه ، ومما ستضيف إليه الأجيال المقبلة كثيرا حين يعود غير قادر على الاستمتاع بالإطراء والثناء » . ورد فولتير على هذه التحية فى رسالة مؤرخة ٥ سبتمبر ١٧٥٢ إلى دالمبير قال فيها « إنك وديدرو تقومان بعمل

سيكون فيه فخار فرنسا ومجدها ، وعار وخزى لهؤلاء الذين يضطهدونكما أو يقفون فى طريقكما . أنا لا أعترف من بين الفلاسفة البلغاء الأبلك وبه » وعاهد نفسه على مساندته وتأييده ، ولم يضيع أى فرصة لجذب الأنظار إلى المشروع باعتباره « عملا ضخما خالدا يهم قصر الحيـــاة الإنسانية ويندد به [٢٠] » .

ومهما يكن من أمر انشغال فولتير بأعماله الكبرى — قرن لويس الرابع عشر ، ورسالة فى الأعراف والعادات ، وتورطه مع هرشلك وموبرتوى وفردريك فانه وجد فسحة من الوقت ليرسل إلى دالمبير (١٧٥٣) بمقالات موجزة : « مجرد مادة يمكنك تبويبها كيف تشاء وضمها إلى الصرح الخالد الذى تقيمه . إنى أمدك ببعض لبنات تضعها فى أية زاوية فى البناء » [٢١] . وتوسل إلى الأصدقاء ذوى النفوذ أن يعملوا على حماية المحررين . وفى ١٧٥٥ كتب إلى دالمبير « ما دام فىّ عرق ينبض بالحياة سأكون فى خدمة مؤلفى الموسوعة اللامعين ، وإنى لاعتبره شرفا كبيراً لى أن أسهم ولو بقدر ضئيل فى أعظم وأجمل أثر باق للأمة وللأدب » [٢٢] وأرفق بهذه الرسالة مقالات عن النار والقوة والفسوق والعبقرية الفرنسية والذوق الفرنسى . وأطلع على المجلدات الخمسة الأولى مدققا فاحصا ، فوجد أجزاء كثيرة جديرة بالثناء ، كما حزن ورثى لبعض الأجزاء الأخرى ، وطلب إلى المحررين أن يطالبوا كل الكتاب بالوضوح والإيجاز ، وحذر دالمبير (الذى ظنه خطأ رئيس التحرير) بقوله « إن معاونيك ضعاف فهناك جنود غير صالحين فى جيش القائد العظيم . . يؤسفنى أن أجد فى مقال « الجحيم » أن الكاتب يعلن أن الجحيم واردة فى شريعة موسى ، وأقسم لك الآن بكل الشياطين أن هذا غير صحيح [٢٣] .

وسرعان ما بعث بعدة مقالات صغيرة وببحث ضخم فى التاريخ . وحرض قسيسا عالما من لوزان هو أنطوان نوى دى بولييه Noe de Polies على أن يكتب لدائرة المعارف مقالات عن « الماجيين والسحر والسحرة وعن المخلص

المنتظر » . وكلها تعج بالهرطقه فى هدوء وقد رأينا كيف أن فولتير كان مسئولا إلى حد ما عن مقال دالمبير عن جنيف ١٧٥٧ . وخفف من هذه العاصفة التى ثارت بسبب هذه المقالات بدعوة الكاهن المخدوع إلى العشاء . وحين أوشكت الكارثة أن تنزل بمشروع دائرة المعارف وتهدد بتوقفها عن الظهور ، كتب إلى ديدرو :

« أى ديدرو الشجاع ودالمبير الجسور : امضيا فى طريقكما . . هاجما الأوغاد ، واقضيا على تخرصاتهم الجوفاء وسفسطتهم الحقيرة وأكاذيبهم التاريخية وتناقضاتهم وسخافاتهم التى لا حصر لها ... لا تدعوا رجال الفكر أرقاء مستعبدين لمن لايتحلون بشىء من الفكر والذكاء . إن الجيل القادم سيكون مدينا لكما بالعقل والحرية »[٢٤] .

ولم يجب ديدرو على هذه الرسالة ، وأصر دالمبير على الانسحاب من المشروع . أما فولتير فخانته شجاعته وساءه صمت ديدرو ، ومن ثم قرر أن ينفض يديه من العمل . وفى ٦ أو ٧ فبراير كتب ثانية إلى ديدرو يطلب إليه إعادة المقالات التى لم تنشر . فأجاب ديدرو بأن المخطوطات عند دالمبير ولكن إذا كرر فولتير طلب إعادتها إليه فأنه لن ينسى هذه الإساءة . وفى ٢٦ فبراير كتب فولتير إلى دارجنتال يقول : « إنى أحب ديدرو واحترمه ولكنى غاضب » . ولكنه كتب إليه مرة أخرى فى ١٢ مارس : « إذا التقيت بهذا الرجل الطيب ديدرو ، فأبلغ هذا العبد المسكين أنى أغفر له قدر ما أشفق عليه من كل قلبى »[٢٥] وفى مايو أرسل دالمبير المقالات المطلوبة إلى فولتير . ولكن دالمبير استأنف العمل فى دائرة المعارف فى شهر يونيه ، فأرسل فولتير المقالات إليه ثانية . ولكنه طلب عدم ذكر أسمه إذا نشرت . واقترح نقل المشروع إلى بلد آخر لا يتعرض فيه لعنت الرقابة فعلا أو توجسا . ورأى ديدرو أن هذا الاقتراح غير عملى . وفقد فولتير ثقته فى قيمة موسوعة ضخمة باهظة التكاليف وسيلة لنشر الفكر المتحرر . وفى ٢٦ يونية ١٧٥٨

أبلغ ديدرو أن مشاغله الأخرى قد تجعل من المتعذر عليه أن يسهم فى الموسوعة فضلا عن أن تأزم الأمور بين المحررين والحكومة والكنيسة « قد يضطر الإنسان إلى الكذب ، وأنا لنلقى الاضطهاد والتعذيب إذا لم نمض فى الكذب »[٢٦] إن الضجة التى أحدثها كتاب هلفشيوس « الذكاء »(فى يوليه) أزعجت الثائر العجوز ، فكتب ردا على ذاك الكتاب . وفى ١٦ نوفمبر أبلغ ديدرو أنه ابتـاع دارا فى فرنى واعتزم أن يقيم هناك ويحيا حياة ريفية هادئة .

فهل كان يخدع نفسه ، أو أنه كان يدبر استئناف القتال بوسائل أخرى؟

٣ — لاهوت الزلازل

بينما كانت الموسوعة تكبو وتفيق وتختفى وتنبعث من جديد ارتعدت فرائص الفلسفة الأوربية نتيجة لزلزال لشبونه ففى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح أول نوفمبر ١٧٥٥ — يوم عيد كل القديسين — هزت الأرض كتفيها فى البرتغال وشمال أفريقية . وفى ست دقائق تهدمت ثلاثون كنيسة وألف منزل ، ومات خمسة عشر ألف رجل ، وأصيب مثلهم باصابات خطيرة ، فى واحدة من أجمل العواصم فى العالم . ولم يكن ثمة شىء جديد لم يسبق له مثيل فى هذه المذبحة الرهيبة التى حدث فيها الموت بالجملة . ولكن كانت هناك بعض ملابسات وظروف محيطة حيرت رجال اللاهوت ، وأقلقت بالهم . لماذا اختار هذا اللغز المحير مثل هذه المدينة الكاثوليكية ، ومثل هذا الاحتفال المقدس ، فى مثل هذه الساعة التى اجتمع فيها كل المواطنين الاتقياء تقريباً لحضور القداس ؟ ولماذا أبقى وسط هذا الدمار الشامل على دارسيا ستيو دى كارفالو ميللو مركيز بومبال فيما بعد — الوزير الآمر الناهى الذى كان ألد أعداء اليسوعيين فى أوربا بأسرها ؟

وأوضح مالاجريدا أحد اليسوعيين البرتغاليين أن الزلزال وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كانا عقابا من الله على الرذيلة التى استشرت فى

لشبونة.[٢٧] ولكن هل كان الآثمون هم وحدهم الذين ذهبوا للصلاة فى الكنائس فى هذا الصباح الرهيب ؟ ولماذا هلك كثير من القساوسة المتبتلين والراهبات المتفانيات فى الاخلاص للدين فى الزلزال والحريق ؟ وربما هلل المسلمون للكارثة باعتبارها إنتقاماً إلهياً من محاكم التفتيش فى البرتغال ، ولكن الزلزال دمر المسجد الكبير الذى يحمل إسم المنصور فى الرباط . وعزا بعض الكهنة البروتستانت فى لندن هذه الكارثة لاستنكار السماء لجرائم الكاثوليك ضد الانسانية . ولكن فى ١٩ نوفمبر من نفس العام دمر الزلزال خمسة عشر ألف منزل فى بوسطن مساشوست موطن الحجاج والبيوريتانيين . وأعلن وليم ووربرتون أن مذبحة لشبونة « أبرزت عظمة الله فى أبهى صورها[٢٨] وألقى جون ويزلى موعظة عن أسباب الزلازل وعلاجها قال فيها « إن الخطيئة هى السبب المعنوى للزلازل مهما كان سببها الطبيعى . . . إن الزلازل هى نتيجة اللعنة التى صبتها على الأرض خطيئة آدم وحواء الأولى[٢٩]» .

واستشاط فولتير غضباً لهذه التفسيرات ، ولكنه هو نفسه لم يجد شيئاً يوفق به بين الحادث وبين إيمانه بإله عادل « أين الآن قول ليبنتز « أحسن العوالم الممكنة » أو قول بوب « كل ما هو موجود هو حسن » ؟[٣٠] ونظم فولتير كرد فعل غاضب لتفاؤله السابق أعظم قصيدة له « كارثة لشبونة اختبار للحقيقة المقررة « كل شىء حسن » وهنا نغتنم الفرصة لنقطتف نموذجا من فكرة شعره :

« آه أيتها المخلوقات الفانية التعسة . أيها الأرض المحزنة ، أيها الجمع الرهيب من بنى البشر . أيها المستقر الخالد لكل البلايا العقيمة الفاجعة ، أيها الحكماء الحمقى الذين ينادون بأعلى صوت كل شىء حسن ، تعالوا وتأملوا هذه الخرائب والأطلال الرهيبة : وهذا الحطام وأشلاء ورماد جثث بنى جنسكم ، وأنظرو إلى النساء والأطفال الذين حصدهم الموت بالجملة ، إلى الأعضاء المتناثرة تحت الأعمدة المحطمة . لقد التهمت الأرض مائة ألف حالفهم النحس ، لقد سالت دماؤهم وتمزقت أوصالهم ، واندفنوا وهم أحياء

تحت السقوف التى إنهارت عليهم ، فأنهوا دون أية مساعدة أيامهم التى تبعث على الأسى فى عذاب كريه . هل تواجهون صيحاتهم الضعيفة التى تؤذن بالفناء ، والدخان المتصاعد فى هذا المنظر البشع بقولكم هـذا جرى وفق قوانين أبدية طبقا لمشيئة الله المطلقة الخيرة ؟ وهـل تقولون أمام هذه الأكداس من الضحايا لقد إنتقم الله منهم لـ إن موتهم جزاء جرائهم ؟ » .

ولكن أية جريمة وأى خطأ ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماؤهم وهم فى أحضان أمهاتهم ؟ وهل كانت رذائل لندن أو باريس أقل من رذائل لشبونة ؟ ومع ذلك دمرت اشبونة وباريس ترقص ؟ ألم يكن فى مقدور الله العليم الخبير أن يصنع عالما ليس فيه هذا الشقاء الذى لا معنى له ؟ إنى أجل إلهى ولكنى أحب الجنس البشرى .

إن الشاعر يتأمل فى عالم الحياة فيرى فى كل مكان وعلى ألف صورة متباينة تنازعاً على البقاء يلقى فيه كل كائن حتفه إن عاجلا أو آجلا . إن هذه الخلاصة المريرة لعلم الحياة (للبيولوجيا) تتطلب أن نورد النص :

« إن الصقر الضارى ينقض على فريسته المخلوعة الفؤاد ويتلذذ مبتهجاً بالتهام أوصالها الدامية ، وكل شىء يبدو فى نظره على ما يرام ، ولكن سرعان ما يأتى نسر كاسر ويلتهم بمنقاره الحاد الصقر بدوره ، ثم يعاجل الإنسان هذا النسر المتكبر بطلقة تصيب منه مقتلا . ويتوسد الإنسان التراب على أرض المعركة ينزف الدم وقد أثخنته الضربات وسط كومة من الموتى . وهناك يكون غذاء رهيباً للطيور النهمة . وهكذا تئن الدنيا بكل من فيها حيث ولدت كلها لتشقى وتعانى ، ويكون مصيرها الموت المتبادل . وفى هذه الفوضى القاتلة تبنى على تعاسة البعض سعادة المجموع ، أية سعادة هذه ؟ أيها المخلوق الفانى الضعيف البائس ، أنك تصيح فى نغمة حزينة « إن كل شىء حسن على ما يرام » إن الكون يقدم لك الكذبة ، وقلبك يفند مائة مرة خطأ ذهنك . إن العناصر والحيوان والإنسان كلها فى صراع . فلنعترف بأن الشر ملأ الأرض واستشرى فيها .

وكيف يتفق هذا الصراع الكونى الشامل وهذا الموت المذل المؤلم مع الإيمان بإله خير طيب ؟ إن الله موجود ، ولكنه لغز محير . إنه يبعث بابنه ليخلص الجنس البشرى ، ولكن الأرض والانسان بقيا على ماهما عليه على الرغم من تضحيته .

ماذا يمكن أن يقول أوسع العقول مدى فى هذا ؟ لاشىء فان كتاب القدر محجوب عن أبصارنا . فالإنسان وهو الغريب الأجنبى بالنسبة لنفسه ، مجهول لدى الإنسان . من أنا ؟ وأين أكون ؟ إلى أين أنا ذاهب؟ ومن أين أتيت؟ ان الذرات تتعذب على هذه الكومة من الطين ، ويحصدها الموت ويلعب بها القدر . ومع ذلك فانها الذرات المفكرة التى قاست اعينها ورصدت مافى السموات بهدى من الفكر . إننا نخترق بأذهاننا وعقولنا هذا الكون اللانهائى ، ولكننا لانستطيع للحظة واحدة أن نرى أو نعرف أنفسنا » .

وتلك بطبيعة الحال هى النغمة التى ضرب عليها بسكال قبل مائة عام فى نثر أروع من شعر فولتير . وكان فولتير قد نبذ يوماً بسكال واستهجنه ، ولكنه الآن يردد تشاؤمه . وعلى أساس هذا التشاؤم نفسه خلص بسكال إلى قوله : فلنركن إلى العقيدة المسيحية ونتعلق بالأمل . وختم فولتير قصيدته فى الأصل ببيتين كئيبين رواقيين : ماذا يجب علينا أن نفعل أيها الفانون؟ يجب علينا أن نقاسى ونخضع فى صمت ونعبد ونموت » . واحتج أصدقاؤه بأن هذه الخاتمة البائسة غير محتملة فغير السطر الأخير إلى اخضعوا واعبدوا وأملوا وموتوا ولم يشعر أحد بالرضا فاستسلم وأضاف ٢٩ بيتاً ، وأسلم نفسه للعناية الإلهية مؤمناً بأن « الله وحده على حق » .

وعلى الرغم من ذلك فان القصيدة لم تذهل المتدينين فقط ، بل أذهلت الفلاسفة كذلك . فان مثل هذه النغمة الكئيبة الجزوعة يبدو أنها أحرجت الفلاسفة وأرسل روسو إلى فولتير رسالة طويلة بليغه يوضح فيها إن كل ما تعانى الانسانية من علل وشرور ، إن هوالانتيجة لأخطاء البشر ، وأن زلزال لشبونه هو عقاب عادل للإنسان لتخلبه عن الحياة الطبيعية

وإقامته فى المدن ، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة فى القرى المتفرقة فى دور متواضعة فلربما كانت الضحايا قليلة نسبياً ، وينبغى أن نؤمن بأن الله طيب خير ، لأن هذا كما قال جان جاك هو البديل الوحيد للتشاؤم القاتل ، وأن نستمر مع ليبنتز ، على الإيمان بأنه حيث إن الله خلق هذا العالم ، فلابد أن يكون كل شيء فيه على المدى الطويل وبالنظرة البعيدة حقاً وصدقاً . وحصل أحد أصحاب المطابع على هذه الرسالة ونشرها فلقيت أكبر الترحيب على أوسع نطاق ، رداً بارعاً على قصيدة فولتير ، ولزم فولتير الصمت لمدة أطول مما كان مألوفاً . ولما عاد للخوض ثانية فى موضوع التفاؤل خرج على الناس بأروع أعماله وهو كتاب ظل حديث العالم لمدة جيل ، وهو الآن أعظم وأبقى أثر ورمز لفولتير .

٤ — كانديد

نشر هذا الكتاب فى أوائل عام ١٧٥٩ تحت أسم Candide أو التفاؤل ، مع الأيهام بأنه مترجم عن الإلمانية عن كتاب دكتور رالف ، مع اضافات وجدت فى جيب الدكتور عند وفاته فى ميندن Minden . وأمر المجلس الكبير بأحراق الكتاب فور صدوره تقريبا (٥ مارس) وأنكر فولتير بطبيعة الحال أنه مؤلفه . وكتب إلى قسيس صديق له فى جنيف « لأبد أن الناس فقدوا عقولهم لينسبوا إلى هذه المجموعة من الهراء . إن عندى ولله الحمد والشكر ما شغلنى خيراً منه[٣١] ولكن فرنسا أجمعت على أنه ما كان فى مقدور أحد غير فولتير أن يكتب « كانديد » . فهنا كان النشر البسيط بشكل خداع الذى يتدفق برفق والذى يتميز بمرح خفيف وتهكم لاذع شيطانى مما يستطيع هو وحده أن يكتبه . وهنا وهناك فى الكتاب قليل من الفحش والبذاءة وقليل من الأدب الداعر ، وفى كل مكان عبارات هازلة غاضبة مهلكة تنم على عدم التوقير . فإذا كان الأسلوب هو الرجل فلابد أن يكون هذا فولتير .

أنه يبدأ بريئا ، ولكنه سرعان ما ينم على العين النافذة البراقة :

« فى إقليم وستفاليا فى قصر أنبل البارونات ثندر — تن — ترونخ Thunder-ten-Tronckh ، عاش شاب حبته الطبيعة أحلى مزاج وأكرم خلق . . . وكان سديد الرأى صائب الحكم ، إلى جانب ما تحلى به من بساطة بعيدة عن التكلف كل البعد ، ولهذا السبب فيما أعتقد سمى « كانديد » . أن الخدام القدامى فى القصر أرتابوا فى أن يكون ابن أخت البارون من رجل طيب شريف من الجيران رفضت تلك الآنسة أن تتزوج منه لأنه لم يكن يستطيع أن يصل بنسبه إلى أكثر من واحد وسبعين شريفا . وكان غير أهل للزواج ، ولكنه واف بالمراد فى الفراش ، وكان يتولى تربية الولد الوسيم غير الشرعى وتعليمه الأستاذ بانجلوس Pangloss (الـكثير الـكلام) الذى يستطيع أن يثبت إلى حد الأعجاب أنه ليس ثمة نتيجة دون علة أو سبب ، وأنه فى أحسن هذه العوالم الممكنة ، فإن قصر البارون هو أفخم القصور ، وأن ميلادى أحسن بارونه يمكن وجودها (على الرغم من أنها تزن ٣٥٠ رطلا) وقال أنه يمكن إقامة الدليل على أنه لا يمكن أن تكون الأشياء على غير ما عليه لأن كل الأشياء خلقت لبعض الغايات ، فلابد أنها بالضرورة خلقت لا حسن الغايات . لا حظ مثلا أن الأنف شكلت للنظارة ولهذا نلبس النظارات ، وواضح أن الأرجل صممت للجوارب ولهذا نلبس الجوارب . . . أن هؤلاء الذين يؤكدون أن كل شيء صحيح حق ، يخطئون التعبير ، وجدير بهم أن يقولوا أن كل شيء هو أفضل شيء » .

أن كانديد « أنصت فى أنتباه شديد وآمن ضمنا » لأن الآنسة كونيجوند أبنة البارون كان وأضحا أنها أحسن وأجمل مخلوقة يمكن وجودها . وتجذبه إلى حبها ويقع فى شراك غرامها ، ويوسعه البارون ضربا ويطرده من القصر .

ويجوب كانديد الآفاق ، ويأسره ضباط التجنيد ، ويرغمونه على اللحاق بالجيش البلغارى (هنا يعود فولتير بذاكرته إلى الجيش البروسى) « وهنا جعلوه ينعطف يمينا ويسارا وينزع بندقيته ثم يعيدها ويصوبها ويطلق

النار ويسير . وجلدوه ثلاثين ضربة بالعصا » أنه يشهد المعركة ثم يتخلى عنها ، ويلتقى بالأستاذ بانجلوس الذى كاد أن يفقد آخر جزء فى أنفه ، وعما قريب سيفقد أحدى عينيه رأحدى أذنيه لا فراطه فى الأقتراب من البغى الجميلة « باكت » التى أصابها داء عضال عن طريق العدوى من أحد الأخوة الفرنسيسكان العلماء كورد لييه ، وكان قد انتقل إليه هذا المرض عن طريق العدوى من كونتيسة عجوز كانت قد أصيبت به من أحد قواد الفرسان الذى نقله عن مركيزة نسبته إلى أحد الغلمان كان قد أصيب به بالعدوى من أحد اليسوعيين . وكان المرض قد انتقل إلى هـــذا الأخير من أحد رفاق كرستوفركولمبس(٣٢) .

وتحطمت سفينة كانديد وبانجلوس بالقرب من لشبونه ، ووصلا إلى الشاطىء ساعة حدوث الزلزال ، وكتب لهما البقاء على قيد الحياة ، ولـكن محكمة التفتيش تقبض عليهما بتهمة الهرطقة ، ويعدم بانجلوس شنقاً . أما كانديد فيتمكن من الهرب بمعونة كونيجوند التى كان الجنود قد اختطفوها ثم بيعت لأحد اليهود ، ثم بيعت مؤخراً لأحد رؤساء محكمة التفتيش . وتمكن كانديد وكونيجوند من الهرب بمساعدة سيدة عجوز أخرست شكاواهما بقولها أنها كانت على وشك أن يلتهمها الأتراك الذين كانوا يتضورون جوعا فى حصار آزور . وكانت قد وقعت أسيرة فى أيديهم ، ولكن برحمة من القدر نصف الأعمى بدأوا بقطع أحد ردفى كل أمرأة يمكن العثور عليها . وانتهى الحصار قبل المضى فى التجربة . وتختتم السيدة العجوز كلامها بقولها « كفا الآن عن النوح والتوجع لبؤسكما وتعاستكما ، وابتهجا لأنكما تستطيعان الجلوس على رد فيكما كليهما » .

ويعبران المحيط الأطلنطى على أمل أن تكون الدنيا الجديدة أقل قساوة من القديمة . وفى يونس أيرس يستولى قائد الموقع على كونيجوند ويختص بها نفسه ويأمر بابعاد كانديد ، فيدخل المستعمرة اليسوعية فى باراجوى ويجد هناك شقيق كونيجوند الذى يهاجمه لمجرد تجاسره على التفكير فى الزواج

منها ، فيرديه كانديد قتيلا ، ويستأنف تجواله وحيدا بائسا ؛ حتى يصل فجأة فى واد منعزل فى بيرو إلى « الدرادو » حيث يكثر الذهب إلى درجة لا يقدر فيها أحد قيمته . وهى أرض لا يوجد فيها مال ولا سجون ولا محامون ولا كهنة ولا أى صراع اقتصادى . ويعمر أهلها السعداء لمائتى عام ، وليس لهم ديانة الاعبادة بسيطة لإله واحد . ويحمل كانديد بعض الذهب ويغادر المكان ، ولا يزال قلبه يهفو إلى كونيجوند . ويبحر عائداً إلى أوربا ويصل إلى بور تسموث ليجد من فوره أن أمير البحرين Byng قد أعدم رميا بالرصاص لأنه خسر معركة . ويقول مارتن صديق كانديد الجديد أنهم يعتبرون من الحكمة فى هذه البلاد أن يقتلوا أحد أمراء البحر بين الحين والحين ليستحثوا همم الآخرين ويشجعوهم(٣٣) .

وعلم كانديد أن كونيجوند فى البندقية فيستقل السفينة إلى إيطاليا ويكتئب ويحس بالضيق والحزن حين يسمع عما تعانى البغايا . ويستمع إلى غناء أصحاب الزوارق فى فينيسيا ويخلص إلى أنه قد وجد بعض أناس سعداء . ولكن مارتن ينتهر بقوله « أنت لا تراهم فى بيوتهم بين زوجاتهم وأطفالهم . أن للأزواج ما يشغل بالهم ويحزنهم ، ولأصحاب الجندولات (الزوارق) ما يقلقهم كذلك . حقاً أن صاحب الزورق فى الجملة أسعد حظا من الدوج ، ولكنى أعتقد أن الفرق بينهما طفيف لا يستحق التفكير فيه(٣٤) .

إن كونيجوند ليست فى البندقية . إنها فى الأستانة ويهرع إليها كانديد ليجد أنها باتت الآن أمة عجوزا شوهاء . ومع ذلك يحررها ويتزوجها . ويلحق بانجلوس الذى لم تقض عليه محكمة التفتيش تماماً بتلميذه . ويستأنف دفاعه عن التفاؤل ، ويلتقون برجل سعيد تقريباً فيرحب بهم ويقدم لهم فاكهة وجوزا من غرس البيت . ويسأله كانديد « لأبد أن لك ضيعة كبيرة » فيجيب الرجل التركى ليس عندى إلا ٢٠ فدانا أفلحها مع أولادى . وإن عملنا ليباعد بيننا وبين ثلاث مساوئ جسيمة : السأم والرذيلة والحاجة(٣٥) . ويقرر كانديد أن يحذو حذو هـذا الرجل التركى « ويعمد

هو وكوينجوند وأصدقاؤهما إلى فلح قطعة من الأرض يزرعون فيها غذاءهم وتقوم المرأة ذات الردف الواحد وبغى صلح شأنها وصديقها الأخ الراهب بمهام كثيرة . إنهم يجدون فى العمل ويلقون فى عملهم نصباً ، ويأكلون ، ويتولاهم بعض الضجر ولكنهم إلى حد ما راضون قانعون . ويحاول بانجلوس أن يثبت أن هذا أفضل العوالم الممكنة ، حيث أن معاناتهم أدت بهم إلى هذا الهدوء والسلام . فيجيب كانديد بأن هذا كلام جميل ولكن علينا أن نزرع جنتنا . وتنتهى القصة القصيرة .

وكان فولتير قد حاول تضمين قصة المغامرة والحب شيئا من الهجاء اللاذع لما ذهب إليه ليبنتز من تبرير العدالة الإلهية فى وجود الشر ، ولتفاؤل بوب ، ولمساوىء الدين ، وحوادث العشق والغرام فى الأدبار . والصراع الطبقى والفساد السياسى ، والحيل الشرعية والرشاوى القضائية . ووحشية قانون العقوبات ، وجور الاسترقاق . وما تجره الحرب من خراب ودمار . وكانت قصة كانديد قد ألفت حين كانت حرب السنين السبع دائرة سجالا بين النصر والخراب والدمار والموت . وأطلق فلوبرت على تحفة فولتير خلاصة أعماله[٣٦] . ولم تخل كانديد من عيب معظم الهجاء وهو المبالغة السخيفة ، ولكن فولتير كان يعلم تمام العلم أن قليلا من الرجال يواجهون هذه السلسلة المريرة من الكوارث مثلما واجهها كانديد . ولابد أنه عرف كذلك أنه على الرغم من أنه حسن أن يزرع الإنسان حديقته وأن يتقن المرء عمله الفردى المباشر . فانه من الخير كذلك ألا تقتصر أرباحه على ما يعود عليه من حقله . أنه فلح حديقته فى فرنى على أحسن وجه . ولكنه ملأ أوربا صراخا واحتجاجا على إعدام كالاس .

٥ — ضمير أوربا

كان جان كالاس أحد أفراد جماعة صغيرة من الهيجونوت — البروتستانت الكالفنيين تركت فى تولوز بعد قرن من الاضطهاد ومصادرة الأملاك والتحول الجبرى إلى الكثلكة . ولم يستبعد القانون الفرنسى البروتستانت من الوظائف

العامة فحسب ، بل أعلن كذلك أنه لايسوغ لهم أن يشتغلوا محامين أو أطباء أو صيادلة أو قابلات أو باعة كتب أو صانعين أو بقالين . وإذا لم يكن قد سبق تعميدهم فليس لهم أية حقوق مدنية أيا كانت . وإذا لم يكن قد تم زواجهن على يد قسيس كاثوليكى كان زواجهم باطلا ، وكأنما يعيشون مع خليلات لاحليلات ، واعتبر أبناؤهم غير شرعيين[٣٧] والخدمات والقداسات البروتستانتية محظورة . وكان الرجال الذين يحضرونها يعاقبون بارسالهم للتجديف مدى الحياة . أما النساء فكان عقابهن السجن مدى الحياة . وعقاب الكهنة الذين يقيمون مثل هذه القداسات الاعدام . ولم تكن هذه القوانين مطبقة تطبيقا صارما فى باريس أو قريبا منها ، وتفاوتت صرامة هذه القوانين تبعا للبعد عن العاصمة .

وكانت الاحقاد الدينية حادة بصفة خاصة فى جنوب فرنسا . وكان الصراع بين الكاثوليك والهيجونوت عنيفاً لا هوادة ولا رحمة فيه . وكانت الفظائع التى ارتكبها الطرفان لاتزال حية فى الأذهان . وكان الكاثوليك المنتصرون قد قتلوا فى تولوز فى ١٥٦٢ ثلاثة آلاف من الهيجونوت ، كما حكم برلمان تولوز على مائتين آخرين بالتعذيب حتى الموت[٣٨] . وأحيا كاثوليك تولوز فى كل عام ذكرى هذه المذبحة فى احتفالات شاكرة ومواكب دينية مهيبـــة . وطافت نقابات المهنيين ومختلف طبقات النبلاء ورجال الدين وجماعات « النادمين البيض والسود والرماديين » بشوارع المدينة فى هيبة وجلال حاملين مخلفات رهيبة : جمجمة رئيس أساقفة تولوز الأول ، قطعة من ثوب العذراء ، وعظام أطفال قتلوا بمناسبة أسطورة هيرود « قتل الأبرياء » . وكان من سوء حظ كالاس أن تكون السنة القادمة هى ذكرى مرور مائتى عام على أحداث ١٥٦٢ .

إن برلمان تولوز الذى كان قوياً مسيطراً فى لنجدوك كما كان برلمان باريس فى وسط فرنسا ، كان يتحكم فيه الجانيسنيون — أى أنه برلمان كاثوليكى مع نزعة قوية إلى صرامة الكلفنيه وتزمتها وكآبتها . ولم يدخر وسعاً فى إثبات أنه أشد تمسكاً بالكثلكه من اليسوعيين أنفسهم . وفى ٢ مارس

١٧٦١ حكم بالاعـــدام على الراعى الهيجونوتى روشيت لإقامته قداساً بروتستانتيا ، كما حكم بالاعدام على ثلاثة رجال من كومت دى فوا حاولوا تخليص روشيت من أيدى الشرطة[٣٩] . وفى ٢٢ مارس أمر بتعذيب واعدام صاحب متجر بتهمة قتله إبناً له عرض أن يعتنق المذهب الكاثوليكى .

وإنصافاً للمتعصبين ينبغى القول بأن نظم العقيدة المسيحية عند الكلفنيين وضعت أساساً لاعتقادهم بأنه من المرخص للوالد أن يقتل الابن العاق : وفى الأوقات التى كان القانون لايزال فيها ضعيفاً . والأسرة فيها هى المصدر الرئيسى أو الوحيد تقريباً للنظام والانضباط . منحت معظم المجتمعات الآباء حق إعدام أبنائهم أو الابقاء عليهم . ولابد أن شيئاً من هذا القانون الأبوى كان يعتمل فى ذهن كلفن حين كتب « إن الرب يأمر بقتل الأبناء العاقين لآبائهم[٤٠]. وأشار كلفن إلى سفر التثنية (الاصحاح ٢١ : الآيات ١٧ — ٢١) وإلى إنجيل متى (الاصحاح ١٥ : الآيات ٤ — ٦) إن هذه الآيات على أية حال تبيح للاباء أن يتهموا الابن المعاند أمام شيوخ مدينته ، الذين يمكنهم حينئذ أن يحكمو باعدامه (يرجمونه بالحجارة حتى يموت) . ولكن الكاثوليك المهتاجين فى جنوب فرنسا إرتابوا فى قدرة الهيجونوت على اللجوء إلى شيوخ المدينة ومن ثم يأخـــذون تطبيق هذا القانون القديم على عاتقهم هم أنفسهم .

ويجدر بنا أن ننظر من خلال هذه الخلفية الكئيبة القاتمة إلى قضية جان كالاس .

أنه كان تاجر ملابس كتانية . وكان له مخزن فى الشارع الرئيسى فى تولوز حيث أقام لمدة أربعين عاماً . وكان له ولزوجته أربعة أبناء وبنتان واحتفظوا طيلة ثلاثين عاماً بمربية كاثوليكية لاولادهم ، هى جين فنيير حتى بعد أن حولت أحد الأبناء ، ، لويس إلى الكثلكة . وأقام لويس آنذاك فى شارع آخر تلميذاً صناعياً يتقاضى من أبيه راتباً بانتظام . واشتغل الابن

الأصغر ، دونات ، تلميذا صناعياً فى نيم وعاش الابنان الآخران ، بيير ومارك أنطوان مع والديهما . وكان مارك أنطوان ، وهو أكبرهما سناً ، قد درس القانون ، ولكنه حين تهيأ للاشتغال به وجد أن كل الأبواب موصدة إلا أمام الكاثوليك . وحاول أن يخفى مذهبه البروتستانتى ، وأن يحصل على شهادة بأنه كاثوليكى ولكن كشف أمره . وما كان له إلا أن يختار بين أمرين أحلاهما مر : إماأن يتخلى عن مذهبه البروتستانتى أو يضيع دراسة القانون هباء . واستبد به التفكير وعراه الاكتئاب ، وانغمس فى لعب الميسر والشراب وكان يحب أن يعيد على مسامع الناس مناجاة هملت للانتحار [٤١] .

وفى ١٣ اكتوبر ١٧٦١ إجتمعت أسرة كالاس فى دارها فوق المخزن . وكان جوبير لافاييس ، وهو أحد أصدقاء مارك انطوان ، قد حضر لتوه من بوردو وقبل دعوة الوالد لتناول العشاء . ونزل مارك انطوان إلى المتجر وتساءل بيير ولافاييس عن السبب فى عدم عودته . فنزلا يستطلعان الأمر فوجداه متدلياً من قضيب كان قد وضعه بين عضادتى الباب . فأنزلاه وناديا على الوالد واستدعيا طبيباً وحاول الجميع إنقاذه ولكن الطبيب أكد وفاته .

وهنا ارتكب الوالد خطأ جسيم . لقد عرف إن هناك قانوناً نافذ المفعول يقضى بأن يجر المنتحر عاريا فى شوارع المدينة . وأن يرجمه الأهالى بالطين والحجاره ثم يشنق وتصادر أملاكه للدولة . وتوسل الوالد إلى أسرته وحاول إقناعها بالقول بأن الوفاة طبيعيه [٤٢] وفى نفس الوقت كانت صيحات بيير واستدعاء الطبيب قد أدت إلى احتشاد جمع من الناس أمام باب الحانوت . وجاء الضابط واستمع إلى القصة التى رويت له . ورأى الحبل وشاهد الأثر الذى تركه فى عنق الرجل الميت . وأمر الأسرة ولافاييس وجين فنيين بالشخوص إلى دار البلدية . وهناك احتجزوا فى زنزانات مستقلة . وفى اليوم التالى سئل كل منهم فأقروا جميعاً أن الوفاة غير طبيعية وأكدوا أنه إنتحار . ولكن مدير الشرطة أبى أن يصدقهم ، واتهمهم بقتل مارك انطوان حتى

تحولوا بينه وبين الارتداد إلى الكثلكة . وأقر الاتهام الأهالى وكثير من أعضاء برلمان تولوز ، وأعمت حمى الانتقام بصائر الناس .

قد يكون من الصعب الآن أن يصدق أحدنا أن يعهد والد إلى قتل إبنه ليحول دون تغيير مذهبه الدينى ، وقد يكون مرجع ذلك إلى أننا نفكر تفكيراً تغلب عليه النزعة الفرديه . وبعد قرنين من الزمان تدهورت فيهما العقيدة الدينية . وفكر أهل تولز مجتمعين كجمهور ، والجماهير قد تشعر ولكن لاتفكر ، واشتدت صورة الغضب وحمى الانتقام نتيجة احتفال أقامه « النادمون البيض » فى كنيستهم ، وعلقوا فوق نعش خال هيكلا عظميا يحمل فى إحدى يديه نقشاً يدل على « تجنب الهرطقة » وفى الأخرى سعفاً يرمز إلى الاستشهاد ، وتحت هذا إسم « مارك » انطوان كالاس » « واقترضوا أن الشاب لم ينتحر فدفنوا الجثة باحتفال مهيب فى كنيسة سان ستيفن . وعبثا احتج بعض رجال الدين على أن هذا استباق للحكم فى قضية القتل(٤٣) .

وجرت محاكمة آل كالاس أمام الاثنى عشر قاضيا فى محكمة تولوز البلدية . وصدرت مذكرة تحذير تتلى فى ثلاثة أيام أحد متوالية فى كل كنيسة تدعو للأدلاء بالشهاده كل من يعرف شيئا عن ظروف الوفاة . وتقدم للشهادة عدة أشخاص وشهد أحد الحلاقين بأنه سمع فى تلك الليلة المشئومة صراخا من بيت أسرة كالاس : آه يالهى أنهم شنقونى « وادعى آخرون أنهم سمعوا مثل هذه الصيحات . وفى ١٠ نوفمبر ١٧٦١ إدانت محكمة تولوز البلدية جان كالاس وزوجته وأبنه بيير ، وأصدرت حكما بأعدامهم شنقا ، وحكمت على لافاييس بالتجديف فى المراكب الشراعية ، كما حكمت على جين فنيير بالسجن لمدة خمسة أعوام . وكانت المربية الكاثوليكية قد أقسمت اليمين على براءة مخدوميها البروتستانت .

واستؤنف الحكم أمام برلمان تولوز الذى عين هيئة من ثلاثة عشر قاضيا استمعوا إلى ثلاثة وستين شاهداً آخرين . وإستند كل الشهود إلى الشائعات واستمرت المحاكمة ثلاثة أشهر إحتجزت فيها أسرة كالاس ولا فاييس منفردين

وأدان الحكم النهائى الوالد فقط . ولم يستطع أحد أن يوضح كيف تسنى لرجل فى الرابعة والستين أن يتغلب دون مساعدة على أبنه الناضج المكتمل النمو ويشنقه . وأملت المحكمة أن يعترف كالاس تحت ضغط التعذيب ، ولكم من مرة نصحوه بالأعتراف ، وكم من مرة أكد أن مارك أنطوان إنتحر . وبعد راحة مدتها نصف ساعة خضع للتعذيب الشديد الاستثنائى حيث صبوا فى حلقه نحو « جالونين » من الماء ولكنه أصر على أنه برىء . ثم صبوا فى حلقه عنوه جالونين آخرين حتى انتفخ جسمه إلى ضعف حجمه الطبيعى . ولكنه ظل مصرا على براءته فسمح له بالتخلص من الماء ، فأخذوه إلى ميدان عام أمام الكاتدرائية ووضع على صليب وبأحدى عشرة ضربة من قضيب حديدى هشم الجلاد أطرافه فى موضعين وأعلن الرجل براءته ، وهو يهيب بيسوع المسيح لنجدته ، وبعد ساعتين من الآلام المبرحه شنق ثم شدوا جثمانه إلى خازوق وأحرق (١٠ مارس ١٧٦٢)[٤٤] .

وأطلق سراح المسجونين الآخرين . ولكن الدوله صادرت ممتلكات كالاس . وأسرعت الأرملة وبيير إلى مأوى خفى فى مونتوبان وأرسلت البنتان إلى ديرين مختلفين . ولما رأى دونات أنه مهدد بالخطر فى نيم هرب إلى جنيف . وإذ سمع فولتير بالمأساة دعا دونات إلى ملاقاته فى لى دليس فى ٢٢ مارس وكتب فولتير إلى داميلافيل « سألت دونات إذا كان أبوه وأمه من ذوى الطبع الحاد ، فأجاب أنهما لم يضربا أحدا من أبنائهما قط ، وأنه ليس ثمة آباء أشد منهما حناناً وتسامحا[٤٥] . وإستشار فولتير تاجرين من جنيف كانا قد أقاما مع كالاس فى تولوز ، فأكدا صدق ما قال دونات . وكتب إلى بعض الأصدقاء فى لنجدوك فأجاب الكاثوليك والبروتستانت جميعهم بأن جريمة الأسرة كانت فوق أى شك معقول[٤٦] وأتصل فولتير بالأرملة فبعثت إليه برد واضح فيه صدقها واخلاصها كل الوضوح ، إلى حد أنه حفزه إلى العمل والتصرف . فأهاب بالكاردينال دى برينس . ودارجنتال ودوقة دى أنفيل ومركيزة دى نيقولاى والدوق دى ڤيللار والدوق دى ريشيليوليتوسلوا

إلى وزيرى الملك شوازيل وسانت فلورتين ليأمرا باعادة النظر فى المحاكمة . والحق دونات بأسرته وأحضر بيير كالأس إلى جنيف وأقنع مدام كالاس بالأقامة فى باريس حتى يكون من الميسور سؤالها والرجوع إليها . واستخدم محامين ليشيروا عليه بما يجب إتخاذه من إجراءات فنية قانونية فى القضية . ونشر كتيبا تحت عنوان « الوثائق الأصلية فى وفاة السيد كالاس[٤٧] ، واتبعه بنشرات أخرى . وأهاب بسائر الكتاب أن يسخروا إقلامهم لايقاظ ضمير أوربا وأثارة الشعور فيها . وكتب إلى داميلافيل « أحتج ودع الأخرين يحتجون على قضية أسرة كالاس ، أرفعوا عقيريتكم بالاحتجاج على التعصب[٤٨] » كما كتب إلى دالمبير « أرفع صوتك فى كل مكان ، إستحلفك بالله من أجل آل كالاس ضد التعصب . إنهم فقدوا اعتبارهم نتيجة أتهامهم بهذا الجرم الشائن . وهذا هو سبب شقائهم وتعاستهم ، وحث على التبرع بالأموال لسد نفقات هذه الحملة التى تحمل الجزء الأكبر منها حتى هذه اللحظة . وأنهالت عليه التبرعات من كل جانب ، ومن ملكة انجلترا وإمبراطورة روسيا وملك بولنده . ووافق محام لامع من باريس على إعداد القضيه لرفعها إلى مجلس الدولة دون أن يتقاضى أجرا . وقصدت بنات كالاس إلى باريس للحاق بوالدتهن . وحصلت أحداهن على رسالة من راهبة كاثوليكية تستدر العطف على آل كالاس[٥٠] وفى ٧ مارس ١٧٦٣ أستقبل وزراء الملك الأم وبناتها . واجتمع الرأى على ضرورة نظر القضية من جديد . وصدر الأمر باحضار كل الوثائق والمستندات المتعلقة بالموضوع من تولوز .

ولكن قضاة تولوز لجأوا إلى مائة حيلة للابطاء فى جمع الوقائق واحالتها . وفى أثناء ذلك الصيف كتب فولتير ونشر بحثه الهام « رسالة عن التسامح » ورغبة منه فى إزدياد أقبال الناس عليها وأفتتانهم بها كتبها بأسلوب يتسم باعتدال يثير الدهشة والعجب . أنه أخفى أنه المؤلف ، وتحدث حديث رجل مسيحى تقى متمسك بالدين مؤمن بالخلود ، وامتدح أساقفة فرنسا على أنهم سادة مهذبون ويفكرون ويعملون بشكل نبيل يتناسب مع شرف محتدهم[٥١] .

وزعم أو تظاهر بأنه يرتضى المبدأ الذى يقول بأنه « لاخلاص بغير الكنيسة[٥٢]». ولم تكن الرسالة موجة إلى الفلاسفة بل إلى رجال الدين الكاثوليك أنفسهم ، ومع ذلك لم تخل من الجرأة والتهور لأنه كثيراً ما نسى قراءه .

وبدأ فولتير رسالته بالحديث عن محاكمة كالاس وإعدامه وعرض تاريخ التسامح وبالغ فى الكلام عنه فى حالة اليونان ورومه . واستبق جيبون فى محاولة إقامة الدليل على أن اضطهاد المسيحين للهراطقة فاق بمالا يقاس اضطهاد الرومان للمسيحين حيث كان الهراطقة « يشنقون أو يغرقون أو تحطم أجسامهم فى عجلة التعذيب أو يحرقون بسبب حب الله[٥٣] » ودافع عن الأصلاح الدينى باعتباره ثورة لها ما يبررها ضد بيع البابوية لصكوك الغفران ، وهى البابوية التى حط من قدرها حوادث غرام البابا الأسكندر السادس وحوادث القتل التى أرتكبها قيصر بورجيا ابن البابا . وأبدى دهشته وشدة أستيائه عندما اطلع على محاولة حديثة لتبرير مذبحة سانت برثلميو (*) وسلم بأن البروتستانت كانوا كذلك غير متسامحين (**) وعلى الرغم من ذلك أوصى باباحة العبادة البروتستانتية فى فرنسا وعودة الهيجونوت المنفيين إليها.

« أنهم لا يطلبون الا حماية القانون الطبيعى لهم ، وإقرار صحة زواجهم ، والأطمئنان على أحوال أبنائهم وحقهم فى الوراثة عن آبائهم . وتحرير

(*) كان هذا فى « اعتذار لويس الرابع عشر » ١٧٦٢ بقلم القسيس كافيراك وقد استنكر كثير من رجال الدين الكاثوليك هذا الكتاب[٥٤] .

(**) وبما كان الوعاظ اللوثريون والكلفنيون قليلي الإتجاه إلى الشفقه والرحمة قساه القلوب غير متسامحين كذلك حين ينتقدون مخالفهم بقسوة . إن القانون الوحشى الذى يحظر على أى كاثوليكى رومانى الإقامة فى بلاد معينة لأكثر من ثلاثة أيام لم يلغ بعد — رسالة عن التسامح المطلق فى أعمال فولتير ٢١ أ ص ٢٥٧ أنظر شجب فولتير لقانون الهيجونوت المتعصب البعيد عن التسامح فى مقالة « داود » فى القاموس الفلسفى .

أشخاصهم ، ولا يطالبون بكنائس عامة ولا بأى حق فى الوظائف البلدية ولا فى المناصب الرفيعة(٥٥) .

وعلى الرغم من هذا التحديد البارع عرف فولتير التسامح بقوله :

« هل لى إذن أن اقترح أن يكون كل إنسان حراً فى أتباع ما يمليه عليه عقله هو ، ويؤمن بما يوحى به إليه عقله المستنير أو المخدوع أيا كان ؟ وحقا شريطة إلا يعكر صفو النظام العام . . . وإذا كنت تصر على القول بأن عدم الإيمان بالديانة السائدة جريمة فانك بذلك تتهم المسيحين الاولين وأباءك الا قدمين وتبرر عمل من تلومهم على أضطهادهم وتعذيبهم . . . . وإذا كان ينبغى أن يكون للحكومة الحق فى معاقبة الناس على أخطائهم فمن الضرورى أن تتخذ هذه الأخطاء شكل الجرائم . ولن تتخذ الأخطاء شكل الجرائم إلا إذا ازعجت المجتمع وعكرت صفوه . وهى تقلق بال المجتمع إذا ولدت التعصب . ومن ثم يجدر بالناس أن يتفادوا التعصب ليكونوا جديرين بالتسامح »(٥٦) .

وختم فولتير حديثه بالتوجه إلى الإله « أنك لم تخلق لنا القلوب ليكره بعضنا بعضا ، ولا الأيدى ليقتل الواحد منا الآخر . فلنسلم بأن الواحد منا قد يعين الأخر على احتمال عبء الحياة المؤلمة الزائلة . نرجو الايستخدم الناس هذه الفروق الطفيفة فى الملابس التى تستر أجسامنا الضعيفة ، وفى الطرق التى نعبر بها عن أفكارنا وفى عادا تنا السخيفه وقوانيننا القاصرة . . . وباختصار هذه الاختلافات اليسيرة الموجودة بين الذرات المسماة بالناس . . . تقول نرجو إلا يستخدمها الناس علامات على الكراهية والاضطهاد المتبادلين ونرجو أن يتذكر الناس جميعا أنهم أخوة(٥٧) .

ولسنا ندرى أى نصيب أسهم به هـــذا النداء فى مرسوم التسامح الذى أصدره لويس السادس عشر فى ١٧٨٧ . وهل وصل إلى أسماع وزراء لويس الخامس عشر وحرك مشاعرهم . وعلى أية حال وبعد معوقات جمة

امتحن الله بها قلوب آل كالاس أعلن مجلس الملك فى ٩ مارس ١٧٦٥ أن أتهام جان كالاس بأطل ونطق ببراءته وحصل شوازيل من الملك على منحه قدرها ثلاثون ألفا من الجنيهات تعويضا للأرملة وأبنائها عن فقد ممتلكاتهم. ولما وصلت أنباء هذا الحكم إلى فرنى بكى فولتير فرحا .

وفى الوقت نفسه (١٩ مارس ١٧٦٤) أمرت المحكمة البلدية فى Mazamet فى جنوب وسط فرنسا بأعدام بيير بول سيرفن Sirven وزوجته بتهمة قتل أبنتهما اليزابث للحيلولة بينها وبين التحول إلى الكاثوليكية . وقضى الحكم بأن تشهد البنتان الباقيتان على قيد الحياة إعدام والديهما(٥٨) وكان ينبغى أن يتم هذا الاجراء بصورة رمزية لأن الأسرة كانت قد هربت إلى جنيف (١ إبريل) وكانت قد أبلغت فولتير بقصتها .

وكان سيرفن بروتستانتيا يقيم فى كاستر Castre على بعد نحو أربعين ميلا إلى الشرق من تولوز . وفى ٦ مارس ١٧٦٠ اختفت الأبنة الصغرى اليزابث وعبثا حاول والداها البحث عنها . واستدعاهما أسقف كاستر وأبلغهما أنه كان قد أرسل الفتاة إلى أحد الأديار ، بعد أن أفضت إليه برغبتها فى أن تصبح كاثوليكية . وسمح القانون الفرنسى الذى سن فى عهد لويس الرابع عشر للسلطات الكاثوليكية بانتزاع الولد فوق سن السابعة من بين أحضان والديه ، ولو بالقوة عند الاقتضاء ، إذا طلب التحول إلى المذهب الكاثوليكى . وأستبدت الأوهام باليزابث فى الدير وتحدثت إلى الملائكة ومزقت ملابسها عن جسمها وتوسلت أن تضرب بالسياط . وبأتت الراهبات فى حيرة من أمر اليزابث ، وكيف يتصرفن معها ، فابلغن الأسقف بخبرها ، فأمر باعادتها إلى والديها .

وفى يولية ١٧٦١ أنتقلت الأسرة إلى سانت آبى St.Abby على بعد ٥٠ ميلا من كاستر . وهناك فى أحدى ليالى ديسمبر غادرت اليزابث غرفتها — ولم تعد . وفى ٣ يناير وجد جثمانها فى بئر . ولم يكن أهالى سانت آبى ميالين إلى أتهام أسرة سيرفن بقتلها ومثل ٤٥ شاهدا أمام المحكمة المحلية . فعبروا

جميعا بلا أستثناء عن رأيهم فى أن الفتاة إنتحرت أو أنها سقطت فى البئر بمحض الصدفة . وأرسل المدعى المحلى ترنكييه Trinquier مذكرة بالحادث إلى المدعى العام فى تولوز فأصدر إليه تعلياته بمواصلة السير فى القضية مع إفتراض أن سيرفن مذنب : وبدا هذا غير جائز لأن سيرفن كان متغيبا عن البلدة ليلة اختفاء اليزابث . كما كانت زوجته عجوزا واهنة . وكانت أحدى البنات حبلى . وكاد يكون من غير المعقول أن تكون أحدى هاتيك السيدات قد دفعت بالبنت إلى البئر دون أن يسمع لها صراخ . ومع ذلك فأن ترنكييه أصدر فى ٢٠ يناير أمرا بالقبض على سيرفن .

وعلم سيرفن أنه قبل ذلك بنحو شهرين كانت محكمة تولوز قد أصدرت حكما بأعدام جان كالاس بتهمة مماثلة بناء على :أدلة مشتبه فيها غير قاطعة . وإذا أستسلم للأعتقال والتحقيق والمحاكمة فإن قضيته ستعرض فى النهاية على برلمان تولوز ، ولما لم يكن يثق فى هذه المحاكم فأنه حمل زوجته وبناته فى أو اسط الشتاء عبر فرنسا وفوق جبال السفن Sevennes إلى جنيف على أمل أن يهب المدافع عن كالاس لمعاونته .

وكان فولتير لايزال منهمكا فى حملته من أجل كالاس فرأى من سداد الرأى ألا يشغل الذهن الفرنسى بقضيتين فى وقت معاً . وأسهم فى الأخذ بيد الأسرة التى كانت أملاكها قد صودرت ، ولكن عندما أقحمتها سلطات تولوز فى الموضوع استجابة لطلب وثائق مستندات قضية كالاس ، استأنفه فولتير الهجوم بالبدء فى شن حملة من أجل سيرفن ، وعاود الكرة فى طلب المعونة والتبرعات التى جاءته من فرد ريك الثانى ملك بروسيا وكريستيان السابع ملك الدنمرك وكترين الثانية قيصرة روسيا وستانسلاس بونيا توسكى ملك بولندة . ورفضت محكمة مازامى طلب نسخة من أوراق التحقيق .

ويجدر بنا ألا نسهب فى إيراد تفاصيل الصراع فى هذه القضية فقد ظلت منظورة حتى نقض برلمان تولوز آخر الأمر فى ١٧٧١ حكم محكمة أول

درجة و قضى ببراءة أسرة سيرفن وأعاد إليها أملاكها . وقال فولتير :

« لقد استغرق صدور الحكم باعدام هذا الرجل ساعتين واستغرق النطق ببراءته تسع سنوات (٥٩) .

وروع فولتير حين علم وسط هذا الجهد الكبير والشغل الشاغل أنه هو نفسه متورط فى قضية برزت فجأة فى آبفيل على شاطىء المانش . ذلك أنه فى ليلة ٨ ــ ٩ أغسطس شوه صليب خشبى (تمثال يمثل المسيح مصلوباً) على جسر بونت نيف على نهر السوم كما لطخ صليب آخر فى مقبرة سانت كاترين بالأوساخ والأقذار . وفزع رجال الدين والأهالى حين ما اكتشفوا تدنيس المقدسات على هذا النحو وقصد أسقف أميان إلى آبفيل وقاد وهو حافى القدمين موكباً اشترك فيه كل السكان تقريباً يلتمسون المغفرة من الرب . وقرىء فى كل الكنائس تحذير ينذر بتوقيع العقوبة الصارمة على كل من كان فى مقدوره أن يلقى شيئاً من الضوء على هذا السر ولم يتقدم الأدلاء بما يعلم . واستمع القاضى دوفال إلى ٧٧ شاهداً وذكر بعضهم أنهم لاحظوا ثلاثة شبان يمرون بموكب عيد الجسد دون أن يركعوا أو يخلعوا قبعاتهم . وزعم آخرون إن عصابة من شبان آبفيل ، من بينهم ابن دوفال ، درجوا على السخرية من المواكب والاحتفالات الدينية والتغنى بأغان ماجنة (٦٠). وفى ٢٦ أغسطس صدرت مذكرات إلى جيار أتاللوند وشيفالييه جان فرنسوا ليفبر دى لابار وإلى شاب فى السابعة عشرة يعرفه التاريخ باسم موازنل فقط . وهرب أتاللوند إلى بروسيا . وقبض على موازنل Moisnel ودى لابار . وحصل موازنل على عفو جزئى باعترافه بأنه هو والآخرون ارتكبوا هذه الأعمال المزعومة . واتهم دى لابار بأنه بصق على صور القديسين وبأنه أنشد ابتهالا بذيئاً اسمه «لامادلين» وبأنه أعاره القاموس الفلسفى» ورسالة إلى فراشه لفولتير ، وزعم أنه رأى أتاللوند يضرب الصليب فوق القنطرة ويلطخ الصليب بالأقذار فى المقبرة .

وكان لابار حفيد قائد أخنى عليه الدهر واعترف بأنه مهرطق . وروى أحد الشهود أن لابار عندما سئل لماذا لم يخلع قبعته أمام موكب عيد القربان أجاب بأنه « اعتبر القربان قطعة من الشمع ولم يستطع أن يفهم كيف يقدم أى إنسان على عبادة إله من العجين . وأقر لابار بأنه ربما قال شيئاً من هذا القبيل وأضاف إنه كان قد سمع شباناً آخرين يبدون شيئاً من مثل هذه المشاعر والآراء وإنه لاضير عليه من مثلها . كذلك وفتشت مكتبته فوجد فيها قاموس فولتير وكتاب هلفشيوس « الذكاء وكتب أخرى تهاجم الدين وفى أول الأمر نفى علمه بانتهاك أتاللوند للحرمات المقدسة فلما علم باعتراف موازنل بذلك عاد فأكد صحته . وكانت الجريمة النهائية التى اتهم بها دى لابار هى التجديف على الله والقربان المقدس والعذراء المقدسة والدين والوصايا الالهية وتعاليم الكنيسة والتغنى بأغنيتين مملوءتين بالتجديف اللعين البغيض ووضع علامات التقديس والاجلال على بعض الكتب السيئة السمعة وانتهاك حرمة علامة الصليب وسر تقديس النبيذ والبركات التى تمنحها الكنيسة والتى يقرها المسيحيون(٦١) .

وفى ٢٨ فبرأير ١٨٦٦ أصــدرت محكمة آبفيل حكمها . وهو يقضى بتعذيب لابار واتاللوند عند اعتقالهما حتى يبوحا بأسماء شركائهما . كما يقضى عليهما بالتكفير علناً أمام الكنيسة الرئيسية فى المدينة ويقطع لسانيهما من الجذور وضرب عنقيهما ثم إحراق جثتيهما حتى تصيرا رمادا . كما يجب إلقاء قاموس فولتير الفلسفى فى نفس النار . واستؤنف الحكم أمام برلمان باريس . وطالب بعض الأعضاء بتخفيفة . فرد العضو باسكييه بأن الأمر يحتاج إلى إنذار وعقوبة رادعة لاستئصال شأفة الكفر الذى يهدد الاستقرار الاجتماعى والأخلاقى . وحاول التدليل على أن المجرم الحقيقى هو فولتير ، ولكن حيث أنه لاسبيل أمام البرلمان للوصول إلى أس البلاء فيجب أن ينال تلميذه جزاءه بدلا منه . وصوت عضوان على إبدال الحكم وتخفيفه وصوت خمسة عشر عضوا على تنفيذه برمته . وفى أول يولية ١٧٦٦ نفذ

الحكم باستثناء قطع اللسان . ولقى لابار مصيره دون توريط أحد من أصدقائه . وفصل الجلاد الرأس عن الجسد بضربه مسددة تسديداً محكما مما نال إعجاب الجمهو واستحسانه[٦٢].

وصعق فونتير لصرامه العقوبة وأحس بأنها وحشية خليقة بمحكمة التفتيش الإسبانية فى أسوأ أحوالها ، وكتب أسقف أنسى Anncey إلى المحكمة الفرنسية يطلب تطبيق العقوبات الواردة فى إلغاء مرسوم نانت على يد فولتير الذى كتب إلى دالمبير يقول إن هذا الأسقف الوغد لايزال يقسم أنه سيرانى أحرق فى هذه الدار الدنيا أو فى الدار الآخرة . . . وتجنباً للاحتراق فانى أرقد فى مقدار من الماء المقدس[٦٣]. وخشية إستدعائه للمثول أمام برلمان ديجون إنتهز الفرصة لتجربة المياه المعدنية فى رول بسويسرا . ثم عاد إلى فرنى ليستأنف جهوده من أجل سيرفن .

واقترح آنذاك على دالمبير وديدرو أن يبرحا هم وسائر الفلاسفة فرنسا تحت جنح الليل : ويقيموا فى كليفز تحت حماية فردريك الأكبر . ولم يتحمسا كما لم يتحمس فردريك لهذه الخطة . وأقر الملك بأن عقوبة دى لابار كانت متطرفة فى صرامتها أما هو فكان يرى من جانبه الحكم على الشاب بقراءة « خلاصة اللاهوت »لتوماس أكويناس ، فهذا فى نظره. مصير أسوا من الموت ، ثم استطرد فردريك ليزود فولتير بشىء من النصيحة :

« أن ما حدث فى آبفيل كان مأساة ولكن ألم يخطىء أولئك الذين عوقبوا ؟ هل لنا أن نهاجم مباشرة الحزازات والاحقاد التى غرسها الزمن فى أذهان الأمم ؟ وهل يجوز لنا إذا إردنا أن ننعم بحرية الفكر أن نحقر الديانة السائدة . أن الإنسان الذى لا يهدف إلى تعكير الصفو وأثارة القلق نادراً ما يضطهد . وتذكر قول فونتنل « إذا كانت يدى مملوءة بالحقائق فينبغى على أن أفكر أكثر من مرة قبل أن أفتحها[٦٤] .

أما فيما يتعلق بمستعمرة الفلاسفة المقترحة فى كليفز فإن فردريك عرض أن يبسط عليهم حمايته شريطة أن يحافظوا على السلام ويحترموا عقيدةالشعب.

وأضاف « أن الرجل المتوسط لاينبغى له أن يتنور . . . وإذا كان للفلاسفة أن يشكلوا حكومة فان الناس بعد ١٥٠ عاماً سيصطنعون خرافات جديدة، فيصلون لأصنام صغيرة أو للأجداث التى دفنت فيها رفات عظماء الرجال، أو يتضرعون إلى الشمس أو يعمدون إلى شىء من مثل هذا الهراء . إن الخرافة موطن ضعف فى ذهن الإنسان وجزء لايتجزأ منه ولا ينفصل عنه، إن هذا الضعف كان موجوداً وسيظل موجوداً دائماً (٦٥)

وتابع فولتير حملته وأخرج « موجز عن موت شيفاليه دى لابار . وأرسل إلى أصدقائه الملكيين يطلب إليهم التوسط لدى لويس الخامس عشر ليرد إلى الشاب الميت اعتباره بشكل أو بآخره . ولما أخفقت هذه المساعى أرسل إلى لويس السادس عشر (١٧٧٥) رسالة عنوانها « صرخة الدم البرىء» . ولم ينقض الحكم على لابارقط ولكن رضيت نفس فولتير حين رأى ترجو يعيد النظر فى قانون العقوبات الذى أجاز إعدام شاب نتيجة أخطاء يبدو أنها تستحق عقوبة أقل من ضرب العنق . وتابع فولتير بنشاط يستحق التنويه به فى مثل سنه، قيادة هذه الحملة الصليبية حتى آخر حياته ضد أفراط الكنيسة والدولة .

وفى ١٧٦٤ ظفر بإطلاق سراح كلود شومونت الذى كان قد حكم عليه بالتجديف فى السفن الشراعية لحضوره صلاة بروتستانية . ولما أطاحوا برأس كونت توماس دى لالى (١٧٦٦ فى باريس) القائد الفرنسى الذى هزم أمام الإنجليز فى الهند بتهمة الخيانة والجبن فإن فولتير تلبية لنداء ابن لالى، كتب مجلداً من ٣٠٠ صحيفة تحت عنوان شذرات تاريخية عن الهند يبرىء فيه الكونت، واستحث مدام دى بارى لتتوسط لدى لويس الخامس عشر وألغى الحكم ١٧٧٨ قبل وفاة فولتير بزمن قصير .

إن هذه الجهود الشاقة أرهقت المناضل الذى بلغ الثمانين . ولكنها جعلت منه بطل فرنسا المتحررة . وأورد ديدرو فى كتابه (ابن أخى رامو) أن فولتير بلغ الذروة فى كتابه محمد، ولكنى كنت أفضل أن أدافع عن كالاس . (٦٦)

وقال بوماريه وهوقسيس بروتستانتى فى جنيف لفولتير — يبدو كأنك تهاجم المسيحية ولكنك تؤدى عمل الرحل المسيحى (٦٧) وأسهم فردريك على — الرغم من كل حرصه وحذره فى تقدير وإجلال الرجل الذى جعل من نفسه « ضمير أوربا » ، حيث يقول » كم هو جميل أن يسمع فيلسوف صوته لكل الناس من ميكنه . وأن يجبر الجنس البشرى الذى يتكلم هذا الفيلسوف باسمه القضاة على إعادة النظر فى الأحكام الجائرة وإذا لم يكن ثمة شىء آخر يتحدث بفضل فولتير ، فإن هذا وحده كاف ليحظى بمكان بين من أحسنوا إلى الجنس البشرى وأدواله أجل الخدمات (٦٨)

٦ — أقضوا على الرجس

فى غمرة هذا الصراع انقلبت مناهضة فولتير للمسيحية إلى بغض استمر عشر سنين من حياته (١٧٥٩ — ١٧٦٩) وكان قد بدأ باحتقار شبابى للمعجزات والأسرار والأساطير التى واجهت الناس ، ثم انتقل إلى تشكك ساخر فى المبادىء المسيحية مثل التثليث وتجسد المسيح (اتحاد الألوهية والناسوتية فيه) وآلام المسيح وموته (تكفيراً عن خطايا البشر) ، عما اعترف توماس أكويناس صراحة بأنه ليس فى متناول العقل ، أو أنه يشق على الفهم . ولكن حالات التمرد والثورة هذه طبيعية فى ذهن نشيط يحس بالنمو يسرى فى العروق وربما مرفولتير بهذه الحالات حتى أصبح رجلا يتغاضى كما يتغاضى العالم تغاضياً لطيفاً عن المعتقدات العزيزة على جماهير الناس المفيدة بوصفها عاملا مساعداً على النظام الاجتماعى والانضباط الخلقى . وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان رجال الدين الفرنسيون متسامحين نسبيا ، وأسهموا فى تقدم الاستنارة ولكن اتساع نطاق الكفر والترحيب الذى قوبلت به دائرة المعارف أزعجا رجال الكنيسة وانتهزوا فرصة ما داخل الملك من رعب بمحاولة دامين Damiens قتله (١٧٥٧) ليخرجوا من الدولة بمرسوم (١٧٥٩) ينص على أن مهاجمة الكنيسة جريمة عقوبتها الإعدام . ورأى الفلاسفة فى هذا إعلانا للحرب ، واحسوا بأنهم ليسوا منذ الآن فى حاجة إلى أن يدخروا أية مشاعر أو أية تقاليد فى شن الهجوم على ما بدا لهم أنه حماقة

قاتلة . ورأوا خلف جمال الديانة وشعرها دعاية تسخر الفن وتصادره ، وخلف مساندة المسيحية للفضيلة والأخلاق القويمة ألف مهرطق يحرقون وهم مشدودون إلى الخازوق ، كما رأوا أهل مدينة ألبى Albi (فى جنوب فرنسا) يسحقون فى حرب صليبية طاحنة ، ورأو أسبانيا والبرتغال تجللهما الكآبة والقتام بسبب محاكم التفتيش ، وفرنسا ممزقة منعزلة بما فيها من أساطير متنافسة ، ورأوا مستقبل الروح البشرية فى كل مكان خاضعاً للتجديد أو البعث المتكرر للخرافه ولأساليب الكهنة والاضطهاد والتعذيب ، وعليهم أن يكافحوا نكسة العصور الوسطى هذه فى أواخر سنى حياتهم .

وثمة ثلاثة أحداث جعلت من عام ١٧٦٢ نقطة تحول فى هذا الصراع المتعذر كبح جماحه . فبدا اعدام كالاس فى مارس وكأنه إعلان عن انتكاس فرنسا إلى العصور الوسطى ومحاكم التفتيش . إن السلطة المدنية هى التى تولت المحاكمة والتعذيب والقتل ، ولكن وراء خلفيـة من تعصب شعبى عام ولدتـه التعاليم والطقوس والكراهية الدينية . وفى مايو زود كتاب روسو « اميل القرن الثامن عشر » بإعلان قسيس سافوى لعقيدة الإيمان ، وهو ولو أن مؤلفه خصيم للفلاسفة جرد المسيحية من كل شىء تقريبا فيما عدا الإيمان بالله وبأخلاق المسيح . وبدا أن احراق الـكتاب فى ١١ يونية فى باريس و ١٩ يونية فى جنيف وحد بين الكاثوليكية والكلفنية فى مؤامرة ضد العقل البشرى . وكان واضحا أن استنكار برلمان باريس لليسوعيين فى أغسطس نصر للفلاسفة ، كما كان أيضاً نصرا للجانسنيين الذين سيطروا على برلمانات باريس وتولوز وروان ، وإن تصرفات البرلمانات فى قضيتى كالاس ولا بار لتوضح أن الجانسنيين كانوا أعداء ألداء لحرية الفكر ، قدر عداوة غيرهم فى تارنيخ فرنسا بأسره . وفى نفس الوقت نجد أن العداء بين البرلمانات والحاشية الملكية ونمو سلطان شوازيل فى الحكومة (١٧٥٨ — ١٧٧٠) . وهو من مشايعى فولتير— مهدا للفلاسفة الفرصة للمضى فى النضال مع التعرض لخطر أقل مما هو مألوف من جانب رقباء الدولة والشرطة ، ومن ثم أعدت الساحة للذروة الهجوم على المسيحية .

والآن يطلق فولتير النذير ويصيح بأعلى صوته غاضبا فى « إقضوا على الرجس » . وكان قد بدأ باستخدام هذه العبارة فى ١٧٥٩ ، واستخدمها منذ تلك اللحظة مئة مرة فى عدة صيغ مختلفة ، كما استخدمها أحياناً بمثابة توقيع [٦٩]. لقد اكتسب فولتير ابن الثمانية والستين عاما حيوية جديدة ونشاطا جديدا حين شبه نفسه بكاتو سنكس القنصل حين ختم خطابه أمام مجلس السناتو الرومانى بصيحته « حذار من قرطاجه » وكتب فولتير يقول « إنى مصاب بالمغص ، وأنا أعانى كثيرا ، ولكن تخف آلامى حين أهاجم الخزى والعار »[٧٠]. وفى حماسة شابة وثقة بالغة المدى نصب نفسه ونفرا من المعاونين المترددين لشن الحملة على أقوى نظام فى تاريخ البشرية .

وماذا كان يقصد بالرجس؟هل كان يريد القضاء على الخرافة والتعصب والظلامية (النزعه إلى تعويق التقدم وانتشار المعرفة) والاضطهاد ؟ أو أنه أخذ على عاتقه هدم الكنيسة الكاثوليكية ، أوكل مذاهب المسيحية ، أو الدين أى دين ؟ أغلب الظن ألا يكون هذا الأخير لأننا نراه مرة بعد أخرى وسط الحملة يعلن إيمانه بالتوحيد ، وفى بعض الأحيان فى لغة عامرة بتقوى فولتير . وفى القاموس الفلسفى عرف الديانة بطريق غير مباشر بقوله « إن كل شىء تقريبايتجاوز حدود عبادة كائن أسمى وإخضاع القلب لأوامره الأبدية هو خرافة[٧١]وقد يبدو أن هذا يرفض كل أشكال المسيحية فيما عدا مذهب الموحدين . إن فولتير نبذ تقريباً كل المبادىء المميزة فى المسيحية التقليدية — الخطيئة الأولى ، التثليث ، التجسد ، تكفير المسيح عن خطايا البشر ، والقربان ، وسفه « التضحية » من الله لله على الصليب أو من الكاهن فى القداس ، ومن ثم نبذ معظم أشكال البروتستانتية أيضا ، واعتبر الكلفنية عائقا فى سبيل التقدم ونشر المعرفة ، مثل الكاثوليكية . وصعق كهنة جنيف حين قال بأن كلفن مراوغ فظيع » ورأى أن فى مقدوره أن يعيش راضيا قانعاً فى ظل الكنيسة الرسمية كما كان قد رآها فى انجلترا . وكتب إلى دالمبير : «آمل أن تقضى على الرجس ، تلك هى النقطة الهامة . ويجدر أن نهبط بها

إلى ما هى عليه فى إنجلترا . وستصل إلى هذه الغاية إذا أردت ، أو تلك هى أجل خدمة يمكن أن تؤديها للجنس البشرى » (٧٢) وقد نخلص من هذا إلى أنه قصد بالرجس الدين عامة ، بل الدين الذى قصد به نشر الخرافة والأساطير والتحكم فى التعليم والسيطرة عليه ، ومناهضة الانتقاض على الرقابة ، والأعتراض على الاضطهاد . وتلك هى المسيحية التى رآها فولتير فى التاريخ وفى فرنسا .

وهكذا أحرق كل الجسور من خلفه ، ودعا كل أفراد عصبته للحرب . « وكان المطلوب لذلك الحصون خمسة أو ستة من الفلاسفة يفهم الواحد منهم الآخر ... لقد غرس دالمبير وديدرو وآل بولينجاروك وهيوم وأمثالهم بذور الحقيقة » (٧٣) ولكن بشكل مشتت تعوزه الخطة المتماسكة ، وعليهم الآن أن يتحدوا ، وسيكون هو على رأسهم ، وتلك قضية يسلم هو بها ، ويشير عليهم بخطة العمل فيقول : « اضرب وأخف يدك ... إنى آمل أن يستطيع كل من الإخوة أن يسدد بعض السهام إلى هذا المسخ دون أن يعلم أية يد صوبتها إليه (٧٤) إنى لأرجو أن يتسلل الإخوان إلى الأكاديميات ومراكز النفوذ وإلى الوزارة إذا أمكن ، إنهم ليسوا فى حاجة إلى تحويل الجماهير بل إلى تحويل الرجال ذوى السلطة الذين يمكنهم أن يأخذوا بزمام المبادرة . إن بطرس الأكبر غير روح روسيا ووجهها » . وكذلك حاول فولتير إدخال فردريك فى هذه الزمرة (٥ يناير ١٧٦٧) « مولاى إنك على حق تماما أن الأمير القوى الشجاع يستطيع بالمال والجنود والقوانين أن يحكم الناس دون عون من الدين الذى ما أقيم إلا ليضللهم ويخدعهم . إن جلالتكم تؤدون إلى الجنس البشرى أجل خدمة خالدة باقتلاع جذور هذه الخرافة المخزية ، ولا أقول من الرعاع غير الجدير بن بالتنوير ، الذين يتبعون أول ناعق ، وهم أهل للخضوع لأى سلطان ، ولكن أقول بين الناس المخلصين الأمناء ، بين الذين يفكرون والذين يريدون أن يعملوا فكرهم ..

وعليك أن تختبر عقولهم .. ولست آسف على شىء حين تدهمنى المنون إلا على أنى لن أتمكن من معاونتك فى هذه المهمة النبيلة » (٧٥) .

وسخر فردريك من سذاجة هذا الشيخ الهرم ،ولكن فولتير أصر وثابر ، مما كان له كما سنرى فيما بعد ، بعض الأثر على وزراء فرنسا والبرتغال وأسبانيا .

ورحب بأهوان أقل شأنا وكتب نصائح رسولية إلى بورد فى ليون ، وسرفان فى جرينوبل ، وبيير روسو فى بويون ، وأود بير فى مرسيليا ، وريبوت فى مونتوبان ، ومركيز دار جنس فى شارنت ، وإلى الراهب أودرا فى تولوز . وأطلق على هؤلاء جميعا وغيرهم اسم « الإخوة » ، وأرسل إليهم بالمـــادة والنداءات يستحثهم ويحفزهم حتى لا يغلب عليهم النعاس : « شنوا الحرب أيها الإخوة جميعا ببراعة على الرجس . إن كل ما يهمنى هو نشر الإيمان والحقيقة والنهوض بالفلسفة ، والقضاء عن الخزى والعار . اشربوا معى نخب أفلاطون (ديدرو) وامحوا الرجس . إنى أعانقكم أيها الإخوة جميعا .. إن صحتى تدعو إلى الإشفاق ..امحوا الرجس . إنى أحتضن اخوتى فى كنفوشيوس .. فى لوكريشس ، فى شيشرون ، فى سقراط ، فى ماركوس أوربليوس ، فى جوليان ، وفى شيوخنا الإجلاء جميعا . إنى أمنح بركتى للإخـــوة جميعا . صلوا وارقبوا أيها الإخوة ، اقضوا على الرجس » (٧٦) .

وباتت الكتب الآن أسلحة وبات الأدب حربا . ولم تقتصر الأمور على دخول ديدرو ودالمبير وهلفشيوس ورينال وموريلليه وكثير وغيرهم بأقلامهم فى المعركة . ولكن فولتير الذى كان يحتضر دائما أصبح مستودعا حقيقيا للقذائف ضد رجال الدين ، وأخرج على مدى عشر سنين نحو ثلاثين كتيبا . ولم يكن يؤمن بفعالية المجلدات الضخمة فهو يقول : « أى أذى ينجم عن كتاب (الموسوعة مثلا) يكلف مائة كروان .. إن عشرين مجلدا من القطع الكبير لن يفجروا ثورة أبدا . إنها المجلدات الصغيرة السهلة الحمل القليلة

الثمن (من ذات الثلاثين سو) هى التى يخشى جانبها . ولو كان الأنجيل غالى الثمن (ثمنه ١٢٠٠ سسترس عملة رومانية قديمة) لمـــا قامت الديانة المسيحية[٧٧] .

ومن ثم لم يخرج مجرد تواريخ وروايات ، بل نشرات وحكايات وعظات وتوجيهات وتعاليم دينية مفرغة فى قالب أسئلة وأجوبة ، وخطبا لأذعة ومحاورات ورسائل ونقدا موجزا للكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ، مما يسهل تداوله وانتشاره ويصيب الرجس بجراح ، وكان فردريك قد كتب إليه منذ زمن طويل :

« أنى لأتصور أنه فى مكان ما فى فرنسا نخبة منتقاة من ذوى العبقرية الرفيعة المتساوية ، ممن يكتبون معا وينشرون كتاباتهم تحت أسم فولتير . . . فإذا كان هذا الأفتراض صحيحاً فلسوف أصبح مؤمنا بالتثليث وابدأ فى رؤية ضوء النهار فى هـــذا السر الذى آمن به المسيحيون حتى الأن دون أن يفهموه[٧٨] .

ولكن فولتير لم يكن يكتب الآن تحت أسم فولتير ، بل استخدم أكثر من مائة من مختلف الأسماء المستعارة ، بل أحيانا ، فى مرح شيطانى ، نسب هجماته العنيفة إلى رئيس أساقفة كنتربرى ، أو رئيس أساقفة باريس ، أو إلى قسيس أو كاهن أو راهب ، ورغبة فى أبعاد كلاب السماء عن طريقه خص نفسه بأحدى قذائفه . وكان يعرف أصحاب مطابع باريس وأمستردام ولأهاى ولندن وبرلين ، فاستخدمهم فى حملته . وعن طريق داملافيل وغيره ، وكان يزود باعة الكتب مجانا بهذه النشرات ، وكانوا يبيعونها بأثمان رخيصة . وهم بذلك يغامرون . وأشتد العود ونما الغرس .

ونشر آنذاك فى ١٧٦٢ « عظة الخمسين » التى كان قد الفها قبل ذلك بعشر سنين على الأقل ، وقرأها على فردريك الأكبر فى بوتسدام ، وكانت أول هجوم مباشر على المسيحية . وبدأت بداية بريئة كل البراءة : « اجتمع كل يوم أحد فى مدينة تجارية آهلة بالسكان ، خمسون شخصا متعلما تقيا

متعقلا (الكويكرز فى لندن) فأدوا الصلاه وألقى أحدهم بحثا « ثم تناولوا طعامهم ، وأخذوا قدرا منه للفقراء ، وتناوب كل منهم الرياسة ، وأم الصلوات » وألقى الموعظة وهذه هى أحدى الصلوات وأحدى العظات :
« يا إلهنا ، يارب السموات ورب النجوم ، احفظنا بمنأى عن الخرافة . وإذا أسأنا إليك بتضحيات لا تليق بك فامح اللهم هذه الأسرار المخزية ، وإذا إنتقصنا من قدرك بهذه الخرافات الحمقاء ، فلتهلك الخرافات إلى الأبد . . . فليعش الناس ويموتوا فى عبادة إله واحد ، إله لم يكن ليولد أوليفنى(٧٩) » .

وحاولت العظة التدليل على أن الرب الذى ورد ذكره فى التوراة رب فخور حقود غضوب قاس قاتل ، لا يمكن لإنسان عاقل أن يعبده ، وأن داود كان وغدا منغمسا فى الشهوات سفاحا . فكيف يتسنى لأحد أن يصدق بأن هـــذا الكتاب تنزيل من عند الله ؟ وكيف تسنى أن يأتى من الأناجيل اللاهوت المسيحى الذى لايصدق ، والعمل الفذ السهل اليومى الذى يحول الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه والبقايا التى لا تحصى ، وبيع الغفران والعداوات والبغضاء والحريق فى الحروب الدينية ؟

« لقد قيل لنا إن الناس بحاجة إلى الأسرار ومن الواجب خداعهم وتضليلهم . أيها الأخوة ، هل يجرؤ أحد على العدوان على الإنسانية بهذا الشكل ؟ ألم يخلص آباؤنا (المصلحون) الناس من إحالة الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ، ومن الأعتراف المهموس به ، ومن صكوك الغفران ، ومن الرقى والتعاويذ ومن المعجزات الزائفة والتماثيل السخيفة ؟ ألم يتعود الناس الآن الأستغناء عن هذه الخرافات ؟ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنخطو بعض خطوات أبعد من ذلك . فالناس ليسوا ضعاف العقول كما هو مظنون ، أنهم يستطيعون فى سهولة ويسر أن يقروا عبادة حكيمة بسيطه لاله واحد .... أننا لانعمل على سلب رجال الدين ما وفرلهم سخاء أتباعهم ، بل أن كل ما نريده — حيث أن معظمهم يسخرون من الأباطيل التى يعلمونها — هو أن ينضموا الينا فى التبشير بالحقيقة . . . . وأى خير عميم لا يحصى يمكن أن يتأتى بسبب هذا التغيير الميمون(٨٠) !

أن هذا يرهقنا اليوم كل الأرهاق ، ولكنه كان مادة ثورية فى فرنسا القرن الثامن عشر . فــلا عجب إذن أن يصدره فولتير على زعم أن لامترى كان قد دبجه من قبل ، ولامترى فى عداد الأموات الآمنين .

وفى سنة ١٧٦٣ تحول المناضل إلى الدراما (المسرحيات) ، قصة قصيرة تافهة تحت عنوان « أبيض وأسود » ، وكتيب « أسئلة وأجوبة عن الرجل الأمين » يسرد فيه « ديانتة الطبيعية » ولكن عام ١٧٦٤ كان عاما بارزا ، فقد شغل فيه فولتير أصحاب المطابع « بأنجيل العقل » و « أختيار الديانة » (وهو طبيعة منقحة من كتاب جان مسلييه الملتهب) (العهد الجديد) ثم أحد أهم منشوراته وهو موجز القاموس الفلسفى (السهل الحمل) ولم يكن المجلد الضخم ذا الثمانمائة وأربع وعشرين صفحة ذات نهرين الموجود الآن ، أو الخمسة أو الثمانية مجلدات التى تملؤها « مجموعة أعماله » بل كان كتابا صغيراً يسهل الأمساك به أو أخفاؤه . إن إيجاز مقالاته وبساطة أساليبه ووضوحه ، كل أولئك جعله فى متناول مليون قارىء فى كثير من البلاد .

وهذا إنتاج ضخم جدير بالتنويه لرجل واحد . وربما كان به ألف من الأخطاء ، ولكن المادة التى جمعت فيه ، والمعلومات التى تناولت كل فروع المعرفة تقريباً ، جعلت الكتاب واحدة من المعجزات فى تاريخ الأدب . وأى جد ومثابرة وأى هذر وأى إصرار وعناد فى هذا الكتاب : أن فولتير منهمك فى القيل والقال ، أن لديه ما يقوله فى كل شيء تقريباً ، ولديه دائما شيء لايفقد أهميته وتشويقه أبدا تقريبا . وهنا كثير من العبث والتفاهة والسفاسف أو السطحية ، وهناك بعض ملاحظات حمقاء (إن عقل أوربا أحرز تقدما فى المائة سنة الأخيرة أكثر مما أحرز العالم كله من قبل منذ أيام براهما وزرادشت) [٨١] . ولكن لن يتسنى لأحد أن يلتزم جانب العقل والحكمة فى ألف صحيفة ، ولم يكن أى إنسان بارعا متألقا دائما وهو يكتب هذا القدر الكبير من الصفحات . أنه أورد فيه دراسة أصول الألفاظ وتاريخها ، لأن فولتير مثل كل قارىء محب للاستطلاع ، وكانت تجاذب

نطره المحن التى قاستها الألفاظ والكلمات فى ترحالها عبر الزمان . وهنا فى مقال « سوء استخدام الكلمات » ثم فى مقال « المعجزات » نجد قاعدة فولتير الشهيرة « حدد ألفاظك » .

وقصد بالكتاب أساساً أن يكون مصنعاً لإخراج الحجج ضد المسيحية كما عرفها فولتير ، وهنا نجد مرة أخرى الأشياء التى لا يمكن تصديقها فى الكتاب المقدس ومافيه من سخافات وحماقات ومخازلا فى مقال «المتناقضات» وحده ، بل فى كل صحيفة تقريبا . من خول الكنيسة سلطة الحكم بأن أربعة فقط من الخمسين انجيلا التى دونت فى القرن الذى تلا موت المسيح ، هى وحدها – أى الأناجيل الأربعة – معتمدة موحى بها من عند الله ؟ وأى سهو فاضح أن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء ثم يتعقب نسبه إلى داود الوغد عن طريق يوسف المزعوم الخامل . ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها ؟ وهل كان بولص الذى نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعاً أقوى من المسيح ؟

ولم يرق القاموس الفلسفى للآباء الروحانيين فى مدينة جنيف . وفى ٢٤ سبتمبر ١٧٦٣ أمر مجلس الخمسة والعشرين النائب العام بأحراق أية نسخة نجدها منه . وفى ١٧٦٥ أصدر برلمان باريس أمراً شبيها بهذا ، وقد رأينا مصير الكتاب فى آبفيل (١٧٦٦) وأكد فولتير لسلطات جنيف أن القاموس من عمل مجموعة من الكتاب مجهولة تماماً لديه . وفى الوقت نفسه أعد مقالات إضافية لتلحق بالطبعات الأربع الأخرى التى طبعت سراً قبل نهاية ١٧٦٥ كما أدخل مادة جديدة إلى الطبعات الخمس الإضافية التى ظهرت قبل وفاته فى ١٧٧٨ . ورتب الأمور مع باعة كتب جنيف المتسترين ليمدهم مجاناً بأكبر عدد ممكن من النسخ يمكن توزيعه ، ومع الباعة على أن يتركوا نسخاً من هذا القاموس فى الدور الخاصة [٨٢] :

وتابع فولتير الحرب بلا هوادة فى ١٧٦٥ – ١٧٦٧ . وفى ١٧٦٤ كان

قد ترك نهائيا داره فى لى دليس فى مدينة جنيف التى باتت غير ملائمة لهرطقاته وضاقت بها ذرعا ، وكان لمدة نحو ثلاث سنوات لم يكد يبرح مكانه فى فرنى ، وكان فى كل شهر تقريبا يرسل إلى إحدى المطابع نشرة جديدة ضد « العار » وزعم كتيب Ouestions de zopata (مارس ١٧٦٧) أنه مجموعة أسئلة طرحها أمام لجنة من اللاهوتيين أستاذ اللاهوت فى جامعة سالامنكا فى ١٦٢٩ . وأعلن زاباتا عن شكوكه فى « نجم بيت لحم » وفى الإحصاء المزعوم « لكل الأرض » الذى أجراه أغسطس ، وفى قتل الأبرياء « وإغراء الشيطان ليسوع فوق جبل يستطيع الإنسان منه أن يرى كل ممالك الأرض . وأين كان يقع هذا التل العجيب ؟ ولم لم يف المسيح بوعده فى الحضور على متن سحابة فى قوة ومجد عظيم ، ليؤسس « مملكة الله » قبل أن ينقرض هذا الجيل ؟ (٨٣) ما لذى عوقه ؟ هل كان الضباب كثيفا إلى حد كبير ؟ (٨٤) ماذا أفعل مع أولئك الذين يتجرأون على الشك ؟ .. هل ألجأ من أجل تنويرهم وتهذيبهم ، إلى تعذيبهم العذاب العادى وغير العادى؟ أو ألا يكون من الأفضل أن أتجنب هذه المتاهات ، وأحض على الفضيلة ببساطة فقط ؟ (٨٥) والخاتمة .

« حيث أن زاباتا لم يتلق جوابا ، فإنه لجأ إلى التبشير بالله بكل بساطة . وأعلن إلى الناس أنه « أى الرب » هو والد الجميع ، وأنه هو الذى يثيب ويعاقب وهو الغفور . واستخلص الحقيقة من الأكاذيب ، وفصل الديانة عن التعصب .وعلم الفضيلة ومارسها ، وكان وديعا عطوفا متواضعا وأحرق فى بلد الوليد (فى أسبانيا) فى عام البركة ١٦٣١ (٨٦) » .

وفى مايو ١٧٦٧ عاد فولتير إلى الهجوم فى نشاط أكبر فى كتاب من مائة وخمسين صفحة « اختبار هام للورد بولنجبروك » . وهنا وضع حججه على لسان الرجل الإنجليزى المتوفى . ولكنه كان من المحتمل أن يرتضى بولنجبروك هذا العبء الثقيل . وفى نفس العام نشر فولتير « الساذج » ، وهى قصة لطيفة تقع فى مائة صفحة عن أمريكى فاضل بشكل لا يصدق

احضروه إلى فرنسا من أمريكا، حيرته العادات الأوربية واللاهوت المسيحى. وفى ١٧٦٩ خرج كتيب « صيحة الأمم » وهو نداء إلى أوربا الكاثوليكية لتخلع نير سلطان البابوات المزعوم على الملوك والدول . وتابع الحملة فى نفس العام بكتاب جاد مدروس ولكنه مثير هو « تاريخ البرلمان » متهما هذه الهيئة بأنها مؤامرة من جانب الجانسنيين الرجعيين . وفى ١٧٧٠ — ١٧٧٢ أصدر تسعة مجلدات تحت عنوان أسئلة عن الموسوعة » وهى خليط من مقالات تشكل موسوعة رجل واحد . وهو أشد عداء للكاثوليكية وأقسى فى هجومه عليها من موجز القاموس الذى أسلفنا ذكره .

إن فولتير أخفى منشوراته عادة تحت أسماء أو عنوانات خداعة مضللة : « محاضرات فى تفسير العهد القديم ، رسالة إلى الرومان ، عظات الأب الجليل جاك روست ، محاضرات وعظات الكاهن بورن ، نصائح لأرباب الأسر . وساورت جمهور فرنسا المتعلم الظنون بأن فولتير هو المؤلف ، لأنه لم يكن يستطيع أن يخفى أسلوبه ، ولكن لم يثبت أحد ذلك ، وباتت هذه اللعبة المثيرة حديث باريس وجنيف ،وتردد صداها فى لندن وأمستردام وبرلين ، بل وفى فيينا ، ولم يحدث فى التاريخ أن لعب كاتب لعبة التمضية (أو الاختفاء) مع أعداء أقوياء مثل هؤلاء ، وبمثل هذا النجاح . وحاول مائة من الخصوم أن يردوا عليه ولكنه قارعهم الحجة بالحجة جميعاً ، وحارب فى قسوة ، وأحيانا فى خشونة وغلظة ، كما كان أحيانا مجحفا غير منصف ،وتلك هى الحرب . وكان مستمتعا فرحا بها، وحمى وطيس المعركة فنسى أن يموت .

والحق أن تفاؤلا غريبا غلب على فولتير ، الذى بدأ بعد « زلزال لشبونه » و « كانديد » وكأنه ينصح بالاستسلام لشرور الحياة التى لا سبيل لقهرها أو التغلب عليها . وراوده حلم فلسفة منتصرة على كنيسة متغلغلة فى حاجيات الناس . وإذا كان اثنا عشر من صيادى السمك الأميين قد أقاموا المسيحية ، فلم لا يستطيع اثنا عشر فيلسوفا أن يقضوا على تعاليمها وعلى محاكم

التفتيش فيها . وكتب إلى أحد الإخوة « عش سعيدا واقض على الرجس » وأكد أنهم سيقضون عليه [٨٧] . ألم يكن إلى جانب ملك وامبراطورة وعشيقة ملكية وكثير من الشخصيات اللامعة ؟ أنه تملق الحاشية وتودد إليها علنا أو سرا بمهاجمة برلمان باريس ، ونعم بعطف مدام دى بمبادور ومدام دى باري فيما بعد ، بل إنه كان يأمل فى إغضاء لويس الخامس عشر عنه . وكتب إلى دالمبير فى ١٧٦٧ « فلنبارك هذه الثورة السعيدة التى نشأت فى عقول كل المخلصين والأمناء من الرجال فى الخمسة عشر أو العشرين عاما الأخيرة ، إنها فاقت كل ما كنت أؤمل فيه) [٨٨] ألم يتنبأ بها ؟ ألم يكتب إلى هلفشيوس فى ١٧٦٠ (إن هذا القرن بدأ يشهد انتصار العقل) [٨٩] .

٧ — الدين والعقل

إن فولتير لم يكن من السذاجة بحيث يتصور أن الدين اخترعه القساوسة والكهنة ، بل على النقيض من ذلك كتب فى القاموس الفلسفى : (إن فكرة الإله مستمد من الشعور ،وذاك المنطلق الطبيعي الذى يتكشف بتقدم العمر ، حتى فى أغلظ البشر قلبا . وشوهدت أكثر آثار الطبيعة ادهاشا — وفرة المحصول والجدب والأمحال والجو المعتدل والعواصف ، المزايا والبلايا — كما كان الإحساس بيد سيد خارق للطبيعة ... إن الملوك القدامى استخدموا فى زمانهم هذه الأفكار ليدعموا سلطانهم [٩٠]. وأفردت كل جماعة إحدى القوى الخارقة لتكون إلها حارسا لها ، وأضفت عليه حالة من التقديس وعبدته وقدمت له القرابين ، على أمل أن يتولى حمايتها من سطو الجماعات الأخرى وآلهتها ، وأوجدت هذه المعتقدات الكهنة ، ولكن التفاسير والتأويلات والطقوس كانت من عمل الكهنة . وبمرور الزمن لعب الكهنة على خوف الناس واستغلوه ليبسطوا سلطانهم وقوتهم . واقترفوا كل ضروب الخداع واللؤم ، حتى إلى حد إعدام (المهرطقين) وقتل جماعات بأسرها ، والقضاء على الأمم تقريبا . وانتهى فولتير إلى القول : « لقد

كرهت الكهنة ، وأنا الآن أبغضهم ، وسأظل أبغضهم إلى يوم الحساب[٩١]».

أن فولتير وجد كثيراً مما يمكن قبوله فى الديانات غير المسيحية ، وبخاصة فى الكونفوشية (وهى ليست ديانة) ، ولكن لم يسره إلا النزر اليسير فى اللاهوت المسيحى . « أن لدى مائتى مجلد فى هذا الموضوع ، والأدهى من ذلك أنى قرأتها وكأنى أقوم بجولة فى مستشفى للأمراض العقلية[٩٢] . » ولم يضيف إلا القليل لما سبق أن ظهر من نقد للكتاب المقدس . وإنما كانت مهمته أن ينشر هذا النقد على نطاق واسع . ولا يزال أثر هذا علينا واضحا. وفى جرأة وإندفاع أكثر ممن جاءوا بعده ، أكد مرارا سخف طوفان نوح وعبور البحر الأحمر ، وذبح الأبرياء وغير ذلك . ولم يكل ولم يمل قط من شجب قصة « الخطيئة الأولى » ونظريتها . وأقتبس فى سخط وغضب قول سانت أو غسطين « أن المذهب الكاثوليكى يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحا جديدة أفضل[٩٣] » . (ويقال إن مثل هؤلاء الأطفال يذهبون إلى مكان جميل بجوار الجحيم اسمه الأعراف) ! !

أما بالنسبة للسيد المسيح فإن فولتير كان مذبذبا . وأنتقل من الورع الطبيعى فى الطفولة إلى عدم التوقير الذى يغلب فى الشباب ، إلى حد قبول قصة مارى مع الجندى الرومانى ، وفكر فى وقت ما أن يسوع متعصب مخدوع « أحمق » : ولما نضج تعلم كيف يبدى أعجابه بتعاليم يسوع الأخلاقية وقال : « سيكون خلاصنا بفضل ممارسة هذه المبادىء الأخلاقية ، لانتيجة أيماننا بأن المسيح هو الله » . وسخر كثيرا من « التثليث » فى كتابه الملحد والحكيم . ويسأل الملحد « هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وشخصا واحدا وأرادة واحدة ، أو أن له طبيعتين وشخصيتين وارادتين ، أم أن له إرادة وأحدة وطبيعة واحدة وشخصيتين ، أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة ؟ » ولكن الحكيم يأمره أن ينسى هذه الألغاز ويكون مسيحيا طيبا[٩٥]. ويشير فولتير إلى أن المسيح ، بخلاف القديس بولص والمسيحيين اللاحقين ، ظل مخلصا

لليهودي على الرغم من نقده للفريسيين : « أن هذا الإله الخالد ، بعد أن جعل نفسه يهوديا ، يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ويؤدى شعائرها ويتردد على المعبد اليهودى ولا ينطق بشيء يخالف الشريعة اليهودية . وكل التلاميذ يهود وهم يؤدون الشعائر اليهودية . يقينا إنه ليس هـــو الذى أسس الديانة المسيحية . . . أن يسوع المسيح لم يبشر بأيه خصيصة واحدة من خصائص المسيحية(٩٦) » .

أن يسوع فى رأى فولتير ، قبل معتقد كثير من اليهود الأتقياء قبله ، بأن العالم كما عرفوا يسير إلى نهايته ، وسرعان ما تحل محله « مملكة الرب » أى الحكم المباشر لله على الأرض . (والنقد الحديث يقبل وجهة النظر هذه).

وتجاوب فولتير فى سنواته الأخيرة ، أكثر فأكثر ، مع قصة المسيح وبدأ يسميه « أخى » « مولاى(٩٧) » وصور نفسه وكأنما أنتقل فى حلم إلى صحراء مغطاة بأكوام من العظام ، فهنا أشلاء ٣٠٠ ألف من اليهود المذبوحين ، وهناك أربعة تلال من المسيحيين شنقوا بسبب الخـــلافات الميتافيزيقية ، وأكوام من ذهب وفضة تعلوها صولجانات وتيجان الأساقفة والملوك المنحلين ، ثم حمله ملاكه المرشد إلى واد أخضر حيث أقام الحكماء العظام ، وهناك رأى نوما ويومبليوس وفيثاغورس وزردشت وطاليس وسقراط . . . وأخيرا « تقدمت مع دليلى إلى أيكة أعلى من تلك التى أخلد فيها الحكماء القدامى إلى راحة بهيجة ، ورأيت رجلا يتسم بالبساطة وحسن المنظر ، بدا لى أنه فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وكانت قدماه ويداه منتفختين داميتين ، وكان مطعونا فى جنبه وكان لحمه ممزقا بضربات من سوط . ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين آلام هذا الحكيم وآلام سقراط».

وسأله فولتير عن سبب موته ، فأجابه يسوع « الكهنة والقضاة » . هل قصد أن يؤسس دينا جديداً ؟ كلا . هل كان مسئولا عن هذه الأكداس من العظام وهذه المقادير الضخمة من الذهب الملكى أو الكهنوتى ؟ كلا . لقد عشت وصحبي فى أشد الفقر « إذن مم تتألف الديانة الحقة ؟ » ألم أقل

لكم من قبل ؟ أحب الله وأحب جيرانك كما تحب نفسك « فقال فولتير » إذا كان الأمر كذلك فأنت مولاى الوحيد ، ورسم لى علامة نزلت على قلبى بردا وسلاما . وأختفى الطيف وتركنى وقد إرتاح ضميرى وشاع فى نفسى السلام والطمأنينة(٩٨) .

ولكن تلك كانت حالة نفسية لاحقة . فإن فولتير فى سنى حربه ضد المسيحية رأى فى تاريخها شقاء بالغا للجنس البشرى . أن صوفية بولص وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك فى صحتها وأساطير الشهداء والمعجزات وبراعة الكهنة فى التخطيط والتدبير ، تضافرت كلها مع السذاجة المتعلقة بأهداب الأمل عند الفقراء لخلق الكنيسة المسيحية . ثم أن آباء الكنيسة صاغوا العقيدة بفصاحة تكفل ارضاء عقول الطبقة الوسطى . وخبا شيئا فشيئا نور الثقافة الكلاسيكية بأنتشار الأخيلة الصبيانية والاحتيالات والخدع الورعة . حتى خيم الظلام لعدة قرون على عقل أوربا . وزحف المتأملون من الناس والحاملون منهم ، كما زحف المتقاعدون عن مواجهة تحديات الحياة ومسئولياتها ، إلى الأديار . وأصاب بعضهم بعضا بعدوى أحلام النساء والشياطين والآلهة . واجتمعت مجالس العلماء والمتفقهين لتنظر أى الحماقات والسخافات تصلح لتكون جزءا من العقيدة المعصومة . وبانت الكنيسة ، بعد أن أسست قوتها وسلطانها على فكرة أشباع رغبة الناس فى الأساطير والخرافات التى تبعث على السلوى والعزاء ، نقول باتت الكنيسة بعد ذلك أقوى من الدولة التى تؤسس سلطانها على القوات النظامية . وأصبحت قوة السيف تعتمد على قوة الكلمة وثل البابوات عروش الملوك ، وأحلوا الأمم من وأجب الولاء للملوك .

ومن رأى فولتير أن الأصلاح البروتستانتى كان مجرد خطوة متعثرة نحو العقل وأمتدح الثورة ضد الرهبان الذين يعيشون على الصدقات فى الأديار ، وضد بائعى صكوك الغفران ، وضد رجال الدين الساعين إلى جمع الثروة ، الذين « استنزفوا فى بعض الحالات دخل أقليم بأسره » وفى شمال أوربا

أختار الناس دينا أرخص وأقل تكلفة(٩٩). » ولكن أثاره توكيد اللوثريين والكلفنين على القضاء والقدر(١٠٠). تخيل حاكما أو ملكا يحكم على ثلثى رعاياه بالخلود فى النار ! أو تأمل فى مختلف التأويلات المسيحية للقربان المقدس ، فالكاثوليك يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز ، وللوثريون يلتهمون الرب والخبز كليهما ، والكلفنيون يأكلون الخبز ، لا الرب . وإذا روى لنا أحد شيئا من مثل هذا الأسفاف والجنون بين الهوتنتوت والكفار لقلنا إنه يخدعنا ويلعب على عقولنا(١٠١). » لقد ولى تقدم العقل لمثل هذه الخلافات ظهره ، وتركها بعيدا إلى الوراء « وإذا قدر للوثروكلفن أن يعود إلى الحياة الدنيا فلن يثيرا ضجة أكثر مما فعل أتباع جون دنز سكوتس وتوماس أكويناس(١٠٢) » .

وإذا أستمر البروتستانت على التبشير بمثل هذا اللاهوت فلسوف تتخلى عنهم الطبقات المتعلمة ، على حين تؤثر الجمهاهير مذهب رومه المعطر النابض بالحياة . وبالفعل كان فولتير يظن « أن الكلفنية واللوثرية معرضان للخطر فى ألمانيا ، فأن تلك البلاد مملوءة بالأسقفيات العظيمة والأديان المسيطرة والشرائع والمذاهب الكثيرة ، وكلها ملائمة لعمل أية ردة »(١٠٣) .

إذن هل يجدر بالناس المتعقلين أن يتخلوا عن الدين تماما ؟ كلا ، فأن دينا يدعو إلى الله وإلى الفضيلة دون أية تعاليم أو مبادىء أخرى ، لأبد أن يكون ذا نفع حقيقى للجنس البشرى . . . وفى سنيه الأولى كان فولتير يظن « أن أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدة الدين ليكونوا طيبين صالحين ، هم أحق بالرثاء والأشفاق » وأن أى مجتمع يمكن أن يعيش بالأخلاق الطبيعية غير معتمد على المعتقدات الخارقة(١٠٤) » . ولكن لما اتسعت خبرته بالأهواء البشرية بدأ يسلم بأنه ليس ثمة قانون أخلاقى يمكن أن يقاوم بنجاح القوة البدائية فى الغرائز الفردية ، إلا إذا دعمه أيمان شعبى عام بأن هذا القانون الأخلاقى صادر عن إله بصير ، إله يثيب ويعاقب ، وهو الذى يتولى السهر عليه . وبعد أن إتفق مع لوك عن أنه ليست هناك أفكار فطرية ، عاد فانحاز

إلى رأى ليبنتز فى أن الحس الخلقى فطرى ، وعرفه بأنه شعور بالعدل أودعه الله فينا « أن القوانين تراقب الجرائم المعروفة ولكن الدين يراقب الجرائم الخفية[١٠٥] » . وفى كتاب « الملحد والحكيم » يقول الحكيم :

سأفترض (لاقدر الله) أن كل الانجليز ملحدون ، وأذهب إلى أن هناك بعض مواطنين مسالمين ، هادئين بطبيعتهم أثرياء إلى حد يمكن أن يكونوا معه أمناء يلتزمون مبادىء الشرف . ويراعون قواعد السلوك إلى حد أنهم يسعون جهدهم ليعيشوا معا فى المجتمع . . . . ولكن الملحد الفقير المعوز سيكون غبيا إذا هو لم يقتل أو يسرق ليحصل على المال . فهل تنقصم إذن كل عرى المجتمع وروابطه وتطغى كل الجرائم الخفية على العالم وتنتشر مثل الجراد فوق الأرض ، ولو أنها فى أول الأمر تكون ضئيلة لاتدرك . . . من ذا الذى يكبح جماح الملوك العظام ؟ أن الملك الملحد أشد خطرا من الكاهن المتعصب . . . وتفاقم الالحاد فى أيطاليا فى القرن الخامس عشر . فماذا كانت النتيجة ؟ وكان من الأمور الشائعة أن تسمم إنسانا وكأنك تدعوه إلى العشاء. إذن يكون الإيمان بآله يثيب على صالح الأعمال ويعاقب على الشرور ، ويغتفر مادون ذلك من الأخطاء اليسيرة ، من أنفع الأشياء للإنسان[١٠٦] » .

وإتجه فولتير آخر الأمر إلى أن يرى بعض المعنى فى نظرية الجحيم :

« إلى أولئك الفلاسفة الذين ينكرون الجحيم فى كتاباتهم أسوق الحديث : أيها السادة ، أنا لانقضى أيامنا مع شيشرون وأتيكوس وماركوس وأوريليوس وابيقور . . . ولامع الفاضل المبالغ فى التدقيق والشك ، سبينوزا الذى رد — رغم كدحه تحت وطأة الفقر والعوز — إلى أطفال المتقاعد الكبير دى ويت ، راتبا قدره ٣٠٠ فلورين ، كان قد منحه أياه رجل الدولة العظيم ، الذى قد يذكر أن الهولنديين قد حطموا قلبه . وصفوة القول ، أيها السادة ، أن الناس ليسوا جميعا فلاسفة . أننا مضطرون إلى عقد الأتصالات والقيام بمختلف الأعمال ، والإختلاط فى غمار الحياة بالأوغاد الذين لايفكرون إلا قليلا ، أو أنهم لايفكرون أبدا . وبعدد لايحصى من

الناس الذين لاهم لهم إلا الوحشية والسكر والسلب والنهب ، ويمكنكم إذا أردتم أن تعظوهم بأن نفس الإنسان فانية . أما أنا فسوف أصرخ فى آذانهم بأنهم إذا سلبونى فسيكونون مذنبين لامحالة »[١٠٧] .

ونختتم بأن فى مقدور الشيطان أن يقتبس من فولتير ما يحقق أغراضه أى ما يؤيد الشيطان نفسه . وبعد المناداة بديانه متحررة من الخرافات[١٠٨] ، أنهى المتشكك الكبير اسوأ الخرافات ، إنه قد طالب بديانة تقتصر على غرس الفضائل و الاخلاق القويمة[١٠٩] . أما الآن فهو يسلم بأن الناس العاديين لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن أرتكاب الجرائم إلا عن طريق دين فيه جنة ونار أونعيم وجحيم ، وللكنيسة أن تقول إنه تاب وأناب .

وفى سن الثانية والسبعين أعاد فولتير صياغة معتقده تحت العنوان المهذب « الفليسوف الجاهل » (١٧٦٦) إنه فى البداية يعترف بأنه لا يعرف ماهى المادة وما هو الذهن ، ولا يعرف كيف يفكر ولا يعرف كيف يحرك فكره ذراعه[١١٠] . إنه يسأل نفسه سؤالا من الواضح أنه لم يدر بخلده من قبل : أمن الضرورة لى أن أعرف ؟ ولكنه يضيف « أنا لا أستطيع أن أجرد نفس من الرغبة فى التعليم والمعرفة . أن حب الأستطلاع الذى يبعث على الحيرة والارتباك عندى ، لايشبع ولا يقف عند حد مطلقا »[١١١] وهو الآن مقتنع بأن الأرادة غير حرة : « أن الجهول الذى يرى هذا لم يفكر دائماً هكذا . ولكنه فى النهاية مضطر إلى الأستستلام »[١١٢] . هل يوجد هناك إله ؟ نعم ، وهو العقل وراء « النظام والفن المذهل والقوانين الميكانيكية والهندسية التى تحكم الكون[١١٣] . ولكن هـذا العقل الأسمى معروف لدينا فقط بوجوده لابطبيعته . « أيها الإنسان الفانى البائس . إذا كنت لا ادرك عقلى ، وإذا كنت لا أعرف ماذا ينفخ فى الحياة ، فكيف تكون لى أيةدراية بهذا العقل الذى يجل عن الوصف والذى من الواضح أنه يتحكم فى الكون ؟ . . . ولكننا من صنعه وتدبيره »[١١٤] .

ويميل فولتير إلى الأعتقاد بأنه لم يكن ثمة خلق فى وقت معين . وأن الدنيا

قد وجدت دائماً . « تنبعث دائماً من هـــذه العلة البدائية الأساسية ، كما ينبعث الضوء عن الشمس » وأن الطبيعة كانت تنبعث فيها الحياة دائما[١١٥] . ولا يزال يؤمن بأن هناك تدبيرا مقصودا فى الكون ، أى « العناية الألهيه » التى توحيه الجميع ، ولكنها تسمح للجزء — بما فى ذلك كل إنسان بمفرده — أن يتدبر أمر نفسه[١١٦] . وينتهى إلى القول « إن قلت لى إنى لم أعلمك شيئا ، فتذكر أنى إبتدرتك بأنى جاهل[١١٧] .

وبدأ الفليسوف المتحير يحسد أولئك الذين لم يفكروا قط . ولكنهم آمنوا ، وراودهم الأمل فحسب . ومع ذاك رجع إلى رأى سقراط وهو أن الحياة بدون تفكير غير جديرة بالإنسان . . . وعبر عن تردد بين هذه الآراء فى الحياة فى كتاب « تاريخ برهمى طيب » (١٧٦١) :

(اتفق لى أن التقيت فى رحلاتى ببرهمى عجوز . وكان الرجل ذا عقل راجح وعلم واسع وثراء عريض .. وقال لى الرجل ذات يوم: وددت لو أنى لم أولد قط ، فسألت : ولم هذا ، فقال : لأنى كنت أدرس طيلة تلك السنوات الأربعين ،ووجدت أنى قد ضيعت وقتاً طويلا . وأنى لاأعرف شيئاً على الرغم من أنى أعلم الآخرين .. أنا موجود فى الزمن دون أن أعرف ما هو الزمن ، أنا موضوع ، كما يقال حكماؤنا ، فى التخوم بين عالمين لا نهائيين ، ومع ذلك ليس عندى أية فكرة عن الأبدية أو الخلود . وأنا مكون من مادة فيما أظن . ولكنى لم أستطيع قط أن أقنع نفسى بهذا الذى ينتج التفكير . . . ولا أدرى لماذا أنا موجود ؛ ومع ذلك فأنا مكب كل يوم على حل اللغز ، ويجب أن أرد جوابا، ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً مرضياً فى هذا الموضوع . إنى أتكلم كثيرا ، وعند ما انتهى من الكلام أظل متحيراً مرتبكا شاعرا بالخجل مما قلت ..)

وأهمتنى كثيراً الحالة التى رأيت عليها هذا الرجل حقا .

وفى اليوم نفسه كان لى حديث مع سيدة عجوز هى جارته . وسألتها أكانت يوما قد شعرت بعدم السعادة لأنها لم تعرف كيف صنعت نفسها .

ولم تفهم سؤالي . انها لم تفكر ولو لبرهة قصيرة في حياتها . وفي هذه الموضوعات التي عذب البرهمي الطيب نفسه بالتفكير فيها . وآمنت من أعماق قلبها بتحول إلهها فشنو Vishnu وكانت ترى أنها أسعد النساء شريطة أن يتاح لها الحصول على شيء من الماء المقدس من نهر الكنج لتغتسل به . وأثارتني سعادة هذه المخلوقة المسكينة ، فعدت إلى فيلسوفي وابتدرته بقولي : ألا تخجل من بؤسك وتعاستك . على حين أنه على بعد ٥٠ ياردة منك يوجد مخلوق آلي (أوتوماتيكي) لا يفكر في شيء ويعيش هانئا راضيا فرد على بقوله « أنت على حق . لقد قلت في نفسي ألف مرة إني سأكون سعيداً لو أني كنت جاهلا مثل جيراني العجائز . ومع ذلك فتلك سعادة لا أرغب فيها . وكان أثر رد البرهمي في نفسي أعظم من أي شيء مضى . وخلصت إلى أننا على الرغم من أننا قد نضفي على السعادة قيمة عظيمة ، فإننا لانزال نقدر للعقل قيمة أعظم .

ولكن بعد تأمل ناضج . . . لاأزال أرى أن هناك قدراً كبيراً من الجنون في إيثار العقل على السعادة (١١٨)

٨ — فولتير متعصب

وفي حالة نفسية مماثلة لهذه كان بسكال قد اختار أن يخضع تفكيره الذي غلب عليه المنطق للكنيسة الكاثوليكية باعتبارها تنظيما كان قد وجده بعد طول التجربة مزيجاً من التعليم والطقوس تساعد على الفضيلة والأخلاق القويمة وتخفف من لوعة التساؤل والحزن . ولم يذهب فولتير في سن السبعينات بعيداً إلى هذا الحد ، ولكنه سار مضطرباً مشوش الذهن في هذا الإتجاه .

وبدأ بأن وطن النفس على قبول فكرة أن الدين ، أي دين ، أمر مرغوب فيه بصفة عامة . وحين سأله بوزول (٢٩ ديسمبر ١٧٦٤) ألا ترى أن تكون هناك عبادة عامة ؟ أجاب فولتير « نعم . من كل قلبي . فلنجتمع أربع

مرات فى كل عام فى معبد كبير ، تصدح فيه الموسيقى ، لنقدم الشكر لله على كل نعمائه . فهناك شمس واحدة ، وهناك إله واحد . ولتكن لنا ديانة واحدة • ومن ثم يكون بنو البشر إخوة) (١١٩) . أن الشمس — كمايقولون مهدت له نصف الطريق إلى الله . وفى مايو ١٧٧٤ وهو فى سن الثمانين ، صحا من نومه قبل الفجر ، وصعد مع أحد أصدقائه ليشهد بشرق الشمس من تل قريب • وربما كان يقرأ روسو . وبلغ القمة وقد نال منه التعب ، وأربكه جلال الشمس المنتصرة وعظمتها ، فركع وصاح : يا الله العلى العظيم ، أنى أؤمن ! لكن ثابت نفس فولتير إليه فقال وهو ينهض على قدميه أما بالنسبة للسيد الإبن والسيدة أمه ، فتلك مسألة أخرى (١٢٠).

وذهب شيئاً فشيئاً إلى أبعد من ذلك فارتضى وجود رجال دين يعلمون الناس الفضيلة ويقدمون الصلوات لله (١٢١). واعترف بأن الأساقفة فى فرنسا وانجلترا أسهموا فى إقرار النظام الإجتماعى ، ولكن الكاردينالات كانوا باهظى النفقة ويجب الاستغناء عنهم • وكان ينظر بعين الإجلال والإكبار إلى راعى الأبرشية البسيط الذى حفظ سجل القرية وساعد الفقراء وأصلح بين الأسرات المتنازعة ، فهؤلاء الكهنة رعاة الأبرشيات يجب أن يكون احترامهم أكبر وأن تزاد مخصصاتهم ، وألا يستغلهم رؤساء الكنيسة (١٢٢). وفى ساعات التجلى كان التائب العجوز يريد زيادة الاجتماعات الدينية لتكون مرة فى كل شهر ، بل حتى فى كل أسبوع (١٢٣). ويجب أن يكون هناك صلوات وتكبير لله ، وعبادات ودروس فى الأخلاق . ولكن لاقربان ولا ذبائح ولا توسلات ، ولتكن العظات قصيرة • وإذا كان لابد من صور وتماثيل دينية فلتكن لتخليد ذكرى أبطال الإنسانية ، لاذكرى القديسين المشكوك فى أمرهم ، مثل هنرى الرابع (لاخليلاته) • وينبغى ألا يكون هناك تعاليم خارقة للطبيعة ، اللهم إلا وجود إله عادل . ويجدر أن تخضع هيئة الكنيسة للدولة ، وأن تتولى الحكومة تدريب رجال الدين ودفع أجورهم .

ويمكن أن تبقى الأديار والرهبنات على أن تكون ملاجىء للعجزة والمرضى . ومثل كثير من المتشككين نظر فولتير بعين الأكبار والإجلال إلى الراهبات اللائى خرجن من أديارهن لمساعدة المرضى والفقراء منذ رأى « إخوات البر والإحسان » فى مستشفيات باريس . وكان قد كتب فى رسالة العادات والأعراف : ليس فى العالم كله ما يضارع التضحية بالجمال والشباب وغالباً بكرم المحتد وعراقة الأصل ، تلك التضحية التى يقدمها الجنس اللطيف عن طيب خاطر للتخفيف من ويلات الإنسانية فى المستشفيات . إن الأمم التى انفصلت عن العقيدة الكاثوليكية قلدت بشكل منقوص ، أعمال البر والاحسان الجليلة هذه .(١٢٤)

وكما يعرف العالم بأسره شيد فولتير بالقرب من قصره فى فرنى كنيسة صغيرة نقش على مدخلها باعتزاز عبارة « يارب إذكر عبدك فولتير » وادعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هــذه الأرض . أما الكنائس الآخرى فهى مخصصة للقديسين(١٢٥) .

وطلب إلى رومه أن تزوده ببعض المخلفات المقدسة ليضعها فى كنيسته ، فأرسل البابا ثوبا من وبر الجمل للقديس فرانسيس أوف أسيسى ، ووضع فولتير على المذبح تمثالا بالحجم الطبيعى من المعدن المذهب للمسيح لا وهو مصلوب بل باعتباره حكيما . وهناك إبتداء من ١٧٦٠ فصاعدا ، حضر فولتير القداس فى كل يوم أحد ، وكان يقوم هو نفسه بعملية البخور باعتباره سيد القرية . وفى عيد الفصح ١٧٦٨ تناول العشاء الربانى(١٢٦) وكان يرسل خدمه إلى الكنيسة بانتظام ودفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة(١٢٧) .

وربما قصد بجزء كبير من هذه التقوى والورع أن يكون قدوة حسنة لأهل قريته ، ويشجعهم على إيمان قد يحد من جرائمهم ويصون ممتلكاته . وكان واثقا أن الحاشية الملكية فى فرساى سوف يترامى إليها أنباء سلوكه المثالى ، وربما راوده الأمل فى أن هذا قد ييسر مهمته فى شن الحملات من أجل كالاس وآل سيرفن ودى لأبار ، ويشفع فى عودته إلى باريس . والحق أن

الملك والملكة قد سرهما ماسمعا من أنباء إصلاحه . ووافق الكاهن دى لاباترى على أن يتناول فولتير الأسرار المقدسة ، ولكنه عندما رأى هزال المبلغ أبدى ملاحظة فحواها أن فولتير نسى أن يدفن نفسه ، فأجاب فولتير بانحناء واحترام « يعدك ياسيدى ».[١٢٨] وفى ٣١ مارس سنة ١٧٦٩ إستدعى موثقا ووقع أمام عدة شهود وثيقة تؤكد رغبته فى الموت على العقيدة الكاثوليكية[١٢٩]. وسخر منه الأخوة فى باريس ، وتقبل هو سخريتهم بصدر رحب .

وبعد ١٧٦٨ اعتاد كما هو الحال فى الأديار ، أن تقرأ عليه بعض الكتب التعبدية أثناء تناول الطعام . وكان لهـذا الغرض يؤثر « عظات ماسيون » لأنه إستطاع أن يقدر قيمة الأدب حتى ولو بقلم كاهن . وكان قد اشترك فى الحملة ضد اليسوعيين ، ولكن فى ١٧٧٠ انضم إلى رابطة علمانية للاخوة الكبوشيين . وحصل من رئيس هذه الطائفة على لقب « الأب الدنيوى لطائفة الكبوشية فى جكس » ، وهى القرية التى كان فيها سيدا اقطاعيا . وكان فخورا جداً بهذا التشريف ، وكتب عنه عدة رسائل وقع على بعضها باسم « الأخ فولتير الكبوشى » . وحياه فردريك قديسا جديدا فى الكنيسة ، ولكنه أبلغه أن السلطات الكنسية فى رومه كانت قد أحرقت فى نفس العام بعض أعمال الكبوشيين الحقيرة[١٣٠]. وليس من اليسير أن نتبين أن تودده إلى الكنيسة كان مخلصا أو أنه كان ترضية لقصر فرساى ، أو أنه كان بدافع الخوف من الحيلولة دون دفن رفاته فى الأرض المخصصة لهـذا الغرض . وهى تشمل كل مقابر فرنسا . وربما لعبت هذه العوامل الثلاثة دورا فى الكوميديا المقدسة .

وفى تلك الأعوام الأخيرة ١٧٧٠ — ١٧٧٨ وقف قلمه على تفنيد الالحاد لامهاجمة المسيحية . وأضاف إلى مقال « الله » فى القاموس الفلسفى فقرتين دحض فيهما « نظام الطبيعة » لدى هولباخ . وفى ١٧٧٢ دبج مقالا رائعا تحت عنوان « يجب أن نؤيد » وفيه دافع عن « الله والتسامح » . واعترف لمدام تكر والدوقة دى شوازيل ، وللامير البروسى فردريك وليم ، بخوفه

على حركة التسامح الدينى من أن يهزمها تأييد الالحاد والدفاع عنه . وأسف لأن نقده لدى هولباخ قد يهدد تضامن « الأخوة » ولكنه أصر فى عناد : « لاشك عندى فى أن المؤلف وثلاثة من مؤيدى هذا الكتاب سيكونون من الد أعدائى لأنهم تحدثوا بأفكارى . وقد أعلنت لهم أنى سأتكلم طالما كان فى عرق ينبض أو طالما ترددت أنفاسى دون أن أخشى المتعصبين للالحاد ولا المتعصبين للخرافة[١٣١] . ورد أنصار دى هولباخ على هذا بقولهم إن السيد الثرى يشتغل بالسياسة مع فرساى ويستخدم الله ليحافظ على النظام بين خدمه وفلاحيه فى فرنى .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، نظر إليه الرجال الذى هتف لهم يوما ، وحفزهم وشجعهم على الانضمام إلى الحملة ضد « الرجس » باعتبارهم أخوة ، نظروا إليه وكأنه قائد مضيع . أن ديدرو ما أحبه قط ، وما ألف تبادل الرسائل معه ، وكره منه زعمه الواضح بأن دالمبير هو رأس الموسوعة المفكر وروحها المدبر . لقد استحسن دفاع فولتير عن آل كالوس . ولكن افلتت منه عبارة تنم على الحقد يقول فيها « أن هذا الرجل لا يعدو أن يكون الثانى فى كل الأحوال[١٣٢] » . أن فولتير لم يشارك ديدرو سياسته الثورية ولا حبه لمسرحية البرجوازية العاطفية . أن البرجوازية حين تصبح ارستقراطية لا تسيغ قناعة البرجوازية . ولم يقم ديدرو ولادى هولباخ بحج الاخلاص والولاء إلى فرنى . وعلق جيم فى صرامة غير معهودة على نقد فولتير لهوبز وسبينوزا بقوله : « أن الفيلسوف الجاهل لمس بصعوبة سطح هذه الموضوعات ولم يتعمق فى فهمها »[١٣٣] . إن الملحدين فى باريس ، وقد زاد عددهم وإعتزازهم بأنفسهم ، واوا الآن ظهورهم لفولتير وانصرفوا عنه . وفى أوائل ١٧٦٥ ، وحتى وسط المعركة ضد « الرجس » نبذه أحدهم فى إحتقار قائلا « إنه متعصب إنه ربوبى[١٣٤] » .

وبدأ الشيخ الجليل الواهن حوالى ١٧٧٠ ، بعد أن تخلى عنه الجانبان وقاوموه ، بدأ يفقد ثقته فى أمكانات الفوز ، وأطلق على نفسه « المدمر

الكبير » الذى لم يبن شيئا.[١٣٥] وخشى من أن دينه الجديد — وهو دين « الله والتسامح » لن يتأتى إلا إذا قبل الحكام نصيحة القديس بطرس « أعملوا من أجل السلام الدائم » أى أنه لن يأتى أبدا. أنه أرتاب طويلا فى وهن الفلسفة وانعدام الفتنة والجاذبية العقل. إن أى فليسوف لم يؤثر فى عادات الناس حتى فى الشارع الذى يقطنه، وأسلم الجماهير للخرافة أو الأساطير. وراوده الأمل فى أن يحظى بنحو أربعين حكيما فى فرنسا وبالفئات المتعلمة فى الطبقة الوسطى، ولكن هذا الأمل نفسه بدأ يزوى ويذبل حين آذنت شمس حياته بمغيب. وكل الحلم الذى كان يراوده وهو يستعد فى سن الرابعة والثمانين ليرى باريس قبل أن يموت، هو حلم « تنوير الشباب شيئا فشيئا ». فربما يعود إليه فى غمرة الترحيب الشديد به هناك، إيمانه بالإنسان وأمله فيه.

وهل كان فولتير فيلسوفا؟ نعم. أنه كان كذلك على الرغم من أنه لم يصطنع مذهبا. وأنه تردد وتذبذب فى كل شىء. وغالبا ما بقى فوق سطح الأشياء ولم يتعمق فيها. ولم يكن فيلسوفا إذا كانت هذه الكلمة تعنى صانع مذهب قائم على فكر موحد متماسك عن العالم والإنسان. إنه انصرف عن المذاهب باعتبارها هجمات وقحة على « المطلق غير المحدود » ولكنه كان فيلسوفا إذا كان المقصود بالفلسفة انشغال الذهن بشكل جدى بالمشاكل الأساسية للطبيعة والاخلاق والحكومة والحياة والقضاء والقدر. ولم يعتبر فولتير عميقا. وربما كان السبب فى هذا أنه كان غير متأكد، وكان واضحا وقل أن كانت أفكاره أصيلة. ولكن كل الأفكار الأصيلة تقريبا فى الفلسفة سخيفة. وانعدام الأصالة علامة الحكمة. يقينا كان الشكل الذى صاغ فيه أفكاره أصيلا. وفولتير بلا نزاع ألمع كاتب ظهر، وهل كان الرجل الثانى. لا الرائد الأول. فى كل مجال كما اتهمه ديدرو؟ كان الثانى فى الفلسفة بعد ديدرو. نعم. وفى المسرحية بعد كورنى وراسين ولكنه كان الأول والأفضل فى زمانه فى فهمه وكتابته التاريخ وفى رقة شعره، وفى

سحر نثره وظرفه . وفى مدى تفكيره وتأثيره . ورفرفت روحه مثل اللهب فوق القارة وفوق القرن . كما أنها تثير وتهز مليون نفس فى كل جيل .

وربما أسرف فى كراهيته ، ولكن علينا أن نتذكر الاستفزاز والإثارة ، ونتصور أنفسنا عائدين إلى الوراء فى عصر كان الناس يحرقون فيه على الخازوق ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بسبب الارتداد عن الديانة التقليدية . وقد نرى المسيحية الآن أفضل مما كانت عليه أو مما رآها هو آنذاك ، لأنه ناضل وأصاب بعض النجاح للتخفيف من تعاليمها وحدتها . ويمكن أن نحس بقوة وروعة العهد القديم وجمال العهد الجديد وسموه ، لأننا أحرار فى أن نفكر فيهما باعتبارهما من عمل وإيحاء رجال غير معصومين من الخطأ . ويمكن أن نكون شاكرين ومقدرين لاخلاق المسيح لأنه لم يعد يهددنا بالجحيم ، أو يصب اللعنة على الناس والمدن التى لاتستمع إليه[١٣٧] .

ويمكن أن نحس نبل القديس فرانسيس الأسيسى لأنه لم يعد يطالب منا أن نصدق أن القديس فرانسيس أكسافيير كان يسمع فى عدة لغات على حين كان يتحدث بلغة واحدة ، ويمكن أن نحس بشعر الطقوس الدينية وبالمسرحية فى هذه الطقوس ، حيث تركنا الأنتصار العابر للتسامح أحرارا فى أن نتعبد أو نمتنع عن العبادة . ويمكن أن نتقبل مائة أسطورة باعتبارها رموز عميقة أو مجازات منيرة موضحة ، لأننا لم نعد يطالب منا أن نتقبل حقيقتها الحرفية . وتعلمنا أن نتعاطف مع ما كنا يوما نحبه . وكان علينا أن نتخلى عنه ، عندما نستعيد أجمل الذكريات لما كنا نحب فى شبابنا . ولمن ، أكثر من أى رجل واحد آخر ، ندين بفضل هــذا التحرر العزيز علينا والذى يعتــبر فاتحة عصر جــديد ؟ أننا ندين بهذا الفضل لفولتير .

الفصل الثالث والعشرون

انتصار الفلاسفة

١٧١٥ – ١٧٨٩

١ – رجال الدين يصدون الهجوم

كان هناك الكثير مما يقال من أجل المسيحية . مما قاله المدافعون عنها فى قوة وحيوية ، أحيانا مع سوء تقدير أعمى للعصر ، وأحيانا فى رقة ووضوح توقعتهما فرنسا حتى من اللاهوت . وهناك من رجال الكنيسة من ظل يصر على أن أى انحراف عن المذهب الكاثوليكى المحدد يجب أن تعاقب عليه الدولة ، وأن مذبحة سانت برثلميو عملية مشروعة مثلها فى ذلك مثل أية عملية جراحية[1]. ولكن كان هناك من قبلوا التحدى وأخذوه مأخذ الرجال الكرام الشرفاء وأجازوا للأعداء أن يختاروا السلاح ، وهو العقل . وكانت لفتة كريمة ، فأن الدين إذا أرتضى العقل كان فى هذا بداية موته وفنائه .

ونشرت فرنسا فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧٨٩ نحو تسعمائة كتاب دفاعا عن المسيحية ، منها تسعون فى سنة ١٧٧٠ وحدها[2]. أن كتاب ديدرو « أفكار فلسفية » ، وكتاب هلفشيوس « الذكاء » ، وكتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، استلزم كل منها نشر عشرة كتب لتفنيده والرد عليه . أن الراهب هوتفيل فى كتابه « الديانة المسيحة كما تثبتها الأعمال » (١٧٢٢) أكد (مثل رئيس الأساقفة ويتلى Whately بعد ذلك بقرن من الزمان) أن المعجزات التى تثبت قدسية المسيحية ثابتة بشكل موثوق قدر ثبوت الأحداث المقبولة فى التاريخ العلمانى . وفى مجلدين اثنين نشر الكاهن

جويون Guyonh كتابه « مهبط الوحى عند الفلاسفة الجدد » (١٧٥٩ — ١٧٦٠) وهو كتاب هجاء ونقد . ونشر الكاهن بلوش Pluche كتابه « مشهد الطبيعة » فى ثمانية مجلدات (١٧٣٩ — ١٧٤٦) . وظهرت منه ثمانى عشرة طبعة غالية الثمن ، عرض فيه عجائب العلم وأدلة التدبير المقصود فى الطبيعة ليثبت وجود إله أسمى فى العقل والقوة . وإذا وجد العقل البشرى بعض الالغاز فى المشهد الضخم ، فيكن متواضعا . ولا ينبغى لنا أن ننبذ الإله لأننا لا نستطيع فهمه وأدراكه ، ولنقدم له فى نفس الوقت الشكر على بديع صنعه . أما الأب جوشا Gauchat فأنه فى ١٥ مجلدا بعنوان « رسائل نقدية » (١٧٥٥ — ١٧٦٣) هاجم فرضية التطور عند بيفون وديدرو وغيرهما ببرهان طائش « إذا كان الناس يوما أسماكا . . . فأن هذا استتبع واحدا من أثنين ، فإما أنه ليس للإنسان نفس روحية خالدة ، أو أن للاسماك مثل هذه النفس ، وكلتاهما فرضية تنافى التقوى والدين »[٣] . ووافق الفلاسفة فرحين مهللين . وأكد الأب سيجورن Sigorgne فى كتابه « الفاسفة المسيحية » على لزوم الدين دعامة للاخلاق ، فأن القيود العلمانية الخالصة تؤدى فقط إلى شحذ إذهان المجرمين الذين لا يعودون يؤمنون بالله البصير بكل شيء . وفى ١٧٦٧ نشر الأب شاندن Mayeul Chandon القاموس المضاد للفلسفة ، وقـــد ظهرت منه سبع طبعات . أما الأب نونوت Nonotte وهو يسوعى سابق تحلى بسعة الأطلاع والثقافة مثل أعضاء طائفته[٤] ، فأنه أخرج فى ١٧٧٠ كتابه الضخم « أخطاء فولتير » وقد بيع من هذا الكتاب أربع طبعات فى عامه الأول ، وست طبعات فى ثمانية أعوام . وفى ١٨٥٧ عد فلوبير هذا الكتاب من بين ما تقرأ إما بوفارى . ودافع الأب جوينى Guenee عن الكتاب المقدس بروح وذوق وكياسة وتفقه فى كتابه « رسائل بعض اليهود » (١٧٧٦) . وهى رسائل توهم بأنهم صادرة من بعض علماء اليهود . وسلم فولتير بأن نقد جوينى « لاذع إلى حد بالغ[٥] » . ووجه المدافعون الكاثوليك وابلا من النيران فى كل شهر

ضد الفلاسفة فى نشرة « الدين المنتقم » . وفى ١٧٧١ بدأوا يصدرون « موسوعة منهجية » ، أوسع حتى من موسوعة ديدرو ، تهاجم كل نقاط الضعف فى قلعة الشك هذه .

وواجه الماديون (أنصار المذهب المادى) خصما عنيدا فى شخص نقولا سلفستر برجييه وهو راعى أبرشية فى أسقفية بيزانسون . أن كتابه « الربوبية تفند نفسها » (١٧٦٥) كان « رد كاهن حقيقى على قسيس سافوى الذى إبتدعه خيال روسو[٦] » ومن أجل كتابه « صدق براهين المسيحية » (١٧٦٧) تلقى رسالة ثناء ومديح من البابا . وفى سن الواحدة والخمسين (١٧٦٩) رفع إلى مرتبة كاهن فى كاتدرائية نوتردام فى باريس ، وأصبح كاهن الاعتراف لبنات الملك لويس الخامس عشر . وفى نفس العام نشر كتاب « دفاع عن المسيحية ضد مؤلف فضح المسيحية » — وهو ضربة موجهة إلى دى هولباخ . وسرت جمعية رجال الدين بهذا الكتاب فقررت له فى ١٧٧٠ معاشا سنويا قدره ألفان من الجنيهات ليتفرغ للدفاع عن العقيدة . وفى بحر سنة أخرج كتابا فى مجلدين تحت عنون « اختبار المادية » وهو رد على كتاب دى هولباخ « منهج الطبيعة » وأوضح مرة أخرى أن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا بطريق مباشر ، فلم نهبط به إلى شيء آخر معروف لدينا عن طريق الذهن فقط[٧] . وأتهم دى هولباخ بعدة تناقضات : ١ — أعلن البارون أنه لا سبيل إلى معرفة الله ، ولكنه طبق بعد ذلك على المادة كل صفات اللاتناهى والأبدية ٢— أنه قبل مذهب الحتمية ومع ذلك حض الناس على إصلاح سلوكهم . ٣ — نسب الديانة إلى :

(أ) إلى جهل الإنسان البدائى . (ب) وحيل الكهنة ومغالطتهم .

(جـ) وإلى مكر صانعى القانون وبراعتهم . — فلنتركه يقرر . وطرح الكاهن نقد العهد القديم جانبا بايضاحه أن ناسخى كلام الله من البشر كانوا قد استخدموا المجازات والاستعارات الشرقية . ولذلك ينبغى إلا يؤخذ الكتاب المقدس دائما بحروفه . والعهد الجديد هو جوهر المسيحية ، وحياة المسيح

من معجزاته تثبت قداسة الدين . ومهما يكن من أمر فإن سلطة الكنيسة لاترتكز على الكتاب المقدس وحده ، بل على التسلسل أو التعاقب الرسولى لاساقفتها ، وتقاليدهم التى وضعوها للدين . وفى كتاب اختبار الدين المسيحى (١٧٧١) أكد برجييه الحجة القائلة بأن الإلحاد ،على الرغم من الشخصيات الفردية الاستثنائية التى أبرزها بيل ، قد يدمر الفضيلة والأخلاق .

وأرق شخصية فى المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين فى القرن الثامن عشر فى فرنسا هوغليوم فرنسوا برتييه [٨] . فى سنة ١٧١٤ وهو فى سن الثانية عشرة التحق بالكلية اليسوعية فى بورج ، وهناك اشتهر بحدة ذهن لم تسىء إلى تقواه إساءة ظاهرة . وفى سن السابعة عشرة أبدى لوالديه رغبته فى الانضمام إلى « جمعية يسوع » فطلبا إليه أن يفكر فى الأمر لمدة عام . ففعل وأصر على رغبته . وفى الفترة التى سبقت تثبيته راهباً فى باريس أكب على القراءة والدرس والصلاة حتى إنه نادرا ما خصص للنوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم. وتقدم ونما بسرعة حتى أنه عين فى سن التاسعة عشرة لتدريس العلوم الإنسانية فى كلية دى بلوا ، وبعد سبع سنين قضاها هناك ، وسنة أخرى فى الرهبنة ، أرسل إلى رن ثم إلى روان استاذاً للفلسفة . وفى ١٧٤٥ عينه اليسوعيون محرراً لصحيفتهم «جورنال دى تريفو» التى كانت تصدر فى باريس آنذاك . وأصبحت هذه النشرة الدورية على عهده من أكثر الأصوات احتراماً فى فرنسا المتعلمة .

وكتب برتييه معظم الصحيفة بنفسه . وعاش فى صومعة صغيرة لم تجر تدفئتها قط ،واشتغل كل ساعات النهار ، وكان بابه مفتوحاً أمام كل من قصده ، وكان ذهنه مفتوحاً لكل موضوع ، اللهم إلا العقيدة التى كانت تعمر بها حياته وتغمرها بالدفء . إن لاهارب La Harpe أحد تلاميذ فولتير ، وصف برتييه بأنه الرجل الذى نال إعجاب العلماء والباحثين جميعاً : لغزارة علمه وسعة إطلاعه ، كما نال إعجاب أوربا لفضائله الموسومة بالتواضع . [٩] وامتاز بسحر الكياسة الفرنسية حتى عند الاختلاف فى الرأى . فهاجم

الأفكار لا الشخصيات وامتدح مواهب خصومه أو معارضيه [١٠]. ومع ذلك فإنه دافع عن عدم التسامح الديني. واعتقاداً منه بأن المسيح ابن الله هو الذى أسس الكنيسة الكاثوليكية، رأى أنه من واجب المسيحي أن يحول بكل الوسائل السلمية دون انتشار الخطأ الديني.. ويجب حظر الدعاية المعادية للمسيحية في أية أمة مسيحية، لأنها تغرى بالسلوك غير الأخلاقي، وتسيء إلى استقرار الدولة. ورأى أنه من الخطأ أن نخلط بين التعصب للكاثوليكية وبين التحمس للاضطهاد [١١]، ولكنه لم يعد بعدم مواصلة الاضطهاد. وفي سنة ١٧٥٩ رد الاتهام بالتعصب وعدم التسامح إلى الفلاسفة فقال: أيها الكفار، أنتم تتهموننا بالتعصب الذى لا أثر له لدينا، على حين أن ما تضمرون من كراهية لديننا يبعث فيكم تعصباً لا يمكن تخيل أفراطكم الواضح فيه [١٢].

ولم يسلم برتييه بالحقيقة المطلقة للعقل وحتى على الاسس الحسية عند لوك، لا يستطيع العقل أن يصل إلا إلى الحواس، أما فيما وراء هذه الحدود، فهناك حقائق واقعة ينبغي أن تظل إلى الأبد أسراراً خفية في الأذهان المحدودة، ومن ثم فإن الفيلسوف الحق يحد من بحثه حين لا يمكنه تخطى هذه الحدود بشكل معقول [١٣]. أن السعي لإخضاع الكون أو معتقدات الناس التقليدية والعامة لاختبار عقل فردى، ضرب من الغرور العقلي. والرجل المتواضع يقبل عقيدة بنى جلدته إذا لم يستطع فهمها. وذهب برتييه في بعض الأحيان إلى أن الكفار ينبذون الدين لأنه يتدخل في ملذاتهم، وتنبأ بأنه إذا سادت مثل هذه الأباحية، فلابد أن ينهار القانون الأخلاقي، ويطلق العنان للأهواء، وتختفي المدنية في حمأة الأنانية والشهوة والخداع والجريمة. وإذا لم توجد الإرادة الحرة، فلا وجود للمسئولية الأخلاقية. وحيث أن الحتمية لا تسلم بأى قانون يلزم الضمير، فإن الشخص المذنب الوحيد هو الشخص الذى لا ينجح [١٤]. ومن ثم تكون الفضيلة أو الأخلاق القويمة حينئذ مجرد حساب المنفعة، ولن يكون إحساس بالعدالة ليكبح

جماح الأقلية الذكية الماهرة فى سوء استغلال سذاجة الأغلبية ، ولن يشعر أى حاكم بأى التزام نحو شعبه ، اللهم إلا المباعدة بينهم وبين الثورة بسبب استغلاله لهم .(١٥)

أن برتييه كان كما رأينا قد رحب بالمجلد الأول من الموسوعة وقرظه ، وعرض ما فيه من أخطاء وانتحالات فى دقة بالغة تنم على ثقافة واسعة ، ومن ثم أظهر أن مقالة العمل للأب ييفون Yvon التى شغلت ثلاثة أعمدة كاملة ، أخذت بنصها كلمة بكلمة من كتاب الأب بوفييه « بحث فى الحقائق الأولية »(١٦). وامتدح مثال «الفلسفة العربية» ولكنه أبدى فزعاً حين وجد أن مقالة الإلحاد قد أوردت الحجج التى تساند الإلحاد على نفس مستوى الاسهاب والقوة الذى أوردت به الحجج ضد الالحاد ، تاركة فكرة وجود الله فى شك رهيب. وعندما أصبحت النزعة المعادية للمسيحية أكثر وضوحاً فى المجلد الثانى هاجمها فى قوة وبراعة . وأوضح إن الموسوعة استمدت سيادة الحكومة من رضا المحكومين ، وفى هذا ، فى نظر برتييه ، خطر على الملكية الوراثية . وربما كان له أثر فى وقف الموسوعة عن الظهور(١٧) .

وفى عدد أبريل من صحيفة دى تريفو عرض لكتاب فولتير « بحث فى العادات » فقال : إنه ليحزننا أن نرى مؤلفاً حياً نقدر مواهبه ونعجب بها ولكنه يسىء استغلالها فى أكبر الأمور الأساسية . لقد رأى فى كتاب فولتير محاولة لهدم الكنيسة والدين ليشـــيد على إطلالهما كياناً فلسفياً ، أو معبداً مخصصاً لإباحية الفكر ، نذره للاستقلال عن كل سلطة ، والهبوط بالعبادة والأخلاق والفضيلة إلى مجرد فلسفة علمانية بحتة بشرية . واتهم فولتير بتحيز أخزى المؤرخ ، حيث عمى عمى يكاد يكون تاماً عن فضائل المسيحية وخدماتها ، وصمم تصميما طائشاً على أن يلتمس لها الأخطاء فى منجزاتها وأعمالها . وقال : إن فولتير ادعى أنه يؤمن بالله ، ولكن من آثار كتاباته دعم الالحاد . وفى نفس العدد من الصحيفة تحول برتييه إلى كتاب فولتير « العذراء — جان دارك » فنفذ صبره . وصاح : إن

الجحيم لم يلفظ قط مثل هذا الطاعون الفتاك : . . . إن الشهوانية تعرض هنا بكل وقاحة أبشع الصور بذاءة ودعارة . إن الفحش والبذاءة تستعيران لغة السوقة ... إنه أحط الهزل الماجن يلطف الكفر والبعد عن التقوى ... إن الرائحة المنبعثة من هذه الأشعار كفيلة بافساد ونقل العدوى إلى كل عصر وكل حالة فى المجتمع [١٨]

ولم يسارع فولتير إلى الرد ، إنه مازال يحتفظ بذكريات طيبة لمعلميه اليسوعيين ، ولايزل على جدران مكتبه فى فرنى صورة الرجل الطيب العطوف المتدين آلاب بورى Poree [١٩] . ولكن عندما أوقفت الحكومة الفرنسية صدور الموسوعة استجاب لتحريض دالمبير وأنبرى لقتال برتييه . فاتهمه بمناهضة الموسوعة لأنها نافست قاموس تريفو الذى زعم أنه إنتاج يسوعى (كان كذلك بشكل جزئى وبصفة غير رسمية) . ودعا مجتمع يسوع إلى فصل محرر تريفو . أى عمل هذا الذى يشتغل به كاهن ... أنه يبيع فى كل شهر من مخزن للكتب مقتطفات من آراء طائشة مفتراه . [٢٠] فرد برتييه (يوليو ١٧٥٩) بأن محررى صحيفة تريفو لا علاقة لهم بمحررى قاموس تريفو واعترف بأن كونه محرراً ليس عملا جميلا ولا مناسباً . ولكنه تمسك بحق الكاهن فى استخدام صحيفة دورية للاشادة بالكتب القيمة واستهجان المؤلفات الغثة . وأسف لأن فولتير انزلق إلى المسائل الشخصية والاتهام بالفساد والرشوة وختم كلامه بالأمل فى أن يعود هذا الرجل ذو المواهب العظيمة فيما تبقى له من عمر تفضلت به عليه العناية الإلهية ، يعود إلى الديانة المقدسة لا الدين الطبيعى ، بل إلى المسيحية الكاثوليكية التى ولد فيها [٢١] . وفى نوفمبر أصدر فولتير (وكان لاشك يتذكر الدفن الوهمى لجون بارتريدج تأليف سويفت) ، رسالة مهيبة تحت عنوان « العلاقة بين المرض والاعتراف والموت وشبح برتييه اليسوعى » ذاكراً كيف أن المحرر مات فى نوبة من التثاؤب فوق صحيفة تريفو . واعتذر عن أسلوبه فى الجدل فى خطاب إلى مدام ابيناى : لا بد من تسفيه الرجس والمدافعين عنه [٢٢] .

وفى ١٧٦٢ أمرت برلمانات فرنسا بقمع حركة اليسوعيين ، وسر برتييه حين إنتهى عمله فى تحرير الصحيفة ، وآوى إلى دير للترابستيين ليحيا حياة الصمت والتأمل ، وطلب السماح له بالأنضمام إلى هذه الطائفة (التى يقوم مذهبها على دوام الصمت والتقشف والزهد) ولكن رئيس اليسوعين أبى عليه ذلك ، وعينه لويس الخامس عشر معلما لأبناء الأسرة المالكة . ولما وقع الملك مرسوم طرد اليسوعين من كل أنحاء فرنسا (١٧٦٤) هاجر برتييه إلى ألمانيا . وفى ١٧٧٦ سمح له بالعودة ، فاعتزل كل نشاط ، وأقام مع أخيه فى بورج . ومات هناك فى سن الثامنة والسبعين (١٧٨٢) وكان رجلا طيبا .

٢ — خصوم الفلاسفة

حمى وطيس الحرب حين نبذت أردية الكهنة ونبذت المجاملات ، وركز الصحفيون أنظارهم على الفلاسفة ، وسخر كل ذكاء باريس وكل مفردات لغتها للشد والجذب والطعان . ولقد رأينا كيف أن فولتير تعرض ١٧٢٥ لبعض المتاعب لانقاذ بيير ديفونتين من العقوبة القانونية للواط وهى الإعدام . ولم يغفر له ديفونتين هذا قط . وفى ١٧٣٥ شرع فى إصدار نشرة دورية تحت عنوان « ملاحظات على الكتابات الحديثة » إستمرت حتى عام ١٧٤٣ وعلى صفحاتها نصب نفسه مدافعا عن الفضائل وعن العفة بصفة خاصة . وهاجم ، فى زراية واحتقار ، كل مظاهر إنحلال الخلق أو الخروج على التقاليد السليمة ، بلغة الأدب فى ذاك العصر . ومات الد إعداء فولتير . ولما مات فى ١٧٤٥ أوصى براية الجهاد لصديقه فريرون .

كان أيلى كاترين فريرون أقدر خصوم الفلاسفة وأشجعهم وأغزرهم علما وثقافة . وكان عالما بحاثة إلى حد أنه كتب « تاريخ مارى ستيوارت » (١٧٤٢) وسبعة مجلدات فى « تاريخ الامبراطورية الألمانية » (١٧٧١) . كما كان شاعرا إلى حد أنه نظم قصيدة « عن معركة فونتنوى » (١٧٤٥) ولابد أن فولتير رأى فيها منافسة وقحة لقصيدته باعتباره المؤرخ الملكى . وفى ١٧٤٥

أصدر نشرة دورية تحت عنوان : « رسائل عن بعض كتاب هذا العصر » وتناول فيها فولتير بالنقد والتجريح أكثر من مرة . وقضى فريرون سنى فقره سائقا لعربة تجرها أربعة جياد . . وزج به فى سجن الباستيل ذات مرة لمدة ستة أسابيع لنقده راهبا من ذوى النفوذ . ولكنه حارب لمدة ثلاثين عاماً معركته الجبارة من الماضى . وإستاء استياءاً واضحا من فولتير لأنه نصح فردريك بالعدول عن استخدامه مراسلا له فى باريس[٢٣]. وفى ١٧٥٤ أصدر مجلة جديدة تحت أسم « السنة الأدبية » التى حررها وكتب معظمها ، ونشرها مرة كل عشرة أيام حتى ١٧٧٤ .

وأعجب فريرون بتمسك بوسويه بالدين وبالطرق الفخمة والأسلوب الفخم فى القرن السابع عشر ، وأحس بأن فهم الفلاسفة للتنظيم الاجتماعى ودعائم الفضيلة والأخلاق وركائز الإيمان فهم سطحى إلى حد معيب . « لم ينجب عصر مثل عصرنا هذا قط مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المغوين مثيرى الفتن الذين يركزون قواهم فى التهجم على مقام إلا له ، أنهم يسمون أنفسهم رسل الإنسانية ، دون أن يدركو أنه لايلائم أى مواطن وأنه يسىء إلى الجنس البشرى أبلغ اساءة أن يسلبوهم الآمال الوحيدة التى تهىء لهم بعض التخفيف من متاعب الحياة . أنهم لايدركون أنهم يقلبون النظام الاجتماعى ، ويحرضون الفقراء على الأغنياء والضعفاء على الأقوياء ، ويضعون الأسلحة فى يد ملايين الناس الذين منعهم حتى الآن الوازع الأخلاقى والدينى من اللجؤ إلى العنف ، قدر ما يمنعهم القانون »[٢٤] .

وتنبأ فريرون بأن هذا الهجوم على الدين سوف يقوض أركان الدولة ، واستبق بجيل واحد تحذيرات ادموندبيرك : « أليس التعصب للكفر وهدم الدين أشد سخفا وخطرا من التعصب للخرافة ؟ أبدا بالتسامح مع عقيدة آبائك . أنكم لاتتحدثون إلا عن التسامح ، ولكنكم ابعد الناس عن التسامح .. أنا لا أنتمى إلى عصبة الروح الجميلة ، ولا أنتمى إلى حزب الدين والفضيلة والشرف[٢٥] .

وكان فريرون ناقداً لاذعا ، ولم يدخر وسعا فى تحطيم غرور الفلاسفة الحساس وجرح كبريائهم . وسخر من شدة تعنتهم وتعصبهم لآرائهم ، ومن مزاعم سيادة فولتير الأقطاعية باعتباره «كونت دى تورناى » . ولما ردوا عليه فأسموه « وغدا متعصبا » ، أنتقم هو منهم فقال إن ديدرو منافق وإن جريم متملق الوجهاء الأجانب ، وأطلق على جماعة الكفار بأسرها أسم عصبة « الاوغاد المحتالين والوضعاء الحمقى »[٢٦]. وأتهم الموسوعيين بسرقة الرسوم الأيضاحية من كتاب Reaumur عن « النمل » . وأنكروا هم هذه التهمة وأيدت أكاديمية العلوم هذا الأنكار ، ولكن الحقائق أيدت الأتهام فيما بعد[٢٧] . ولم يتصرف فريرون تصرفا حسنا فى « عودة إلى كالاس » إنه ذهب إلى أن الدولة أثبتت أن كالاس مذنب . وكتب أن فولتير لم يكن مدفوعا فى دفاعه عن كالاس بأى شعور إنسانى قدر رغبته فى لفت أنظار الرأى العام إلى وجوده هو — أى فولتير ، وفى أن يجعل الناس يتحدثون عنه[٢٨] . وأحبت الأنسة كليرون ، وهى كاتبة مسرحية كبيرة ، فولتير وزارته ، ودأب فريرون على إمتداح منافستها ، وأبدى بعض ملاحظات على الحياة الخاصة غير الأخلاقية لممثلة بعينها . واستاء الممثلون من مزاعمه باعتبارها تدخلا غير كريم فى أمورهم الشخصية . وحرض دوق ريشيليو ، وهو الذى يغتفر الزنى ، لويس الخامس عشر على إعادة فريرون إلى الباستيل ثانية ولكن الملكة حصلت على عفو عنه « من أجل تقواه وبلائه الحسن فى مناهضة الفلاسفة[٢٩] » . ولما قبض ترجو صديق الفلاسفة على زمام الأمور سحب رخصة مجلة السنة الأدبية (١٧٧٤) وتعزى فريرون بتناول الطعام الجيد ، ومات بسبب أكاة شهية ، وطلبت أرملته إلى فولتير أن يتبنى أبنته ، ولكن فولتير رأى أن هذا اسراف فى الشهامة .

وبقدر ما أساءت مجلدات فريرون الثلاثون إلى الفلاسفة ، أساءت لفظة واحدة هى اللفظة الأخيرة فى عنوان كتاب هجاء جاكوب نقولا مور « مذكرات جديدة لايضاح تاريخ الكاكوواك Cacouacs » . ويقول مورو

إن هؤلاء « الكاكوواك » جنس يكاد يكون من الحيوانات البشرية تحمل تحت السنتها أكياسامن السم ، فإذا تكلمت إمتزج السم بالكلمات ولوث كل الهواء المحيط بها . واقتبس المؤلف الحاذق مقتطفات من ديدرو ، ودالمبر وفولتير وروسو ، وحاول أن يبرهن على أن هؤلاء الرجال كانوا حقاً يسمون أنفاس الحياة ، وأتهمهم بأنهم يرتكبون السيئات والشرور « لمجرد حبهم للشر وفرحهم بارتكابه »[٣٠] وسماهم ملحدين ، فوضويين ، لاخلاق لهم ، أنانيين . ولكن لفظة الكاكوواك هي التي آلمتهم أشد الأيلام . إن هذا اللفظ أوحى بتنافر النغمات في صوت البط ، وتهريج الثرثارين المجانين ، وأحيانا (كما قصد بالكلمة) رائحة المراحيض . وكافح فولتير ليرد ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفند الرائحة ؟

وتشجع المحافظون وشددوا من ضرباتهم . وفي ١٧٥٧ كسبوا جنديا جديداً طموحا نشيطا . فإن شارل باليسودي مونتيني كان قد زار فولتير في لي دليس (١٧٥٤) مع تقديم من تيرو على أنه « تلميذ صنعته مؤلفاتك »[٣١] وبعد ذلك بعام واحد مثل في نانسي ملهاة (كوميديا) تنتقد روسو بشكل لطيف ، وفي باريس رعى وشجع الأميرة الشابة الورعة Robecq التي كانت على الأقل صديقة الدوق دي شوازيل . وكان ديدرو الخبير في سوء السلوك قد عاب عليها خلقها في مقدمة كتابه « الأبن الطبيعي » وربما نشر باليسو (١٧٥٧) ، استرضاء لها ، كتاب « رسائل صغيرة عن كبار الفلاسفة » انتقد فيه ديدرو بشدة ، ولكنه إمتدح فولتير . وفي ٢ مايو ١٧٦٠ قدم تحت رعاية الآنسة دي روبيك على المسرح الفرنسي الملهاة الرائعة في الموسم وأسمها «الفلاسفة» . وكانت هذه بالنسبة لهلفشيوس وديدرو وروسو ما كانت مسرحية أرستوفان « السحب » بالنسبة لسقراط قبل ذلك بنحو ٢١٨٣ عاما . صور فيها هلفشيوس في صورة الفيلسوف المتحذلق فالير Valere الذي يشرح حب الغير في الأنانية للسيدة المثقفة ذات الأهتمامات الأدبية والفكرية سيد اليز Cidalise . وعرف جمهور المتفرجين

لأول مرة أن هذه السيدة تمثل مدام جيوفرين التى كان صالونها يتردد عليه الفلاسفة وصور ديدرو وكأنه دورتيديوس . وفى الخادم كرسبين Crispin الذى كان يحبو على أربع عبر المسرح وهو يمضغ الخس . رأى الباريسيون صورة ساخرة (كاريكاتورية) لجـــان جاك روسو الذى كان فى ١٧٥٠ قد استنكر المدنية وأضفى صورة مثالية على «حالة الطبيعة» ومجدها . وكان هجاء جافا غير مصقول ، ولكنه مشروع . وأستمتع به كل من شاهده ، اللهم إلا الضحايا الذين قصدت المسرحية السخرية منهم . وملأت الآنسة دى روبك المسرح بأصدقائها وغيرهم من أتباعها ، وعدة أفراد من مختلف الرتب الكنسية . وأصرت الأميرة على الرغم من السل الذى كان يهدد كيانها ، على تشريف العرض الأول بجمالها المحموم . وفى نهاية المشهد الثانى دعى باليسو إلى مقصورتها ، وعانقته على مرأى من الناس ، ثم حملوها إلى دارها[٣٢] لأنها كانت تسعل دما . ومثلت مسرحية الفلاسفة أربع عشرة مرة فى تسعة وعشرين يوما .

وفى الوقت نفسه أنضم إلى الحملة على الكفار شخصية كبرى . فإن جان جاك لى فرانك مركيز دى بومبينان ، أحد حكام الإقاليم ، كتب قصائد وروايات ممتازة إلى حد فاز معه فى الإنتخابات للأكاديمية الفرنسية . وفى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة قبوله عضوا فيها ، قال جان مستنكرا : «هذه الفلسفة المضللة الخداعة التى تقول عن نفسها إنها لسان حال الحق ، وماهى إلا أداة للافتراء وتشويه السمعة ، إنها تتبجح بالاعتدال والتواضع ، ولكن تنتفخ أوداجها زهوا وكبرياء . أن أتباعها الذين يتجرأون ويتعالون ويتيهون عجباً بأقلامهم يرتعدون فرقا فى حطة فى حياتهم ، وليس ثمة شيء يقينى فى مبادئهم ، وليس ثمة غناء فى أخلاقهم . ولاقاعدة للحاضر ولا هدف للمستقبل»[٣٣] .

وإمتدح لويس الخامس عشر هذا الخطاب . وسخر منه فولتير فى نشرة من سبع صفحات لا تحمل أسم الكاتب ، عنوانها «عندما» لأن كل فقرة

فيها بدأت بكلمة « عندما » وعلى سبيل المثال . « عندما يحظى إنسان بشرف الأستقبال فى جمعية كريمة من رجال الأدب . فليس من الضرورى أنيكون خطاب الأستقبال هجاء لرجال الأدب ، لأن فى هذا اساءة للجمعية وللجمهور . وعندما لايكاد الإنسان يكون أديبا إلا بشق النفس ، ولا يكون على الأقل فيلسوفا ، فلا يجمل به أن يقول إن أدب امتنا زائف وفلسفتها عقيمة . . . »

وهكذا فى أسلوب غير رائع . ولكن موريليه أتبع هذه النشرة بنشرة أخرى كبيرة تكرر فيها لفظ « إذا » وسرعان ما صدرت بعد ذلك نشرة أمتلات بلفظة « لماذا » ثم أصدر فولتير بعد ذلك نشرات متوالية زاخرة بالألفاظ : « من ، الذى ، نعم ، لا لماذا » ، وهرب بومبينان من هذه العاصفة إلى بلدته مونتوبان ، ولم يظهر قط فى الأكاديمية ثانية . ولكنه عاد إلى الصراع فى ١٧٧٢ بكتاب أسمه « الدين يثأر من الشكوكية بالشكوكية نفسها » وبسط وجهة نظره فى أن المذهب المادى (المادية) لم يترك أى وازع للاخلاق والفضيلة ، وإذا لم يكن هناك إله فكل شيء جائز أو مرخص به ، وكل ما نحتاجه هو أن نتملص من الشرطة . وتساءل المركيز : إذا لم يكن هناك إله فكيف تقنع الناس بأن يرضوا بوضع التبعية والخضوع الذى وضعتهم الجمهورية فيه(٣٤) ؟

وقال الكاهن جاليانى ، الذى جاء من نابلى إلى باريس ١٧٦١ ، وتألق فى الصالونات لمدة ثمانى سنوات ، للفلاسفة — الذين أحبوه — إن دعوة بعضهم إلى « اتباع الطبيعة » نصيحة مجنونة تهبط بالإنسان المتحضر إلى الوحشية والهمجية(٣٥) وإن شواهد التدبير الألهى المقصود فى الكون بارزة جلية(٣٦) وإن التشكك أدى إلى الفراغ العقلى واليأس الروحى :

« يسبب تنوير أنفسنا وجدنا فراغا أكثر مما وجدنا أمتلاء . . . وهذا الفراغ الذى ألح على نفوسنا وعلى خيالنا هو السبب الحقيقى فى كآبتنا(٣٧) ..
وبعد كل ما قيل وما عمل فالتشكك هو أعظم محاولة تبذلها روح الإنسان

ضد غرائزه وفطرته وأذواقه . . . إن الناس فى حاجة إلى التيقن . . . أن الغالبية من الناس وبخاصة النساء (وخيالهن ضعف خيالنا) لا يمكن أن يكونوا « لا أدريين » ، وإن هؤلاء القادرين على اعتناق مذهب اللاادرية (الذين يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها) ، لايستطيعون إن يبقوا على مذهبهم إلا بسمو شباب نفوسهم وقوتها ، فإذا هرمت النفس وولى شبابها يعود بعض الإيمان إلى الظهور ثانية(٣٨) .... إن اللاادرية يأس له ما يبرره »(٣٩) .

وضد جاليانى اللامع ، وبرجييه العالم الفقيه وبرتييه الدمث ، وفريرون المجد المكافح وبومبينان النبيل ذى اللقب ، وباليسو المرهق ، ومورو الثرثار ، استخدم الفلاسفة ضد هؤلاء جميعا كل أسلحة الحرب الفكرية ، من العقل والسخرية إلى الرقابة والقدح والذم . وتخلى فولتير عن هدوئه وغامر بأمنه وطمأنينته ليرد فى شىء من الدعابة أكثر منه بالمحاجة والجدل غالبا ، على كل من يهاجم الفلاسفة والعقل ، فكتب إلى ديدرو « أرسل إلى إسماء هؤلاء الرفاق التعساء ، وسأعاملهم بما يستحقون »(٤٠) .

وكان من الصعب التعرض لمورو لأنه كان أمين المكتبة ، وكان مؤرخ المملكة . وكان من الممكن التشهير ببومينان بالتفاصيل الصغيرة ، والنيل من باليسو بالتورية والتلاعب بالألفاظ ، وهكذا كتب مارمونتل قطعة من المتعذر ترجمتها « هذا الرجل كان اسمه ذات يوم بالى ، وفى البداية أسموه بالى الغبى ، ثم بالى المنحط وبالى الأحمق ، وبالى العقيم وبالى البارد . وتتويجا لهذا التقريع المطول العنيف وختاما لهذه المقطوعة الهجائية ، جاءت الكلمة المناسبة على الفور . فأسموه بالى المغفل ، وهبوطا إلى مستواك يجب علينا ، أنا واللفظة أن نمزح مرحا صاخبا ، تأمل وفكر إذا استطعت أن تستخدم تلك الآلة ولكن لا تكتب ، بل اقرأ « أيها الأحمق » .

وأجل ديدرو الأنتقام حتى يسرد فجور باليسو وفسقه فى كتابه « أين أخى رامو »(٤١) وكاد ألا يكون جديرا بفيلسوف ، ولكنه تورع عن

نشرة ، ولم يدفع به إلى المطبعة الفرنسية إلا بعد وفاة فريسته أو غريمه . على أن موريليه أخرج على الفور كتابا لا يهزأ فيه من باليسو وحده بل كذلك من « حاميته » الآنسة دى روبيك — وإستصدر أحد إصدقائها فى البلاط الملكى أمرا بإيداع موريليه سجن الباستيل (١١ يونيه ١٧٦٠) وحصل روسو على أمر بأطلاق سراحه ، ولكنه قطع علاقته بالفلاسفة منذ ذاك الوقت . ولطخ باليسو إنتصاره بالأنغماس فى اللهو والشراب . وفى ١٧٧٨ إنحاز إلى جانب أنصار فولتير ، وانضم ثانية إلى الفلاسفة :

ووقعت أشد ضرباتهم على رأس فريرون . ووصفه ديدرو فى ابن أخى رامو[٤٢] بأنه « واحد من جماعة الأدباء المأجورين المبتذلين الذين عاشوا على مائدة الثرى (المليونير) برتان » . وخصص فولتير أحدى مقطوعاته الساخرة لفريرون ، حيث يقول « بالأمس القريب ، فى أحد الأودية لدغ ثعبان جون فريرون ، فماذا تظن قد حدث آنذاك ؟ لقد مات الثعبان .

ومن أمثلة البذاءة التى أساءت إلى سمعة فولتير والقرن الثامن عشر وصفه لفريرون بأنه « الدودة التى خرجت من إست ديفونتين »[٤٣] ولكن الهجوم الأكبر ورد فى رواية فولتير « المرأة الاسكتلندية » التى بدأ تمثيلها على المسرح الفرنسى فى ٢٦ يوليو ١٧٦٠ حيث كانت محاكاة ساخرة لرواية باليسو « الفلاسفة » مع مبالغات واضحة فى أنها نسبت إلى ضحاياه مسئولية هزائم الجيوش الفرنسية فى الحروب وانهيار مالية الدولة . وصور فريرون على أنه كاتب مأجور مبتذل تافه فى شارع جرب Grub street (شارع اشتهر بهذا الأسم سابقا) ، جاء بالرجس والعار فى كل فقرة كتبها نظير بستول واحد (عملة أسبانية أوربية) . ومن بين النعوت التى أطلقت عليه فى رواية فولتير : وغد ، ضفدع الطين (شخص تافه) ، كلب ، جاسوس ، سحلية ، ثعبان ، موطن التجسس والقذارة[٤٤] . واتبع فولتير نفس العادة المألوفة فملأ المسرح بأصدقائه أو « بالأخوة » ونافست

هذه الرواية رواية باليسو فى شعبيتها واقبال الجمهور على مشاهدتها ، ومثلت ست عشرة مرة فى خمسة أسابيع . وخرج فريزون من العاصفة سالما بحضوره العرض الأول مع زوجته الجميلة ، وواضح أنه كان أول المصفقين . وتبين فولتير مزاج غريمه . فأذا سأل زائر عمن يؤخذ رأيه فى قيمة الكتب الجديدة أو مزاياها ، أجاب فولتير بقوله « أرجعوا إلى هذا الوغد فريرون ... إنه الرجل الوحيد الذى له ذوق . إنى مضطر إلى الاعتراف بهذا على الرغم من أننى لا أحبه »(٤٥) .

٣ — سقوط اليسوعين

كشف الأنهيار السريع « لجمعية يسوع » عن روح العصر ومزاجه ، ولو أن هذا السقوط نتيجة لتصرف برلمان باريس أكثر منه نتيجة لعمل الفلاسفة . أن مؤسسها إطلق عليها إسم « عصبة (شركة) يسوع » وأقرها البابا بول الثالث ١٥٤٠ تحت إسم مجتمع يسوع — أى هيئة دينيية تتبع قاعدة محددة ، تعيش على الصدقات . وقد أصبح هؤلاء « اليسوعيين » كما سماهم النقاد — على مدى قرن من الزمان أقوى جماعة من رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية . وما وافى عام ١٥٧٥ حتى كانوا قد أسسوا فى فرنسا وحدها أثنتى عشر كلية ، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب فى فرنسا . ولمدة مائتى عام اختار ملوك فرنسا كهنة إعترافهم من بينهم ، وحذا سائر الحكام الكاثوليك حذوهم . وبهذه الوسيلة وغيرها من الوسائل بات لهؤلاء اليسوعيين أو « جماعة يسوع » أبلغ الأثر فى تاريخ أوربا بأسرها .

ومنذ بداية عهد اليسوعين فى باريس تقريباً كان البرلمان والسوربون يقاومانهم . وفى ١٥٩٤ اتهمهم برلمان باريس بأنهم كانوا وراء محاولة جان شاتيل الاعتداء على حياة هنرى الرابع . وفى ١٦١٠ اتهمهم البرلمان بتحريض رافياك على قتل الملك ، وأيد البرلمان هذه الاتهامات بالإشارة إلى بحث اليسوعى الأسبانى ماريانا الذى دافع فيه عن مشروعية قتل الملوك فى

ظروف معينة . ولكن جماعة يسوع إزدادت عدداً وقــوة وسلطانا وسيطرت على سياسات لويس الرابع عشر الدينية ، وأدت به إلى مهاجمة الجانسنيين فى بورت رويال، على أنهم كلفنيون تحت شعار أنهم كاثوليك . ولاتزال الإقلية المتعلمة تذكر «الرسائل الإقليمية» التى كتبها بسكال١٦٥٦، ومع ذلك فأنه فى ١٧٤٩ كانت جماعة يسوع تضم ٣٣٥٠ عضوا فى فرنسا من بينهم ١٧٦٣ كاهنا . وبرزوا بين رجال الدين فى فرنسا بوصفهم أحسن العلماء والباحثين وأبرع اللاهوتيين وأفصح الوعاظ ، وأتقى المدافعين عن الكنيسة ، وأنشطهم وأنجحهم ، وأسهموا فى كثير من العلوم ، وأثروا فى تطوير الفنون ، وكانوا باجماع الآراء أفضل المعلمين فى أوربا . وكانوا يتميزون بصرامة أخلاقهم ، ومع ذلك لجأوا إلى كل ألوان التحايل للتخفيف من متطلبات الأخلاق المسيحية عند الرجل العادى ، وحتى مــع هذا لم يتغاضوا قط عن فسق النبلاء والملوك وفجورهم ، وبفضل إعدادهم أو تربيتهم الشاقة ومثابرتهم الصابرة ، جعلوا من أنفسهم قوة تسيطر على سياسات الملوك وعقول الناس . وبدا فى بعض الأحيان أن أوربا بأسرها قد تدعن لصلابة ارادتهم المتحدة المتميزة بالنظام والانضباط .

أن قوة اليسوعيين هى تقريباً التى قضت عليهم . وبدا واضحا كل الوضوح لدى الملوك أن تأييد اليسوعيين لسلطة البابا المطلقة فى مسائل الإيمان والاخلاق وغيرها ، إذا لم يوضع له حد سيجعل من كل الحكام المدنيين أتباعا للبابوات ، ويعيد سلطان رومه الامبراطورية . أنهم ولو أنهم كانو أقرب الجماعات إلى آذان الملوك ، دافعوا عن حق الشعب فى خلع الملك . أنهم ولو أنهم كانو متحررين نسبيا فى اللاهوت والاخلاق ، وسعوا إلى التوفيق بين العلم والكنيسة ، فأنهم شجعوا ورع الناس بتأييدهم دعوى مرجريت مارى الاكوك بأن المسيح كشف لها عن «قلبه المقدس» الذى يتحرق حباً للبشر . إنهم أنشأوا وبنوا عقول ديكارت وموليير وفولتير

وديدرو ، لمجرد أن يروا هؤلاء الرجال اللامعين ينقلبون عليهم وعلى نظام التعليم اليسوعى .

وأتهم منهج المدارس اليسوعية بتعلقه الشديد وحرصه البالغ على اللغة اللاتينية ، إلى حد أنه عوق نمو المعرفة باستبعاد كل شيء اللهم إلا الأفكار التقليدية . إنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغى على الذاكرة ، وعلى الطاعة العمياء السلبية . ومن ثم فان قيمة الدراسة فقدت كثيراً بسبب حاجة العصر إلى قدر أكبر من الاستفادة بالعلوم ، وإلى نظرة أكثر واقعية إلى الحياة البشرية . وعلى ذلك فأن دالمبير فى مقاله عن « الكلية » فى الموسوعة رثى للسنوات الست التى قضاها الطلبة فى المدارس اليسوعية فى دراسة لغة ميتة ، وأوصى بمزيد من الاهتمام باللغتين الانجليزية والايطالية والتاريخ والعلوم والفلسفة الحديثة . وأهاب بالحكومة أن تسيطر على التعليم ، وتدخل منهجا جديدا للدراسة فى مدارس جديدة . وفى ١٧٦٢ نشر روسو كتابه « إميل » أعلن فيه ثورة على التعليم .

ومهما يكن من أمر فأن الفلاسفة كانوا عاملا أقل شأنا فى سقوط اليسوعيين فى فرنسا . إن نوعا من الهدنة المتبادلة خيم على العداء المتبادل ، ذلك أن الكفار احترموا علم اليسوعيين وخلقهم ، وهؤلاء من جانبهم كانوا يأملون بالأناة والصبر فى معالجة الأمور فى أن يعيدوا هؤلاء المتشككين الخطائين إلى حظيرة الدين القويم . ووجد فولتير أنه من العسير عليه أن يشن الحرب على معلميه السابقين . وكان قد أرسل روايته « هنرياد » إلى الأب بورى راجيا أياه أن يصحح ما قد يكون فيها من فقرات تسيء إلى الدين(٤٦). وفى كتابه « معبد الذوق » كان قد إمتدح فى اليسوعيين تقديرهم لقيمة الأدب وكثرة استخدامهم للرياضيات فى تعليم الشباب . وتجاوبت معه صحيفة تريفو بنشر تقريظ لرواية هنرياد ، وكتابى « شارل الثانى » و « فلسفة نيوتن » . وانتهى هذا الأتفاق شبه الودى حين لحق فولتير بفردريك فى بوتسدام ، فتخلى عنه زعماء اليسوعيين عند ذاك باعتباره نفسا ضائعة . ولكن

فى أواخر ١٧٥٧ حاول بعضهم التوفيق بين فولتير وجماعة يسوع [٤٧].
وفى فرنى (فى ١٧٥٨ وما بعدها) احتفظ فولتير بعلاقات ودية مع اليسوعيين المحليين واستمتع نفر منهم بكرم وفادته . وكان فى نفس الوقت قد هاجم الكنيسة فى مائة صحيفة فى كتابه « رسالة فى العادات والاعراف » . كما كان يكتب مقالات ضد المسيحية للقاموس الفلسفى . وعندما سمع بنبأ مهاجمة رئيس الوزراء كارفالو لليسوعيين فى البرتغال (١٧٥٧) واحراق مالاجريدا اليسوعى (١٧٦٤) شجب اتهامات كارفالو بأنها غير عادلة وإعدامه بأنه قسوة غاشمة [٤٨] . ولكنه طوال تلك السنوات كان هو نفسه فى حرب مع الكنيسة ، وكانت كتابات « أخوته » ديدرو ودالمبير وموريليه تسهم فى اضعاف اليسوعيين فى فرنسا .

وربما أسهمت المحافل الماسونية ، المخصصة بصفة عامة لمذهب الربوبية فى عملية تقويض أركان اليسوعيين وأضعافهم . ولكن أقوى التأثيرات فى المأساة كانت شخصية متعلقة بصراعات طبقية . ولم تستطع مدام دى بمبادور أن تنسى أن اليسوعيين قاوموا كل خطوة فى سبيل تسنمها مراقى العظمة والسلطان ، وأنكروا الغفران للملك مادام يحتفظ بها ، ورفضوا أن ينظروا بعين الجد إلى عودتها المفاجئة إلى التقوى والتمسك بأهداب الدين. وأعلن الكاردينال برنيس وكان لأمد طويل ذا حظوة لدى المركيزة ، أن قمع حركة اليسوعيين فى فرنسا يرجع أساساً إلى إمتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح الغفران لمدام دى بمبادور على الرغم من توكيداتها بأن علاقاتها بلويس الخامس عشر لم تعد جسدية [٤٩] . وردد الملك صدى استيائها : لماذا كان هؤلاء الكهنة متساهلين مع الآخرين ، قساة متشددون مع المرأة التى أضاءت جوانب حياته المرهقة الموحشة ؟ لماذا كانت تزداد ثروتهم المشتركة على حين كان هو يكافح من أجل الحصول على الإعتمادات اللازمة لجيشه وبحريته فى حرب مشئومة تنذر بكارثة ، ومن أجل ملابس عشيقته وأجور تدريبها وإعدادها فى « منتدى

الظباء » وكان دامين قد حاول قتل الملك ، ولم يكن لليسوعيين علاقة ظاهرة بهذه المحاولة ولكن كان لدامين كاهن إعتراف يسوعى . ألم يدافع أحد اليسوعيين المتوفين عن فكرة قتل الملوك ؟ وبدأ الملك يصغى إلى شوازيل وإلى بعض شبه إنتصار فولتير فى وزارته » ممن قالوا بأن الوقت قد حان لتخليص الدولة من ربقة وصاية الكنيسة ، وإقامة نظام إجتماعى إخلاقى مستقل عن رجال الدين النزاعين إلى تعويق إنتشار المعرفة ، وعن لاهوت العصور الوسطى . وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة فى الخرافة قد تجاسرت على طرد اليسوعيين فلم لا تقدم فرنسا المستنيرة على مثل هذا ؟

وتأثر اليسوعيون بهذه العداوات المختلفـــة وأشتد الارتياب فى أنهم ربطوا بين فرنسا والنمسا فى حرب السنين السبع ، ومن ثم فأنهم تعرضوا لكراهية مفاجئة بشكل غريب . وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردزيك فى روسباخ ، وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى الحضيض وأصبح منظر الجنود المقعدين المشلولين مألوفا فى باريس ، بات اليسوعيين هدفا للنكات والشائعات والأفتراءات المشوهة للسمعة حتى إلى حد الأتهام باللواط[٥٠] ، واتهموا بالأنهماك فى متاع الدنيا وبالهرطقة وبجمع الثروة وبأنهم عملاء لدولة أجنبية . وإنتقد كثير من رجال الدين غير المنتسبين إلى طوائف لاهوتهم بأنه متحرر أكثر مما ينبغى ، وإفتاءهم فى قضايا الضمير والسلوك والأخلاق بأنه مفسدة للاخلاق ، وسياستهم بأنها تقوم على إرتماء فرنسا فى أحضان رومه . وفى ١٧٥٩ كتب دالمبير إلى فولتير « إن الأخ برتييه والمتواطئين معه لايجرؤون على الظهور فى الشوارع فى هذه الأيام خشية أن يلقى الشعب بالبرتقال البرتغالى على رؤوسهم »[٥١]

وكان برلمان باريس أعظم القوى التى إنقلبت على اليسوعيين عداء ، وكانت هذه الجماعة تتألف من محامين وقضاة يتدثرون فى أردية كثيبة رهيبة مثل الملابس الكهنوتية ، وينتمون إلى طبقة « نبلاء الرداء » .

إن هذه الأرستقراطية الثانية المنظمة تنظيما جيدا، الذرية اللسان كانت ترقى مدارج السلطة والسطوة بسرعة ، وكانت متلهفة على تحدى سلطان رجال الدين . وفوق هذا كانت غالبية برلمان باريس من الجانسنيين . وعلى الرغم من كل القمع عاناه الجانسنيون فإن هذا المذهب المتشدد ، وهو نتاج تشدد القديس بولص فى مسيحية المسيح وهى أيسر وأخف ، إجتذب قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى فى فرنسا ، وعلى الأخص تلك العقول القانونية التى أحست منطقه ، ورأت فيه وقفة قوية ضد اليسوعيين . واتضح الآن بما لأيدع مجالا للشك أن اليسوعيين هم الذين ألحوا على لويس الرابع عشر لتعقب الجانسنيين إلى حد تدمير بورت رويال تدميرا تاما ، وإكراههم الشديد على قبول المرسوم البابوى البغيض الذى جعل من الجانسنية هرطقة أنكى من الالحاد . فهل تحين الفرصة للرد على هذا الايذاء بمثله والأنتقام لمثل هذا الأضطهاد !

وهيأ اليسوعيون لبرلمان باريس هذه الفرصة . إنهم لعدة أجيال مضت قد إشتغلوا بالتجارة والصناعة ، وسيلة لتمويل معاهدهم اللاهوتية وكلياتهم وبعثاتهم التبشيرية وسياستهم . إنهم فى رومه احتكروا كثيراً من نواحى الإنتاج والحرف والصناعات . وفى آنجرز بفرنسا أسسوا مصنعا لتكرير السكر(٥٢) ، واحتفظوا بمراكز تجارية فى كثير من الأراضى الأجنبية مثل جوا . وكانوا من أغنى المقاولين فى مستعمرات إسبانيا والبرتغال فى أمريكا(٥٣) . وجأرت المشروعات الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة . حتى أن الكاثوليك الأفاضل تعجبوا كيف أن طائفة نذرت نفسها للتقشف مثل اليسوعيين تجمع مثل هـــذه الثروة . وكان من أنشط رجال الأعمال عندهم الأب إنطوان دى لا فالت Valette الرئيس الأعلى لليسوعيين فى جزر الأنتيل الذى أدار باسم الجماعة مزارع وأسعة فى جزر الهند الغربية واستخدم آلافا من المواطنين السود(٥٤) وصدر السكر والبن إلى أوربا . وفى ١٧٥٥ إقترض مبالغ ضخمة من مصارف مرسليا ، ولسداد هذا القرض

أرسل فرنسا سفنا محملة بالبضائع التى تقدر قيمتها بمليونى فرنك (٥ ملايين من الدولارات) ، ولكن البوارج الانجليزية استولت عليها سنة ١٧٥٥ فى مقدمات حرب السنين السبع . وأملافى تعويض هذه الخسائر اقترض فالت مبالغ أكبر ، ولكنه أخفق وأعلن افلاسه ، وهو مدين بمبلغ ٢,٤٠٠,٠٠٠ فرنك . وطالب الدائنون بالدفع ، وطلبوا إلى جماعة اليسوعيين الاعتراف بمسئوليتها عن ديون لا فالت . ورفض زعماء اليسوعيين زاعمين أنه تصرف بصفة فردية ، لأباسم الطائفة ، وأقام أصحاب المصارف دعوى على الجماعة فنصحهم الأب فرى Frey الخبير السياسي لها فى فرنسا بعرض الأمر على البرلمان . وتم هذا فى مارس ١٧٦١ ، وتعلق مصير الطائفة بأيدى أقوى أعدائها . وفى الوقت نفسه أرسل أحد اليسوعيين رسالة سرية إلى الملك يوصى فيها بطرد شوازيل من الوزارة بوصفه علوا للجماعة والدين ، ودافع شوازيل عن نفسه بنجاح .

وانتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة وقوانينها ومستنداتها التى تكشف عن تنظيم الجماعة وأنشطتها . وفى ٨ مايو أصدر حكما فى مصلحة الشاكين ، وأمر الجماعة بتسوية كل ديون لا فالت . فشرع اليسوعيين فى عمل بعض التسويات مع الدائنين الأصليين(٥٥) . ولكن فى ٨ يوليو قدم الراهب Terray إلى البرلمان تقريرا عن « المذهب الخلقى والعملى لجماعة اليسوعيين» . وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان فى ٦ أغسطس قرارين قضى أحدهما بأحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين فى القرنين السابقين لأنها تعلم مبادىء « بغيضة تدعو إلى سفك الدماء » وتهدد أمن المواطنين والملوك ، كما حرم الأنضمام إلى عضوية الجماعة بعد الآن فى فرنسا . كما قضى بأنه حتى أول أبريل ١٧٦٢ ، يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين ، اللهم إلا تلك التى تحصل على ترخيص من البرلمان باستمرار الدراسة فيها . أما القرار الثانى فأباح تقديم الشكاوى ضد سؤ استخدام السلطة فى الجماعة أو بواسطتها . وفى ٢٩ أغسطس أوقف الملك تنفيذ هذين القرارين ، ووافق

البرلمان على تعطيلهما مؤقتا حتى أول إبريل . وحاول الملك المنزعج الوصول إلى تسوية وسط . وفى يناير ١٧٦٢ أرسل إلى كليمنت الثالث عشر وإلى لورنزو رتشى رئيس اليسوعيين اقتراحاً بأن تفوض منذ الآن فصاعداً كل سلطاته فى فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين يقسمون اليمين على طاعة القانون الفرنسى ، ومواد قانون ١٦٨٢ التى أحلت الكنيسة الفرنسية فى الواقع من الخضوع للبابا . وفوق ذلك يجب أن تكون المدارس اليسوعية خاضعة لتفتيش البرلمانات . ولكن البابا وريتشى رفضا الاقتراح فى شىء من التحدى « فليبق اليسوعيون كما هم أو لا يبقون مطلقا »[٥٦] . ولمصلحة جماعة اليسوعيين أهاب كليمنت برجال الدين الفرنسيين مباشرة . وفى هذا خرق للقانون الفرنسى . ورفض رجال الدين الفرنسيون رسالة البابا وأحيلت إلى الملك الذى أعادها إلى البابا .

ودخلت البرلمانات الإقليمية الآن حلبة النزاع وأضافت بعض التقارير التى تلقتها مزيداً من الاتهامات الموجهة إلى اليسوعيين . وأثر برلمان رن Rennes فى بريتانى بالتقرير الذى قدمه النائب العام لويس رينيه دى لاشالوتيه فى ١٧٦١ — ١٧٦٢ عن « نظام اليسوعيين » الذى اتهم فيه الجماعة بالهرطقة والوثنية والأعمال غير المشروعة والدعوة إلى قتل الملوك ، وأكد أنه لزام على كل يسوعى أن يقسم يمين الطاعة المطلقة للبابا ورئيس الطائفة الذى كان يقيم فى رومه. وأنه بناء على ذلك تكون الجماعة بمقتضى دستورها خطراً يهدد فرنسا ومليكها ، ومن ثم ألح التقرير على أن يكون تعليم الأطفال حقاً مطلقاً للدولة لامراء فيه . وفى ١٥ فبراير ١٧٦٢ أمر برلمان روان كل اليسوعيين فى نورمندى بإخلاء دورهم وكلياتهم وعزل كل المديرين الأجانب ، وقبول القانون الفرنسى . وصدرت قرارات مماثلة من البرلمانات فى رن ، اكس أن بروفانس ، بو ، بربينان ، تولوز ، وبوردو . وفى أول أبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ونقل إدارة المدارس اليسوعية فى دائرة اختصاصه إلى مديرين آخرين .

وحاول رجال الدين الذين لاينتمون إلى طوائف على الرغم من أنهم من الناحية التقليدية يحقدون على اليسوعيين، نقول حاولوا إنقاذهم، ووجهت جمعية من الأساقفة الفرنسيين فى أول مايو نداء إلى الملك من أجل هذه الطائفة : التى هى نظام مفيد للدولة ... وهم جماعة من المتمسكين بالدين الجديرين بالثناء ، لنزاهة أخلاقهم وشدة انضباطهم ، واتساع نطاق نشاطهم وعملهم وسعة إطلاعهم وعلمهم ، والخدمات التى لاتحصى التى قدموها للكنيسة ... إن كل شىء يا صاحب الجلالة يناشدك العطف على اليسوعيين.

إن الدين يرى فيهم المدافعين عنه ، وترى فيهم الكنيسة خدامها ، كما يرى فيهم المسيحيون حراساً على ضمائرهم ، إن عدداً كبيراً ممن كانوا تلاميذهم يتشفعون لديك من أجل معلميهم القدامى . وإن كل شباب مملكتك يدعون ويصلون من أجل أولئك اليسوعيين الذين يشكلون عقولهم وقلوبهم. نرجو يا مولاى أن تعير أذناً صاغية إلى توسلاتنا التى أجمعنا على تقديمها إلى جلالتكم (٥٧).

وأضافت الملكة وبناتها والدوفين وغيرهم من حزب المتدينين فى الحاشية تضرعاتهم من أجل اليسوعيين . ولكن شوازيل وبمبادور نصحا الملك آنذاك قطعاً بالأذعان للبرلمان وإغلاق المدارس اليسوعية . وذكرا لويس بأن عليه أن يفرض ضرائب جديدة ، وأن هذا يتطلب موافقة البرلمان وعلى حين كان الملك متردداً بين هذه النصائح المتضاربة ، اتخذ البرلمان خطوات حاسمة . وفى ٦ أغسطس ١٧٦٢ أعلن أن جماعة يسوع لاتلتئم مع قوانين فرنسا ، وأن الإيمان التى أقسمها الأعضاء ، طغت على ولائهم للملك ، وأن خضوع الجماعة لسلطة أجنبية جعل منها هيئة أجنبية داخل دولة مفروض أنها ذات سيادة . وبناء على ذلك أصدر البرلمان أمراً بحل الجماعة فى فرنسا ، وبتخلى كل الجزويت فى بحر ثمانية أيام عن كل ممتلكاتهم فى فرنسا ، فأعلن أنها صودرت لجانب الملك .

وأخر الملك تنفيذ هذا القرار تنفيذاً كاملا لمدة ثمانية شهور . ورفض

برلمانا بيزانسون ودواى الامتثال لهذه القرارات ، على حين أطال ثلاثة برلمانات ديجون وجرينوبل ومتز الجدل والمناقشة كسباً للوقت . ولكن برلمان باريس أصر . وأخيراً فى نوفمبر ١٧٦٤ أمر لويس بوقف نشاط جماعة اليسوعيين وقفاً تاماً فى فرنسا . وبلغت قيمة الممتلكات المصادرة نحو ٥٨ مليوناً من الفرنكات[٥٨]، وربما ساعد هذا على موافقة الملك على حل هذه الطائفة . وخصص معاش ضئيل لليسوعيين السابقين ، وسمح لهم بالبقاء فى فرنسا لبعض الوقت . ولكن فى ١٧٦٧ قرر البرلمان وجوب مغادرة كل اليسوعيين السابقين أرض فرنسا . وتبرأ قليل منهم من الطائفة وبقوا فى فرنسا .

وكان رحيلهم موافقاً للنبلاء والطبقة الوسطى والمثقفين ورجال الأدب والجانسنيين ، ولكن لم يرق فى أعين بقية الأهالى . واستنكر كريستوف دى بومونت رئيس أساقفة باريس تصرفات البرلمان بشدة ، وعبرت مجموعة رجال الدين الفرنسيين (١٧٦٥) بالاجماع عن حزنها وأسفها لحل الجماعة ودعت إلى إعادتها . وأعلن البابا كليمنت الثالث عشر فى مرسومه الرسولى براءة اليسوعيين ، فأحرق المدعى العام المرسوم فى شوارع عدة مدن ، على أساس إن البابوات ليس لهم حق مشروع فى التدخل فى شئون فرنسا[٥٩] . ورحب الفلاسفة فى أول الأمر بطرد اليسوعيين باعتباره إنتصاراً مشجعا للفكر الحر . وأورد دالمبير فى سرور تعليق جان أستروس العالم الباحث فى الأسفار المقدسة ، والذى قال فيه « إن الموسوعة ، لا الجانسنيين ، هى التى قضت على اليسوعيين[٦٠] . وزادت الآن بسرعة مطبوعات الفكر الحر . وفى عقد السنين التى تلت عملية الطرد ، قارب دى هولباخ ومعاونيه حد الإلحاد .

ومهما يكن من أمر فثمة تفكير ثان ، وهو أن الفلاسفة أدركوا أن الانتصار يرجع إليهم أقل مما يرجع إلى الجانسنيين والبرلمانات ، وأن الفكر الحر ترك ليواجه عدوا أشد تعصبا من اليسوعيين بكثير[٦١] . وعبر دالمبير فى كتابه « تاريخ القضاء على اليسوعيين » عن إبتهاج يسير بمصيرهم :

يقيناً إن العدد الأكبر منهم ، الذين لم يكن لهم صوت فى إدارة الأمور كان بجدر ألا يتحملوا وزر أخطاء رؤسائهم ، إذا كان هذا التفريق بين هؤلاء جائزا من الوجهة العملية . وهنـاك آلاف من الأبرياء خلطنا مع الأسف بينهم وبين عشرين شخصا مذنبين . . . إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل ، شريطة ألا يرقى تعصب الجانسنيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين .

وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين ، فإننا نؤثر جماعة يسوع التى هى أقل طغيانا وجورا . فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ويتكيفون معهم ، شريطة إلا يعلن المرء عداءه لهم أجازوا للمرء أن يفكر كيفما شاء . أما الجانسنيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم . وإذا قدر لهم أن يسودوا لفرضوا على الناس تحكما شديدا فى الاذهان والكلام والاخلاق[٦٢] .

وكأنما أراد برلمان باريس الذى سيطر عليه الجانسنيون أن يضرب أمثلة توضح وجهة النظر هذه فأصدر فى نفس عام ١٧٦٢ الذى أمر فيه بحل جماعة يسوع أمرا باحراق كتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين نسبيا . وفى تلك السنة أعدم برلمان تولوز الذى تحكم فيه الجانسنيون كذلك ، جان كالاس ، وأحرق برلمان باريس فى ١٧٦٥ قاموس فولتير الفلسفى . وبعد ذلك بعام وأحد ثبت حكم التعذيب والإعدام الصادر على الشاب شيفالييه دى لابار من محكمة آبفيل .

وفى ٢٥ سبتمبر ١٧٦٢ كان دالمبير قد كتب إلى فولتير : « هل تعلم ماذا سمعت عنك بالأمس ؟ سمعت أنك بدأت ترثى لحال اليسوعيين ، وأنك واقع تحت إغراء الكتابة فى مصلحتهم »[٦٣] لقد كان فى قلب فولتير دائما رصيد من الشفقة والعطف ، والآن وقد بدا أن المعركة ضد جماعة يسوع قد كسبت تماما فإنه كان يسمع أصواتا من اللوم والعتاب من معلميه الذين قضوا نحبهم . وأخذ إلى داره فى فرنى أحد اليسوعيين السابقين ،

هو الأب آدم الذى تسلم صدقاته ، وغلبه دائما فى الشطرنج . وحذر فولتير شالوتيه بقوله « إحترس حتى لا يوقع الجانسنيون يوما من الضرر والأذى قدر ما أحدث اليسوعيون . . . . وماذا يفيدنى أن إتخلص من الثعالب إذا أسلمونى للذئاب »[٦٤]. أنه خشى أن يعمد الجانسنيون مثل البيوريتانيين فى القرن السابع عشر فى انجلترا إلى إغلاق المسارح ، والمسرح كل هوى نفسه الأثير لديه تقريبا ، ومن ثم كتب إلى دالمبير « كان اليسوعيون ضروريين ، وكانوا ضربا من التسلية ، وكنا نسخر منهم ، أما الأن فسوف يسحقنا المتحذ لقون »[٦٥]. وكان على استعداد للصفح عن اليسوعيين لمجرد أنهم أحبوا الآداب القديمة والمسرحية[٦٦] .

وشاركه صديقه وعدوه فردريك الأكبز فى هذه المشاعر . وسأل الأميردى لين ١٧٦٤ : « لماذا قضوا على مستودع نفائس أثينا وروما ، معلمى الإنسانيات وربما الإنسانية الممتازين ، وهم اليسوعيون ؟ أن التعليم سيعانى من القضاء عليهم . . . . ولكن حيث أن الأخوة الملوك الأكثر كثلكة ومسيحية وإخلاصا وإيمانا ورسولية قد طردوهم ، فانى وأنا الأكثر هرطقة سأجمع أكبر عدد منهم وأحافظ عليهم »[٦٧] .

وعندما أنذر دالمبير بأنه سوف يأسف لهذا الود واللطف وذكره بأن اليسوعيين كانوا يعارضون غزوه لسيليزيا أنب الملك الفيلسوف بقوله :

« لا تنزغج من أجل سلامتى . أنى ليس لدى ما أخشاه من اليسوعيين ، إنهم يستطيعون تعليم شباب البلاد وهم أقدر على ذلك من غيرهم — حقا إنهم كانوا يعارضوننى أثناء الحرب ، ولكنك بصفتك فيلسوفا يجدر بك إلا تلوم أحدا لكونه عطوفا رحيما مشربا بالروح الإنسانية تجاه أى فرد من الجنس البشرى مهما كان من أمر دينه أو الجماعة التى ينتمى إليها . حاول أن تكون فيلسوفا أكثر منك ميتافيزيقيا »[٦٨] .

وعندما حل البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها ١٧٧٣ أبى فردريك السماح بنشر المرسوم البابوى فى مملكته . وظل اليسوعيون يحتفظون بممتلكاتهم وأعمالهم فى بروسيا وسيلزيا .

ولم تعكر كاترين الثانية صفو اليسوعيين الذين وجدتهم فى الجزء الذى استولت عليه من بولندة ١٧٧٢ ، وبسطت حمايتها على اليسوعيين الذين دخلو إلى روسيا فيما بعد . وثابروا وصبروا فى جهد متواصل حتى عودتهم (١٨١٤) .

٤ — التعليم والتقدم

ولكن من ذا الذى يتولى الآن تعليم شباب فرنسا بعد أن ذهب اليسوعيون ؟ هنا حدثت فوضى ، ولكن حدثت كذلك ثورة وإنقلاب فى عالم التربية والتعليم .

إن شالوتيه وهو بعد متحمس لأتهامه لليسوعيين ، إنتهز الفرصة وقدم لفرنسا رسالة عن التعليم القومى « (١٧٦٣) هالل لها الفلاسفة مرحبين بها . والآن كانت دعواه تقوم على أساس أنه لا يجدر بالمدارس الفرنسية أن تنتقل من أخوة دينية (طائفة) إلى أخرى — على سبيل المثال من طائفة « الأخوة المسيحيين » إلى « طائفة الأوراتوريين » . أنه لم يكن ملحدا ، إنه على الأقل رحب بتدعيم الدين للفضيلة والاخلاق القويمة ، إنه يود تلقينها واحلالها المحل اللائق بها ، ولكنه لا يرضى بسيطرة رجال الدين على التعليم . وسلم بأن كثيرين منهم كانوا معلمين ممتازين لا ينافسهم أحد فى صبرهم وجلدهم وأخلاصهم ، ولكنه إحتج بأن تحكمهم فى فصول الدراسة بغلق الأذهان أن عاجلا أو آجلا دون الفكر الأصيل ، يغرس فى نفوس التلاميذ الولاء لدولة أجنبية ، ويجب أن تلقن مبادى الاخلاق مستقلة عن أى مذهب دينى « يجب أن يكون لقوانين الأخلاق الأسبقية على كل القوانين سماوية كانت أو بشرية ، وينبغى أن تستمر ولو لم تعلن هذه القوانين الأخيرة مطلقا»[٦٩] . إن شالوتيه كذلك رغب فى غرس المبادىء ، ولكن كذلك أراد تلقين المثل العليا الوطنية[٧٠] « إنى أطالب للأمة بتعليم يعتمد على الدولة وحدها [٧١] . ويجب أن يكون المعلمون علمانيين ، وإذا كانوا كهنة فيجدر ألا يكونوا من المنتمين لطائفة دينية . ويجب أن يكون الغرض من التعليم هو إعداد الفرد

لا للسماء بل للحياة ، ولا للطاعة العمياء بل للخدمة الممتازة فى مجالات المهن والإدارة وفنون الصناعة . ويجب أن تكون الفرنسية لا اللاتينية لغة التعليم ، ويجب أن يخصص للغة اللاتينية وقت أقل وللانجليزية والإلمانية زمن أكبر . ويجب أن يشتمل المنهج على قدر كبير من العلوم . ومن أدنى المراحل حتى الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة يمكن استيعاب مبادىء الجغرافيا والفيزياء والتاريخ الطبيعى . كذلك التاريخ ينبغى أن يكون له مكان أكبر فى التعليم المدرسى . « ولكن الذى يعوز فى العادة من يكتبون التاريخ ومن يقرأون التاريخ على حد سواء هو الذهن الفلسفى »[٧٢]. وهنا قلد شالوتيه فولتير أكليل الغار وشهد له بالسبق فى هذا المضمار . وفى المراحل المتأخرة يجب أن يكون ثمة تعليم الفن وتربية الذوق . ويجب توفير الوسائل لتعليم الأناث ، ولكن ليس من الضرورى تعليم الفقراء ، فإن ابن الزارع لن يتعلم فى المدرسة خيرا مما قد يتعلم فى الحقل ، وإن تعليمه شيئا غير هذا سيجعله غير راض عن طبقته.

وصعق هلفشيوس وترجو وكوندورسيه لهذا الرأى الأخير ، ولكن فولتير استحسنه وكتب إلى شالوتيه « أشكرك على تحريم التعليم على العمال . وأنا الذى أزرع الأرض إحتاج إلى عمال يدويين لا إلى رجال دين حليقى الرؤوس ، أرسل إلى أخوة جهلة حقاً ليقودوا مركباتى أو يهيئوها للاستخدام »[٧٣]. وكتب إلى داميلا فيل الذى كان قد إقترح التعليم للجميع « أشك فى أن أولئك الذين يكسبون قوتهم باستخدام عضلاتهم يكون لديهم فسحة من الوقت ليتعلموا ، وسيموتون جوعا قبل أن يصبحوا فلاسفة ... وليس العامل اليدوى هو الذى يجب أن نعلمه بل البرجوازى ساكن المدينة »[٧٤]. وفى مواضع أخرى تنازل فأيد تعليم الجميع التعليم الإبتدائى ، ولكنه كان يأمل فى تقييد التعليم الثانوى إلى حد يسمح بترك فئة كبيرة من العمال اليدويين ليقوموا بالأعمال البدنية فى المجتمع[٧٥] . إن أول مهمة للتعليم فى رأى فولتير هى وضع حد للتعليم للكنسى الذى رأى أنه مسئول عن الخرافات التى أمتلأت بها عقول الجماهير وعن تعصب الناس .

وبناء على طلب كاترين الثانية ١٧٧٣ رسم ديدرو « خطة لجامعة لحكومة روسيا » . واستنكر مثــل شالوتيه المنهج التقليدى فى عبارات نسمعها نحن اليوم :

« لايزال يدرس فى كلية الآداب لغتان ميتتان لايستخدمهما إلا نفر قليل من المواطنين ، وهاتان اللغتان تدرسان لمدة ست أو سبع سنوات دون أن يحفظا . وتحت اسم البلاغة يدرس فن الكلام قبل فن التفكير ، وتحت اسم المنطق يملأ الرأس بتفاصيل دقيقة من أرسطو . . . وتحت أسم الميتافيزيقيا تبحث نقاط تافهة معقدة تضع أساس التشكك والتعصب كليهما . وهناك تحت اسم الفيزياء نزاع لا حد له حول المادة ونظام العالم دون كلمة واحدة عن التاريخ الطبيعى (الجيولوجيا والميبولوجيا) . أو عن الكيمياء وعن حركات الأجسام وجاذبيتها . وهناك تجارب قليلة جداً . ولاتزال الدراسة التشريحية قليلة وليس هناك جغرافيا[٧٦] .

ونادى ديدرو بسيطرة الدولة على التعليم وبمعلمين مدنيين ، ومزيد من العلوم . فينبغى أن يكون التعليم عمليا يخرج الزراعين والفنيين المتخصصين والأفراد العلميين والمديرين . ويجب إلا تدرس اللغة اللاتينية إلا بعد سن السابعة عشرة ، ويمكن حذفها كلية إذا لم يتطلع الطالب إلى استخدامها . ولكن لا يمكن أن يكون الإنسان أديبا دون معرفة باليونانية وللاتينيه[٧٧] . وحيث أن العبقرية قد تظهر فى أية طبقة فينبغى أن تكون المدارس مفتوحة أمام الجميع دون أجر ، ويجب أن يقدم الطعام للفقراء ويزودوا بالكتب بالمجان[٧٨] .

وإذ هوجمت الحكومة الفرنسية على هذا النحو فأنها جاهدت لتفادى توقف التعليم نتيجة طرد اليسوعيين ، وخصصت الممتلكات المصادرة من الطائفة إلى حد كبير لأعادة تنظيم المدارس الخمسمائة فى فرنسا . وجعلت هذه المدارس جزء من جامعة باريس . وحولت كلية لويس الأكبر إلى مدرسة للمعلمين لتدريب المدرسين ، وحددت الرواتب على أساس بدا معقولا .

وأعفى المدرسون من الضرائب البلدية ووعدوهم بمعاش تقاعد عند إنتهاء الخدمة . وقبل البندكتيون والأوراتوريون والأخوة المسيحيون الانخراط فى سلك المعلمين ، ولكن الفلاسفة شنوا حملة ضدهم احدثت أثرا يذكر . وظل المذهب الكاثوليكى جزءا هاماً فى المنهج ولكن العلوم والفلسفة الحديثة بدأت تحتل مكان أرسطو والاسكولاسيين (الفلاسفة المسيحيين فى العصور الوسطى)، وحاول بعض المدرسين المدنيين أن ينقلوا أفكار الفلاسفة(٧٩) . وأنشئت المعامل فى الكليات مع أساتذة للفيزياء التجريبية ، وفتحت المدارس الفنية والحربية فى باريس والأقاليم . وكانت ثمة تحذيرات كثيرة بأن خطة الدراسة الجديدة ستعمل على تحسين العقول لا الأخلاق . وقد تضعف الفضيلة والانضباط وتؤدى إلى الثورة(٨٠) .

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة بنوا آمالهم للمستقبل على اصلاح التعليم. إنهم بصفة عامة إعتقدوا بأن الإنسان خير طيب بالطبيعة ، وأن بعض انحرافات زائفة أو شريرة كهنوتية أو سياسية هى التى أفسدته ، وكل ما ينبغى عليه أن يفعله هو أن يطهر نفسه من الخداع والبدع ويعود إلى « الطبيعة » التى لم يحددها أحد بعد تحديدا مرضيا . وهذا كما سنرى كان لب الموضوع عند روسو . وقد لحظنا إيمان هلفشيوس « بأن التعليم يمكن أن يغير كل شىء »(٨١) . وحتى فولتير المتشكك نفسه ذهب فى بعض الحالات إلى أننا جنس من القردة يمكن أن يتعلم أن يتصرف تصرفا عقلانيا أو غير عقلانى(٨٢). وأصبح الإيمان بامكانات التقدم التى لا حدود لها عن طريق تحسين التعليم والتوسع فيه أحد التعاليم الهامة فى الديانة الجديدة . إن السماء واليوتوبيا هما الدلوان المتنافسان اللذان يحومان حول بئر المصير والقدر فإذا هبط أحدهما صعد الآخر ، والأمل يرفع الواحد منهما أو الآخر إلى أعلى كل بدوره . وربما إذا صعد كلا الدلوين خاليا وهنت المدنية وبدأت تفنى .

وفى ١١ ديسمبر ١٧٥٠ صاغ ترجو العقيدة الجديدة فى محاضرة فى السوربون بعنوان « الخطوات المتعاقبة إلى الأمام فى الذهن البشرى » :

« إن الجنس البشرى إذا تأملناه من القدم يبدو لعين الفيلسوف كلا مترامى الأطراف ، له مثل الكائن الفرد مرحلة طفولته وتقدمه . . . فتصبح آداب السلوك أكثر رقة وتهذيبا والذهن أكثر تنورا ، وتتقارب بعضها من بعض الأمم التى كانت آنذاك منعزلة ، وتربط التجارة والعلاقات السياسية أركان الكرة الأرضية بعضها ببعض ، ويستمر الجنس البشرى بأسره فيما بين تقلبات الهدوء والعاصفة وتقلبات الأيام حلوها ومرها فى مسيرته قدما ، ولو بخطى وئيدة نحو كمال يقترب منه دوما[٨٣] . ووافق فولتير على هذا متردداً ، فهو يقول :

« قد نؤمن بأن العقل والصناعة سوف تتقدمان أكثر فأكثر ، وتتحسن الفنون الناقصة . وأنه من بين الشرور والمساوىء التى تنتاب بنى الإنسان ستختفى شيئا فشيئا الحزازات بين من يحكمون الأمم ، ولو أن تلك الحزازات ليست أقل الكوارث ، وأن الفلسفة بانتشارها على أوسع نطاق سيكون فيها عزاء لأرواح البشر عن المصائب التى يتعرضون لها فى كل العصور[٨٤] . »

ورحب الفيلسوف المحتضر بتولى ترجو زمام السلطة فى ١٧٧٤ لأنه ليس لديه ثقة بالجماهير . وتعلقت آماله باستنارة الملوك . إننا لا نستطيع تعليم الرعاع والغوغاء — كما كان يسمى عامة الناس — لأنهم منهوكون بالكد والكدح قبل أن يتعلموا التفكير . ولكن فى مقدورنا أن نعلم قلة تقترب من الذروة فيعلمون الحاكم أو الملك . أن حلم « المستبدين المستنيرين » هذا بأعتبارهم قادة مسيرة الجنس البشرى ، كان الرسالة الملكية « المحفوفة بالمخاطر التى بنى عليها معظم الفلاسفة رؤيتهم للتقدم ، وكان لديهم هواجس كثيرة تنذر بالثورة ، ولكنهم أوجسوا منها خيفة أكثر مما رغبوا فيها . ووثقوا أن العقل قد يكسب الطبقة الحاكمة إلى جانبه ، وأن الوزراء والحكام قد يستمعون إلى صوت الفلاسفة وينفذون الأصلاحات التى تحول دون الثورة ، وتسير بالجنس البشرى على طريق السعاده ومن ثم رحبوا باصلاحات فردريك الثانى ، وإغتفروا آثام كاترين الثانية . ولو أنهم عاشوا لا بتهجوا

بجوزيف الثاني فى النمسا . وما ثقتنا فى الحكومة إلا أنها ذاك الأمل يبتعث من جديد ؟

٥ — الأخلاقيات الجديدة

بقيت مشكلة معلقة مرهقة . يكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعى بالآمال والمخاوف الخارقة للطبيعة (الجنة والنار) ؟ هل يمكن الاحتفاظ بأخلاق شعبية عامة دون إيمان شعبى عام فى أصل سماوى للقانون الاخلاقى، وإيمان باله بصير بكل شىء، إله يثيب ويعاقب ؟ إن الفلاسفة (فيما خلا فولتير) زعموا أن هذه الدوافع ليست مطلوبة للأخلاق . ومع التسليم بأن هذا قد يصدق بالنسبة للقلة المثقفة ، فهل يصدق بالنسبة للباقين ؟ وهل كانت أخلاق القلة المثقفة صدى أخلاقيا للإيمان الذى فقدوه ، وللتربية الدينية التى تلقوها ؟

وقامر الفلاسفة بفعالية الأخلاق الطبيعية . وكانت الشكوك تخامر فولتير فيها ، ولكن ديدرو ود المبير وهلفشيوش ودى هولباخ ومايلى ، وترجو ، وغيرهم دافعوا عن أخلاق يمكن أن تكون مستقلة عن اللاهوت ، أخلاق قوية إلى حد الصمود أمام تقلبات العقيدة أو الإيمان . وكان بيل قد مهد الطريق بمحاولته التدليل على أن الملحدين قد يكونون على خلق مثل المؤمنين تماما ، ولكنه كان قد عرف الأخلاق بأنها عادة الإنسجام مع العقل ، وافترض أن الإنسان حيوان عقلانى ، كما أنه كان قد ترك العقل دون تعريف. وهل يكون المجتمع أو الفرد حكما على ما هو معقول ؟ وإذا إختلف المجتمع والفرد ، فماذا غير القوة يكون لها القول الفصل بينهما ؟ وهل يكون النظام الاجتماعى مجرد صراع بين تنفيذ القانون والتملص منه ؟ وهل تحصى الفضيلة أو الأخلاق القويمة فرص الكشف فحسب ؟ أن ف . ف توسان F. V. Toussin كان قد شرح الأخلاق الطبيعية فى كتابه « العادات والاعراف » (١٧٤٨) ، وكان أيضا قد عرف الفضيلة بأنها « الدقة والأمانة فى الوفاء بالالتزامات التى يفرضها العقل »[٨٥] ، ولكن كم من الناس يستطيعون التفكير ، أو كم من الناس فكر بالفعل إذا كان هذا فى مقدرته ؟ ألم يتشكل

الخلق (الذى يحدد الفعل) قبل أن ينمو العقل ؟ ألم يكن العقل مطية أقوى الرغبات ؟ تلك كانت بعض المشاكل التى واجهت الأخلاق الطبيعية .

وقبل معظم الفلاسفة شمولية حب الذات مصدرا أساسيا لكل الأفعال الإرادية أو الواعية ، ولكنهم آمنوا بأن التعليم والتشريع والعقل قد تعمل كلها على تحويل حب الذات إلى تعاون متبادل ونظام إجتماعى . إن دالمبير بنى فى ثقة الأخلاق الطبيعية على :

« حقيقة واحدة لا تقبل الجدل هى حاجة الناس بعضهم إلى بعض ، والالتزامات المتبادلة التى تفرضها تلك الحاجة وإذ نسلم بهذا إلى حد كبير ، فإن كل القوانين الأخلاقية تستتبعه فى تسلل منتظم لا مناص منه ولا يمكن تفسيره . ولكل المشاكل المتعلقة بالأخلاق حل فورى فى قلب كل منا ، وهو حل قد تروغ منه أو تتحايل عليه احيانا أهواؤناوعوا طفنا ، ولكنها لا تقضى عليه مطلقا . وحل كل مسألة بعينها يؤدى . . . . إلى الجذر الأساسى وهذا بطبيعة الحال هو مصلحتنا الذاتية وهى المبدأ الأساسى فى كل الالتزامات الأخلاقية[٨٦] .

وتبين لبعض الفلاسفة أن هذا يتطلب هيمنة العقل بصفه عامة فى الناس عموما — أى مصلحة ذاتية « مستنيرة » إلى حد كاف لترى اختيار النفس (الاختيار الذاتى) فى صورة كبيرة إلى حد يسمح بالتوفيق بين أنانية الفرد وخير الجماعة . ولم يشارك فولتير فى هذه الثقه فى ذكاء الأنانية وبدا له التعقل عملية إستثنائية ، وآثر أن يؤسس الأخلاق على وجود غيرية (حب الغير) مستقلة عن حب الذات ، واستمد هذه الغيرية من شعور بالعدالة بثه الله فى الناس . واتهمه الأخوة بأنه يسلم القضية للدين .

ومذ افترض الفلاسفة شمولية حب الذات فأنهم بصفة عامة خلصوا إلى أن السعادة هى الخير الأسمى ، وأن كل اللذات مجازة مسموح بها إذا كانت لا تؤذى الجماعة أو الفرد نفسه .

وجريا على أساليب الكنيسة دبج جريم ودى هولباخ ومابلى وسانت

لامبير كتيبات تفسر الأخلاقيات الجديدة . ووجه سانت لا مبير كتيبه « التعاليم الشاملة » إلى الأطفال فى سن الثانية عشرة أو الثالثه عشرة :

س — ما هو الإنسان ؟

ج — كائن له شعور وعقل .

س — إذا كان هذا الكائن على ما تصف ، فماذا يجب عليه أن يفعل ؟

ج — يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم .

س — أليس هذا هو حب الذات ؟

ج — أنه النتيجة اللازمة له .

س — هل يوجد حب الذات فى كل الناس بقدر سواء ؟

ج — نعم ، لأن كل الناس يهدفون إلى حفظ الذات وإلى تحقيق السعادة .

س — ماذا تفهم من السعادة ؟

ج — حالة مستمرة نجد فيها لذة أكثر مما نعانى ألما .

س — ماذا يجب علينا أن نفعل لنبلغ هذه الغاية (الحالة) ؟

ج — يجب أن نهذب عقولنا ونفعل ما يمليه علينا العقل .

س — ما هو العقل ؟

ح — معرفة الحقائق التى تفضى إلى سعادتنا ورفاهيتنا .

س — إلا يقودنا حب الذات دائما إلى كشف تلك الحقائق والعمل بمقتضاها؟

ج — كلا ، فليس كل الناس يعرفون كيف يمارسون حب الذات .

س — ماذا تعنى بهذا ؟

ج — أعنى أن بعض الناس يمارسونه ممارسة حقة وبعضهم يمارسونه ممارسة خاطئه .

س — من هم هؤلاء الذين يمارسون حب الذات ممارسة صائبة ؟

ج — هم الذين يحاولون أن يعرف بعضهم بعضا ولايفصلون سعادتهم عن سعادة الأخرين(٨٧) .

وركز الفلاسفة فى أخلاقهم العملية على ذكرياتهم عن الأخلاقيات المسيحية . فاحلوا محـل عبادة الله ومريم والقديسين — وهى العبادة التى عاونت بطريق غير مباشر على الفضيلة — إخلاصا مباشراً للجنس البشرى : أن الراهب سان بيير اقترح لفظة جديدة لفضيلة قديمة — البر و الاحسان التى نترجمها ترجمة ضعيفة — وقصد بها العون الجاد المتبادل والتعاون مـع الآخرين فى أعمال الخير والبر المشتركة . ومع هذه أكد الفلاسفة كذلك على الإنسانية ، أى التحلى بالروح الإنسانية وحب الخير العام ، ولهذه جذورها وأصولها فى ثانية الوصايا التى أعلنها السيد المسيح . ولابد أن رينال حين دمغ قسوة الأوربين مع السود والهنود (فى الشرق والغرب) بأنها عمل غير إنسانى ، عرف أن أسقفا أسبانياً هو لاس كاساس قد سبقه إلى هذا الأتهام فى عام ١٥٣٩ . ولكن التحمس الجديد لمساعدة الفقراء والمساكين والمرضى والمظلومين كان يرجع أساسا إلى الفلاسفة . وفوق كل شىء إلى فولتير . أن اصلاح القانون فى فرنسا يرجع إلى حملاته المتواصلة . وأشتهر رجال الدين الفرنسيون بالصدقات ولكنهم آنذاك مارسوا رؤية الأخلاق العملية فى المسيحية يبشر بها الفلاسفة ويدعون إليها بنجاح يذكر . ونمت الأخلاقيات أكثر استقلالا وإنفصالا عن الدين ، وفى مجالات الروح الإنسانية والعطف والتسامح وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية والسلام انتقل الأمر من أساس لا هوتى إلى أساس علمانى أو دنيوى ، وأثرت على المجتمع بشكل لم يعهد له مثيل من قبل .

وحين واجه الفلاسفة المشكلات الأخلاقية التى ولدتها الحرب ، تحاشوا التهدئة على حين كانوا ينصحون بالسلام ، وأقر فولتير الحروب الدفاعية ولكنه دلل على أن الحروب عملية سلب ونهب ، وأنها تؤدى إلى ضعف وفقر المنتصر والمنهزم على حد سواء ، وأنها تجلب الغنى والثراء إلى نفر قليل

من الأمراء ومقاولي الحرب والعشيقات الملكات ، واحتج على غزو فردريك لسيليزيا ، وربما كان يعيه في ذاكرته حين شرح في مقال غاضب عن « الحرب » في القاموس الفلسفي كيف يرتضي الضمير الملكي العدوان : « إن أحد علماء الأنساب يثبت لأحد الأمراء أنه ينحدر مباشرة من سلالة كونت عقد أبواه ميثاقا عائليا منذ ثلاثة أو أربعة قرون مع بيت لم تبق منه حتى الذكرى ، وكان لهذا البيت بعض الحقوق المزعومة في الأقليم . . . إن الأمير ومجلسه يلمسون حقه على الفور . وهذا الأقليم الذي يبعد عنه بعدة مئات من الفراسخ ، يحتج عبثا بأنه لا يعرفه (أي الأمير) وأنه لا يرغب في أن يكون تحت حكمه وأنه لكي يسن القوانين لشعب هذا الأقليم يجب على الأقل الحصول على موافقتهم ورضاهم . إن الأمير يحشد على الفور عددا كبيراً من الرجال الذين لن يخسروا شيئا ، ويزودهم بالملابس الزرقاء الخشنة . . . ويأمرهم بالألتفاف يمنة ويسرة ويتقدم إلى ساحة المجد » .

وعلى الرغم من ذلك نصح فولتير كاترين الثانية بامتشاق الحسام لطرد الأتراك من أوربا ، وكتب مرثية وطنية للضباط الذين ماتوا من أجل فرنسا في ١٧٤١ ، وبارك إنتصار الجيش الفرنسي في فونتنوى .

ونبذ الفلاسفة القومية والوطنية على أساس أن هذه الأحاسيس والعواطف تعمل على تضييق مفهوم الإنسانية والالتزامات الخلقية ، وأنها جعلت من السهل على الملوك أن يقودوا شعوبهم إلى الحرب . وشجبت مقالة « الوطنية » في القاموس الفلسفي « الوطنية » باعتبارها أنانية ضيقة الأفق . إن فولتير توسل إلى الفرنسيين إن يخففوا من تفاخرهم بسمو اللغة والأدب والفن والحرب ، وذكرهم بأخطائهم وجرائمهم ونقائصهم[٨٨] . وكان مونتسكيو وفولتير وديدرو ودالمبير في فرنسا كما كان لسنج وكانت وهردر وجيته وشيلر في ألمانيا ، أوربيين طيبين ثم بعد ذلك فرنسيين أو ألمان . وكما أن ديانة واحدة ولغة واحدة كانتا قد أنشأتا « العالمية » في غرب أوربا في العصور الوسطى ، فكذلك نمت العالمية في القارة نتيجة لإنتشار اللغه والثقافة الفرنسيتين.

وتحدث روسو فى ١٧٥٥ عن تلك « الأذهان العالمية التى تهمل الحواجز التى أقيمت لتفصل بين الأمم بعضها عن بعض ، والذين مثل الذات العلية التى خلقتهم يحتضنون الجنس البشرى بأسره فى نطاق النزعة إلى عمل البر والخير (٨٩). وفى مكان آخر كتب فى مبالغه ملحوظة « لم يعد هناك فرنسى ولا ألمانى . . . هناك فقط أوربيون »(٩٠) ولم يصدق هذا إلا على النبلاء ورجال الفكر ، ولكن فى هذه الطبقات إمتدت الروح العالمية من باريس إلى نابلى وبطرسبرج. وحتى فى زمن الحرب اختلط رجال الأدب بأضرابهم ممن هم فى طبقتهم عبر الحدود ، فقد رحب المجتمع الباريسى بهيوم وهرراس وولبول وجيبون وآدم سميث ، بينما كانت فرنسا مشتبكة فى حرب مع إنجلترا . وأحس الأمير دى لين أنه فى وطنه بين أهله وعشيرته فى كل عاصمة أوربية تقريبا . والجنود أنفسهم كان لديهم شىء من هذه النزعة العالمية . قال فرديناند دوق بنزويك « أنه لمما يشرف كى ضابط ألمانى أن يخدم تحت لواء فرنسا »(٩١) وكانت فى الجيش الفرنسى كتيبة بأكملها « الكتيبة الملكية الإلمانية » مكونة من الألمان. ووضعت الثورة الفرنسية حداً لهذه النزعة العالمية فى التوافق الشديد فى العادات والعقول ، وتضاءلت هيمنة فرنسا ، وإزدادت الروح القومية .

وهكذا نجد الثورة الفكرية التى كانت إلى حد ما نتيجة رد فعل أخلاقى ضد قساوات الألهة والكهنة قد انتقلت من نبذ اللاهوت القديم إلى أخلاق قائمة على أخوة عالمية اشتقت من أجمل جوانب العقيدة التى طرحت جانبا . ولكن المشكلة هى هل يمكن لقانون أخلاقى لايسانده ويدعمه الدين أن يحتفظ بنظام اجتماعى ؟ وهى مشكلة باقية دون حل ، وهى لاتزال تواجهنا . أننا نعيش هذه التجربة الحرجة الدقيقة . -

٦ — تراجع الديانة

وفى الوقت نفسه ، حتى الآن ، بدا الفلاسفة وكأنهم كسبوا المعركة ضد المسيحية . أن المؤرخ النزيه إلى حد الأعجاب هنرى مارتن وصف شعب فرنسا فى ١٧٦٢ بأنه جيل ليس لدية أى إيمان بالمسيحية»(٩٢) . وفى ١٧٧٠ قال المحامى العام سيجويه Siguier فى تقرير له :

« سعى الفلاسفة بأحدى اليدين أن يشلوا العرش ، وباليد الأخرى أن يقلبوا المذابح (أن يهدموا الكنائس) . وكان غرضهم أن يثيروا الرأى العام ضد النظم المدنية والدينية . وهذا الأنقلاب على حد قولهم قد بدأ بالفعل . فإن التاريخ والشعر والقصص بل حتى القواميس قد تسربت إليها عدوى التسمم بالتشكك وعدم التصديق . ولاتكاد كتاباتهم تنشر قبل أن تطغى على الإقاليم مثل السيل الجارف ، وإمتدت العدوى إلى المصانع والأكواخ »[٩٣] .

وكأنما كان أيضاحاً لهـذا التقرير أن يجمع سيلفان ماريشال فى ١٧٧١ « قاموس الملحدين » الذى توسع فيه بتضمينه ابيلار وبوكاشيو والأسقف بيركلى[٩٤] . وفى ١٧٧٥ أعلن رئيس أساقفة تولوز أن « الإلحاد الرهيب البشع أصبح الرأى السائد »[٩٥] . وذهبت مدام دى ديفان إلى أن الإيمان بالمعجزات المسيحية أصبح خامدا مثله فى ذلك مثل التصديق بالأساطير اليونانية[٩٦] ، وبقى الشيطان ضربا من لغو الكلام ، والجحيم أضحوكه[٩٧] . وأزعج علم الفلك الجديد رب اللاهوت فى الفضاء وكأنما يتراجع عن الفضاء مع ارتياد الكواكب فى زماننا هذا . وفى ١٨٥٦ تحدث توكفيل عن ضعف الثقة فى الإيمان الدينى الذى أنتاب الناس فى أو آخر القرن الثامن عشر[٩٨] .

لقد بولغ فى كل هذه التصريحات والبيانات ، وربما قيلت وباريس والطبقات العليا والمثقفة ماثلة فى أذهان ناشريها . إن حكم لكى Leeky أكثر تميزاً وتحديداً حيث يقول : إن الكتب والنشرات المعادية للمسيحية عبرت عن الآراء وأثبتت المطالب عند جمهور الطبقات المتعلمة . وتغاضى كل موظفى الإدارة فى مصالح الحكومة جميعها عن انتشارها وتداولها ، أو قل أنهم رحبوا بهذا وذاك[٩٩] . وظل عامة الفرنسيين متعلقين بعقيدة العصور الوسطى سلوى وعزاء لحياتهم الكادحة المرهقة ، فلم يقبلوا المعجزات القديمة فحسب بل الجديدة كذلك ووجد الباعة المتجولون سوقاً رائجة للتماثيل الصغيرة التى تمثل معجزات العذراء[١٠٠] . وكانت التماثيل والمخلفات تحمل فى المواكب بغية تفادى الكوارث العامة أو وضع حد لها وزوالها . واذدحمت الكنائس حتى

فى باريس بالناس أيام الأعياد الكبرى فى السنة الدينية ، ودوت أجراس الكنائس بالترانيم فى المدينة تدعو النا س إليها . وكانت « الأخوات » الدينية تضم أعضاء كثيرين وبخاصة فى مدن الأقاليم على الأقل. وأكد سيرفان لدى لمبير حين كتب إليه من جرينوبل (١٧٦٧) : « قد تدهش أيها الأخ لتقدم الفلسفة فى هذه المناطق الهمجية غير المتمدينة » . وفى ديجون كان هناك ستون مجموعة من الموسوعة ، ولكن تلك كانت حالات استثنائية ، وبقيت البرجوازية الإقليمية فى جملتها مخلصة للكنيسة .

وفى باريس وصلت الحركة الجديدة إلى كل طبقة . وكان العمال يزداد عداؤهم للكنيسة ، وكانت المقاهى قد طردت الرب منذ زمن بعيد .

وروى أحد النبلاء كيف أن حلاقه قال له وهو يصفف شعره « أنت ترى يا سيدى أننى شخص مسكين تافه ، ولكنى مع ذلك لم يعد لى دين مثل أى إنسان آخر»[١٠١]. وواصل نساء الطبقة الكادحة عبادتهن القديمة واستخدمن مسابحهن فى شغف زائد . أما السيدات العصريات الأنيقات فقد اتبعن أسلوب الفلاسفة على أية حال ، واستغنين عن الدين إلى حد كبير ، وأرسلت كل منهن تقريباً فى طلب القسيس حين تأكدن من دنو الأجل . وكانت معظم الصالونات الكبرى تتبع الفلاسفة . واحتقرت مدام دى ديفان هولاء الرجال ، ولكن مدام جيوفرين رحبت بهم فى أمسياتها ، حتى أكتظت بهم مائدتها . وتكاثروا حول الآنسة لسبيناس وتصدر جريم صالون مدام ابيناى ، ووصف هوراس وولبول الجو الفكرى للصالونات فى ١٧٦٥ فقال :

« هناك إله وهناك ملك يجب القضاء عليهما . والرجال والنساء جادون فى تدميرهما . أنهم يظنوننى دنسا لأن لدى بقية من إيمان[١٠٢] . . . والفلاسفة لايطاقون ، وهم سطحيون متغطرسون متعصبون ، إنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة ، وهم يجهرون بالألحاد ، وقد لاتصدق مبلغ صراحتهم ، فلا تعجب إذن إذا عدت أنا يسوعيا[١٠٣] .

وعلى الرغم من ذلك اختارت الأكاديمية لعضويتها تسعة من الفلاسفة فى الإنتخابات الأربعة عشر التى جرت فيما بين عامى ١٧٦٠ و فى ١٧٧٢ ، وجعلت دالمبير سكرتيرها الدائم .

وإلتهم النبلاء فى إبتهاج مشوب بالعداء للدين كل ما قدمته لهم العقول القوية . وقال لاموث لا نجون «كان الالحاد سائدا إلى حد بالغ فى المجتمع الراقى ، وكان الإيمان بالله دعوة إلى الحماقة والسخف وإنتشر الكفر والبعد عن الدين بين الأستقراطية بعد ١٧٧١[١٠٥] . وكانت دوقة دانفيل ودوقات دى شوازيل وجرامونت ومونتسون وتسى ربوبيات . وارتبط رجال من ذوى المناصب الرفيعة فى الحكومة — مثل شوازيل وروهان وموريباس وبوفو وشوفيلين بأواصر الود والصداقة مع دالمبير وترجو وكوندورسيه . وفى الوقت نفسه أوضح الفلاسفة لفرنسا أن النظام الإقطاعى جاوز عمر الفائدة المرجوة منه ، وأن الأمتيازات الوراثية جور متحجر طال عليه الزمن ، وأن صانع الأحذية الطيب خير من لورد مبذر لا يصلح لأى عمل ، وأن كل السلطة مستمدة من الشعب .

وسرت العدوى حتى إلى رجال الدين . وفى ١٧٦٩ قاس تشامفورت درجة تزعزع الإيمان لدى رجال الدين تبعا لتسلسل مراتبهم الكنيسة : « يجب أن يؤمن القسيس قليلا ، أما وكيل الكنيسة فيبتسم لأية قضية تثار ضد الدين ، ويسخر الأسقف دون تحفظ ، ويضيف الكاردينال ملاحظه بارعة أو نكتة ساخرة من عنده[١٠٦] . وعدد ديدرو ودى هولباخ مجموعة كهنة متشككين من بين أصدقائهم . وكان القساوسة تورنى وفوشية ، ومورى ، ودى بولونى « من بين أكثر من يرددون آراء الفلاسفة»[١٠٧] . وأنا لنسمع عن « جماعة القساوسة ذوى العقول الناضجة » وبعض هؤلاء الكهنة الأذكياء كانوا ربوبيين ، كما كان بعضهم ملحدين — وعاد مسليبه إلى الحياة . إن المركيز دى شاستللولكس أبلغ بريستلى حين كان يتناول العشاء مع ترجو ١٧٧٤ « إن السيدين الجالسين أمامه هما أسقف أكس ورئيس أساقفة

تولوز ، ولكنهما ليسا أكثر إيماناً منك أو منى ، وأكدت له أنى مؤمن . وأبلغنى مسيولى روى الفيلسوف أنى أنا الوحيد المدرك الواعى الذى عرف أنه مسيحى » (١٠٨)

وكان للإلحاد بعض الأصدقاء حتى فى الأديار. وتجنباً للفضيحة والعامة كان دوم كولينيون يسمح لعشيقتيه بأن تكونا معه على المائدة حين يكون الضيوف الآخرون من الأصدقاء الموثوق بهم . ولم يكن يسمح لطائفة الرسوليين أن تتدخل فى ملذاته ، ولكنه أعتبر الديانة نظاماً جديراً بالإعجاب للحفاظ على الأخلاق عند العامة (١١٠) . وتحدث ديدرو (١٧٦٩) عن يوم قضاه مع راهبين : « قرأ أحدهما المسودة الأولى لرسالة حديثة قريبة جداً عن الإلحاد ، زاخرة بالأفكار الجديدة الجريئة . وعلمت فى شىء من الدهشة أن هذه هى النظرية السائدة فى أديارهم . وبالنسبة للبقية كان هذان الراهبان نموذجا فذاً الأديار . وكانا يتحليان بالتفكير والمرح والانبهاج وحسن النية والمعرفة (١١٠) .

ويروى لنا مؤرخ كاثوليكى غيور أنه فى أواخر القرن الثامن عشر كان قد حل شعور بالاحتقار ، مبالغ فيه ، ولكنه عام شامل ، فى كل مكان ، محل التبجيل الذى كانت الأديار الكبرى قد بثته فى العالم الكاثوليكى (١١١).

إن ازدياد التسامح نتج أساساً من تدهور الإيمان الدينى . فمن السهل أن نكون متسامحين إذا كنا غير مكترثين . إن نجاح فولتير فى قضيتى كالاس وسيرفنس حرك عدداً من حكام الأقاليم إلى مطالبة الحكومة المركزية بتخفيف القوانين ضد البروتستانت ، وتم هذا بالفعل ولم تلغ قوانين الهرطقة ولكنها كانت تطبق بشىء من الاعتدال . وترك الهيجونوت فى سلام كما كان فولتير قد اقترح ، وأبدى برلمان تولوز ندمه ، بتطبيق مبدأ التسامح إلى حد أزعج الملك (١١٢) . وأصدر بعض الأساقفة — مثل فيتز جيمس أسقف سواسون ١٧٥٧ — رسالة كهنوتية يدعو فيها كل المسيحيين إلى اعتبار الناس أخوة . (١١٣) .

وأضفى فولتير على الفلاسفة شرف هذا الانتصار ، فكتب إلى دالمبير ١٧٦٤ « أن الفلاسفة وحدهم هم الذين إلى حد ما هذبوا سلوك الناس ، وإنه لولاهم لشهدنا مذبحتين أو ثلاثا من مثل مذبحة سانت برثلميو فى كل قرن(١١٤). وينبغى أن نلاحظ مرة أخرى أن الفلاسفة أنفسهم كانوا أحياناً متعصبين ، أن دالمبير ومارمونتيل حرضا مالشرب على كبح جماح فريرون (١٧٥٧)(١١٥) ، وطلب إليه دالمبير أن يقيم الدعوى القضائية على بعض نقاد الموسوعة (١٧٥٧) ، وحثته مدام هلفشيوس على إسكات صحيفة كانت قد عرضت بكتاب زوجها « الذكاء » ١٧٦٨ . وفى بعض المناسبات توسل فولتير إلى السلطات لإيقاف حملات التشهير بجماعة الفلاسفة والطعن فيهم والسخرية منهم (١١٦). وبقدر ما كان هذا التشهير حقيقيا — أى افتراءمؤذيا — فقد كان لتوسلاته ما يبررها .

وكان ثمة عوامل أخرى غير الفلسفة لنشر التسامح ، فإن الإصلاح الدينى على الرغم من أنه أفر العصب ، خلق فرقاً وشيعا كثيرة » . كان بعضها قويا إلى حد الدفاع عن نفسه ، إلى درجة أن التعصب نادراً ما تجاوز حد الكلام . وكان على هذه الشيع والفرق أن تتجادل وتقرع الحجة بالحجة ، وقبلت اختبار العقل كارهة ، ورفعت من شأنه . إن ذكرى الحروب « الدينية » فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وما نتج عنها من خسائر إقتصادية ، حولت كثيراً من الزعماء الاقتصاديين والقادة السياسيين إلى التسامح . ووجدت بعض مراكز التجارة مثل همبرج وأمستردام ولندن ، أنه من الضرورى أن تصبر على مختلف المذاهب والعقائد التى يعتنقها زبائنهم الذين يتعاملون معهم . إن ازدياد قوة الدولة القومية جعلها أكثر إستقلالا عن الوحدة الدينية باعتبارها وسيلة للاحتفاظ بالنظام الاجتماعى ، وانتشار التعرف على مختلف المدنيات والثقافات أضعف ثقة كل عقيدة فى احتكارها للإله ، وفوق كل ذلك جعل تقدم العلوم من العسير على العقيدة الدينية أن تصل إلى القساوة والهمجية مثل محاكمات محكمة التفتيش أو إعدم

السحرة . وتقبل الفلاسفة بسرور معظم هذه التأثيرات فى دعايتهم من أجل التسامح واستدعوا بحق أن يدعوا بعض الفضل فى الانتصار ، وكان مقياس نجاحهم أنه بينما فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان دعاة الهيجونوت لا يزالون يعلقون على أعواد المشانق فى فرنسا ، حدث فى ١٧٧٦ أو ١٧٧٨ أن دعا ملك كاثوليكى سويسريا بروتستانتيا لأنقاذ الدولة .

٧ — الخلاصة

وهكذا ننتهى كما بدأنا ، إذ نرى أن الفلاسفة واللاهوتيين — لا المحاربين والدبلوماسيين — هم الذين كانوا يحاربون معركة القرن الثامن عشر الحاسمة . وأننا كنا على حق فى تسمية هذه الحقبة « عصر فولتير » . قال كوندورسيه « إن الفلاسفة من مختلف الأمم ، إذ اعتنقوا فى تأملاتهم المصلحة العامة لبنى البشر كونوا كتيبه قوية متحدة ضد أى وصف للخطأ أو أى لون من الظلم والطغيان [١١٧] » ، وكانت على أية حال كتيبة متحدة . وسنرى روسو يتخلى عن الحياه والسلطان ، وكان يحاول التوفيق بين الفلسفه والدين . ولكنه كان حقا صراعا من أجل النفس الإنسانية . ونتائجه بارزة بيننا اليوم .

وفى هذا الوقت ترك فولتير فرنى لانتصاره فى باريس (١٧٧٨) . إن الحركه التى كان قد قادها أصبح لها الغلبة فى السيطرة فى مجال الفكر فى أوربا ووصفها فريرون عدوها اللدود بأنها « مرض العصر وحماقته [١١٨] » . وهرب اليسوعيون وولى الجانسينيون الأدبار ، وتغيرت كل نغمة المجتمع الفرنسى . ونهج كل كاتب فى فرنسا تقريبا نهج الفلاسفة ، وسعى إلى كسب رضاهم . وباتت الفلسفة تحت مئات العنوانات وآلاف الشفاه ، « إن عبارة مديح من فولتير أو ديدرو أو دالمبير كانت أثمن وأعظم قيمة من نيل الحظوة عند أى أمير ومن عطفه [١١٩] . ووقعت الصالونات والأكاديمية الفرنسية ، بل حتى وزراء الملك نفسه ، أحيانا ، تحت تأثير الفلاسفة .

واحتال الزوار الأجانب على الدخول إلى الصالونات طمعا فى لقاء مشاهير الفلاسفة والاستماع إلى حديثهم ، حتى إذا عادوا إلى بلادهم نشروا الأفكار الجديدة . وها هو ذا هيوم . على الرغم من أنه استبق فولتير فى كثير من

آرائه ، نراه ينظر إليه على أنه استاذ معلم . وبعث روبرتسون إلى فرنى بكتابه القيم « شارل الخامس » وكان تشسترفيلد وهوراس وولبول وجاريك من بين المراسلين الكثيرين لفولتير فى إنجلترا . وأسهم سمولت وفرانكلين وغيرهما فى إعداد ترجمة إنجليزية لمؤلفات فولتير فى سبعة وثلاثين مجلدا لنشرها فى إنجلترا (١٧٦٢) . وفى أمريكا تأثر مؤسسو الجمهورية الجديدة تأثرا عميقا بكتابات الفلاسفة . أما فى ألمانيا فيمكنك أن تستمع إلى ملاحظات جوته إلى اكرمان فى ١٨٢٠ و ١٨٣١ :

« ليس لديك فكرة عن مبلغ تأثير فولتير ومعاصريه العظام على فى شبابى ، وكيف تسلطوا على ذهن العالم المتحضر بأسره ... إنه يبدو لى أنه شىء رائع عجيب حقا أن ترى أى رجال هؤلاء الذين ظهروا فى ميدان الأدب فى فرنسا فى القرن الأخير . وكم تتولانى الدهشة لمجرد النظر فى هذا . إنها حركة التحول فى أدب عمره قرن من الزمان ، والذى كان آخذا فى النمو منذ عهد لويس الرابع عشر حتى أينع الآن وأثمر وآتى أكله .»[١٢٠]

وشارك الملوك والملكات فى التهليل والتصفيق لفولتير ، وتاهوا عجبا بأنهم فى عداد أتباعه . وكان فردريك الأكبر من أوائل من أدركوا أهميته . والآن فى عام ١٧٦٧ بعد ثلاثين عاما من التعرف عليه فى كل معايب شخصية وكل توقد ذهنه ، هلل فردريك للانتصار فى الحملة ضد الرجس والعار . وقوضت أركان صرح الخرافة من أساسها » . « وستدون كل الأمم فى حولياتها أن فولتير كان هو الذى أحدث هذا الانقلاب الجارى الآن فى الروح الإنسانية فى القرن الثامن عشر) .[١٢١] وشاركت كاترين الثانية قيصرة روسيا وجوستاف الثالث ملك السويد فى هذا التملق . ومما لا نزاع فيه أن الامبراطور جوزيف الثانى كان مدينا بفضل روح اصلاحاته للفلاسفة ، ولو أنه لم يعلن عن نفسه بمثل هذه الصراحة . وتسلم المعجبون مقاليد السلطة فى ميلان وبارما ونابلى ومدريد ، وكلها بلدان كاثوليكية . وفى ١٧٦٧ لخص جريم الموقف بقوله : (إنى ليسرنى أن أشهد جمهورية مترامية الأطراف

من ذوى العقول المثقفة تتكون فى أوربا . إن الاستنارة تنتشر فى كل مكان)[١٢٢].

إن فولتير نفسه وقد قهر فى نفسه التشاؤم الذى يصاحب كبر السن ، نراة يردد نغمة الانتصار : (إن العقول الراجحة المشكاة تشكيلا حسنا كثيره الآن ، وهى تتصدر الأمم وتؤثر فى سلوك الجماهير . وان التعصب الذى طغى فى الأرض لينحسر سنة بعد سنة جوره الكريه . وإذا لم تعد الديانة الآن تثير الحروب الأهلية فأننا مدينون بهذا للفلسفة وحدها . وبدأ الناس ينظرون إلى الصراعات الدينية وكأنها عرض فى مسرح العرائس فى السوق . إن العقل الذى يبسط سلطانه وحكمه ، ينسف فى كل لحظة أى جور بعيض مؤذ قائم على الخداع والاحتيال من جهة ، وعلى الغباء من جهة أخرى [١٢٣] .

ولنوف الرجل حقه . اننا قد نسلم بعد معرفتنا بتطرفات الثورةواسرافها وبرد الفعل الذى تلاها ، بأن الفلاسفة (باستثناء فولتير) كانت لديهم ثقة متفائلة فى الطبيعة البشرية ، وأنهم انتقصوا الان من قوة الغرائز التى تولدت فى آلاف السنين من عدم الشعور بالأمن ومن الوحشية والهمجية ، وأنهم بالغوا فى قوة التعليم لتنمية العقل ضابطا متحكما إلى حد كاف فى هذا الغرائز ، وأنهم عموا عن مطالب الخيال والعاطفة ، وصمت آذانهم عن صيحات المقهورين التماسا لعزاء الإيمان ، ولم يقيموا كبير وزن للتقاليد والنظم التى انتجتها قرون من التجربة والخطأ ، وأقاموا وزنا كبيرا للعقل الفردى الذى هو فى أحسن الظروف نتاج لحياة قصيرة ضيقة محدودة . وإذا كانت هذه تقديرات خاطئة خطيرة فانها لم تتأصل فى مجرد زهو أو غرور فكرى ، ولكن تأصلت كذلك فى طموح واسع الآفاق فى إصلاح البشر وتحسن أحوالهم . إننا مدينون لفلاسفة القرن الثامن عشر — وربما للفلاسفة الأكثر عمقا فى القرن السابع عشر — بالحرية النسبية التى ننعم بها فى الفكر والكلام والعقائد ، كما أننا مدينون لهم بالفضل فى تضاعف عدد المدارس والمكتبات

والجامعات ، وفى مئات من الاصلاحات الإنسانية فى القانون والحكومة ، وفى معالجة الجريمة والعلل والأدواء والأمراض العقلية . ونحن مدينون لهم ولأتباع روسو بفضل الاستثارة العظيمة للذهن التى انتجت أدب القرن التاسع عشر وعلومه وفلسفته ، وفن الحكم وإدارة شئون الدولة فيه . وبسببهم استطاعت دياناتنا أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكئيبة واللاهوت الذى يبتهج بالتعذيب ، كما يمكنها أن تولى ظهورها لمعوقات التقدم وللاضطهاد، وتتبين الحاجة إلى عطف متبادل من مختلف نواحى جهلنا وآمالنا . وبسبب هؤلاء فإننا هنا الآن نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل ، ولو مع شىء من اللوم . إننا إذا توقفنا عن تمجيد فولتير وتكريمه سنكون غير جديرين بالحرية .

خاتمة فى الفردوس

(شخصا الحوار البابا بندكت الرابع عشر وفولتير)
(المشهد : مكان فى ذاكرة البشر الشاكرة)

بندكت : إنى سعيد برؤيتك هنا ياسيدى ، فعلى الرغم من أنك آذيت كثيراً الكنيسة التى قدر لى أن أكون على رأسها طيلة ثمانية عشر عاما ، فقد أحسنت صنعا بشن الحملة على آثام الكنيسة وأخطائها والمظالم التى أخزتنا جميعا فى عصرك .

فولتير : أنت الآن كما كنت فى حياتك أرق البابوات حاشية وأكثرهم صفحا . وإذا كان كل خادم من خدم الله مثلك لتحققت من أن آثام الكنيسة هى خاصية طبيعية فى الإنسان ، ولبقيت أجل وأحترم هذا النظام العظيم . وإنك لتذكر أننى لمدة خمسين عاما إحترمت اليسوعيين ؟

بندكت : أذكر ذلك ، ولكنك اشتركت فى الهجوم عليهم فى نفس الوقت الذى كانوا قد خفضوا فيه من دسائسهم السياسية ، وكانوا يقفون فيه بشجاعة ضد فسق الملك ومجونه واباحيته .

فولتير : كان جديرا بى أن أعرف أكثر من أن أقف إلى جانب الجانسنيين فى تلك القضية .

بندكت : حسناء أنت ترى الآن أنك أيضا قد تخطىء مثل البابا . والآن وقد وجدتك معتدل المزاج ، دعنى أحدثك لماذا بقيت أنا مخلصا للكنيسة التى تخليت أنت عنها .

فولتير : أن هذا يشوقنى كثيراً .

بندكت : أخشى أن أرهقك لأنى سأطيل الحديث ، ولكن تذكر كم ألفت أنت من مجلدات .

فولتير : كثيراً ما تاقت نفس لزيارة رومه ، وكم كان يسعدنى أن تتحدث إلى.

بندكت : وكثيراً ما رغبت أنا فى التحدث معك . ويجدر بى أن اعترف بأنى تمتعت بذكائك وبراعتك ، ولكن تألق ذكائك هو الذى ضللك . من العسير أن تكون متألقا بأرعا ومحافظا ، إنه لايروق العقول النشيطة كثيراً أن تقف إلى جانب التقاليد والسلطة ، وهناك ما يغريها بالنقد . حيث يمكن أن تشعر بلذة النزعة الفردية والإبداع والجدة ، ولكن فى الفلسفة يكاد يتعذر أن يكون الإنسان أصيلا إلا إذا كان مخطئا . وإنى لأتحدث إليك ، لابصفتى كاهنا أو رجل لاهوت ، ولكن بصفتى فيلسوفا يتحدث إلى فيلسوف .

فولتير : أشكرك ، لقد كان هناك كثير من الشك فى كونى فيلسوفا .

بندكت : لقد كنت حصيفا ، فلم تصطنع منهجا جديدا . ولكنك ارتكبت خطأ فاحشا أساسيا .

فولتير : ما هو ؟

بندكت : ظننت أنه من الميسور لذهن واحد على مدى حياة واحدة أن يكتسب هذا القدر من المعرفة وعمق التفكير ، مما يجعله صالحا لينصب نفسه حكما على حكمة الجنس البشرى كله — على تقاليد ونظم شكلتها خبرة الناس وتجربتهم عبر القرون . فالتقاليد بالنسبة للجماعة هى بمثابة الذاكرة للفرد . وكما أن أى خلل فى الذاكرة قد يؤدى إلى الجنون ، فأن أية مخالفة مفاجئة للتقاليد قد تنزلق بالأمة بأسرها إلى هاوية الجنون ، مثل فرنسا فى الثورة .

فولتير : أن فرنسا لم تصب بالجنون ، ولكنها ركزت فى عقد من السنين على ما تراكم من استياء وغيظ أثناء قرون من الظلم والجور ، فضلا عن ذلك فأن « الجنس » الذى تتحدث عنه ليس « ذهنا » ،

بل هـــو مجموعة وتساسل لأفراد غير معصومين من الخطأ ، وليست حكمة الجنس إلا مجموعة مركبة من أخطاء الأفراد وحسن تبصرهم ، وماذا حدد أى العناصر من هذا الحطام من الأفكار سينتقل إلى الأعقاب والذرارى ويسترعى انتباه الزمن ؟

بندكت : إن نجاح الأفكار واخفاقها فى تجارب الجماعات والأمم هو الذى حدد البقاء لبعض الأفكار وفناء الباقى .

فولتير : لست متأكدا ، فربما كان التحيز متسربلا ثياب السلطة هو الذى حدد فى كثير من الحالات أى الأفكار يجب الاحتفاظ به ، وربما منعت الرقابة ألفا من الأفكار الطيبة من الدخوال إلى تقاليد الجنس البشرى .

بندكت : أظن أن خلفائى فكروا فى الرقابة وسيلة لمنع إنتشار الأفكار التى قد تقوض الأساس الأخلاقى للنظام الاجتماعى ، والمعتقدات المؤثرة التى تساعد الناس على احتمال أعباء الحياة وأنى لأسلم بأن مراقبينا قد ارتكبوا أخطاء جسيمة مثل ما حدث مع جاليليو — ولو أنى أرى أنا كنا أكثر اعتدالا معه مما سول اتباعك لكثير من الناس أن يعتقدوا .

فولتير : قد تكون التقاليد اذن خاطئة ظالمة وتكون حجر عثرة فى سبيل تقدم التفاهم . وكيف يتقدم الإنسان إذا حرم مناقشة التقاليد ؟

بندكت : ربما كان علينا أن نناقش التقدم أيضا . ولكن فلنطرح هذه المسألة جانبا الآن مؤقتا . أعتقد أنه يجدر بنا أن نناقش التقاليد والنظم مع حرصنا على ألا نهدم أكثر مما نبنى ، ومع الحذر من أن الحجر الذى نزعزعه من مكانه لا يكون ضروريا لتدعيم مانريد الابقاء عليه . على أن نعى دائماً حقيقة متواضعة ، تلك هى أن خبرة الأجيال قد تكون أفضل وأحكم من عقل فرد عابر .

فولتير : ومع ذلك فالعقل أجل نعمة أنعم الله بها علينا .

بندكت : لا ، الحب هو أكبر نعمة . أنا لا أريد الأنتقاص من قيمة العقل ولكن يجب أن يكون خادم الحب لاخادم الغرور والزهو .

فولتير : أنا غالبا ما سلمت بهشاشة العقل وسهولة انقيادة . أنا أعلم نزوعه إلى أثبات كل ما توحى به رغباتنا ، أن صديقى البعيد ديدرو كتب فى مكان ما أن حقائق الشعور أكثر ثباتا من حقائق العرض المنطقى[1] ، إن المتشكك الحقيقى لأبد أن يرتاب فى العقل أيضاً ، وربما بالغت أنا فى العقل لأن ذلك الرجل المجنون روسو بالغ فى الوجدان ، وفى رأيى أن اخضاع العقل للوجدان أشد خطرا من اخضاع الوجدان للعقل ،

بندكت : إن الإنسان ، كل الإنسان ، محتاج إليهما كليهما فى تفاعلهما . ولكنى الآن أتساءل هل لك أن تصاحبنى إلى خطوة أبعد ؟ إلا تتفق معى فى أن انصع معرفة مباشرة هى معرفتنا أننا موجودون وأننا نفكر ؟

فولتير : حسنا ؟

بندكت : إذن نحن نعرف الفكر بطريق مباشر أكثر مما نعرف أى شىء آخر .

فولتير : عجيب ! أعتقد أننا نعرف الأشياء قبل أن تتحول إلى انفسنا ونتبين أننا نفكر .

بندكت : ولكن اعترف بأنك حين تنظر فى نفسك تدرك حقيقة مختلفة تمام الأختلاف عن المادة التى تميل أحيانا إلى أن تختزل إليها كل شىء .

فولتير : أنا أشك فى هذا ، ولكن استمر .

بندكت : واعترف أيضا بأن ما تراه حين تنظره فى داخل نفسك هو بعض من واقع الاختيار ومن حرية الإرادة .

فولتير : أنت تنطلق بسرعة . أيها الأب ، لقد اعتقدت يوما بأنى نعمت

بدرجة معتدلة من الحرية ، ولكن المنطق أرغمنى على قبول القضاء والقدر .

بندكت : أى أنك أخضعت ما أدركت مباشرة لما انتهيت إليه من عملية تفكير طويلة مزعزعة .

فولتير : أنا لم أستطع أن أدحض آراء صانع العدسات الصغير العنيد سبينوا . هل قرأت له ؟

بندكت : بالطبع قرأت . إن البابا ليس مقيدا بقائمة معينة من الكتب المهذبة.

فولتير : أنت تعرف أننا اعتبرناه ملحداً ،

بندكت : يجدر بنا ألا نخلع النعوت والالقاب بعضنا على بعض . أنه كان محببا إلى نفسى ، ولكنه كان مكتئبا إلى حد لايطاق . أنه رأى الله بطريقة شاملة إلى حد أنه لم يترك مجالا للشخصية الإنسانية. أنه كان متدينا مثل أو غسطين ، وقديسا عظيما مثله .

فولتير : إنى أحبك يابندكت . أنك أرحم به منى .

بندكت : فلنتابع حديثنا ، أسألك أن توافق على أن الفكر والوعى والأحساس بالشخصية هى أعظم الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر.

فولتير : حسنا . . هذا مسلم به .

بندكت : وعلى هذا أشعر بأننى محق فى رفض المادية والالحاد والجبرية . فكل منا روح والديانة تبنى على هذه الحقيقة .

فولتير : فلنسلم بكل هذا ، فكيف نجيز تلك المجموعة الضخمة من السخافات التى أضيفت إلى مذهب الكنيسة قرنا بعد قرن ؟

بندكت : أنا أعلم أن هناك سخافات كثيرة وأشياء كثيرة لا تصدق ، ولكن الناس كانوا يتصايحون من أجلها ، وفى كثير من الأحيان نجد الكنيسة فى تقبلها لهذه الأعاجيب ، كانت تخضع للمطلب العام

الواسع الأنتشار ، وإذا أنت انتزعت من الناس المعتقدات التى نجيز لهم اعتناقها ، فانهم سيعتنقون أساطير وخرافات لا ضابط ولا حصر لها . أن الديانة المنظمة لن تخترع خرافة ، بل تحول دونها . اقض على أية ديانة منظمة فسيحل محلها هذه المتاهة من الخرافات المخلة التى تنشأ ضغثا على أبالة فى المسيحية وتزيد فى جراحها . ومع ذلك فنى العلم أشياء لاتصدق أكثر منها فى الديانة . أهناك شىء أبعد عن التصديق من الأعتقاد بأن حالة بعض سديم بدائى هى التى حددت وفرضت كل سطر فى رواياتك ؟

فولتير : وما بالك بحكايات القديسين غير القابلين للاحتراق حين يلقى بهم فى النار ، وحكاية القديس الذى ضرب عنقه ومشى ورقبته فى يده ، وحكاية مريم التى رفعت إلى السماء — أنا لم أهضم هذه الحكايات كلها .

بندكت : أن معدتك كانت ضعيفة دائما . إن الناس لا يجدون فيها شيئاً عسيرا لأن هذه الحكايات جزء من عقيدة تساند حياتهم ويجدون فيها بعض العزاء . وهذا هــو السبب فى أنهم لن يعيروك أذنا صاغية طويلا ، حيث أن أنفاس حياتهم لا تتوقف على الاصغاء إليك — وهكذا ففى الصراع بين الإيمان والكفر ، فأن الإيمان يكسب المعركة دائما . أنظر كيف تكسب الكثلكة غرب المانيا ، وتستعيد فرنسا الكافرة ، وتسود أمريكا اللاتينية ، ويشتد عودها فى أمريكا الشمالية ، حتى فى أرض الحجيج والبيوريتانيين .

فولتير : أنا أرى أحياناً ، أيها الأب أن ديانتكم تستعيد مكانتها ، لاعن طريق صدق عقيدتكم ، ولا عن طريق الجاذبية فى أساطيركم ، ولا بفضل إستخدامكم البارع للمسرحية والفن ، ولكن

بفضل تشجيعكم الدقيق بشكل شيطانى للاخصاب بين الناس عندكم . وأعتقد أن معدل التكاثر هو العدو رقم ١ للفلسفة ، نحن نتناسل فى القاعدة ونموت فى القمة . وخصوبة السذاجة تهزم حدة الذكاء .

بندكت : أنت تخطىء إذا اعتقدت أن معدل التكاثر هو سر نجاحنا . فان شيئاً أعمق من هذا بكثير موجود ضمناً . هل أخبرك لماذا يعود كل الأذكياء فى كل أنحاء للعالم إلى حظيرة الدين ؟

فولتير : لأنهم تعبوا من التفكير .

بندكت : لا ، ليس هذا تماماً ، إنهم إكتشفوا أن فلسفتكم ليس لها جواب إلا الجهل واليأس . ويدرك العقلاء أن كل المحاولات فيما أسماه أخوتكم « الأخلاق الطبيعية » أخفقت . وقد نتفق أنت وأنا على أن الإنسان ولد وفيه غرائز تميل إلى النزعة الفردية تكونت فى آلاف السنين من الظروف والأحوال البدائية ، وأن غرائزه الاجتماعية ضعيفة نسبياً ، وأن شريعة قوية من الأخلاق والقوانين مطلوبة لترويض هذا الفوضوى بالطبيعة ، وتحويله إلى مواطن عادى مسالم . إن علماء اللاهوت عندنا أسموا هذه الغرائز التى تتسم بالنزعة الفردية « الخطيئة الأصلية الأولى » الموروثة عن « آبائنا الأولين » ، أى أولئك الناس المرهقين الذين لايخضعون لقانون ، المعرضين دائماً للخطر ، الصيادين الذين كان لزاماً عليهم أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد للقتال والقتل من أجل الطعام أو الرفاق ، وأن يكونوا مولعين بالاكتساب والمشاركة ، وأن يكونوا قساة إلى حد العنف ، لأن أى نظام إجتماعى ساد بينهم ، كان لابد أن يظل ضعيفاً ، ولكن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فى الأمن على حياتهم وممتلكاتهم .

فولتير : أنت لاتتحدث كما يتحدث البابا .

بندكت : قلت لك إنه ينبغي علينا أن نتحدث كما يتحدث الفلاسفة . فالبابا أيضاً يمكن أن يكون فيلسوفا ، ولكن عليه أن أن يعبر عن نتائج الفلسفة لابلغة مفهومة للناس فحسب ، بل كذلك بلغة خليقة بالتأثير على عواطفهم وسلوكهم . نحن مقتنعون — والعالم كله يعود الينا لأنه يعلم — بأنه ليس ثمة قانون أخلاقى من وضع الإنسان بشكل صريح معترف به ، يمكن أن يؤثر بدرجة كافية حتى يضبط ويتحكم فى الدوافع غير الاجتماعية فى الرجل الطبيعى . إن الناس عندنا محكومون فى حياتهم الأخلاقية — ولو أن هذا لا يلتئم مع الجسد — بقانون أخلاق تعلموه وهم أطفال فى طور التشكيل ، باعتباره جزءاً من دينهم ، واعتباره من عند الله لامن عنديات الإنسان . أنت تريد أن تحتفظ بالأخلاق وتنبذ اللاهوت ، ولكن اللاهوت هو الذى يجعل الأخلاقيات تستقر فى أعماق النفس . ويجب أن نأخذ القانون الأخلاقى على أنه جزء لايتجزأ من الايمان الدينى الذى هو أثمن ما يمتلك الإنسان ، لأنه عن طريق هذا الايمان وحده تكتسب الحياة معنى ومنزلة سامية تعزز وجودنا وتضفى عليه شرفا ونبلا .

فولتير : وعلى هذا ابتدع موسى أحاديثه مع الله .

بندكت : إن الذهن الناضج لايوجه مثل هذا السؤال

فولتير : أنت على حق تماما .

بندكت : إنى أغتفر لك تهكمك الفطير غير الناضج . إن حمورابى وليكورغوس (مشرع أسبرطة فى القرن التاسع ق . م) ونوما وبومبليوس كانوا بالتأكيد على حق فى أن يضعوا للأخلاق أساسا دينيا حتى لاتنهار تحت الضربات المتواصلة من أقوى غرائزنا . وأنت نفسك قبلت هذا حين تحدثت عن إله يثيب ويعاقب ؛ إنك

أردت أن يتمسك خدمك بالدين ، ولكنك ظننت أن أصدقاءك يمكن أن يعيشوا بلادين .

فولتير : ما زلت أرى أن الفلاسفة يمكنهم أن يستغنوا عن الدين .

بندكت : كم أنت ساذج ! هل الأطفال أهل للفلسفة ؟ هل يستطيع الأطفال أن يفكروا ويتأملوا ؟ إن المجتمع مؤسس على الأخلاقيات ، وهذه مؤسسة على الشخصية ، والشخصية تتكون زمن الطفولة والشباب . قبل أن يكون العقل موجها ومرشداً بزمن طويل . وينبغي أن نغرس الفضيلة فى الفرد حين يكون صغيراً مطواعا غض الأهاب ، حيث تكون الفضيلة والأخلاقيات قوية إلى حد يسمح بمقاومة نوازعه المشربة بروح الفردية . بل حتّى تفكيره الفردى . أخشى أن تكون قد بدأت تفكر بسرعة . والعقل عمل فردى أساسى ، وإذا لم تحكمه وتضبطه الأخلاق فانه يمكن أن يمزق مجتمعا إربا .

فولتير : إن بعض أحسن الرجال فى عصرى وجدوا أن العقل فضيلة وأخلاقيات كافية .

بندكت : كان هذا قبل أن يتغلب العقل القائم على النزعة الفردية والزمن على آثار الديانة . إن نفراً قليلا من الناس مثل سبينوزا وبيل ودى هولباخ وهلفشيوس قد يكونون قد عاشوا حياة طيبة بعد تخليهم عن دين آبائهم ، ولكن من يدرينا أن فضائلهم لم تكن نتيجة تعليمهم الدينى ؟

فولتير : كان هناك مئات من الناس المعاصرين لى ، ممن كانوا خليعين محتقرين على للرغم من تعليمهم الدينى وعقيدتهم الكاثوليكية ، مثل الكاردينال ديبوا ولويس الخامس عشر .

بندكت : الذين كتبت عنهم مديحا يثير الاشمئزاز .

فولتير : واحسرتاه! نعم ، كنت مثل بعض رهبانكم ، استخدمت بعض حيل وخدع تقية لأصل الى ما شعرت بأنه غايات طيبة .

بندكت : مهما يكن من أمر ، فليس ثمة شك فى أن هنالك آلافا من الناس ممن يتمسكون بالعقيدة القويمة ، حتى وممن يواظبون على كل الطقوس ، يمكن أن يكونوا آثمين خطائين ومجرمين عريقين فى الإجرام . إن الدين ليس علاجا معصوما من الخطأ للجريمة ، إنه ليس إلا مجرد عون فى المهمة الشاقة ، مهمة تمدين الإنسان . وأننا لنعتقد أن الناس بدون الدين يمكن أن يكونوا أسوأ بكثير مما هم .

فولتير : ولكن تلك الفكرة الرهيبة ، فكرة الجحيم . حولت الإله إلى إلى غول بشع أ شد قسوة من أى مستبد غاشم فى التاريخ .

بندكت : أنت تمقت هذه الفكرة ، ولكنك إذا عرفت الناس معرفة أكثر وأفضل ، لأدركت أنه يجب إر هابهم بالمخاوف والعقاب . أن رأس الحكمة مخافة الله . وعندما فقد إتباعك هذا الخوف بداؤا يتدهورون ويفسدون . إنك كنت محتشما معتدلا نسبياً فى فسقك وفجورك ، وكان ثمة شيء جميل فى علاقتك الطويلة بمدام دى شاتيليه ، ولكن علاقاتك مع إبنة أختك كانت شائنة مخزية . ولم تجد شيئا يستحق اللوم فى سلوك صديقك الفاجر الداعر الدوق دى ريشيليو .

فولتير : وكيف كان يمكن أن ألومه ؟ إذن لتعرضت قروضى للخطر .

بندكت : أنت لم يمتد بك زمنك لترى كيف أن الإلحاد قارب أن يجعل من الإنسان أحقر حيوان . هل قرأت المركيز دى ساد ؟ أنه فى نشو الثورة الفرنسية نشر ثلاث قصص (٢) أوضح فيها أنه لو لم يكن

هناك إله لكان كل شيء مباحا اللهم إذا كشف وكلاء القانون أمره. وأشار إلى أن كثيراً من الأشرار الخبثاء تزدهر أحوالهم في الدنيا ، وكثيراً من الطيبين الفضلاء يعانون ويشقون ، وعلى ذلك فإنه إذا لم يكن هناك جنة أو نار ، فليس ثمة معنى في أن نكون طيبين لنسيء إلى ملذاتنا . وانتهى إلى أنه إذا لم تكن الإرادة حرة فليس هناك مسئولية أخلاقية ، وليس هناك خير أو شر ، بل هناك فقط ضعفاء وأقوياء والخير هو الضعف ، والضعف هو الشر ، حتى ولو كان لما يجد القوى — لذة في استغلال الضعيف مايبررها. وحاول أن يثبت أن القسوة أمر طبيعى وأنها غالباً ما تكون سارة مرضية . وهكذا أقر كل ضروب اللذة ، بما فى ذلك أحط ألوان الانحراف وأبغضه ، حتى بدا آخر الأمر أن الخير الأعظم يكمن فى إيقاع الألم وتلقيه ، أسلوباً من أساليب اللذة الجنسية .

فولتير : كان لزاماً أن يضرب هذا الرجل بالسوط حتى يموت.

بندكت : نعم إذا استطعت الإمساك به . أما إذا لم تستطع ؟ فكر فى الجرائم التى لاتحصى والتى ترتكب فى كل يوم ، والتى لاتكتشف والتى تفلت دون عقاب مطلقاً ، إنه من الضرورى أن يكون هناك قانون أخلاقى يمنع الناس من الإجرام حتى لوأحسوا أنهم فى مأمن من كشف أمرهم . فهل يكون عجيباً أن « عصر فولتير » أبعد العصور عن الأخلاق وأكثرها فساداً فى التاريخ . . ؟

أنا لن أذكر شيئاً عن « غادتك » ولكن فكر فى الملك ومنتدى غزلانه » وفى الأدب الداعر الفاجر الذى كان يطبع بكميات كبيرة ويتداول على أوسع نطاق ، ويتلهف الناس حتى النساء على شرائه : إن هذا الزاد الطائش ، والإثارة الجنسية تصبحان طوفانا فاجراً فى أزمان الكفر وأرضه .

فولتير : يجب أن تعلم يا صاحب القداسة أن الغريزة الجنسية قوية جداً حتى عند بعض البابوات ، وأنها لابد أن تجد متنفساً على الرغم من أى قانون .

بندكت : وبسبب قوة تلك الغريزة فإنها تحتاج إلى ضوابط وقيود خاصة، لا إلى تشجيع قطعاً . وهذا هو مادعانا إلى محاولة حصرها فى حدود الزواج المنظم ، وعملنا كل ما فى وسعنا لجعل الزواج المبكر حيز الإمكان . إنكم فى مجتمعاتكم الحديثة تجعلون الزواج متعذراً للجميع اللهم إلا للطائشين المسرفين ، أى ما بعد الوصول إلى مرحلة النضج الجنسى بزمن طويل . ومع ذلك تجعلون كبح جماح الغريزة الجنسية أمراً شاقاً عسيراً بالنسبة لهم بإثارة خيالهم الجنسى وشهوتهم الجنسية فى كل لحظة بالأدب والمسرح ، بدعوى حرية الصحافة والمسرح .

فولتير : إن شبابنا لايضارون كثيراً بحريتهم .

بندكت : أظنك مخطئا . إن الرجل الذى تعود على الإختلاط الجنسى غير المشروع قبل الزواج نادراً ما يكون زوجاً أمينا مخلصا ، والمرأة التى تفرط فى عرضها قبل الزواج لن تكون زوجة أمينة إلا من قبيل الاستثناء، وهكذا نساق إلى إباحة الطلاق بشروط يسيرة . إننا نجعل من الزواج سراً مقدساً رهيباً وعهداً بطول الصبر والأمانة — مدى الحياة ، ولكنكم تجعلون منه عقد عمل يحق لأى من الطرفين أن يفسخه، أثر شجار عابر أو تطلعاً إلى رفيق أصغر سناً أو أكثر ثراء . إن كل بيت مفتحة الآن أبوابه كلها ، الأمر الذى يدعو إلى الانفصال ويشجع عليه . ووقع نظام الزواج فى حالة من فوضى التقارب المؤقت التجريبى ، مما يشكل كارثة للنساء ويقوض أركان النظام الأخلاقى .

فولتير : ولكن الزواج بواحدة فقط أمر غير طبيعى وغير محتمل ، أيها الأب العزيز .

بندكت : وإن أى كبت للغريزة أمر غير طبيعى ، ومع ذلك يستحيل قيام المجتمع دون كثير من هذه القيود ، وأعتقد أن الرجل أو المرأة مع رفيق (زوج) واحد وعدة أطفال أسعد من رجل أو امرأة مع عدة رفاق وطفل واحد . وكيف ينعم رجل بالسعادة وقد طلق زوجته التى فقدت جمالها فى الحمل وفى تربية أبنائه ، حين أثاره وجه جديد وقوام رشيق ؟

فولتير : ولكن بتحريمك الطلاق يجب أن تتسامح مع الزنى المنتشر انتشارا واسعا فى الأقطار الكاثوليكية .

بندكت : نعم نحن هناك ضعفاء مجرمون . نحن ضعفاء بسبب الكفر والتخلى عن الإيمانى ، وربما كان الزنى أفضل من الطلاق ، لأنه يهيىء فى الظاهر بيتا متحداً آمنا للابناء ، وينطوى على ارتباك وتشويش أقل للأسرة . ولكنى أشعر بالخجل لأننا لم نجد حلا أفضل .

فولتير : أنت رجل مؤمن مخلص أيها الأب ، إنى لأتنازل عن كل ما أملك إذا قدر لى إن أشاركك إيمانك وطيبة نفسك .

بندكت : ومع ذلك فمن الصعب إقناعك . وإنى ليتولانى اليأس أحيانا من كسب الرجال الأذكياء اللامعين أمثالك ، ممن تحرك أقلامهم مليونا من الانفس وتوجهها نحو الشر أو الخير . ولكن بعض أتباعك يفتحون أعينهم على الحقيقة المرة الرهيبة . فإن فقاقيع التقدم إنفجرت فى قرن شهد مزيدا من قتل الرجال والنساء بالجملة . ومزيدا من إجتياح المدن وتخريبها ، ومن تحجر القلوب وفسادها ، أكثر من أى قرن آخر فى التاريخ . إن التقدم فى المعرفة والعلم ووسائل الراحة والقوة ليس إلا تقدما فى الوسائل ،

وإذا لم يكن ثمة تحسين الغايات والأغراض أو الرغبات فلن يكون التقدم إلا وهما وخداعا . إن العقل يعمل على تحسين الوسائل ولكن الغايات تحددها الغرائز التى تتشكل قبل المولد وتتكون قبل نمو العقل .

فولتير : أنا مازلت أثق فى ذكاء الإنسان ، أننا سنحسن الغايات والوسائل معاً إذا صرنا أكثر اطمئنانا وأمنا على حياتنا .

بندكت : هل ستصبح أكثر أمنا واطمئنانا ؟ هل ينخفض معدل الجريمة العنيفة ؟ هل الحرب أقل فظاعة وبشاعة من ذى قبل ؟ أنك تتعلق بأمل كاذب فى إن قوة التدمير فى أسلحتكم سوف تعوقكم وتعوق أعداءكم عن الحرب . ولكن هل التقدم المتكافىء من السهم إلى القنبلة سيعوق الأمم عن تحدى بعضها بعضا حتى الموت؟

فولتير : إن تعليم الجنس البشرى سيستغرق عدة قرون .

بندكت : فى نفس الوقت إنظر إلى الخراب الروحى الذى نشرته دعايتكم . وربما كان هذا كارثة أفظع من أى خراب فى المدن . أليس الالحاد مقدمة لتشاوم أعمق من أى تشاؤم عرفه المؤمنون ؟ وأنت أيها الفتى الذائع الصيت ، ألم تفكر كثيراً فى الأنتحار ؟

فولتير : نعم ، وحاولت أن أومن بالله ، ولكنى أعترف لك أن الله لم يعد شيئا فى حياتى ، وفى دخيلة نفسى شعرت أيضا بفراغ فى موضع إيمان طفولتى ، ولكن يحتمل أن يكون هذا هو أحساس أفراد وأجيال فى فترة إنتقال فقط ، ولكن حفدة هؤلاء المتشائمين سيمرحون ويسرحون فى حرية حياتهم ، وتهيأ لهم سعادة أكثر من المسيحين المساكين الذين أظلمت حياتهم بالخوف من الجحيم .

بندكت : إن هذا الخوف لم يلعب إلا دورا صغيرا فى حياة الغالبية العظمى من المؤمنين . إن ما أثلج صدورهم هو احساسهم بأن سكرات

الموت لم تكن عبثا غير دى معنى : بل مقدمة لحياة أكبر تصحح وتشفى فيها كل المظالم والقساوات الدنوية ، وسيكونون متمتعين بالسعادة والسلام مع من كانوا يحبونهم ثم فقدوهم .

فولتير : نعم كان فى هذا راحة تامة ، مهما تكن خداعة . أنا لم أحس بها لأنى أكاد لا أعرف والدى ، ولم أر والدى إلا نادرا ، وليس لى أولاد معروفون .

بندكت : أنت لم تكن رجلا كاملا ، ولم تكن فلسفتك كاملة . هل عرفت يوما حياة الفقراء ؟

فولتير : عرفتها من الخارج فقط . ولكنى حاولت أن أكون منصفا وعونا للفقراء الذين عاشوا فى ضياعى .

بندكت : لقد كنت سيداً فاضلا ، وفطنت إلى أن الإيمان والعقيدة التى اعتنقها هؤلاء الذين إستخدمتهم فى شبابك والتى لهم فيها عزاء وسلوى ، يجب إن تتجدد عن طريق التعليم الدينى والقيادة ولكن فى نفس الوقت كان إنجيلك المدمر الذى لا أمل فيه فيما وراء القبر يسود فرنسا بأسرها . هل أجبت يوما على سؤال دى موسيه[٣] ؟ بعد أن علمت أنت أو إتباعك الفقراء أن الجنة الوحيدة التى يمكنهم الوصول إليها يجب أن يخلقوها هم أنفسهم على الأرض أو فى الدينا . وبعد أن ذبحو حكامهم ، ويظهر حكام جدد . ويبقى الفقر بالأضافة إلى خلل وفساد وعدم إستقرار أكبر من ذى قبل ، فماذ إذن تستطيع أن تقدم من عزاء للفقراء المغلوبين على أمرهم ؟

فولتير : أنا لم أحبذ قتل حكامهم ، وارتبت فى أن يكون الجدد أقرب شبها بالقدامى ، ولكن اسوأ سلوكا .

بندكت : لن أقول إن الثورة ليس لها ما يبررها مطلقا ، ولكنا تعلمنا من التجارب والخبرات التى تراكمت ونقلتها الينا الأجيال . أنه

بعد كل انقلاب، سيكون هناك ثانية سادة وأناس ، وأغنياء وفقراء نسبياً . نحن ولدنا جميعا غير متساوين ، وكل إختراع جديد وكل تعقيد جديد يضاف إلى الحياة أو الفكر يزيد فى الهوة بين البسطاء والدهاة البارعين ، وبين الضعفاء والأقوياء . إن أولئك الثوريين المؤمنين تحدثوا عن الحرية والمساواة والاخاء ولكن هذه الأقانيم لا تتمشى مع بعضها البعض . لأنك إذا أقررت الحرية سمحت للتفاوتات وعدم المساواة الطبيعية أن تتضاعف إلى تفاوتات وفوارق مصطنعة . فإذا حلت دون هذه التفاوتات كان عليك أن تقيد الحرية ، وهكذا تصبح مثلك العايا فى الحرية ستاراً للاستبداد وفى غمرة هذا يصبح الأخاء مجرد كلمة .

فولتير : نعم هو كذلك .

بندكت : حسناً إذن ، ومن منا يقدم عزاء أكبر للغالبية التى لا مفر من أن تكون تكون مغلوبة على أمرها ؟ هل تظن أنك تحسن صنعاً أو تؤدى خدمة للكادحين فى فرنسا وإيطاليا إذا إقنعتهم بأن أضرحتهم القائمة على جانب الطريق وصلبانهم وصورهم الدينية وتقدماتهم التقية مجرد شعائر سخيفة لا معنى لها ، وأن صلواتهم موجهة إلى سماء خالية ، وهل يمكن أن تكون ثمة مأساة أشد من أنه يجب على الناس أن يؤمنوا بأنه ليس فى الحياة شىء إلا تنازع البقاء وليس فيها شىء أكيد على وجه اليقين إلا الموت . ؟

فولتير : أنا أشاركك شعورك أيها الأب . لقد أثر فى نفسى وأزعجنى رسالة تلقيتها من مدام دى تلموند ، أنا أذكرها جيداً ، وجاء فيها « أرى ياسيدى ألا يكتب فيلسوف مطلقا إلا ليحاول أن يجعل الجنس البشرى أقل شراً وأقل شقاء مما هو عليه . وأنت الآن تعمل على النقيض من ذلك تماما . أنت دائما تكتب ضد الدين . وهو وحده القادر على كبح جماح الشر وتقديم السلوى والعزاء

إذا ألم الخطب[٤] ، ولكن لى إيمانى كذلك بأن الحق سيكون على مدى الأيام نعمة حتى للفقراء .

بندكت : ان يكون الحق حقاً إلا إذا بقى صادقا عبر الأجيال . إن الأجيال السابقة تكذبك والأجيال القادمة ستلومك ، بل إن المنتصرين فى صراع الحياة سيلومونك على إنتزاعك الآمال من صدور المساكين وهى الآمال التى حملتهم على قبول المكانة المتواضعة فى مجتمع مقسم إلى طبقات ، وهو تقسيم لامناص منه .

فولتير : أنا لا أستسلم لخداع الفقراء والمساكين خداعا مزدوجا على هذا النحو .

بندكت : نحن لا نخدعهم . أننا نعلمهم الإيمان والأمل والبر والاحسان ، وتلك كلها نعم حقيقية فى حياة البشر . أنكم سخرتم كثيراً من التثليث ، ولكن هل كانت لديكم يوما أى فكرة عن الراحة النفسية التى أحس بها ملايين الملايين من الأنفس لمجرد التفكير فى أن الله نفسه قد نزل إلى هذه الأرض ليشاركهم آلامهم ومعاناتهم ، ويكفر عن خطاياهم ؟ وسخرتم من ولادة العذراء ، ولكن هل فى كل الأدب شىء محبب أو مؤثر أكثر رمزاً لبساطة النساء واعتدالهن ورمزا لحب الأم ؟

فولتير : أنها قصة جميلة ، ولو أنك كنت قرأت كل مجلداتى التسعة والتسعين لوجدت أنى اعترفت بقيمة هذه الأساطير التى تبعث فى النفوس السلوى والعزاء .

بندكت : نحن لا نسلم بأنها أساطير ، أنها من بين أعمق الحقائق . إن آثارها من بين أكثر الحقائق يقينا فى التاريخ . أنا لن أتحدث عن الفن والموسيقى اللتين خلقتها ، وهما من أغنى تراث الإنسان . . .

فولتير : كان الفن ممتازا . ولكن أغنيتكم الجريجورية كانت عبثا كريها كئيبا .

بندكت : لو أنك كنت أكثر عمقا لقدرت قيمة طقوسنا وأسرارنا المقدسة .
إن احتفالاتنا تجمع بين المصلين فى مسرحية حية وأخوة تشجع على الوحدة ، وأسرارنا المقدسة هى حقاً أسم على مسمى من أمارات أو علامات ظاهرية على نعمة وبركة باطنة داخلية ، وأنها لراحة نفسية للآباء أن يروا طفلهم فى التعميد والتثبيت مقبولا فى جماعة العقيدة العريقة وفى ميراثها . وهكذا توحد الأجيال فى أسرة لا يحددها زمان ، ولا يعود الفرد فيها يحس أنه وحيد .
وإنه لمن أجل النعم للمخطىء أن يعترف بخطاياه ويتلقى الغفران .
وأنتم تقولون إن هذا لا يعدو أن يكون مجرد سماح له بارتكاب الذنب ثانية ، ونحن نقول بأن هذا يشجعه على أن يبدأ حياة أفضل غير مثقلة بوزر الأثم . ألا يكافح أطباؤكم النفسيون من أجل إيجاد بديل عن الاعتراف للكاهن ؟ إلا يخلقون مصابين بالأمراض العصبية قدر ما يعالجون ويشفون ؟ أليس جميلا إنه فى سر القربان المقدس يقوى الإنسان الضعيف ويتأثر باتحاده مع الله ؟
هل رأيت شيئا أجمل من ذهاب الأطفال لأول عشاء ربانى لهم ؟

فولتير : لا يزال يزعجنى ويضايقنى فكرة أكل الله ، أنها بقايا عادات وحشية .

بندكت : أنك تخلط مرة ثانية بين الأشارة الظاهرية الخارجية والبركة الباطنية . ليس ثمة شىء ضحل مثل التحريف ، إنك تحكم على كل شىء من سطحه ، وتظن أنه عميق . وقـــد ضلل هذا التحريف كل الحياة الحديثة . وفى الدين مر العقل الناضج بثلاث مراحل : الإيمان والكفر والفهم .

فولتير : قد تكون على حق . ولكن هذا لا يبرر نفاق أساقفتك الآثمين الخطائين ، أو اضطهاد الفكر الصادق المستقيم .

بندكت : نعم . كنا مذنبين . إن العقيدة طيبة لأغبار عليها ، ولكن القائمين عليها رجال ونساء عرضة للخطأ والأثم .

فولتير : ولكن إذا كان القائمون عليها عرضة للخطأ ، فلماذا يزعمون أنهم معصومون منه ؟

بندكت : إن الكنيسة تدعى العصمة فقط لأحكامها الوسمية الأساسية الموقرة جداً ، ويجب الكف عن الجدل فى موضع ما ، إذا أريد للذهن أو المجتمع أن يعيش فى هدوء وسلام .

فولتير : وهكذا نعود ثانية إلى الرقابة الخانقة والتعصب الوحشى الذميم اللذين كانا مصدر الأذى والهلاك فى حياتى ، ومبعث الخزى والعار فى تاريخ الكنيسة . ويمكننى أن أرى أبواب محاكم التفتيش مفتوحة من جديد .

بندكت : أرجو إلا يكون الأمر كما تقول . إن هذا كان بسبب ضعف البابوية ، إن محاكم التفتيش كانت قاسية . إن خلفائى كافحوا لوقفها .

فولتير : البابوات أيضاً مذنبين . أنهم نظروا برباطة جاش إلى قتل مئات اليهود أثناء الحروب الصليبية ، وتآمروا مع دولة فرنسا على قتل الالبيجنسيين (طائفة دينية ازدهرت فى جنوب فرنسا فيما بين ١٠٢٠ — ١٢٥٠ م وأخيرا قضى عليها بتهمة الزندقة) . لماذا نعود إلى عقيدة استطاعت على الرغم من كل سحرها وفتنتها أن تولد مثل هذه الوحشية ومازالت تتغاضى عنها ؟

بندكت : أننا شاركنا فى عادات عصرنا وسلوكه . ونحن نشارك الآن فى تحسين الأخلاق . أنظر إلى قساوستنا ، أليسو ، مجموعة ممتازة من الناس فى تعليمهم وتبتلهم وسلوكهم ؟

فولتير : هكذا يقولون لى . ولكن ربما كان هذا بسبب المنافسة . ومن يدرى ماذا سيكرنون عليه ، حين يهيء لهم إنصارهم ذوو الأصل

العريق التفوق السياسى ؟ إن المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى من حقبتنا أشتهروا بسمو الخلق لكنك تعلم كيف اصبحوا حين تسلموا مقاليد الأمور . إنهم قتلوا من أجل الخلاف الدينى أناسا أكثر مائة مرة مما قتل أباطرة الرومان .

بندكت : إن قومنا كانوا آنذاك بادئين فى التعليم ، فلنأمل أن نفعل أفضل مما فعلوه فى المستقبل .

فولتير : لقد أحسنت الكنيسة صنعا فى بعض الأحيان . ففى النهضة الإيطالية أظهر بعض خلفائك تسامحا لطيفا نحو الكفر . ولم يحاول غير المؤمنين أن يحرموا المساكين من عقيدتهم التى توفر لهم العزاء والسلوى . أنا من جانبى لا أريد أن أدمر عقيدة الفقراء المساكين ، وأؤكد لك أن هؤلاء المساكين لايطالعون كتبى .

بندكت : بارك الله فى المساكين الفقراء .

فولتير : فى نفس الوقت ، ينبغى أن تغفر لى ولأمثالى إذا واصلنا مساعينا لتنوير أقلية كبيرة العدد إلى حد كاف ، مصممة على أن تحول دون تسلط الكنيسة مرة ثانية على أفكار المتعلمين . وسيكون التاريخ غير ذى قيمة لنا إذا لم يعلمنا أن نكون يقظين حذرين ضد التعصب الطبيعى فى ديانة تقليدية تستغل القوة . إنى أجلك وأقدرك أعظم تقدير ، أيها الأب بندكت ، ولكن يجب أن ابقى كما أنا فولتير .

بندكت : ليغفر الله لك .

فولتير : المغفرة دعاء الجميع .

CHAPTER XVIII

1. Pappas, J. N., *Berthier's* Journal de Trévoux *and the Philosophes*, 122.
2. Helvétius, *De l'Esprit*, Eng. translation, 414.
3. D'Alembert, *Mélanges de littérature, d'histoire, et de philosophie* (1759), in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 3; Frankel, *Faith of Reason*, 7-8.
4. In Wolf, 39.
5. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 27.
6. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 55.
7. *Ibid.*, 54.
8. Taine, *Ancient Regime*, 288.
9. *Ibid.*
10. In Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 122.
11. Morley, *Diderot*, I, 169.
12. Mornet, 52.
13. Meslier, Jean, *Superstition in All Ages, or Last Will and Testament*, 30.
14. *Ibid.*, Sec. CXXXV.
15. CVIII.
16. LXVI, CLXXXII-III, and CLX.
17. CLX.
18. LII.
19. II.
20. XXXII.
21. XC.
22. CLX.
23. XL.
24. XII.
25. CXII.
26. CLXI.
27. CLIII.
28. CXLIX.
29. CLV.
30. Preface, p. 37.
31. CVII.
32. CXLI.
33. CLXVI.
34. CLXII.
35. Preface, pp. 42-43.
36. CCIV.
37. *Ibid.*
38. CLV.
39. Preface, p. 41.
40. In Martin, K., 240.
41. *Ibid.*, 242.
42. 241-42.
43. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 56.
44. La Mettrie, *Man a Machine*, 4.
45. Walt Whitman's formula for war
46. La Mettrie, 99.
47. *Ibid.*, 100.
48. 93.
49. 134.
50. 128.
51. In Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 305.
52. *Ibid.*, 316.
53. La Mettrie, 146.
54. *Ibid.*
55. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 316.
56. La Mettrie, 103.
57. Fellows and Torrey, II, 307.
58. La Mettrie, 122.
59. *Ibid.*, 129.
60. 149.
61. In Hazard, 128.
62. La Mettrie, 92.
63. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 397.
64. La Mettrie, 119; Lange, F. A., *History of Materialism*, II, 86 f.

65. Parton, *Life of Voltaire*, II, 25.
66. Desnoiresterres, IV, 198-200.

CHAPTER XIX

1. Crocker, L. G., *Embattled Philosopher*, 5.
2. *Ibid.*, 8.
3. 38.
4. Diderot, *Pensées philosophiques*, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 264.
5. Crocker, 65.
6. Diderot, *pensée* XXVI.
7. In Crocker, 68.
8. Wilson, A. M., *Diderot: The Testing Years*, 86.
9. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 189; Wilson, A. M., 90.
10. Diderot, *Lettre sur les aveugles*, in *Oeuvres*, 601.
11. *Ibid.*, 608.
12. 629.
13. 631-32.
14. 650.
15. 617-22.
16. Crocker, 102-3.
17. Havens, *Age of Ideas*, 289.
18. Crocker, 77.
19. *Ibid.*, 83.
20. 87.
21. Brunetière, *Évolution des genres dans l'histoire de la littérature* (Paris, 1890), 210, in Wilson, *Diderot*, 169.
22. Diderot, art. "Encyclopedia."
23. Aldis, *Madame Geoffrin*, 91.
24. Hazard, 199.
25. Morley, *Life of Voltaire*, 198.
26. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 316; Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 165.
27. Lévy-Bruhl, *History of Modern Philosophy in France*, 212.
28. Fellows and Torrey, 319.
29. *Ibid.*, 320.
30. Ortega y Gasset, *Toward a Philosophy of History*, 77.
31. Crocker, *Embattled Philos.*, 133.
32. Lough, K., ed., *The* Encyclopédie: *Selected Articles*, 6.
33. Papp[illegible] *Berthier's* Journal de Trévoux, 181.
34. Wilson,
35. *Ibid.*, 163.
36. Pappas, 185.
37. Wilson, 160.
38. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 235; Wilson, 165.
39. Wilson, 169.
40. Becker, C., *Heavenly City of the* [illegible] *Century Philosophers*, 119.
41. Wilson, 283.
42. *Ibid.*, 288.
43. Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 51.
44. Wilson, 288-89.
45. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 175.
46. Wilson, 312.
47. *Ibid.*
48. 358.
49. 339; Crocker, *Embattled Philos.*, 237.
50. Wilson, 339.
51. Crocker, 239.
52. Green, F. C., in Diderot, *Writings on the Theater*, 12.
53. See Hazard, 202, and Naves, 98.
54. In Lough, *Selected Articles*, 180-83.
55. Diderot, art. "Philosophy."
56. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 23.
57. Art. "Philosophy."
58. Art. "Political Authority."
59. *Ibid.*
60. Lough, 43.
61. Morley, *Diderot*, I, 216.
62. *Ibid.*, 172.
63. Article "Privileges."
64. Article "Art."
65. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 5.
66. Diderot, Prospectus, in Havens, 307.
67. Wilson, 136.
68. Grimm, *Correspondance*, VII, 146.
69. Lough, introd., xiv.
70. Art. "Encyclopedia."

CHAPTER XX

1. *Enc. Brit.*, XVII, 614.
2. Cru, *Diderot*, 234.
3. *Ibid.*, 395.
4. Dupee, F. W., *Great French Short Novels*, 8.
5. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 115.
6. *Pensées sur l'interprétation de la nature*, Sec. LVIII, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 276, and Wilson, *Diderot*, 194.
7. Faguet, *Dix-huitième siècle*, 334.
8. Letter of Sept. 2, 1769, to Sophie Volland.
9. Letter of Sept. 11, 1769.
10. Letter of Sept. 2, 1769.
11. Diderot, *Dialogues*, 34-35.
12. *Ibid.*, 43.
13. 53.
14. 57.
15. 69.
16. 79-80.
17. 93.
18. 96.
19. 105.

20. 110.
11. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 312.
12. Crocker, *Embattled Philosopher*, 318.
13. *Ibid.*, 320.
14. *Ibid.*, 409; Crocker, *Age of Crisis*, 124.
15. Letter to Damilaville, 1766, in Morley, *Diderot*, I, 20.
16. Cru, 65.
17. Diderot, *Jacques the Fatalist*, 125.
18. Diderot, *Plan for a University*, in La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 279.
19. *Enc. Brit.*, IV, 4192.
30. Crocker, *Embattled Philos.*, 319.
31. Cru, 417.
32. Grimm, *Correspondance*, 1770, in Diderot, *Oeuvres*, 957-59.
33. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 67.
34. *Ibid.*, 68.
35. These passages are listed in Diderot, *Jacques the Fatalist*, 271-73.
36. *Ibid.*, 8.
37. 166.
38. Crocker, *Embattled Philos.*, 268.
39. *Neveu de Rameau*, in Diderot, *Oeuvres*, 249.
40. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 143 f.
41. *Oeuvres*, 191.
42. G. B. Shaw's phrase.
43. *Oeuvres*, 262, 270.
44. *Ibid.*, 222.
45. 218.
46. 268.
47. 220.
48. *Dialogues*, 119-20.
49. *Ibid.*, 146.
50. 140-41.
51. 154.
52. "Essay on Women," in *Dialogues*, 186.
53. Crocker, *Age of Crisis*, 101.
54. Crocker, *Embattled Philos.*, 340.
55. Crocker, *Age of Crisis*, 209.
56. *Ibid.*, 274.
57. *Neveu de Rameau*, in Crocker, *Age of Crisis*, 209.
58. *Ibid.*, 105.
59. 104.
60. *Supplement to the Voyage of Bougainville*, in *Dialogues*, 157.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 343.
62. Articles "Civil Liberty" and "Representatives."
63. Diderot, *Oeuvres*, Édition Assézat et Tourneux (Paris, 1875-77), IX, 16.
64. *Ibid.*, II, 411, in Morley, *Diderot*, II, 242-43.
65. Cru, 135.
66. Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 62.
67. Havens, *Age of Ideas*, 341.
68. Crocker, *Embattled Philos.*, 398.
69. *Ibid.*, 393.
70. Diderot, *Salons*, I, 1.
71. *Ibid.*, 79.
72. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 130.
73. Diderot, *Salons*, I, 188.
74. Crocker, 176.
75. *Ibid.*, 196.
76. Chambers, F. P., *History of Taste*, 146.
77. *Ibid.*, 140 f.
78. Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 533.
79. *Salons*, I, 418.
80. Morley, *Diderot*, II, 79.
81. Crocker, 19.
82. Cru, 287.
83. Wilson, 273.
84. Crocker, 243.
85. Wilson, 326.
86. Voltaire, *Phil. Dict.*, article "Rhyme."
87. Wilson, 237.
88. Sime, *Lessing*, I, 209.
89. Diderot, *Paradox of Acting*, 14, 18.
90. Cru, 328.
91. *Hamlet*, III, ii.
92. Lee Strasberg, in Diderot, *Paradox of Acting*, introd., *x*.
93. Wordsworth's phrase.
94. Ellis, *The New Spirit*, 56.
95. Hazard, 383.
96. Crocker, *Embattled Philos.*, 232-33.
97. Michelet, V, 408n.
98. Morley, *Diderot*, I, 30.
99. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 73.
100. Taine, *Ancient Regime*, 266.
101. Diderot, *Oeuvres*, 143.
102. Crocker, 26.
103. *Salons*, II, 354.
104. Crocker, 147.
105. *Ibid.*
106. Letter of July 14, 1762.
107. Crocker, 297.
108. *Ibid.*, 213-15.
109. 220.
110. "Regrets sur ma vieille robe de chambre," in *Oeuvres*, 733.
111. Crocker, 301.
112. Morley, I, 262.
113. Crocker, 302.
114. Marmontel, *Memoirs*, I, 360.
115. Morley, *Diderot*, I, 41.
116. Crocker, 292.
117. Wilson, 8.
118. Morley, I, 10.
119. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, ix.
120. Letter to King Stanislas Poniatowski in Aldis, *Madame Geoffrin*, 185.
121. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, vii.

CHAPTER XXI

1. Cumming, Ian, *Helvétius*, 36.
2. *Ibid.*, 57.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
4. Cumming, 137.
5. Parton, *Voltaire*, II, 302.
6. Helvétius, *Treatise on Man* (*De l'Homme*), Vol. II, p. 480.
7. Grimm, *Corresp.*, II, 262.
8. Helvétius, *Treatise on Man*, Section II, Ch. iii.
9. Helvétius, *De l'Esprit*, p. 11.
10. *Ibid.*, in Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 88.
11. Helvétius, *De l'Esprit*, 175, 222, 277.
12. *Treatise on Man*, IV, i.
13. *Ibid.*, III, ii and iv.
14. IV, xxiii.
15. IV, iii and i
16. VI, i.
17. *De l'Esprit*, p. 489.
18. *Treatise*, VII, iv.
19. *Ibid.*, I, iii.
20. II, xxi.
21. I, ix.
22. II, xxii.
23. I, iii.
24. I, x.
25. VII, i.
26. I, ii.
27. VII, i.
28. *De l'Esprit*, p. 174.
29. *Treatise*, IX, xxxi.
30. *Ibid.*, IV, xxi.
31. I, xiv.
32. I, xiii-xiv.
33. VII, xii.
34. VII, iii and iv.
35. Mordecai Grossman in Horowitz, *Claude Helvétius*, p. 18.
36. *Treatise*, V, iii-x.
37. *Ibid.*, VI, viii.
38. V, iii-iv.
39. V, iii.
40. *De l'Esprit*, p. 179; Cumming, 79.
41. *Treatise*, VI, i.
42. *De l'Esprit*, pp. 6, 17.
43. In Martin, K., p. 180.
44. *Treatise*, II, vii.
45. *De l'Esprit*, p. 269.
46. *Ibid.*, 47; Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 95.
47. *De l'Esprit*, 29.
48. *Ibid.*, 184, 144.
49. *Treatise*, IV, ii.
50. Horowitz, p. 100.
51. *Ibid.*, 111.
52. *Treatise*, VI, v and x.
53. *Ibid.*, VI, xv.
54. VI, vii and xi.
55. VIII, iii and v.
56. Brunetière, *Essays in French Literature*, p. 327.
57. Buckle, I, 624n.
58. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 64.
59. Crocker, *Age of Crisis*, 123.
60. In Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 147.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 408.
62. Victor Cousin, *Histoire de la philosophie*, III, 201, in Buckle, I, 624n.
63. Morley, *Diderot*, II, 141.
64. Cumming, 218.
65. Morley, II, 142.
66. Grossman, 169.
67. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
68. Cumming, 139.
69. *De l'Esprit*, 87; Morley, II, 157.
70. D'Alembert, *Éléments de philosophie*, in Cassirer, *Enlightenment*, 4.
71. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 105.
72. Wickwar, *Baron d'Holbach*, 86.
73. *Ibid.*, 59-60, Mornet, *Origines*, 107.
74. Gooch, *Catherine the Great and Other Studies*, 192.
75. Marmontel, *Memoirs*, I, 256.
76. Morley, *Life of Voltaire*, 215.
77. Morley, *Diderot*, II, 193.
78. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 254.
79. Morley, *Diderot*, II, 194.
80. Rousseau, *Confessions*, 139.
81. Robertson, J. M., II, 254.
82. Morley, *Diderot*, II, 215.
83. Wickwar, 22.
84. *Ibid.*, 23, 27.
85. Diderot, letter of May 10, 1759.
86. Marmontel, I, 351.
87. *Ibid.*
88. Wickwar, 39; Burton, *Life of Hume*, II, 220.
89. Gibbon, *Memoirs*, in Mossner, *Life of David Hume*, 485.
90. Priestley, *Memoirs*, I, 74, in Buckle, I, 621n.
91. Wickwar, 25.
92. *Ibid.*, 38.
93. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 169.
94. *Ibid.*, 130.
95. Wickwar, 109.
96. Robertson, J. M., II, 272.
97. Grimm, *Corresp.*, Aug. 10, 1789.
98. *Ibid.*
99. Wickwar, 86.
100. D'Holbach, *Le Christianisme dévoilé*, in Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 193.
101. Wickwar, 126.
102. *Ibid.*, 135.
103. 127.

104. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. 4.
105. Morley, *Diderot*, II, p. 159.
106. D'Holbach, *System of Nature*, preface, pp. viii-x.
107. *Ibid.*, Vol. I, Ch. ii.
108. I, i.
109. I, ii and viii.
110. I, xiii.
111. I, ix.
112. Morley, *Diderot*, II, p. 74.
113. D'Holbach, *System*, I, Ch. xi.
114. *Ibid.*, I, i.
115. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, p. 16.
116. Martin, K., 175.
117. D'Holbach, *System*, II, Ch. vi.
118. *Ibid.*, II, v.
119. I, xiii.
120. *Ibid.*
121. II, iv.
122. II, v.
123. II, xii.
124. *System*, appendix, Ch. xxiii.
125. *System*, I, xiii.
126. *Ibid.*, I, vii.
127. D'Holbach, *Morale universelle*, Vol. I, Ch. i, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, p. 361.
128. *Ibid.*, 363.
129. *System of Nature*, I, xv.
130. *Ibid.*, appendix, xix.
131. *System*, I, xiv.
132. D'Holbach, *Politique naturelle*, Part IV, Ch. xxvii, in Wickwar, 182.
133. *Éthocratie*, Ch. x, in Hazard, 264.
134. *Politique naturelle*, Part VI, Ch. xiv.
135. Cumming, 112.
136. *Politique naturelle*, in Martin, K., 188.
137. *Ibid.*, 189.
138. Wickwar, 178.
139. Martin, K., 189.
140. Wickwar, 178.
141. *System of Nature*, Vol. I, Ch. xiv.
142. *Politique naturelle*, Part VI, Ch. xxxix, in Wickwar, 212-13.
143. *Système social*, Vol. II, 151, in Cobban, *In Search of Humanity*, 166.
144. *System of Nature*, I, xiv.
145. D'Holbach, *Contagion sacrée*, 145, in Wickwar, 141.
146. In Mornet, *Origines*, 103.
147. *System of Nature*, I, ix.
148. *Système social*, II, ii, in Cassirer, *The Question of Jean-Jacques Rousseau*, 68.
149. *Politique naturelle*, Part I, Ch. vi, in Frankel, *The Faith of Reason*, 71.
150. Mornet, 103.
151. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 331.
152. *Phil. Dict.*, art. "God."
153. Wickwar, 89.
154. Morley, *Diderot*, 183.
155. Faguet, *Literary History of France*, 497.
156. Wickwar, 211.
157. Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Age of Reason*, 213.
158. Wickwar, 113.

CHAPTER XXII

1. This is what Faguet forgot in one of the most biased essays in French literature; see, e.g., *Dix-huitième Siècle*, 210.
2. Wade, *Studies in Voltaire*, 67.
3. *Phil. Dict.*, art. "Emblems."
4. Noyes, *Voltaire*, 487.
5. *Phil. Dict.*, art. "God."
6. Desnoiresterres, V, 167.
7. Pomeau, *Religion de Voltaire*, 421.
8. Voltaire, *Works*, VIIb, 82.
9. Mornet, *Origines*, 82; Torrey, *Spirit of Voltaire*, 254, 283.
10. *Phil. Dict.*, in *Works*, VIIa, 62.
11. In Pomeau, 400, and Crocker, *Age of Crisis*, 385.
12. Parton, *Voltaire*, II, 432.
13. Pomeau, 159, 183.
14. Lévy-Bruhl, 165-86.
15. Letter of May 20, 1738, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 115.
16. Voltaire, *Notebooks*, I, 402.
17. *Traité de métaphysique*, Ch. ix.
18. *La Loi naturelle*, in *Works*, XIb, 25-26.
19. *Ibid.*; Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 424.
20. Bottiglia, *Voltaire's Candide*, 108; Mowat, *Age of Reason*, 36.
21. Letter of Oct., 1753, to d'Alembert, in Desnoiresterres, V, 163.
22. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 87.
23. Letters of May 24 and Dec. 22, 1757.
24. Voltaire, *Oeuvres*, ed. Moland, XXXIX, 363. See also Pomeau, 301; Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 53.
25. Naves, 54-57.
26. *Ibid.*, 61-63; Pomeau, 302.
27. Campbell, *The Jesuits*, 453.
28. Nicolson, H., *Age of Reason*, 81.
29. In Smith, P., II, 510.
30. Pope, *Essay on Man*.
31. Parton, II, 215.
32. Voltaire, *Romans*, I, 165, 169.
33. *Ibid.*, 233
34. 237.
35. 257.
36. Bottiglia, 249
37. Pomeau, 318.
38. Martin, H., *Histoire de France*, IX, 127
39. Pomeau, 319-21.
40. Calvin, *Institutes of the Christian Religion*, Eng. tr., I, 360.
41. Parton, II, 356.
42. Desnoiresterres, VI, 160.

CHAPTER XXIII

1. Pomeau, 300.
2. Mornet, *Origines*, 206.
3. Gauchat, *Lettres critiques*, XV, 224, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 313.
4. Pomeau, 338.
5. Voltaire, letter of Dec. 8, 1776.
6. Palmer, R.R., *Catholics and Unbelievers*, 96.
7. *Ibid.*, 142.
8. Our account follows John H. Pappas, *Berthier's* Journal de Trévoux *and the Philosophes.*
9. *Ibid.*, 38.
10. 23, 137.
11. 48.
12. 128.
13. 48.
14. 205.
15. *Ibid.*
16. 184.
17. 186.
18. 110.
19. 113.
20. 119.
21. 122.
22. 131.
23. Desnoiresterres, III, 389.
24. Hazard, *Eighteenth Century*, 78.
25. Cornou, *Élie Fréron*, in Martin, K., 96.
26. Crocker, *Embattled Philosopher*, 240.
27. *Ibid.*
28. Brandes, II, 205.
29. *Ibid.*, 206.
30. Noyes, [illegible] *re*, 51.
31. *Ibid.*, 71.
32. Lanfrey, [illegible]
33. In Mass[illegible] *a Religion de Rousseau*, III, 31.
34. Crocker, [illegible] *of Crisis*, 382.
35. Lichtenber[illegible] A., *Le Socialisme et la Révolution* [illegible]*ançaise*, 60.
36. Crocker, *Emb. Philosopher*, 305.
37. Toth, *Woman and Rococo*, 224, 234.
38. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 305.
39. Toth, 234.
40. Letter of Jan. 10, 1758, in Naves, 53.
41. *Oeuvres*, 231, 239-40.
42. *Ibid.*, 235, etc.
43. Grimm, II, 373.
44. Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 7.
45. Parton, II, 334.
46. Pappas, 85.
47. *Ibid.*, 114.
48. 117.
49. Fülop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 374.
50. Gay, *Voltaire's Politics*, 310.
51. Pappas, 119.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 414.
53. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 201.
54. Lanfrey, 267; Campbell, *The Jesuits*, 482.
55. *Ibid.*, 483.
56. *Catholic Encyclopedia*, XIV, 98a; Martin, H., XVI, 211; Ranke, *History of the Popes*, II, 447.
57. Campbell, 487.
58. *Ibid.*, 485.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 251.
60. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 236.
61. Desnoiresterres, VI, 269.
62. Bertrand, *D'Alembert*, 132.
63. Lanfrey, 269.
64. *Ibid.*, 270.
65. Pappas, 135.
66. Pomeau, 317.
67. Gilbert, *Prince de Ligne*, 138; Carlyle, *Friedrich the Second*, VII, 470.
68. Campbell, *The Jesuits*, 639.
69. La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 143, 149.
70. Cumming, *Helvétius*, 160.
71. La Fontainerie, 80.
72. *Ibid.*, 117.
73. *Ibid.*, 39, Desnoiresterres, VI, 239.
74. Letter of Apr. 1, 1766.
75. Lanson, *Voltaire*, 183.
76. Smith, P., *Modern Culture*, II, [illegible]
77. La Fontainerie, 240.
78. Sée, H., *Les idées politiques en France*, 142.
79. Mornet, *Origines*, 177.
80. Lacroix, *Eighteenth Century*, 265.
81. Helvétius, *Treatise on Man*, Vol. II, p. 402.
82. Brunetière, *Manual of French Literature*, 298.
83. Hazard, 369.
84. Bury, *Idea of Progress*, 149.
85. Smith, P., II, 614.
86. D'Alembert, *Éléments de la philosophie*, Ch. iv, in Hazard, 166.
87. Hazard, 169.
88. Voltaire, *Works*, XIXa, 89 f.
89. Hazard, 250.
90. Rousseau, *Sur le gouvernement de Pologne*, in Black, *Art of History*, 20.
91. Source lost.
92. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 212.
93. Bury, *Idea of Progress*, 203; Parton, II, 433.
94. Hazard, 126.

43. "Essay on toleration," in Voltaire, *Selected Works*, 78; Pomeau, 325.
44. Our account is based upon A. Coquerel's *Jean Calas et sa famille* (Paris, 1858), as summarized in Parton, II, 367.
45. Letter of Mar. 1, 1765.
46. *Ibid.*
47. Text in Parton, II, 356.
48. Letter of Mar. 29, 1762.
49. Letter of Sept., 1762, in Gay, *Voltaire's Politics*, 277.
50. Brandes, *Voltaire*, II, 196.
51. Voltaire, *Selected Works*, 86.
52. *Ibid.*, 113.
53. Parton, II, 433.
54. Mornet, *Origines*, 112.
55. *Selected Works*, 88.
56. *Ibid.*, 100, 108.
57. Voltaire, *Works*, IIb, 277.
58. Brandes, II, 214.
59. Desnoiresterres, VII, 469.
60. Parton, II, 397.
61. *Ibid.*
62. Desnoiresterres, VI, 493.
63. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 129.
64. Letter of Frederick the Great, Aug. 7, 1766.
65. Letter of Frederick, Sept., 1766, in Brandes, II, 231.
66. Diderot, *Oeuvres*, 220.
67. Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 260.
68. In Brandes, II, 232.
69. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, Letter 7584.
70. Pomeau, 311.
71. *Phil. Dict.*, art. "Superstition."
72. Letter of June 3, 1760.
73. Letter of Dec. 6, 1757.
74. Pomeau, 213; Bertrand, *D'Alembert*, 118.
75. Voltaire and Frederick, *Letters*, 283.
76. Parton, II, 285.
77. Letter to Damilaville, Apr. 5, 1765.
78. Frederick to Voltaire, Sept. 9, 1739.
79. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 198-200.
80. *Selected Works*, 59.
81. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
82. J. Gaberel in Parton, II, 428.
83. Luke xxi, 27-32.
84. *Questions of Zapata*, No. 58, in *Selected Works*, 34.
85. *Ibid.*, Nos. 65-66.
86. *Ibid.*, No. 66.
87. Parton, 286.
88. Letter of June 4, 1767.
89. *New Camb. Mod. History*, VII, 152.
90. *Phil. Dict.*, art. "God."
91. Letter of Nov. 28, 1752.
92. *Oeuvres complètes*, XLI, 570, in Torrey, *Spirit of Voltaire*, 279.
93. *Phil. Dict.*, art. "Sin."
94. Pomeau, 373.
95. *Works*, Ib, 139.
96. *Phil. Dict.*, art. "Miracles."
97. Pomeau, 348.
98. *Ibid.*, 374.
99. *Phil. Dict.*, art. "Climate."
100. Art. "Grace."
101. *Profession de foi des théistes*, in Black, *Art of History*, 57.
102. *Works*, XIXa, 228.
103. *Ibid.*, 238.
104. *Traité de métaphysique.*
105. Crocker, *Age of Crisis*, 385.
106. *Ibid.*, 190; *cf. Phil. Dict.*, art. "Atheism," and art. "God," Sec. v.
107. Art. "Hell."
108. Art. "Fraud."
109. Art. "Morality."
110. Voltaire, *The Ignorant Philosopher*, Secs. II-III.
111. *Ibid.*, III-IV.
112. XIII.
113. XIV.
114. XVII, XIX.
115. XX.
116. XXIV.
117. LI.
118. *Works*, IIa, 312-16.
119. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 304.
120. Noyes, *Voltaire*, 555; Pomeau, 411.
121. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXVI, 199, in Pomeau, 438.
122. Art. "Curate."
123. Pomeau, 439.
124. *Essai sur les moeurs*, Ch. cxxxix, in Ducros, *French Society in the 18th Century*, 199.
125. Desnoiresterres, VI, 118.
126. *Ibid.*, 63-64; Pomeau, 431.
127. Desnoiresterres, VII, 237.
128. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 225.
129. Desnoiresterres, VII, 228.
130. *Ibid.*, 287.
131. Pomeau, 390.
132. Diderot, *Letters to Sophie Volland*, I, 29, in Pomeau, 332.
133. Grimm, *Corresp.*, VII, 51.
134. Walpole, H., in Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 175; *cf.* Mornet, *Origines*, 139, and Morley, *Life of Voltaire*, 88.
135. Letter to Mme. du Deffand, June 1, 1770.
136. *Ignorant Philosopher*, Sec. XXIV.
137. Mark ix, 45-48; Matt. xiii, 40-42; Luke xvi, 23-26.

95. Buckle, I, 620.
96. Parton, II, 507.
97. Lecky, *History of . . . Rationalism*, I, 125.
98. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 165.
99. Lecky, *History of England*, V, 336.
100. Mornet, *Origines*, 214-16.
101. La Harpe in Taine, *Ancient Regime*, 400.
102. Walpole, H., letter of Oct. 19, 1765.
103. *Id.*, letter of Nov. 19, 1765.
104. Mornet, 269.
105. *Ibid.*
106. Toth, *Woman and Rococo*, 234.
107. Mornet, 272.
108. Willey, *Eighteenth-Century Background*, 192.
109. Taine, *Ancient Regime*, 293.
110. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 278.
111. Montalembert, *Monks of the West*, I, 86.
112. Mornet, 141.
113. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 237.
114. Letter of Nov. 9, 1764.
115. Wilson, *Diderot*, 286; Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 17.
116. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 133.
117. Condorcet, *Progrès de l'esprit humain*, 251.
118. Mornet, 125.
119. *Ibid.*, 273.
120. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 411, 529.
121. Frederick to Voltaire, May 5, 1767.
122. Grimm, *Corresp.*, Sept. 15, 1767.
123. *Dict. Phil.*, art. "God."

EPILOGUE

1. Crocker, *Embattled Philosopher*, 407.
2. Sade, Marquis de, *Justine* (1791), *Juliette* (1792), *Philosophie dans le boudoir* (1793).
3. Musset, Alfred de, *Confessions of a Child of the Century*, 21 f.
4. Chaponnière, *Geneva*, 231.
5. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. IV; art. "Polytheism."